كتاب القلق

فرناندو
پِسُوَّا

الطبعة الكاملة

ترجمة
تحسين الخطيب

Fernando Pessoa

فرناندو بِسُوًا

كتاب القلق

(الطبعة الكاملة)

ترجمة: **تحسين الخطيب**

مراجعة: **أحمد خريس**

PQ9261 .P417 Z462125 2022
Pessoa, Fernando, 1888- 1935
كتاب القلق / تأليف فرناندو بِسُوًّا ؛ ترجمة تحسين الخطيب ؛ مراجعة أحمد خريس. - ط. 1. - أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2022.
531 ص. ؛ 24 سم.
ترجمة كتاب : Livro do desassossego
تدمك: 978-9948-04-853-4
1- Pessoa, Fernando، 1888 – 1935. 2- الشعر البرتغالي- دواوين وقصائد- القرن 20. أ- خطيب، تحسين. ب- خريس، أحمد. ج- العنوان.

يتضمن الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي (ترجمة عن البرتغالية):
Livro do desassossego
by Fernando Pessoa
From the edition of Jerónimo Pizzaro © 2013
Cover design by Peter Mendelsund © 2017
Translated into Arabic from the English translation of Margaret Jull Costa © 2017 first published by New Directions Books
Manuscript photographs: Arquivo Digital do "*Livro do Desassossego*", Centro de Literatura Portuguesa da Universidade de Coimbra

---

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام – وزارة الثقافة والشباب– رقم الطلب MC-03-01-1113743 .
طبع في المتحدة للطباعة والنشر– أبوظبي– 80022220





كتاب القلق

(الطبعة الكاملة)

المحتويات

مقدمة الطّبعة الإنكليزيّة

تنقسمُ حياة بِسُوًّا بدقَّةٍ إلى أطوارٍ ثلاثة. فلقد كتبَ في رسالة إلى المجلّة البريطانيّة لعلوم الفلَك، مؤرَّخة في 8 فبراير 1918، أنَّهُ لا يتذكَّر من حياته، بجلاء مُطلَق، سوى تاريخَيْن: 13 يوليو 1893؛ تاريخ موت أبيه بالسلِّ، وهو لمَّا يُجاوِز الخامسة من عمره بَعْدُ، و30 ديسمبر 1892؛ التَّاريخ الذي تزوَّجت فيه أُمُّه مرَّة أخرى، الأمر الذي يعني أنَّ العائلة سترحل، بعد فترة وجيزة، إلى دُوربن، حيث كان زوج أُمِّه قد عُيِّن قُنصلاً للبرتغال هُنَاك. ويذكر في الرِّسالة ذاتِها تاريخاً ثالثاً أيضاً: 20 أغسطس 1905؛ التَّاريخ الذي غادر فيه جنوب إفريقيا عائداً إلى لشبونة دون رجعة.

انطوى الطَّور الأوَّل الوجيز على خسارتَيْن: موت أبيه وشقيقه الأصغر، وربَّما خسارة ثالثة أيضاً؛ خسارة معشوقته لشبونة. وسرعان ما بات بِسُوًّا يتكلَّمُ الإنكليزيَّة والفرنسية بطلاقة، في أثناء الطَّور الثَّاني، على الرَّغم من أنَّه لم يكن يعرف حين وصل إلى دوربن سوى البرتغاليَّة فحسب.

كان من الواضح أنَّه لم يكُن تلميذاً عادياً، فلقد وصفه أحد زملائه التَّلاميذ حين سُئِل عن ذلك، بعد بضع سنين قائلاً: «تلميذٌ صغير ذو رأس كبير. كان ألمعياً بارعاً ولكنَّهُ مجنونٌ إلى حدٍّ بعيد». وبعد ستِّ سنين من وصوله إلى دوربن، في العام 1902، فاز بالجائزة الأولى على مقالة كتبها عن المؤرِّخ البريطاني توماس بابنغتن ماكوالي. ولقد بدا، دون ريب، أنَّه يُبدِّدُ أوقات فراغه في القراءة والكتابة، وكان في ذلك الوقت قد شرع في ابتكار أَنَوَاته الأخرى المُتخيَّلة، أو «أنداده heteronyms»، مثلما وصفها في فترة لاحقة، التي بات يُشتهر بها في الوقت الرَّاهن، مؤلِّفاً قصصاً وقصائدَ موقَّعة من لدنه بأسماء مِن قَبيل: شوڤالييه دوپا[1] ، وديڤيد ميريك، وتشارلز روبرت أنون، وهوراس جيمز فيبر،

---

(1) يشير الكاتب الأمريكي/البرتغالي ريتشارد زينيث؛ أحد القلائل الذي عكفوا طويلاً على دراسة أرشيف بِسُوًّا المحفوظ بالمكتبة الوطنيّة في البرتغال، في كتاب السِّيرة الأحدث (والأضخم، في أيِّ لغةٍ، على الإطلاق: زهاء 1000 صفحة)، الصّادر بالإنكليزيّة، في الولايات المتّحدة، بتاريخ 2021/7/20، تحت عنوان «بِسُوًّا: سيرة»، إلى أنَّ فرناندو بِسُوًّا كان قد خطَّ، وهو في السّادسة من عمره، في كتاب أهدي إلى أمّه في عيد ميلادها، اسمَ أوّل أنداده، شوڤالييه دوپا Chevalier de Pas، وهو فارسٌ مُتخيّل وقّع بِسُوًّا باسمه رسائلَ كان يكتبها إلى نَفْسه في ذلك الوقت. وتجدر الإشارة إلى أنَّ الاسم في حدِّ ذاته يعني، في الفرنسيّة، حرفياً: الفارس ذا الخطوة، أو شيئاً من هذا القَبِيل. (المترجم)

وألكسندر سيرتش، وكثيرٍ غيرها. عدَّدَ خيرونيمو پيسارُّو وپاتريسيو فيرَّاري، في كتابهما الأحدث، «**أنا أنثولوجيا** Eu sou uma antologia»، 136 نِداً، ذاكرين سيرة كلِّ نِدٍّ، ونماذجَ من الأعمال التي ألَّفوها.

كتب پِسُوَّا عن أنداده، في العام 1928، قائلاً: «إنَّهم مخلوقات تمتلك حياةً من نوع ما خاصَّةً بهم، ومشاعرَ لا أمتلكها وآراء لا أقبلها. ولكنَّ كتاباتهم، على الرَّغم من أنَّها ليست كتاباتي، يصادف أيضاً أن تكون كتاباتي».

بدأ الطَّور الثَّالث من حياة پِسُوَّا حين عاد وحيداً، وهو في السَّابعة عشرة من عمره إلى لشبونة، ولم يَرجع إلى جنوب إفريقيا قَطُّ. كانت عودته بزعم أنَّه سوف يلتحق بالجامعة. ولكنَّه، لعدَّة أسباب -من بينها، اعتلال صحَّته وإضراب الطَّلبة- تخلَّى عن دراسته في العام 1907، وغدا زائراً منتظماً للمكتبة الوطنيَّة، مُستأنِفاً عادته اليوميَّة في القراءة النَّهمة للفلسفة، وعلم الاجتماع، والتَّاريخ، والأدب البرتغاليِّ على وجه الخصوص. عاش في البدء مع عمَّاته، ثَّم في فترة لاحقة، أي منذ العام 1909 فصاعداً، في غرف مستأجرة. تركت لَهُ جدَّتُه لأُمِّه في العام 1907 ميراثاً صغيراً، فاستخدم ذلك المال في العام 1909 لشراء مطبعة لِـ «إمْپْرِيْزَا إِيْبِيْش»[2]؛ دارِ النَّشر التي سوف يشرع في تأسيسها بعد بضعة شهور. ولكنَّ الدَّار أُغلقتْ في العام 1910، دون أن تنشر أيَّ كتاب قَطُّ[3]. ثُمَّ باشر پِسُوَّا، منذ العام 1912 فصاعداً، في نشر مقالاته في مجلَّات عدَّة، ولكنَّهُ سرعان ما غدا -منذ العام 1915 فصاعداً، وقت تأسيس

---

(2) Empreza Íbis، والاسم الكامل لهذه الدَّار هُوَ: Empreza Íbis—Typographica e Editora؛ ويعني، حرفياً: **مؤسسة أبو منجل للطِّباعة والنَّشر**؛ إشارة إلى الطَّائر الذي يعرَف بهذا الاسم. ولقد اتَّخذ پِسُوَّا نقشاً لهذا الطَّائر شعاراً للدَّار أيضاً. ويشير زينيث، في كتاب السِّيرة الذي أشرت إليه آنفاً، إلى أنَّ پِسُوَّا حين اختار اسم هذا الطَّائر، كانت في ذهنه شواطئ النِّيل، في مصر القديمة، حيث الإله تحوت Thoth (أو: تُوت)، كاتبُ الآلهة الأخرى ومخترع الكتابة الذي عادة ما يُصوَّر بجسم بشريٍّ ورأس طائر أبي منجل، الأمر الذي يجعل هذا الطَّائر رمزاً لفنِّ الكتابة المُقدَّس. (المترجم)

(3) حيَّرت هذه المعلومة دارسي پِسُوَّا كثيراً، مثلما يقول زينيث في كتاب السِّيرة آنف الذِّكر، إذ لا دليل ملموساً على أنَّها قد طبعت أيَّ كتاب، مثلما تذكر جول كوستا هُنا. ولكنَّ زينيث يشير إلى أنَّ أحد الباحثين واسمه خُوِي شِيْنَا Rui Sena قد توصَّل في العام 2010 إلى أنَّ هذه المعلومة ليست دقيقة تماماً، فقد عملت الدَّار طيلة ثلاثة شهور متواصلة في العام 1910 على طباعة جريدة أسبوعيَّة تصدر في بلدة لُولِي Loulé، في اَلْغَارْفِهْ Algarve [الكلمة أصلها عربيّ وتعني «الغرب»]، ثُمَّ تُشحَن النُّسخ بالقطار. وتوصَّلت الباحثة ريتا پالميريم Rita Palmeirim إلى أنَّ الدَّار كانت قد طبعت العدد الأوَّل من مجلَّة A Mosca (= الذُّبابة)، الصادر في 16 مارس 1910، وعدَّة أعداد من مجلَّة A Comédia (= الكوميديا)، وهما مجلَّتان مجهولتان، لم تُعمِّرا طويلاً، كانتا تصدران في لشبونة. (المترجم)

المجلَّة الأدبيَّة «أُورفيو»[4]، التي أصدرها رفقةَ مجموعة من الفنَّانين والشُّعراء تضمُّ ألماذا نيغريروش Almada Negreiros وماريو ذا سَا-كارنيرو Mario de Sá-Carneiro – جزءاً من الطَّليعة الأدبيَّة في لشبونة، ومنخرطاً في عدَّة حركات أدبيَّة، لم تُعمَّر طويلاً، كـ «التَّقاطعيَّة Intersectionism»[5] و«الحِسَّانيَّة Sensationism»[6]. وكان پِسُوَّا، بالإضافة إلى عمله مترجماً مستقلًّا للوثائق والمراسلات التِّجارية من الإنكليزيَّة والفرنسيَّة، قد نشر في عدَّة مجلَّات وجرائد، وترجمَ رواية ناثانييل هوثورن «الحرف القرمزي»، وقصصاً قصيرة لِأُوْ هنري، وقصائد لِإدغار ألآن پُو، علاوة على استمراره بالكتابة، كثيراً، في جميع الأنواع الأدبيَّة. لم يُنشَر من شعره ونثره إلَّا النَّزر اليسير في أثناء حياته: ديوان «رسالةٌ Mensagem»، وهو مجرَّد ديوان صغير من قصائد كتبها بالبرتغاليَّة، وأربعة كراريس شعريَّة كتبها بالإنكليزيَّة. ولكنَّهُ خلَّف وراءه حين مات في العام 1935، وهو في السَّابعة والأربعين، الصَّناديقَ الذَّائعة الصِّيت (ثمَّة صندوقان على الأقل) المكدَّسة بالأوراق المكتوبة -نحو ثلاثين ألف قُصاصة- فلم يُعرَف إلَّا حينئذٍ فحسبُ بوصفه ذلك العبقريَّ غزير الإنتاج، والفضل عائدٌ إلى أصدقائه وعديد الدَّارسين الذين أفنوا سنواتٍ، مُذَّاك، ينقِّبون في ذلك الأرشيف.

عاش پِسُوَّا ليكتُب ويرقن ويخربش على أيِّ شيء يقع بين يديه: القصاصات الورقيَّة، والمغلَّفات، والمطويَّات الدعائيَّة، والنشرات الإعلانيَّة، وظهور صفحات الرَّسائل التِّجاريَّة... إلخ. كما أنَّهُ كتب في جميع الأنواع الأدبيَّة أو كاد: الشِّعر، والنَّثر، والمسرح، والفلسفة، والنَّقد، والنَّظريَّة السياسيَّة، علاوة على اهتمامه العميق بالتَّنجيم، والفلسفة، وعلم الفلك. ولقد خطَّ الطَّوالع، لا لنفسه فحسب، وإنَّما لأصدقائه أيضاً، وكذلك لكثير من الكتَّاب الموتى والشخصيَّات التَّاريخيَّة، من بينهم شكسبير، وأوسكار وايلد، وروبسپيير[7]، بالإضافة إلى أنداده heteronyms، وهو مصطلح فضَّله على مصطلح «الاسم الأدبي/ المستعار pseudonym»، لأنَّهُ يصف، على نحو أدق، استقلاليتَهم الأسلوبيَّة والفكريَّة عنه هُوَ الذي أوجدهم، وبعضهم عن بعض؛ فلقد

---

(4) Orpheu: المقابل البرتغالي لـ «أورفيوس»، الأسطورة الإغريقيَّة. (المترجم)

(5) التي تتقاطع مع الأنواع الأدبية الأخرى، فتكون قادرة على استيعاب جميع الفنون، ومحو كلِّ ما سواها. (المترجم)

(6) يذكر زينيث، في الفصل الحادي والثَّلاثين من كتابه آنف الذِّكر، أنَّ پِسُوَّا قد صاغ بيان هذه الحركة (Sensacionismo، في البرتغاليَّة) التي تنادي بأن تكون الأحاسيس هي محور الإبداع الفنيّ، على ظهر صفحتَي القصيدتَيْن 24 و25 من كتابه «راعي القطيع» المؤرَّختَيْن في 13 مارس 1914. (المترجم)

(7) Robespierre: محام ورجل دولة فرنسيٌّ، ذاع صيته لمشاركته الفاعلة في الثَّورة الفرنسيَّة. (المترجم)

منحهم جميعاً سِيَراً ذاتيَّة مُعقَّدة، وامتلكوا أساليبهم وفلسفاتهم المميَّزة. ويتفاعلُ هؤلاء الأنداد، في بعض الأحيان، بعضهم مع بعض، حتَّى إنَّ بعضاً منهم ينتقد أعمال بعضهم الآخر، أو يعمد بعضٌ منهم إلى ترجمة أعمال بعضهم الآخر. وكانت ثلةٌ من كُتَّاب بِسُوَّا المُتخيَّلين مُجرَّد صور وصفيَّة، وكتب نفرٌ منهم بالإنكليزيَّة والفرنسيَّة، بَيْدَ أنَّ أنداده الثَّلاثة الرَّئيسين: ألبيرتو كآيْرُو، وريكاردو خَايِشْ، وألْفَر دو كامپوش [8] لم يكتبوا إلَّا بالبرتغاليَّة، وأنتج كلٌّ واحد منهم مدوَّنة أعمال في مُنتهَى المتانة والقوَّة.

ولهذا «الكتاب» أيضاً غيرُ مؤلِّف، وهو لم يكتمل بتاتاً، ولم يُوضَع في أيِّ نسَقٍ قَط، فظلَّ شَذْرِياً دائماً. كان ڤِسِنْتِه غِيْدِش أوَّل «مؤلِّفيه»، الذي كتب قطعاً نثريَّة شِبْه-رمزيَّة كي تُدرَج في شيءٍ كان بِسُوَّا قد أطلق عليه، منذ بداية العام 1913، «**كتاب القلَق**». وَصفتْ هذه النُّصوص في الغالب حالات ذهنيَّة معيَّنة، أو مناظر طبيعيَّة مُتخيَّلة، أو أسدتِ النُّصحَ إلى الحالمين المحتَملين أو حتَّى إلى المتزوِّجات التَّعيسات (وهو موضوع بدا بِسُوَّا العازب، للوهلة الأولى، لا يعرف عنه أيَّ شيء على الإطلاق) أو إلى أولئك الذين فقدوا مِثْلَهُ إيمانَهم الدِّينيَّ. ولكنْ يبدو أنَّ الكتاب قد ضلَّ طريقَهُ، في نحو العام 1920، فنسي بِسُوَّا أمرَ غيدش و«**كتابَ القلق**». بعدَها يأخذ الكتاب، في العام 1929، منحىً مختلفاً بمؤلِّف آخَر، هو برناردو سوارش؛ كاتب الحسابات المتواضع الذي يعمل بمكتب في وسط مدينة لشبونة، ويقضي أوقات فراغه يكتب «سيرة شخص لم يُوجَد على الإطلاق». وصف بِسُوَّا سوارش بأنَّه ليس إلَّا «شِبْهُ نِدٍّ semi-heteronym»، قائلاً: «على الرَّغم من أنَّ شخصيَّته ليستْ شخصيَّتي، فإنَّها لا تختلف عن شخصيَّتي، ولكنَّها بالأحرى مجرَّد تشويه بسيط لها. إنَّه أنا ناقصاً المنطقَ والانفعال الوجدانيَّ»[9].

لقد شعر بِسُوَّا أنَّ سوارش كان المؤلِّف المثاليَّ، حتَّى إنَّه وضع خُطَّة لما سوف يفعله بتلك الشَّذرات:

ولا بُدَّ أن يُنظَّم الكتاب وفقَ انتخابٍ صارم، بِقَدْر المستطاع، للنُّصوص الموجودة،

(8) هكذا تلفظ هذه الأسماء في البرتغاليَّة الأوروبيَّة، وليس كما شاع لفظها في الثقافة العربيَّة؛ فهو «كآيْرُو Caeiro» وليس «كاييرو»؛ وخَايِشْ Reis» وليس رِيِّس؛ و«ألْفَر Alvaro»، وليس ألفارو. (المترجم)

(9) وذلك في رسالة بعثها في 13 يناير 1935 إلى الشَّاعر والنَّاقد أدولفو كاشياس مونتيرو Monteiro. (المترجم)

مع تهيئة أيِّ نصوص قديمة كي تغدو متوائمة مع سيكولوجيَّة برناردو سوارش، مثلما تتجلَّى في هذه الأوقات. ولا بُدَّ، بمعزل عن هذه المسألة، القيام بمراجعة عامَّة للأسلوب، ولكن دون فقدان النَّبرة الشخصيَّة أو المنطق المنحرف، غير المتماسك، الذي يميِّزها.

ولم يشرع پِسُوَّا قَطُّ في عمليَّة الانتخاب الصَّارم والتَّهيئة تلك. وبذلك، ظلَّ «الكتاب» عملاً في طَوْر التَّطوُّر إلى الأبد. ولم تظهر الشَّذرات حقيقةً في هيئة كتاب بالبرتغاليَّة، رغم نَشر بعضها في المجلَّات وپِسُوَّا حيٌّ، إلَّا عامَ 1982، أي بعد 47 عاماً من موته. والفضل في ذلك يعود إلى ماريَّا أليبتي غالوس، وتريزا سوبراو كونيا، وجاسينتو ذو پرادو كويلو الذين فكّوا شفرة كتابة پِسُوَّا التي تكاد تكون عصيَّة على القراءة، ووضعوا النُّصوص (بعضها مؤرَّخ، ومعظمها من دون تاريخ) ضمن ترتيب متناسق. ولذلك كان لا بُدَّ أن تكون كلُّ طبعة برتغاليَّة لاحقة مختلفةً، وكلُّ ترجمة أيضاً، ضامةً العديد من النصوص ذاتها، ولكن بترتيب مختلف دائماً. وهذه الطبعة -التي وضعها خيرونيمو پيسارُّو؛ الباحث المتخصِّص في أعمال پِسُوَّا- تقترحُ أن نقرأ «كتاب القلَق»، على الشَّاكلة التي تطوَّر بها، دون خلط النُّصوص التي تنتمي إلى مرحلة غيدش مع تلك التي تنتمي إلى مرحلة سوارش. يقول پيسارُّو: إنَّ «كتاب القلَق» كتابان مختلفان تماماً، تفصل بينهما عشر سنوات، ولم «يكتشف» پِسُوَّا لشبونة إلَّا في الكتاب الثَّاني فحسب. يقطن مؤلِّف الكتاب الأوَّل كوناً غامضاً يكاد يكون طيفياً، في حين يحتضن الكتاب الثَّاني لشبونة ويحتفي بها: «آهِ، لشبونة، يا موطني!». [252]

ما الذي يجعل هذا الكتاب ثرياً ومُجزياً؟ إنَّه، في النِّهاية، «يوميَّات» كاتب أو كُتَّاب، طافح بمشاعر القلَق الوجوديِّ والاغتراب؛ ويمكن للفظة «desassossego»، التي في العنوان، أن تُترجَم على وجوه مختلفة: «Turmoil/Unease/Unrest/Anxiety/Disquiet» (10)، ولكنَّ معظم القرَّاء يجدون في هذه النُّصوص المتباينة مصدراً للرَّاحة، وحتَّى للبهجة. وأعتقدُ أنَّ هذا عائدٌ كثيراً إلى أنَّ المرء يشعر بالمواساة حين يعثر على تلك اللَّحظات، وتلك الحالات الذِّهنيَّة

(10) وتجمع لفظة «القلَق» هذه المفردات جميعاً، بدرجاتها المتفاوتة؛ وهي الأقرب في معناها إلى لفظة desassossego البرتغاليَّة، ولهذا آثرتُ ترجمة العنوان بـ «كتاب القلَق». (المترجم)

الموصوفة على نحو عاطفيٍّ، عبر نثرٍ بارع نادر الوجود. والشَّيء الذي أُحبُّه في هذا الكتاب الذِّهنيِّ على نحو جليٍّ هُو التَّفاصيل المحسوسة، كمشهد الشَّارع هذا:

> التّرامات تهدرُ وتُقرقع حول أطراف السَّاحة، كعُلب ثقابٍ كبيرة، صفراءَ، متحرِّكة، حيثُ غرز طفلٌ عودَ ثقاب مُستهلَكاً في إحدى الزَّوايا كأنَّهُ سارية؛ تُطلِق، حين تنطلق، صفيراً عالياً صاراً كالحديد. والحمام الذي يتجوَّل حول التِّمثال المركزيِّ يشبه فُتاتاً مُعتماً يتبدَّل دائماً تحت رحمة ريح مُبعثِرة. [240]

أو هذا التَّأمُّل في الاستيقاظ من النَّوم:

> وحين يأتي الضَّوء المعتم الذي يملأُ شقوقَ المصاريع (البعيدةِ، كلَّ البُعْد، عن أن تكون كتيمةً، مُحكمةَ السَّدِّ!) بِرِيَب رماديَّة، ينتابني شعور أنَّني لن أكون قادراً على أن أظلَّ طويلاً في مأواي، مستلقياً على سريري، غير نائم، ولكنْ يعتريني إحساسٌ لا ينقطع باحتماليَّة النَّوم، والانجراف في الأحلام. لا أعرفُ إنْ كانت الحقيقة هي الموجودة أم الواقع، مُمدَّداً بين الدِّفء العذب للملاءات النَّظيفة، غير مُدركٍ، بعيداً عن الإحساس بالرَّاحة، وجودَ جسدي نفسه. أشعرُ بانحسار الافتقارِ البَّهيج للوعي الذي يستمتع به وعيي، الطَّريقةِ الحيوانيَّة، الكسولة، التي أنظرُ بها من بين عينَيْن نصف مغمضتَيْن، مثل قِطٍّ في الشَّمس، إلى الحركات المنطقيَّة لمخيِّلتي المُطلقَة السَّراح. أشعر بالانزلاق بعيداً عن امتيازات هالة الظِّلِّ، حيث الأنهار البطيئة التي تجري أسفل أشجار رموشي المَلمُوحة شَزْراً، وهمس الشَّلَّالات المفقودة بين صوت الدَّم المتواني الذي يدقُّ في أُذُنيَّ، والمطر الخافت الذي لا يكفُّ. أفقدُ نَفْسي في الحياة على مَهلي. لا أعرفُ إنْ كنتُ نائماً أمْ أنَّني أتوهم ذلك فحسب. [205]

ويُعَدُّ «الكتاب الثَّاني»، إلى حدٍّ بعيد، ترنيمةً إلى لشبونة التي عشقها بِسُوَّا، ولم يغادرها، إلَّا نادراً، بعد عودته من جنوب إفريقيا:

> ولكنَّني أحبُّ نهر تيجو لأنَّ المدينة العظيمة مُشيَّدة على ضفَّتيه. وأستمتعُ بالسَّماء لأنَّني أراها من نافذة الطَّابق الرَّابع بشارع في بَايْشَا. فلا شيء في الرِّيف أو في

الطَّبيعة يستطيع أن يمنحني أيَّ شيء يعدل البهاءَ المُتشظّي للمدينة الهادئة، المضاءة بنور القمر، حين تُرَى من غرَاسَا أو سَوْ پِيدْرُوْ ذَا أَلْكَنْتَرَة. فلا زهورَ، بالنِّسبة إليَّ، يمكن أن تضاهي ألوان لشبونة التي لا تكفُّ عن التلون بأشعَّة الشَّمس. [358]

إنَّ المتعة المُطلَقة في [تذوُّق] اللُّغة، والمتعةَ في التَّفكير، بل المتعة في الرُّؤية، هي التي تجعل **كتاب القلَق**، من دون شكٍّ، ذلك الكتاب الذي يبعث على الرَّاحة، مثلما بدا أنَّهُ كذلك بالنِّسبة إلى مؤلِّفه/ مؤلِّفيه[11]:

أكتبُ غالباً من دون رغبة في التَّفكير، في حلم يقظة خارجيٍّ، تاركاً الكلمات تداعبني كما لو كنتُ فتاةً صغيرة تجلس في حضنها. إنَّها مجرَّد جُمَلٍ بلا أيِّ معنى، تتدفَّقُ متكاسلةً مع تدفُّق الماء الذي ينسى نَفْسَهُ مثلما يفعل الجدولُ بالأمواج التي تختلطُ وتتلاشى، ثُمَّ تُولَد ثانيةً إلى الأبد، متدفِّقةً بلا نهايةٍ بعضُها فوق بعض. هكذا تعبُرُني الأفكارُ والصُّوَر، المرتعشة بالتَّعابير، كأنَّها موكبُ حرائر باهتة تحفُّ، تُومِضُ في وسطها فضَّةُ فكرةٍ، مُوشَّاة وغائمة في ضوء القمر. [326]

وحين سألني پيت آيرتن[12] صاحبُ دار «سيرپنتس تييل» للنَّشر، في العام 1990، إن كنت أرغب (أستطيع؟) في ترجمة[13] **كتاب القلَق** لفرناندو پِسُوَّا، فإنَّ تلك المتعة في تذوُّق اللُّغة والتَّفكير والرُّؤية هي التي جعلتني، تحديداً، أوافق بلا تردُّد. اعتمدت طبعة «سيرپنتس تييل» على المنتخبات التي وضعتها ماريَّا جوزيه لانكاستري[14] وترجمها إلى الإيطاليَّة أنطونيو تابوكي. وحين سُئِلتُ، قبل عام أو نحو ذلك، إنْ كنتُ راغبةً في ترجمة طبعة أكثر

---

(11) الثَّلاثة على حدٍّ سواء: غيدش وسوارش وپِسُوَّا نَفْسُه. (المترجم)

(12) Pete Ayrton: مترجم مرموق من الفرنسيَّة والإيطاليَّة، أنشأ في العام 1986 دار Serpent's Tail المستقلَّة، المتخصصة في نشر الأدب المترجم والأعمال الرِّوائيَّة الأولى. (المترجم)

(13) لا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه التَّرجمة التي تشير إليها مارغريت جول كوستا، والتي صدرت عن دار «سيرپنتس تييل» في العام 1991، بتحرير ماريًّا جوزيه لانكاستري، وتقدمة جون بويد، فازت بجائزة «Portuguese Translation Prize» في العام 1992. (المترجم)

(14) ماريًّا لانكاستري هي زوجة أنطونيو تابوكي، وأستاذة الأدب البرتغالي في عدَّة جامعات، ومترجمة بعض أعمال پِسُوَّا إلى الإيطاليَّة. (المترجم)

اكتمالاً، اعتماداً على طبعة خيرونيمو پيسارُّو[15]، اغتنمتُ الفرصة ولم أُفوِّتها بتاتاً.

تحوي طبعة خيرونيمو پيسارُّو نصوصاً كثيرة حُذفَتْ من طبعة ماريًّا جوزيه لانكاستري، وحين واجهتُ تلك النُّصوص الجديدة، تذكَّرتُ مدى الصُّعوبة التي تواجه المترجم كي يعثر على المعنى في تلك الجُمَل «التي بلا معنى» -التي غالباً ما تكون غامضة ومُحيِّرة- وأن يُعيد، في الوقت ذاته، إنتاجَ الانسيابيَّةَ المتوانية ذاتها في الإنگليزيَّة، ذلك الصَّوت المُغري. وكان پِسُوًّا قد كتب، في مُفتَتح النَّص 362، الذي سبق الاستشهاد بمقتطف منه أعلاه، قائلاً: «ألتذُّ حين أنطقُ الكلمات... فالكلمات بالنِّسبة إليَّ أجسادٌ ملموسة، عرائسُ بحرٍ جَلِيَّةٌ، رغباتٌ شهوانيَّةٌ متجسِّدة». والقبضُ على تلك الحِسيَّة المستشعَرة هُو التَّحدِّي الثَّالث الذي يواجه المترجم. فهَا هي الجُملة الثَّانية من النَّص 264:

As casas desigualam-se num aglomerado retido, e o luar, com manchas de incerteza, estagna de madrepérola os solavancos mortos da confusão.

والمنازل، المختلفة جميعاً، تنتصب معاً في حشد مُكتظٍّ على بكرة أبيه، وضوءُ القمر الحيران، حيرةَ المدينة نَفْسها، يُبرِّكُ هذه الفوضى الصَّامتة، المتدافعة، بعِرقٍ من اللُّؤلؤ.

يمكن لهذه الجُملة، من القراءة الأولى، أن تكون واحدة من تلك الجُمَل «التي لا معنى لها»، ولكنَّها، على الرَّغم من ذلك، طافحة بالمعنى. فالصعوبة[16] التي تواجه المترجم تكمنُ (أ) في فهم «مَا» يقصده المؤلِّف، و(ب) تخيُّل الصُّورة التي يبتكرها، و(ج) نقل ذلك المعنى، وتلك الصُّورة، بإنگليزيَّة ذات معنى، ومحسوسة، وحِسِّيَّة. إنَّ مجاراة الأصل لن تُجدي نفعاً، بكلِّ بساطة، في هذه الحالة البتَّة. فمن المفارقة، إذن، أن تضطر التَّرجمةُ إلى اتِّخاذ خطوة جريئة تماماً في الابتعاد عن الأصل إذا أرادت الحفاظ على المعنى والصُّور المجازيَّة. فقد شعرتُ أنَّ

---

(15) Jerónimo Pizarro: محرِّر وناقد ومترجم، يعمل رئيساً لقسم الدِّراسات البرتغاليَّة في معهد كامويش في كولومبيا، ويرأس تحرير مجلة «Pessoa Plural» المتخصصة بكلِّ ما يتعلق بأعمال پِسُوًّا وحياته. ويعدُّ من القلائل الذين عكفوا طويلاً على فكِّ «شفرة» كتابات پِسُوًّا العصيَّة على القراءة. (المترجم)

(16) وتجدر الإشارة، هُنَا، إلى أنَّ ڤاليريا توكُّو، مترجمة كتاب القلق إلى الإيطالية، قد تحدَّثت في مقدِّمتها عن الصَّعوبة التي واجهتها في ترجمة نثر پِسُوًّا، جرَّاء جنوحه إلى اختلاق ألفاظ وتعابير جديدة ونحت كلمات لم تكُن مستخدمة من قبله في اللغة البرتغالية. أنظر الحاشية 314، لمزيد من التَّفصيل. (المترجم)

الفعل الأوَّل «desigualam-se» -الذي يعني، حرفياً «يغدو مختلفاً أو مُتغايراً»- يعمل بصورة أفضل، إلى حدٍّ كبير، لو حُوِّل إلى صفةٍ: «مُختلِف». ولأنَّني أحتاجُ إلى فعل آخَر في تلك الجملة، فقد اخترتُ «تنتصبُ معاً»، فتلك المنازلُ، المرئيَّة في اللَّيل من مسافة بعيدة، هي -في ذهني- مثل حشدٍ مُكتظٍّ وصامت، يخالطُ بعضُه بعضاً، على مضض. والطَّابع الإنساني الذي تمتاز به هذه المنازل مؤكَّدٌ، على نحو أكثر، باستخدامي لكلمة «صامتة» و«متدافعة» لوصف كلمة «confusão»؛ فكلمة «صامتة» بعيدة تماماً عن المعنى المعتاد لكلمة «morto»، التي تعني «ميّتة»، بالطَّبع، ولكنَّها تحمل، أيضاً، معنى «الباهت»، و«عديم الحياة/ الجامد»، و«المتعَب»، و«المُطفَأ»، و«الأخرس/ المكتوم الصَّوت». أمَّا كلمة «متدافعة»، فهي بعيدة كلَّ البُعْد عن كلمة «solavancos»، التي تعني «خضَّات» أو «صدمات». ثُمَّ أقولُ، مُجدَّداً، إنَّ الكلمات التي يستخدمها في البرتغاليَّة ليستْ، بالضرورة، هي الكلمات التي قد يقرنها المرءُ بالمنازل. ثُمَّ إنَّ سبب إضافة عبارة «الحائر حيرة المدينة نَفْسها» عائدٌ إلى ظهور كلمة «حائرة» في الفقرة الأولى أيضاً، وليستْ إضافتي إلَّا وسيلة لتفسير ذلك التَّكرار. ثُمَّ هُنَاك عبارة «estagna de madrepérola» - «يركدُ مع عِرق اللؤلؤ»- التي لا تعني، في الإنكليزيَّة، أيَّ شيء البتَّة. فكان لزاماً عليَّ، مرَّة أخرى، أن أتصوَّر المشهد الذي كان يصفه، ضوء القمر وهو يُرقِّشُ -تأويلي لـ «manchas»، التي تعني «يُبقِّع»- المنازلَ بعِرق اللُّؤلؤ، ولكنَّني أردتُّ استخدام فعل ينطوي، مثل فعل «estagna/ يركد»، على إيحاءات تشير إلى الماء، فبدا الفعل «يُبرِّكُ puddles»[17] -الذي هُوَ بعيد تماماً عن أن يكون فعلاً شائعاً في الإنكليزيَّة- يشي بالإيحاء المائيِّ الضَّروريِّ، علاوة على أنَّه يُحقِّق تأثير التَّرقيش ذاك. أُدرِكُ أنَّني قد أُتَّهم بالانحراف كثيراً عن الأصل، ولكنَّني شعرتُ ألا بديلَ لديَّ، حين واجهتني جملةٌ شديدة التَّعقيد، في معناها وتركيبها

(17) تستخدم جول كوستا، هُنا، كلمة puddle، التي تعني بِرْكَة، بصيغة الفعل «puddles»، على الرَّغم من أنَّها، كما تقول، بعيدةٌ، كلَّ البُعْد عن أن تكون فعلاً شائعاً في الإنكليزيَّة؛ ولكنَّ اللغة العربيَّة قد تحتمل مثل هذا «الانزياح»؛ تقول العرب «بَرَّكَ السَّحاب: إذا اشتدَّ مطره فقشَّر وجهَ الأرض»، وتقول أيضاً: «بَرَّكَتِ/بَرَكَتِ السَّماءُ: إذا تهاطلَتْ أمطارُها دُونَما انقطاع». ولهذا فقد آثرتُ استخدام الفعل «بَرَّك» (الذي يتناغم لفظيّاً مع كلمة «بِرْكة») كبديل لـ «puddles»، لما ينطوي عليه من إيحاءات تشير إلى الماء، فكأنَّ القمر يهطلُ على تلك الفوضى الصَّامتة عرقاً من اللُّؤلو، وهو عين المعنى الذي قصدته جول كوستا حين استخدمت «puddles»، وعين المعنى الذي أرادهُ بِسُوَّا، أصلاً، حين استخدم «estagna/يركد»، فضوء القمر بعد أن يهطل، يركد فوق تلك البيوت، عرقاً من اللُّؤلؤ. (المترجم)

النَّحْويِّ، سوى إعادة ابتكار الشَّيء كلِّه من جديد، مع المحافظة قَدْرَ المُستطاع في الوقت ذاته -تلك المفارقة، مرَّة أخرى- على دلالة المعنى الضِّمنيَّة، والفروق الدَّقيقة بين الكلمات، والإيقاع، والمحافظة -أَجَل- على غرابة الصِّياغة أو الألفاظ. فنثرُ غيدش/ سوارش/ بِسُوَّا، مثل جميع النَّثر البديع، يُجبِر المترجم على أن يمدَّ حدود لغته إلى أقصاها، وأن يغوص في وعيه التَّخيُّليِّ للعثور على طرائق جديدة للتَّعبير عن المعنى.

ولقد تُرجِم كتاب القلَق إلى لغات عدَّة، فكانت كلُّ طبعة من تلك الطبعات المترجمة متباينةً، بنصوص مختلفة غالباً وفقَ ترتيب مغاير. وقام تيم هوبكنز، من دار «هاف پِنْت پرس» اللَّندنيَّة، في العام 2017، بوضع نسخة أخرى، تتكوَّن من شذرات شتى، مُنضَّدة ومطبوعة يدوياً على مجموعة منتخبة من المواد المُهملة التي لا تدوم طويلاً -مثل صورة بالأبيض والأسود، ودفتر أوراق يانصيب، ومحرمة ورقيَّة من تلك المحارم المستخدمة في المقاهي، وبطاقة عمل شخصيَّة، وعلبة أعواد ثقاب، على سبيل المثال- ثُمَّ وضعها، بلا أيِّ ترابط، في صندوق مطبوع يدوياً. يمنحُ هذا العمل المرءَ إحساساً مُنَمْنَماً عمَّا كان يتوجَّب أن يشعر به لو اكتشف صندوق الأوراق ذاك، بعد وفاة بِسُوَّا، وشرع في تجميع تلك الأوراق ليصنع منها كتباً شعريَّة ونثريَّة كاملة. ولكنَّ عدم اكتمال الكتاب، في حدِّ ذاته، شيءٌ مُغرٍ، ويُشجِّع القارئ بطريقة ما على صُنع كتابهُ الخاص من تلك الشَّذرات. فما ينتظرُ كلَّ قارئ لـ «**كتاب القلَق**» هو المُتعة المحضة وليدة الصُّدفة الناجمة عن فتح الكتاب بشكل عشوائيٍّ وقراءة أيِّ شذرة يقع نظره عليها بالصدفة. وكلَّما صادفتُ صورةً فوتوغرافيَّة لبِسُوَّا ووجهه الذَّائع الصِّيت، الخالي من أيِّ تعبير، الذي لا يرغبُ في أن يُرَى، أتخيَّلُ عقلَهُ وكأَنَّه ذلك الصَّندوق، مزدحماً بكلِّ هؤلاء الكُتَّاب الآخَرين وتلك المشاريع اللَّانهائيَّة التي لن تكتمل أبداً، وطافحاً، على شاكلة «**كتاب القلق**»، بالأفكار والصُّوَر والمشاعر.

مارغريت جُول كُوستا [18]

---

(18) مارغريت جُول كُوستا Margaret Jull Costa: مترجمة بريطانيَّة، تنقل عن البرتغاليَّة والإسپانيَّة، ذاع صيتُها للتَّرجمات التي أنجزتها لجوزيه ساراماغو. أصدرت أكثر من تسعين كتاباً مترجماً، وفازت بنحو 18 جائزة في التَّرجمة، آخرها جائزة «Premio Valle-Inclán» في العام 2017 عن ترجمتها لرواية «على الحافَّة» لرفاييل تشيربس. (المترجم)

ملحوظة محرّر الطبعة الإنگليزيّة

يُعَدُّ كتابُ القلَق، الذي هُوَ صورة وصفيَّة شخصيَّة للشبونة، ولراسم صورتها هذه، تُحفةَ فرناندو بِسُوَّا النَّثريَّة، وأحدَ أعظم الأعمال الأدبيَّة التي ظهرت في القرن العشرين. وتبدو المقولة منطوية على مفارقة حين يخطر ببالنا أنَّ بِسُوَّا لم يُكمل **كتاب القلق** قَطُّ. لم يفعل سوى أنَّه كدَّس مئات الشَّذرات في صناديقه؛ إذ كان يعتقد أنَّ إكمالَهُ سوف يكون شكلاً من أشكال الجُبْن، أو العجز، أو «**مسيرة هزيمة**» (وهو العنوان الذي أطلقه، في البدء، على قصيدة «دكَّان بائع التَّبغ»). ولكنَّ هذا الكتاب -الذي بذل محرِّروه المتعاقبون كلَّ ما في وسعهم لجمعه وإكماله- هذا الجُبْن البهيج، وهذا العجز الخصيب، وهذه الهزيمة المُظفَّرة، هُوَ في الوقت الرَّاهن كتابٌ لا بُدَّ من قراءته لِمَن يرغب في «البَدْء» بقراءة أعمال بِسُوَّا. بدأ «كتاب القلَق» بوصفه نوعاً من يوميَّاتٍ ما-بعد-رمزيَّة متأثِّرة باليوميَّات والاعترافات التقليديَّة التي ظهرت في القرن التَّاسع عشر، ولكنَّه انتهى بوصفه يوميَّاتِ شخص مُتخيَّل: فِسنْتِه غِيْدِش، في البَدْء، ومِن ثَمَّ برناردو سوارش، الذي عمل في وسط مدينة لشبونة. ولكنَّ الكتاب، علاوة على اليوميَّات التي كتبتها هذه الأنا الأخرى المُتخيَّلة، كان بمثابة الصُّورة الشَّخصيَّة (البورتريه) لهذا المحاسب المساعد الذي يعمل في لشبونة؛ الصورة الشخصيَّة التي من المستحيل فصلها عن وصف المدينة التي يعيش فيها «بَارْتِلْبي»[19] المعاصر هذا.

ونعثرُ، في فقرة يحاول فيها المؤلِّف المُتخيَّل تفادي التَّأثيرات الرُّومانسيَّة، على التَّعليق التَّالي:

> قال أَمْيِل إنَّ المنظر الطبيعيَّ حالةٌ ذهنيَّة، ولكنَّ هذه العبارة البهيجةَ قد صاغها على نحو يفتقرُ إلى الدِّقة حالمٌ فاترُ الهِمَّة. فالمنظرُ الطَّبيعيُّ منظرٌ طبيعيٌّ ولا يمكنُ أن يكون حالةً ذهنيَّة. ولا بُدَّ للمرء، كي يكون قادراً على التَّجسيد، أن يكون قادراً على الخَلْق، فلا أحدَ يقول إنَّ قصيدةً مُكتملةً هِيَ حالةٌ ذهنيَّةٌ عن التَّفكير في كتابة

(19) Bartleby: إشارة إلى بارتلبي النَّساخ، الشخصيَّة الشهيرة في القصة القصيرة التي كتبها هيرمن ميلفِل (المترجم)

قصيدةٍ. فقد تكون الرُّؤية أنْ نحلم ولكنَّنا نستخدم كلمة «رؤية» بدلاً من كلمة «حُلم» لأنَّنا نُفرِّقُ بين الرُّؤية والحُلم. [...] سيكون من الأصوب القول إنَّ الحالةَ الذِّهنيَّة منظرٌ طبيعيٌّ، وبذلك تغدو هذه المقولة مميَّزةً بأنَّها لا تحوي بُهتان نظريةٍ وإنَّما تحوي حقيقةَ استعارة. [386]

إنَّ المنظر الطَّبيعي لِـ «**كتاب القلَق**»، مثلما أراه، ليس بالضَّبط مدينة لشبونة التي تصيب البطل بالقلَق، وإنَّما بالأحرى توعُكُّ بِسُوَّا نَفْسه وسأمُه الذي يغدو المنظر الطَّبيعيَّ للكتاب. فـ «**كتاب القلَق**» يوميَّاتٌ حميمية -على شاكلة «**يوميَّات حميمة**» لِأَمْيِل- وليس كذلك على حدٍّ سواء. إنَّهُ يوميَّات كاتب، ويوميَّات شخص يكتب لتزجية السَّاعات التي تعقب العشاء، ولكنَّ «**اعترافات**» الزَّمن المعاصر هذه -إنْ كان يعنُّ على بالنا القدِّيس أوغسطين وروسُّو- ليستْ إلَّا «اعترافات» حميمية أو شخصيَّة، في ضوء أنَّ جميع أعمال القَصِّ العظيمة شخصيَّةٌ، على نطاق عالميٍّ، من دون استثناء. إنَّ صُوَر لشبونة الشَّخصيَّة، وتلك الصُّور الشَّخصيَّة لذلك الذي يرسم هذه الصُّور؛ الموظَّفُ المكتبيُّ الذي عمل في عدَّة شركات في وسط مدينة لشبونة (على شاكلة بِسُوَّا تماماً)، لا يختلف بعضُها عن بعض. فقلَقُ بِسُوَّا ينهمر على المدينة مثل المطر.

تقترحُ هذه الطبعة ضرورة أنْ يُقرأ «**كتاب القلَق**» على الشَّاكلة التي ظهر بها إلى الوجود، لا بخلط نصوص الطَّوْر الأوَّل مع تلك التي تنتمي إلى الطَّوْر الثَّاني. لقد كان ثمَّة كتاب أوَّل وكتابٌ ثانٍ -مرَّتْ عدَّةُ سنوات بينهما- فلا ضرورةَ، إذن، إلى إجراء مونتاج موضوعاتيٍّ لتوحيد ما لا يحتاجُ إلى توحيد. فثمة عنفٌ غير ضروريٍّ تنطوي عليه سيرورةُ جمع نصوص تفصل بين أوقات كتابتها سنوات كثيرة، أو خلق نصوص طويلة من تلك الصَّغيرة، أو التَّقليل من أهميَّة ڤسنته غيدش كمؤلِّف مشارك في صناعة الكتاب، فارضين وحدةً تأليفيَّةً تحت اسم فرناندو بِسُوَّا؛ الاسم الذي كان مُفرداً وبصيغة الجَمْع، على حدٍّ سواءٍ، دائماً وسيبقى كذلك.

تظهر النُّصوص، في هذه الطبعة، في الغالب الأعمِّ، وفقَ التَّرتيب الذي رُتِّبت به في طبعتي النَّقديَّة لـ «**كتاب القلَق** Livro do desassossego»، الصَّادرة في العام 2010، عن دار «إمْپرِنْسَا ناسيونال-كازا ذا موِيْدَا»، التي أعادت طبعها دارُ «تِينْتَا-ذا-شِينَا»، دون التَّرتيب النَّقديِّ

ذاته، في العام 2013. ولم أغير، في هذه الطبعة الأخيرة، سوى موضع بعض النُّصوص التي قُصِد أن تكون تمهيديَّة وبعض النُّصوص الأخرى التي تحمل قرينة الأحرف الأولى «.L. do D»[20] متبوعة بعلامة استفهام. علاوة على أنَّني قد رجعت أيضاً إلى جميع طبعات «كتاب القلَق» الأخرى، المتوافِرة قبل شهر يونيو 2012، فأجريتُ بعض التَّعديلات الإضافيَّة على قراءتي الشخصيَّة لبعض نصوصه الأصليَّة.

إن هذا الكتاب، وفق كلمات بِسُوَّا نفسه، «يقين سيمفونيٌّ عظيم»، نجحت مارغريت جول كوستا في ترجمته إلى الإنكليزيَّة بـ «إعادة استلهام [تلك الشَّذرات]، التي من دونها تكون التَّرجمة مجرَّد إعادة صياغة في لغة أخرى»، على حدِّ قول بِسُوَّا في واحدة من شذراته المأثورة. أودُّ أن أشكرها على عملها البارع، وأشكر نِكْ شيرين من دار «سيرپنت تييل» على دعمه غير المشروط لهذه المشروع.

خيرونيمو پيسارُو

مقدمة الطبعة العربيّة

بقلم رصاص، على سرير المرض، مرتعداً من الحمَّى، والأوجاع تقطِّع أحشاءه، خطَّ فرناندو پِسُوَّا [21] كلماته الأخيرة، بالإنكليزيَّة، قبل يوم واحد من موته المحتوم: «لا أعرفُ ما الذي سيأتي به الغَدُ»[22].

لم يكتب شذرةَ الأنفاس الأخيرة هذه واقفاً مثلما تعوَّد أن يكتب، وإنَّما طريحَ الفراش، هذه المرَّة، بغرفة صغيرة في مستشفى القدِّيس لُويش[23]، وقُبَّعته السَّوداء، الذَّائعة الصِّيت، مرميَّةٌ على ظهر الخزانة الصَّغيرة ونظَّارته الصَّغيرة المُدوَّرة، التي لا تقلُّ شهرةً عن صاحبها، ولا عن قُبَّعته تلك، مطويَّةٌ على الطَّاولة.

«ناولوني نظَّارتي»[24]، قالها پِسُوَّا قبل أن تصعد روحه في معراجها الأخير.

لم يكُن معه في غرفة المستشفى، في تلك اللَّحظة، سوى الطَّبيب والممرِّضة والقسِّيس.

كان قد أدخل المستشفى في اليوم السَّابق، ورفض أن تجرى له عمليَّة جراحيَّة، وفضَّل قضاء ساعاته الأخيرة وحيداً، إلَّا من رفقة الثَّلاثة هؤلاء.

«نظرتُ من حولي، فوجدتُ أنَّني في حجرة، وعلى سرير. جسدي يؤلمني، بطني تتقطَّع، ومعدتي منتفخة، ورأسي يدقُّ من الوجع. ثُم رأيتُ ممرِّضة، في هذه الأثناء، فسألتها بجهدٍ جهيد: «أين أنا؟» فأجابت: «أنت في مستشفى القدِّيس لويش»، ثُمَّ صحتُ، بصوت عال: «في أيِّ يوم نحن؟» فأجابتني الممرِّضة، التي مازالت واقفة هُنَاك: «إنَّه الـ 30 من نوڤمبر». فسرحتُ بأفكاري: الحياةُ سريعة الزَّوال... الآلام تشتدُّ موجاتٍ على موجات. حسناً، هذه نهايتي. أهي، حقاً، نهايتي؟ تذكَّرتُ، لوهلةٍ، قصيدةَ ألبيرتو كآيرو:

---

(21) هذا هو اللفظ الصحيح لاسمه في البرتغاليَّة الأوروبيَّة: پِسُوَّا Pessoa، وليس «بيسوا» كما شاع عندنا في الثقافة العربية.

(22) «I know not what tomorrow will bring». وهي مؤرَّخة من لدن پِسُوَّا نفسه على هذا النَّحو: (29–11–1935)، بحسب صورة الوثيقة المحفوظة في أرشيف پِسُوَّا بالمكتبة الوطنية في البرتغال.

(23) ثمة صور فوتوغرافيَّة ملتقطة لهذه الغرفة تُظهِر هذا المشهد.

(24) العبارة في الأصل البرتغالي: dá-me os óculos.

«لعلَّهُ آخرُ يوم في حياتي
رفعتُ يدي اليُمنى كي أُلوِّح للشَّمس وداعاً،
ولكنَّني لم أرفعها تلويحة وداع،
فقد كنتُ سعيداً أن أرى الشَّمس،
ليس إلَّا».

مات بِسُوَّا في السَّاعة الثامنة مساءً. فهل كانت هذه السَّاعة محض صُدفةٍ؟ ألم تكُن تلك «السَّاعة» هي التي طلب أن يُعَاد فيها إلى نَفْسه! ألم يكتب، في «كتاب القلَق»، قائلاً: «أسمعُ جرساً أو برج أجراسٍ يدقُّ السَّاعة، لا بُدَّ أنَّها السَّاعة الثَّامنة على الرغم من أنَّني لا أَعُدُّ».

مات في الساعة الثَّامنة مساءَ الثلاثين من شهر نوڤمبر سنة 1935. أهي مصادفة أخرى؟ أن يموت مساء آخر يوم من شهر نوڤمبر، الشهر الذي يرمز إليه بزهرة الأقحوان؛ رمز الموت في الثقافة الأوروبيَّة، وشارة الحزن والضرَّاء والرِّثاء. زهرة الأقحوان التي تمنَّى أن يُنثَر مع بتلاتها، حين ابتهل إلى محبوبته، منشداً:

«يا حُبِّي، انثريني مع البتلات عن وردك الأمثل، زنابقك الأكمل، بتلات الأقحوان التي يفوح منها نغم اسمك. سأُميتُ حياتي فيكِ».

لقد تاق إلى الموت في الورد الأمثل، فمات مكلَّلاً، كما يشتهي بزهرة الذَّهب، زهرة الأقحوان:

«كَلِّلُونيَ بالوردِ
كَلِّلُونيَ بالوردِ
بلا رَيْبِ:
بوردٍ ينطفئُ
على جبينٍ ينطفئُ،
في التَّوِّ، عمَّا قليلٍ
كَلِّلُونيَ بالوردِ

باوراقٍ زائلةٍ
ذاكَ يكفي».

أهي ساعة الأقحوان تلك التي كان يبحث فيها عن نفسه طيلة حياته ولم يجدها؟ ساعةُ الموت التي كان لا بُدَّ أن يُزيِّن فيها روحَهُ بالأقحوان: «أبحث عن نفسي، ولكنَّني لا أجد نفسي. إنَّني أنتمي إلى ساعات الأقحوان، المتناهية واضحةً في صفوف طويلة من المزهريَّات. لا بُدَّ أن أصنع شيئاً مُنمَّقاً من روحي».

لقد مات فرناندو أنطونيو نوغيرا پِسُوَّا مساءً، مات الشاعر الذي تعدَّد في نفسه حتَّى فاضت نفسه عن نفسه، كما يليق بـ«ملك تخلَّى عن عرشه طواعيةً، من أجلِ الأحلام والضَّجر»:

«آهٍ، أيُّها اللَّيلُ الأبديُّ،
احتسبني ابنكَ
وخذني بينَ ذراعيك».

مات وقد ترك في «حجرة الانتظارِ»، حجرة الموت في المستشفى، «صولجانَهُ المهشَّمَ وتاجَهُ»، وعلى «السَّلالمِ الحجريّةِ الباردةِ»، ترك «درعَهُ»، خالعاً «مُلكَهُ، وجسده وروحَهُ/ عائداً إلى اللَّيلِ»: اللَّيلِ الأوحد؛ «ليل السِّرِّ العتيق»!

وهل كانت محضَ صُدفةٍ، أيضاً، هكذا كيفما اتَّفق، أم أنَّها تصاريف الأقدار وعينها اليقظة التي لا تخطئ أيَّ شيء على الإطلاق: أن تكون الإنكليزيَّة لا البرتغاليَّة؛ لغته الأم، هي لغة الكلام الأخير؟ الإنكليزيّة التي كانت اللغة الأولى التي ينشر بها أشعاره، في هيئة كتاب[25]، باسمه الصَّريح: فرناندو پِسُوَّا!

أهي عودة الغريب القدَريَّة إلى نَفْسه؟ أم أنَّ الأمر، كلَّهُ، مجرَّد حادث عرضيٍّ، ليس إلَّا، لشاعر البرتغال الأكبر «أحد أكثر رموز الحداثة الأوروبيَّة أهميَّة» - الذي عاش حياةً طافحة بالقلق، بين قُرنائه، وأشباه أنداده، وأسمائه المستعارة، وشخوصه الأدبيَّة المختلقة، «مجهولاً

(25) لم ينشر پِسُوَّا في حياته سوى أربعة كُتُب فحسب –وباسمه الصَّريح– ثلاثة منها بالإنگليزيَّة: «أنتينوس Antinous» في العام 1918، وهو أوَّل كتبه الشعريَّة؛ و«سونيتات Sonnets»، في العام 1918؛ و«**قصائد إنگليزيَّة English Poems**» في العام 1921. أمَّا الكتاب الرَّابع فهو «رسالة Mensagem» وهو الكتاب الشعريّ الوحيد الذي نشره بالبرتغاليَّة في حياته.

من لدنِ نفسه»[26]؟ ولماذا اختار قلم الرَّصاص، من دون أدوات الكتابة الأخرى التي جرَّبها جميعاً، وبألوان الأحبار كافَّة؟

ألم يكتب، قبل نحو أربع سنين من موته بتشمُّع الكبد، جرَّاء إدمانه الكحول، قائلاً: «أكتبُ، أو بالأحرى، أخربش، هذي السُّطور، كي لا أقول شيئاً على وجه التَّحديد، وإنَّما لأمنح ارتباكي شيئاً يفعله. بالعلامات الرَّقيقة التي يخطُّها قلم رصاصٍ مفلول لا يطاوعني قلبي أن أبريه، أملأ على مهَلٍ الصفحة البيضاء»؟

هو قلم «العلامة» إذن؛ قلم الرَّصاص العبثيِّ الذي يشكِّل حروف البوح العقيم.

مات بِسُوَّا وهو في السابعة والأربعين، وبقي سِفره الأشهر «**كتاب القلَق**» حبيس أوراق مكدَّسة، في صندوق خشبيٍّ كبير، طيلة سبعة وأربعين عاماً أيضاً. يا للمصائر كيف تُقدَّر! كأنَّ الكتاب قد عاش، «مجهولاً من لدنِ غيره»، هذه المرَّة، حياةً كاملة أخرى. لقد ظلَّ طيَّ الكتمان، عدد السِّنين التي قضاها بِسُوَّا على قيد الحياة، في ذلك «التَّابوتُ المقوَّس» الضخم، الذي ضمَّ نحو 25574 صفحة: معظم هذه الأوراق مكتوب بالأقلام، والباقي مرقونٌ على الآلة الكاتبة.

ولا عجب أن يظلَّ الكتاب متناثراً هناك في صندوق، طيلة ذلك الوقت، في انتظار أن «يخرج من غربته». فكلمة «صندوق»، بالبرتغاليَّة، تعني «arca»، التي من معانيها الأخرى: التَّابوت والفُلك. كأنَّ الكتاب «تابوت العهد»، أو «تابوت السَّكينة» (التي ظلَّ بِسُوَّا يبحث عنها طيلة حياته!) المصنوع من خشب السَّنط، المطلي بالذهب، الذي حفظت فيه الألواح في قدس الأقداس. ألم يكن صندوق بِسُوَّا، الذي حفظت فيه «ألواحه»، هو الآخر خشبياً ذا قُبَّةٍ كأنَّهُ «قدس أقداس» صغيرة؟ ألم تكن فكرة «التَّمويه بالذهب» أيضاً أثيرةً لدى بِسُوَّا في كتابه هذا؟ أم لعلَّهُ كان «فُلكاً»، كفلك نوح، أبحر في طوفان السَّأم والقلق وغياب السَّكينة، الذي ما كفَّ يجتاحُ بِسُوَّا، ولكنَّه لم يوصله إلى أيِّ برٍّ، خارج نفسه، البتَّة؟ ألم يصفه ذات يوم بأنَّهُ «قارب يطوفُ على غير هدىً»؟

بقي الكتاب مجهولاً، حتَّى العام 1982، حين انكبَّت ماريَّا أليِيتي غالوس، رفقةَ تريزا

(26) أستعيرُ هذه العبارة من عنوان المقالة الشَّهيرة التي كتبها الشاعر المكسيكي أكتافيو پاس عن بِسُوَّا، والتي تحمل العنوان ذاته: el Desconocido de Si Mismo.

سوبراو كونيا، على تجميع النصوص المتفرِّقة، التي كتبت على مدار أكثر من عشرين عاماً، وحلِّ «شيفرتها» وفكِّ «مغالقها»؛ فخطُّ يد پِسُوَّا كان في غاية العشوائيَّة: متعرِّجاً ومتداخلاً وليس من السَّهل قراءته على الوجه الصَّحيح. وكانت نتيجة ذلك الجهد الدَّؤوب أن ظهر «كتاب القلق»، للمرَّة الأولى، ضمن نسَق «منطقيٍّ» (أعدَّه جاسينتو ذو پرادو كويلو)، مروياً، في هيئة يوميَّات أو شذرات، معظمها بلا تواريخ مُحدَّدة، تدور على لسان «نِدَّيْه»: ڤِسنْتِه غِيْدِش، وبرناردو سوارش.

نُقل «كتاب القلق» إلى الإسپانيَّة في العام 1988، وإلى الألمانيَّة سنة 1985، وبعدها بعام ظهر مترجماً إلى الإيطاليَّة، ثم ظهر بالفرنسيَّة عام 1988. أمَّا الإنكليزيَّة، فقد حظي الكتاب، في سنة واحدة، عام 1991، بأربع ترجمات مختلفة لأربعة مترجمين مختلفين: ترجمة ألفريد ماك آدم (التي اعتمدت على الطبعة الأولى التي صدرت في مجلَّدين عن دار أتيكا في لشبونة، سنة 1982)، وترجمة مارغريت جول كوستا (التي سارت، في ترتيب مقاطعها، على منوال التَّرجمة الإيطاليَّة التي وضعتها ماريا جوزيه دي لانكاستري)، وترجمة ريتشارد زينيث (الذي قدَّم فيها ترتيباً مختلفاً، مستنداً إلى معاينته الشخصيَّة للأوراق المحفوظة بأرشيف پِسُوَّا بالمكتبة الوطنيَّة في البرتغال)، ثُمَّ ترجمة إيان واتسن (التي اعتمدت في تنسيقها على الطبعة الفرنسيَّة التي أنجزتها فرانسوا لِيبي). ولم يقتصر تعدُّد الترجمات والطبعات على الإنكليزيَّة وحسب، فثمَّة في اللغة الألمانيَّة وحدها نحو 16 ترجمة مختلفة منشورة منذ العام 1985. أما عربياً، فقد عرف الكتاب ترجمةً وحيدة أنجزها الشاعر المغربي المهدي أخريف، نقلاً عن الإسپانيَّة[27]، ظهرت باسم «كتاب اللَّاطمأنينة»[28]، في العام 2008. وقد سبق للشاعر اللبناني الرَّاحل بسام حجار أن نشر منتخبات من الكتاب تحت اسم «كتاب اللَّادَعة»، سنة 2000.

وتوجد، حتى هذه اللَّحظة، ستَّةُ أنساقٍ تحريريَّة مختلفة تماماً للكتاب بالبرتغاليَّة: الطبعة

---

(27) اعتمدت ترجمة المهدي أخريف على الطبعة الإسپانيَّة التي وضعها الشاعر آنخل كريسپو، وهي طبعة «غير كاملة»، ولا تفصل النُّصوص التي كتبها غيدش، عن تلك التي كتبها سوارش، ناهيك عن أنَّ أخريف لم يتقيَّد بالنَّسق الطِّباعي والتَّحريري الذي سار عليه كريسپو، وإنَّما اختار نسقاً من عنده، واضعاً عناوين من صنعه لكلِّ شذرة، فظهر الكتاب كأنَّهُ كتاب آخر.

(28) ذكرتُ في تعليقي حول ترجمة عنوان الكتاب، في حواشيَّ على مقدمة جول كوستا، لماذا آثرتُ ترجمة العنوان بـ «كتاب القلق».

التي أعدَّها جاسينتو برادو كويلو، في مجلَّدين، سنة 1982، والطبعة التي نظَّمها أنطونيو كوادروش سنة 1986، والطبعة التي وضعتها تريزا سوبراو كونيا عام 1990، وطبعة ريتشارد زينيث سنة 1998، ثُمَّ الطبعة التي حرَّرتها البرازيليَّة تريزا ريتا لوپِس في العام 2015، وهناك الطبعة «الأضخم» التي صنعها خيرونيمو پيسارُّو؛ أستاذ الدراسات البرتغاليَّة في معهد كامويش في كولومبيا، سنة 2013، التي تعدُّ أوثق الطبعات الصادرة، لغاية الآن، وتحتوي على جميع النصوص (المكتشفة) المنسوبة إلى ڤسِنْتِه غِيْدِش وبرناردو سوارش على حدٍّ سواء، لا مجرَّد تلك النصوص التي كانت تنسب إلى سوارش، كما في الطبعات السَّابقة. وميزة هذه «الطبعة النَّقدية» أنَّها تتبع، للمرَّة الأولى، تطوُّر هذا السِّفر وأطوار كتابته، وفق تسلسل تاريخي (منذ مطلع 1910 حتى نهاية 1930)، وهي الطبعة التي اعتمدت عليها مارغريت جول كوستا في ترجمتها الجديدة هذه، التي صدرت في العام 2017.

تحسين الخطيب

كتاب القلَق

الطَّوْر الأوَّل

توطئة

[1917؟]

يمكن للمرء أن يعثر في الطوابق العليا لبعض الحانات التي تتمتَّع بسمعة حسنة في لشبونة على عدد قليل من المطاعم أو المحلَّات التي تُقدِّم الطعام بأثمانٍ زهيدة[29]. إنها تشبه في مظهرها البسيط الذي لا يُثير في النَّفْس أيَّ مشاعر البتَّة تلك المطاعمَ التي يشاهدها المرء في البلدات المفتقرة حتى إلى محطة للقطارات. ويمكن للمرء أن يصادف، على الأرجح، بين زبائن تلك الأماكن التي نادراً ما تكون مزدحمةً إلَّا في أيَّام الآحاد، أشخاصاً غريبي الأطوار، وبشراً عاديِّين يصعب تصنيفهم؛ أن يجد أُناساً ليسوا إلَّا متواليةً من حواشٍ هامشيَّة في كتاب الحياة.

وكانت ثمَّة فترة من حياتي، دفعتني فيها قلَّة المال والرَّغبة في السَّكينة والهدوء إلى التَّردُّد على أحد هذه المطاعم. كنت أتناول طعام العشاء في نحو السابعة من كلِّ ليلة، حين تسنح الفرصة بذلك، فأصل إلى المطعم في الوقت الذي يصل فيه رجل بعينه. لم أعبأ به كثيراً في البَدْء، ولكنَّهُ بمرور الوقت راح يثير فضولي.

كان في الثلاثين من عمره، نحيفاً، معتدلَ الطُّول، محدودباً جداً حين يجلس، على الرغم من أنّه يبدو أقلَّ تحدُّباً حين يقف. يرتدي ثيابه دونَ اكتراثٍ ولكن ليس على نحو مُستَهْتَر به تماماً. لم يُضْفِ البؤس البادي على أسارير وجهه العاديَّة الشَّاحبة أيَّ أهميَّة، ولم يكُن من السَّهل معرفة أصل ذلك البؤس على وجه الضَّبط. فقد يكون ذلك عائداً إلى عدَّة أشياء: ضَنَك العيش، والحزن، أو لعلَّه، بكلِّ بساطة، ذلك البؤس النابع من اللَّامبالاة النَّاجمة عن المعاناة طويلاً.

(29) شاع التعبير Casas de pasto في البرتغال والبرازيل حتى أواخر القرن التاسع عشر، في إشارة إلى تلك الأماكن التي كانت تقدم الطعام (الغداء والعشاء في العادة) بأسعار زهيدة. وكانت هذه الأماكن في الحقيقة مزيجاً بين الحانة والمطعم. ثم بتأثير من اللغة الفرنسية استبدلت العبارة، لاحقًا، بكلمة restaurante. (المترجم)

كان يقتصد في طعامه، ثُمَّ يُدخِّن، بعد أن ينتهي، لُفافةً من تبغٍ رخيص. كان يراقب الزَّبائن الآخرين، لا عن ريبةٍ، بل كأنَّهُ مهتمٌّ بهم حقّاً. لم يكُن ليمعن النَّظر فيهم رغم رغبته في أن يطبع في ذاكرته وجوهَهم أو أيَّ بيِّنةٍ خارجية تدلُّ على شخصيَّاتهم، ولكنَّه كان بكل بساطة مفتوناً بهم. ولقد كان هذا الطَّبع الغريب هو الذي أثار فضولي في بادئ الأمر.

رحتُ أراقبه مِن كثب. لاحظتُ أنَّ أساريره تتألَّق بألمعيَّةٍ مُتردِّدة، ولكنَّ سحائبَ اللُّغُوب غالباً ما كانت تُغيِّمُ وجهَه ويشله برد الخوف؛ ألمعيَّةٍ كان من الصعب رؤيتها أبعد من هذا كلِّه.

علمتُ من أحد ندلاء المطعم أنَّ الرَّجل كان يعمل كاتباً في شركة يقع مكتبها في الجوار.

ثم، ذات يوم، وقع شجارٌ في الشَّارع خارج المطعم تماماً؛ عراكٌ بين رجلَيْن. هُرع الزبائن إلى النَّوافذ جميعاً، وأنا كذلك والرجل الذي كنتُ أصفه. ألقيتُ عليه بعض كلام مبتذل، فردَّ عليَّ بالمثل. كان صوته خافتاً، متهدِّجاً؛ صوت الذي لا يأمل في شيء، فالأمل ضرب من العبث. لعلَّني كنت أحمقَ حين أسبغتُ الكثير على رفيق مسائيَ في المطعم.

لا أعرف بالضَّبط لماذا اعتدنا أن نتبادل التَّحيَّة بعد تلك الحادثة. ثُمَّ، ذات يوم، وللصُّدفة السَّخيفة التي دفعتنا نحن الاثنين إلى الذَّهاب لتناول طعام العشاء في وقت متأخر عن المعتاد في التَّاسعة والنصف، شرعنا في محادثة عابرة. وعند نقطة معيَّنة، سألني إن كنتُ كاتباً. أجبته أنني كنتُ. ذكرتُ له مجلَّة «أورفيو» التي صدرت مؤخَّراً[1]، فكالَ المديح للمجلَّة، أمامَ دهشتي، وأثنى عليها ثناءً عظيماً. وحين أفصحتُ له عن دهشتي، قائلاً إنَّ الأعمال الإبداعيَّة التي صنعها أولئك الذين كانوا يكتبون في «أورفيو»، لم ترُق إلا لقلَّةٍ قليلة، فأجاب إنَّهُ كان واحداً من تلك القِلَّة. وأضاف أنَّه لم يكُن جاهلاً تماماً بتلك الأعمال الإبداعيَّة، ثم عقَّب قائلاً على نحو خجول إنَّهُ غالباً ما كان يعود بعد العشاء إلى غرفته المستأجرة، حيث لا مكان آخر يذهب إليه ولا شيء يفعله، ولا أصدقاء يزورهم ولا رغبة لديه في قراءة الكتب، ثمَّ يقضي ليله في الكتابة.

هكذا قابلتُ «ڤسِنْتِه غِيْدِش» بالصدفة البحتة. كُنَّا عادةً ما نذهب إلى المطعم الهادئ، الرَّخيص، ذاته. لقد عرف أحدُنا الآخر رأيَ العين[30]، وكُنَّا نومئُ برأسَيْنا تحيَّةً صامتةً

(30) أن يعرف المرء الشخص بمجرَّد أن يراه، دون أن يكون قد قابله من قَبْل أو تحدث إليه. (المترجم)

بالطَّبع. وجدنا نفسَيْنا، على الرَّغم من ذلك، جالسَيْن ذات مرَّة إلى الطاولة ذاتها، فما كان في البَدْء مجاذبةً قصيرة لأطراف الكلام أصبح حديثاً لا ينقطع. بدأنا التَّقابل هناك كلَّ يوم، عند تناول الغداء والعشاء. وكُنَّا أحياناً حين نفرغ من طعام العشاء، نغادر المطعم معاً، نمشي الهُوَيْنَا ونُدردش.

لقد كابد «ڤسنته غيدش» حياته الفارغة سادراً ببراعة في اللَّامبالاة، وكانت أسس موقفه العقليِّ نابعة من رِواقيَّةِ الضُّعفاء.

ولقد جُبِلَ على أن يكابد شتَّى ضروب القلَق، ولكنَّ القدَر كتبَ عليه أن ينجو منها جميعاً. لم أقابل رجلاً أكثر منه فرادةً قطُّ. لقد تخلَّى عن كلِّ شيء حَبَتْهُ إيَّاهُ الطَّبيعة، ولكن ليس زُهداً البتَّة. وعلى الرَّغم من أنَّهُ كان طموحاً بالفطرة، فإنَّه اِسْتَمْرَأَ الظُّهورَ بأنْ لا مطامحَ لديه على الإطلاق.

تبسَّمَ الرَّجل النَّحيل لي ابتسامةً غريبة ثُمَّ رمقني مرتاباً، بَيْدَ أنْ لا ضغينةَ قد تراءَتْ في تلك النَّظرة، وتبسَّمَ ثانيةً حزيناً هذه المرَّة، قبل أن يغضَّ الطَّرْفَ محدِّقاً في صحنه، ويواصل التهام عشائه في استغراقٍ صامت.

ولقد أثَّثَ حُجرتَيْه —غير مكترثٍ بتكاليف بعض الحاجيات الأساسيَّة— بأشياءَ شِبْه فخمة. وتجشَّم عناءً خاصاً في شراء المقاعد —أرائك وثيرة، وعميقة— وستائر الأبواب والسَّجاجيد. أخبرني أنَّ ذلك كان طريقته في خلق عالم داخليٍّ «يصونُ كرامةَ سأمه». ففي حجرة مؤثَّثة على الطِّراز الحديث، يغدو السَّأمُ ألماً محسوساً، ألماً مزعجاً.

لم يكُن مجبراً على فعل شيءٍ على الإطلاق. لقد قضى طفولته وحيداً، ولم يسبق له الانتماء إلى أيِّ جماعة بتاتاً، ولم يذهب إلى أيِّ جامعة قَطُّ، ولم يسبق له أن كان جزءاً من أيِّ حشد. ومثلما يحدث مع أُناسٍ كثيرين، أو ربَّما مع كلِّ واحد (مَن يعرف) فقد أملَتْ غرائزُهُ ظروفَ حياتهِ الفجائيَّةَ والسَّبيلَ الذي سلكته؛ وفي حالة [ڤسنته غيدش]: العطالةَ والعزلةَ.

ولم يتوجَّب عليه البتَّة التَّعامل مع متطلَّبات الدَّولة أو المجتمع. حتَّى إنَّه تجنَّب متطلَّبات غرائزه هُوَ. لم يتَّخذ أصحاباً أو عشيقاتٍ قطُّ. كنتُ الشَّخصَ الوحيد الذي غدا مُقرَّباً منه على نحو ما. فإلى جانب إدراكي أنَّني لم أعرف سوى شخصيَّته المزيَّفة تلك —وارتيابي في أنَّه لم يفكِّر قط في أن أكون صديقه— أدركتُ أنَّه احتاج إلى شخص يستطيع أن يُورِّثه كتابه.

وعلى الرَّغم من أنني قد وجدتُ هذه المسألة في بادئ الأمر جارحةً، فإنَّ المسرَّة تغمرني الآن حين أفكِّر في أنني لَمَّا رأيتُ كلَّ شيء في نهاية المطاف من وجه نظر أحاديَّة تليق بطبيب نفسيٍّ، بقيتُ صديقَهُ؛ الصَّديقَ المنذورَ للسَّبب ذاته الذي جذبني إليه في المقام الأوَّل: نشرِ كتابه هذا.

وإنَّه لأمر غريب، ولكنَّه، حتى في هذا الصَّدد، كان محظوظاً لأنَّ الظُّروف عرَّفته على واحد مثلي، يمكن أن يُسدي إليه خدمة ما.

... هذا الكتاب العذب.

هذا كلُّ ما يبقى وما سوف يظلُّ من أكثر المخلوقات الذين رآهم العالَم؛ أبرعهم في الكسَل، وأكثرهم تهتُّكاً على نحو حالم. أشكُّ في أنَّ ثمَّةَ كائناً آدمياً جسَّدَ صورتَهُ الخارجية عن نَفْسه تماماً [كمثله هُوَ]. ذا أَنَفَةٍ باذخةٍ، تبخترَ في أركانِ صناعةِ الأحلامِ عبرَ مُصادفة الوجود.

هذا الكتاب سيرةُ شخص لم يوجَد قط.

فلا أحد يعرف ڤِسنْتِه غِيْدِش أو ماذا فعل، ولا...

فهو لم يكتب هذا الكتاب، بل إنَّ هذا **الكتاب** هُوَ. لكنْ من الواجب علينا أن نتذكَّر دائماً أنَّ وراء كلِّ شيء مكتوب، هَا هُنَا، يكمن ظلٌّ، سرٌّ...

فلقد كان وعيُ ڤسنته غيدش بنَفْسه فناً وأخلاقاً، والحُلم ديانةً.

أوجدَ أرستقراطيَّة جُوَّانيَّةً، سلوكَ رُوحٍ يشبه إلى حدٍّ بعيد سلوك جسد الأرستقراطيِّ الكامل.

1

[1913؟]

روحي أوركسترا محجوبةٌ؛ لا أعرفُ أيَّ آلاتٍ، أيَّ كمنجاتٍ وقيثاراتٍ، أيَّ طبولٍ ودفوفٍ، وأيَّ صوتٍ وصليلٍ فِـيَّ. لا أعرفُ نَفْسي إلَّا حينَ تكونُ سيمفونيّةً[31].

كلُّ جهدٍ جريمةٌ؛ فليستْ كلُّ إيماءةٍ[32] إلّا حُلُماً مَيْتاً.

يداكِ مثلُ حمامتَيْنِ حبيستَينِ. شفتاكِ يمامتانِ بريّتانِ صامتتانِ (تراهما عينايَ تتطارحانِ الهديلَ).

كلُّ إيماءاتكِ طيورٌ. أنتِ سنونوةٌ حينَ تحطّين مِن عَلٍ، نسر أمريكيٌّ ضخمٌ حين تنظرين إليَّ، عُقابٌ في نشواتكِ كامرأةٍ شمّاءَ لا تُبالي. لستِ إلّا رفرفة أجنحةٍ، كأجنحةِ [...]، أنتِ بحيرةُ ما أراهُ.

أنتِ مُجنَّحةٌ، كُلُّكِ، مُجنَّحةٌ [...]

إنَّها تمطرُ، تمطرُ، تمطرُ..

إنَّها تمطرُ ولا تكفُّ، حزينةً تمطرُ..

جسدي يُرْعِشُ روحيَ بالبردِ، لا بردَ الفضاءِ، بل بَرْدِيَ حينَ أكونُ أنا الفضاء..

كلُّ الملذّات رذيلةٌ؛ فغايةُ المرء أن يفتّشَ عن اللّذة في الحياة، وشَرُّ الرذائل أن يفعلَ المرءُ ما يفعلُ الآخرون.

---

(31) كدليل إضافيّ على تعدُّد «قراءات» خطّ بِسُوّا، المتسارع والمتداخل بعضه في بعض، من طرف الذين اشتغلوا على فكّ «شفرته» (ومِن ثَمّ: تعدُّد «ترتيب» صفحات هذا «الكتاب–المتاهة») فإنّنا نلحظ أنّ لفظة «سيمفونيّة» —الواردة في هذه الشّذرة، على سبيل المثال— قد رُقِنَتْ «sinfonia»، في طبعة تيريزا سوبراو كونيا (المقطع 15، ص 59)، وطبعة ريتشارد زينيث (المقطع 310، ص 297)؛ في حين رُقِنَتْ «symphonia» في طبعة خيرونيمو پيسارُّو (المقطع الأول، ص 13)، وطبعة جاسينتو دو برادو كويلو (المجلد الأول، المقطع 27، ص 29) على حدٍّ سواء، مع أنّ القصاصة التي خطّ عليها بِسُوّا هذه الشّذرة، بقلم حبر سائل، والمحفوظة في المكتبة الوطنية البرتغالية، تحت الرقم (BNP/E3, 4-68r.1) تميل، بشكل كبير، إلى أن تكون اللّفظة الثّانية وليست الأولى. وكلا اللّفظتين مستخدمتان في اللغة البرتغاليّة؛ فـ«sinfonia» قادمة من الإيطاليّة التي أخذتها عن اللاتينيّة الوسيطة symphonia. (المترجم)

(32) لا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ «الإيماءة»، في اللّغة، لا تقتصر على ملامح الوجه، وإنّما تتعدّاها إلى أيّ حركة أو إشارة أو لفتة يقوم بها الجسد بأيٍّ من أعضائه؛ وهي هُنَا، عند بِسُوّا، في استخدامه المتكرّر لها، تجمع هذي المعاني جميعاً، على حدٍّ سواء. (المترجم)

[1913؟]

لا أحلمُ بامتلاككِ. ما المسألةُ إذن؟ قد تكونُ بمثابة أن أترجمَ حُلُمي لصالح شيءٍ سُوقيٍّ. فأن تمتلكَ جسداً هُوَ أن تكونَ مُبتذَلاً لأبعد حَدٍّ. ولعلَّ الأسوأَ أن تحلمَ بامتلاك جسدٍ، حينَ يكونُ هذا الشَّيءُ ممكناً؛ فذاكَ يعني أن تحلمَ بنفسكَ مُبتذَلةً: إنَّهُ الرُّعبُ الأعظمُ.

ولأنَّنا نختارُ أن نكونَ عقيمينَ، فَلْنَتَعَفَّفْ أيضاً؛ فلا شيءَ أخسُّ وأكثرُ انحطاطاً من أن ننبذَ جميعَ الأشياء الخصبة في الطَّبيعة، ثُمَّ نَضِنُّ على نحوٍ سافلٍ بأيِّ شيءٍ يقدحُ رغبتَنا بينَ تلك الأشياء المنبوذة. فليس ثمة نَبالاتٌ مجتزأة.

فَلْنَكُنْ عفيفينَ كشفاه ميّتةٍ، طاهرينَ كأجساد مَحلومٍ بها، مُنقادينَ إلى أن نكونَ هذه الأشياء على حدٍّ سواء، كراهباتٍ صغيرات مجنونات...

فَلْيَكُنْ حبُّنا صلاةً.. مَرِّخِيْني برؤيتكِ، وَمِن تلكَ اللحظات حينَ أحلمُ بكِ سوفَ أصنعُ سُبْحةً فتكونُ تبرُّماتي «**آباءَنا الذينَ في السَّمواتِ**»، ولحظاتُ قلقي «**السَّلامُ عليكنَّ يا مَرْيَمَات**»[33]..

هكذا سنظلُّ إلى الأبدِ كشكلِ رجلٍ في نافذة من زجاج مُعَشَّقٍ مقابلَ شكل امرأةٍ في نافذة أخرى من زجاج مُعَشَّقٍ.. ووقعُ أقدام الظِّلال تتردَّدُ أصداؤها باردةً بَيْنَنَا — سيعبرُ البشرُ... ستعبرُ، بَيْنَنَا، صلواتٌ مقتولةٌ، وأسرارٌ... ومِن حينٍ إلى آخرَ، سيطفحُ بالبخورِ الهواءُ. وفي أوقاتٍ أخرى، ذاتَ الشِّمالِ أو ذاتَ اليمين، سيرشُّنا شكلٌ يشبهُ التِّمثالَ بالصَّلواتِ... وهناكَ سوفَ نظلُّ، في النَّافذتَيْنِ ذاتَيْهما، تشعَّانِ بالألوان حينَ تشرق الشَّمسُ، وتُعتمُ عروقُ الزُّجاج حينَ يهبطُ اللَّيلُ... لن تلمسَ القرونُ صمتَنا الزُّجاجيَّ. وفي الخارج، سوفَ تأتي حضاراتٌ وتروحُ، ستنفجرُ ثوراتٌ، وتندفعُ أحزابٌ، ويُهرعُ ناسٌ عاديُّونَ وديعونَ.. ونحنُ، يا حُبِّيَ الوهميَّ، سوفَ نتجمَّدُ في الوضعيَّة العقيمة ذاتها، الوجودِ الزَّائف ذاتِه، والـ [...] ذاتِه، حتَّى ذات يوم، بعدَ قرونٍ مِنَ الإمبراطوريَّات، سوفَ تتداعى الكنيسةُ، في نهاية المطافِ، وينتهي كلُّ شيءٍ..

---

(33) تعرف الصلاة الأولى، في المسيحيَّة، باسم الصلاة الربِّية التي تبدأ بـ «**أبانا الذي في السَّموات**». أمَّا الصلاة الثانية، فهي تعرف باسم صلاة السلام الملائكي، وتبدأ بـ «**السلام عليك يا مريم**». ولا يخفى علينا المعنى العميق الذي يحاول بِسُّوَا قوله من هذا التَّحريف الذي يجريه. (المترجم)

ولكنَّنا، لم يَمْسَسْنَا شيءٌ مِن ذلك، سنظلُّ هنا، لا أعرفُ، بالضَّبط، كيفَ أو أينَ أو متى، كنافذتَيْنِ أبديَّتَيْنِ من زجاج مُعَشَّقٍ، ساعاتِ فنٍّ بريءٍ رسمَها فنانٌ كانَ ينامُ طويلاً في قبرٍ قُوطيٍّ حيثُ ملاكانِ، قد شابكا أيديهما في الصَّلاةِ، قد أطلقا فكرةَ الموتِ في المرمر البارد.

3

[1913؟]

تمجيد العاقر

لو كنتُ سأختارُ، ذاتَ يوم، امرأةً من بين نساءِ هذي الأرض، فَدعي صلاتَكِ من أجلي: أن تكون عاقراً. ولكنِ اسألي اللهَ أيضاً، لو كانتْ صلاتُكِ من أجلي، بألَّا أحظى بهذهِ الزوجة المُتخيَّلةِ أبداً.

فلا نبيلَ ولا جليلَ إلَّا العقمُ والعقرُ. وحدَهُ قَتْلُ الذي لم يكُنِ البتّةَ، شيءٌ نادرٌ وجليلٌ وعبثيٌّ.

4

[1913؟]

سيِّدةُ الصَّمت

أحياناً، حينَ يمسُّني اللُّغوبُ والقهرُ، تنزعُ الأحلامُ عنِّي أوراقَها فأذبلُ، ثُمَّ يغدو الحلمُ الوحيد الذي أقدرُ عليه هُوَ التَّفكيرُ في أحلامي، فأتصفَّحها كأنَّها كتابٌ يتصفَّحه المرءُ مرَّةً ثُمَّ أخرى، فلا يجدُ سوى الكلمات التي لا مندوحةَ عنها. ثُمَّ أتساءلُ مَن أنتِ، يا أنتِ، أيَّها الطيف الذي يجوبُ رؤيايَ المتلكئة عن مناظرَ طبيعيَّةٍ متوانيةٍ، ودواخلَ عتيقةٍ، وطقوسِ صمتٍ باذخةٍ. تتجلَّينَ في جميعِ أحلامي كحلم أوْ ترافقينني كحقيقةٍ باطلةٍ. أزورُ، معكِ، أراضيَ قد تكونُ أحلامَ أراضيكِ، وأقاليمَ قد تكونُ تجسيداتِ الغيابِ والقسوةِ، جسدَكِ الجوهرَ المجبولَ سهلاً هادئاً أو جبلاً يتبدَّى بارداً في حديقة قصرٍ محجوبٍ. لعلَّ حلمي الوحيدَ أنتِ، ربَّما حين أضغطُ وجهي على وجهكِ سوفَ أقرأُ في عينيكِ تلكَ المناظرَ الطبيعيّةَ

المستحيلةَ، ذلكَ السأمَ الباطلَ[34]، وتلكَ المشاعرَ التي تقطنُ في كآبةِ إعياءاتي وكهوفِ قلقي. مَن يعرفُ، لعلَّ مناظرَ أحلامي إنْ هِيَ إلَّا طريقتي كي لا أحلمَ بكِ؟ لا أعرفُ مَن أنتِ، ولكنْ هَلْ أعرفُ مَن أنا تماماً؟ هل أعرفُ معنى أن أحلمَ بطريقةٍ تستوجبُ أن أدعوكِ حلمي؟ كيفَ أعرفُ بأنَّكِ لستِ بعضاً منِّي، بعضاً قد يكونُ حقيقياً، لا غِنَى عنهُ؟ وكيفَ لي أن أعرفَ أنِّي لستُ الحلمَ وأنَّكِ الحقيقة، أوْ أنِّي حلمكِ ولستِ الحلمَ الذي أحلمهُ؟

فأيُّ حياةٍ لكِ؟ وأيُّ طريقِ رؤيا هذي الطَّريقةُ التي أراكِ بها؟ إنَّها ليستْ ذاتَها دوماً ولكنَّها لا تتغيَّرُ البتَّةَ. وإنَّني أقول هذا الشَّيءَ لأنَّني أعرفهُ، على الرَّغم من أنَّني لا أعرفُ أنِّي أعرفهُ. جسدكِ؟ أنْ أراهُ عارياً وأنْ أراهُ مرتدياً ثيابَهُ، سيَّانَ عندي، ولا فرقَ بينَ أنْ أراهُ جالساً أو مستلقياً أو واقفاً. ما معنى هذا؟ لا معنى لَهُ ببساطة.

5

[1913؟]

[سيِّدةُ الصَّمت؟]

تنتمينَ إلى جنسِ هيئاتِ الأحلامِ، إلى لا جنسِ الأشكالِ [. . .]

مجرَّدَ صورةٍ جانبيَّةٍ تارةً، مجرَّدَ وضعيَّةٍ معيَّنةٍ تارةً أخرى، وفي أحايينَ ساكنةٍ إيماءةً بطيئةً تكونينَ أوْ تكادينَ — أنتِ لحظاتٌ وأوضاعٌ معيَّنةٌ خُلِقَتْ روحاً في روحي.

لا انجذابَ جنسياً مُضمَراً حينَ أحلمُ بكِ، تحتَ ردائكِ المَرْيَمِيِّ العُذْرِيِّ[35] الغامض؛ رداءِ صمتكِ الجوَّانيِّ. نهداكِ ليسا مِن طينةِ النُّهودِ التي قد يفكِّرُ المرءُ في لثمها. جسدُكِ، كلُّهُ، مِن لحمٍ ونَفْسٍ، ولكنَّهُ ليسَ جسداً ونَفْساً البتَّةَ. لحمكُ ليسَ روحاً، إنَّهُ روحانيٌّ. أنتِ امرأةُ ما قبلَ السُّقوطِ، خُلقتِ من أوَّل طينِ الفردوسِ.

رعبي من النِّساءِ الحقيقيَّاتِ، أقصدُ النِّساءَ الشَّهوانيَّاتِ، هو الطريقُ التي سلكْتُها كي أعثرَ عليكِ. أولئكَ النِّساءُ الدُّنْيويَّاتُ، اللَّواتي لا بُدَّ، كي يَكُنَّ [...] أنْ يحتملنَ وطأةَ الرَّجلِ الجيَّاشةَ — مَن يستطيعُ أنْ يعشقهنَّ؟ مَن لا يشعرُ بالحُبِّ وهوَ يتبدَّدُ عند التَّفكير في المتعة الجنسيَّةِ، فحسبُ؟ ببساطة، مَن يستطيعُ أن يُجِلَّ امرأتَهُ ولا يفكِّرُ فيها كامرأةٍ في وضعيَّةٍ

---

(34) استخدم كلمة «الباطل»، سواءً هنا أو في المواضع الأخرى، بمعنى: المُزيَّف false، وكلٌّ ما هو ضد الصُّورة الحَقَّة والجوهر الحَقِّ الذي ينبغي أن توجد عليه الأشياء، سواء في الحياة أو في دواخل أنفسنا. (المترجم)

(35) نسبة إلى مريم العذراء، أو مادونا Madonna التي هي التجسيد المرئيُّ لمريم العذراء. (المترجم)

جنسيَّة أخرى؟ مَن لا يشعرُ بالغثيان لأنَّ لَهُ أُماً؛ لأنَّهُ كان بُضعياً في أصلِه، ثُمّ قُذِفَ إلى العالَم على نحوٍ وضيع؟ مَن لا يشمئزُّ من فكرة أصلِ نَفْسِنَا الشَّهوانيِّ، مِن البَلْبَلَةِ الحِسيّةِ التي وُلِدَ منها جسدُنا الذي، مهما كان جميلاً، فإنَّ أصلَهُ قد دنَّسَهُ، قد دنَّستهُ ولادتُه؟

مثاليُّو الحياةِ الواقعيَّةِ الباطلونَ يُمَوِّهونَ المرأةَ بالشِّعْر، يركعونَ أمام فكرةِ الأُمِّ... طريقتُهم في الأحلام رداءٌ يحجِبُ، ليستْ حلماً يخلِقُ.

إلَّا أنَّكِ طاهرةٌ، يا سيِّدةَ الأحلام، يا مَن أستطيعُ تخيُّلَها عاشقةً بلا دَنَس، لأنَّكِ غيرُ موجودةٍ. أستطيعُ أن أتخيَّلَكِ أُماً، فأهيمُ بكِ، لأنَّ أهوالَ أن تحبلي أوْ تَلِدي لم تُدَنِّسْكِ قَط.

كيف لي ألَّا أهيمَ بكِ، حينَ يليقُ بكِ، أنتِ وحدَكِ، الهُيَامُ؟ وكيف لي ألَّا أحبَّكِ، حينَ يليقُ بكِ، أنتِ وحدَكِ، الحُبُّ؟

لعلَّني، حينَ أحلمُ بكِ، أخلقُكِ حقيقةً، ولكنْ في حقيقةٍ أخرى؛ ربَّما تكونينَ لي هناكَ، في ذلكَ العالَمِ الآخرِ الأطهرِ، حيثُ سيعشقُ بعضُنا بعضاً دونَ أن نتلامسَ البتَّةَ، بنوعٍ مختلف من العناقِ وطرائقَ أخرى أكثرَ حيويَّةً لامتلاكِ بعضِنا بعضاً؟ لعلَّكَ قد وُجدتِ قَبْلاً، ولم أخلقكِ، وإنَّما رأيتُكِ فحسبُ بطريقةِ رؤيا مختلفةٍ، جوَّانيَّةٍ ونقيَّة، في عالمٍ آخرَ أكملَ؟ لعلَّ حلمي بكِ لم يكُن إلَّا العثور عليكِ، لعلَّ حُبِّي لكِ لم يكُن إلَّا رؤيتكِ، ولعلَّ ازدرائيَ الجسدَ ومشاعرَ اشمئزازي لم تكُن إلَّا شهوةً خفيَّةً كنتُ أنتظرُكِ بها، قبلَ أن أعرفكِ، وليستْ إلَّا الأملَ الغامضَ؛ أملَ أنَّني قد أحببتُكِ، حتَّى قبلَ أن أعرفكِ؟

لستُ أعرفُ حقّاً إنْ كنتُ قد أحببتُكِ قَبْلاً، في خواءٍ ربَّما سَأَمي المُعَمِّرُ بالنِّسبةِ إليهِ نوعٌ منَ الحنينِ. لعلَّكِ نوعٌ آخر من الحنين، غيابٌ محسوسٌ، حضورٌ قَصِيٌّ، أُنثى ربَّما لأسبابٍ تتجاوزُ كينونَتكِ الأُنثى.

أستطيعُ أن أتخيَّلكِ عذراءَ وأُمّاً على حدٍّ سواءٍ لأنَّكِ لستِ من هذا العالم. ولقد كان الطِّفلُ الذي تحملينَهُ بين ذراعيكِ رضيعاً صغيراً على الدَّوام فَلَمْ يتوجَّب عليكِ بتاتاً أنْ تُدنِّسيهِ فتحميلهِ في رحمكِ. ولأنكِ لم تكوني قط إلَّا ما أنتِ عليه في هذه اللَّحظةِ، فكيفَ لكِ أن تكوني أيَّ شيءٍ إلَّا عذراء؟ أستطيعُ أن أُحبَّكِ وأهيمَ بكِ فحبِّي لا يستحوذُ عليكِ وهيامي لا يُقصيكِ.

كُوني النَّهارَ الأبديَّ وَخَلِّي مغاربي أشعَّةً تنداحُ من شمسكِ، تملكُ نفسَها فيكِ!

كُوني الشَّفقَ المحجوبَ وَخَلِّي رغباتي وقلقي تستحيلُ ألوانَ حَيْرتكِ وظلالَ ريبتكِ.

كُوني اللَّيلَ التَّمامَ، كُوني اللَّيلَ الأوحدَ، وَخَلِّي نَفْسيَ كلَّها مفقودةً فيكِ ومنسيَّةً، وَلْتُشعَّ أحلامي كالنُّجومِ في جسدكِ الطَّافحِ بالبُعْدِ والجُحُودِ . . .

فَلأَكُنْ طيَّاتِ جُبَّتكِ، الجواهرَ في تاجكِ والذَّهبَ المرصَّعَ بالنُّجومِ؛ ذهبَ الخواتمِ في أصابعكِ.

أستطيعُ أن أكونَ رماداً في موقدكِ، ما نفعُ أن أكونَ محضَ غبارٍ؟ أو نافذةً في حجرتكِ، ما نفعُ أن أكونَ محضَ فضاءٍ فارغٍ؟ أو ساعةً في ساعتكِ الرَّمليةِ، ما نفعُ أن أتبدَّدَ، أنْ أظلَّ، لأنَّني لكِ؛ ما نفعُ أن أموتَ، ألَّا أموتَ، لأنَّني لكِ، أو أنْ أفقدكِ، لو كانَ فقدُكِ يعني أن أجدَكِ؟

يا خالقةَ العبثيَّاتِ، يا مُريدةَ الجُمَلِ التي لا جِنْسَ لها. فَلْيُهَدْهِدْني صمتُكِ كي أنامَ، فَلْتُعانقني كينونتُكِ المَحْضَةُ وتُروِّح عنِّي وتريحُني، يا رسولةَ الآخرةِ، يا إمبراطورةَ الغيابِ، أيَّتها البتولُ أُمُّ الصَّمتِ كُلِّهِ، يا موقدَ الأرواحِ المرتعشةِ وموطنَها، يا ملاكَ المهجورينَ الحارسَ، أيَّتها المنظرُ الإنسانيُّ — الحزينُ حُزناً لا يُصدَّقُ— أيَّتها الكَمالُ الخالد.

6

[1913؟]

[سَيِّدةُ الصَّمتِ؟]

حياتي في غايةِ الحُزن، ولكنَّني على الرَّغم من ذلكَ لا اهتمُّ حتَّى بالبكاء عليها؛ ساعاتي باطلةٌ، حتَّى إنَّني لا أحلمُ بالإيماءةِ التي قد تُبدِّدها.

كيفَ لي ألَّا أحلمَ بكِ؟ كيفَ لي ألَّا أفعل؟

يا سيِّدةَ السَّاعاتِ التي تمرُّ، يا عذراءَ المياهِ الآسنةِ والطَّحالبِ الميِّتةِ، أيَّتها الإلهةُ التي تحرسُ الصَّحاري الواسعةَ والمنظرَ الطَّبيعيَّ المعتم الذي من صخورٍ جرداءَ، حرِّريني مِن يفاعتي.

يا عزاءَ الذينَ لا عزاءَ لَهُم، يا دموعَ الذينَ لم يذرفوا دمعةً قطُّ، أيَّتها السَّاعةُ التي لا تدقُّ

أبداً — حرِّريني من فرحي وحُبُوري.

يا أفيونَ الصَّمتِ كلِّهِ، **أيَّتها القيثارةُ** التي لن تُنقَرَ أوتارُهَا على الإطلاق، **يا نافذةَ الزُّجاجِ المُعشَّقِ**؛ نافذةَ البُعْدِ والهجرانِ — قد يكرهني الرجالُ وتزدريني النِّساءُ.

يا سَنْطُورَ المَسْحَةِ الأخيرة[36]، **أيَّتها اللَّمسةُ** التي بلا لَمْس، **أيَّتها اليمامةُ** الميِّتةُ في الظِّلالِ، ويا بلسمَ السَّاعاتِ التي تبدَّدتْ في النَّوم — حرِّريني مِنَ الدِّيْنِ فَهْوَ وديعٌ ومِنَ الكُفْرِ فَهْوَ شرس.

أيَّتها القيثارةُ التي تتلاشى في المساءِ، **يا صندوقَ الوردِ الذَّابلِ**، **والصَّمتَ** بين صلاةٍ وصلاة — املَئِيني قَرَفاً من الحياةِ، وكَراهةً للعافيةِ، وازدراءً للفتوَّة.

اجعليني عقيماً لا خيرَ فِـيَّ، **يا حاصدةَ** جميعِ الأحلام الفارغة، اجعليني طاهراً بلا سببٍ ومُختالاً بلا عشيقةٍ. يا جدولَ الحزن المُطاقِ الذي يجري، فَلْيَكُنْ فمي صفحةَ أرضٍ من جليدٍ، وعيناي بحيرتَيْنِ ميِّتتينِ، وإيماءاتي نَزْعاً وئيداً لأوراقِ الشَّجر العتيقِ — يا ابتهالَ **القَلَقِ كلِّهِ**، يا قُدَّاسَ **التَّعَب الأرجوانيَّ**، يا تُوَيْجَ **الزَّهرةِ**، أيَّتها المنسابَةُ، **أيا معراجاً**.

كَمْ يحزنني إذْ يتوجَّبُ عليَّ التَّضرُّع إليكِ كأنَّني أتضرَّعُ إلى امرأةٍ، وألَّا أحبَّكِ مثلما ينبغي لرجل، وألَّا أكونُ قادراً على رَفْعِكِ إلى عينَيْ حُلُمي كفجرِ جنسٍ زائف، عاليهُ سافِلهُ، لملائكةٍ لم يدخلوا الجنَّةَ قطُّ!

7

[1913؟]

سَيِّدةُ الصَّمت

لستِ امرأةً. حتَّى إنَّكِ لا تُوقظينَ فِـيَّ شيئاً قد أختبرهُ بوصفه أنثوياً. فليسَ إلَّا حينَ أتحدَّثُ عنكِ تُسمِّيكِ الكلماتُ التي أستعينُ بها أُنثى، وتمنحُكِ شكلَها مفرداتي. ولأنَّه يتوجَّبُ عليَّ أن أُكلِّمكِ كما لو في حلم رقيقٍ كَلِفٍ، لا تجدُ الكلماتُ إلَّا صوتاً من أجلِ هذا

(36) Extreme Unction: المسحة الأخيرة، في التقليد المسيحيّ، مسح القسّيس جبين المريض بزيت الزَّيتون المبارك والصَّلاة كي يشفيه الله من المرض أو الكرب. (المترجم)

فأخاطبكِ بصيغة المؤنَّث.

بَيْدَ أنَّكِ لا شيءَ في جوهركِ الغامض. لا حقيقةَ لكِ، ولا حتَّى حقيقة نَفْسكِ. إنَّني —أقولُ الصَّحيحَ— لا أراكِ أو حتَّى أشعرُ بكِ. إنَّهُ كشعورٍ هُوَ غايةُ نَفْسهِ وينتمي برمَّتهِ إلى ذاتهِ الأعمق. أنتِ دائماً المنظرُ الطَّبيعيُّ الذي كنتُ على وشك أن ألمحَه، هدبُ ثوبٍ لم أرهُ تماماً، ضائعاً في حاضرٍ أبديٍّ يستلقي حول الزاوية فحسبُ. صورتُكِ الشَّخصيَّة تُعوِّلُ على أنَّكِ لا شيءَ وشكلُ جسدكِ الوهميِّ يفرطُ نَفْسَهُ وينثرُ دُرَّ فكرةٍ أنَّ لكِ شكلاً أيضاً. لقد عبرتِ قَبْلَ الآنَ، وقَبْلاً كُنتِ، وإنَّني قد أحببتُكِ سَلَفاً — هكذا أشعرُ بحضوركِ.

تحتلِّينَ برازخَ أفكاري وصدوعَ مشاعري. لذا، فإنَّني لا أفكِّرُ فيكِ ولا أشعرُ بكِ، أو بالأحرى حينَ أحسُّ حضورَكِ، تغدو أفكاري غُوطِيَّةً. وحينَ أستحضرُكِ، تغدو مشاعري قُوطِيَّةً.

يا قمرَ الذِّكرياتِ الضائعة الذي يشعُّ على المنظر الطَّبعيِّ المعتم، يا أيَّتها البرَّاقةُ في سكون فَهْمِي النَّاقص. كينونتي تحسُّكِ على نحوٍ غامضٍ، كأنَّها زُنَّارٌ محجوبٌ يَلُفُّكِ. لقد انحنيتُ على وجهكِ الأبيضِ المعكوس في مياهِ قلقي اللَّيليَّة، بَيْدَ أنَّني لن أعرفَ أبداً إنْ كنتِ تتدلِّينَ في سمايَ لِتُحدثي ذلكَ القلقَ، أو كنتِ عوضاً عن ذلكَ قمراً غريباً في الأعماق[37] يختلقُ القلقَ فحسبُ.

لو أنَّني أستطيعُ أن أُوجدَ طريقةَ رؤيةٍ جديدةً لأراكِ، وأفكاراً جديدةً ومشاعرَ جديدةً لأفكِّرَ فيكِ وأشعرَ بكِ!

وحينَ أحاولُ أن ألمسَ سِترَكِ، تَستنفدُ كلماتي كُلَّ طاقة الجَهْد الذي أبذلهُ لأصلَ إليكِ، وتَعَبٌ شديدٌ مؤلمٌ يجعلُ كلماتي جليداً. كتحليقةِ طائرٍ يبدو أنَّه يقتربُ ولكنَّهُ لا يصلُ بتاتاً، ذلكَ التَّعبُ، بِعَيْنِهِ، يُحوِّمُ فوقَ ما أريدُ قولَهُ عنكِ، بَيْدَ أنَّ كُنْهَ جُمَلِي عاجزٌ عن محاكاة الجوهر أو صوتِ خُطاكِ، أو الأثرِ الذي تتركهُ نظراتُكِ في الخلف، أو اللَّونِ الفارغ الحزين للإيماءاتِ التي لم تأتِ بها قطُّ.

(37) الأعماق، هنا، تعود على مياه القلق في الجملة التي قبلها. كأنَّها قمر غريب يغوص تحت سطح هذه المياه (المترجم).

8

[1913؟]

تمجيدُ العبثيّ

أتحدَّثُ بجدِّيَّةٍ وحُزنٍ؛ فهذه المسألةُ ليستْ سارَّةً، لأن مسرّات الأحلام حزينةٌ ومتناقضة وهي مُبهجةٌ، لتلكَ العلَّةِ، على نحوٍ غامض.

أَطْرِفُ عيني بعضَ الشَّيء أحياناً، في داخلي، صوبَ تلكَ الأشياء العبثيَّةِ المُبهجةِ التي لا أستطيعُ أن أراها فهي تبدو غيرَ منطقيَّةٍ —الجسورِ التي تبدأُ في اللّاأَيْنَ وتذهبُ إلى اللّاأَيْنَ، الشَّوارِعِ التي لا أوَّلَ لها ولا آخرَ، المناظرِ الطَّبيعيَّة التي عَاليها سافِلُها— الأشياءِ العبثيَّةِ غيرِ المنطقيَّةِ، المتناقضة، كلِّ شيءٍ يفصلنا عن الحقيقيِّ ويُبعدنا عنهُ، عنِ الحاشيةِ الممسوخة للأفكار العمليَّة والمشاعر الإنسانيَّة والرَّغبات توقاً لِصَنيعٍ ناجعٍ وفعَّالٍ. يُنقذنا العبثيُّ رغمَ السَّأم مِنْ حالِ الرُّوح التي يبدؤُها غضبُ الأحلام الأخَّاذُ.

ثُمَّ بطريقةٍ أو أخرى أهتدي إلى وسيلةٍ غريبة غامضة لتخيُّل تلكَ العبثيَّاتِ — لا أعرفُ كيفَ يمكنني تفسيرُ ذلك، ولكنَّني أرى أشياءَ لا يمكن تصوُّرُ حتَّى أنَّها تُرَى.

9

[1913؟]

تمجيدُ العبثيّ

فَلْنَجْعَلِ الحياةَ عبثيَّةً من الشَّرقِ إلى الغرب.

10

[1913؟]

بالإحجام عن التَّضافُر في وجود العالَم الخارجيِّ، تحدثُ، من بين أشياءَ أُخَرى، ظاهرةٌ نفسيَّة عجيبة.

فَبالإحجامِ داخلياً عن الفِعْل، غيرَ مكترثٍ بِـ **الأشياءِ**، أستطيعُ رؤيةَ العالم الخارجيِّ، حينَ أنظرُ إليهِ، بموضوعيَّةٍ تامَّة. وإذْ لا علَّةَ لتغييرهِ ولا سببَ، فإنَّني لا أفعلُ.

[وهكذا أنا...]

11

[1913؟]

أحلامي: ولأنَّني أخلقُ الأصدقاءَ في أحلامي، فإنَّني أمشي معهم؛ مع نقصانهم الغريب...

كُنْ نقياً، لا لتكونَ نبيلاً أو قوياً، وإنَّما لتكونَ نَفسك. أن تمنحَ الحُبَّ هُوَ أنْ تفقدَ الحُبَّ.

أُهجرِ الحياةَ كي لا تهجُركَ نَفْسُك.

المرأةُ مصدرٌ جيِّدٌ للأحلام. لا تلمسِ المرأةَ أبداً.

تعلَّمْ أن تفصلَ أفكارَ الشَّهوة والمسرَّة. تعلَّمْ أن تتمتَّع بكلِّ شيءٍ، ليسَ لماهيَّةِ تلك الأشياء، بل للأفكارِ والأحلام التي تستثيرُها. فلا شيءَ مَا هُوَ عليهِ، ولكنَّ الأحلام دائماً هيَ الأحلامُ. ولذلكَ، لا ينبغي عليكَ أن تلمسَ شيئاً. وإنْ فعلتَ، فإنَّ حلمكَ سوف يموتُ، ويستحوذُ على مشاعركَ الشَّيءُ الملموسُ.

البصرُ والسَّمعُ هما الشَّيئانِ النَّبيلان الأوحدانِ اللَّذانِ تنطوي عليهما الحياةُ. الحواسُّ الأخرى مُبتذَلةٌ وشهوانيَّة. الأرستقراطيَّةُ الوحيدة تكمن في عدم اللَّمس. لا تقتربْ كثيراً — هذي هيَ النَّبالةُ الحقَّة.

12

[1913؟]

نُبْلٌ أن تكونَ خجولاً، شهيراً بأنَّك لا تعرفُ ماذا تصنعُ، وعظيماً لأنَّك لا تملكُ موهبةَ العَيْش.

وحْدَهُ **السَّأمُ**، الذي هُوَ شكلٌ من العُزلة، **والفنُّ**، الذي هُو شكلٌ من الازدراء، يُموِّهانِ حياتَنا بمظهَرٍ من القناعة.

فالسَّرابُ الذي يخرجُ من أنفُسِنا الفاسدة ينشرُ الضَّوءَ في عتمتنا على الأقلِّ.

وَحْدَها التَّعاسةُ تَسْمُوْ بِنَا — والسَّأمُ الذي نجنيهِ من تلكَ التَّعاسةِ لا يُنْبِئ إلَّا عن كَوْنِنَا ذُريَّةَ أبطالٍ غابرين.

أنا بئرُ إيماءاتٍ لم تُبْذَلْ قطُّ، بئرُ كلماتٍ لم تُنطَقِ البتَّةَ ولم تخطرْ أبداً على قلب بشَرٍ، بئرُ أحلام نسيتُ أن أحلمَها حتَّى النهاية.

أنا أطلالُ أبنيةٍ لم تكُنِ إطلاقاً أكثر من أطلالِ سَئِمَ أحدُهم، وَهْوَ في غمرة تشييدها، الرَّغبةَ في بنائها.

دعونا ألَّا ننسى أن نمقتَ أولئك الذين يتمتَّعونَ بالأشياء لأنَّهم يتمتَّعونَ بها، أنْ نحتقرَ أولئك السُّعداءَ لأنَّنا نحنُ لا نعرفُ كيفَ نكونُ سعداء. وما ذلك الازدراء الأجوفُ، وتلكَ الكراهيةُ العاجزة، إلَّا القاعدةُ التي نرفعُ عليها، بكبرياء وتفرُّدٍ، تمثالَ سأمِنا، شكلاً مُعتماً تَتَّقدُ على مُحيَّاهُ ابتسامةٌ خَفِيَّةٌ لا تُسبَرُ أغوارُها.

طُوبَى للَّذينَ لا يُوكِلُونَ حيواتِهم إلى أحد.

13

[1913؟]

برزخ

هذي السَّاعةُ الرَّهيبة التي إما أن تتضاءل فتصيرَ احتمالاً أو تتعاظَمَ فتغدو فَنَاءً.

فَلَا ينبلجَ الفجرُ بتاتاً، فَلْأُقَطَّرْ لَيْلاً، عتمةً مُطلقةً، أنا وهذي الغرفةُ برمَّتها والأجواءُ التي أنتمي إليها، حتَّى لا يظلَّ مِنِّيَ شيءٌ، ولا حتَّى ظلٌّ يُدنِّسُ مع ذاكرتي أياً مما تبقَّى.

14

[1913؟]

باطلٌ كلُّ ما ينطوي على فِعْلٍ، سواءٌ أكانَ حرباً أمْ تأمُّلاً؛ وباطلٌ أيُّ شيءٍ ينطوي على تنازُلٍ. لو أنَّني عرفتُ فحسبُ كيفَ ألَّا أفعلَ وكيفَ ألَّا أتنازل عن الفعل أيضاً! سيكونُ ذلك تاجَ مجدي المأمول، صولجانَ عظَمتي الصَّامت.

ولكنَّني لا أتعذَّبُ. فازدرائي شديدُ العظَمة لكلِّ شيءٍ إلى درجة أنَّني أحتقرُ نَفْسي. ولأنَّني أحتقرُ معاناة الآخرين، فإنَّني أحتقرُ كذلكَ معاناتي، ولذا أسحقُ معاناتي تحت وطأة احتقاري. آهٍ، ولكنَّني أتعذَّبُ أكثرَ حينئذٍ، فالمرءُ حينَ يُعظِّمُ معاناتَهُ فإنَّهُ يُموِّهها بالشَّمس الذهبيَّة للكبرياء. فقد تمنحُ المعاناةُ العظمى المرءَ وهمَ أنَّهُ **نبيُّ الألمِ المختارُ**.

15

[1913؟]

المالُ جميلٌ، لأنَّهُ تحرُّر...

الرَّغبةُ في الذَّهاب إلى بكّين[38] والموت هناك، وألّا أكونُ قادراً على ذلك، شيءٌ يُثقِلُ كاهلي كفكرةِ كارثةٍ مُحدِقَة.

إنَّ الذين يشترون الأشياءَ العقيمة هم أكثر حكمةً ممَّا يظنُّون: إنَّهم يشترون أحلاماً صغيرة. إنَّهم أطفالٌ حين يتعلَّقُ الأمر بالشِّراء. إنَّهم منجذبون إلى الأشياء الصَّغيرة العقيمة التي تغويهم حين تُدرِكُ بأنْ ثمَّةَ مالاً يتوجَّبُ إنفاقُه، فيتملَّكُ المشترون تلك الأشياءَ بسعادة طفلٍ يتلقطُ الأصدافَ من الشَّاطئ! فلا تُوجَد صدفتان متشابهتان بتاتاً، بالنِّسبة إلى الطِّفل. يغلبُهُ النُّعاسُ مع الصَّدفتَيْن الأجملَيْن اللَّتَيْن تقبضُ عليهما يداهُ، وحينَ تضيعان أو تُرْمَيَان —وهذه جريمةٌ أو تكادُ، كما لو أنَّ مِزَقاً سُرقتْ من روحه أو شظايا تناثرتْ من أحلامه!- ينتحبُ كإلهٍ سُرِقَ مِن كَوْنِهِ المخلوقِ حديثاً.

16

[1913؟]

فاصلٌ مؤلم

كلُّ شيءٍ يُضنيني، حتَّى تلك الأشياء التي لا تضني. فرحي مؤلمٌ كحزني.

ليتني طفلٌ يُطلق قواربَ ورقيَّة في بركة في الحديقة، وعرائشُ العنب قد تصالبتْ في السَّماء فوقَهُ، طارحةً رقاعَ ضَوْءٍ وظلٍّ أخضرَ كأنَّها رقاعُ شطرنج فوقَ الانعكاسات الدَّاكنة في المياه الضَّحلة.

لوحُ زجاج هشٌّ يحولُ بيني وبينَ الحياة. وبصرف النَّظر عن الوضوح الذي أرى بهِ الحياةَ وأفهمُها بهِ، فإنَّني لا أستطيعُ أن ألمسَهُ.

---

(38) عُرفت بكين Peking تاريخياً عند العرب، باسم: **خان بالق**، كما أورد المؤرِّخ ابن فضل الله العُمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار». (المترجم)

هل يتوجَّبُ علينا أن نستدلَّ على الطريق خارج الحُزن؟ ولكنْ لماذا، حينَ يتطلَّبُ الاستدلالُ مجهوداً؟ فالإنسانُ الحزين يفتقرُ إلى الطَّاقة الضروريَّة لبذل أيِّ جهد البتَّة.

ولكنَّني لا أتخلَّى عن الإيماءات المبتذَلة للحياة التي أتمنَّى لو أنَّني أستطيعُ أن أتخلَّى عنها. فالتخلِّي يتطلَّب جهداً، وأنا لا هِمَّةَ لديَّ كافية للقيام بذلك الجهد.

كم مرَّةً يؤلمني ألَّا أكون قبطان تلك السَّفينة، وسائقَ ذلك القطار! أنْ أكونَ شخصاً آخَر مبتذلاً حياتُهُ طافحةٌ، لأنَّها ليستْ حياتي، بلهفةٍ بهيجة وإحساسٍ شِعريٍّ بالآخَر.

لن ترعبَني الحياةُ حينئذٍ بوصفها شيئاً. ولن تُثقل كاهل أفكاري فكرةُ الحياة جُملةً.
أحلامي ملاذٌ سخيفٌ، لا يُعوَّلُ عليهِ إلَّا كمثل مظلَّة في عاصفة رعديَّة.
أنا شديدُ الخمول، كبائس فقير، ولذلك أفتقرُ كُليَّةً إلى الإيماءات والأفعال.

ومهما انغمستُ عميقاً في نَفْسي، فكلُّ مسالكِ أحلامي تُفضي إلى أمداء القلَق.

وثمَّة أوقاتٌ تُدْبِرُ فيها الأحلامُ عنِّي، على الرَّغم من أنَّني حالمٌ مُفرطٌ في أحلامه، ثُمَّ تتراءى الأشياءُ أوضح. ينقشعُ السَّديم الذي ألفُّ بهِ نَفْسي، وجميعُ الحوافِّ الصَّارمة التي تتجلَّى الآنَ تجرحُ إهابَ روحي، وجميعُ الأسطح القاسية تكدمُ بَعْضِيَ الذي يعرفُ أنَّها قاسيةٌ، وجميعُ الأشياء الثَّقيلة المُتجليَّة تُرهِقُ روحي.

كأنَّ شخصاً كانَ يستخدمُ حياتي ليضربني بها.

17

[1913؟]

بَهْوٌ مُعمَّد

وحينَ شكَّل المنظر الطَّبيعيُّ في تلك السَّاعات هالةً حول الحياة، والحلمُ ليس إلَّا أنْ يحلمَ المرءُ بِنَفْسه، أَلَفتُ، آهٍ، يا حُبِّي، في صمت قلقي، هذا الكتابَ الغريبَ كمتواليةِ أعمدةٍ تتَّسع عند جادَّةٍ مهجورة.

وكي أكتبَ هذا، قطفتُ الأرواحَ من جميع الأزهار، ومن اللَّحظات العابرة لكلِّ الأناشيد التي تصدحُ بها جميعُ الطُّيور نسجتُ أبديَّةً وخمولاً. جالساً في نافذة حياتي ناسياً أنَّني كنتُ حياً، أنَّني موجودٌ، شرعتُ في نسج أكفانٍ أُكفِّنُ بها سأمي، وأرديةِ كتَّانٍ طاهرة لمذابح صمتي.

وإنَّني أقدِّمُ هذا الكتابَ إليكِ لأنَّني أعرفُ أنَّه سيكونُ جميلاً وبلا طائلٍ على حدٍّ سواء. إنَّهُ لا يهدي إلى شيءٍ، ولا يبشِّرُ بشيء، ولا يثيرُ وجداناً. إنَّهُ جدولٌ يجري في جحيم رمادٍ تنثرهُ الرِّيحُ؛ رمادٍ لا يُخصِبُ ولا يعيثُ فساداً — لقد وضعتُ روحيَ كلَّها في صُنعهِ، ولكنَّني لم أُكن أفكِّرُ في ذلك حينئذٍ، وإنَّما في نَفْسي الحزينة وفيكِ فحسبُ؛ نفسي ونفسكِ اللَّتيْن لا أحدَ.

ولأنَّ هذا الكتابَ عبثيٌّ، فإنَّني أحبُّهُ. ولأنَّه بلا طائل، فإنَّني أرغبُ في أن أهبَكِ إياه. ولأنَّه لا طائلَ من الرَّغبة في منحهِ لكِ، فإنَّني أُعطيهِ على أيِّ حالٍ...

صلِّي مِن أجلي حينَ تقرأينَهُ، أنعِمي عليَّ بحبِّكِ لَهُ، ثُمَّ انسيهِ كما نسيتُ أولئك النِّسوة، مجرَّدَ أحلام لم أعرف كيف أحلمُها بتاتاً.

يا بُرجَ رغباتي الصَّامتَ، فَلْيَكُنْ هذا الكتابُ ضَوْءَ القمرِ المتحوِّلَ في ليلِ السرِّ العتيق!

يا نهرَ النُّقصانِ المؤلم، فَلْيَكُنْ هذا الكتابُ قارباً يطوفُ على غيرِ هُدىً في مياهكِ ثُمَّ ينجرفُ إلى قاعِ بحرٍ لَمْ يُحلَمْ بهِ بَعْدُ.

يا منظرَ الاغترابِ والهجرانِ الطَّبيعيَّ، فَلْيَكُنْ هذا الكتابُ كتابَكِ كمثلِ ساعتكِ، وَلْيَسْمُ بكِ كما تفعلُ السَّاعةُ الأرجوانيَّةُ المحتومة.

نهرٌ أبديٌّ يجري أسفلَ نافذة صمتي. أستطيعُ أن أرى الشَّاطئ الآخَر دوماً، ولا أعرفُ لِمَ لا أحلمُ بأنَّني هناك مختلفٌ وسعيدٌ. ربَّما لأنَّكِ تُواسينَ فحسبُ، تترنَّمينَ كي أنامَ فحسبُ وتُمرِّخينَ وتُقدِّسينَ فحسبُ.

فأيَّ قُدَّاسٍ أبيضَ تُقاطعينَ كي تُرسلي إليَّ بركةَ أن تجعليني أرى أنَّكِ موجودةٌ؟ وفي أيِّ دَوْرٍ في هذا الرَّقصِ المتلوِّي تتوقَّفينَ، والدَّهرُ معكِ، لتجعلي من توقُّفكِ جسراً إلى روحي ومِن ابتسامَتكِ أُرجوانَ ردائي؟

يا بجعةَ القلَقِ المنظومِ إيقاعاً، ويا قيثارةَ السَّاعاتِ الأبديَّةِ، ويا قيثارَ الأحزانِ الخُرافيَّةِ المُتردِّدَ — أنتِ المُنتظَرةُ والضَّائعةُ، يا مَن تُعانِقُ وتجرحُ على حدٍّ سواءٍ، ويا مَن تُموه مسرَّتَنا بالألمِ الذَّهَبِ وتُكلِّلُ حُزنَنا بالوردِ.

أيُّ إلهٍ أوجدَكِ، وأيُّ إلهٍ أبغضَهُ الإلهُ الذي أوجدَكِ؟

أنتِ لا تعرفينَ أو حتَّى تعرفينَ أنَّكِ لا تعرفينَ، أنتِ لا تريدينَ أن تعرفي أو ألَّا تعرفي. لقد جرَّدتِ حياتَكِ مِن غايتِها، وطوَّقتِ حضورَكِ بهالةِ الوهمِ، وكسوتِ نَفْسكِ بالكَمالِ واللَّاتجسُّدِ، حتَّى لا تقدرَ السَّاعاتُ أن تُقبِّلَكِ، أوِ الأيَّامُ أن تتبسَّمَ لكِ، أو أن تراكِ اللَّيالي رافعةً القمرَ في راحتَيْكِ حتَّى صارَ كأنَّهُ زَنبقةٌ.

يا حُبِّي، انثُريني معَ البتلاتِ عن وردكِ الأمثَلِ، زنابقكِ الأكمَلِ، بتلاتِ الأقحوانِ التي يفوحُ منها نغمُ اسمكِ.

سأُميتُ حياتي فيكِ، أيَّتها البتولةُ التي لا تنتظرُ عناقاً، ولا تبحثُ عن قُبلةٍ، ولا غايةً ترومُ.

II

سأجعلُني شاعراً جرَّاءَ حلمي بكِ، وسيحتوي نثري، حينَ يصفُ جمالكِ، على إيقاعات الشِّعر، وتثنيِّاتِ مقاطع القصائد الغنائيَّة، والأُبَّهاتِ المباغتة التي نعثرُ عليها في الأشعار الخالدة.

18

[1913؟]

كتابُ القلَق- نهاية

1

أنتِ غيرُ موجودةٍ، أعرفُ ذلك، ولكنْ هَل لِي أن أتأكَّدَ أنِّي موجودٌ؟ وهل تمتلكُ الأنا التي تسمحُ لكِ بأنْ تُوجَدي فِـيَّ حياةً حقيقيَّة بالضَّرورة أكثرَ منكِ، أكثرَ من الحياةِ الميِّتة التي تعيشُكِ؟

يا لهيبَ الهالةِ الرَّفيعة، أيا حضوراً غائباً، أيا صمتاً أنثوياً موقَّعاً، يا شفقَ الجسدِ الغامض، يا أيَّتها الكأسُ المتروكة في المأدبة، يا نافذةَ الزُّجاج المزخرفِ الذي لوَّنَهُ حلمُ رسَّامٍ مستفحلٌ في العصور الوسطى **لأرض** أخرى.

يا كأسَ العفَّةِ والقربانَ، أيا مذبحاً مهجوراً لقدِّيسةٍ مازالتْ على قيدِ الحياة، وأيا تويجاً محلوماً به لزنبقةٍ في حديقةٍ لم يدخلها أحدٌ قطٌّ...

أنتِ الشَّكلُ الوحيد الذي لا يتهلَّلُ بالسَّأم، لأنَّكِ تتبدَّلينَ رفقةَ مشاعرنا، ولأنَّكِ حينَ تلثمينَ مسرَّتَنا، فإنَّكِ تُهدهدينَ حزنَنا وسأمَنا، أنتِ الأفيونُ الذي يشرحُ الصَّدْرَ، والنَّومُ الذي يجلبُ الرَّاحة، والموتُ الذي يطوي أيادينَا برقَّةٍ فوقَ صدورنا.

أيا ملاكاً، مِن أيِّ جوهرٍ قُدَّتْ أجنحتُكِ؟ وأيُّ حياةٍ تُبقيكِ أرضيَّةً، أنتِ الَّتي لم تَطيري البتَّةَ، ولم تصعدي قَطٌّ في السَّماواتِ، أنتِ الَّتي كلُّها حبورٌ ذاهلٌ وسكينةٌ حائرة؟

[(قسم أخير)]

II

فَلْنَخْلقْكِ، آهٍ يا مَن أنتِ لي وحدي، لأنَّكِ موجودةٌ، وَلْأُخلقْ لأنَّني أرى أنَّكِ موجودةٌ، إنَّهُ فنٌّ مختلفٌ تماماً عن أيِّ فنٍّ آخر.

فَلْأَجِدْ سبيلاً كي أستمدَّ من جسدكِ الأَمْفُوْرِيِّ العقيم الوهجَ المنسيَّ لأشعارٍ جديدة،

وَلْتَعثر أصابعي المرتعشةُ، في إيقاعاتكِ البطيئة التي كأنَّها موجةٌ —موجةٌ لا أوَّلَ لها— على طريق للبحثِ عنِ الأسطرِ الخَتَّالةِ لِنَثرٍ بِكْرٍ لم يُسمَع بهِ من قَبْلُ.

فَلْتَكُن ابتسامتُكِ الغامضةُ المتلاشيةُ، مِن أجلي، الرَّمزَ الجليَّ وشِعارَ قَدَرِ العالَمِ اللَّامحدود آنَ يجدُ نَفْسَهُ مجرَّدَ خطأٍ، مجرَّدَ رَيْبٍ.

فَلْتَكُن يداكِ، يداكِ العازفتانِ على القيثارِ، قُربَ عينيَّ حينَ أموتُ لأنَّني عَمَرْتُ حياتيَ من أجلكِ. وأنتِ، يا لا أحد، سوفَ تكونينَ إلى الأبدِ -أيَّتها العَلِيَّةُ- الصَّنعةَ الفنيَّةَ الأثيرةَ لآلهةٍ لم تُوجَد مِن قَبْلُ، والأُمَّ البتولَ العاقرَ لآلهةٍ لن تُوجَد أبداً.

19

[1913؟]

أَنظرُ مرتعداً من شرفة هذا المقهى إلى الحياةِ. لا أقدرُ أن أرى جُلَّها، ليسَ إلَّا هَرجُ أناسٍ محتشدينَ في هذي السَّاحة الصَّغيرة المُشرقة التي تخصُّني. وَهَنٌ كنشوةِ[39] سُكْرٍ يُنيرُ أرواحَ الأشياء من أجلي. تنسابُ الحياةُ، في خُطى عابرٍ وفي سَوْرةِ الحركةِ المحسوبةِ، واضحةً ومُتَّفَقاً عليها، عابرةً قُربي. وفي هذي اللَّحظةِ، حين تكون جميعُ مشاعري راكدة، وكلُّ شيءٍ يبدو أيَّ شيءٍ إلَّاهُ —مشاعري خطأٌ حائرٌ ولكنَّهُ جليٌّ —أفردُ جناحيَّ، كنسرٍ خياليٍّ ضخم، ولا أطيرُ.

لعلَّ تشوُّفي الأعظم، كرجلٍ مثاليٍّ، لا يذهبُ في الواقع أبعدَ من تَبَوُّءِ هذا الكرسيِّ على هذه الطَّاولة في هذا المقهى.

عبثٌ كلُّ شيءٍ، كتهييجِ رمادٍ باردٍ، وغامضٌ كالبُرهةِ التي تسبقُ الفجر.

والضَّوْءُ يسقطُ صافياً، صفاءً شديداً، وبالغَ الكمال فوقَ الأشياء، يُذهِّبُها بحقيقةٍ حزينة وبَشُوشة. سرُّ العالَمِ يتجلَّى أمامَ عينيَّ بأكملهِ وقد قُدَّ من هذا الابتذال، هذا الشَّارع.

آهٍ، كم هي غامضة أشياءُ الحياة اليوميَّة التي نلمسها! وفوقَ سطحِ هذي الحياة الإنسانيَّة المُعقَّدة، الذي مسَّهُ الضَّوْءُ، يتفتَّحُ الوقتُ كابتسامةٍ مُتردِّدةٍ فوقَ شفاهِ السرِّ! كم جديدٍ يبدو كلُّ هذا، ولكنَّهُ في قَرارتهِ ضاربٌ في القِدَم، ومحتجبٌ جداً، ومختلفٌ اختلافاً شديداً عن هذا المعنى الذي ينبلجُ خارجَ هذا كلِّهِ!

---

(39) النَّشوة، عند العرب، هي أوَّل السُّكْر. وپِسُوًا يستخدم مفردةcomeço (بداية/أوَّل)؛ ولكنَّها جاءت، في الترجمة الإنكليزية، بصغية الجمع beginnings. (المترجم)

20

[1913؟]

دعونا لا نلمس الحياةَ حتَّى بأطرافِ أصابعنا.

دعونا لا نُحِب حتَّى في أفكارنا. دعونا لا نُجرِّب قُبلةَ امرأةٍ، حتَّى في الأحلام، كبهجةٍ حقيقيَّة.

يا حُذَّاقَ الكسَل، فَلْنُركِّز على تعليم التحرُّر من الوهم. أمَّا أولئك الذين ينتابهُمُ الفضولُ بشأنِ الحياة، فَلْيَنظروا خارجَ كلِّ بابٍ ونافذة، بالحَدْسِ المُنْهِك أنَّهم لن يَرَوْ شيئاً جديداً أو جميلاً.

يا نُسَّاجَ اليأس، فَلْنَنْسِج أكفاناً فحسبُ — أكفاناً بيضاءَ للأحلام التي لم نحلمها قطُّ، وأكفاناً سوداءَ للأيَّام حينَ نموتُ، وأكفاناً رماديَّةً للإيماءاتِ التي لم نحلم إلَّا بها فحسبُ، وأكفاناً إمبراطوريَّةً أرجوانيَّةً لمشاعرنا العقيمة.

يجوسُ الصيَّادونَ في التِّلال والوديان وشواطئ البحيرات بحثاً عن الذِّئاب والظِّباء والبطِّ البريِّ. فَلْنَكْرَههم لا لأنَّهم يقتلون، وإنما لأنَّهم يُمتِّعونَ أنْفُسَهم (ونحنُ لا نفعلُ).

فَلْيَكُنِ التَّعبيرُ المرتسمُ على وجوهنا ابتسامةً شاحبةً، كابتسامةِ الذي على وشك أن ينفجرَ في البكاء، تحديقةً ذاهلةً، كتحديقةِ الذي لا يرغبُ في أن يرى نظرةً ذاهلةً، كنظرةِ الذي يحتقرُ الحياةَ، ولا يعيشُ إلَّا ليحظى بشيءٍ يحتقره.

فَلْنَحتقر أولئكَ الذين يعملونَ ويكافحونَ، وَلْنَمْقُت أولئكَ الذين ينتظرونَ مُوقِنين.

(نهاية)

21

[1913؟]

فاصلٌ مؤلم

لا أجدُ عزاءً حتَّى في الزَّهْوِ والتَّباهي. ما الذي يدفعني إلى الزَّهْوِ وأنا لستُ خالقَ نَفْسي؟ وحتَّى لو كانَ ثمَّةَ شيءٌ فِيَّ أَزْهُوْ بهِ، فكم مزيداً من الأشياء هناكَ لا أشعرُ بأنَّها جديرةٌ بالفَخْر؟

أرقدُ مضطَّجعاً في حياتي، حتَّى إنَّني لا أعرفُ كيف أحلمُ بإيهاءة أن أنهضَ، ووليجةُ نَفْسي خاويةٌ، خواءً شديداً، فلا حماسةَ البتَّةَ لأيِّ مجهود.

مازالتِ المعاناةُ جديدةً على مُبدعي المنظومات الغيبيَّة والتَّفاسير السَّيكولوجيَّة. التَّصنيفُ المنهجيُّ، والتَّفسيرُ... والبناءُ؟ وكلُّ هذا —التَّنظيمِ، والتَّرتيب، والتَّنسيقِ— ليسَ إلَّا طاقةً مستنفدةً ويَباباً كما الحياةُ!

لستُ مُتطيِّراً. طافحونَ بالمسرَّةِ أولئك الذين يستطيعونَ أن يجعلوا معاناتهم شيئاً كونياً. لا أعرفُ إنْ كانَ العالَمُ حزيناً أمْ طالحاً، ولا أكترثُ، فأنا أشعرُ بالسَّأم واللَّامبالاة تجاه معاناة الآخرين. وطالما لا يبكونَ أو يتأوَّهونَ —ذاكَ يثير سخطي وإزعاجي— فإنَّني أهزُّ كتفيَّ تحيَّةَ تجاهُلٍ لمعاناتهم، فاحتقاري لهم عميقٌ جداً.

أُحبُّ الاعتقادَ أنَّ الحياةَ نصفُ ضياءٍ، نصفُ عتمةٍ. كلَّا، لستُ مُتطيِّراً. لا أتذمَّرُ من أهوال الحياة. لا أتذمَّرُ إلَّا من أهوال حياتي. ليستِ الحقيقةُ المُهمَّة، بالنِّسبة إليَّ، إلَّا حقيقة أنَّني موجودٌ وأنَّني أُعاني ولا أستطيعُ، بِكُلِّيَّتِي، أن أحلمَ بنفسي خارجَ الشُّعور بتلك المعاناة.

المتفائلون حالمون سعيدون. يجعلونَ العالمَ على صورتهم ويقدرونَ على الدَّوام أن يكونوا على راحتهم، فرحينَ بما لديهم. ما يؤلمني، شديدَ الألم، البَوْنُ بينَ هَرَجِ العالَم وحبورهِ وبينَ حُزني، بينَ صمتي الضَّجِر.

لا بُدَّ للحياة، على الرَّغم من أحزانها ومخاوفها وخضَّاتها، أن تكونَ طيِّبةً وسعيدة، كرحلةٍ في عربةٍ قديمة مُتقلقلة بصحبةِ الآخرين (بنافذةٍ ننظرُ منها إلى الخارج).

حتَّى إنَّني لا أستطيعُ أن أختبر معاناتي علامةً على العظمة. لا أظنُّهَا كذلك. ولكنَّني أُكابدُ مثل تلكَ الأشياء التَّافهة، إنَّني مطعونٌ بتلك الأشياء المُتبذَلة، فلا أجرؤُ بتلك الفرضيَّة التَّطاوُل على فرضيَّة أنَّني قد أكون عبقرياً.

لا يغمرني غروبُ شمسٍ جميلٌ بالمسرَّة البتَّة. ولكنَّني لا أبرحُ أُفكِّرُ: كَمْ لا بُدَّ على الشَّخص السَّعيد أنْ يشعرَ بالرِّضا لرؤية هذا [الغروب]!

هذا الكتابُ صرخةُ ألمٍ طويلةٌ. وحينَ أفرغُ من كتابتِه، لَنْ يَغْدُو [ديوانُ] «وحيداً» لأنطونيو نُوْبْرْ[iii]، الكتابَ الأشدَّ حُزناً[40] في البرتغال.

جميعُ الآلامِ الأخرى تبدو باطلةً أوْ تافهةً، مقارنةً بألمي. إنَّها آلامُ أُناسٍ سعيدين أوْ آلامُ أولئكَ الذينَ هُمْ مُفعمونَ بالحياة كفايةً كي يبثُّوا شكواهُم. ألمي ألَمُ شخصٍ مسجون في الحياة، مقطوع...

لا أرى، بيني وبينَ الحياة، إلَّا أشياءَ تجلبُ القلَق، ولا أشعرُ بأيٍّ من تلك الأشياء التي تجلبُ المسرَّة. ولقد لاحظت أنَّ التَّعاسةَ شيءٌ تراهُ بدلاً من أنْ تحسَّهُ، وأنَّ المسرَّةَ شيءٌ تحسُّهُ بدلاً من أنْ تراهُ، لأنَّكَ حين لا تُفكِّرُ ولا ترى، تعتريكَ سكينةٌ مُعيَّنة، كحالِ الصُّوفيَّةِ والبوهيميِّينَ والأوغادِ المُطلَقِين. تدخلُ التَّعاسةُ، بِقضِّها وقضيضِها، عبرَ نافذةِ المُشَاهَدة[41] وبابِ التّفكُّر.

22

[1913؟]

إنني أحلمُ إذن لا أعيشُ، أحلمُ الحياةَ الحَقَّة. فكلُّ السُّفُن سفائنُ أحلام طالما كُنَّا قادرينَ على أنْ نحلمَ بها. وليسَ عَدَمُ العَيْش مَا يقتلُ الحالمَ آنَ يحلمُ، وليسَ انعدام الأحلام مَا يُدْمِي الفَاعِلَ[42] آنَ يعيشُ. مَزَجْتُ جَمَالَ العالَمِ وحقيقةَ الحياة في لونٍ بهيج واحد. لَكَ أنْ تمتلكَ حُلُماً، ولكنَّكَ لَنْ تَمِلكَهُ أبداً على نَحْو مَا تملكُ منديلاً في جيبكَ، أوْ تملكُ —إنْ شئتَ— جسمكَ أنتَ. وحتَّى لو عشتَ حياتكَ غارقاً، من قمَّةِ رأسكَ حتَّى أخمصِ قدميكَ، في نشاطٍ محموم وجامحٍ، فَلَنْ تستطيع اتِّقاءَ التَّعامل مع الآخرينَ أَو التَّعثُّر جرَّاءَ الصِّعَاب، مهما كانتْ صغيرةً، أَوِ الشُّعور بأنَّ الوقتَ يمرُّ.

أنْ نقتلَ الحلمَ هُوَ أنْ نقتلَ أنْفُسَنا. إنَّهُ كمثلِ أنْ نستأصلَ رُوحَنَا. الحُلُمُ أعزُّ أشيائِنا الحَقَّةِ التي لا يمكنُ أنْ تُستَأصلَ، ولا سَبِيلَ إلى النَّفاذِ إليها.

---

(40) كان نُوْبْرْ نفسه هو الذي وصف الكتاب بعبارة « أشد الكتب حُزناً في البرتغال»، وذلك في البيت الأخير «que é o livro mais triste que há em Portugal»، من قصيدة «Memória»، التي افتتح بها الكتاب. (المترجم)

(41) بمعنى المراقبة والملاحظة والرَّصد. (المترجم)

(42) الذي يصنع الأفعال ويقوم بها. (المترجم)

يتتمي الكونُ —سواءٌ أَحَقاً كانَ أمْ وَهْماً— إلى كلِّ واحدٍ، وكذلكَ تنتمي الحياةُ، فكلُّ واحد يستطيعُ أنْ يرى ما أرى، ويملكُ ما أملكُ أو يستطيعُ، على الأقلِّ، أنْ يتخيَّل أنَّهُ يراهُ أو يملكَهُ...

ولكنَّني لا أستطيعُ أن أرى إلَّا ما أحلمُ بِهِ، [مَا] أستطيعُ امتلاكَهُ ليسَ إلَّا. وإنْ كانتْ سبيلي إلى رؤية العالَم الخارجي تختلفُ عن سبيل الآخرين، فذاكَ لأنَّني لا أُحسِنُ رؤيتَهُ إلَّا عَبْرَ مَا مَلَأَتِ الأحلامُ بِهِ عينيَّ وأُذُنَيَّ.

23

[1913؟]

بحيرةُ الحِيازة

الحِيازة، بالنِّسبة إليَّ، بحيرةٌ عَبَثيَّةٌ — كبيرةٌ جداً، ومدلهمَّة العتمةِ وضحلةٌ من غيرِ رَيْبٍ. ولا تبدو عميقةً إلَّا لأنَّها طافحةٌ بالقذارةِ والأكاذيب.

الموتُ؟ لكنَّ الموتَ جزءٌ لا يتجزَّأُ من الحياة. فهل أموتُ تماماً؟ لا أعرفُ. هل أنجو بِنَفْسي؟ مازلتُ أعيشُ.

الحُلُم؟ لكنْ أنْ نحلمَ جزءٌ لا يتجزَّأُ من الحياة. فهل نعيشُ الحلمَ؟ إنَّنا نعيشُ. فهل نحلمُ [الحياةَ] فحسبُ؟ إنَّنا نموتُ. والموتُ جزءٌ لا يتجزّأُ من الحياة.

تَتبعُني الحياةُ مثلَ ظِلٍّ. والظلُّ لا يكفُّ عن الوجود إلَّا حينَ لا يكونُ ثمَّةَ ظِلٌّ[43]. ولا تكفُّ الحياةُ عن تتبُّعِنا إلَّا حينَ نستسلمُ لها.

أشدُّ مَا يؤلِمُ حينَ نحلمُ هُوَ ألَّا نُوجَد، فلا نقدر على الحُلُم حَقاً.

ما الذي يعنيهِ التَّملُّك؟ لا نعرفُ. وكيفَ لنا حينئذٍ أنْ نرغب في امتلاك أيِّ شيءٍ؟ قد يقولُ المرءُ إنَّنا لا نعرفُ ما الحياةُ، ولكنَّنا على الرَّغم من ذلك نعيشُ. ولكنْ هل حَقاً نعيشُ؟ وهلِ العَيْشُ دونَ أنْ نعرف ما الحياةُ عَيْشٌ حَقٌّ؟

---

(43) يستخدم بِسُوًا، في الأصل، لفظةَ «sombra» في الموضعَيْن على حدٍّ سواء؛ بخلاف الترجمة الإنكليزية التي استخدمت لفظة «shadow»، كمقابل للكلمة في الموضع الأول، في بداية الجملة، ولفظة «shade» كمقابل للكلمة في الموضع الثاني، في نهاية الجملة. (المترجم)

24

[1913؟]

مناظرُ الطَّبيعةِ العقيمةُ التي تُزيِّنُ أقداحَ الخَزَف، تنطلق من طرف المَقْبَض لِتتوقَّفَ بغتةً في الطَّرف الآخَر. الأقداحُ دوماً متناهيةُ الصِّغَر. أين يمكنُ أنْ ينتهي ذلكَ المنظرُ الطبيعيُّ الذي لا يذهبُ أبعدَ من مَقْبَض القدح؟

قد تشعرُ بعضُ الأَنْفُس بالحُزن العميق لأنَّ المنظر الطبيعيَّ المرسومَ على مروحة صِينيَّةٍ يفتقرُ إلى الأبعاد الثلاثة.

25

[1913؟]

برزخ

أخفقتُ في الحياة - حتَّى قبل أنْ أعيشَها، فلقد أخفقتُ في رؤية فتنتِها حتَّى حين حلمتُ بها. لم أشعر إلَّا بتعب الأحلام، ثُمَّ غمرني إحساسٌ باطل ونهائيٌّ، كما لو أنَّني قد وصلت نهايةَ طريق لا متناهية. فِضتُ عن حدودِ نَفْسي على الرَّغم من أنَّني لا أعرفُ أين بالضَّبطِ أفيضُ، سَاكِناً بقيتُ هناكَ وعقيماً لا خَيْرَ فِـيَّ. أنا شيءٌ كُنْتُهُ ذاتَ مرَّةٍ. لا أستطيعُ أنْ أجِدَ نَفْسي حين أشعرُ، وَلَوْ ذهبتُ للبحث عن نَفْسي، فَلَنْ أعرف من يبحثُ عنِّي. إحساسٌ بضجرٍ عميم يُنهكني. أشعرُ كأنِّي قد نُفيتُ عن روحي.

أرقبُ نَفْسي. أنا شاهدُ نَفْسي. تتبختَرُ مشاعري مارَّةً بإحدى نظراتي العصيَّةِ على أن تُعْرَف كأشياء خارجية. يُضجرني كلُّ شيءٍ يخصُّني. لقد تخضَّبَ كلُّ شيءٍ، حتَّى أعماق جذوره الغامضة، بلونِ ضَجَرِي.

كانتِ الأزهارُ التي مَنَحَتْنِيهَا **السَّاعاتُ** قد ذهبَتْ عنها نضارتُها. لا أستطيعُ الآنَ إلَّا أن أقطف البتلات على مَهَلٍ، [وهي] سيرورةٌ أضحَتْ أعقد على مَرِّ السِّنين.

أجدُ أقلَّ الأفعال مستحيلاً، كأنَّهُ بعضُ فِعْلٍ بطوليٍّ. إنَّ مجرَّدَ التَّفكير في الإتيانِ بأصغر إيماءةٍ يُثقِلُ كاهلي كأنَّهُ شيء كنتُ قد فكَّرتُ في صُنعهِ حقاً.

لا أصبُو إلى شيءٍ. تُدميني الحياةُ. أشعرُ بالضِّيقِ حيثُ أنا وحيثُ أفكِّرُ أينَ يمكنُ أنْ أكون.

وقد يكونُ المَثَلُ الأعلى في عدم تَنَكُّبِ مَزيدٍ من الأفعالِ إلَّا باطلَ ما تفعلُه النَّافورةُ — فهيَ لا تصعدُ إلَّا لتهبط في المكان ذاته، لامعةً في ضوء الشَّمس على غير هُدىً، محدثةً جلبةً في صمت اللَّيل كي تنعقدَ ابتسامةٌ غائبة على شفتَي الحالم الذي يحلمُ بالأنهار.

26

[1913؟]

الرحلةُ التي لم تكُن قطُّ [44]

كانَ مساءَ خريف غامضاً، لمَّا أرخت العتمةُ سُدُولها، حينَ شرعتُ في رحلة لم أقُمْ بها قطُّ.

لم تكُنِ السَّماءُ —التي يستحيلُ عليَّ تذكُّرها— إلَّا بقيَّةَ أُرجوان وذهبٍ باهت، وفوقَ خطِّ الجبال الجليِّ المحتضر تدلَّى شيءٌ كأنَّهُ هالةٌ نَفذتْ نغماتُها المُميتة، على رِسْلِهَا، مِن تلك الأقطار المراوغة. وفي شِقِّ السَّفينة الآخر (حيثُ كانَ، تحت الظُّلَّةِ، بَرْدٌ أكثر وعتمةٌ أشدُّ)، يستلقي المحيطُ وقد عَرَتْهُ رِعْدَةٌ على مَدِّ الأفقِ الشَّرقيِّ الحزين، حيثُ رَفَّتْ نَسَمَةُ ظُلمةٍ كسديمٍ حَرٍّ، طارحةً ظلالَ ليلٍ فوقَ الخطِّ المعتم السيَّال فوقَ طرف البحرِ الأقصى.

وكانَ للبحرِ، أذكرُ، نغماتٌ ظِليَّةٌ متآلفةٌ شِيبَتْ بأضواءٍ خافتة تَرعشُ — كانَ كلُّ شيءٍ غامضاً غموضَ فكرةٍ حزينة في لحظة فرح، تتنبَّأُ بما لا أعرفُ.

لم أغادر من أيِّ ميناء معروف. ولا أستطيعُ حتَّى هذا اليوم أنْ أقول أيَّ ميناءٍ كانَ لأنَّني لَمْ أكُنْ هُنَاكَ بتاتاً بَعْدُ. ناهيكَ عن أنَّ غايةَ طقوس رحلتي كانتِ الذَّهابَ بحثاً عن موانئ غير موجودة — موانئ كانت نقاطَ عبورٍ فحسبُ؛ مَصبَّاتٍ منسيَّة، ومضائقَ بين مدنٍ وهميَّة لا غُبارَ عليها. وحينَ تقرأُ هذا الكلام، سوفَ تحكمُ على كلماتي بأنَّها عبثيَّةٌ، دونَ ريبٍ، فأنتَ لم ترتحلِ على الإطلاق مثلما فعلتُ.

---

(44) النَّص في الأصل مكتوب بالحبر الأسود على ورقتَيْن، من دون أن يؤشِّر عليه بِسُوًا بعلامة (L. do D.)، كما اعتاد أن يفعل، أو أن ينسبه لأيٍّ من أنداده، وهو مُؤرَّخ بتاريخ 1913 في الأسفل. (المترجم)

فهل شرعتُ في تلك الرِّحلة؟ لا أستطيعُ أن أُجيبكَ بأنَّني فعلتُ. لقد وجدتُّ نفسي في مكان آخَر، فرأيتُ موانئ أخرى، وعبرتُ مدناً غيرَ هذي المدينة، على الرَّغم من أنَّ هذي المدينة لم تكُن حقيقيَّةً البتَّة، ولم تكُن كذلك المُدن الأخريات. ولا أستطيعُ أن أُقسم أيضاً بأنَّني أنا الذي شرعَ في تلك الرِّحلة، وليسَ المنظر الطَّبيعيُّ هو الذي قد فعل ذلك، وبأنَّني زرتُ أراضيَ أخرى وليسَت هيَ التي زارتني. لا أعرفُ مَا الحياةُ، ولا أعرفُ حتَّى إنْ كنتُ أنا الذي يعيشُ الحياةَ أمْ أنَّ حياتي هي التي تعيشُنِي (لو سمحنا لكلمةِ «يعيش» الفارغة أن تعني ما تَوَدُّ أن تعنيهِ)، ولا يتوجَّبُ عليَّ أن أُقسم على أيِّ شيء في الواقع بتاتاً.

ولقدِ ارتحلتُ. يبدو من العبث أن أُفسِّرَ أنَّني لم أرتحل لأشهر أو أيَّام أو لأيِّ حِينٍ آخر من الدَّهر. ولقد رحلتُ في الزَّمن حقاً، ولا ذرَّةَ شكٍّ في ذلك البتَّة، ولكنْ ليسَ في هذا الجانب من الزَّمن، حيث نعدُّ بالسَّاعات والأيَّام والأشهر؛ لقد سافرتُ إلى الطَّرف الآخر من الزَّمن حيث لا يُحصى الزَّمن أو يُقاس. يمرُّ، ولكنَّ المرء لا يستطيع أن يحصيه. إنَّه يمرُّ أسرع من زمننا وليس أسرعَ منه على حدٍّ سواء، ولا حتَّى أسرعَ لَوْ عُدَّ بالسِّنين. قد تسألني ما الذي تعنيه هذه الكلمات، ولكنَّك مخطئ. لا ترتكب الخطأ الصِّبيانيَّ في السؤال عن معنى الأشياء والكلمات، فلا شيءَ يعني أيَّ شيءٍ.

وفي أيِّ سفينة شرعت في هذه الرحلة؟ في الباخرةِ «**أياً كانت**»[45]. أنت تضحك. وأنا كذلك أضحك، ربَّما عليك أضحك. من يقول إنَّني لا أكتب رموزاً كي تفهمها الآلهة؟

لا يهمُّ. غادرتُ عند الشَّفق. مازال الصَّوت الأجشُّ للمرساة وهي تُرفَع يرنُّ في أذنيَّ. ومازلتُ أرى، مِن طرف ذاكرتي، أذرع الرَّافعة تتحرَّك ببطء، قبل أن تعود في النِّهاية إلى خمولها المعتاد، هي التي كانت قد خدشتْ رؤيتي، قبل ساعات، بصناديق وبراميل لا نهاية لها، ثُمَّ برزتْ فجأةً للعَيان هذي الصَّناديق والبراميل مربوطةً بسلسلة، على شفير السَّفينة، حيث توقَّفت لبرهة، كاشطةً السِّياج المحيط بسطح السَّفينة، سامحةً لنفسها، وهي تتمايل، أنْ تُدفَع وتُدفَع حتَّى صارت فوق العنبر الذي انحدرتْ إليه فجأةً، ثُمَّ ارتطمتْ بصوت خشبيٍّ مكتوم في جزء مخبوء من العنبر. ثُمَّ صَعِد من الأسفل ضجيجُ فَكِّها من السِّلسلة،

---

(45) يستخدم بِسُوًّا في الأصل عبارة «Qualquér»، بحروف كبيرة، التي تعني «أيَّ/أيَّما». ولهذا آثرت استخدام لفظتي «أياً كانت» اسماً لهذه الباخرة. جول كوستا تستخدم هنا لفظة «Anyship» (أيُّ سفينة)، في حين ذهب ريتشارد زينيث في ترجمته لاستخدام لفظة Whichever. (المترجم)

ثُمَّ صعدت السِّلسلة على الفور بعد ذلك تُصلصل في الهواء، وبدأ كلُّ شيء من جديد، كما لو أنّه عبثٌ.

ولكنْ لِمَ أقصُّ عليك كلَّ هذا؟ فَمِن العبث أن أقصَّ عليك، آخذاً بعين الاعتبار أنَّني قد قلتُ إنَّني سأحدِّثك عن رحلاتي.

زرتُ قارَّاتٍ أوروبَّا جديدة، ورحَّبتْ بوصولي مُبحراً على ظهر سفينة شراعيَّة، في مضائق بوسفور مزيَّفة، قُسطنطينيَّاتٌ[46] أخرى. سفينة شراعيَّة، قد تسألُ؟ نعم، صحيحٌ. فالباخرة التي أقلَّتني حين غادرتُ قد وصلت إلى ميناء [...] الأعظم، كسفينة شراعيَّة. ولكنَّك تقول إنَّ ذلك مستحيل. ولهذا حدث كلُّ شيء.

وصلتني الأخبار، على ظهر سفن شراعيَّة أخرى، عن حروب محلوم بها في بلاد هندٍ مستحيلة. وحين تناهتْ إلى مسامعنا أحاديث عن تلك الأراضي شعرنا فجأةً بالحنين إلى أرضنا، لا لشيءٍ بالطَّبع سوى أنَّ أرضَنا لم تكُن أرضاً بتاتاً.

27

[1913؟]

أنْ نُنظِّمَ حياتنا حتَّى تغدو سراً للآخرين، حتَّى لا يعرفنا أولئك الذين يعرفوننا حقَّ المعرفة إلَّا عن قُرْبٍ. هكذا شكَّلتُ حياتي، بلا قَصْدٍ أو أكادُ، ولكنَّني أدخلتُ فيها كثيراً من الفنِّ الغريزيِّ إلى درجة أنَّني صرتُ، حتَّى بالنِّسبة إلى نَفْسي، فرداً غير واضح تماماً.

28

[1913؟]

إستطيقا اللَّامبالاة

ما يتوجَّب على الحالم محاولتُهُ كي يشعرَ تُجاه أيِّ شيءٍ هو اللَّامبالاة المُطلقة التي يستفزُّها، بوصفه شيئاً، في داخله.

أن تعرفَ بالغريزة على الفور كيف لا تستخلص من كلِّ شيءٍ وحدَثٍ إلَّا ما يصلح مادَّةً

(46) جمع كلمة قسطنطينيَّة. (المترجم)

مناسبةً للأحلام، وأن تتركَ لما هُوَ ميِّتٌ في العالم الخارجي أيَّ حقيقة واقعيَّة يحتويها، ذاكَ ما يتوجَّب على الحكيم السَّعي إلى تحقيقه في نَفْسه.

لا يتوجَّب على المرء البتَّة أن يحسَّ بمشاعره مُخلصاً من أعماق قلبه، ثُمَّ يُعلي من شأن ذلك النَّصر الباهت بدرجة يكون فيها قادراً على النَّظر إلى طموحاته وأشواقه ورغباته بعين اللَّامبالاة؛ أن يمرَّ المرءُ بأفراحه وأحزانه كما يتوجَّبُ عليه حينَ يمرُّ بشخص لا يُعيره أيَّ اهتمام.

وكبح النَّفْس الأعظم الذي يستطيع المرء تحقيقه هُوَ اللَّامبالاة تجاه نَفْسه، الإيمان بنفسه وجسده وروحه، ألَّا يكون سوى البيت والحديقة حيث قدَّر القدَرُ أن يقضي فيهما المرء حياته.

ولا بُدَّ للمرء أن يتعامل مع أحلامه ورغباته الحميمة باللَّامبالاة المُتكبِّرة التي لسيِّد عظيم، مُظهِراً القَدْرَ الأعظم من الرِّقَّة التي تُمكِّنه حتَّى من عدم ملاحظتها. ولا بُدَّ أن يمتلك المرء إحساساً بالتَّواضع تجاه نَفْسه، وأن يُدرك أنَّنا لن نكون وحيدين البتَّة في حضرة أنفسنا، فنحن شهداء على أنفسنا، ولذلك فمن الأهميَّة أن نتصرَّف دائماً كما نفعل أمام الغريب، مُتَّخذين مظهراً خارجياً مدروساً وهادئاً؛ لا مُبالياً لأنَّه أرستقراطيٌّ، وبارداً لأنَّه لا مُبالٍ.

وكي لا نحطَّ من قَدْر أنفسنا في أعيننا، تكفي ضرورة أن نتعوَّد على ألَّا نُخفي أيَّ طموحاتٍ أو شغف أو رغبات أو آمال أو غرائز أو مشاعر مرتبطة بالقلَق. ولا بُدَّ، لتحقيق ذلك، أن نتذكَّر أنَّنا دائماً في حضرة أنفسنا، وأنَّنا لن نكون وحيدين على الإطلاق، وبأنَّنا لن نرتاح أبداً. هكذا سوف نتحكَّم بالشَّغف والطموحات لأنَّ الشَّغف والطموحات تجعلنا عاجزين عن الدِّفاع عن أنفسنا، ولا بُدَّ في المقابل ألَّا نرعى الرغبات أو الآمال، لأنَّها مجرَّد إيماءات فظَّة وغير أنيقة، ولا يتوجَّب علينا أن نكون عُرضةً للغرائز الفجائيَّة أو للقلَق، لأنَّ السُّلوكَ الأرعن وقاحةٌ في عيون الآخرين، وقلَّة الصَّبر سُوقيَّة دائماً.

الأرستقراطيُّ شخص واعٍ دائماً لحقيقة أنَّه ليس وحيداً البتَّة، ولهذا فإنَّ آداب السُّلوك واللَّياقة الاجتماعيَّة خصيصة فطريَّة لدى الأرستقراطيَّة. لا بُدَّ أن نستوعب الأرستقراطيَّ. ولا بُدَّ أن نجرَّه بعيداً عن غرف الرَّسم والحدائق كي يدخل أفكارنا، عوضاً عن ذلك،

ووعينَا بوجودنا. فلنتعامل دائماً مع أنفسنا بآداب السُّلوك واللّياقة الواجبة وبالإيماءات الحذرة المُسخَّرة لصالح الآخرين.

كلُّ واحدٍ مِنَّا مجتمعٌ برمَّته، أُمَّةُ الله جمعاء؛ فلا أقلَّ من أن نُضفي حينئذ بعض الأناقة والأصالة على الحياة الدَّائرة في ناحية البلدة التي نعيش فيها، أن نحرص على أنْ تتَّسم الاحتفالاتُ التي تقيمها حواسُّنا بالذَّوق الرَّفيع والاحتشام، وبالأُبَّهة الرَّصينة والدَّماثة في مآدب أفكارنا. فَلْتُقِمِ الأرواحُ الأخرى مساكنَها الفقيرة المُتداعية من حولنا، وَلْتَتْرُكُونَا نُعلِّمُ بوضوح أين تبدأ حدود مساكننا وأين تنتهي، ونتأكَّد من أنَّ كلَّ شيء، من واجهات منازلنا حتَّى الأحرام الدَّاخليَّة لِخَجْلاتنا، نبيلٌ ورائق، منحوتٌ بأناقة وأناة.

ولا بُدَّ أن نجد لكلِّ شعور أسلوبَ التَّعبير الأهدأ؛ أن نختزل الحُبَّ إلى مجرَّد ظلِّ حلم حُبٍّ، برزخ شاحب ومرتجف بين قمَّتَي موجتَيْن صغيرتَيْن تلمعان في ضوء القمر؛ أن نصنع من الرَّغبة شيئاً عبثياً ومُسالماً، الابتسامةَ الرَّقيقة والخاصَّة التي تتبسَّمُها روحٌ إلى نَفْسها؛ أن نصنع منها شيئاً لا يُفكِّرُ إطلاقاً حتَّى في الإعلان عن حضوره، ناهيكَ عن إدراك نَفْسه. لا بُدَّ أن نُهدهد الكراهية لتنام كأفعى حبيسة، ونأمرَ الخوف ألَّا يحفظَ غير الكرب في عينيه وفي عيون أرواحنا، الموقفَ الوحيد الجدير بمُحبٍّ للجمال.

29

[1913؟]

جمالية الخديعة

تَحولُ الحياة بَيني وبينَ أن أكون قادراً على التَّعبير عن الحياة. فلو كنتُ سأخوض غمار حُبٍّ عظيم، فلن أكون قادراً على وصفه البتَّة.

وأنا نَفْسي لا أعرفُ إنْ كانت «الأنا» التي أبثُّها أمامكم في هذه الصَّفحات الشَّيطانيَّة موجودةً بالفعل أمْ مجرَّدَ مفهوم جماليٍّ مزيَّف اختلقته بِنَفْسي عن نَفْسي. نعم، إنَّني أعيش جمالياً في كينونة أخرى. لقد نحتُّ حياتي كتمثال صُنع من مادَّة غريبة عنِّي، حتَّى إنَّني لا أعرفُنِي، في بعض الأحايين، فلقد غدوتُ بَرَّانياً، شديدَ البرَّانيَّة على نَفْسي، ونشرتُ وعيي بِنَفْسي على نحو في غاية البراعة الفنيَّة. فَمَن أنا خلف هذي اللَّاحقيقة؟ لا أعرفُ. لا بُدَّ أن

أكون شخصاً ما. وإنْ لم أسعَ إلى أن أعيشَ، إلى أن أفعلَ أو أشعر، فإنّ ذلك -صدِّقني- كي لا أُقلق راحة الخطوط التي قد خُطَّتْ مسبقاً لِنَفْسي المزيَّفة. أُريدُ أن أكونَ ما أُريدُ تماماً ولكنَّني لستُ كذلك. إن عشتُ فسوف أدمِّر نَفْسي. أريد أن أكون عملاً فنياً، فيما يخصُّ روحي على الأقلِّ، مادام ذلك مستحيلاً جسدياً. ولهذا فقد نحتُّ نَفْسي بهدوءٍ ولا مبالاةٍ ثُمَّ وضعت نَفْسي في دَفيئة، بعيداً عن تيَّارات الهواء والضوء المباشر - حيث يمكن لزهرة اصطِنَاعي الغريبة أن تتفتَّح في جَمال مُخْتَلٍ بِنَفْسه.

أفكِّر في بعض الأحيان كم جميلاً سيغدو الأمر لَو استطعتُ توحيد أحلامي وخلق حياة لا تنقطع، حيث تتعاقب الأيَّام يوماً وراء يوم، وضيوف مُتخيَّلون يحضرون مآدب مُتخيَّلة، فأعيش تلك الحياة المزيَّفة وأذوق مُرَّها وألتذُّ بها. ولسوف تشتدُّ بِي هناكَ بناتُ الدَّهر[47]، فأذوق أفراحاً عظيمةً. ولن يكون أيٌّ منها حقيقياً، لكنَّها ستمتلك منطقها الرَّائع من تلقاء نَفْسها؛ ستتبعُ إيقاعَ باطلٍ شهوانيٍّ وتحدثُ في مدينة صُنعَتْ من رُوحي، ممتدَّةً إلى حيثُ الرَّصيف الذي قُرب الخليج الهادئ، بعيداً داخل نَفْسي، بعيداً، بعيداً جداً... ولسوف تكون في غاية الوضوح جميعاً ومحتومة، وفي الحياة الجماليَّة الخارجية الأقلِّ التي عِيشَتْ بعيداً عن الشَّمس.

30

[بعد 10 مايو 1913]

ضعي يديكِ معاً، ضعيهما بينَ يديَّ وأصغي إليَّ، يا حبيبتي.

أريدُ أن أخبركِ، بالصَّوت الخفيض المُواسي لشخص باءَ بذنبه ويُسدي النَّصيحة، كيف أنَّ رغبةَ تحقيق شيء تبزُّ ما قد حقَّقناه بالفعل إلى حدٍّ بعيد.

أريدُ أن أُرتِّلَ عليكِ ابتهالَ اليأس وأنتِ تُنصتين باهتمام شديد.

لا تُوجَد صنعةٌ فنيَّة لا يمكن أن تكون أكثر كَمَالاً. فاقرئي بيتاً بيتاً، فلا قصيدة، مهما

(47) تقول العرب: اشتدَّت به بَنَاتُ الدَّهر، كناية عن المصائب التي تحيق بالمرء. ولقد وضعتها، هنا، مقابل العبارة «Misfortunes would befall me there». (المترجم)

كانت عظيمة، لا تضمُّ بيتاً واحداً لا يمكن تجويده، ولا واقعةً لا يمكن أن تكون أشدَّ وطأة، فالكُلِّي ليس كاملاً تماماً البتَّة إلى درجة أنَّه لا يمكن أن يكون أكثر كَمَالاً.

الويلُ للفنَّان الذي يلاحظ هذا، الذي يفكِّر ذات يوم بهذا. لن تغدو صنعته بهجةً مرَّة أخرى بتاتاً، ولن ينام قريرَ العين ثانيةً أبداً. سيغدو شاباً محروماً من الشَّباب ويهرم بسخط.

ولماذا يُكلِّفُ المرءُ نَفْسه عناءَ التَّعبير عن نَفْسه؟ ولِمَ من الأفضل أن يظلَّ غير مَقولٍ هذا الذي يتوجَّب على الصَّغير قوله.

لَوِ استطعتُ إقناع نَفْسي بجمال الزُّهد، وكم من المؤلم أن أكون سعيداً إلى الأبد!

ولأنَّكِ لا تُميِّزين ما أقوله بالأُذنَيْن اللَّتَيْن أسمع بهما نَفْسي تقولُ. فلو سمعتُ نَفْسي تتحدَّث بصوت عال، فإنَّ الأُذنَيْن اللَّتَيْن أسمع بهما نَفْسي تتحدَّث بصوت عال لا تُنصتان إليَّ بالشَّاكلة التي تُنصِت بها أُذُني الجُوَّانيَّة التي بها أجرؤ على التَّفكير في هذه الكلمات. ولو توجَّب عليَّ مراراً، حين أُنصت إلى نَفْسي، أن أسأل نَفْسي ماذا أعني، كم من الصِّغار الآخرين سوف يفهمني؟

يتكوَّن فهمُ الآخرين لنا من سُوءِ أفهام كثيرة معقَّدة.

لن يعرفَ من يريد أن يُفهَم أبداً لَذَّةَ أن يُفهَم، لأنَّ هذا لا يحدثُ إلَّا للمُعقَّدِين نفسياً والمُسَاء فهمُهم، [أمَّا] النُّفوس البسيطة، تلك التي يمكن للآخرين فهمها، فلا تشعر بالرَّغبة في أن تُفهَم.

31

[بعد 10 مايو 1913]

[ابتهالُ اليأس؟]

هل فكَّرتِ يوماً، أيَّتها الأُخرى، كم بعضُنا محجوب عن بعض؟ وهل تأمَّلتِ كم قليلاً بعضُنا يعرف بعض؟ يرى أحدنا الآخر ولا يراه. نسمع بعضنا، ولا يسمع كلُّ واحد منَّا سوى صوت في داخلنا.

كلمات الآخرين أخطاءٌ في سمعنا، حطامُ سفائن في فهمنا. كم نؤمن واثقَيْن بتفسيرنا لكلمات الآخرين. للمُتَع الحِسيَّة، التي يحوِّلها الآخرون إلى كلمات، طعمُ الموت عندنا. نقرأ

الحِسيَّةَ والحياة في الكلمات التي يقولها الآخرون دون قصد قول أيِّ شيء بليغ...
صوتُ الجداول التي تُفسِّرينها، أيَّتها المُفسِّرةُ النَّقيَّةُ، صوت الأشجار التي نُملي على همهماتها المعنى - آهٍ، يا حُبِّيَ المجهولَ، كم يشبهنا هذا، ببساطة، حين تتسلل الخيالات الرماديَّة المحضة بين قضبان زنزانتنا!

32

[نحو 15 مايو 1913]

[تجلِّي[48] العبثيّ (أو تجلِّي الأكاذيب)؟]

إن هذا بالنظر إلى احتماليَّة ألَّا يكون كلُّ شيء باطلاً، وألَّا شيءَ، يا حبيبتي، يشفينا من نوبة الكذب الممتعة.

مثل هذا النقاء! ضلالٌ مطلَق! فللكذبة العبثيَّة كلُّ سحر الضَّالِّ رفقةَ السِّحر المَزيد والأعظم لكون المرء بريئاً. ضلال النيَّة البريئة، مَن يستطيع الزيادة على هذا النقاء؟ الضَّلال الذي لا يتوق حتَّى إلى منحنا المُتعة، والذي يفتقر إلى الرَّغبة المحتدمة في إيلامنا، والذي يسقط على الأرض نصفَ ألمٍ، نصفَ مُتعة، عقيماً وعبثياً كدُميةٍ صُنعت بفجاجةٍ يسعى راشدٌ إلى أن يُسلِّي بها نَفْسه!

ألا تعرفينَ، أيَّتها **الواحدةُ الشَّهيَّةُ**، مُتعةَ شراء الأشياء غير الضَّروريَّة؟ أتعرفين طعم الطُرُق التي إذا سُلِكَتْ، وأفكارُ المرء سائحة في مكان آخر، فسوف تُسلَك خطأً؟ أيُّ أفعال بشريَّة ألوانُها بجمال ألوان الأعمال الباطلة، التي تُشيع الكذب بشأن طبيعتها الحقَّة وتكذب بشأن نيَّتها الحقَّة؟

المُتعة السَّامية في تبديد حياةٍ كانت من الممكن أن تكون مفيدة؛ في عدم إنجاز عمل كان سيكون جميلاً من دون شكٍّ؛ في التَّخلِّي منتصفَ الطَّريق عن طريق النَّصر المُحتَّم!

آهٍ، يا حبيبتي، يا مجد أعمال ضاعت ولن تُوجَد أبداً، مجد أطروحات لم ينجُ منها سوى العناوين، مجد مكتبات شبَّت فيها ألسنة النِّيران، مجد تماثيل مكسورة.

---

(48) كلمة epiphany، في حدِّ ذاتها، مأخوذة من الكلمة اليونانيَّة epiphaneia التي تعني الظهور أو التجلِّي. وتشير الكلمة في المسيحيَّة إلى عيد الغطاس أو عيد الظُّهور الإلهي. (المترجم)

مُطوَّبون بالعبث أولئك الفنَّانون الذين أحرقوا عملاً فنياً في غاية الجمال، أو أولئك الذين، على الرَّغم من مقدرتهم على صنع شيء جميل، قد صنعوه ناقصاً[49] عمداً، أو شعراء الصَّمت العظام أولئك الذين، وهم يعرفون أنَّهم قادرون على صُنع شيء كامل تماماً، قد اختاروا ألَّا يجازفوا البتَّة. (على الرَّغم من أنَّه لو كان ناقصاً، لبدت تلك مسألة أخرى).

كم ستكون الجوكوندا أجمل لو استطعنا ألَّا نراها! ولو سرقها شخص وأحرقها، فأيَّ فنَّان عظيم سوف يكون، سيكون أعظمَ من الرَّجل الذي رسمها!

لماذا الفنُّ جميل؟ لأنَّه عبثيٌّ. ولِمَ الحياة ذميمة؟ لأنَّها برمَّتها أهداف ومقاصد ونوايا. فكلُّ طُرقها معنيَّة بالذَّهاب من هذه النُّقطة إلى تلك. يا ليتنا نُعطَى طريقاً بين مكان لا يغادره أحد بتاتاً وآخر لا يذهب إليه أحد أبداً، فحسب! لو كان ثمَّة مَن يُكرِّسون حياتهم لبناء طريق تبدأ من منتصف أحد الحقول وتنتهي في منتصف حقل آخر؛ طريق لو امتدَّت، لكانت مفيدة، ولكنَّها ستظلُّ، على نحو جليل، منتصفَ طريقٍ فحسبُ.

جمال الأطلال؟ حقيقة أنَّها لم تَعُد نافعة لشيءٍ البتَّة.

عذوبةُ الماضي؟ أن نكون قادرَيْن على تذكُّرها، فتذكُّر الماضي أنْ نجعله حاضراً مرَّة أخرى، فالماضي ليس الحاضرَ ولا يمكن أن يكون - عبثيةٌ، يا حبيبتي، عبثيةٌ.

فلماذا، إذن، أُسطِّرُ هذا الكتاب؟ لأنَّني أعرف أنَّه ناقص. فلو حلمتُ به، لبلغ حدَّ الكَمال؛ فحقيقة كتابته في حدِّ ذاتها تجعله ناقصاً، ولهذا أُسطِّرهُ.

ولأنَّني، فوق ذلك كُلِّه، أُدافع عن العقيم والعبثيِّ - فإنَّني أُسطِّرُ هذا الكتاب كي أكذب على نَفْسي، لأخون نظريَّتي الخاصَّة.

وإنَّ مجد هذا كلِّه، يا حبيبتي، هو فكرة أنَّ هذا ربَّما ليس حقيقياً، وأنَّني ربَّما حتَّى لا أومن بأنَّه سيكون حقيقياً.

فَلْنقُلِ الحقيقة، حين يبدأ الكذب في إمتاعنا، كي نكذب على الكذب. وَلْنتوقَّف، حين يُقلقنا، كي لا تُعظِّمنا المعاناة ولا تجلب لنا مُتعةً سادرة في غيِّها...

---

(49) ضدُّ الكامل والتَّام؛ كلُّ ما هو ناقص في حدِّ ذاته، وليس كل ما يذهب من الشَّيء بعد تمامه. (المترجم)

[نحو 15 مايو 1913]

قصيدة پيدرو الرَّعويَّة[50]

لا أعرف أين رأيتُكِ أو متى. ولا أعرف إنْ كان ذلك في رَسمةٍ أم في حقل حقيقيٍّ، بين أشجار ونباتات معاصرة لجسدكِ؛ ربَّما في رَسمةٍ، فالذِّكرى التي أحفظها لكِ مثاليَّةٌ جداً وفي غاية الوضوح. ولا أعرف حتَّى متى وقع ذلك أو إنْ كان قد وقع فعلاً -فمن المحتمل ألَّا أكون قد رأيتكِ في رسمة- ولكنَّني أعرف بكلِّ حُدوس بصيرتي أنَّها كانت أصفى اللَّحظات في حياتي.

كنتِ، يا راعيةَ الثِّيرانِ الصَّغيرةَ، تمشين بهدوءٍ، رفقةَ ثور ضخم ووادع، على امتداد شريط الطَّريق العريض. رأيتكِ من بعيد، أو هكذا يُخيَّل إليَّ، فجئتِ نحوي، ثُمَّ مشيتِ أمامي مباشرة. كنتِ كمن لا يلحظ وجودي هناك. كنتِ النَّاطورة البطيئة الذَّاهلة لذلك الثَّور الأكبر. ولقد نَسِيَتْ تحديقتُكِ أن تتذكَّر، وكان ثمَّة صفاءٌ عظيم في روحكِ؛ فلقد هجرتِ وعيَكِ بِنَفْسكِ كلَّهُ. فكنتِ، في تلك اللَّحظة، ليسَ أكثر مِن...

وحين رأيتُكِ، تذكَّرتُ أنَّ المُدن تتغيَّر، ولكنَّ الحقول أبديَّةٌ. نُسمِّي الأحجارَ والتِّلال توراتيَّةً، لأنَّها هي ذاتها على الدَّوام، على الشَّاكلة التي كانت عليها الأحجار والتِّلال في الأزمنة التَّوراتيَّة.

وأُودِعُ، في تلك النَّظرة الخاطفة القصيرة لجسمكِ المجهول، كلَّ طاقة الحقول الحافلة بالذِّكريات، فحين أفكِّر فيكِ، تملأُ روحي السَّكينة التي لم أشعر بها قطُّ. تمايلتْ مشيتُكِ قليلاً، تموَّجتْ مُتردِّدةً، وكلُّ إيماءة أرسلتِها كانت مثل طائر يحطُّ؛ زواحفَ صغيرةٍ محجوبة تلتفُّ حول جسدكِ. صمتُكِ -كانت الشَّمس تغيب ولُغُوبُ شِيَاهٍ جاءَ يَثْغُوْ، وأجراسٌ

---

(50) وهنا مثال آخر على تعدُّد قراءة خطِّ پِسُوَّا العويص: نرى العنوان في الطَّبعتَيْن البرتغاليَّتَيْن اللَّتَيْن حرَّرهما ورتَّبت مقاطعهما كلٌّ من برادو كويلو (1982، المقطع 286، المجلَّد الثَّاني، 10–11) وزينيث (2012، المقطع 506، 474–475) على هذا النَّحو «Pastoral De Pedro»، فيما نراه في طبعة سوبراو كونيا (2008، المقطع 86، 103–104) وطبعة پيسارو (2010، المقطع 33، 39–40) على هذا النَّحو: «Écloga De Pedro». في حين يُظهِر النصُّ الذي خطَّه پسوا على وجهي قصاصة ورقيَّة، بقلم حبر أسود، والمحفوظ في المكتبة الوطنيَّة، أنَّه وضع كلمة Pastoral أوَّلا ثُمَّ خطَّ تحتها على نحو غير واضح تماماً كلمة هي أقرب إلى Écloga. وكلتا اللَّفظتين تعني في البرتغاليَّة «قصيدة رعويَّة/نشيد الرُّعاة». (المترجم)

تُجلجلُ، أسفلَ المُنحدَرات الشَّاحبة للسَّاعة - كان صمتُكِ نشيدَ الرَّاعي الأخير، الذي أُقصيَ من قصيدة رعويَّة نسيَ أن ينظمها ڤرجيل، فظلَّ غير مُغنًّى إلى الأبد، وصورته الظِّليَّة منعكسة على الحقول إلى الأبد. لعلَّكِ كنتِ تبتسمين؛ لنفسك، ولروحك، تتخيَّلين نَفْسكِ في عقلكِ وتبتسمين. ولكنَّ شفتَيْكِ كانتا ساكنتَيْن كشكل التِّلال، وكانت إيماءة يديكِ القرويَّتَيْن، التي أنساها، مُكلَّلةً بأزهار الحقل.

نعم، لا بُدَّ أنَّني قد رأيتُكِ في رسمةٍ، ولكنْ من أين جئتُ بفكرة أنَّني رأيتُكِ تمشين صوبي، ثُمَّ تتجاوزينني، وأنا أسيرُ، فلا تستديرين لأكون قادراً على أن أراكِ الآن ودائماً؟ يتوقَّف الزَّمن ليسمح لكِ بالعبور، ولقد أخطأتُ وضعَكِ في غير مكانكِ حين حاولتُ وضعك في الحياة - أو في مظهر من مظاهر الحياة.

34

[1913؟]

لا أسخط، فالسُّخط للأقوياء، ولا أتخلَّى عن نَفْسي، فالتَّخلِّي للنُّبلاء؛ ولا أظلُّ صامتاً، فالصَّمت للعظماء. لستُ قوياً ولا نبيلاً ولا عظيماً. أُعاني وأحلم. أتذمَّر لأنَّني ضعيف، ولأنَّني فنَّان فإنَّني أُسلِّي نَفْسي بنسج موسيقى حول تذمُّراتي وترتيب أحلامي لتناسب فكرتي عن الأحلام الجميلة على أكمل وجه.

نَدَمي الوحيد هو أنَّني لست طفلاً، لأنَّ ذلك سوف يسمح لي بالإيمان بأحلامي والإيمان بأنَّني لست مجنوناً، الأمر الذي سوف يسمح لي بأنْ أنأى بروحي عن جميع أولئك المحيطين بي...

ولقد تركني عَدُّ الأحلام واقعاً، والعيش كثيراً في الأحلام، مع شوكة هذي الوردة الباطلة؛ حياتي المحلوم بها: حتَّى أحلامي لا تُرضيني، فَلي عليها مآخذُ.

ولا أستطيع، حتَّى حين أدهن هذا اللَّوح الزُّجاجيَّ بأَحلام مُلوَّنة، أن أحجب عن نَفْسي همسَ الحيوات الأخرى التي وراءه.

طُوبى لصُنَّاع الأنظمة المتشائمة. ليس لشعورهم بالرَّاحة لأنَّهم قد صنعوا شيئاً فحسب، وإنَّما لأنَّهم يسعدون بالأشياء القابلة للتَّفسير، ويشعرون أنَّهم جزء من معاناة كونيَّة.

أنا لا أتذمَّر بشأن العالَم. أنا لا أحتجُّ باسم الكون. لستُ متشائماً. إنَّني أُعاني وأتذمَّر، ولكنَّني لا أعرف إنْ كانت المعاناة هي القاعدة العموميَّة أمْ أنَّ الإنسانيَّة أن يعاني المرء. ولماذا أكترث إنْ كان هذا صحيحاً أم غير ذلك؟

إنَّني أُعاني، ربَّما أستحقُّ. (أُيَّلٌ مُطارَدٌ).

لستُ متشائماً، إنَّني حزينٌ فحسبُ.

35

[1913؟]

فَلْنَعِش على الأحلام وللأحلام، نُخرِّب الكون ونعيد تكوينه ذاهلينَ، كي يناسب اللَّحظة التي نحلم فيها، على أكمل وجه. فَلْنَفْعَل ذلك مُدركينَ عقمَهُ المُطلَق. فَلْنتجاهل الحياة بجسدنا كلِّه، وننفصل عن الواقع بحواسِّنا كلِّها، ونتخلَّى عن الحُبِّ بروحنا كلِّها. فَلْنَمْلأِ الجرارَ التي نأخذها إلى البئر برملٍ عقيم، ثُمَّ نفرغها، لنملأها ثانيةً ونفرغها من جديد؛ فكلَّما كان فعلنا هذا بلا جدوى فهو أفضلُ.

فَلْنَحْبِك أكاليلَ زهورٍ ثُمَّ، حين تَتِمُّ، نفكُّها بأناةٍ ودقَّة متناهية.

فَلْنَخْتَر دهاناتٍ ونمزجها على لوحة الألوان، ولا قماشةَ قُبَّ أمامنا كي نرسم عليها. فَلْنُرسل في طلب مَن ينحت الحجرَ حين لا يكون لدينا إزميلٌ ولسنا نحَّاتين. فَلْنُصَيِّر كلَّ شيءٍ عبثاً، ونُزيِّن ساعاتنا العاقرة بمزيد من العُقم[51]. فَلْنَلعب الغُمَّيضة مع وعينا بأنَّنا على قيد الحياة.

فَلْنُنصت إلى الله، وابتسامة مرتابة ونشوانة على شفاهنا، وهو يخبرنا بأنَّنا نُوجَدُ. فَلْنَنظرِ الزَّمن يرسمُ العالَم، فنجد أنَّ الصُّورة النَّاجمة ليست زائفة فحسب، وإنما جوفاء بلا معنى.

فَلْنُفكِّر في التَّناقضات ونتكلَّم بأصوات ليست أصواتاً وألوان ليست ألواناً. فَلْنَقُل

---

(51) بصيغة الجمع في الأصل. (المترجم).

-ونفهم، حيث الفهم، بالطَّبع، مستحيل- بأنَّنا نعي أنْ لا وعيَ لنا، وأنَّنا لسنا نحن. فَلْنُفسِّر هذا كلَّهُ بطريقة غامضة ومتناقضة، قائلينَ إنَّ للأشياء جهةً أُخرى إلهيَّةً، وإيَّاكم أن نؤمن كثيراً بهذا التَّفسير كيلا نضطَّر إلى نبذه.

فَلْنَنحت من الصَّمت الفارغ أحلامَ كلامنا كلَّها. فَلْنَسمح لأفكار أفعالنا كلِّها بالانزلاقِ إلى سبات عميق.

ولكنَّ المناظر الطَّبيعيَّة المحلوم بها ليست إلَّا دخاناً ينبعث من مناظر طبيعيَّة معلومة، وسأم الحُلم بها عظيمٌ عِظَمَ السَّأم الذي ننظر به إلى العالَم، أو يكادُ.

ويحوِّمُ ذاهلاً فوق هذا كلِّه، كسماءٍ زرقاء واسعة، رعبُ أن نعيش.

36

[أغسطس 1913]

في غابة الاغتراب[52]

أعرفُ أنَّني قد صحوتُ وأنَّني نائماً لاأزال. يخبرني جسدي القديم، الذي أضنته الحياة، أنَّ الوقت مازال مبكِّراً جداً... أشعر من بعيدٍ أنَّ الحُمَّى تدبُّ في جسدي، فَأَتَّاقَلُ، لسببٍ أو لآخر، على نَفْسي...

خمدتُ، في حالٍ من السُّبات المُشرِق، الطَّافح بطاقة روحانيَّة عظيمة، بين النَّوم واليقظة، في حلم هُوَ ظلُّ الحلم. يطفو انتباهي بين عالمَيْن، فأمعن النَّظر كالأعمى إلى أعماق البحر وإلى أعماق السَّماء، فتتداخل أعماق البحر والسَّماء بعضها في بعض، وتمتزج، فلا أعرف أين أنا ولا بأيِّ شيءٍ أحلمُ.

(52) نشر بِسُوًا هذا النّص، باسمه الصَّريح، وبالعنوان ذاته (في البرتغاليَّة: Na Floresta Do Alhemaneto) في مجلة «A Águia» (تعني «النّسر» في البرتغاليَّة)، العدد العشرين، الأوَّل من أغسطس 1913 (38–42). وكان بِسُوًا قد أعرب في ملحوظة تركها حول كيفيَّة ترتيب «**كتاب القلَق**» عن تفكيره في نشر بعض المقاطع الطويلة المعنونة من لدنه، في كتاب منفصل، قائلاً: «وقد يكون ثمّة داعٍ لتضمين فقرات طويلة، ذات عناوين باذخة، مثل «**جنازة لودفيغ الثَّاني، ملك بافاريا**» أو «**سيمفونيَّة اللَّيل المضطَّرب**». وثمَّة داعٍ أيضاً لنبذ فقرة «الجنازة» مثلما هي أو تضمينها في كتاب آخَر رفقةَ الفقرات الطَّويلة الأخرى على حدٍّ سواء». وجدير بالذِّكر أنَّ بِسوا قد خطَّ في نهاية نصّ «**غابة الاغتراب**» أنَّه جزء من «كتاب القلق، قيد الإعداد Do Livro do Desasocego, em preparação». (المترجم)

ريحٌ غامضة تُذرِّي رفاتَ نوايا ميّتة على الشَّخص الذي أكونُهُ حين أستيقظُ. فيسقط ندى السَّأم الدَّافئُ من سماء مجهولة. ويضطَّرب قلَقٌ عظيم هامد في روحي فيكدِّرني، لبعض الوقت، كالنَّسيم الذي يكدِّر رؤوس الأشجار.

أنا في غرفة نومي الدَّافئة التي هدَّها التَّعب، والفجر في الخارج ليس إلَّا نفَساً قاتماً. كُلِّي فوضى هادئة... لِمَ يتوجَّب على الصُّبْح أن يتنفَّس؟ فمعرفة أنَّ الفجر سوف ينبلج يُرهقني، كأنَّ ذلك يتطلَّب منِّي جُهداً عظيماً.

ثُمَّ هدأتُ، شيئاً فشيئاً، على نحو غامض. غرقتُ في سُباتي ثانيةً. طفوتُ في الهواء، نصفَ يقظان، ونصفَ نائم، ثُمَّ تجلَّى واقعٌ من نوع آخر لا أحد يعرف من أينَ، وأنا في المُنتصَف...

إنَّه يتجلَّى، ولكنْ دون أن يمحو حقيقةَ غرفة النَّوم الدَّافئة والرَّطبة هذه أو تلك الغابة الغريبة. إنَّهما تتعايشان في عقلي، مغلولتَيْن إلى ذَيْنِكَ الواقعَيْن، كعموديْ دخان يمتزجان.

ولا ريب أنَّ هذا المنظر الطَّبيعيَّ الهائل الشَّفَّاف ينتمي إلى هذه الحقيقة والأخرى على حدٍّ سواء.

ومَن هذي المرأة التي، مِثلي، تُسَربِلُ الغابةَ الغريبة بنظرتها المُتفرِّسة؟ ولماذا يتوجَّب عليَّ حتَّى أن أسأل نَفْسي ذلك السُّؤال في هذي اللَّحظة؟ ولا أعرف حتَّى إنْ كنتُ راغباً في أن أعرف...

غرفتـي الفارغة زجاجٌ معتم أنظر مـن خلاله عَمْداً إلى ذلك المنظر الطَّبيعيِّ... منظرٍ طبيعيٍّ عرفته منذ وقـت مديد، ومنذ وقت مديد أيضاً، برفقة هذه المرأة المجهولة ذاتها، تجوَّلتُ، أنا الواقع المختلف، في واقعها هي. أشعر أنَّ معرفةً عمرها قرونٌ تعتمل فِـيَّ؛ معرفةً عن تلك الأشجار وتلك الأزهار وهذي الدُّروب غير المطروقة، وعن الأنا التي تتمشَّى فيها، قديمة وبادية لِعِيَان نظرتي المُتفرِّسة التي تُسربلها معرفةُ أنَّني في هذه الغرفة برؤية غامضة...

وفي تلك الغابة، بين تارة وأخرى، حيث أستطيع أن أرى نَفْسي وأشعر بها من بعيد، ريحٌ بطيئة تكنس الدُّخان، فيغدو ذلك الدُّخان الرُّؤيةَ الواضحة والقاتمة لغرفة النَّوم التي أنا فيها حاضرٌ، لقطع الأثاث الغامضة والسَّتائر هذه وسباتها اللَّيليِّ. ثُمَّ تعبر الرِّيح فيغدو كلُّ شيءٍ المنظرَ الطبيعيَّ لذلك العالَمِ الآخر ولا شيءَ سواهُ...

ثُمَّ تغدو هذه الغرفة الضَّيِّقة، في أوقات أخرى، سديماً أَرمدَ على أُفق تلك الأرض البديلة... وثمَّة لحظات تغدو فيها الأرض التي نمشي عليها هذه الغرفةَ الجليَّة ذاتها...

أحلمُ وأطفو، نَفْساً مزدوجةً، أنا وتلك المرأة... لُغُوبٌ عظيم يستحيل ناراً سوداء تُبدِّدني... ولهفةٌ كامنة عظيمة تستحيل حياةً باطلة تعانقني...

يا لها من سعادة مُضجِرة! أن أكون إلى الأبد في نقطة حيث يتشعَّبُ سبيلان! أحلم وخلفي شخص آخر يحلم معي... ربَّما لستُ سوى حلم ذلك الشخص غير الموجود...

في الخارج، الفجرُ البعيد أبدَ الدَّهر! الغابة حاضرة، على أشدِّ ما يكون الحضور، أمام عينيَّ الأخريَيْن!

وحين أكون بعيداً عن ذلك المنظر الطبيعيِّ، فإنَّني أكاد أنساه، ولا أفتقده إلَّا حين يتجلَّى أمامي، ولا أبكيه وأتوق إليه إلَّا حين أمشي فيه...

الأشجار والأزهار والسِّرُّ دروبٌ مُرتصَّة بالأشجار!

كنَّا نمشي معاً في بعض الأحيان، ذراعاً بذراع، تحت أشجار الأَرز وأشجار يهوذا[53]، ولا تعنُّ على بال أحدنا فكرة أن نعيش. كان لحمنا عطراً غامضاً وحياتُنا صدى ينبوعٍ فوَّار. وكنَّا نشبك يديْنا، وكانت عيوننا تتساءل عمَّا ستكون حال المرء لو كان كائناً حِسياً ويرغب في جعل الجسد وهمَ الحُبِّ...

وكانت في حديقتنا أزهار من كلِّ زوجٍ بهيج - ورود ذات بتلات جعَادٍ، وزنابق بيضاء مَشوبة بالأصفر، وأزهار خشخاش كان يمكن أن تكون خبيئةً لو لم تَخُن حضورَها حُمرتُها المتورِّدة، وبضع بنفسجات على الحوافِّ المزدحمة لمساكب الزَّهر، وزهور أُذُن فأر صغيرة، وكاميليا قاحلة لا أريج فيها... وفوق العشب الطَّويل العيونُ الواسعة لعبَّادات الشَّمس الوحيدة التي كانت ترقبُنا.

وكانت برودة الطَّحالب البادية تداعب أرواحَنا التي تُبصر كلَّ شيء، فَسِرنا مارِّين بأشجار النَّخيل، وشعرنا بإيحاء قادم من الأراضي الأخرى... ثُمَّ طفحت عيوننا بالدُّموع لأنَّه حتَّى هنا، حيث كنَّا سعيدَيْن، لم نكُن سعيدَيْن...

(53) سُمِّيت بهذا الاسم لأنَّ يهوذا قد شنق نفسه على أغصان هذه الأشجار، بعد أن خان المسيح، كما تقول الأسطورة. (المترجم)

ثُمَّ زلَّتْ بنا الخُطى فوق المجسَّات الميِّتة لأشجار بلّوط عتيقة طافحة بالعُقَد... أشجار دُلْبٍ شاهقة جامدةً تنتصِبُ... وفي المسافة، ملموحةً عبر الأشجار، تتدلَّى عناقيد عنب أسود تونع على عرائش صامتة...

طار أمامَنا حلمُ أن نعيش، فتبسَّمنا له الابتسامةَ اللَّامبالية ذاتها وروحانا متَّفقتان، دون الحاجة إلى أيِّ تبادُلٍ للنَّظرات، بألَّا يرى أحدنا الآخر إلَّا كذراعٍ تستريح على الثِّقل الطَّوعيِّ لذراع الآخر الشَّاعرة بها.

لا باطنَ لحياتنا. كُنَّا الخارجَ والآخرَ تماماً. لم نعرف نَفْسَيْنَا، كأنَّنا قد تجلَّينا لروحَيْنا، ليس إلَّا، بعد رحلة عبر الأحلام...

ولقد نسينا الزَّمن، فبدت، حين نظرنا إليه، شساعة الفضاء صغيرة أيضاً. فهل كان ثمَّة شيء حقيقيٌّ هناك، بعيداً عن تلك الأشجار القريبة وتلك الكروم البعيدة، وتلك الجبال في الأفق البعيد؛ شيءٌ نال جدارة تفرُّس المرء في الأشياء التي تُوجَدُ؟

أعلنت السَّاعة المائيَّة لنقصاننا انقضاءَ ساعات غير حقيقيَّة بقطرات أحلام بطيئة ومنتظمة... لا شيء يستحقُّ العناء، يا حُبِّيَ البعيد، إلَّا معرفة كم هُوَ جميل أن نعرف ألَّا شيء يستحقُّ العناء...

حركة الشَّجر السَّاكنة؛ سكون النَّوافير القَلِق؛ الزَّفير العصيُّ على الوصف الذي تزفره الإيقاعات السِّرِّيَّة للنُّسغ؛ غروب الأشياء البطيء، الذي يبدو قادماً من الدَّاخل ويمدُّ يداً روحانيَّة عطوفة إلى الحُزن الذي يكبرُ، بعيداً كُلَّ البُعْدِ عن الرُّوح وقريباً كُلَّ القُرب منها، والذي ينبعث من صمت السَّماء الباسق؛ تساقط أوراق الأشجار، المحسوب والعبثيُّ، كقطرات اغتراب يغدو فيها المنظر الطَّبيعيُّ شيئاً للآذان وحدها، كحنينٍ إلى وطن مُستحضَرٍ في الذَّاكرة - كلُّ هذا يربط بعضنا ببعض، دونَ يقينٍ، كحزام يظلُّ إبزيمه مشدوداً على الدَّوام.

ولقد عشنا هناك زمناً، زمناً عاجزاً عن أن يمرَّ، في فضاء لا يمكن للمرء حتَّى أن يُفكِّر في قياسه؛ زمناً يمرُّ خارج الزَّمن، وفضاءً لا يعرف شيئاً عن الأعراف المألوفة للفضاء الحقيقيِّ... آهِ يا رفيقةَ سأمي العقيمةَ، أيُّ ساعاتِ قلَقٍ سعيدٍ قد بدتْ ساعاتُنا! ساعات فطنة شاحبة، أيَّام حنينٍ فضائيٍّ، قرون جُوانيَّة لمناظر طبيعيَّة خارجية... ولم نسأل نَفْسَيْنا لأجل أيِّ شيء

كان ذلك، فلقد أسعدتنا معرفة أنَّه لم يكُن لشيء.

بحاسَّة سادسة لم نمتلكها، عرفنا بطريقة أو أخرى أنَّ العالَم المُؤلم الذي سنكون فيه اثنَيْن، إنْ كان مثل هذا العالَم موجود حقّاً، يمتدُّ وراء الأفق الأقصى حيث الجبال ليست إلَّا أشكالاً مزفورةً، لا شيءَ وراءها. ونظراً إلى تناقض معرفة هذا الشَّيء فإنَّ الزَّمن الذي قضيناه هناك كان معتماً عتمةَ كهفٍ في أرض المُتطيِّرين، وكانت حقيقةُ أنَّنا نستطيع الشعور بذلك غريبةً كمشهد مدينة مغربيَّة تنعكس صورتُه الظِّليَّةُ على سماء المساء الخريفيَّة...

ثُمَّ تكسَّرت، على الأفق المسموع، أمواج محيطات مجهولة على شواطئ لن نراها أبداً، ففرحنا أن نسمع هذا، إذ بتنا قادرَيْن على أن نرى في داخل نَفْسَيْنا ذلك المحيط الذي مخرت عبابَهُ سفن شراعيَّة صغيرة واثقة لتحقيق أهداف تختلف كليَّةً عن تلك الأهداف العمليَّة التي تطلبها الأرض.

ونلاحظ فجأة، كشخصين يلحظان فجأة أنَّهما على قيد الحياة، وأنَّ الهواء كان طافحاً بأغاريد الطُّيور وأنَّ تَثَنِّي الورقة على الورقة كالأمواج، على شاكلة العطور المُعتَّقة التي تفيح في الحرير الفاخر، قد كان مكنوناً في داخلنا أعمق من وعينا بأنَّنا نستطيع سماعه.

وهكذا فإنَّ دندنات الطُّيور، وهمس الأشجار والضَّجيج الخلفيَّ الرَّتيب المنسيَّ للبحر الأبديِّ الذي وضع حول حياتنا المهجورة هالةً من الجهالة. نمنا لأيَّام مستيقظَيْن، قانعَيْن بأنَّنا لا شيء، بلا رغبات أو آمال، فلقد نسينا لون الحُبِّ أو طعم الكراهية. كُنَّا نُظنُّنا خالدَيْن...

عشنا هناك ساعات مليئة بطريقة مختلفة تماماً في خوض غمار تلك السَّاعات، ساعاتٍ من نُقصانٍ فارغ، كاملةٍ في نقصانها، مائلة على يقين الحياة المُتعامد... ساعاتٍ إمبراطوريَّةٍ من إمبراطوريَّة مدحورة، ساعاتٍ مُسربلة بالأرجواني الباهت، ساعاتٍ ساقطة في هذا العالَم من عالَمٍ آخر يفخر فخراً شديداً بأحوال قَلَقِهِ الكثيرة المتهالكة...

والنَّهار على ستائر غرفة النَّوم ظِلُّ ضَوء. ولشفتيَّ اللَّتَيْن أعرف أنَّهما شاحبتان طعمُ رغبة في عدم العيش.

والهواءُ في غرفتنا الحياديَّة ثقيل الوطأة كستارة مسدلة في مدخل الباب. انتباهنا الوسنان بسرِّ هذا كلِّه منهكٌ كحاشية ثوب يجرُّ أذيالَه على الأرض في حفل دائرِ ساعةَ الشَّفق.

ولا سببَ كي تُوجدَ أيٌّ من رغباتنا، فانتباهنا عبثٌ سمحت بهِ عطالتُنا المُجنَّحة.

ولا أعرفُ أيَّ زيوتٍ غامضة تُمرِّخُ فكرة جسدنا. فتعبُنا ظِل تعَبٍ فحسب. يأتي إلينا من بعيدٍ، كفكرتنا عن امتلاك حياةٍ...

لا اسمَ لأيٍّ منَّا ولا وجودَ ظاهرياً لنا. فلو كُنَّا قادرَيْن بما يكفي على تخيُّل نَفْسَيْنَا نضحكُ، لضحكنا بلا ريبٍ على فكرة التَّفكير بأنَّنا نعيشُ. البرودة الدَّافئة للملاءة تُمسِّد أقدامنا (قدميكِ وقدميَّ على حدٍّ سواء)، الأقدامَ التي تشعر بأنَّها عارية تماماً، بعضُها تجاه بعض.

إيَّاكِ أنْ نُخدَع، يا حبيبتي، بشأن الحياة وطرائقها. فَلْنَهرب من كوننا نحنُ... إيَّاكِ أن نخلع من إصبعنا الخاتمَ السحريَّ الذي حين يُفرَكُ، يستحضرُ جنيَّات الصَّمت وعفاريت الظِّلال وأقزامَ النِّسيان...

وحين نحلم بالكلام عن الغابة، فإنَّها تصعد أمامنا مرَّة أخرى، حتَّى إنَّها أكثر اضطراباً الآن من اضطرابنا وأكثر حزناً من حزننا. كسديم رفيعٍ، تهرب فكرتنا عن العالم الحقيقيِّ أمامها، ثُمَّ أملكُ نَفْسَي ثانيةً في حلمي الشَّريد، حلم شكَّلته الغابة الغامضةُ...

آهٍ، الأزهار التي رأيتُها هناك! الأزهار التي ترجمها البصرُ إلى أسماء، حين عرفتُها، التي التقطت روحي عطرَها، لا من الأزهار نفسِها، بل من لحن أسمائِها... أزهار لم تكُن أسماؤها، حين كُرِّرَتْ مُتعاقبةً، إلَّا أوركستراتٍ كاملة من عطور رنَّانةٍ... وأشجارٌ يطرح أخضرُها الشَّهوانيُّ ظلاً على أسمائها وبرودةً... ثمار كانت أسماؤها قَضْماً في رُوحِ لُبِّها عَيْنِهِ... ظلال كانت آثارَ سوالف أزمنة سعيدة... تجليَّاتٌ، تجليَّات صافية، كانت أوضح الابتسامات التي افترَّ عنها المنظر الطبيعي الذي يمتدُّ مُتثائباً قُربي... آهٍ أيَّتها السَّاعاتُ العديدةُ ألوانُها! أيَّتها اللَّحظاتُ الأزهارُ، ويا أيَّتها الدَّقائقُ الأشجارُ، آهٍ أيُّها الزَّمن المُتجمِّدُ في الفضاء، أيُّها الزَّمنُ المُسجَّى ميِّتاً في الفضاء، تُغطِّيه الأزهار وعطور الأزهار وعطور أسماء الأزهار!...

حلمٌ مجنونٌ في ذلك الصَّمت الغريب!

كانت حياتُنا الحياةَ برمَّتها... وكان حُبُّنا عطرَ الحُبِّ... عشنا ساعاتٍ مستحيلة، مُمتلئَيْن بكوننا نحنُ... ذاكَ أنَّا عرفنا، بكلِّ ذرَّةٍ في جسدنا، أنَّنا لم نكُن حقيقةً...

كُنَّا غيرَ شخصَيْن، مُتجرِّدَيْن من نَفْسَينا، شيئاً آخر تماماً... كُنَّا ذلك المنظر الطَّبيعيَّ الذي تلاشى من وعيه... ومثلما كان المنظر الطبيعيُّ منظرَيْنِ -الحقيقيَّ والوهميَّ- فإنَّنا كُنَّا كذلك اثنين على نحو غامض، ولا أحد منَّا يعرف تمامَ المعرفة إنْ كان الآخر هُوَ نَفْسه أو نَفْسها أم

غير ذلك، أو إنْ كان الآخر المُلتبَس على قيد الحياة...

وحين وجدنا نَفْسينا أمام البحيرات المُتجمِّدة، شعرنا برغبة في البكاء... هناك، امتلأت عيون المنظر الطبيعيِّ بالدُّموع، عيون لا تتحرَّك، طافحة بسأم الكينونة الذي لا حدَّ لَهُ... نعم، طافحة بسأم الكينونة، سأم وجوب أن يكون شيئاً، حقيقياً أو وهمياً - وكان ذلك السَّأم قِد توطَّنَ مع صوته في صمت تلك البحيرات ومنفاها... غير أنَّنا كُنَّا لانزال نمشي جاهلَيْن. وعلى الرَّغم من ذلك، يبدو أنَّنا كُنَّا نتسكع قُرب شواطئ تلك البحيرات، لأنَّ كثيراً منَّا، أنا وأنتِ، قد عاش هناك وتسكَّع، متجسداً ومتشَرَّباً...

ويا لَهُ مِن رعبٍ جديد وبهيج أنَّ أحداً آخر لم يكُن هُناك! حتَّى نحن، اللَّذان كُنَّا نمشي هناك، لم نكُن هناك... لأنَّنا لم نكُن أحداً. لم نكُن شيئاً قَطُّ... لم تكُن لدينا حياةٌ قد يقتلها الموت. كُنَّا ضعفاء، على أشدِّ ما يكون الضَّعفُ، ولا يعبأُ بنا أحد البتَّة، إلى درجة أنَّ الرِّيح العابرة قد تركتنا بلا حول ولا قوَّة وداعبتنا السَّاعة العابرة كنسيم في رأس نخلة.

لم نمتلك عُمراً ولا أَرَب. تركنا الغاية من كلِّ الأشياء وجميع المخلوقات عند باب جنَّة الغياب تلك. ولكي نشعر بِنَفْسَينا تشعران، لم يتحرَّك شيء، لا أرواح جذوع الشَّجر القاسية، ولا أرواح الورق المعروضة، ولا أرواح الزَّهْر التي بلغت سِنَّ الرُّشد، ولا أرواح الثَّمَر التي تنوءُ بالأحمال...

وهكذا نموت طيلة حياتَنا، عازمَيْن على موتِ حياتَيْنا الشَّخصيَّة إلى درجة أنَّنا لم نلحظ أنَّنا قد كُنَّا واحداً والشَّخصَ نَفْسَهُ، وأنَّ كِلَيْنَا كان وهمَ الآخر، وفي داخل كلِّ واحد كان صدى نَفْسِنَا الأصغر...

ذبابةٌ تطنُّ حيرانةً، وأصغرَ ممَّا يكونُ...

تناثرُ أصواتٍ مشرقٌ وغامض يومضُ في عقلي، مالئاً بضوء النَّهارِ وعيي بغرفتي... غرفتنا؟ بأيِّ معنى أقول غرفتنا ما دمتُ وحيداً؟ لا أعرف. كلُّ شيء يذوب بعيداً وكلُّ ما تبقَّى، إذ يزول، ليس إلَّا واقعاً يسوده الضَّباب تغرق فيه رِيبَتي، ويهوي وعيي بذاتي في النَّوم، بعد أن هدهده الأفيونُ.

هَا إنَّ الصُّبحَ قد تنفَّسَ، ساقطاً من رأسِ السَّاعة الشَّاحب...

وجذوات أحلامنا قد التهمتها ألسنةُ النِّيران، يا حبيبتي، في مُصطلى حياتنا...

إيَّاكِ أن يخدعنا الأمل، فهو يخونُ، أو أن يخدعنا الحُبُّ، فهو يُتعِبُ على مرِّ الأيَّام، أو أن تخدعنا الحياة، فهي تُتخِمُ ولا تُشبِعُ، أو أن يخدعنا الموت، فهو يجلب أكثر ممَّا يرغب المرءُ وأقلَّ ممَّا يتوقَّعُ.

إيَّاكِ أن يخدعنا سأمُنا، أيَّتها **الواحدةُ المُحتجبةُ**، فالسَّأمُ يهرم في حدِّ ذاته ولا يجرؤُ تماماً على أن يكون القلَقَ الذي هُو.

إيَّاكِ أن نبكي، إيَّاكِ أن نكره، إيَّاكِ ألَّا نرغب...

فَلْنُدَثِّر، أيَّتها **الواحدة الصَّامتةُ**، صورةَ نقصانِنا الميّتةَ الجامدة بملاءة كتَّانيَّةٍ فاخرة...

37

[1913؟]

لو كانت حياتُنا وقفةً طويلة واحدة عند النَّافذة، لَوِ استطعنا البقاءَ هناك فحسب، مثل لَفَّةِ دخانٍ صغيرة لا تتحرَّك، جامدةً في اللَّحظة اليتيمة في المساء الذي يرسم منحنى التِّلال بالألم. لَوِ استطعنا البقاءَ هُنَاك أبعدَ إلى الأبد! لَوِ استطعنا البقاءَ على تلك الشَّاكلة، في جانب المستحيل هذا على أقلِّ تقدير، كأنَّ على رأسَيْنا الطَّيرَ، ولا تقترف شفاهنا الشَّاحبةُ خطيئةَ التَّفوُّهِ بمزيد من الكلمات!

أُنظري، هَا إنَّ اللَّيلَ يُرخى سُدُولَهُ! وسكينةُ كلِّ شي، التي لا لُبسَ فيها، تملؤني بالغضب، بشيء هُوَ الطَّعم المُرُّ المُتبقِّي على اللِّسان للهواء الذي أتنفَّسه. روحي تتوجَّعُ... وشريط دخان يصعد، في البعيد، ثُمَّ يتبدَّدُ... سأمٌ قَلِقٌ يحجبُ أيَّ أفكار إضافيَّة قد تنتابني عنكِ...

كم هُوَ غير ضروريٍّ هذا كلُّه؟ نحن والعالَم وسرُّهما على حدٍّ سواء.

38

[1913؟]

هَا إنَّ المطر ينهمرُ، وابلاً بعدَ وابلٍ... كأنَّ شيئاً في الظُّلمةِ خارجاً كان على وشك أن يُطلَق له العنانُ...

يُخيَّلُ إليَّ اليومَ أنَّ الكومة التَّليَّة العشوائيَّة للمدينة أكثر من مُجرَّد سهل؛ سهلٍ طافح بالأمطار. وحيثما يمَّمتُ عينيَّ، فإن كلَّ شيءٍ بلون المطر، أسود شاحب.

تغمرني أحاسيس مثيرة غريبة، باردة كلُّها. يُخيَّلُ إليَّ الآن أنَّ المنظر الطبيعيَّ ليس إلَّا سديماً، والبيوتُ هي السَّديمُ الذي يحجبُه.

وسوسةٌ، لم تبلغ حَدَّ العُصَابِ بعدُ، عمَّا سأكونُ حين لا أعودُ نَفْسي، تُرجِفُ جسدي وروحي. وَتَعْرُوني هِزَّةٌ في الأعماق إذْ يَغْشَى النَّفْسَ ما يغشى، كأنَّها ذكرى موتيَ المُؤجَّل. وأشعر، في ضبابِ الحَدْس، بأنَّني مادَّة مَيتةٌ، طريحة الأرض في المطر، ناحتْ عليها الرِّيحُ.

والبردُ الذي لن أشعر به حينئذٍ يقضمُ قلبيَ الرَّاهن.

39

[1913]

كيف نحلم على أكمل وجه

أَجِّل كلَّ شيء. لا تفعل اليوم ما تستطيع تأجيلَه إلى الغد. لا يتوجَّب عليك أن تفعل أيَّ شيء، غداً أو اليوم.

لا تُفكِّر البتَّة فيما ستفعله. لا تفعله، هكذا بكلِّ بساطة.

عِش حياتك. ولا تتركها تعيشك أبداً. كُنْ نَفْسك، في الصَّواب والخطأ، وفي الصِّحة والمرض. ولن تستطيع فعل ذلك إلَّا بالحُلم، فحياتك الحقَّة، حياتك البشريَّة، لا تنتمي إليك، بل إلى الآخرين. فبدِّل حياتك بالحلم واحرص على أن تحلم على أكمل وجه. ففي جميع أفعال حياتك الحقَّة، منذ يوم ولادتك وحتَّى يوم مماتك، لستَ مَن يقوم بتلك الأفعال؛ فأنت لا تعيش، أنت عشتَ فحسب.

كُن أبا هَوْلٍ عبثياً في عيون الآخرين. اِحبس نَفْسك في برجك العاجيِّ، ولكن لا تَصفِق خلفَك الباب، فبرجك العاجيُّ هُو أنت.

وإذا أخبرك أحدٌ أنَّ هذا باطل وعبثيٌّ، فلا تصدِّقه. ولا تُصدِّق ما أقصُّه عليك أيضاً، فأنتَ لا بُدَّ ألَّا تُصدِّق شيئاً.

احتَقِر كلَّ شيء، ولكن بالطَّريقة التي يبدو فيها الاحتقار طبيعيّاً جدّاً. ولا تظنَّ أنّك متفوِّق حين تحتقر الآخرين. فهنا يكمن فنُّ الاحتقارِ النَّبيلُ.

40

[1913؟]

بحيرة التَّملُّك

لا شيءَ ينفذُ، لا الذرّاتُ ولا الأرواحُ. ولهذا لا يستطيعُ شيءٌ امتلاكَ شيء آخَر. فمن الحقيقة إلى المنديل، لا شيءَ قابلٌ للامتلاك. (المُلكيَّة ليست سرقة[54]: إنَّها لا شيء).

41

[1913؟]

كيف تحلم على أكمل وجه

اِحرصْ، في البَدْءِ، على ألَّا تحترم شيئاً وألَّا تؤمن بشيء. ويتوجَّب أن يكون موقفك، حين تواجه الأشياء التي لا تحترمها، موقفَ الرَّاغب في احترام شيء ما؛ وينبغي على مشاعر النُّفور التي تنتابك، حين تواجه ما لا تُحِبُّ، أن تكون على شاكلة رغبة مؤلمة في أن تُحبَّ؛ ولا تحتفظ من ازدرائك للحياة إلَّا بفكرة أنَّ عيشَ الحياة وحُبَّها أمرٌ حسَن. هكذا سوف ترفع القواعد لأحلامك.

واحرصْ على أن تكون البناية التي تقترح تشييدها أطول المباني جميعها. أنْ تحلم أنْ تجد نَفْسك. ستكون كولمبوس روحك. ستنطلق باحثاً عن مناظرها الطَّبيعيَّة. تأكَّد، حينئذ، من الانطلاق في الاتِّجاه الصَّحيح وأنَّ أدواتك دقيقة.

فنُّ الحُلم صعب فهو فنٌّ سلبيٌّ، إذ يُقصَد من بذل أيِّ جُهدٍ خلقُ غيابٍ تامٍّ لأيِّ جُهد. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ فنَّ النَّوم، إنْ كان ثمَّة فنٌّ، يشبه هذا بطريقة أو أخرى.

وتذكَّر، إنَّ فنَّ الحُلم ليس فنَّ توجيه أحلامك، فأنْ تُوجِّه يعني أن تفعل. الحالم الحَقُّ يُسلِمُ نَفْسه إلى نَفْسه، سامحاً لنَفْسِه بأنْ تملكها نَفْسُه.

---

(54) يعارِض بِسُوَّا، هنا، المقولة الشَّهيرة، «المُلكيَّة سرقة La propriété, c'est le vol!»، التي أطلقها پيير جوزيف

اهرب من جميع الاستفزازات. ثمَّة، كي تبدأ، اغراءُ أن تستمني. وثمَّة، بعد ذلك، إغراءُ الكحول والأفيون... فجميع هذه الأشياء تتطلَّب فعلاً من نوع ما. ولا بُدَّ، لتكون حالماً جيِّداً، أن تكون حالماً، ليس إلَّا.

واحكم على نَفْسك دائماً بأن تكون أكثر حزناً ممَّا أنت عليه وأتعس. فهذا شيء ليس سيِّئاً البتَّة. ولأنَّه وهم، فإنَّه خطوة من الخطوات المفضية إلى الحُلم.

42

[بعد 12 سبتمبر 1913]

حطام سفائن؟ كلَّا، أبداً. ينتابني انطباعٌ، على الرَّغم من ذلك، بأنَّ جميع رحلاتي انتهت وقد تحطَّمت السَّفائن، إنَّ خلاصي مخبوء بعيداً في حالات وعيٍ مُتقطِّعة...

أحلام غامضة، وأضواء مُشوَّشة، ومناظر طبيعيَّة محيِّرة - ذاك ما تبقَّى في روحي بعد كلِّ أسفاري.

ينتابني انطباع بأنَّني قد عرفتُ ساعاتٍ من كلِّ لونٍ، غراميَّات من كلِّ نكهة، رغبات من كلِّ شكل وحجم. ولقد أسرفت في الشَّهوات إسرافاً لا يُحَدُّ، ولكنَّني لم أكُن كافياً لِنَفْسي البتَّة حتَّى في أحلامي.

لا بُدَّ أن أُفسِّر بأنَّني قد ارتحلت حقاً، ولكنَّ كلَّ شيء يتلمَّظ عليَّ لأنَّني حدَّثت نَفْسي بأنَّني قد ارتحلت، على الرَّغم من أنَّني لم أفعل. حملتُ جيئةً وذهاباً، من الشَّمال حتَّى الجنوب، ومن الشَّرق حتَّى الغرب، تعبَ أنَّ لديَّ ماضياً، قلَقَ أنَّني أعيشُ حاضراً، وسأمَ ضرورة أن يكون لديَّ مستقبل. ولكنَّني مازلت أكافح كفاحاً شديداً، لأبقى في الحاضر تماماً، قاتلاً فِيَّ الماضي والمستقبل.

سرتُ على طول ضفاف أنهار وجدت أنَّني لا أعرف أسماءها. وجدت نَفْسي، وأنا جالس على طاولات المقاهي في المدن التي زرتها، مُفكِّراً في كلِّ شيءٍ كان بالنِّسبة إليَّ بطعم الأحلام، بطعم الفراغ. وكنت أجد نَفْسي في بعض الأحيان متسائلاً إنْ كنتُ ماأزال جالساً على طاولة بيتنا القديم، بلا حَراك وقد أبهرتني الأحلام! لا أستطيع أن أعدكِ بأنَّ هذا ليس ما يحدث، بأنَّني لم أزل هناك الآن، وبأنَّ كلَّ هذا، بما في ذلك هذه المحادثة معك، باطل

ومُتخيَّل. وبالمناسبة، مَن أنتِ؟ الشَّيء العبثيُّ أنَّكِ لا تعرفينَ أيضاً...

43

[1913؟]

رحلة لم تُجرَ قطُّ

أختبئُ خلف الباب، حتَّى لا أراني، حين يَدلِفُ **الواقعُ**. أختبئُ خلف الطَّاولة ثُمَّ طَفرتُ فجأةً لأُفزِعَ **الاحتمال**. أنسحبُ من نَفْسي، كأنَّني قد سُحِبتُ من بين ذراعي عناقٍ؛ السَّأمَيْنِ العظيمَيْنِ اللَّذَيْنِ يُحوطانِي - سأمِ قُدرتي أن أعيش على **الحقيقيِّ** فحسبُ، وسأمِ قُدرتي على تخيُّل **المُمكنِ** فحسبُ.

هكذا على الواقع أنتصرُ. فهل قلاع الرَّمل هذه انتصاراتي؟ مِن أيِّ مادَّةٍ تُصنع القلاعُ التي ليستْ قلاعَ رملٍ؟

أنَّى لكِ أن تعرفي بأنَّني، إذ أرحل بهذه الطَّريقة، لا أُعيد على نحو غامض تجديد نَفْسي؟

أعيشُ صِبايَ مرَّة أخرى، يا طفلةَ العبث، فألعب مع أفكار الأشياء مثلما لعبتُ يوماً مع جنودي الدُّمَى، التي فعلت بها، وأنا صبيٌّ، أشياءَ ضدَّ فكرة أنَّهم جنود فحسب.

سكرانَ على الأخطاء، أجدُ نَفْسي، برهةً، على قيد الحياةِ بالخطأِ.

44

[1913؟]

شلَّال

يعرف الطِّفل أنَّ الدُّمية ليس حقيقيَّة، ولكنَّه يعاملها كأنَّها حقيقيَّة، حتَّى إنَّه يبكي مُنفطرَ القلب حين تنكسر. يكمن فنُّ الطِّفل في جعل الأشياء غير حقيقيَّة. طُوبى لتلك المرحلة الحياتيَّة الشَّقيَّة، حين يفسخُ الحُبَّ غيابُ الجنس، وحين يفسخُ الواقعَ اللَّعبُ، مُعامِلين الأشياء الحقيقيَّة على أنَّها ليست كذلك.

فَلْأَعُد إلى طفولتي وأظل هناك إلى الأبد، غير مكترث بالقيم التي يمنحها الرَّاشدون للأشياء، أو بالعلاقات التي أقامها الرَّاشدون بينهم. كنت غالباً ما أُوقفُ جنوديَ الدُّمى،

حين كنت صغيراً، على رؤوسها، وأرجلها في الهواء... فهل ثمَّة سبب، تدعمه جدالات منطقيَّة، لماذا لا يتوجَّب على الجنود الحقيقيِّين أن يمشوا مشيتَهم العسكريَّة رأساً على عقب.

لا يمنح الطِّفل قيمةً للذَّهب أكثر من الزُّجاج. وهل يستحقُّ الذَّهب في الحقيقة قيمةً أكثر؟ يجد الطِّفلُ الشَّغف ومشاعر الغضب والمخاوف التي يراها على وجوه الرَّاشدين عبثيَّةً على نحو غامض. وأليس صحيحاً أنَّ جميع مخاوفنا ومشاعر القرف التي تنتابنا وغراميَّاتنا عبثيَّةٌ تماماً وبلا جدوى؟

آهٍ، أيُّها الحَدْسُ الطُّفوليُّ العبثيُّ المقدس! هَا الرؤيةُ الحقَّة للأشياء التي نرتديها وفقَ الأعراف كلَّما رأيناها وقد تجرَّدتْ عاريةً، الأشياء التي نلتفُّ بها في ضباب أفكارنا بدلاً من رؤيتها مباشرةً!

أَربَّما الإله مجرَّد طفل كبير؟ وهل يبدو الكون بأكمله مثل لُعبةٍ؛ خدعة قام بها طفل شقيٌّ؟ غير حقيقيٍّ إلى حدٍّ بعيدٍ...

قذفتُ هذه الفكرة إليكِ عالياً في الهواء، ولكنَّ رؤيتَها من بعيدٍ قد جعلتي أرى فجأةً كم هي مُرعبة! (ماذا لو كان ذلك حقيقياً؟)

إنَّها تسقط على قدميَّ فتتناثرُ غُباراً مُرعباً وشظايا غامضة...

أستيقظُ لأعرف أنَّني موجود...

وفي أُذُني سأمٌ عظيم حيران، يَخِرُّ ببرودة هائلة تأتي من الشَّلَّال، خلف قفار النَّحل، في الأعماق الغبيَّة للحديقة.

45

[1913؟]

منظر طبيعيٌّ ماطر

يسقطُ، في اللَّيل، لساعات وساعات، همسُ المطر. ثُمَّ، طيلةَ اللَّيل، وأنا مُمدَّد نصفَ يقظان، نَاكَدَتْنِي الرَّتابةُ السَّائلة الباردة للمطر المنهمر على نافذتي. ثُمَّ هبَّت من الأعالي،

في هذي الأثناء، عصفةُ ريح جعلتِ الماءَ يدورُ متألِّماً على نَفْسهِ ويخبطُ الزُّجاجَ بأجنحةٍ سريعةٍ، ثُمَّ هدهدَ العالَمَ الميّتَ في الخارج كي ينامَ، في هذه الأثناء، صوتٌ مُضجِرٌ. كانت روحي ذاتها كما هي دائماً، سواءً بين الملاءات أو بين النَّاس، واعيةً بالعالَم وقد برَّحَتْها الآلامُ. وكان النَّهار كالسَّعادة يستغرق وقتاً مديداً كي يصل، فبدا في تلك السَّاعة كأنَّه لن يصل أبداً.

ليتَ النَّهار والسَّعادة لا يأتيانِ أبداً! وليتَ الآمال لا تذوق البتَّة خذلانَ أنَّها لن تتحقَّق!

ثُمَّ تعالى من طرف الشَّارع القصيِّ الصَّوت العارضُ لعربة آخر اللَّيل تهتزُّ بعنف على الحصى المرصوف، وتعبر منسحقة تحت نافذتي، قبل أن تتلاشى في آخر الشَّارع، في أعماق نوم غامض لا أستطيع الانقيادَ له تماماً. ثُمَّ يُصفَق بابٌ، بين الفينة والأخرى. وكان، في بعض الأحيان، سَحْقُ خَطْوٍ، وحفيفُ ثيابٍ رطبة. وبدا صوت هذي الخُطَى أعلى وأكثر اقتحاماً من الصوت الذي يتعالى حين تكونُ ثمَّة في العادة خطوات أكثر. ثُمَّ، حين تلاشت الخُطَى، عاد الصَّمت، واستمرَّ المطر ينهمرُ لا حدَّ لَهُ.

وكلَّما فتحتُ عينيَّ مستيقظاً من نوم باطل، رأيتُها تومضُ على جدران غرفتي المرئيَّة على نحو معتم، شظايا أحلام لم تُحلَم بَعْدُ، وأضواءٌ خافتةٌ، وخطوطٌ سوداءُ، وعَدَمِيَّاتٌ صغيرةٌ تعلو وتهبطُ. ثُمَّ لاحَ الأثاث أكبرَ ممَّا كان عليه في أثناء النَّهار، أشكالاً مُغبَّشة في العتمة العبثيَّة. ولم يُشِر إلى حضور الباب إلَّا شيء لم يكُن أكثر شحوباً من اللَّيل ولا أكثر إعتاماً منه، ولكنَّه مختلف. أمَّا النَّافذة، فلم أستطع إلَّا أن أسمعَها [دون أن أراها].

تَواصل صوت المطر، في هذه الأثناء، سائلاً وحيرانَ. تباطأت اللَّحظاتُ كي تحافظ على وتيرتها. فتعاظمَتْ عُزلة روحي، ثُمَّ انتشرتْ وطوَّقتْ ما كنتُ أشعر به، ما كنتُ أرغبُ فيه، وما كنتُ على وشك أن أحلم به. ثُمَّ حضرتِ الأشياء الغامضة، جُلَساء عتمة أَرَقي، كي تقاسمني المكانَ والألمَ على حدٍّ سواءٍ في خرابي.

46

[1913؟]

لم أَدَعْ أحاسيسي تعرف البتَّة ما أريد أن أجعلها تشعر به... ألعب بها كثيراً كما تلعبُ أميرة ضجرة مع قططها الكبيرة، السَّريعة، الوحشيَّة...

أصفق أبوابي الجُوَّانيَّة، حيث كانت بعض الأحاسيس على وشك أن تمرَّ عبرها كي تُحَسَّ. أُزيل، بفظاظة، من دربها أشيائي العقليَّة التي قد تمنحها إيماءات معيَّنة.

تفلَّتَتْ بعض الألفاظ القصيرة الجوفاء إلى المحادثات التي نتخيَّل أنَّنا نُجريها؛ عبارات عبثيَّة صِيغَتْ من رفات عبارات أخرى لم تَعُد تعني شيئاً.

- نظرتُكِ تشي بأنَّ موسيقى قد عُزفَتْ على ظهر سفينة واسعة، في العُرْض الغامض لنهر تنهض على ضفَّته المقابلة الغاباتُ...

- لا تَقُل إنَّ سبب ذلك عائد إلى أنَّ اللَّيلة مقمرةٌ. فأنا أكرهُ اللَّيالي المقمرة... على الرَّغم من أنَّ بعض النَّاس معتادون في الواقع على عزف الموسيقى في اللَّيالي المقمرة...

- وذلك، أيضاً، مستحيل. وواحدٌ من أشدِّ الأشياء مدعاة للأسف، بالطَّبع... ولكنَّ نظرتكِ تبدو على وشك التَّعبير، في الحقيقة، عن حنين إلى شيء ما، ولكنَّها تفتقر إلى العاطفة الضروريَّة للتَّعبير عنها... أجدُ في بُطلان تعبيركِ بعض الأوهام التي ساورتني...

- صدِّقني حين أقول إنَّني أشعر بما أقول في بعض الأحيان، وأشعر، على الرَّغم من كوني امرأة، بما أقوله بعينيَّ أيضاً...

-ألا تقسين على نفسك؟ أتشعرين حقاً بما نظنُّ أنَّنا نشعر به؟ فهل تُبدِي هذه المحادثة، على سبيل المثال، أيَّ علامات تشير إلى الواقع؟ كلَّا، إنَّها لا تفعل. وهذا لا يُسمَح بحدوثه في أيِّ حديث بتاتاً.

- نعم، أنت محقٌّ تماماً... لستُ متأكِّدةً، تمامَ التأكُّد، بأنَّني أتحدَّث إليكَ... على الرَّغم من كوني امرأة، فقد جعلت من واجبي أنْ أكون صورة مستوحاة من كرَّاسة رسم مُصمِّم مجنون... أحتوي في داخلي بعض التَّفاصيل الواضحة على نحو غير عاديٍّ... أعرف أنَّ هذا يعطي انطباعاً عن واقع مُغالَى فيه ومفروض بالقوَّة... أعتقد أنَّ الطُّموح الوحيد الذي تستحقُّه المرأة العصريَّة أنْ تكون صورة. فلقد أردتُ، حين كنت طفلة، أن أكون الملكةَ [البِنْت] المرسومة على ظهر إحدى أوراق اللعب القديمة التي كانت لدينا في المنزل... اعتقدتُ أنَّ ذلك كان نداءً جوَّانياً رؤوفاً حقاً... ولكنَّ المرء حين يكون طفلاً، تكون لديه مثل تلك التَّطلُّعات الأخلاقيَّة... ولن نفكِّر جِدياً بهذا الأمر إلَّا حين تغدو جميع تطلُّعاتنا،

في عمر مُعيَّن، تطلُّعاتٍ أخلاقيَّة.

– وحيث لم أُعِر الأطفال كثير انتباهٍ إطلاقاً، فإنَّني أومن بغرائزهم الفنيَّة... أتعرفين، حتَّى وأنا أتكلَّم إليك في هذه اللَّحظة، فإنَّني أحاول الغوص في المعنى الأعمق لما تحاولين قوله... أتغفرين لي؟

– ليس تماماً... فلا يتوجَّب علينا التطفُّل على المشاعر التي يتظاهر الآخرون بأنَّهم يشعرون بها، فدائماً ما تكون تلك المشاعر شخصيَّة جداً... صدِّقني، يؤلمني حقاً أن أشاركك هذه الأسرار الشخصيَّة، فحتَّى وإن كانت باطلة جميعاً، فإنَّها تُمثِّل جُذاذاتٍ حقةً من روحي المسكينة... إنَّ أقلَّ الأجزاء حقيقيَّةً، في قراءة نَفْس المرء، كما تعلم، هي تلك التي تكون الأتعس، فمآسينا العُظمى تحدث في فكرتنا عن نَفْسنا.

– هذا صحيح جداً... ولكنْ، لماذا تقولين ذلك؟ لقد جرحتني الآن. لماذا نُخرج حديثنا من لاواقعيَّته الرَّاهنة؟ فالحديث يغدو، إذا فعلنا ذلك، حديثاً حقيقياً ممكناً، رفقةَ كوب من الشَّاي بين امرأة جميلة وحالمٍ يتخيَّلُ الأحاسيس.

–نعم، نعم، أنت مُحقٌّ تماماً. والآن دوري كي أعتذر، فلقد كنت مشتَّتةً، فلم أُدرك حتَّى أنَّني قد قلت شيئاً حقيقياً... فلنُغيِّر الموضوع. كم نتأخَّرُ [في الاعتذار] دائماً! فلا تغضب ثانيةً في هذه اللَّحظة. فما قلته للتوِّ لا يعني شيئاً البتَّة...

– لا تعتذري، ولا تكترثي حتَّى بأنَّنا كُنَّا نتحدَّث أصلاً... فلا بُدَّ أن تكون جميع المحادثات مُناجاةً (مونولوغاً) بين اثنَيْن... ولا بُدَّ ألَّا نعرفَ، تمامَ المعرفة، دون أن يساورنا شكٌّ، إنْ كُنَّا نُكلِّمُ في الواقع أحداً أمْ نتخيَّل الأمرَ كُلَّه... فأبهجُ المحادثات وأكثرها حميميَّة، وأهمُّ من ذلك كلِّه تلك المحادثات التي تُفيد من النَّاحية الأخلاقيَّة أكثر من غيرها، هي تلك المحادثات التي يكتبها الرِّوائيُّون بين شخصيَّتَيْن في كتاب. فعلى سبيل المثال...

– أرجوك! لستَ، حقاً، على وشك أن تضرب لي مثالاً. فذاك لا يحدث إلَّا في كتب القواعد التي لن نُكلِّف خاطرنا بقراءتها على الإطلاق.

– هل قرأتِ كتاب قواعد من قَبْل؟

– لا، إطلاقاً! فلطالما شعرتُ بمقت شديد لمعرفة كيف يتوجَّب على المرء قول الأشياء. الشَّيء الوحيد الذي راق لي في كتب القواعد كانت الاستثناءات والحشو في الكلام فحسب.

تدعو النَّظرة المعاصرة الحقَّة إلى تجنُّب القواعد والتلَّفُظ بالهراء فحسب. أليس هذا ما يقولونه؟

- بالطَّبع، فأسوأ شيء بشأن كتب القواعد (هل لاحظت الاستحالة البهيجة الكامنة في تبادلنا الحديث حول هذه المسألة؟) أسوأ الأشياء على الإطلاق، هو الأفعال. إنَّها الكلمات التي تمنح الجُمَل معانيَ... ولا بُدَّ للجُملة الصَّادقة أن تمتلك عدَّة معانٍ دائماً. الأفعال! أحد أصدقائي المنتحرين -ففي كلِّ مرَّة أُجرى محادثةً أطول من المعتاد، ينتحرُ أحد الأصدقاء- قرَّر أن يقضي حياته كلَّها يبطش بالأفعال...

- (ولِمَ انتحر؟)

- علَى رسلكِ، فأنا لم أعرف بعد... كان يحاول اكتشاف طريقة لتكملة الجُمَل، وترسيخ هذه الطَّريقة، دون أن يظهر كأنَّه يحاول. اعتاد أن يخبرني أنَّه كان يبحث عن جرثومة الدِّلالة... فانتحر، بالطَّبع، لأنَّه أدرك ذات يوم المسؤوليَّةَ الجسيمة التي ألقاها على عاتقه. جنَّنته أهميَّة المسألة... مُسدَّسٌ...

- واحَرَباهُ![55] ليس ذاك. ألا ترى، لا يمكن أن يكون مسدساً؟ لا يمكن لرجل من تلك الطِّينة أن يطلق الرَّصاص على نفسه في الرَّأس... أنت لا تفهم إلَّا النَّزر اليسير عن أولئك الأصدقاء الذين لم تحظَ بهم قَطُّ... وتلك مَثلبة جوهريَّة، كما تعلم. فأعزُّ صديقاتي- فتاة مرحة اختلقتُها...

- وهل تنسجمان؟

- بقَدْر ما نستطيع... ولكنَّ تلك الفتاة، لا تستطيع أن تتخيَّل...

لم يتبادل المخلوقان اللَّذان يجلسان إلى الطَّاولة يحتسيان الشَّاي هذه المحادثة البتَّة، بَيْدَ أنَّه من العار ألَّا يكونا قد فعلا ذلك، وقد بدوا، في ثيابهما الأنيقة، على هيئةٍ مُنزَّهةٍ عن النَّقص. ولهذا السَّبب أكتبُ هذه الأشياء كي يكونا قادرَيْن على إجراء مثل تلك المحادثة... مواقفهما وإيماءتهما البسيطة ونظراتهما وابتسامتهما الطفوليَّة، التي تفتح فضاءات في إحساس المرء بوجوده، في تلك المواقف التي تطرأ في أيِّ محادثة، قد عبَّرت عمَّا أتظاهر بأنَّني قد قلته مخلصاً... حين تزوَّج كلٌّ واحد منهما من شخص آخر، دون شكٍّ، وذهب كلٌّ في طريقه

(55) تُستخدم، في العربيَّة، عند إظهار الحزن والتأسُّف، وهي مأخوذة من «الحَرَب» التي تعني الويل والهلاك. (المترجم).

-فقد كانا متشابهَيْن إلى حدٍّ بعيدٍ كي يتزوّج أحدهما الآخر- فإذا قُدِّر لهما أن يقرآ هذي الصَّفحات ذات يوم، فأنا متأكِّد أنَّهما سيتعرَّفان على الأشياء التي لم ينطقا بها قط، وسيكونان مُمتنَّيْن لأنَّني قد وضَّحت بدقَّةٍ ليسَ ما هما عليه في الواقع فحسب، وإنما ما لم يرغبا في أن يكونا عليه البتَّة، وما لم يعرفا بتاتاً أنَّهما قد كانا عليه...

فلو قُدِّر لهما أن يقرآ هذا الكلام، فاتركوهما يعتقدان أنَّ هذا ما قد قالاه حقاً. لقد كانت ثمَّة أشياء كثيرة ناقصة في الكلمات الجليَّة التي سمع أحدُهما الآخرَ يقولها - العطر الذي فاح في تلك السَّاعة، ونكهة الشَّاي، ودلالة الأزهار التي شبكتها على صدرها... ولقد نسيا ذكر أيٍّ من تلك الأشياء التي كانت جزءاً من المحادثة أيضاً... ولكنَّ كلَّ شيء كان هناك، فكانت مُهمَّتي أقلَّ من مهمَّة كاتب وأكثرَ من مهمَّة مؤرِّخ، فأنا أعيدُ الصِّياغة وأُكمل... وذلك سوف يكون عذري لديهما، بأنَّني كنت أُنصِت باهتمام بالغٍ إلى ما أخفقا في قوله.

47

[1914؟]

فاصلٌ مؤلم

كشخصٍ ينظر بعد استغراقه الطَّويل في قراءة كتاب، فتضرب عينَيْه أشعَّةُ الشَّمس الطَّبيعيَّة العاديَّة ضربةً عنيفة، لو نظرت إلى نَفْسي فجأة، فسوف يؤلمني إيلاماً شديداً، ويحرقني أن أرى صفاءَ الحياة الخارجية وما يستقلُّ منِّي عنها، وجودَ الآخرين، موضعَ الحركات في المكان وارتباط بعضها ببعض. أتعثَّر بمشاعر الآخرين الحقَّة، فيعيقُ خطواتي ويُقيِّدُ حركتَها تصادمُ أنْفُسها مع نفسي، فأنزلق بين أصوات كلماتها وأختفي، وتمسي غريبةً، كلَّ الغرابة، على أُذُنيَّ خطاها الثَّابتةُ الواثقة على الأرض الحقَّة، وإيماءاتُها الموجودة حقاً، وطرائقها الغريبةُ المُعقَّدة في أنْ تكون تنويعاتٍ أخرى وليستْ مجرَّد تنويعاتٍ عنِّي.

ثُمَّ أجدُ نَفْسي في إحدى تلك الهاويات التي أُلقي فيها نَفْسي عاجزاً وخاوياً، شاعراً كأنَّني قد مِتُّ، على الرَّغم من أنَّني أعيشُ، ظلاً شاحباً ينتحبُ؛ ظلًّا سوف يُلقيهِ أرضاً أوَّلُ نسيم يحلُّ، ثُمَّ غباراً يُبَسُّ عندَ أوَّل لمسة.

أسألُ نَفْسي إنْ كان كلُّ ذلك يستحقُّ الجهد الذي بذلته في عزل نَفْسي وأصعدُ، إنْ كانت الجُلجلة البطيئة التي صنعتها من نَفْسي لبلوغ مجديَ المصلوب تستحقُّهُ، تستحقُّ المشقَّة على الصَّعيد الدِّينيِّ. وحتَّى لو عرفتُ أنَّها كانت كذلك في تلك اللَّحظة، فإنَّ شعورَ أنَّها لم تكن جديرةً به، ولن تكون البتَّة، قد أثقل كاهلي.

48

[1914؟]

حلمٌ مُثلَّث

ارتعشتُ، في حلمي على ظهر السَّفينة - وسَرَتْ في روح أميري البعيد رِعدةٌ مُتوجِّسة.

اجتاحَ صمتٌ صاخبٌ ينادي بالويل والثُّبور جوَّ الغرفة المرئيَّ كنسيم باهت.

أضفى كلُّ ذلك وهجاً ساطعاً ومُقلِقاً على أشعَّة القمر فوق المحيط الذي لم يَعُد يهتزُّ ولكنَّه يرتعش؛ بدا واضحاً -حتَّى قبل أن أسمعها- أنَّ سرواتٍ كانت تكبر قُربَ قصر الأمير.

لمَعَ نصلُ أوَّل صاعقة برقٍ غامضاً حول روحي... بلون البرقِ القمرُ الذي فوق البحر المتلاطم، وقصر الأمير الذي لم أَكُنْهُ البتَّة يرتمي في الأطلال وفي الماضي البعيد . . .

ومثل صوتٍ مُتوعِّد يقترب مسرعاً، تَمخرُ السَّفينة عُبابَ المياهِ، فأشرقتِ الغرفةُ بالعتمةِ، والأمير لم يمُت، ولم يُقبَض عليه، آهٍ، ما الذي جرى لَهُ، وأي شيءٍ باردٍ ومجهول هُوَ الآن قدَرُه؟

49

[1914؟]

مازال عيشُ الحياة زُوراً وفي الأحلام يُعَدُّ عيشَ الحياة. فأنْ تتخلَّى هُوَ أن تفعل. وأنْ تحلم هُوَ أن تعترف بضرورة العيش، مستبدلاً الحياة الحقَّة بحياة باطلة، وبهذا تكون [تلك الحياة الباطلة] تعويضاً عن عدم قابليَّة الرَّغبة في الحياة.

أَليس كُلُّ هذا في نهاية المطاف سعياً وراء السَّعادة؟ وهل يبحث المرء عن شيء آخر؟

فهل تمنحي أحلام يقظتي المتواصلة، وتحليلي غير المنقطع، أيَّ شيء مختلف في جوهره عمّا ستمنحني إيّاه الحياة؟

لم أجد نَفْسي في اعتزال النَّاس، ولا...

هذا الكتاب أحد أحوال الرُّوح، مُحلَّل من كلِّ زاوية، ومدروسٌ وفقَ كلِّ منحى ممكن. فهل سيجلب لي هذا الموقف شيئاً جديداً على الأقلّ؟ كلّا، فأنا حتَّى لا أُعزِّي نفسي بذلك. كلُّ شيء موجود مِن قَبْلُ في أقوال **هيراقليطس**[56] و**سِفْر الجامعة**. **الحياة دُمية طِفل في الرِّمال.. الباطل**[57]... وفي سِفْر **أيُّوب** المسكين، في جُملة واحدة: **قد كَرِهَتْ نَفْسي حياتي**[58].

وفي كتابات پاسكال: ...

وعند ڤِيني[59]: فيكِ...

وفي أعمال أَمْيِلْ[60]، في أعمال أَمْيِلْ إلى حدٍّ بعيد تماماً: ...

ولدى ڤرلين، والرَّمزيِّين...

كلُّهم مرضى مثلي... حتَّى إنَّني لا أمتلك حظوةَ أن تكون لديَّ ذرَّة أصالة في سَقَمِي... أفعل ما قد فعله آخرون كثيرون من قَبْلي... لقد باتت معاناتي تافهة ومبتذَلة... ولماذا حتَّى أفكِّر بهذه الأشياء وقد فكَّر فيها آخرون كثيرون من قبلي وكابدوها؟

ولكنَّني أتيتُ بشيء كان جديداً، على الرَّغم من أنَّني لستُ مسؤولاً عن وجوده. لقد جاء من **اللَّيل** فلمع كنجمةٍ فِـيَّ... لم أبذل أيَّ مجهود في صُنعه ولم أمنعه من القدوم... فأنا

---

(56) سبق لپِسُوّا أن كتب نصاً شذرياً، باللغة الإنگليزيَّة، عن هيراقليطس، نشر في العام 1968، رفقة نصوص أخرى، في كتاب بعنوان «مقالات فلسفيَّة Textos Filosoficos». ولم أعثر في شذرات هيراقليطس على شذرة بلفظ العبارة التي أوردها پِسُوّا حين ذكر اسمه. ثمّة هذه الشذرة، التي أترجمها عن الإنگليزيَّة، فحسب: «الحياة طفل يلعب، يُحرِّك القطعَ في لعبة. الملوكيَّة تليق بالطِّفل». (المترجم)

(57) إشارة إلى الآية الثانية من الإصحاح الأوَّل من سفر الجامعة: «بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ، قَالَ الْجَامِعَةُ: بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ، الْكُلُّ بَاطِلٌ». (المترجم)

(58) أوردتُ العبارة مثلما هي بلفظها في الترجمة العربية للكتاب المقدَّس. سفر أيّوب، الإصحاح العاشر، الآية الأولى. (المترجم)

(59) الشاعر الفرنسي ألفريد دي ڤيني. (المترجم)

(60) الفيلسوف الأخلاقي والشاعر السويسري هنري فريديريك أَمْيِلْ. (المترجم)

جسر بين سرَّيْن، ولا أدنى فكرة لديَّ كيف شُيِّدتُ...

أُنصتُ إلى نَفْسي تحلمُ. أُهدهدها كي تنام مع صوت الصُّورِ التي أتخيَّلُ... إنَّهنَّ يتلاشَيْنَ مِنِّي ألحاناً تَلتَبِسُ.

صوتُ عبارة طافحة بالصُّور جديرٌ بمئة إيماءةٍ! وتستطيعُ استعارةٌ أن تواسي المرءَ عن أشياء كثيرة!

أُنصت إلى نَفْسي... أسمعُ احتفالات تدورُ فِـيَّ. حاشيات... خيوط لمَّاعة في سأمي... حفلات تنكُّريَّةٌ راقصة... أشاهدُ روحي فأذهلُ...

مِشكَالُ متوالياتٍ شذريَّة...

أضحت خُيلاء الأحاسيس مبتذلةً جرَّاءَ العيش... أسرَّة ملكيَّة في قلاع مهجورة، جواهر أميرات ميِّتات، خليج صغير لاح عبر شقِّ إطلاق السِّهام في إحدى القلاع، ستعود السَّفائن لا محالةَ، وقد تكون ثمَّة حاشيات في المنفى، لأولئك الذين لديهم نصيب وافر من الحظِّ... أوركسترات نائمة، وخيوط لصُنع الشِّباك...

50

[1914؟]

ومثلما أحلم، فإنَّني أُفكِّرُ أيضاً إنْ كنت قد اخترتُ أن أحلم، فذاك نوعٌ آخر من الحلم، ليس إلَّا.

يا أميرَ السَّاعات الخَيِّرة، لقد كنتُ يوماً أميرتَك، فأَحَبَّ أحدُنا الآخَرَ بنوع مختلف من الحُبِّ الذي تجرحني ذكراهُ.

51

[1914؟]

أنْ نلفَّ العالَمَ حول أصابعنا، كخيط أو شريط تتلهَّى به امرأة وهي تحلم جالسةً عند النَّافذة.

وليس ذلك إلَّا كي نختبر السَّأمَ بطريقة غير مؤذية.

وسيكون مثيراً أن يكون المرءُ مَلِكَيْن في الوقت ذاته: ليسَ روحًا واحدةً لأحدهما، بل روحيْن.

52

[1914؟]

أودُّ أن أسنَّ قانون عطالة لزعماء المجتمعات الحديثة.

سيحكم المجتمع نَفْسه عفوياً حين لا يضمُّ أناساً حسَّاسين وأذكياء. ذاك صدِّقوني العائق الوحيد. فلقد عاشت المجتمعات البدائيَّة سعيدةً بما يكفي وفق تلك القاعدة، بصورة أو أخرى.

المشكلة هي أنَّ عزل زعماء المجتمع سوف يؤدِّي إلى موتهم، فهم لا يعرفون كيف يعملون. أو ربَّما يموتون من السَّأم، حيث لم يكُن ثمَّة مُتَّسع كافٍ للغباء بينهم. بَيْدَ أنَّ ما أتحدَّث عنه شفاءٌ للسَّعادة الإنسانيَّة. فكلُّ قائد يظهر في المجتمع سوف يُنفَى إلى مدينة القادة. سيُطعَمون هناك، كحيوانات في قفص، من لدن مجتمع طبيعيٍّ.

صدِّقوني، فحين لا يكون ثمَّة أناس أذكياء يشيرون إلى الأمراض البشريَّة المختلفة، فلن تلحظ وجودَها البشريَّة. فالبشر الحسَّاسون يجعلون الآخرين يذوقون الأمرَّين بدافع الشَّفقة.

ولكنَّ واجب القادة الوحيد، نظراً إلى وجودنا في المجتمع، تقليل مشاركتهم في حياة القبيلة إلى الحدِّ الأدنى. فلا ينبغي قراءة الصُّحف، إلَّا حين نودُّ أن نعرف ما يتعلَّق بشيء تافهٍ أو غريب يحدث؛ لا تستطيعون تخيُّل المتعة الحسيَّة التي تغمرني حين أقرأ الأخبار الواردة من الأقاليم. فالأسماء وحدها تفتح لي أبواباً على الغامض والمُلتبِس.

الحالة الأسمى والأشرف لرجل أسمى كامنةٌ في ألَّا يعرفَ اسم رأس دولته، وألَّا يعرف إنْ كان يعيش في ملكيَّة أم في جمهوريَّة.

ولا بُدَّ أن يكون موقفه برمَّته مُنصبٌّ على ترتيب روحه حتَّى لا تُقلِقه الأشياء ولا الحوادث. وإذا أخفق في فعل ذلك، فسيضطَّر، من منطلق مصلحته الشخصيَّة، إلى الاهتمام بأُناس آخرين.

53

[1914؟]

أحملُ أشدَّ الآراء تناقضاً، وأشدَّ المعتقدات تنوُّعاً. وهذا لأنَّني لا أفكِّر البتَّة أو أتحدَّث أو أفعل... فأحد أحلامي، الذي أُجسِّد فيه لبرهةٍ نَفْسي، يتحدَّثُ ويفعل الأشياء نيابة عنِّي. أشرع في الحديث فتنطق **أنايَ-الأخرى** بدلاً منِّي. ولا أشعر، فيما **يخصُّـ نِي**[61]، سوى بقصور شديد، وخواء هائل، وعجز في مواجهة كلِّ الذي هو الحياة. لا أعرفَ الإيماءات المناسبة لأيِّ فعل حقيقيٍّ...

فلم أتعوَّد أن أكون موجوداً بتاتاً.

أحقِّقُ كلَّ شيء أرغب فيه، طالما يظلُّ في داخلي.

وإذا سألتني إنْ كنتُ سعيداً، فسأقول إنَّني لستُ كذلك...

أُريدُ أن تثير قراءَتُك لهذا الكتاب إحساساً في داخلك بأنَّك عشت كابوساً شَبقياً.

فما كان أخلاقياً ذات مرَّة قد أضحى جمالياً، بالنِّسبة إلينا، في هذه الأثناء... وما كان اجتماعياً قد بات فردياً...

ولماذا أشاهدُ قدومَ الشَّفق وفِـيَّ ألفُ شَفق مختلفٍ -وبعضُ الأَشفاق التي ليستْ أَشفاقاً- مادمتُ، علاوةً على رؤيتها في داخلي، أنا نَفْسي تلك الأشفاق، في الدَّاخل والخارج؟

---

(61) يلجأ بِسُوًّا في هذه الشَّذرة إلى كتابة ضمير المتكلِّم، العائد عليه، بحرف كبير (Me)، مع أنَّه ليس في مفتتح الكلام/ الجُملة. كأنَّ الضمير، هنا، ليس ضميراً عائداً على كينونة، وإنما **كينونة** مستقلة، في حدِّ ذاته، منفصلة عن أيِّ فعل. فالضمير هنا، بحرف كبير، هو «الأنا» الحقَّة في مقابل أناهُ الأخرى I-Other، أنا الآخَر الذي يسكن في قرارة نفسه. لذا، آثرت رقن الكلمة على هذا النَّحو، «يخصُّـ نِي»، فاصلاً الضَّمير عن الفعل، وكتابته بخط غامق Bold، للدَّلالة على كينونته المستقلَّة، في محاولة للسَّير على نهج بِسُوًّا نفسه: فصل الأنا، وكلِّ ما يتعلَّق بها، عن الفعل في حدِّ ذاته، فهو ليس الذي يقوم بالفعل، وإنَّما أناهُ الأخرى. (المترجم)

[1914؟]

كيف تحلم بالغيبيَّات

منطق [...]- وكلُّ شيء سوف يغدو سهلاً وَ [...][62]، فالحُلم، عندي، هُوَ كلُّ شيء.
أُحدِّث نَفْسي بأنْ تحلم بشيءٍ فتحلمُ به. وأخلق أحياناً، في داخلي، فيلسوفاً يضع فلسفاته من أجلي بحرص شديد، أما أنا السَّاعي، فأغازلُ عند نافذة منزله ابنتَهُ التي أُحبُّ روحها.

وأنا، بالطَّبع، محصور في حدود معرفتي. فلا أستطيع أن أخلق عالم رياضيَّات... ولكنَّني، رغم ذلك، قانع بمعرفتي التي تسمح بوجود توليفاتٍ لانهائيَّة وأحلام تُعَدُّ ولا تُحصَى. ومَن يعرف، فقد أستطيع بواسطة الأحلام تحقيقَ المزيد، ولكنَّ الأمر لا يستحقُّ العناء، فأنا في أحسن حال كيفما أنا الآن.

سحقُ الشَّخصيَّة: لا أعرف ما هي أفكاري أو مشاعري أو شخصيَّتي... فإنْ كنتُ أشعر بشيءٍ، فإنَّني أشعر به في الشَّخص المرئيِّ لمخلوق يتراءى في داخلي. ***فلقد استبدلتُ نَفسي بأحلامي***. ليس كلُّ شخص إلَّا حُلمه بِنَفْسه، ولكنَّني لستُ ذلك حتَّى.

إيَّاكَ أن تقرأ كتاباً حتَّى النِّهاية البتَّة، وإيَّاك أبداً أن تقرأ الصَّفحات تِباعاً، دونَ أن تتخطَّى.

لم أعرفِ قَطُّ ما شعرتُ به. فحين يحدِّثني النَّاس عن هذه العاطفة أو تلك ثُمَّ يصفونها، كنت أشعر على الدَّوام بأنَّهم يصفون بعض روحي، ولكنَّني حين كنتُ أفكِّر في ذلك لاحقاً، فإنَّ الرِّيبة تتسلَّل إلى نَفْسي. لا أعرف البتَّة إنْ كان الشَّخص الذي أشعر بأنَّه نَفْسي سيكون

(62) في الأصل البرتغالي (المكتوب بقلم حبر أسود على وجهَي أربع صفحات، من دفتر يوميَّات، ممتد إلى هوامش الصفحة الأخيرة، وصاعد حتَّى رأسها) يضع بِسُوًّا لفظة «منطق Raciocinio» في بداية الصَّفحة الأولى ثمَّ يضع فاصلة بعدها مباشرة ثُمَّ يترك فراغاً طويلاً بعد الفاصلة، ويضع عبارة «كلُّ شيءٍ سيغدو سهلاً tudo será facil e» في نهاية السَّطر، تسبقه شرطة صغيرة. وقد اختلف واضعو الطبعات البرتغاليَّة المختلفة على هذه «التَّفصيلة»، التي قد تبدو بالنِّسبة إلى بعض الناس «ثانويَّة» أو «ليست ذات قيمة»، ولكنَّني أرى أنَّها «أساسيَّة» في عمل بِسُوًّا «الشَّذريّ» هذا، الذي امتدَّت كتابته عُمراً بأكمله! فقد لجأ ريتشارد زينيث وخيرونيمو پيسارُّو، في طبعتيهما المختلفتَين، إلى استخدام الرَّمزين (□ —) بعد كلمة «منطق»، ورمز (□) بعد عبارة «كلُّ شيء...» (على شاكلة ما يبدو أنَّه كذلك في الخطِّ المُتعرِّج المتشابك الذي دوَّن به بِسُوًّا هذا النصَّ الطَّويل)، في حين لجأت تريزا سوبراو كونيا إلى وضع فاصلة و[...] بعد هذه الكلمة مباشرة، وكذلك بعد عبارة «كلُّ شيء...». وهذه إشارة أخرى على سبيل المثال لا الحصر تدلُّ على تعدُّد قراءات «المتاهة الشَّذريَّة» -إن جاز لي القول- لهذا الكتاب، حتَّى داخل اللغة البرتغاليَّة نفسها. (المترجم)

أنا حقاً، أمْ إنَّني مَا أُفكِّرُ في أنَّني هُوَ، ليس إلَّا. أنا جُذاذاتُ شخصيَّاتٍ من أحلامي. كلُّ جهدٍ بلا طائل، ولكنَّه يجعل الوقتَ يمرُّ. المنطق عقيم، ولكنَّه يُسلِّي. الحُبُّ مُضجِر، ولكنَّه مُفضَّلٌ على عدم العَيْش (بَيْد أنَّ الحُلم، على أيِّ حال، يستبدل كلَّ شيء). تستطيع، في الأحلام، التلذُّذَ بفكرة الجهد دون الحاجة الفعليَّة إلى القيام بأيِّ جهد. أستطيع، في حُلمي، خوضَ المعارك دون أن يعتريني خوفٌ أو أن أُجرَح بتاتاً. أستطيع التَّفكُّرَ، دون توقُّع الوصول إلى أيِّ حقيقةٍ، ودون أن أتكدَّرَ حين لا أصلُ البتَّة؛ فمن دون التَّفكير، سوف أحلُّ كلَّ معضلة، عارفاً [في قرارة نَفْسي] أنَّني لن أفعل على الإطلاق... أستطيع أن أُحبَّ دون أن أُرفضَ أو أتعرَّض للخيانة أو أكون مكروهاً. أستطيع تغيير حبيبتي دون حتَّى أن تتغيَّر هي بتاتاً. وإنْ أردتُ أن تخونني أو تهجرني، فإنَّني أستطيع أن أجعل ذلك يحدث على نحو ما أريدُه بالضَّبط وبالطَّريقة التي تمنحني المُتعةَ الأعظم. أستطيع، في الأحلام، خوض غمار القلَق[63] العظيم، والعذابات العظيمة، والانتصارات العظيمة. أستطيع خوض غمار كلِّ هذه الأشياء كأنَّها واقعة في الحقيقة؛ وذلك يعتمد، في المقام الأوَّل والأخير، على قُدرتي في جعل الحُلم واضحاً، ومُشرقاً، وحقيقياً. وهذا يتطلَّب صبراً جُوَّانياً ومثابرةً تبذل كلَّ ما في وسعها.

ثمَّة طرائق مختلفة للحُلم. إحدى هذه الطَّرائق أن تُسلِمَ نَفْسك لأحلامك تماماً، فلا تحاول أن تجعلها واضحة، تاركاً إيَّاها في شَفَقِ أحاسيسك الغامض. وهذا نهج دُونيٌّ ومُنهكٌ أيضاً، فهو رتيبٌ ولا يتغيَّر على الإطلاق. ثُمَّ هناك الحُلم الواضح المباشر، ولكنَّ الجهد المبذول لتوجه الحُلم يسلِّط الضُّوء على البراعة. ولا يحتاج الفنَّان الأسمى، الحالم مثلي، إلَّا إلى رغبة أن يجري الحُلم بطريقة مُعيَّنة، ماضياً وفق أهوائه... فيتجلَّى أمامَهُ مثلما اشتهى أن يكون، بلا زيادة أو نقصان، ولكنَّه لا يتخيَّل البتَّة أنَّه سوف يتجشَّم كلَّ ذلك العناء. فلنفترض أنَّني رغبتُ في أن أحلم بأنَّني مَلِكٌ... فهأنذا، ملكُ هذا البلد أو ذاك. سوف يخبرني الحُلم أيَّ بلد أختار أو أيَّ نوع... فأنا أسيطر على ما أحلم به، في تلك اللَّحظة، حتَّى إنَّ أحلامي تجلبُ لي، على حين غِرَّةٍ، كلَّ ما أريدُ. وغالباً ما تكون الأحلام واضحة، جليَّةَ الوضوح، فترتِّبُ تسلسل الأحداث الغامض، الذي تستقبله منِّي، على نحو مثاليٍّ. لستُ قادراً على أن

(63) وهنا، أيضاً، ترد لفظة «القلق» بصيغة الجَمْع. (المترجم)

أتخيَّل، بصورة واعية، العصورَ الوسطى للحقب الزَّمنيَّة المختلفة وكرات الأرض المختلفة التي رأيتُها في أحلامي. أذهلني فَيْض المخيِّلة الذي لم أعرف قَطُّ أنَّه لديَّ وأنَّ أحلامي تتجلَّى لي. أتركُ أحلامي سادرةً في طريقها[64]... إنَّها دائماً ما تفوق توقعَّاتي. إنَّها دائماً أكثر جمالاً ممَّا أَمِلتُ، ولا يصل إلى هذا المقام إلَّا الحالمُ المُجرِّبُ. ولقد بدَّدتُّ سنينَ حالماً، أبحث عن تلك الخبرة. وهَا قد ظفرتُ بها الآن، بلا حول منِّي ولا قوَّة...

وأفضل طرائق البَدْءِ في الحُلم عبر الكُتُب. فالرِّوايات مفيدةٌ، كلَّ الفائدة، للمبتدئين. الخطوة الأولى: تعلَّم الاستسلامَ بِكُلِّيَّتِكَ إلى ما تقرأُ، والعيشَ جنباً إلى جنبٍ مع الشُّخوص الموجودين في الرِّواية. إنَّها علامةٌ على ارتقاءِ الشُّعور إلى الحَدِّ الذي يجعلكُ تشعرُ أنَّ عائلتك الخاصَّة وأحزانها تافهةٌ ومُنفِّرة مقارنةً بتلك الشُّخوص المُتخيَّلة.

ومن الأفضل تجنُّب الرِّوايات الأدبيَّة حين يكون شكلُ الرِّواية قد شتَّت انتباهك. ولا أخجل من الاعتراف بأنَّني، أنا نَفْسي، قد بدأت على هذا المنوال. ومن الغريب كفايةً أنْ أكونَ قد انجذبتُ، رغم ذلك، إلى الرِّوايات البوليسيَّة على نحو غريزيٍّ.

لا أستطيع في الحقيقة التَّركيز على الرِّوايات الرُّومانسيَّة البتَّة، ولكنَّها مسألة ذوق شخصيٍّ، وذاك لأنَّني لستُ مِن النَّوع الرُّومانسيِّ، ولا حتَّى في أحلامي. لا بُدَّ لكلِّ واحدٍ منَّا، إذَن، أن يصقل ميولَهُ الخاصَّة. وتذكَّروا دائماً: أن نحلم هُوَ أن نُفتِّش عن أنفسنا. ولا بُدَّ للشَّهوانيِّ اختيارُ الكتب التي تكون على النَّقيض ممَّا سوف أختارُ.

نستطيع القول -حين يذوق الحالم بهجةَ إحساس فيزيقيٍّ حقيقيٍّ- إنَّهُ قد ذهب أبعدَ من الطَّوْر الأوَّل من الحُلم. أقصدُ: حين تتركُ روايةٌ، تتحدَّث عن شجاراتٍ وتحليقات ومعارك، جسدكَ مكدوماً بلا ريبٍ، وساقَيْك مُنهكتَيْن، تكون إذَّاكَ قد وصلت إلى الطَّور الأوَّل. أمَّا الشَّهوانيُّ، فيتوجَّب عليه، في هذه الحالة -لائذاً بالاستمناء الذِّهنيِّ- أن يذوق لذَّةَ القذف حين تحدث مثل تلك اللَّحظة في الرِّواية.

ثُمَّ يتوجَّب عليه محاولة نقل هذا كلِّه إلى الصَّعيد الذِّهنيِّ. فلا بُدَّ للقذف، في حالة الشَّهوانيِّ (وأختار هذا المثال لأنَّه الأكثرُ عنفاً وتطرُّفاً) أن ***يُحسَّ دون أن يحدث فعلاً***. سيكون التَّعب الذي يعقب ذلك أعظم، ولكنَّ اللَّذةَ ستكون أشدَّ إلى حدٍّ بعيد.

---

(64) تقول العرب: «سَدَرَ في البلاد: ذهبَ ولم يُثْنِه شيءٌ». (المترجم)

وسوف تكون جميع الأحاسيس ذهنيَّةً في الطَّور الثَّالث. ستتعاظم اللَّذة ويتعاظم التَّعَب، ولكنَّ الجسد لن يكون قادراً على الشُّعور بأيِّ شيء بعد ذلك البتَّة، فلا تعود أوصالك تشعر بالضَّعف، ولكنَّها قدرتك العقليَّة وأفكارك وعواطفك التي تشعر بالرَّخاوة والوهَن... ويكون الوقت، في هذه المرحلة، قد حان للانتقال إلى الطَّور الأعلى من الحُلم.

والطَّور الرَّابع هُوَ أنْ تُبدع رواياتك الخاصَّة. ولا يتوجَّب عليك محاولة ذلك إلَّا حين تكون قد نجحتَ -مثلما قلتُ سابقاً- في عَقْلَنة الحُلمَ تماماً. وإلَّا فإنَّ أيَّ جهد أوَّليٍّ تبذله كي تبتدع رواياتٍ سوف يحول دون العقلنة المُثلَى للَّذَّة.

(صعوبات مُعيَّنة)

طَورٌ ثالث

وما عليكَ، حين تكون قد درَّبتَ مُخيِّلتك، سوى الرَّغبة في أن تحلم بشيءٍ، فتحلم المخيِّلة الحُلمَ الذي اشتهيتَهُ. وليس ثمَّة، في هذا الطَّور، أيُّ تعبٍ ذهنيٍّ أو يكادُ. تَّمَّحي الشَّخصيَّةُ إذَّاكَ امِّحاءً كاملاً. لسنا سوى رُفاتٍ مُنحَت روحاً، يفتقرُ إلى الشَّكل - ولا حتَّى شكلَ الماء؛ الشَّكلَ الذي يستمدُّه من الوعاء الذي يحمله. وقد تتجلَّى في داخلنا، عندما يستقرُّ كلُّ شيء في مكانه، مسرحيَّاتٌ دراميَّة تتطوَّرُ، سطراً إثرَ سطرٍ، مُستقلَّةً على نحو مثاليٍّ. وقد لا نحتاج حينئذ إلى تدوينها. سنكون قادرين على الابتداع بطريقة غير مباشرة: نتخيَّل في أنفسنا شاعراً يكتبُ، ولسوف يكتب بأسلوب مُعيَّن، في حين قد يكتب شاعر آخر بأسلوب آخر. أستطيع في هذه اللَّحظة، وقد صقلتُ هذه المهارة حتَّى الدَّرجة التَّاسعة، أن أكتب بجميع الأساليب المختلفة التي ستكون أصيلةً جميعاً.

ولن نبلغ الطَّور الأعلى للحُلم إلَّا حين نعيش في الوقت ذاته حيوات الشُّخوص الذين ابتدعناهم جميعاً- *فنحن تلك الأرواح معاً وتفاعُليّاً*.

ويا للدَّهشة كيف يُبدِّدُ هذا الشَّيءُ شخصيَّةَ الرُّوح، كيف يجعلها رُفاتاً! وإنِّي لأعترف بأنه من الصَّعب ألَّا نستسلم حينئذٍ للإعياء الكلِّيِّ الذي يجتاح كينونة المرء على بكرة أبيها. ولكنْ، يا لَهُ من نَصْرٍ!

وهذا هُوَ الزُّهْدُ الوحيدُ المُمكِنُ. لا ينطوي على إيمانٍ، ولا حتَّى على إلهٍ.

أنا صنو إله.

55

[1914؟]

منظر طبيعيٌّ في المطر

مع كلِّ قطرةِ مطرٍ تبكي معَ الطَّبيعةِ حياتي التي أخفقَتْ. ثمَّة شيء مِن قلَقي في انهمار المطر ثَجيجاً لا يكفُّ، فَيُفرغُ النَّهار بهِ حزنَهُ عبثاً على الأرض.

إنَّها تمطر وتمطرُ. تخضلُّ روحي وهي تصغي إلى المطر. مطرٌ غزيرٌ... يسيلُ جسدي ماءً حول وعيي بهِ.

بَرْدٌ شديدُ الوطأةِ يُطبِقُ يديهِ الجليديتين على قلبيَ المسكينِ. والسَّاعاتُ، رماديَّةً و[...]، تمتدُّ في الزَّمنِ؛ واللَّحظاتُ تطولُ. كيف تمطرُ!

بَصَقتِ المزاريبُ فُيوضاتٍ صغيرةً من ماءٍ فجائيٍّ. والصَّوت المزعج للماء الذي يتدفَّق في الأنابيب ينفذ إلى عقلي. يدقُّ المطر زجاج النَّوافذ، بلا هوادةٍ، مُلتاعاً من الأسى؛ في الـ [...].

يدٌ باردةٌ تأخذُ بخِناقي فتمنعني من تنفُّسِ الحياة.

كلُّ شيء فِـيَّ يموتُ، حتَّى المعرفة التي أستطيع أن أحلمَ بها تموتُ! لا أشعر أنَّ جسدي على خيرِ ما يرامُ. كلُّ الأشياء المُريحة التي أستندُ إليها تجرحُ بأطرافها الحادَّة روحي. وكلُّ نظرةٍ أرمقُها قد عتَّمَتْ، هزمها ضوء هذا النهار الفقير الذي تهيَّأ كي يموتَ في هذي اللَّحظة ميتةً بلا ألمٍ.

أقوالٌ مأثورة [65]

إنَّ امتلاكَ شغفٍ [66] وآراء وغرائزَ مُحدَّدة وراسخة، وشخصيَّةٍ ثابتة ومعروفة، يؤدِّي إلى رعبِ جَعْلِ روحِنا حقيقةً، جعلِها ماديَّةً وبرَّانيَّة. وإنَّ العيش في حالة ماتعة وسيَّالة من الجهالة بالأشياء والنَّفْس هي الطَّريقة الوحيدة للحياة المضمونة كي تناسب هذا الطَّوْر وتجلب لَهُ الرَّاحة.

وإنَّ القُدرة على التَّدخُّل المتواصل بين النَّفْس والأشياء الأخرى تُعبِّر عن أعلى درجات المعرفة والتبصُّر.

ولا بُدَّ لشخصيَّتنا أن تكون عصيَّةً على النَّفاذ حتَّى على أنفسنا: ولهذا ينبغي أن يكون واجبنا دائماً أن نحلم، وأن نُشرك أنفسنا في أحلامنا، حتَّى يكون من المستحيل علينا أن نتشبَّث بأيِّ رأيٍ يتعلَّق بأنفسنا.

ولا بُدَّ أن نحمي شخصيَّتنا على وجه الخصوص وأنْ نمنع الآخرين من اقتحامها. فأيُّ اهتمام يُبديه الآخرون بنا هو فظاظة فادحة. إنَّ الشَّيء الوحيد الذي يمنع التَّحيَّة اليوميَّةَ، «كيف الحال؟»، مِن أن تغدو إهانةً لا تغتفر هَوَ حقيقةُ أنَّها في العموم فارغةٌ ومنافقة تماماً.

أنْ نُحبَّ يعني أنْ نتعبَ من كوننا وحيدين، لا أكثر: ولهذا فإنَّ الحُبَّ جُبنٌ وخيانة لأنفسنا على حدٍّ سواء. (فمن الأهميَّة القصوى ألَّا نُحبَّ).

أنْ تُسدي لشخصٍ نصيحةً ذهبيَّة أنْ تُبدِي استخفافكَ التَّامَّ بالقُدرة التي وهبها الله لذلك الشَّخص على اقتراف الأخطاء. ولا بُدَّ، علاوة على ذلك، أن تظلَّ أفعال الآخرين

(65) على الرَّغم من أنَّ پيسارُو قد سار في الطبعة البرتغالية التي وضعها على نهج پِسُوًّا نفسه في القصاصات التي دوَّن فيها أقواله المأثورة/حِكَمِه Maxims (في البرتغاليَّة: Maximas) هذه، واضعاً شَرطةً صغيرة في مفتتح كلِّ قول، فاصلاً بينها بمساحات بيضاء، فإنَّ جول كوستا، في ترجمتها الإنگليزية هذه التي تعتمد، في الأصل، على طبعة پيسارُو، قد آثرت عدم الاقتداء بذلك، مكتفية بذكر القول في فقرة مستقلة، مع المحافظة على المساحات البيضاء بين كل قول وآخر. وعلى نهج جول كوستا، هذا، سارت سوبراو كونيا في الطبعة البرتغاليَّة التي حرَّرتها، فيما اقتدى برادو كويلو وزينيث، في طبعتَيْهما، بنهج پِسُوًّا نفسه. (المترجم)

(66) في الأصل البرتغاليِّ بصيغة الجمع paixões؛ وكذلك في الترجمة الإنگليزيَّة: passions. (المترجم)

محتفظةً بميزة أنَّها ليست أفعالنا. السَّبب الوحيد المُحتمل لطلب النَّصيحة من الآخرين هو أن نعرف -حين نفعلُ في وقت لاحق خلافَ ما أخبرونا به بالضَّبط- أنَّنا نحن أنفُسنا حقاً، ونتصرَّف في تناقُضٍ تامٍّ مع كُلِّ ما هُوَ آخَر.

الميزة الوحيدة للدِّراسة أنْ نستمتع بجميع الأشياء التي لم يقلْها الآخرون.

الفنُّ صَنيعُ عُزلةٍ. فلا بُدَّ أن يسعى كلُّ فنَّانٍ إلى عزل الآخرين، إلى أن يملأ أرواحهم بالرَّغبة في أن يكونوا وحيدين. فالنَّصر الأعظم الذي يظفر به الكاتب أنْ يحظى بقارئٍ يختار أن يقتني كتُبَه، من دون أن يقرأها، فحسب. وليس لأنَّ هذا هو ما يحدث للكتَّاب العظام، وإنَّما لأنَّه التَّقدير الممكن الأعظم...

أنْ تكون جلياً يعني ألَّا ينحرفَ مزاجُك تجاه نَفسك. فالحالة العقليَّة الشرعيَّة الوحيدة حين ينظر المرءُ في نَفْسه فلا يرى سوى حالة شخص لا يرى سوى الأعصاب والحِيرات.

الموقف الفكريُّ الوحيد الجدير بمخلوق أسمى هو شعور المرء بعاطفة هادئة ورائعة تجاه كلِّ شيء ليس نَفْسَهُ. وهو لا يعني بالضَّرورة أنَّ هذا الموقف يحمل طابع ما هو عادل وحقيقيٌّ، ولكنَّه موقف مُثير للحسد، فينبغي للمرء أن يمتلكه.

57

[1914؟]

حُلم مُثلَّث

استحال الضَّوءُ أصفرَ على مهلِهِ، أصفرَ مُسرفاً في صُفرته وقد لطَّخه الرَّماديُّ. والبرازخ التي بين الأشياء قد طالتْ، والأصواتُ التي كانت متباعدة على نطاق أوسع من المعتاد قد دوَّتْ متقطِّعةً، ثُمَّ توقَّفتْ فجأةً كأنَّها قد مُنِعَتْ من أن تُدَوِّي. كان الحَرُّ الذي بدا أنَّه قد تعاظم حَرّاً وبرداً على حدٍّ سواء. أستطيع أن أرى في الشَّجرة الوحيدة المرئيَّة، عبر شقٍّ

في المصاريع، هواءَ انتظارٍ مُسرفاً في انتظاره. كانت خضرة الشَّجرة خضرةً مختلفةً، طافحةً بالصَّمت مثلما هي طافحة باللَّون. أطبقتْ في الجوِّ على نَفْسها البتلاتُ. والسُّهول التي في التَّكوين الفعليِّ للمدى قد انتقلَتْ وشقَّتِ الوشيجة بين الأصوات والأضواء والألوان.

58

[1914؟]

أفكِّرُ في بعض الأحيان، وقد غمرتني مسرَّةٌ متناقضة، في إمكانيَّة أن نُوجِد في المستقبل جغرافيَّةً لوعينا بأنْفُسنا. سيكون مؤرِّخُ مشاعر المستقبل، مثلما أرى، قادراً ربَّما على أن يُغيِّر موقفه تجاه وعيه بروحه وتحويله إلى علم مُحكَم ودقيق. ولكنَّنا مازلنا، في غضون ذلك، أغراراً في هذا الفنِّ الصَّعب، فهو لايزال مجرَّد فنٍّ، كيمياء مشاعر لم تتجاوز الخيمياء كثيراً. سيمتلك عالِمُ عالَمِ الغَدِ، هذا، حساسيةً خاصَّة بحياته الجوَّانيَّة. سيصنع من نَفْسه الأداة الدَّقيقة اللَّازِمة للتَّحليل الذي يُجريه. لا أرى صعوبةً عظيمة في صُنع أداةٍ للتَّحليل الذَّاتيِّ من فواليذ الفِكر وقطع برُونْزِه فحسب. أعني بذلك فواليذَ وقطع برونز حقيقيَّة، ولكنَّها صُهِرتْ في الرُّوح. ربَّما هذي هي الطَّريقة التي تُصنَع فيها تلك الأداة حقاً. وقد يكون من الضَّرورة أن يتفتَّق ذهن المرء عن فكرةِ أداةٍ دقيقة، ثُمَّ يرى تلك الفكرة مُتجسِّدةً أمام ناظريه قبل أن يكون قادراً على المُضيِّ قُدماً في أيِّ تحليل صارم لذاته. ولسوف يكون من الضَّرورة أيضاً، بطبيعة الحال، تحويل الرُّوح إلى مادَّةٍ محسوسة يُطوِّقها فضاء تستطيع أن تُوجَد فيه. ويعتمد هذا كلُّه على تنقية مشاعرنا الجوَّانيَّة تنقيةً عظيمةً؛ مشاعرنا التي سوف تعمد إلى أن تُجلِّي فِينَا أو تخلقَ، دون ريبٍ، حين تبلغُ حدَّها الأقصى، فضاءً أصيلاً يشبه الفضاء الذي تُوجَد فيه الأشياء المحسوسة ولكنَّه، في الحقيقة، لا يُوجَد بوصفه شيئاً في حدِّ ذاته.

ولا أعرف، بالضَّبط، إنْ كان سيغدو هذا الفضاء[67] الجُوَّانيُّ مجرَّد بُعْدٍ آخَر للفضاء الآخَر. ربَّما سوف تكتشف البحوث العمليَّة المستقبليَّة أنَّ كلَّ شيء، سواءً أكان محسوساً أمْ روحانياً، هو مجرَّد بُعْدٍ للفضاء ذاته. فنحن نعيش جسداً في أحد الأبعاد، في حين نعيش روحاً في البُعْد الآخَر. وربَّما ثمَّة أبعاد أخرى قد نختبر فيها مظاهرَ حقيقيَّةً أخرى من أنفسنا

(67) أستخدم كلمة الفضاء space، سواء في هذا المقطع أو في غيره، بمعنى المكان الواسع. (المترجم)

على حدٍّ سواء. أستمتعُ أحياناً في ترك نَفْسي تحمَل بعيدا على جناح هذا التأمّل العقيم حول المدى الذي قد يقودنا إليه هذا البحث.

ربَّما سوف يكتشفون أنَّ ما ندعوه مقدساً، الموجود بوضوح في مستوى آخر من ذلك الواقع المنطقيِّ المكانيِّ والزَّمانيِّ، هو مجرَّد طريقة أخرى من طرائق كينونتنا، إحدى الطَّرائق التي نختبر بها أنفسنا في بُعْدٍ آخر من الوجود. وهذا لا يبدو مستحيلاً في رأيي. وقد تكون الأحلام بُعْداً آخَر نعيش فيه أو حتَّى تداخلاً بين بُعْدَيْن. ومثلما يُوجَد الجسد في الارتفاع والعَرض والطُّول، فمَن يدري ألَّا تكون أحلامنا موجودة في الفضاء في الوقت ذاته، في العالَم المثاليِّ وفي الأنا العُليا: تمثيلها المحسوس في الفضاء؛ وتمثيلها غير المحسوس في العالَم المثاليِّ؛ ودورها كمظهر حميم لأنفسنا في الأنا العُليا. حتَّى إنَّ كلَّ «أنا» كلِّ شخص قد تكون بُعْداً آخَر. وهذا كلُّه في غاية التَّعقيد، ولكنَّه سيُحَلُّ عاجلاً أم آجلاً دون ريب. ولعلَّ الحالمين اليومَ هُمُ الأسلافُ العِظامُ للعِلم المستقبليِّ المُطلَق، على الرَّغم من أنَّني لا أومن بأيِّ عِلم مستقبليٍّ مُطلَق. ولكنَّ ذلك لا علاقة له بالمسألة مدار البحث.

وأخترع أحياناً غيبيَّات، كهذه، بكلِّ الانتباه الشَّديد الحِرص، النَّامِّ عن التَّوقير، الذي يُوليه شخص منهمك في عمل علميٍّ أصيل. ومن الممكن، مثلما قلتُ سابقاً، أن أصل إلى المرحلة التي قد أفعل فيها كلَّ ذلك بالضَّبط. والشَّيء البالغ الأهميَّة هو ألَّا تمشيَ في الأرض مَرَحاً جرَّاء ذلك كلِّه، فالخُيلاء تضرُّ بالحياد الصَّارم للموضوعيَّة العلميَّة.

59

[1914؟]

مِلّيمتراتٌ (معاينة الأشياء المتناهية في الصِّغَر)

أعتقد أنَّ الحاضر قديم، مُوغل في القِدَم، لأنَّ كلَّ شيء، حين وُجِدَ، قد وُجِدَ في الحاضر فحسب، وبناءً عليه، ولأنَّ جميع الأشياء تنتمي إلى الحاضر، فإنَّني أشعر، تجاه الأشياء جميعاً بشغف عالم الآثار، وغضب جامع القطع الأثريَّة المُحبَط الذي يعتقد أنَّ العالم ينبذ الأخطاء التي ارتكبتُها بحقِّ الأشياء، بتقديم تفسيرات عمليَّة مُبرَّرة ومنطقيَّة، حتَّى إنَّها قد تكون حقيقيَّة.

تبدو الوضعيَّات المتعاقبة المختلقة، التي تتَّخذها فراشةٌ حين تطير عبر الهواء، لعينيَّ

الدَّهشتَيْن، كأنَّها لحظاتٌ منفصلة مازالت مرئيَّةً في الفضاء. وإنَّ ذكرياتي ساطعة حتَّى إنَّها [...]

ولكنَّني لا أختبر، بحدَّةٍ، إلَّا المشاعر في حدودها الدُّنيا تجاه الأشياء المتناهية في الصِّغَر. ولابُدَّ أن يكون هذا نابعاً من حُبِّي للعقيم أو ربَّما من شغفي بالتَّفاصيل. ولكنَّني أعتقد -ولا أعرف؛ فهذه أشياءٌ لم أُحلِّلها قَطُّ- بما أنَّ المُتناهيَ في الصِّغَر لا يتمتَّع بأيِّ قيمة اجتماعيَّة أو عمليَّة على الإطلاق، فإنَّه ربَّما، للسَّبب هذا بعينه، مُتحرِّرٌ من أيِّ صلات دنيئة بالواقع بتاتاً. كلُّ الأشياء، لديَّ، بطعم اللَّاواقعيِّ. فعديم الجدوى جميلٌ لأنَّه أقلُّ واقعيَّةً من المُفيد الذي يتمتَّع بوجود متواصل ودائم؛ في حين أن العديم في جدواه على نحو بديع، المتناهي في الصِّغر على نحو بهيٍّ، يظلُّ حيثُ هُوَ، ولا يذهب أبعدَ ممَّا هُوَ عليه، ويعيش حُرّاً ومستقلاً. يخلقُ عديم الجدوى والعقيم برازخَ جَمالٍ مُتواضِع في حيواتنا الحقَّة. فالوجود الوضيع المُجرَّد لدبُّوسٍ شُكَّ في شريطٍ، يستثيرُ في روحي كلَّ أنواع الأحلام والمسرَّات العجيبة! أُشفق على أولئك الذين لا يُدركون أهميَّة هذه الأشياء!

وثمَّة، من تلك المشاعر الجارحة الأعقد والأشيع، ذلك الشُّعور اللَّذيذ في حدِّ ذاته أو يكادُ؛ إنه القلَق الذي يثيره سرُّ الحياة. وليس من السَّهل بتاتاً اكتشاف ذلك السرِّ، مثلما هي الحال في تأمُّل الأشياء البالغة الصِّغَر التي تكون، لكونها لا تتحرَّك، شفَّافةً على نحو مثاليٍّ، إنَّها تتوقَّف كي يمرَّ السرُّ. والأصعب هُوَ اختبارُ أيِّ إحساسٍ بالسِّرِّ حين نتأمَّل معركةً -ومع ذلك، فإنَّ تدبُّر عبثيَّةِ أن يكون ثمَّة أناس ومجتمعات ومعارك تدور بينهم هو ما يقدر، بكلِّ سهولة، على دفعنا إلى نشر راية النَّصر والاحتفاء بِغَلَبة السِّرِّ- أكثر من تأملنا حجراً واحداً صغيراً في الطَّريق، ولأنَّهُ لا يستثير أيَّ فكرة فِيْنَا أبعدَ من حقيقة وجودِهِ، فإننا إذا واصلنا التَّفكير، لا يستطيع أن يُخفِق في أن يستثير فِينَا الفكرةَ التي تنثال من هُنَاكَ على الفور، أقصدُ: سرَّ وجوده.

طُوبَى للَّحظاتِ، وللمِلِّيمترات، ولظلالِ كلِّ الأشياء المتناهية في الصِّغَر، التي هي أشدُّ هذه الأشياء تواضعاً! لحظاتٍ [. . .]

مِلِّيمترات - وجودها جنباً إلى جنبٍ، بعضُها قُربَ بعضٍ على المسطرة، يستنهضُ فِيَّ انطباعَ تعجُّبٍ وجُرأة. تؤلمني مثل تلك الأشياء، في بعض الأحيان، وتجلب ليَ المسرَّة على حدٍّ سواء. أشعرُ بنوع من الكبرياء المثيرة في هذا كلِّه.

أنا لوحٌ فوتوغرافيٌّ حسَّاسٌ لا حدَّ لَهُ. كلُّ تفصيلة متناهية في الصِّغَر قد سُجِّلَتْ فِيَّ وكُبِّرَتْ لتكونَ جزءاً من كُلٍّ. لا تعنيني إلَّا نَفْسي. فالعالَم الخارجي، بالنِّسبة إليَّ، إثارةٌ محضةٌ. ولا أنسى ما أستطيع أن أشعر به البتَّة.

60

[1914؟]

أنْ أُقيمَ فِيَّ دولةً لها نظامُها السِّياسيُّ الخاصُّ وأحزابها السياسيَّة الخاصَّة وثوراتها الخاصَّة، وأنْ أكون كلَّ هذه الأشياء جميعاً، أن أكون إلهاً في وحدة الوجود الملَكِيَّة لـ «أنا-الشَّعْبُ» تلك، وجوهرَ أجسادهم وسلوكهم، وأرواحَهم، والأرضَ التي يمشون عليها والأشياءَ التي يقومون بها. أنْ أكونَ كلَّ شيء، أنْ أكُونَهم وألَّا أكُونَهم على حدٍّ سواء. آهٍ، هذا حُلم لم أقترفه بَعْدُ. وإنْ فعلتُ، فقد أموتُ، لا أعرف لماذا، بَيْدَ أنه لا يتوجَّب على المرء أن يعيشَ بعد اقتراف مثل ذلك التَّدنيس، مثل ذلك الاغتصاب للقوَّة الإلهيَّة في أن يكون كلَّ شيءٍ.

يا للمسرَّة التي سوف تغمرني حينَ أُقيمُ يَسُوعِيَّةَ الحواسِّ!

بعض الاستعارات أكثر واقعيَّةً من النَّاس الذين ترونهم يمشون في الشَّارع. وبعض الصور الذِّهنيَّة، التي يجدها المرء في الكتب، مفعمةٌ بالحياة أكثر من أغلب الرِّجال والنِّساء. وتمتلكُ بعض العبارات الأدبيَّة فردانيَّةً إنسانويَّة مُطلقَة. وتُرْعِدُني أجزاءٌ من فقراتٍ مُعيَّنة كتبتُها، فهي تتراءى لي كأنَّها بشرٌ، مُظلَّلةً بوضوح على جدران غرفتي، اللَّيل، العتمة... ولقد كتبتُ جُمَلاً، سواءً قُرِئَتْ بصوتٍ عالٍ أمْ خفيضٍ، فإنَّ صوتَها الذي يستحيل حجبُهُ، صوتُ شيءٍ اكتسبَ لا محالةَ مظهرَهُ الخارجي المُطلَق، وروحَهُ التَّامَّةَ الخالصة.

ولماذا أضع في بعض الأحيان طرائق متناقضة ومتنافرة للحُلم وتعلُّم أن نحلم؟ ربَّما لأنَّني قد كبرتُ متعوِّداً على اختبار الزَّائف بوصفه حقيقياً، والمَحلُومَ به بوصفه شيئاً قد رأيته بأمِّ عينيَّ، وبأنَّني قد فقدتُ القُدرة الإنسانيَّة -الجوفاءَ، على ما أعتقد- للتَّفريق بين الحقيقة والأكاذيب.

ولا أحتاجُ لرؤية الشَّيء جلياً؛ إلا أن أراهُ بعينيَّ أو أُذنيَّ أو بعض حواسِّيَ الأخرى، حتَّى

أقتحمَ لُجّتَه كأنَّه شيء حقيقيٌّ. وقد أشعر أنّني أرى شيئَيْن منفصلَيْن كُليَّةً في الوقت ذاته، غيرَ أنّي لا أكترثُ.

ثمَّة مخلوقات قادرة على مكابدة المعاناة ساعاتٍ طويلة لأنَّها لا تستطيع أن تكون شكلاً في رسمةٍ أو على أوراق اللعب، فحسبُ. وثَمَّ أرواحٌ تُثقِل كاهلَها، كاللَّعنةِ، استحالةُ أن تكون شخصاً من العصور الوسطى. فلقد شعرتُ بذلكَ مرَّةً، بَيْدَ أنْ ليسَ بَعْدُ. ذهبتُ أبعدَ من ذلك كُلِّهِ. ولكنَّني لم أعُد أتوجَّعُ حين لا أكون قادراً مَثَلاً على أن أحلمَ بمَلِكَيْن من مملكتَيْن مختلفتَيْن، ينتميان، على سبيل المثال، إلى كونَيْن مختلفَيْن بنوعَيْن مختلفَيْن من المكان والزَّمان. يؤلمني ألَّا أكون قادراً على ذلك حقاً. كأنَّ الجُوعَ يفوحُ.

وأنْ أكونَ قادراً على أن أحلم بالمُحَالِ وأُجَلّيهِ ليسَ إلَّا نصراً من تلك الانتصارات المؤزَّرة التي نادراً ما أظفر بها حتَّى أنا الحالم العظيم على الرغم من كوني كذلك. فأن أحلم، مثلاً، في وقت واحدٍ، وعلى حِدَةٍ، لا تساورني شكوكٌ، بأنَّني الرَّجل والمرأة في النُّزهة الَّتي يقوم بها الرَّجل والمرأة قُربَ النَّهر. أنْ أكون قادراً على أنْ أرى نَفْسي، في الوقت نَفْسهِ وبالوضوح ذاته -مندمجةً في نَفْسها تماماً ومنفصلةً عن نَفْسها تماماً- سفينةً واعيةً في البحار الجنوبيَّة وصفحةً مرقومةً في كتابٍ عتيق. كم عبثياً يبدو هذا الأمرُ! بَيْدَ أنَّ كلَّ شيء عبثيٌّ، وما الأحلامُ إلَّا الأقل عبثيَّةً من بين جميع الأشياء.

61

[1914؟]

حَسَدٌ مُقدَّس

كلَّما شعرتُ بالمسرَّة صحبةَ الآخرين، أحسدهم على الجزء الذي احتلُّوه في ذلك الشُّعور. يُخيَّلُ إليَّ أنَّه نوع من الصَّفاقة أنْ أشعر بضرورة أن يشعروا مثلي؛ بضرورة أن يغزوا روحي بأرواحهم شاعرين بالتَّناغم الكُليِّ مع روحي.

والصُّعوبة العظمى بشأن الكبرياء التي تنتابُني حين أتأمَّل المناظر الطَّبيعيَّة، هي الحقيقة المؤلمة بأنَّ شخصاً آخر سوف يكون قد تأمَّلها لا محالةَ من قَبلُ وقد انتابه شعورُ الكبرياء ذاته تماماً.

وهذا صحيحٌ، في أوقات مختلفة، وفي أيَّام مختلفة، ولكنَّ التَّفكير على هذا المنوال يبدو كأنِّي أُعانقُ نَفْسي وأُروِّحُ عنها بحذلقةٍ هي دُوني. أعرف أنَّ الفارق ليس ذا أهميَّة كبيرة، وأنَّ الآخرين سوف يكونون قد نظروا إلى المنظر الطَّبيعيِّ ذاته بالرُّوح نَفْسها وبطريقة لم تكُن تشبه طريقتي لكنها تضاهيها.

ولهذا أُجبر نَفْسي على أن تُغيِّر دائماً ما أراهُ كي تجعله مِلكِي على نحو لا جدال فيه -كأنْ تُغيِّر مَثَلاً شكل الجبال على صفحة السَّماء، في حين تحافظ على جمالها وتُبقِيها نَفْسَها؛ مستبدلةً أشجاراً وأزهاراً مُعيَّنةً بأخرى متشابهة تماماً ومختلفة إلى حدٍّ بعيد؛ أن أرى ألواناً أخرى في المغيب ولكنْ بالتأثير ذاته- وهكذا أخلق، والفضل لتجربتي وطريقتي العفويَّة والمألوفة في النَّظَر، تلك الطريقة الجوَّانيَّة للنَّظَر إلى العالم الخارجيِّ.

وهذا، على أيِّ حال، المستوى الأدنى في استبدال المرئيِّ. أنا، في لحظات حُلمي الأفضل والأكثر حريَّة، مهندسُ أشياءٍ أكثر طموحاً إلى حدٍّ بعيد.

أجعلُ المنظر الطَّبيعيَّ يُصدر تأثيرات موسيقيَّة، ويستدعي صوراً مرئيَّة - فيا له من نصر فضوليٍّ وفي غاية التَّعقيد للحالة النَّشوانة؛ نصرٍ صعب لأنَّ واسطة الاستحضار من الطَّبَقة ذاتها التي لتلك المشاعر التي سوف تستدعيها. وكان نصري الأعظم حين تأمَّلتُ «كَايْش دُو سُوذْرِي»[68] - في ساعة مُحدَّدة، غامضة على نحو غريب بخصوص الشَّكل والضُّوء - فرأيتُ معبداً صِينياً بأجراس عجيبة، مثل قُبَّعات سخيفة، على حوافِّ الأفاريز- معبداً غريباً مدهوناً في الفضاء، فوق ذلك الفضاءِ الحريرِ، لا أعرفُ كيف، فوق الفضاء الذي يكابدُ بُعْداً ثالثاً رهيباً. بدتِ السَّاعاتُ في الواقع، بالنِّسبة إليَّ، تفوح منها رائحة قماشة جُرَّتْ إلى مكان بعيدٍ، تجتاحني رغبة عظيمة في أن يكون ذلك حقيقياً...

---

(68) Cais do Sodré : محطَّة سكَّة حديد في لشبونة. وكلمة cais تعني في البرتغالية: رصيف بحري؛ مرسى. أمَّا كلمة Sodré، فثمَّة رواية تقول إنَّها نسبة إلى فيسنته سوذري الذي كان قد شيَّد منزلاً في تلك المنطقة بعد الزلزال الذي ضربها في العام 1755. ورواية ثانية تقول إنَّها نسبة إليه ولأخوته الذين عمَّروا المنطقة وشيَّدوا المرسى هناك. وثمة رواية ثالثة تقول إنَّ الكلمة تحريف لاسم Sudley الإنكليزي (إشارة إلى الدوق فريدريك سدلي الذي قدم إلى البرتغال في العام 1381)، ثم بات الاسم يُلفظ في البرتغالية Sodré بعد وقت من الزَّمان. (المترجم)

62

[1914؟]

الإنسان الحصيف الحَقُّ هو ذلك الذي لا يدع الأحداث الخارجيَّة تزعجه كثيراً بقَدْر ما يستطيعُ. ويحتاج، للقيام بذلك، إلى تحصين نَفْسه فيحوِّطها بحقائق واقعيَّة أقرب إليه من تلك الأحداث، ومن خلالها تصل إليه الأحداث، وقد تغيَّرتْ كي تتوافق مع تلك الحقائق.

63

[نحو 29 أكتوبر 1914]

أن نُفكِّر، نعم، حتَّى أن نُفكِّر، هُوَ أن نفعل. وحدها أحلام اليقظة المُطلَقة، حيث لا فِعلَ يتدخَّل، حيث يَغرزُ وعينا بأنفسنا كلُّه في الوحل نهائياً - فليس إلَّا هُنَاك فحسب، في حالة اللَّاكينونة الدَّافئة والرَّطبة تلك، يستطيع المرءُ أن يهجر كلَّ فِعل.

ألَّا نرغب في الفهم، في التَّحليل... أن نرقب أنفسَنا مثلما يرقب المرءُ الطَّبيعة؛ أن نُحدِّق في انطباعاتنا مثلما يحدِّق المرءُ في أحد الحقول - هذي هي الحكمة الحَقَّة.

64

[بعد 31 أكتوبر 1914]

درب التَّبَّانة

... بعباراتٍ ملتوية لروحانيَّةٍ حقودة...

... طقوسُ أُرجوانيَّات رثَّة، واحتفالات غامضة لا تعاصر أحداً...

... أحاسيسُ مثيرة، حبيسة، مُختبَرةٌ في جسد آخر غير ماديٍّ هُوَ جسدٌ وماديٌّ، على حدٍّ سواء، وفقَ ما يشاءُ، يُعشِّقُ تفاصيل دقيقةً، بعضُها مُعقَّد، وبعضها بسيط...

... بحيراتٌ تُحوِّمُ فوقها، بوضوح لا شِيَةَ فيهِ، إلماعةُ ذهبٍ باهتٍ، وزنبقةٌ لا يساورها بعضَ الشَّيءِ شكٌّ، جرَّاءَ بعض التَّحسينات الشَّيطانيَّة، في أنَّها قد خُلِقَتْ حقاً ذات يوم، تقبضُ عليها يدان بيضاوان، ناصعتا البياض...

... عهودٌ قُطِعَتْ بين السُّبات والقلَق، خضراءُ غامقة، لا تبالي بها العينُ، ثاويةٌ بين خَفَرِ السَّأم وقد هدَّها التَّعبُ...

... عِرقُ لؤلؤٍ ذو مآلاتٍ عقيمة، ومرمرٌ منقوعٌ مرَّات ومرَّات - مَغيباتٌ مُحوَّطة بحوافِّ الأرجوان والذَّهب للتَّرويح عن النَّفْس، بَيْدَ ألَّا سُفنَ تُبحر إلى شواطئ أفضل، ولا جسورَ تُفضي إلى أَشفاقٍ أطول...

... ولا حتَّى فكرة البِرَك، برِكٍ كثيرة، ملموحة من بعيدٍ عبرَ أشجارِ حورٍ أو ربَّما سروات، مُعتمداً على المقاطع المحسوسة عميقاً؛ المقاطع التي لفظت بها السَّاعةُ أسماءَها...

... ولهذا ثَمَّ نوافذ تطلُّ على خلجانٍ، وأمواجٌ تدقُّ الأرصفة البحريَّة ولا تكفُّ، وحاشيةٌ مُشوَّشة، ومجنونة، غارقةٌ في ذاتها، كأحجار عقيقٍ تكتب بينها سوالفُ العروس[69] والبُطْمُ ليالي أرقٍ[70] الفَهْم على جدران السَّمَع المحجوبة...

... خيوطُ فضَّةٍ نادرة، أواصرُ أُرجوانيٍّ مُنحَلٍّ، ومشاعرُ عقيمةٌ أسفلَ أشجار الزَّيزفون، وعلى طُول دروب محاطة بأشجار الشَّمشير، أزواجٌ ممعنون في القِدَم، صامتون، ومراوحُ فجائيَّة، وإيماءات غامضةٌ، وحدائقُ سامية، بلا ريب، تنظر إلى التَّعب الرَّائق للاشيءٍ سوى مزيدٍ من الطُرُق المُشجَّرة والدُّروب...

... أنماطُ أشجارٍ مُخمَّسةٌ، وتعريشاتٌ، وكهوف، وأسرَّة أزهار، ونوافير، الفنُّ الذي خلَّفه المُعلِّمون الرُّؤساء الموتى، الذين في غضون المبارزات التي تـمَّت في دواخل أنفسهم بين السُّخط والجَلِيِّ قد صمَّموا مواكب كاملة من موادِّ الأحلام في الشَّوارع الضَّيِّقة للقرى العتيقة للمشاعر...

... ألحانُ مرمرٍ في القصور البعيدة، وذكرياتٌ تشبك أيديَها بأيدينا، ونظرات مألوفة هيَّابةٌ، مغيباتٌ في سماوات مشؤومة - تُعتِّمُ بين نجوم تتدلَّى فوق صمت[71] إمبراطوريَّاتٍ متهالكة...

أنْ نحوِّل الإثارة إلى عِلم، أنْ نحوِّل التَّحليلَ النَّفْسيَّ إلى منهج مِجهريٍّ مضبوط - توقٌ

---

(69) نباتٌ، ويعرف أيضاً باسم عرف الدِّيك أو القطيفة. (المترجم)

(70) يستخدم بِسُوًا هنا لفظة الأرق insomnia (في البرتغاليَّة: insomnias) في صيغة الجمع، ولهذا استعضت عنها بعبارة «ليالي الأرق». (المترجم)

(71) في الأصل بصيغة الجمع silences (وفي البرتغاليَّة: silencios). (المترجم)

يحتلُّ، مثل عطَش متأصِّل، صُلب إرادتي...

وبين الإثارة ووعيي بها تحدثُ جميع المآسي العظيمة لحياتي... وفي تلك المنطقة الغامضة والمجهولة التي تكسوها الغابات وتخرُّ فيها المياهُ، تتدفَّقُ، غير مكترثةٍ حتَّى بصخب حروبنا، النَّفْسُ التي أكافحُ عبثاً كي أعثرَ عليها...

أتمدَّدُ هاجعاً في حياتي. (أحاسيسي المثيرة مرثيَةٌ، قصيدةٌ غُنغوريَّةٌ[72] طويلةٌ تُدثِّرُ حياتي الميِّتة). ويُدركني الموتُ ويدركني المَغيبُ. ولا أُحسِنُ إلَّا أن أنحتَ قبري من أجل الجَمال الجوَّانيِّ.

وتنفتح الأبواب العظيمة لانفصالي عن الحياة على متنزَّهات لانهائيَّة، لكنْ لا أحدَ يمشي فيها، ولا حتَّى في أحلامي- إنَّها تنتصبُ مفتوحةً على العقيم إلى الأبدِ ومغلقةً على الباطلِ إلى الأبد.

أقطفُ بتلات الأمجاد الضَّائعة في حدائق الخُيلاءِ الجُوَّانيِّ ثُمَّ أمضي صاخباً، ماراً بوشائع الشَّمشير، في دروب محلوم بها تُفضي إلى الغامض.

ولقد شيَّدتُ إمبراطوريَّات تامَّة في الغامض، على شواطئ الصَّمت، وفي الحرب الغبراء التي سوف يُهزَم فيها التَّامُّ.

يُدرك العالِم أنَّه، هُوَ نَفْسُه، حقيقته الواقعيَّة الوحيدة، وأنَّ العالَم الواقعيَّ الوحيد هو الذي تمنحه إيَّاه أحاسيسه المثيرة. ولهذا نراهُ، بدلاً من اتِّباع النَّهج الباطل محاولاً تكييف أحاسيسه لتتناغم مع أحاسيس الآخرين، فيجعل العلِم بهذه الطَّريقة موضوعياً، يسعى جاهداً للوصول إلى معرفة كاملة بعالَمه وشخصيَّته. فلا شيءَ أكثر موضوعيَّة من أحلامه، ولا شيءَ خاصَّته أكثرَ من وعيه بنَفْسه. يشحذ عِلمه وفق هاتَيْن الحقيقتَيْن الواقعيَّتَيْن. وإنَّه عِلمٌ مختلف، شديد الاختلاف، عن علم علماء الأزمنة القديمة، الذين سعوا، بعيداً عن البحث عن قوانين شخصيَّاتهم وتنظيم أحلامهم، إلى البحث عن قوانين «العالَم الخارجي» وتنظيم ما دعوه «الطَّبيعة».

(72) نسبة إلى الشاعر الإسباني الذَّائع الصِّيت لويس دي غونغورا صاحب هذه النَّزعة التي اتَّسمت باستخدام «النَّحو اللَّاتيني وأسلوب تعبيره، واستخدام الألفاظ المهجورة، والتَّلميحات الأسطوريَّة، والصور الباذخة». (المترجم)

[بعد 31 أكتوبر 1914]

[درب التبّانة؟]

جزءٌ ثانٍ

الحُلم والقُدرة على الحُلم شيئان بدائيّان، عادةً، فِـيَّ. فمُذ كنتُ طفلاً هادئاً ومنعزلاً، وظروفُ حياتي -رفقةَ ربّما قوىً موروثة غامضة شكّلتني من بعيدٍ وصوّرتني على غرار صورتها الشّريرة- قد منحت روحي فيضَ أحلامٍ يقظة لا ينقطع. وكلُّ ما هُوَ أنا مرتبطٌ بهذا، وحتّى بعضي الذي يبدو أبعدَ ما يكون عن الحالم، ينتمي بلا ريبٍ إلى روح شخص يحلم فحسب، روح صعدت إلى درجتها العُليا.

أرغبُ، قَدْرَ ما أستطيع، وللمتعة التي يجلبها التّحليل الذّاتي تماماً، في أن أُعبِّر بالكلمات عن جميع السّيرورات العقليّة التي ليست إلّا شيئاً واحداً فِـيَّ: حياةً مكرَّسة للحُلم، روحاً نشأتْ لتحلم فحسب.

وحين أشاهدُ نَفْسي من الخارج، مثلما أفعل ذلك دائماً أو أكادُ، أُدرك أنّني غير مناسب للأفعال تماماً، فتكدِّرني بسهولة الحاجة إلى الخَطْوِ أو الإيماءِ، غير مرتاح حين أتحدَّث إلى الآخرين، مفتقراً إلى البصيرة الكافية للتّرويح عن نَفْسي، مُصارعاً الأمور الرُّوحانيّة، ومفتقراً أيضاً إلى التّنسيق الجسديِّ الضّروريِّ كي تنكبَّ نَفْسي على أيِّ فعل جسديّ، لا غير.

من الطّبيعيِّ أن أكون على هذه الشّاكلة. فأيُّ حالم يعرف أنَّ هذه هي الحال. فأيُّ حقيقة تزعجني. وتدفعني حوارات الآخرين إلى الدُّخول في حالة من العذاب المُبرِّح. تدهشني حقيقة روح الآخرين على الدّوام. والشّبكة الواسعة غير الواعية التي تمتدُّ أبعدَ من جميع الأفعال تبدو وهماً عبثياً، بلا أيِّ تماسُكٍ منطقيٍّ، لا شيء.

ولكنَّك إذا اعتقدت بأنّه يتوجَّب عليَّ جرّاءَ ذلك أن أكون جاهلاً بسيرورات الآخرين النَّفسيّة المعقّدة، وبأنّه ينبغي عليَّ أن أفتقر إلى فهم واضح لأفكار الآخرين الحميمة ومحفِّزاتهم، فأنتَ مخطئٌ.

لستُ مجرَّد حالمٍ، أنا حالمٌ مَحضٌ ولا شيءَ سواهُ. ولقد منحتني عقليَّتي الفردانيَّة التي أرعى بها عادةَ الحُلم وضوحَ رؤية جوَّانيَّةٍ؛ وضوحاً خارجاً عن المألوف. ولستُ أرى، وقد شُرِحَ صدري على نحو مُخيفٍ وفي بعض الأحيان مُقلقٍ، أشكالَ أحلامي وخلفيَّاتها فحسب، وإنَّما أرى، بالوضوح ذاته، أفكاريَ المُجرَّدة، ومشاعري الإنسانيَّة -ما تبقَّى منها- وبواعثي السِّريَّةَ، ومواقفي النَّفسيَّة تجاه نَفْسي. أقصدُ أنَّني أرى أفكاري المُجرَّدة فِيَّ، أراها برؤية جُوَّانيَّة حَقَّةٍ تسكُنُ فضاءً جُوَّانياً أصيلاً. هكذا تتجلَّى لي أدقُّ تفاصيلِ أحاديثها الطَّويلة الفارغة.

بِتُّ أعرف نَفْسي، بهذه الطَّريقة، حقَّ المعرفة، فحين أعرف نَفْسي حقَّ المعرفة، فسوف أعرف الإنسانيَّة حقَّ المعرفة كذلك. فلا باعثَ أساسياً، ولا غريزةَ نبيلةً لم تومض على روحي؛ أعرف الإيماءات التي تصاحب كلَّ فكرةٍ. أعرف الأفكار الشِّريرة على حقيقتها، أيَّ أقنعةِ طِيبةٍ أو لامبالاةٍ ترتديها. أعرف الشَّيء الذي يكافح داخلَ أنفسنا كي يخدعنا. وهكذا أعرف معظم النَّاس الذين أراهم أفضلَ ممَّا يرون أنفسهم. فغالباً ما أنكبُّ على دراستهم بعمق، لأنَّني أستطيع أن أملكهم بهذه الطَّريقة. فأنا أقهر النَّفس التي أُحلِّلها، لأنَّ الحُلم، بالنِّسبة إليَّ، هُوَ أن تَملك. ولهذا، فإنَّ من الطَّبيعيِّ أن ترى حالماً مثلي يتوجَّب عليه أن يمتلك قوى التَّحليل تلك.

ولهذا فإنَّ المسرحيَّات إحدى الأشياء القليلة التي أستمتع بقراءتها. أعرضُ مسرحيَّات، كلَّ يوم، داخلَ نَفْسي، وأعرف كلَّ ما يتوجَّب عليَّ أن أعرفَه كي أُجرِي إسقاطَ الرُّوح الميركاتوريَّ[73]. ولكنَّ الحقيقة أنَّني لا أستمتع إلَّا قليلاً بهذا كلِّه، فالمسرحيُّون يرتكبون على الدَّوام الأخطاء الفادحة والمُبتذلة ذاتها. لم أعثر على المسرحيَّة التي تُرضيني بَعْدُ. ولأنَّني رأيتُ علم النَّفْس البشريَّة بوضوحٍ وميضِ برقٍ يُنير كلَّ الزَّوايا حين أنظرُ، فإنَّني أراهُ مؤلماً ذاك البناءُ الأخرق وتحليل الشخوص الذي ينهض به معظم المسرحيِّين، ولم تبهجني المسرحيَّات القليلة التي قرأتُها كأنَّها لطخة حبر على صفحة في دفاتر حساباتي.

---

(73) إسقاط ميركاتور، أو الإسقاط الميركاتوري (نسبة إلى الجغرافيِّ الفلمنكي جيراردوس ميركاتور) يقوم على إحاطة الكرة الأرضيَّة بأسطوانة، فتتلامس الكرة والأسطوانة عند خط الإستواء، فيحدث إسقاط لسمات الأرض ونقاطها كافَّة على تلك الأسطوانة التي تنفتح بعد ذلك، ثُمَّ تُبسَط مُشكِّلة خارطة مستطيلة ذات خطوط طول عموديَّة وخطوط عرض أفقيَّة. (المترجم)

تُشكِّل الأشياء مادَّةَ أحلامي، ولهذا أُعِير ذلك الانتباه المُشتَّت إلى بعض تفاصيل العالَم الخارجي.

ويتوجَّبُ عليَّ، كي أمنح أحلامي إشراقَها، أن أعرفَ كيف تتراءى مُشرقةً أمام أعيننا المناظرُ الطبيعيَّة الحَقَّة وشخوص الحياة الواقعيَّة. فرؤية الحالم ليست كرؤية مَن يرى أشياء وحسب. فالمرءُ لا يبني نظرتَهُ، في الأحلام، على المظاهر المهمَّة وغير المهمَّة للأشياء الحقَّة على حدٍّ سواء. فالحالم لا يرى سوى الجزء المهمّ. فحقيقة الشَّيء الحقَّةُ لا تكمن إلَّا في بَعضه، والبقيَّةُ هي الضَّريبةُ الثَّقيلة التي يدفعها للعالَم الماديِّ مقابلَ وجوده في المكان. وعلى صعيد مماثل، فإنَّ بعض الظَّواهر التي تمتلك حقيقةً محسوسة في الأحلام لا تمتلك أيَّ حقيقة في المكان. فالغروب الحقُّ عصيٌّ على التخيُّل وعابرٌ سريع الزَّوال. أمَّا المَغيبُ الحُلمُ، فثابتٌ وأبديٌّ. والشَّخص الذي يستطيع أن يكتب يعرف كيف يرى أحلامه واضحةً (فهذا ما تعنيه الكتابة) أن يرى الحياة كأنَّما يراها في أحلامه، أن يرى الحياة مجرَّدةً من المادَّة، وأن يلتقط لها صوراً فوتوغرافيَّة بكاميرا أحلام يقظته، التي لا تؤثِّر فيها أشِّعة الأشياء المُضجرة والمنفعيَّة والمحدودة، فلا تظهر إلَّا سوداء على لوح التَّصوير العائد للرُّوح.

وهذا النَّهج، الذي فاقمته أحلامي المفرطة، يعني ألَّا أرى سوى الجزء الحُلميِّ من الحقيقة. فرؤيتي للأشياء تقمع في داخل هذه الأشياء كلَّ شيء لا يُفيد حُلمي. وهكذا فإنَّني أعيش دائماً في الأحلام، حتَّى حين أعيش في العالم الحقّ. سيَّانَ عندي النَّظرُ إلى مَغيبِ شمسٍ فِيَّ أو إلى مغيبٍ في العالم الحقِّ، ذاك أنِّي أرى بالطَّريقة ذاتها، فرؤيتي مصنوعة كي لا تحيدَ عن نظامها الذي لا يتغيَّر.

ولهذا تبدو الفكرة التي لديَّ عن نَفْسي فكرةً خاطئة لدى الكثيرين. وإنَّها كذلك بطريقة أو أخرى. ولكنَّني أحلم بنَفْسي فأختار ما يصلح للحُلم فِيَّ، مُشكِّلاً نَفْسي ومُعيداً تشكيلها بكلِّ طريقة ممكنة حتَّى أُلبِّي متطلَّباتي الخاصَّة لما يتوجَّب أن أكونَ عليه أو ألَّا أكون. وتكون أحياناً الطريقة المثلى لرؤية شيء هي أن ندمِّره، لأنَّه يعيشُ -على الرَّغم من أنَّني لا أستطيع بالضَّبط تفسير كيفية ذلك- في عَدَمه وخرابه، وهذا ما أفعله تجاه مناطق واسعة من كينونتي التي مَا إنْ تُرسَم خارجَ تصويرةِ نَفْسي، حتَّى تُفضي إلى تجلِّي نَفْسي في داخل حقيقتي.

كيف لي التأكُّد من أنَّني لا أخدعُ نَفْسي بشأن سيرورات الوهم الجوَّانيَّة هذه؟ فالسَّيرورة التي تستمدُّ مظهراً واحداً من العالَم أو شكلاً واحداً من الحُلم فتحوِّله إلى حقيقة ساطعة، تجلب معها عاطفة أو فكرة، فتجرِّدها من جميع ادِّعاءات النُّبل والنَّقاء، التي لا حقَّ لها في أن تدَّعيها على أيِّ حال، كما هي الحال دوماً أو تكادُ. ولسوف تلاحظ أنَّ موضوعيَّتي هي المُطلَقةُ على الإطلاق. أخلقُ الشِّيء المُطلَق وأمنح حقيقتَه الماديَّة صفاتها المُطلَقة. لم أهرب من الحياة تماماً، بمعنى البحث عن سريرٍ أَوْثَر لروحي، فلقد قايضتُ حيواتٍ فوجدتُ في أحلامي بعض الموضوعيَّة التي وجدتها في الحياة. فأحلامي -التي سوف أتعامل معها في مكان آخر- تُوجَد مستقلَّةً عن إرادتي وغالباً ما تصعقني وتجرحني. وما أجده غالباً في نَفْسي يغمُّني ويخزيني (لعلَّه بعضُ جُذاذةِ نَاسُوتٍ ثاويةٍ فِـيَّ ماتزالُ - فما الخِزيُ بعد كلِّ شيءٍ؟) ويخيفني.

ثُمَّ قامتْ مقامَ الصَّحوِ أحلامُ يقظة لا تنقطع. وأنا في هذه الأثناءِ مُركَّبٌ على الأشياء التي رأيتُها، حتَّى الأشياء التي رأيتها في الأحلام، الأحلام الأخرى التي أحملها معي. وحين أغفلُ كفايةً فلا أستطيع القيام على أكمل وجهٍ بما أشرتُ إليها على أنَّها «الرُّؤية كما لو أنَّها في الأحلام» - لأنَّ تلك الغفلة كانت قد حرَّكتها أحلامُ يقظة لا متناهية وانهماكٌ (غافلاً، بالأحرى، مرَّة أخرى) في المسار الذي سلكته أحلامي - أستطيعُ تركيبَ ما أحلمُ به على الحُلم الذي رأيتُهُ، وأن أُواشجَ الحقيقةَ التي جُرِّدت من واقعيَّتها الماديَّة في هذه اللَّحظة مع اللَّاماديِّ المُطلَق.

ومن هُنَا تنبع قُدرتي على السَّعي وراء عدَّة أفكار جُملةً واحدة، أنْ أراقب شيئاً وأحلم في الوقت ذاته بتعدُّدٍ عظيم لأشياء أخرى؛ أنْ أحلم بمغيب حقيقيٍّ فوق «نهر تيجو» حقيقيٍّ في الوقت ذاته الذي أحلم فيه بصباح محلوم به أشرق على «محيطٍ هادئٍ» فِـيَّ. يختلط الشَّيئان المحلوم بهما دون أن يمتزجا، ودون أنْ يشوِّشا حقاً الحالةَ العاطفيَّة المختلفة التي ارتقى كلُّ واحد منهما إليها. هكذا أكون مثل شخص يراقب أناساً كثيرين عابرينَ في الشَّارع ويكون داخلَ روح كلِّ واحد منهم في الوقت ذاته (ممَّا يفترض وحدةً كاملة في الشُّعور) ويرى في الوقت نَفْسه أجسادهم (التي لا بُدَّ أن تُدرَك على حِدَةٍ) يمرُّ بعضُها ببعض في شارع طافح بأرجُلٍ تمشي.

66

[1914؟]

أنْ تصنعَ شيئاً، ثُمَّ تُدرك أنَّه ليس حَسَناً، مأساةٌ من مآسي الرُّوح، ولاسيَّما حين يتوجَّب عليك الاعتراف بأنَّه أفضل ما تستطيعُه. ولكنْ حين تكون على وشك أن تكتب شيئاً وأنت تعلم سلفاً بأنَّه سيكون ناقصاً، إخفاقاً دون ريب، فهذا لَعَمْري هُوَ الكرب الرُّوحانيُّ الأعظم والخِزي الأكبرُ. ولستُ أشعر بأنَّ السُّطورَ التي أكتبها لا تُلبِّي الطُّموحَ فحسبُ، وإنما أعرف أنَّني سوف أجدُ أيَّ سطرٍ أكتبه في المستقبل لا يُلبِّي الطُّموحَ بالقَدْر نَفْسهِ. أعرف هذا الشَّيءَ من النَّاحية الفلسفيَّة والجسديَّة (الشَّبَقِيَّة)، والفضل يعود إلى بصيرة غامضة، وثاقبةٍ (كأنَّها نصلُ سكِّينٍ يتغلغلُ).

فلماذا أكتبُ، إذن؟ أكتبُ لأنَّني لم أتعلَّم بَعْدُ، كمُبشِّرٍ بالزُّهدِ، ممارسةَ ما أدعو إليه. لم أتعلم بَعْدُ التَّخلِّي عن جُنوحي إلى النَّثر والشِّعر. لا بُدَّ أن أكتب كما لو أنَّ الكتابةَ كفَّارةٌ. وأسوأُ تكفيرٍ عن الذُّنوب معرفةُ أنَّ ما أكتبُ عقيمٌ وواهٍ ومُخفِقٌ تماماً.

نظمتُ الشِّعرَ طفلاً. كان شعراً ركيكاً، شديدَ الرَّكاكة، ولكنَّني ظننتُه كاملاً. لن أذوقَ ثانيةً المسرَّة الباطلة النَّاجمة عن صُنع شيء كامل. ما أكتبه اليوم أفضل كثيراً. إنَّه في الحقيقة أفضلُ ممَّا يقدرُ عليه الكُتَّاب الفُحول. ولكنَّه، بلا ريبٍ، لسببٍ أو آخر، دُونَ ما أشعرُ بأنَّني أستطيع -أو ربَّما يتوجَّبُ عليَّ- أن أكتبَهُ. أبكي تلك القصائد الرَّديئة، التي نظمتُها في طفولتي، بكائي على طفلٍ ميِّت، ولدٍ ميِّت، أملٍ مفقود.

67

[1914؟]

وحين أتقرَّى ألمي، فإنِّي أتقرَّاه بتلك الضَّغينة المُرتابة، العصيَّة على أن تُحدَسَ أو تكادُ، التي تُحيي كلَّ قلبٍ آدميٍّ حين يواجه ألم الآخرين أو انزعاجهم؛ أذهب بمشاعري هذه إلى أبعد الحدود حتَّى إنَّني أستمتع بتلك المناسبات التي أُجبَر فيها على الشُّعور بالسَّخافة أو الوضاعة، كما لو أنَّها كانت تحدث لشخص آخر. ولا أشعر، جرَّاء تحوُّل غريب ومدهش ينتاب مشاعري، بأيِّ فرحٍ حقود ومُفرطٍ في إنسانيَّته تجاه ألم الآخرين وسخافتهم. فأنا لا

أتألَّمُ حين تواجهني مصائب الآخرين، ولكنَّ شعوراً من الضِّيق الجَماليِّ والاستفزاز الخفيِّ ينتابُني. ولا دَخْلَ للدَّماثة في هذا كلِّه، فالمرء حين يُجبَر على أن يشعر بأنَّه سخيف، فسوف يظهر كذلك، ليس لي فحسب وإنَّما للآخرين أيضاً، وهذا ما يستفزُّني؛ يؤلمني أن يضطَّر أيُّ حيوان من الجنس البشريِّ إلى أن يضحك على حساب الآخرين حين لا يمتلك الحقَّ في ذلك. لا أكترث إن ضحك عليَّ الآخرون، فدرعُ الأَنَفَةِ المُستخفَّةِ الفعَّالُ يحميني.

أقمتُ، كي أخطَّ حدودَ حديقة كينونتي، سياجاً عالياً، مُروَّعاً أكثر من أيِّ جدار، كي أستطيع في الوقت الذي أرى فيه الآخرين، بوضوح تامٍّ، أنْ أُقصيهم، وأنْ يظلُّوا هُم الآخَرين.

فلقد ركَّزت انتباهيَ كلَّهُ، طيلةَ حياتي، وكلَّ خالجةٍ أخلاقيَّة، على إيجاد طرائقَ أتجنَّبُ فيها الفِعل. فأنا لا أخضعُ للدَّولة ولا إلى البشر؛ ثمَّة مقاومةٌ هاجعةٌ فِـيَّ. فالشَّيء الوحيد الذي تريده الدَّولة منِّي هو القيام بأيِّ فِعل، وإنْ رفضتُ، فلن تحصل الدَّولة منِّي على أيِّ شيء. وفي حين ليس ثمَّة عقوبة إعدامٍ في هذه الأيَّام، فكلُّ ما تستطيع الدَّولة فعله أن تُنغِّصَ عليَّ حياتي. بَيْدَ أنَّني، حين يحدث ذلك، سوف أُجدِّدُ الدِّرع المحيط بروحي وأُحصِّن نَفْسي أكثر في أحلامي، ولكنَّ ذلك لم يحدث قَطُّ. لم تزعجني الدَّولة على الإطلاق. أظنُّ أنَّ حُسنَ الطَّالع هُوَ الذي لا بُدَّ قد حماني.

68

[1914؟]

لو كنتُ مَن كتب «الملك لِير»، لندمتُ على ذلك طيلة حياتي. فهي مسرحيَّة عظيمة في غاية العظمة إلى درجة أنَّ عيوبها؛ عيوبَها الفادحة، تلوح في الأفق على نحو مرعب، على شاكلة الأشياء المتناهية الصِّغَر في بعض المشاهد التي تمنعها من الوصول إلى الكمال الحَقِّ. فكلُّ ما قَد صُنِعَ مِن قَبْلُ طافحٌ بزلَّات؛ أخطاءٍ في المنظور الفكريِّ أو أخطاءِ جَهالةٍ، لحظاتِ ذوقٍ فاسد، ضعفٍ، وتراخٍ. لم يمتلك أحدٌ الألوهيَّة الضَّروريَّة لكتابة عملٍ فنيٍّ كبيرٍ بما يكفي ليكون عظيماً، ودقيقٍ وكاملٍ بما يكفي ليكون سامياً، ولن يحالف أحدٌ الحظُّ ليكون

قد حقَّق ذلك. فالذي لا يتدفَّق بحريَّةٍ مِنَّا ناجمٌ عن الأرض غير المستوية لنَفْسنا النَّاقصة.

وحين أفكِّر على هذه الشَّاكلة، يغشى مخيِّلتي حزنٌ رهيب، يقينٌ مؤلم لن يتمكَّن البتَّةَ من فعل أيِّ شيءٍ جيِّد أو نافع في سبيل قضيَّة الجَمال. فالطريقة الوحيدة لبلوغ الكَمال هي أن تكون الله. فكلُّ جهد رئيس يستغرق وقتاً، والوقت الذي تستغرقه يسافر في عبر حالات مختلفة لروحنا، وكلُّ واحدة من هذه الحالات تطبع شخصيَّتها الخاصَّة على فردانيَّة العمَل. ولن نكون مُتيقِّنين إلَّا من شيء واحد: حين نكتب، نكتب برداءةٍ؛ فالعمل العظيم والكامل الأوحد هو الذي لا نحلم بِصُنعه أبداً.

أنصِتْ وأشفِقْ على نَفْسك. اسمعني ثُمَّ أخبرني إنْ كانتِ الأحلام لا تستحقُّ أكثرَ من الحياة نَفْسِها. فالعمَل لا يُفضي لشيءٍ بتاتاً، والجهد لا يُوصلنا إلى مكانٍ البتَّة. وحدهُ التَّخلِّي نبيلٌ وسامِقٌ، فهو إقرارٌ بأنَّ أيَّ عمَلٍ قد نتنكَّبه ناقصٌ لا محالةَ، فالشَّيء الماديُّ هُوَ دائماً ظلُّ العمَل المحلوم به.

لو أستطيع الكتابة فحسب، بالكلمات على الورق، لو حوارات النَّاس في مسرحيَّاتي الدراميَّة المُتخيَّلة يمكن أن تُقرأَ عالياً فتُسمَع! فلتلك المسرحيَّات حبكاتٌ كاملة بلا عيوب، وحوارات بلا أخطاء، ولكنَّ الحبكات مجرَّد تخطيطاتٍ في رأسي ولا يمكن أن تتجسَّد حقيقةً، ولا حتَّى جوهر تلك الحوارات الحميمة المصنوعة من الكلمات تماماً، كلماتٍ تستطيع لو أُصيخَ إليها بعنايةٍ، أن تُترجَم إلى كتابة.

أحبُّ شعراء غنائيِّين بعينهم، لأنَّهم لم يكونوا شعراء ملحميِّين أو مسرحيِّين، لأنَّهم كانوا مُحقِّين لمَّا أحسُّوا بضرورة ألَّا يسعوا إطلاقاً إلى أن يُجوِّدوا في الكتابة أكثرَ من لحظة شعورٍ أو حُلم واحدة. فكلَّما كتب الشَّاعر بلا وعي كان أقربَ إلى الكَمال المُمكن. فلا مسرحيَّة لشكسبير تَسُرُّ كمثل قصيدة غنائيَّة لِهَايْنه. فَشِعرُ هاينه الغنائيُّ كاملٌ، والمسرحيَّات جميعاً -سواءٌ أكتبها شكسبير أم شخص آخر- ناقصةٌ لا مَحالة. أنْ تكون قادراً على البناء؛ على تشييد ما هُوَ كُلِّيٌّ؛ على تكوين شيءٍ كجسد آدميٍّ، تتجانسُ أعضاؤه تجانساً تامّاً، وتُوحِّدُ تنوُّعَ كلِّ عضوٍ حياةٌ مُوحَّدة، مُنسجمة مع ذاتها!

وأنتَ، يا مَن تسمعُني ولا تكادُ تُنصِتُ، أنتَ لا تفهم أيَّ مأساةٍ هي هذه! فأنْ تفقد أباً وأُمّاً، وألَّا تُحقِّق مجداً ولا سعادةً، وألَّا يكون لديك معشوقة ولا صديق - كلُّ تلك الأشياء

مُطَاقَةٌ. ما لا يُطَاقُ أنْ تحلم بشيء جميل، وتفتقر إلى مهارةِ أنْ تَحْبُوهُ أفعالاً أو كلمات. الوعيُ بأنَّ عملاً مَا كاملٌ، والقناعة بعمل قد تحقَّق - يا لِطِيب النَّوم تحت ظلٍّ تلك الشَّجرة، في يوم صيفٍ هادئ...

69

[1914؟]

مِشكَالٌ

لا أستطيع أن أجد معنى لنَفْسي... الحياة تُثقل كاهلي... العواطف كلُّها فوقَ ما أُطيقُ... وحده الله قادر على أن يَعلم مكنون قلبي... فهل كنتُ قد تعودتُ كثيراً على المواكب المَهيبة حتَّى إنَّ إعياءً ذا مباهجَ غامضةٍ ومفقودة يُهدهِدُ في هذه الأثناء أيَّ تَوقٍ[74] إلى الماضي قد يكونُ حرَّاقاً لديَّ؟

أيُّ ظُلَلٍ؟ وأيُّ عناقيد نجوم؟ وأيُّ زنابق؟ وأيُّ بيارق؟ وأيُّ نوافذ زجاج مُعشَّق؟

وفي أيِّ سرٍّ ظلَّلته الأشجارُ تجلَّتْ خِيرَةُ تخيُّلاتنا الجامحة؛ التخيُّلات التي لَيست في العالم الحَقِّ سوى تذكار جداول وسَروٍ ووشائع أشجار شمشير، ولكنها لا تجد ظُلَلاً لحاشياتها إلَّا بالزُّهد والتَّعفُّف؟

لا تتكلَّمي... فأنتِ حقيقيَّةٌ جداً... أندمُ على أنَّني قادرٌ على أن أراكِ... فمتى تكونينَ مجرَّد حنينٍ لِي؟ فكم «أنتِ»، حتَّى تلك اللَّحظة، سوف تكونين! وليس تفكيري بأنَّني

---

(74) آثرتُ، هنا، استخدام عبارة «التَّوق الحرَّاق» مقابل كلمة «yearnings» التي تستخدمها جول كوستا في صنعتها الإنكليزيَّة هذه، مُنطلقاً من كلمة «saudade» التي استخدمها بِسُوَّا نفسه في هذا النصّ؛ وهي كلمة لا معنى «مُحدَّداً» لها. فهي «حالة شعوريَّة من الألم والمرارة والكآبة يصعب وصفها تنتاب المرء جرَّاء الحنين/التَّوق إلى شيء/شخص قد لا يلتقيه المرء في حياته ثانية بتاتاً. هي «تشبه الحنين (النُّوستالجيا nostalgia، الكلمة الأخرى المستخدمة في اللغة البرتغالية أيضاً) ولكنَّها تختلف عنها تماماً». ربَّما هي أقرب إلى لفظة «السَّوداء» المستخدمة في اللغة العربيَّة؛ تقول العرب: ألَمَّت به السَّوداء/السُّويداء: الكآبة والقلَق. ويعرف جميل صليبا في معجمه الفلسفي «السَّوداء» على أنَّها «التَّلذذ بالحزن الخفيف الذي يتولَّد من تذكُّر السَّعادة الماضية أو من تصوُّر الأحلام التي لا يعقبها التَّحقيق». ويذكر المعجم الوسيط أنَّها «اضطراب الوجدان وتغلُّب الغمّ والحُزن والقلَق وضِيق الصَّدر». ويذهب أُوبري بِلْ إلى وصف الـ «saudade»، في كتابه، «في البرتغال» (1912) الذي وصف فيه المجتمع البرتغاليَّ في ظلِّ الجمهوريَّة الأولى، على أنَّها «رغبة غامضة ومُلحَّة في شيء غير موجود وربَّما لن يُوجَد، إلى شيء غير الحاضر، استدارة نحو الماضي أو صوب المستقبل؛ ليست تذمُّراً متواصلاً أو حزناً شديداً، وإنَّما حُلمٌ بطيء من اللهفة واللَّوعة والأسى». ويعرِّف المعجم البرتغالي كلمة «saudade» أنَّها «شعور سوداوي بالنَّقص، مرتبط بالتَّفكير بالحرمان جرَّاء غياب شخص أو شيء ما، أو الابتعاد عن مكان ما، أو فقدان رغبات أو تجارب سارَّة خاضها المرء في السَّابق». (المترجم)

أستطيع أن أراكِ إلّا جسراً قديماً لا يعبرهُ أحدٌ... هكذا تبدو الحياة. لقد وضع الآخرون مجاديفهم... ولا انضباطَ في هذه الأثناء بين الجُند. غادر الفرسان عند الفجر وصوت الرِّماح... قلاعُكِ واقفةٌ في انتظار أن تُهجَر... ولا ريحَ هجرتْ صفوفَ الأشجار في أعالي التَّلّةِ... أروقةٌ مُعمَّدةٌ عبثيَّة، أدوات مائدةٍ مُبعَدةٌ، تكهُّناتُ نبوءاتٍ - كلُّ ذلك ينتمي إلى مساءات زائلة في معابدَ وليس إلى لقائنا الآنَ، فالسَّببُ الوحيد الذي يحضُّ أشجار الزَّيزفون على أن تطرحَ ظلالَها هُوَ أصابعكِ وإيماءتُها المتأخِّرة...

وأكثرُ مِن سببٍ كافٍ كي تُوجَد المناطقُ القصيَّةُ... معاهداتٌ وقَّعها ملوكٌ من زجاج مُعشَّق... زنابقُ مِن لوحات دينيَّةٍ... لِمَن تنتظرُ الحاشية؟ ... أينَ ذهب النَّسر الضَّائعُ؟

70

[1914؟] (75)

أعرفُ اليوم الذي أخفقتُ فيه. والشَّيء الوحيد الذي يدهشني في بعض الأحيان هو أنَّني لم أتنبَّأ بأنَّني سوف أُخفق. فهل كان ثمَّة شيءٌ فِيَّ قد وَعَدَ بالنَّصر؟ افتقدتُ قوَّةَ المنتصرين العمياءَ أو رؤية المجانين المُطلَقة... كنتُ شفَّافاً وحزيناً مثل نهارٍ بارد.

الأشياءُ الواضحة وضوحَ الشَّمس تبعثُ على الرَّاحة، على شاكلة الأشياء التي تُنوِّرها الشَّمس. مراقبة الحياة تمرُّ قُربي في نهار ساطعٍ تُعوِّضُ كثيراً ما فاتَ. وأنا أنسى إلى الأبدِ، أنسى أكثر ممَّا أتذكَّر. قلبي الشَّفاف الذي تلعب فيه الرِّيح قد نَخبتهُ الكِفايةُ المُطلقَة للأشياء، فأكتفي بالنَّظَر إليها وقد غمرتني المحبَّة. لم أكُن قَطُّ أكثرَ من رؤية غير مُجسَّدةٍ بلا روحٍ في مَعزِلٍ عن نسيم غامض هبَّ ثُمَّ سَكَنْ.

(75) تُظهِر القصاصات التي خُطَّتْ عليها هذا المقاطع بحبر أسود، أنَّ پِسُوًّا قد رقَّم المقطعين الثَّاني والثَّالث (بالرقمين 2 و3) فقط، في حين روَّس صفحة فارغة بالرَّقم 4 دون أن يخطَّ تحته أيَّ كلمة. كما تُظهِر أنَّه قد فصل بين فقرات كلِّ مقطع بخط صغير وليس بفراغات وفق الصيغة التي لجأت إليها جول كوستا هُنَا. وكان أيضاً قد فصل المقطع الأوَّل عن باقي المقاطع بخط طويل متعرِّج. وعلى منوال پِسُوًّا في استخدامه للخطوط القصيرة بين الفقرات (دون ذِكر التَّرقيم) سار پيسارُّو في طبعته البرتغاليَّة، في حين جنح زينيث وبرادو كويلو وسوبراو كونيا، في طبعاتهما البرتغالية الثلاث المختلفة، التي سبق وأن أشرنا إليها بالتَّفصيل، إلى النَّهج الذي سارت عليه جول كوستا. وهذه إلماعةٌ أخرى إلى تعدُّد «الشَّكل الطِّباعي» الذي قدَّمه محرِّرو الطَّبعات البرتغالية المختلفة لـ «شذرات» كتاب پِسُوًّا هذا. (المترجم).

فِـيَّ بعضُ صفات روحانيَّة تناسبُ البوهيميَّ؛ ذلك البوهيمي الذي يسمح للحياة بأنْ تمرَّ كشيءٍ ينزلق من بين أصابعه في لحظةٍ مُعيَّنة، أو الذي تهوي نائمةً في داخله أدنى إيماءةٌ تحاول القبض على الحياة، لمجرَّد التَّفكير في أنَّه يحاول. ولكنَّني لا أمتلك التَّعويض البرَّانيَّ للرُّوح البوهيميَّة - الكسلَ العفويَّ للعواطف المهجورة على الفَوْر. لم أكُنِ البتَّةَ أكثرَ من بوهيميٍّ منعزل، أي بوهيميٍّ عبثيٍّ أو صُوفيٍّ، وهذا مستحيلٌ.

بعضُ السَّاعات-البرازخِ التي عشتُ فيها؛ السَّاعاتِ التي بدَّدتُها متأمِّلاً الطَّبيعة، منحوتةً من طَلاوة العُزلة، سوف تظلُّ لديَّ مثل نياشين. وكنتُ قد نسيتُ، في تلك اللَّحظات، كلَّ الخُطط التي ربَّما وضعتها لحياتي، وكلَّ الاتِّجاهات التي قد سلكتُها. غمرتني مسرَّةُ كَوني لا شيءَ على الرَّغم من كلِّ فيضِ السَّكينة الرُّوحانيَّة التي هَوَتْ في حِجر تطلُّعاتي الأزرق. ولكنَّني ربَّما لم أختبرِ قَطُّ ساعةً دائمة مُتحرِّراً من كلِّ تيَّار روحانيٍّ باطنيٍّ من الإخفاق واليأس. وكان وجعٌ تأخذهُ سِنَةٌ من النَّوم دائماً في كلِّ ساعاتيَ الحُرَّة، ثُمَّ يتفتَّحُ أو يكادُ، ولكنَّ عطرَ تلك البراعم الحزينة ولونَها الحَقَّ قد مرَّا بداهةً عبرَ الجدار إلى الجهة الأخرى، وفي سرِّ كينونتي المُضطَّرب، تلك الجهةِ-الأخرى التي كانتْ -حيث الوردُ كلُّهُ يتفتَّحُ- الجهةَ المقهورة لحياتي التي يُثقِلُ جفنيها الوَسَنُ.

تدفَّق نهرُ حياتي بحراً جُوَّانياً. فكانتِ الأشجار، التي حَفَّتْ أملاكيَ المحلوم بها، قد ارتَدتْ ألوانَ الخريف. المنظر الطَّبيعيُّ الدَّائريُّ تاجُ أشواكِ رُوحي. ولقد كانت أسعدُ لحظات حياتي أحلاماً أحلامَ حُزنٍ، حيث أحدِّقُ في نَفْسي في بحيراتها مثل نَرْسِيس أعمى يلتذُّ ببرودة الماء القريبة، واعياً بأنَّه كان يميلُ عليهِ بفضلِ رؤيةٍ ليليَّة سابقة هُمِسَتْ لعواطفه المُجرَّدة وخُزِّنَتْ عميقاً بعنايةٍ أُموميَّة في الزَّوايا السِّريَّة لمخيِّلته...

قاسمتني قلادتُكِ المحبوكة من لؤلؤ مُزيَّف ساعاتيَ الأبهى فأحببتها أيضاً. كانت زهورنا المفضَّلة قَرَنْفُلاتٍ، ربَّما لأنَّها كانت عاديَّة أكثرَ. واحتفتْ شفتاكِ بسخريةِ ابتسامتهما وقد

رانَ عليهما الوقارُ. فهل تفهمينَ قدَركِ الآنَ تمامَ الفهم؟ ولأنَّكِ عَرَفتهِ بلا فهمٍ، طرحَ السِّرُّ المكتوب في حزن عينيكِ ذلك الظلَّ فوق شفتَيْكِ المدحورتَيْن. كان وطننا بعيداً كلَّ البُعْدِ من أجل الورود. وكان الماء في شلَّالات حديقتنا صافياً بالصَّمت. وفي الشُّقوق الصَّغيرة بين الأحجار، حيث اختار الماءُ أن يتدفَّق، تستلقي أسرارُ الطُّفولة؛ أحلامٌ بحجم جنودنا الصَّفيحِ، يمكن أن تُوضَع فوق أحجار الشَّلال، وهي على أُهبة تنفيذ بعض الحركات العسكريَّة الرَّئيسة، لا ينقص أحلامَنا شيءٌ ولا شيءَ أوقف تدفُّقَ تخيُّلاتنا.

أعرفُ أنَّني قد أخفقتُ. ألتذُّ بمسرَّة الإخفاق المُبهمة مثل شخص يُزجي شُكرَهُ المُتعبَ إلى حُمَّى تُبقيهِ منعزلاً في غرفته.

أمتلكُ موهبةً معيَّنة للصَّداقة، بَيْدَ أنَّني لم أحظَ بأصدقاء قَطُّ، إمَّا لأنَّهم لم يظهروا البتَّة، وإمَّا لأنَّ الصَّداقة التي تخيَّلتُها كانت غلطة اقترفتها أحلامي. فلطالما عشتُ حياةً منعزلة أضحتْ أكثر عزلة إلى حدٍّ بعيد كلَّما أقبلتُ على معرفة نَفْسي.

71

[1914؟]

كلُّ إيماءة، مهما كانت بسيطةً، تُعَدُّ انتهاكاً لسرٍّ روحانيٍّ. كلُّ إيماءة فعلٌ ثوريٌّ؛ نفيٌ ربَّما عن الـ[...[76]] الحَقِّ لمقاصدنا.

الفِعلُ مرضُ الفِكر، سرطانُ المخيِّلة. أنْ تفعل يعني أنْ تنفي نَفْسك. فكلُّ فعل غيرُ كامل وناقصٌ. تظلُّ القصيدة التي أحلمُ بها كاملةً بلا أيِّ سُوءٍ حتَّى أحاول كتابتها. وهذا مكتوب في أسطورة يسوع، فالربُّ، حين يغدو إنساناً، لا ينتهي إلَّا شهيداً. فالحالمُ الأعظم لا يرضَى لَهُ ابناً إلَّا التَّضحيةَ العُظمى.

(76) لا يخفى وجود كلام محذوف، هُنَا، لم يذكره پِسُوًا، يتعلَّق بالشَّيء الذي يصفه على أنَّه الحَقُّ/الحقيقيُّ؛ فلقد ذكر الصِّفة دون الموصوف، كعادته في التَّركيز عل الصِّفات؛ فما يتبقَّى من الشيء هو صفته فحسب. (المترجم)

ظلالُ أوراق الشَّجرِ المكسورةُ، غناءُ العصافيرِ المرتعشُ، أذرعُ الأنهارِ الممدودةُ، ضُوؤها الباردُ يرتعش في الشَّمس، الخُضرةُ، والخشخاشُ، وبساطةُ الإحساس المثير- حين أشعر بهذا كلِّهِ، يغمرني حنينٌ إليها كما لو كنتُ في تلك اللَّحظة لا أشعرُ في الواقع بكلِّ شيء.

كعربةٍ تعبرُ في المساء، تعودُ السَّاعات صارَّةً إلى البيت عبر ظلال أفكاري. فلو نظرتُ عبر تلك الأفكار، فسوف تحرقُ عينيَّ فُرجَةُ العالَم المُبهِرة.

أنْ تعرفَ الحُلمَ لا بُدَّ أن تنساهُ؛ أنْ تصرفَ انتباهَك عنهُ. أَنْ تعرفَ شيئاً هُوَ ألَّا تعرفَهُ. الحياةُ تعجُّ بالتَّناقضاتِ مثلما يعجُّ الوردُ بالأشواكِ.

أودُّ إيجادَ مِثالٍ أعلى لتشوُّشٍ جديد قد يغدو الدُّستورَ الهدَّامَ للفوضويَّة الجديدة للأرواح. فلطالما فكَّرتُ بأنَّ البشريةَ ستستفيد لو وضعتُ تلخيصاً لأحلامي. ولهذا سعيتُ إلى ذلك ما استطعتُ إليه سبيلاً، ولكنَّ فكرة احتماليَّةِ أن يكون شيءٌ فعلته مفيداً قد جرحتني وأخرسَتني.

أملكُ عِزَباً ريفيَّةً في ضواحي الحياة. أقضي غياباتي من مدينة **أفعالي** بين أشجار أحلام يقظتي وأزهارها. ولم تصل حتَّى أخفتُ أصداء الحياة، التي قادتها إيماءاتي إلى تلك الخُلوات البهيجة الخضراء. تُهدهدني ذاكرتي كي أنام كما لو كانت موكباً لا نهائيّاً يمرُّ. ولا أشرب من كؤوس تأمُّلي إلَّا ابتسامةَ النَّبيذ الأبهت؛ أشربها بعينيَّ فحسبُ، ثُم أغمضهما، فتمرُّ الحياة قُربي مثل شمعة بعيدة.

للأيَّام المشمسة طعمُ كلِّ الذي لم أمتلكه. السَّماء الزَّرقاء والغيوم البيضاء، الأشجار، والمزمار الذي لا يصدح هُناك - قصائدُ رعويَّةٌ قطعها ارتعاشُ الأغصان... وكلُّ هذا والقيثارة الصَّامتة التي أمسح أوتارها برفق ولين.

أكاديميَّة الصَّمت الخاملة... واسمُكِ يرنُّ كالخشخاش... البِرك... عودتي... القسِّيس المخبول الذي جُنَّ في أثناء القُدَّاس. تنبع تلك الذِّكريات من أحلامي... لا أغمض عينيَّ، بَيْدَ أنِّي لا أرى شيئاً... فالأشياء التي أستطيع رؤيتها ليست هُنا... الطَّحالب...

أخضرُ الأشجار، وقد تشابكَ، بعضُ دمي. وفي قلبٍ بعيد تخفقُ الحياة فِـيَّ... لم أخلَق للواقع، ولكنَّها الحياة التي سَعتْ إليَّ.

عذاب القدَر! قد أموتُ غداً! وقد يحيق بروحي اليومَ شيءٌ رهيب! وحين أتكلَّمُ، في بعض الأحيان، عن هذه الأشياء، ينتابني رعبُ الجبروت القهَّار الذي يجبرنا على الاستمرار في السَّير على الرَّغم من أنَّنا لا نملك أدنى فكرة عمَّا ستقابله الرِّيبةُ التي تُساورنا.

72

[1914؟]

بَدَتْ ليَ الحياةُ العمليَّة أنَّها أقلُّ الانتحارات راحةً على الدَّوام. كان اقتراف الفِعل، بالنِّسبة إليَّ، معادلاً على الدَّوام لإدانة حُلمٍ مُدانٍ زُوراً وبُهتاناً. وبدا التأثير في العالَم الخارجي، وتغيير الأشياء، وتبديل أحوال المخلوقات الأخرى، والتأثير في النَّاس، أكثرَ ضبابيَّةً بالنِّسبة إليَّ مِن أحلام يقظتي. وكانت رؤية العُقم الجوهريِّ لجميع أشكال الفعل، مِن الطُّفولة فصاعداً، واحدةً من وسائلي المفضَّلة لِسَلخ نَفْسي عن نَفْسي.

أنْ تفعلَ، أنْ تكون ردَّةُ فِعلك ضدَّ نَفْسك. أنْ تؤثِّر في الآخرين، أنْ تترك البيت. وبما أنَّ الحقيقة الواقعيَّة ليست إلَّا متوالية أحاسيس مثيرة، فقد كنتُ على الدَّوام أُفكِّرُ في مدى عبثيَّةِ ضرورة وجود تلك الأشياء البسيطة، على نحو مُعقَّد، كالتِّجارة والصِّناعة والعلاقات الاجتماعيَّة والعائليَّة، فتغدو مُبهمةً لا تُسبَر أغوارها على نحو بائسٍ حين تجابه سلوك الرُّوح الجوَّانيَّ تجاه فكرة الحقيقة.

73

[1914؟]

ذات يوم

(تعرُّج)

نادمٌ، شديدَ النَّدم، على أنَّني لم أكُن ذات يوم سيِّدةَ «حَرَمْلِك»!

يظلُّ في نهاية هذا اليوم ما تبقَّى من الأمس وما سوف يبقى من الغد: الشَّوق النَّهِم الذي يَجِلُّ عن الحصر إلى أن أكون نَفْسي والآخر دائماً على حدٍّ سواء.

اِهبط درَجَ أحلامي وسأمي، اِهبط من لاواقعيَّتك، اِهبط وخُذ مكانَ العالَم.

74

[1914؟]

عبثيٌّ

فَلْنَجعل أنفسَنا تماثيلَ أبي هول، حتَّى لو كانت مُتخيَّلة، حتَّى نبلغ الحالةَ التي لا نعود نعرف فيها ما نحن عليه، فالحقيقة أنَّنا تماثيل أبي هول مُتخيَّلة ولا نعرف في الواقع ما نحن عليه. الطريق الوحيدة التي نستطيع فيها أن نكون على وفاق مع الحياة هي أن نكون على خلاف مع أنفسنا. العبثيُّ مقدَّسٌ.

فَلْنَصُغْ نظريَّاتٍ ونمعن التَّفكير فيها بصبرٍ وأمانة، كي نناقضها في أفعالنا فحسب، ونبرِّر تلك الأفعال وفق النظريَّات التي تُدين نظريَّاتنا السَّابقة... فَلْنَشُقَّ سبيلاً في الحياة ثُمَّ نسلك سبيلاً أخرى ضدَّها على الفور. فَلْنَنْتَحِل كلَّ إيماءات ومواقف شيء لسنا هُوَ ولا نرغب في أن نكونَهُ، ولا حتَّى نرغب في التَّفكير في أن نكونَهُ.

فَلْنَشترِ الكُتبَ كي لا نقرأها، فَلْنَذهب إلى الحفلات الموسيقيَّة كي لا نسمع الموسيقى ولا نرى مَن غيرنا هُنَاك، فَلْنَذهب في نزهات طويلة لأنَّنا نكره المشيَ ونقضي أيَّاماً في الرِّيف لأنَّنا نمقت الرِّيف.

75

[1914]

أسطورة إمبراطوريَّة

مُخيِّلتي مدينة في الشَّرق. كأنَّ لمنظر معمارها في الفضاءِ الحَقِّ ملمسٌ حِسيٌّ لسجَّادة ناعمةٍ باذخة. تستندُ الحشود، التي تلوِّن شوارعها بألوان مختلفة، على خلفيَّةٍ ليستْ لهم بطريقة أو أخرى، كما لو أنَّهم قد طُرِّزُوا بالأصفر والأحمر على أَبهت أقمشة الحرير الأزرق. يرفرف تاريخُ هذي المدينة السَّالفُ برمَّته حول مصباح حُلمي مثل عثَّةٍ لا تكادُ تُسمَعُ في هالةِ ظلِّ الرُّوح التي تُنصت إليها. عاش خيالي الجامحُ ذات يوم وسطَ أُبَّهة وفخامة عظيمتَيْن فتلقَّى من أيدي الملكات جواهر غطَّتها العَتَاقةُ. وكانت رمالٌ عَدَمِي قد فُرِشَتْ سجَّاداً برقَّةٍ حميمة، وغيومُ الطَّحالب طافية في أنهاري مثل أنفاسٍ مزفورة غامضة. وهكذا كنتُ أروقةً مُعمَّدَةَ في حضارة مفقودة، زخرفةً عربيَّةً محمومةً على أفاريز ميِّتة، لطخات سوداءَ عتيقةً على منحنيات أعمدة مكسورة، صواريَ منعزلة فوق حطام سفائن بعيدة، الدَّرَجَ الصَّاعدَ إلى عروشٍ تلاشَتْ، حُجُباً لا تحجبُ شيئاً، وحدها تصعدُ الظِّلالُ والأشباح مثل دخان ينبعث من المباخر المحطَّمة على الأرض. كانت مملكتي مُروِّعة ومريرة طافحة بحروب دائرة على حدود بعيدة عن السَّلام الإمبراطوريِّ الذي ينعم به قَصري. ولكنَّ الصَّخب المُتردِّدَ لاحتفالات بعيدة ومواكب تمرُّ تحت نوافذي، كان على الدَّوام قريباً، لكنْ لا سمكة ذهبيَّةً داكنةً سبحت في بِركي، ولا ثمارَ كبُرَتْ بين الخُضرة الهادئة لبساتيني، ولا حتَّى الدخان المنبعث من مداخن أكواخ فقيرة حيث يعيش الآخرون سعداء يمكن أن يُهدهد للنَّومِ، بأغنياتٍ شعبيَّة بسيطة، سرَّ روحي المُضطَّرِبَ.

[1914؟] [77]

يتحاملُ العالَمُ الماديُّ[78] في كلِّ يومٍ عليَّ. حساسيتي[79] مثل شُوَاظِ نارٍ في الرِّيح. أمشي في الطَّريق فلا أرى في وجوه السَّابلة تعابيرَهُمُ الحَقَّةَ بَلِ التَّعابيرَ التي قد يرتدونها لو عرفوا بشأن حياتي وكيفَ أكونُ، لو أنَّ الغَرابةَ العبثيَّة والخجولة لروحي قد تجلَّتْ واضحةً في إيماءاتي وفي وجهي. أَهجسُ في العيون، التي تتفادى عيوني، سخريةً أشعرُ بأنَّها طبيعيَّة فحسب، مُوجَّهة إلى الاستثناء غير الأنيق الذي أُمثِّله في عالم يلتذُّ بالأشياء والأفعال، فأتخيَّلُ في الأعماق المفترضة لهذه الأسارير العابرة، وأُقحِمُ فيها وعياً بالطَّبيعة الخجولة لحياتي التي تُغرِق في الضَّحك. أُحاول عبثاً، بعد التَّفكير في ذلك، أنْ أُقنع نَفْسي بأنَّني أنا وحدي أصل فكرة سخرية الآخرين هذه، وسلوكهم المخزي المُهادِن. ولكنَّها مَا إنْ تتجسَّم في الآخرين، حتَّى أعود غير قادر على استعادة صورة نَفْسي بوصفها هيئةً مَرِحة. أشعرُ بنَفْسي قد أضحتْ غامضةً ومتردِّدة فجأةً في دَفيئةٍ تعجُّ بالسُّخرية والبغضاء. ومِن أعماق أرواحهم، يشيرُ كلُّ واحدٍ بإصبع عليَّ، يرجُمني كلُّ من يمرُّ بغطرسةٍ مُستخفَّة مَرِحة. أمشي بين أشباح الأعداء الذين استحضرتهم مخيِّلتي المريضة وغرستهم في أُناس حقيقيِّين. كلُّ شيءٍ يلكزني ويضحك عليَّ. بَيْدَ أنَّني، أحياناً، في منتصف الطَّريق -غيرَ مَنظُورٍ، بعد كلِّ شيء- أتوقَّفُ ثُمَّ أتردَّدُ باحثاً عن بُعْدٍ فجائيٍّ جديدٍ؛ بابٍ يُفضي إلى دَاخلةِ الفضاء، إلى الجهة الأخرى من الفضاء،

---

(77) يبدو أنَّ جول كوستا قد سهت عن ذكر عبارة «يوميّات عشوائيّة Diario Ao Acaso» التي روَّس بها بِسُوَّا القصاصة التي خطَّ عليها هذا المقطع، بحبر أسود. وكان بِسُوَّا قد دوَّن العبارة وتحتها خطٌّ تعقبه في المنتصف إشارة +. لم تغفل الطبعات البرتغالية المختلفة الإشارة إلى هذا العنوان الخاص بهذا المقطع: طبعة بِسارو (المقطع 76)؛ طبعة برادو كويلو (المقطع 52)؛ طبعة سوبراو كونيا (المقطع 242)؛ طبعة زينيث (المقطع 488؛ ولكنه وضع هذا المقطع، في الطبعة الإنكليزيَّة التي ترجمها بنفسه، بعنوان منفصل «Random Diary» ضمن ملحق في نهاية الكتاب، أفرده للمقاطع التي عنونها بِسُوَّا بنفسه، نظراً إلى أنَّ بِسُوَّا كان قد عبر «لاحقاً» عن رغبة في أنَّه «قد» ينشر هذه المقاطع أو بعضاً منها في كتاب منفصل، على الرَّغم من إشارته الخطيَّة، حين كتبها في الأصل، إلى أنَّها جزء من «كتاب القلق». (المترجم)

(78) يستخدم بِسُوَّا في الأصل كلمة Materia (المادَّة) بحرف استهلاليٍّ كبير، وربَّما لهذا لجأت جول كوستا إلى ترجمتها بـ «العالم المادي material world» (بخلاف زينيث الذي آثر، في طبعته الإنكليزيَّة، استخدام لفظة Matter)، ولكنَّها تستعمل مفردة matter في الموضع الذي يستخدم فيه بِسُوَّا الكلمة في صيغتها المُجرَّدة، بحرف استهلاليٍّ صغير. (المترجم)

(79) الحساسية (sensibility؛ وفي البرتغاليَّة sensibilidade): «قوَّة الشُّعور بالأحوال الانفعاليَّة كاللَّذات والآلام». (المترجم)

حيث قد أهربُ دونما إرجاءٍ من وعيي بالآخرين، ومِن حَدْسي المغرق في موضوعيَّته لحقيقة الأرواح الحيَّة للآخرين.

فهل هي عادتي في وضع نَفْسي في أرواح الآخرين هي ما يجعلني أرى نَفْسي مثلما يرونها أو مثلما يرغبون في أنْ يَرَوْني إنْ لاحظوا وجودي هُنَاك؟ أهِيَ تلك؟ سيبدو الأمر، حين أشعر بما سوف يشعر به الآخرون تجاهي، كأنَّهم كانوا يشعرون به ويُعبِّرون عنه في تلك اللَّحظة بعينها تماماً. عذابٌ أن أعيش مع أُناس آخرين. ثُمَّ هناك الذين يعيشون فِـيَّ، ولكنَّني مُجبَرٌ على العيش معهم، حتَّى حين أُصرَفُ من الحياة. وحيداً، تَحِفُّ بيَ الحشودُ. لا مكان أهربُ إليه حتَّى أهربَ من نَفْسي.

آهٍ، يا جبالَ الشَّفقِ الشَّاهقة، أيتها الشَّوارعَ المُنوَّرةَ بضَوْءِ القمرِ يا شوارعَ ضيِّقةً أو تكادُ، ليتني تنعَّمتُ بقلَّةِ وعيك بـ [...] رؤيتكِ الرُّوحانيَّة للعالَم الماديِّ، بلا حياةٍ جُوَّانيَّة، مُجرَّداً من الحساسية، بلا أيِّ حيِّز للمشاعر أو الأفكار أو القلَق! وأنتِ، أيَّتها الأشجار التي لن تكون أكثر من مجرَّد أشجارٍ أبداً، بأوراقك الخضراء التي تغمر العيون بهجةً، لا تعبئِنَ بهمومي وأحزاني، ولكنَّكِ تُواسين كَربي لافتقارك إلى عيون تراه بها، أو روح تنظر عبر تلك العيون فتسيءُ الفهمَ وتَسخر! أيَّتها الأحجارُ التي على الطَّريق، ويا أيَّتها الأشجارُ المقطوعةُ الرُّؤوس، ويا تُربةَ الأرضِ الخالصةَ المجهولةَ، إنَّ برودَ مشاعركم تجاه روحي مثل عناقِ أُختٍ، بلسمٍ... تحتَ الشَّمس أو أسفلَ قمر **الأرض**، أُمِّي، أُمِّي الحنونة، لأنَّكم لا تستطيعون انتقادي مثلما تستطيع أن تفعل أُمِّي البشريَّة، لأنَّكم لا تمتلكون روحاً تُحلِّلوني بها عن غير قصدٍ، ولا تستطيعون قذفي بنظرات سريعة تستنهض أفكاراً عنِّي لا تستطيعون الاعتراف بها حتَّى لأنفسكم. أيُّها البحرُ الواسع، يا رفيقَ طفولتي الصَّاخب، هَا أنت تجلب لي السَّكينةَ وتُهدهدني فأنتَ لا تملك صوتاً بشرياً ولن تهمسَ ذات يوم في آذان الآدميِّين الآخرين عن عيوبي ومواطن ضعفي. ويا أيَّتها السَّماءُ الرَّحبة، السَّماءُ الزرقاء، يا قابَ قوسَيْنِ أو أدنى من سرِّ المَلائكِ [...] أنتِ لا تنظرينَ إليَّ بعينَيْن حسودتَيْنِ، ولا تُدبِّسينَ الشَّمسَ على صدركِ كي تُغريني ولا [...] ولا ترتدين قناعاً من نجوم كي تسخري منِّي... أيَّتها السَّكينةُ الهائلةُ للطَّبيعةِ، أيَّتها الأُموميَّةُ في جهلكِ المُطلَق بي، ويا هدوءَ الذَّراتِ والأنظمةِ البعيدَ، أيُّها الأخويُّ في عجزك المُطلَق عن معرفتي... أودُّ أن أُصلِّي لرحابتكَ وسَكينتك،

تعبيراً عن امتناني لأنَّك هُنَا ولأنَّني قادرٌ على الحُبِّ بلا شكٍّ أو ريبة، أودُّ أن أُلقِي السَّمعَ إلى صَمَمِك، وأرفعَ عينيَّ إلى عَمائك السَّامي، أودُّ أن تراني تلك العينان المتخيَّلتان وأن تسمعني تلك الأُذُنان المتخيَّلتان، تغمرني المسرَّة أن أكون في حضرةِ عَدَمِك، أصيخُ إلى ما هُوَ بعيدٌ، كأنَّني إلى موتٍ مُحقَّقٍ أصيخُ، لا يحدوني أملُ أن أعيش حياةً أخرى غيرَ حياةِ إلهٍ، أبعدَ من احتماليَّة أن أصيرَ عدَماً شهوانياً يتَّخذُ اللَّون الرُّوحانيَّ للمادَّة جمعاء.

77

[1914؟]

أين الإله، حتَّى لو أنَّه غير موجود؟ أريدُ أن أُصلِّي وأنتحب، أنْ أُكفِّر عن الجرائم التي لم اقترفها، أنْ تغمرني مسرَّةُ أنْ يُغفَر لي كأنَّ الغفرانَ ليس عِناقَ أُمٍّ تماماً.

حُضنٌ أَنشجُ فيهِ، ولكنَّه حضن واسع بلا شكل، فسيحٌ مثل ليلةِ صيف، ولكنَّه قريب ودافئ وأنثويٌّ، قُربَ مدفأةٍ في مكان ما... أنْ أبكي على الأخطاء التي لا أعرف طبيعتها المُعيَّنة أيضاً، وعلى المشاعر الرقيقة تجاه أشياء غير موجودة، وعلى الشكوك المرعبة التي ساورتني تجاه مستقبل مجهول...

طفولة جديدة، ومُربِّيةٌ عجوز، وسرير صغير تُقَصُّ عليَّ فيهِ، وقد غلبني النُّعاسُ، حكايات لم أكد أسمعُها، ولكنَّني أنصتُّ وقلبي قد أصغَى، أخطارٌ تغلغلتْ في شَعريَ الفتيِّ، الذَّهبيِّ كالحنطة... وأنْ أنالَ هذا كُلَّهُ سَحاً غَدَقاً، كأنَّه سرمديٌّ وحتميٌّ بحجم الإله، هُنَاك في الأعماق الحزينة والهادئة للحقيقة المُطلَقة لـ **الأشياء**.

حُضن أو مَهْدٌ أو ذراع دافئة حول عنقي... صوت يُغنِّي بنعومة كأنَّه يدفعني إلى ذَرفِ الدُّموع... النَّار تُجَرْجِرُ[80] في المدفأة... دفءٌ في الشِّتاء... وعيي الطَّائفُ على مهلهِ... ثُمَّ، إذَّاكَ، بلا أيِّ نَأْمَةٍ، حلَّ نومٌ رقيق في فضاء هائل، مثلَ قمرٍ يتدحرج أمام النُّجوم...

وحين أُنحِّي حِيَلي البارعة ثُمَّ بكلِّ حرصٍ ومحبَّةٍ -مُتمنِّياً لو أستطيع أن أغمرها بالقُبل- أُرتِّبُ ألعابي في زاويةٍ، كلماتي، وصوري وعباراتي - أشعر بأنِّي ضئيلٌ، في غاية الضَّآلة،

(80) تطلق العرب على صوت النار في المدفأة/الموقد اسم: الجَرْجَرة. (المترجم)

ومُسالم، ووحيدٌ، شديد الوحدة، في تلك الغرفة الحزينة الكبيرة، يجتاحُ أعماقيَ الحزنُ!...

ولكنْ، بعد كلِّ شيء، مَن أنا حين لا ألعبُ؟ يتيم مسكينٌ هُجِرَ في **شارع الأحاسيس المثيرة**، يرعشُ بالبرد في زوايا **الواقع** التي تعصف فيها الرِّيحُ، ولا بُدَّ أن ينام على **دَرَج الحُزن** ويأكل الخبز الذي يجود به **الخيَالُ**. أعرف اسمَ أبي؛ أخبروني أنَّ اسمَهُ الإله، بَيْدَ أنْ لا معنى للاسم لديَّ. فأحياناً، في اللَّيل، حين أشعر بالوحدة تماماً، أدعوه وأنتحب، ثُمَّ أتخيَّله شخصاً قد أُحبُّه... ثُمَّ أُحدِّثُ نَفْسي بأنَّني حتَّى لا أعرفه، وبأنَّه قد لا يُشبه كلَّ ذلك البتَّة، وربَّما لن يكون أبا روحيَ البتَّة...

متى سينتهي هذه كلُّهُ، الشَّوارع التي جرجرت فيها بؤسي، وذلك الدَّرَج الذي لملمتُ عليهِ نَفْسي كي أتَّقي البرد، شاعراً بلمسةِ يديِّ اللَّيلِ الجليدتَيْن تسري عبر أسمالي؟ ... لو أنَّ الإله يأتي ذات يوم ويجدني ويأخذني إلى بيته فينعم عليَّ بالدفء ويغمرني بالمحبَّة... وحين أفكِّر بهذا، أبكي فرحاً لمجرَّد التَّفكيرِ بأنَّني أستطيع التَّفكيرَ في ذلك... ولكنَّ الرِّيح تضربُ الشَّوارع بالسِّياطِ فتسقطُ أوراق الأشجار على الرَّصيف... أنظرُ فأرى النُّجوم عقيمةً بلا أيِّ معنى... وأنا كلُّ الذي قد تبقَّى، طفلٌ مسكين مهجور، لم يَرْغَبْهُ **الحُبُّ** ابناً مُتبنَّى، ولم تختَرْهُ **الصَّداقةُ** رفيقاً تلهو معه.

إنِّيَ باردٌ، بردي شديدُ. سئمتُ حاليَ المهجورة. فاذهبي يا ريحُ واعثري على أُمِّي، ثُمَّ احمليني في **اللَّيلِ** إلى البيت الذي لم أعرفهُ قطُّ... آهٍ أيُّها الصَّمتُ الفسيحُ، أَعِدْ مُربِّيتي والمهدَ وتهويدةَ النَّوم...

78

[1914؟]

رسالة

لو أتقبَّل فكرةَ أن يكون واجبكِ مجرَّد حُلم حالمٍ. أن تكوني مِبخرةً في كاتدرائيَّة أحلام يقظتك. أن تُشكِّلي إيماءاتك كما لو أنَّها أحلامٌ، كي تكون نوافذَ تُفتَح على مناظر طبيعيَّة جديدة في روحك. أنْ تُبدعي جسداً-حُلماً، حتَّى يكون كلُّ من يراكِ عاجزاً عن التَّفكير في أيِّ شيء آخر، حتَّى تذكِّريهم بأحدٍ أو شيءٍ إلَّاكِ، حتَّى تكون رؤيتك مثل سماع الموسيقى أو

كَسَيرِ النَّائم عبر مناظر طبيعيَّة شاسعة لبحيرات ميِّتة، وغابات غامضة، صامتة، ضائعة في أعماق عصور أخرى، حيث يختبر بشرٌ مختلفون ومحجوبون مشاعرَ ليست لدينا.

لا أريدُكِ إلَّا لكيلا أنالكِ. فلو كنتُ أحلمُ، ثُمَّ تجلَّيتِ، لرغبتُ في أن أكون قادراً على تخيُّل أنَّني مازلتُ أحلم، ربَّما إنَّني حتَّى لا أراك، ربَّما إنَّني حتَّى لا ألحظُ أنَّ البحيرات الميِّتة كانت طافحة بنور القمر، وأنَّ أصداء الأغاني كانت تنبعث فجأةً عبر الغابة الشاسعة، الغامضة، الضَّائعة في عصور مستحيلة.

ولسوف تغدو رؤيتك السَّريرَ الذي تغطُّ عليه روحي في النَّوم، كطفلة مريضة، كي تحلم ثانيةً بسماء أخرى. وماذا لو تكلَّمتِ؟ سيكون سماعُكِ حينئذٍ هُوَ ألَّا أسمعَكِ، ولكنْ أنْ أراكِ على جسور ضَوْءِ القمر الهائلة التي تصل الضِّفَّتَيْن المعتمتَيْن للنَّهر المتدفِّق من البحر العتيق، حيث المراكب الشراعيَّة الصَّغيرة جديدةٌ إلى الأبد.

79

[1914؟]

رسالة؟ خاتمة

لو صادفَ أن أتحدَّث إلى شخص قصيٍّ، ولو توجَّب عليكِ أن تنهمري غداً -أنتِ يا غيمةَ المستحيل اليومَ- مطراً لا ريبَ فيه على الأرض، فلا تَنْسَي البتَّةَ أصولَكِ الإلهيَّة بوصفك حُلماً من أحلامي. فَلْتَكُوني دائماً شيئاً يستطيعُ أن يكون حُلمَ شخص وحيدٍ وليسَ ملاذاً للمحبوب البتَّة. فَلْتَصنعي من واجبك جسماً فارغاً. لَبِّي نداءكِ مثل قارورة عتيقةٍ تفيضُ. ولا يقولنَّ أحدٌ عنكِ ما قد تقوله روح النَّهر لضفَّتيه اللَّتَيْن لا تُوجدان إلَّا لِتَحبسانه. حَقِيقٌ بكِ ألَّا تتدَّفقي في الحياة البتَّة، وحَقِيقٌ بكِ ألَّا تتركي أحلامك تجفُّ.

فَلْتَكْمُنْ عبقريَّتُكِ في أنَّكِ فائضةٌ، ولتكُن حياتُكِ فنَّ النَّظرِ إلى الحياة؛ في أنْ تكوني النَّظرةَ التي ليستْ نَفْسَها البتَّةَ. إيَّاكِ أن تكوني أكثرَ من ذلك أبداً.

ولستِ اليومَ إلَّا الصُّورة الشَّخصيَّة المُستلَّةَ من هذا الكتاب، السَّاعةَ التي تجسَّدتْ مفصولةً تماماً عن السَّاعات الأخرى. لو تيقَّنتُ بأنَّ هذا ما كنتِ عليهِ، لأَقمتُ ديانةً حول حُلمِ أن أُحبَّكِ.

أنتِ ما ينقصُ كلَّ شيءٍ. وأنتِ ما يطلبه كلُّ شيءٍ كي نكون قادرينَ على حُبِّه دائماً. وأنتِ مفتاحُ أبواب المعبدِ الضَّائعُ، والممرُّ السريُّ إلى القصر، والجزيرةُ البعيدة التي يلفُّها السَّديمُ إلى الأبدِ ولا تُرَى أبداً...

80

[1914؟]

رسالة

ولقد رأيتِني أنظرُ إليكِ، مرَّاتٍ غير معروفةٍ شهوراً كثيرة، أنظرُ إليك ولا أكفُّ، بالنَّظرة المُتردِّدة القَلِقة ذاتها. أعرفُ أنَّكِ قد لاحظتِ. ولا بُدَّ أنَّكِ قد استغربتِ، إذْ لاحظتِ أنَّ نظرتي التي ليست خجولة تماماً لم تحمل في ثنايا نَفْسها أيَّ معنى البتَّة. نظرة مُبالية، وغامضة، لا تتبدَّلُ بتاتاً، كأنَّها قَدِ اكتفتْ بأن تكونَ مجرَّد حُزن ذلك الخواء... ليس إلَّا... وفي أعماق أفكارك عن هذا -أياً كان الشُّعور الذي انتابكِ حين فكَّرتِ فِـيَّ- لا بُدَّ أنَّكِ قد أمعنتِ النَّظر في نواياي المحتملة. ولا بُدَّ أنَّكِ قد حدَّثتِ نَفْسكِ، دونَ أن تَرْضَيْ تمامَ الرِّضا عن تفسيرك بأنَّني لا بُدَّ أن أكون إمَّا رجلاً شديد الخجل من طِينةٍ أصيلة شديدة الغرابة، وإمَّا شيئاً قاب قوسَيْن من الجنون أو أدنى. وفيما يتعلَّق بنظري إليك، يا سيِّدتي، فلستُ رجلاً خجولاً بكلِّ ما في الكلمة من معنى، ولستُ مجنوناً تماماً. أنا شيء آخر، مختلف كُليَّةً، مثلما سوف أشرح، لا يحدوني أمل كبير في أن تصدِّقيني فعلاً.

كم مرَّةً همستُ إلى نَفْسكِ المحلوم بها: فَلْتَصنعي من واجبك قارورةً عتيقة بلا جدوى، لَبِّي نداءَ أن تكونـي جسمـاً فارغاً ليس إلَّا. وكم انتابني الحنين إلى الفكرة الباطلة التي رغبتُ في أن أُكوِّنها عنكِ حين أدركتُ، ذات يوم، أنَّك قد كنتِ متزوِّجة! كان اليوم الذي عرفت فيه ذلك مأساةً في حياتي. لم أَغَرْ من زوجكِ. لم يخطر ببالي أنَّ لكِ زوجاً، فلقد اشتقتُ إلى فكرتي عنك، ليس إلَّا. سيكون ألمي عظيماً عِظَمَ الألم الذي سوف أشعر به لو اكتشف ذات يوم الحقيقةَ المجرَّدة بأنَّ امرأةً في لوحةٍ -نعم، في لوحةٍ- كانت متزوِّجة. فهل أردتُ امتلاككِ؟ أنا لا أعرف حتَّى كيف أمضي في امتلاك شخص. وحتَّى لو حملتُ في داخلي الوصمةَ البشريَّة في أن أعرف ذلك، فَيَا لِخزيي من نَفْسي، ويا لها من إهانة ما بعدها إهانة

لعظمتي، أنْ أُفكِّر حتَّى في أن أضع نَفْسي في المستوى ذاته مع زوجكِ!

أملكُكِ؟ فقد يتسلَّطُ عليكِ مُعتدٍ، وأنت تمشين ذات يوم وحيدةً في شارع معتم، فيملكُكِ، وقد يُجبِّلكِ وحتَّى إنَّه قد يُخلِّفُ وراءَهُ بعضَ أثرٍ في الرَّحم. بَيْدَ أنَّه لو كان امتلاكُكِ يعني امتلاكَ جسدكِ، فما نفعُ ذلك؟

تقولين إنَّه لم يكُن قادراً على امتلاك روحكِ؟ فكيف لِامرئٍ أن يملكَ روحاً؟ ولو تمكَّن عاشقٌ ماهرٌ -زوجُكِ، على سبيل المثال- من امتلاك تلك «الرُّوح»، فهل سأكون راغباً في أن أنحطَّ إلى دَرْكهِ الأسفل؟

كم ساعةً أفنيتُ في عشاءٍ ربَّانيٍّ سرِّيٍّ مع فكرتي عنكِ؟ وكيف أحبَّ أحدُنا الآخرَ في أحلامي! ولكنَّني حتَّى هُنَاك - أُقسِمُ- لم أحُلمِ البتَّةَ بامتلاككِ. فأنا رقيقٌ وعفيفٌ حتَّى في أحلامي. حتَّى إنَّني أُبجِّلُ الحُلمَ الذي أحلم فيه بامرأةٍ جميلة.

81

[1914؟]

[نصيحة إلى المتزوِّجات التَّعيسات]

أتمنَّى أن تحظينَ، أيَّتها المُريدات العزيزات، بناءً على نصيحتي الشخصيَّة، بِلذَّاتٍ مضاعفة لا تنضب، ليس مع الحيوانِ الذَّكرِ الذي قيَّدتكُنَّ به الكنيسةُ أو الدَّولةُ -سواءٌ بالرَّحم أو الاسم الأخير- وإنَّما من خلالهِ.

فالطَّائرُ لا يُحلِّق إلَّا حين يضغطُ قدميه بقوَّةٍ على الأرض. فَلْتَكُنْ تلك الصُّورة، يا بُنَيَّاتِي، تذكرةً دائمةً بالوصيَّة الرُّوحانيَّة الوحيدة المُهمَّة.

كُنَّ بناتِ هوى، عربدنَ بكلِّ رذيلةٍ، دونَ أن تخُنَّ أزواجكنَّ حتَّى لَوْ بنظرةٍ - فكِّرنَ كم سيكون ذلك ممتعاً لو استطعتنَّ تحقيقَهُ.

كُنَّ بناتِ هوى في دخيلتِكُنَّ، خُنَّ أزواجكُنَّ من الدَّاخلِ، خُنَّهُم حين تعانقونهم، وفي القُبَل التي تلثمونهم بها، وأنتن تُفكِّرنَ في شخص آخر -آهٍ أيَّتها النِّساءُ العالياتُ، يا تَبيعاتي العقلانيَّات الغامضات- هُنا تكمنُ اللَّذَّةُ الحَقَّةُ. ولمَ لا أسدي النَّصيحة ذاتها إلى الرَّجال؟ لأنَّ الرَّجل كائنٌ مختلف. فلو كان من النَّوع الأدنى، لنصحته بأن يتمتَّع بالنِّساء على قَدْر ما

يستطيعُ: عليكَ بذلك واستمتع بالسُّخرية منِّي حين [...] فلا حاجة للرَّجل الأعلى إلى أيِّ امرأةٍ قطُّ. فهو لا يحتاج إلى أن يملك أحداً جنسياً كي يذوق اللَّذَّة. والنِّساء، حتَّى النِّساء العاليات، لا يستطعن قبول ذلك، فالنساء مخلوقات جنسيَّة في المقام الأوَّل.

82

[1915؟]

أبحثُ عنِّي[81] فلا أجدُ أحداً. أنتمي إلى ساعة الأقحوانِ؛ ساعةِ الزُّهور الزَّاهية في مزهريَّاتٍ طويلة. فلقد خلق الله نَفْسي[82] زِينةً.

لا أعرفُ أيَّ التَّفاصيل الرَّائعةِ سأختارُ كي أُعرِّفَ جوهر روحي[83]. ولا شكَّ أنَّني أُحبُّ الزِّينةَ، لأنَّ فيها شيئاً أُحسُّ بأنَّهُ يطابق كُنْهَ[84] نَفْسي.

iv83

[1915؟]

كلُّ ما صنعته هُوَ أن أحلم أبداً. ولقد كان ذلك، وذلك وحدهُ، معنى وجودي. فالشَّيء الوحيد الذي حرصتُ عليه حقّاً هُوَ السِّيناريو الدَّاخلي الخاصّ بي. تفنى أحزانيَ العظمى لحظةَ أفتح النَّافذة على أحلام يقظتي وأنسى نَفْسي مُستغرقةً في النَّظر.

لم أحاول قَطُّ أن أكون أيَّ شيء سوى حالمٍ. ولم أُعِر اهتمامي إلى الذين أخبروني بأن أخرج وأعيش. فلطالما انتميتُ إلى كلِّ ما هُو بعيد عنِّي وإلى كلِّ ما لم أستطع أن أكونَهُ أبداً. فأيُّ شيء لم يكُن لي، مهما كان وضيعاً، قد لاح طافحاً بالشِّعر. كان الشَّيء الوحيد الذي أحببته عدَماً محضاً. لم أشتهِ البتَّةَ ما كان فوقَ تخيُّلاتي. فلقد كان كلُّ الذي طلبته من الحياة هُوَ أنْ

---

(81) أستخدم، هُنَا، عبارة «عنِّي» في مقابل عبارة myself (وفي الأصل البرتغالي: usco-me) التي تعني نَفْسي/ذاتي، للتَّفريق بينها وبين كلمة soul التي تعني النَّفس (التي هي ذات الإنسان) وبين كلمة spirit (وفي الأصل البرتغالي: espirito) التي تعني الرُّوح. ولقد أحسنت جول كوستا الصَّنعة حين لجأت إلى مثل هذا التَّفريق، خلافاً لريتشارد زينيث الذي آثر في طبعته الإنكليزيَّة استخدام لفظة soul في كلا الموضعَيْن. (المترجم)

(82) النَّفْس هنا بمعنى soul وليست بمعنى spirit، كما بيَّنا في الحاشية السابقة. (المترجم)

(83) الرُّوح هنا بمعنى spirit وليست بمعنى soul، كما بيَّنا في الحاشية السابقة. (المترجم)

(84) استخدمت هنا لفظة كُنْه مقابلاً لكلمة substance (في البرتغالية: substancia) للتَّفريق بينها وبين كلمة الجوهر essence (في البرتغاليَّة: feitio) التي يستخدمها بِسُوًّا حين يتحدث، في السطر السابق، عن جوهر الرُّوح. (المترجم)

تمرَّ دونَ حتَّى أن أشعر بها. ولم أطلب من الحُبِّ سوى ألَّا يكون البتَّة أكثرَ من حلم بعيد. ولقد كان البعيدُ، في المناظر الطبيعيَّة غير الحقيقيَّة التي فِـيَّ، هُوَ الذي جذبني دائماً، والمعالمُ الضَّبابيَّة للقناطر المائيَّة، التي تكادُ تضيع في مدى المناظر الطبيعية التي أحلم بها، مُضفيةً عذوبةً حُلميَّة على الأجزاء الأخرى من المناظر الطَّبيعيَّة، عذوبةً مكَّنتني من أن أُحبَّها.

لم يفارقني هوسي المحموم بإيجاد عالَم باطلٍ ولن يتركني إلَّا حين أموتُ. لم أعُد أَصفُّ بكرات القطن والبيادق في أدراج مكتبي -والفيل والفرس مرميَّان كيفما اتَّفق- ولكنَّني أندم على تركي تلك العادة... بَيْدَ أنَّني رحتُ، عوضاً عن ذلك، أَصفُّ في مخيَّلتي، كشخص في الشِّتاء، يلتمس الدِّفءَ قُرب النَّار، مراتبَ شخصيَّات حيَّة، ودائمة، تسكنُ عالمي الجوَّانيَّ. فثمَّة عالم كامل من الأصدقاء فِـيَّ، يعيشون فيه حيواتهم الحَقَّة والمحتومة والنَّاقصة.

يجورُ الزَّمان على بعضهم، ويعيش بعضٌ حياة بوهيميَّة رائعة ومتواضعة. وبعض آخر يعمل مندوب مبيعات جوَّالاً (كان حلمي بأن أكون مندوب مبيعات جوَّالاً واحداً من أعظم طموحاتي - ولكنَّه لسوء الحظِّ لم يتحقَّق قط!). ويعيش بعضهم في قرى وبلدات قُرب حدود برتغال أحملها فِـيَّ؛ يأتون إلى المدينة حيث يصدف أن أقابلهم فأعرفهم وأعانقهم بحرارة... وحين أحلم بهذا كلِّه، ذارعاً غرفتي جيئة وذهاباً، متحدِّثاً بصوت عالٍ، مُومِئاً... حين أحلم بهذا مُتخيِّلاً نَفْسي تقابلهم، تغمرني السَّعادة، فأشعر بأنِّي كامل، فأنطُّ من الفرح، وتلمع عيناي، فأفتح ذراعيَّ لهم تجتاحني سعادة هائلة لا تُوصَف.

آهٍ، لا حنينَ أشدَّ إيلاماً من الحنين إلى الأشياء التي لم تكُن قطُّ! ما أشعر به حين أفكِّر في الماضي الذي عشته في الزَّمن الواقعيِّ، وحين أنتحبُ على جثَّة طفولتي الضَّائعة... حتَّى هذا لا يُقارن بالاحتدام المؤلم الواجفِ الذي ينتابني حين أبكي لا واقعيَّةَ الأجسام المتواضعة التي تَعْمُرُ أحلامي، حتَّى إنَّني أستطيع تذكُّرَ بعض الشَّخوص الثانويَّة التي لمحتها مرَّة فحسبُ صُدفةً في حياتي الباطلة، حين انعطفتْ حول زاوية في السِّيناريو الذي تخيَّلتُه، داخلةً باباً في شارع كنتُ قد مشيتُهُ في أثناء ذلك الحُلم.

والغضب الذي يعتريني، حين أعرف أنَّ الحنين المحضَ عاجزٌ عن إحياء الماضي وبعثه من رُقادهِ، لم يكُن قد صُبَّ جامُهُ، وقد اغرورقت عيناي بالدُّموع، على الإله الذي خلق هذه المستحيلات أكثر ممَّا حين أنتبهُ إلى أنَّ أصدقاء حُلمي، الذين شاركتهم تفاصيل كثيرة

جدّاً من حياتي المُتخيَّلة، الذين استمتعت معهم بأحاديث رائعة في مقاهٍ متخيَّلة، لم يكُن لديهمُ البتَّةَ مكانٌ يخصُّهم يستطيعون فيه أن يكونوا مستقلِّين عن وعيي بهم! آهٍ، الماضي الميّت الذي أحمله معي، الماضي الذي لم يُوجَدِ بتاتاً إلّا فِـيَّ! الأزهار التي في حديقة البيت الرِّيفيِّ الصَّغير الذي لم يُوجَد إلّا فِـيَّ! حدائقُ الخُضَر، والبساتين وغابة السَّرو للعزبة التي لم تكُن إلَّا واحدةً من أحلامي! المنتجعات الصَّيفيَّة المُتخيَّلة، نزهاتي ماشياً عبر الرِّيف الذي لم يكُن قطُّ! الأشجار على قارعة الطَّريق، والممرّات الرِّيفيَّة، والأحجار، والقرويُّون الذين يمرُّون... وهذا كلُّهُ، الذي لم يكُن أكثر من حُلم أبداً، مُغلَقٌ بعيداً في ذاكرتي، ومُسجَّىً يُؤلِمُ، وأنا، الذي بدَّدَ ساعات في حُلم ذلك كُلِّه، يغمرني حنين خالصٌ، أنتحبُ على ماضٍ حقيقيٍّ، حياةٍ حقيقيَّة هي ميِّتةٌ وأُحدِّقُ فيها بهيبةٍ وهي مُسجَّاة في الكفن.

وهَا هِيَ المناظر الطَّبيعيَّة والحيَوات التي لم تكُن جُوَّانيَّةً تماماً. فبعد قضاء عدَّة ساعات، على سبيل المثال، في صحبة صور أو مطبوعات حجريَّة مُعيَّنة (لا تتمتَّع بأيِّ ميزة فنيَّة عظيمة) معلَّقة على جدران غرف مُعيَّنة، تغدو تلك الصُّور بعضاً من حقيقتي الجُوَّانيَّة. وكان الألم الذي شعرت به إذَّاكَ مختلفاً، أَمَضَّ وأحزنَ، سواءٌ أكان المشهد حقيقياً أم غير ذلك. كابدتُ ألَّا أكون بعضَ رَوْسَم صغير في غرفة لم أَنَمْ فيها حقيقةً البتَّة حين كنتُ أَيْفَعَ، كابدتُ ألَّا أكون، على أقلِّ تقديرٍ، جسماً إضافياً خُطَّ على حرفِ الغابة المُقمِرة. ولقد أوجعني ألَّا أكون قادراً على تخيُّل نَفْسي مخبوءةً هُنَاك، في الغابة قُربَ النَّهر، في ضَوْء القمر الأبديِّ ذاكَ (حتّى لو كان رديءَ الرَّسْمِ)، أرقبُ رجلاً يعبرُ في قارب أسفلَ الأغصان المُتدليَّة لشجرة صَفصاف. أوجعني عجزي عن أن أحلم بهذا كلِّه. فحنيني قد تنكَّبَ خصائصَ أُخرى. كانت إيماءاتي اليائسة مختلفة. وتمخَّض عن الاستحالة التي عذَّبتني حالةٌ تبريح مختلفة. ليتَ هذا يجد بعض معنى في الإله، بعضَ تحقُّقٍ يليقُ بروح رغباتنا، لا أعرف أينَ بالضَّبط، ربَّما في بعض زمن عموديٍّ، متوحِّدٍ في جوهره مع جميع اشتياقاتي وأحلام يقظتي. ليتني امتلكتُ فردوسيَ الخاصَّ المخلوق لهذي الغاية. لو استطعت مقابلة الأصدقاء الذين حلمت بهم، أو المشي في الشوارع التي أوجدتُها، أو الاستيقاظ على أصوات الدِّيَكة الصَّغيرة والدَّجاجات وضوضاء المنزل الصباحيَّة، المنزل الرِّيفيِّ الذي تخيَّلتُ نَفْسيَ فيهِ... ولقد حلمتُ بهذه الأشياء كأنَّ الله قد خلقها في أحسن تقويم وهداها سواءَ السَّبيل لتكون طوع بناني في ذلك الشَّكل الذي

جُبلَتْ عليه بالضَّبط، الشَّكل الذي لا يمكن تحقيقه حتَّى في أحلامي، الذي لا يفتقر إلَّا إلى بُعْد الفضاء الجوَّانيِّ الذي تشغله تلك الحقائق البائسة.

أُشيحُ ناظريَّ عن الصَّفحة التي أكتب عليها... مازال الوقت مبكِّراً، فلقدِ انقضتِ الظَّهيرةُ، وإنَّه ليوم الأحد. سَقَمُ الحياة ومحنة وعيي يدخلان جسدي فيزعجاني. لِمَ لا تُوجَد جُزُرٌ لأولئك الذين لا يشعرون بالرَّاحة هُنَا، وجادَّاتٌ عتيقة كي يحلم الوحيدون فيها، ولا يعثر عليها الآخرون؟ أن يتوجَّب عليَّ أن أعيش، مهما كان عيشي ضعيفاً، وأن أفعلَ؛ أن تجرحني حقيقةُ أنْ ثمَّة في الحياة أُناسٌ آخرون ليسوا حقيقيِّين هُم أنفسُهم. وأن يتوجَّب عليَّ أن أكون هُنَا أكتبُ هذا، لأنَّ روحي تطلب ذلك، وأن أكون عاجزاً عن الحُلم، ليس إلَّا، وعن التَّعبير عنه بالكلمات، حتَّى من دون وعي، عبر نَفْسٍ أخرى أستطيع إنشاءَها من الموسيقى والفَناء، وأن تطفح عيناي بالدُّموع لمجرَّد الشُّعور بذلك التَّعبير عن نَفْسي، وأن أشعر بنَفْسي وهي تتدفَّق، مثل نهر مسحور، جاريةً أمام الضِّفتَّيْن المتوانيتَيْن لنَفْسي ذاتها، أشدَّ قُرباً إلى اللَّاشعوريِّ والبعيد، بلا معنى أو وُجهةٍ إلَّا الله.

84

[نحو 7 يناير 1915]

اعتدتُّ أن ألعب بالشاحنات الصَّغيرة، حين كنتُ طفلاً... ولقد أحببتها محبَّةً مؤلمة -أنَّى لي أن أتذكَّر ذلك تماماً!- ولقد كانت تلك المحبَّةُ طافحة بالشَّفقة بالحنان، لأنَّها لم تكُن حقيقيَّةً...

ويا لبهجتي حين وضعتُ يديَّ، ذات يوم، على بقيَّة مجموعة شطرنج! أَسميتُ كلَّ قطعة على الفور، فأضحت كلُّها جزءاً من عالم أحلامي.

ثمَّ باتتْ شخوصاً مميَّزة، تتمتَّع كلُّ قطعة بحياتها الفرديَّة. عاش أحدهم -الذي منحته اسم شخصيَّة رياضيَّة طائشة- في صندوق فوق صندوق أدراجي، فكان، بعد أن أعودَ، وهُوَ بالطَّبع، من المدرسة بعد الظَّهيرة، يسافرُ في حافلة كهربائيَّة[85] صُنعَتْ من أعواد ثقابٍ

(85) آثرت استخدام عبارة «حافلة كهربائيَّة» وليس ترام أو تراموای (بحسب الترجمة الإنكليزيَّة) لأنَّ بِسُوَّا يستخدم في الأصل عبارة «carro electrico». (المترجم)

شُدَّ بعضُها إلى بعض بسلكٍ على نحو ما. وكان دائماً يقفز من الحافلة وهي تسير. آهٍ، يا طفولتي الميّتة! أيَّتها الجثَّةُ الحيَّةُ في صدري أبداً! فحين أتذكَّر الدُّمى التي لعبتُ بها طفلاً كامل النُّضج، تغرورق عيناي بدموع حارَّة، وينخبُ قلبي حنينٌ عارم أجوف، كأنَّه نَدَمٌ. ولقد انقضى كلُّ شيءٍ في هذه الأثناء، وسوف يظلُّ في الماضي ميّتاً وقاسياً، بادياً للعيان أو قابلاً للتصوُّر، في فكرتي الأبديَّة عن غرفة نومي في الوقت الذي، حول نَفْسي العصيَّة على التصوُّر كطفلةٍ، مرئيَّة من الدَّاخل، تخرجُ من صندوق الأدراج إلى منضدة الزِّينة ومن منضدة الزِّينة إلى السَّرير، سائقةً تلك الحافلة البدائيَّة عبر الهواء، متخيِّلةً أنَّها جزء من شركة الشَّاحنات الحقيقيَّة، ناقلةً تلامذتي الخشبيِّين المُضحكين إلى البيت.

وكنتُ قد نسبتُ إلى بعضهم بعضَ الرَّذائل -التَّدخين أو السَّرقة- ولأنَّني لستُ كائناً جنسياً، فلم أنسب أيَّ أفعالٍ لهم، ما خلا الرَّغبة ربَّما، التي اعتقدتُّ بأنَّها مجرَّد رغبة لعوبٍ، في تقبيل الفتيات ومحاولة اختلاس نظرة خاطفة إلى سيقانهنَّ. وكنتُ أترك تلامذتي مختبئين خلف صندوق كبير فوق صندوق أمتعةٍ، حيث «يدخِّنون» مِزقةً من ورقة ملفوفة، وقد يأتي أحد الأساتذة أحياناً. كان الفزع يعتريني طيلة الوقت بِقَدْر ما فزعوا، فلقد شعرت بأنِّي مجبر على الشُّعور بما كانوا يشعرون به، فكنتُ أخبِّئ السيگارة المزيَّفة، وأضعُ المدخِّن في الزَّاوية، ناظراً بِكَسل تملؤني الرِّيبة، منتظراً الأستاذ كي أُحيِّيه، لا أذكر كيف بالضَّبط، حين كان لا بُدَّ أن يمرَّ ماشياً... وأحياناً تبدو الشخصيَّتان بعيدتين كلَّ البُعْد بعضهما عن بعض، فلا أستطيع، بيدٍ واحدة، أن أناور بهما سويَّةً. فكنتُ أضطر، حينئذ، إلى أن أحرِّك كلَّ واحد منهما تباعاً، فتألَّمتُ كما أتألَّم اليوم لعجزي عن التَّعبير عن الحياة... ولكنْ لماذا أتذكَّر هذا كلَّه؟ لِمَ لَمْ أظلَّ طفلاً إلى الأبد؟ لِمَ لَمْ أمُت هُنَاك وحينئذٍ، مُستغرقاً في حِيَل تلامذتي ووصول أساتذتي الذي كأنَّه غير متوقَّع؟ لا أستطيع فعل ذلك الآن... فلا شيءَ لديَّ اليومَ إلَّا الواقع، ولا أستطيع اللَّعب مع ذلك... الطِّفل المسكين المنفيِّ في رجولته! لِمَ توجَّب عليَّ أن أكبر؟

اليومَ، حين أتذكَّر هذا، يغمرني حنينٌ إلى الأشياء الأخرى أيضاً، فَلقد ماتت أشياء كثيرة فِـيَّ عدا ماضيٍّ فحسبُ.

85

[1915؟]

السَّبيل الوحيدة لاختبار أحاسيس مثيرة جديدة أنْ تُعمِّرَ لنَفْسك روحاً جديدة. ستذهب كلُّ جهودك أدراجَ الرِّياح لو رغبتَ في الشُّعور بأشياء أخرى دون أن تشعر نَفْسُك بطريقة مختلفة، وأن تفعل ذلك دون أن تتغيَّر روحك. فالأشياء مثلما نشعر بها -فكم مرَّة فكَّرت بأنَّك قد عرفت هذا الشَّيء دون أن تعرفه حقاً؟- والسَّبيل الوحيدة لامتلاك أشياء جديدة، للشُّعور بأشياء جديدة، هي أن تجد طريقاً جديدة للشُّعور بها.

غيِّر روحك. ولكن كيف؟ هذا ما يتوجَّب عليك الاشتغال عليه.

فنحن أرواح تتغيَّرُ على مَهَلٍ، منذ اليوم الذي نُولَدُ فيه حتَّى اليوم الذي نموت فيه، وأجسادُنا، كذلك، تتغيَّرُ. جِدْ سبيلاً لتجعل ذلك التَّغيير أسرع، بسرعةِ التَّغيير الذي يدبُّ في أجسادنا حين نمرض أو نتعافى.

86

[1915؟]

نصيحةٌ إلى المتزوِّجات التَّعيسات

أعرضُ عليكِ أن أعلمكِ كيف تخدعين زوجكِ، ولكنْ في مخيِّلتكِ تماماً، لا أكثر.

صدِّقيني، لا تخدع أزواجها حقاً إلَّا المخلوقات المبتذَلة، فالعِفَّةُ شرط أساسيٌّ لتحقُّق اللَّذَّة الجنسيَّة. والعفَّة لا تموت إلَّا حين تمنحين نَفْسكِ لأكثر من رجلٍ واحد.

أُقرُّ بأنَّ دُونيَّة امرأةٍ تعني أنَّها لا تطلبُ رجلاً. ولكنَّني أعتقدُ بأنَّها لا بُدَّ أن تُقيِّد نَفْسَها برجل واحد فحسب، ولكنْ أن تجعل منه، عند الحاجةِ، مركزَ دائرةٍ مُوسَّعة من رجال مُتخيَّلين.

وأفضل الأوقات للقيام بذلك في الأيَّام التي تسبق الطَّمَث.

وبناءً عليه:

تخيّلي جسد زوجكِ أبيضَ ممّا هُوَ عليه. فإن نجحتِ في التخيُّل، فسوف تختبري الجسد المستلقي فوقكِ أنصعَ بياضاً ممّا هو عليه.

وإيّاكِ الافراطَ في الحِسيَّة. قبِّلي زوجكِ المستلقي فوقكِ واستبدليهِ في مخيِّلتكِ بالرَّجل الوسيم المستلقي فوق روحكِ.

فجوهر اللَّذَّة كامن في أن تُقسِّمي نَفْسكِ إلى أكثر من نَفْسٍ واحدة. شرِّعي النَّافذةَ إلى المَاكِر فيكِ.

كيف تزعجين زوجكِ.

فلا بُدَّ أن يستشيط زوجك غضباً، بين حين وآخر.

ابدئي، أوَّلاً، بالانجذاب إلى الأشياء التي تَنفرين منها، دون أن تفقدي شيئاً من انضباطكِ الخارجي.

ينجم عن اختلاط الفوضى الجوَّانيَّة العَميمة بالانضباط الخارجي العميم قَدْرٌ مثاليٌّ من الحِسيَّة. فكلُّ إيماءة تُحقِّقُ حُلماً أو رغبةً هي في الواقع تُبطِل تحقُّق ذلك الحُلمَ وتلك الرَّغبة.

وليس الاستبدالُ على قَدْر الصُّعوبة التي تظنِّينَها. وأعني بالاستبدال ممارسةَ أن تتخيَّلي نَفْسك تذوقين المتعة مع هذا الرَّجل في الحِين الذي تجامعين فيه ذاك.

87

[1915؟]

رسالة

لن أعرفَ أبداً كيف أتزَّلفُ إلى روحي كي تُقنعَ جسدي بأنْ يَمْلِكَ جسدكِ. حتَّى إنَّ التَّفكير في ذلك يجعلني أصطدم بعراقيل محجوبة فِيَّ، وأنْ أختلطَ داخل شِبَاكٍ غير معروفة. وما الأشياء الأخرى التي سوف تُصيبني لو رغبتُ في امتلاككِ حقاً؟

أُكرِّرُ أنَّني سأكون عاجزاً عن المحاولة. لا أستطيع حتَّى أن أجعل نَفْسي تحلم بأنَّها تفعل.

هذهِ، يا سيِّدتي، الكلماتُ التي لا بُدَّ أن أكتبها في هامشِ المعنى الذي تُثيره نظرتُكِ اللَّاإراديَّة المُستفهمة؟ وفي هذا الكتاب سوف تقرئين لأوَّل مرَّة هذي الرِّسالة الموجَّهة إليكِ. ولو أخفقتِ في فهم أنَّها موجَّهة إليك، فسوف أجعلُ نَفْسي تذعنُ إلى تلك الحقيقة. أكتبُ كي أُسلِّي نَفْسي أكثرَ ممَّا أودُّ أن أخبركِ بشيءٍ. فالرَّسائل التجاريَّة، وحدها، هي التي تكون موجَّهةً إلى شخص بعينه. ولا بُدَّ لجميع الرَّسائل الأخرى، فيما يخصُّ الرَّجل الأعلى على الأقلِّ، أن تكون مكتوبةً لِنَفْسه فحسبُ.

لا مزيدَ قَوْلٍ لديَّ إليكِ. فصدِّقيني حين أقولُ إنَّني معجبٌ بكِ بِقَدْر ما أستطيع الإعجابَ بأيِّ شخص آخر. ولسوف أفرحُ لو خطرتُ على بالك بين تارةٍ وأخرى.

88

[1915؟]

قادني الابتعاد، الذي فرضته على نَفْسي، عن مقاصد الحياة واتِّجاهاتها، والانقطاع، الذي فرضته على نَفْسي، عن أيِّ صِلَةٍ بالأشياء، إلى ما أحاول الهروب منه بالضَّبط. لم أرغب في الهروب من الإحساس بالحياة أو لمس الأشياء، فلقد عرفتُ من مناسبات سابقة كان فيها مزاجي على صلةٍ بالعالَم أنَّ الإحساس المثير لكوني على قيد الحياة بدا مؤلماً بالنِّسبة إليَّ على الدَّوام. ولكنَّني، في تجنُّب تلك الصِّلة، قد عزلتُ نَفْسي، ثُمَّ فاقمتُ حين عزلتُ نَفْسي حدَّةَ حساسيتي المُفرطة، لأنَّ أفضل شيءٍ، لو كان ذلك ممكناً، أنْ تقطع كلَّ صلةٍ بأيِّ شيء، ولكنَّ تلك العزلة المُطلقة مستحيلةٌ. وبصرف النَّظر عن قلَّة ما أفعل، فإنَّني مازلتُ أتنفَّس؛ وبصرف النَّظر عن قلَّة ما يتوجَّب فعله، فإنَّني مازلتُ أتحرَّك. وهكذا، وحساسيتي تُفاقم عزلتي، أجدُ أنَّ أصغر الأشياء، التي لم يكُن لها أيُّ تأثير في السَّابق حتَّى عليَّ، قد باتتْ تنهال عليَّ وتجرحني كمثل أسوأ الكوارث. لقد اخترتُ وسيلة الهروب الخاطئة. سرتُ في طريق مختصرة شاقَّة قادتني إلى حيث كنتُ، فازدادَ رعبُ العَيْش سوءاً هُناكَ مُختلطاً بِتَعب الرِّحلة.

لم أُفكِّر في الانتحار حلاً قَطُّ، فأنا لا أكره الحياة إلَّا لأنَّني أحبُّها. استغرقتُ وقتاً طويلاً لأقتنع بالخطأ المؤسف الذي أعيشُ فيه مع نَفْسي. ولقدِ استأتُ حين اقتنعتُ، كما يحدث دائماً حين أُقنع نَفْسي بشيءٍ، فذلك يعني فقدانَ وهم آخر من أوهامي.

ولقد قتلتُ إرادتي، حين حلَّلتُها. ماذا سأَمنح لأعود إلى طفولتي قبل أن أتعلَّم كيف أُحلِّل، لأعود حتَّى إلى الزَّمن الذي يسبق الزَّمنَ الذي ملكتُ فيه إرادتي!

نومٌ ثقيل يملأُ حدائقي، بركٌ تستلقي نَعْسى تحت شمس الظَّهيرة، وجلبةُ الحشرات تنثالُ في السَّاعة والحياةُ شديدةُ الوطأة عليَّ، ليست كحُزنٍ وإنَّما مثل وجعٍ جسديٍّ لا يكفُّ.

قصورٌ بعيدة، ومتنزَّهاتٌ للاستغراق في الأحلام، والخطوط الضيِّقة لجادَّات بعيدة، والرَّوعةُ البائدة للمقاعد الحجريَّة التي شُيِّدت من أجل الذين كانوا ذات يوم - أُبَّهات بائدة، وأناقة خَرِبة، وحليٌّ رخيصة مفقودة. أيُّها الحنينُ العذب الذي ينزلقُ إلى النِّسيان على مهلِهِ، ليتني أستطيعُ استعادة الألم الذي حلمتُكَ بِهِ.

89

[1915؟]

أفضل تسميةٍ تُطلَق لوصف روحي اليومَ هي صانعةُ اللَّامبالاة. أتحرَّقُ رغبةً، أكثر من أيِّ شيء آخر، إلى أن يقتصر دوري في العالَم على تعليم الآخرين أن يشعروا بأنفسهم، أكثر فأكثر، وأن يتخفَّفُوا بأنفسهم من قانون الجماعة الدِّيناميكيِّ إلى أبعد الحدود. ويبدو لي أنَّ تعليم الآخرين، في حدود ذلك التَّقشُّف الرُّوحانيِّ، الذي سوف يحول دون انتشار عدوى الابتذال، هُوَ القدَر الأسمى لِمُعلِّم الحياة الجوَّانيَّة الذي أودُّ أن أكونَهُ. أنْ يتوجَّب على كلِّ من يقرأُني -شيئاً فشيئاً، بحسب ما يتطلَّبُ الموضوع- أن يشعرَ بلامبالاةٍ مُطلقة تجاه نظرة الآخرين وآرائهم النَّاقدة، وسيكون مثل ذلك القدَر مَثُوبة كافية على ركود حياتي السُّكولائيِّ[86].

فلطالما شعرت في داخلي أنَّ عجزي عن الفعل محنةٌ ترجعُ أصولها إلى الغيبيَّات. فكانت كلُّ إيماءة تنطوي دائماً، وفقَ طريقتي في اختبار الأشياء، على اضطراب العالَم الخارجيِّ وتشظِّيه؛ فكنتُ أخشى دائماً أن تُفضي كلُّ حركةٍ آتي بها إلى إزاحة النُّجوم أو تبديل السَّماوات. ولهذا، سرعان ما باتتِ الأهميَّةُ الغَيبيَّة، حتَّى لأدنى إيماءة، ذاتَ أهميَّةٍ استثنائيَّة بالنِّسبة إليَّ.

---

(86) السُّكولائي scholastic (وفي البرتغاليَّة escholastico): أحد أتباع الفلسفة المَدرسيَّة/الكتابيَّة/السُّكولائيَّة التي انتشرت في أوروبًا في القرون الوسطى، وتقوم على تقديم تفسير دينيٍّ نظريٍّ للكون انطلاقاً من أفكار أرسطو وأفلاطون، ومنها نشأ علم الكلام. (المترجم)

اكتسبتُ، فيما يتعلَّق بالفعل، نزاهةً متساميةً منعتني مُذ وعيتُها من أن أُقيم أواصرَ قويَّة مع العالَم المحسوس.

90

[1915؟]

لتبديدِ الوقت فلسفته الجماليَّة الخاصَّة. فثمَّة كُتيِّب عن الخمول والعطالة، خاصٌّ باللَّوذعيِّين الرَّاسخين في الأحاسيس المثيرة، يحوي وصفات لضروب الصَّفاء والإشراق كافَّة. الاستراتيجيَّة التي يصارعُ فيها المرء فكرةَ آداب السُّلوك الاجتماعيَّة، وبواعث الغرائز، ومتطلِّبات الخوالج الوجدانيَّة، تستدعي دراسةً تخلص إلى أنَّ المولعين بالجَمال ليسوا جميعاً مستعدِّين لتنكُّب ذلك. ولا بُدَّ أن يتبعَ الدِّراسةَ المُضنية لِمُسبِّبات الوساوس تشخيصٌ يتهكَّمُ على خضوعنا لكلِّ ما هو عاديٌّ. ولسوف نحتاج أيضاً إلى تنمية سرعة استجابة في وجه تدخُّلات الحياة؛ فلا بُدَّ أن تُحصِّننا درجةٌ من الحذَر ضدَّ آراء الآخرين؛ ولا بُدَّ أن تحمي أرواحَنا لامبالاةٌ معتدلة من الضَّربات البليدة النَّاجمة عن تعايشنا مع الآخرين الذي لا مفرَّ منه.

91

[1915؟]

الحِسِّيُّ

في هذا العصر الذي انحطَّت فيه جميع المعارف، والذي تحتضر فيه المعتقدات ويتراكم الغبار شيئاً فشيئاً على جميع الأديان، فإنَّ أحاسيسنا المثيرة هي الحقيقة الوحيدة التي تبقَّتْ لنا. والهاجس الوحيد الذي لا بُدَّ أن يشغلنا، والعِلْم الوحيد الذي يُرضينا هو المرتبط بأحاسيسنا.

بتُّ مقتنعاً، أكثر فأكثر، أنَّ الزِّينةَ الجوَّانيَّة هي الطَّريق السَّامية، الإشراقيَّةُ، التي تمنحُ حيواتنا قدَراً. فلو استطعتُ أن أعيش حياتي مُزنَّراً بِدَنْتِلَّةٍ روحانيَّة، لابتعدتْ عنِّي هُوَّاتُ اليأس، الفاغرة أفواهَها، التي تجعلني أتذمَّرُ.

فأنا أنتمي إلى جِيلٍ -أو، بالأحرى، إلى بعض جيل- فقدَ احترامَهُ كلَّهُ للماضي وإيمانَهُ أو

أملَهُ كلَّهُ في المستقبل. ولهذا نعيش في الحاضر وقد اشتدَّ بِنَا الجَوَى إلى شخص لا بيتَ آخرَ لَهُ. ولأنَّنا لا نعثر إلَّا في أحاسيسنا -أحاسيسنا العقيمة، الطَّائشة- ولاسيَّما في أحلامنا، على حاضر لا يذكِّرنا بالماضي أو المستقبل، فإنَّنا نبتسمُ لحياتنا الجوَّانيَّة وقد رانَ علينا الوَسَنُ الأشمُّ، مُنتزعينَ أنْفُسَنا من الحقيقة الكميَّة للأشياء.

ولسنا مختلفين اختلافاً شديداً ربَّما عن أولئك الذين لا يفكِّرون، عبر حيواتهم، إلَّا باللَّهو والمُتعة. ولكنَّ شمسَ أنانيَّتِنا التي تخدم ذاتَها فحسبُ على وشكِ أن تغرب، ومذهبَنا في المتعة الغارق في ألوان شفقيَّة متناقضة يجتاحه البَرْدُ.

نحنُ في طَوْرِ نقاهةٍ. فنحن، في العموم، مخلوقات لم تتعلَّم قطُّ أيَّ فنٍّ أو مهارةٍ، ولا حتَّى فنَّ الاستمتاع بالحياة أو المهارةَ اللَّازمة لذلك. نميلُ، نحن الغرباء على أيِّ علاقات طويلة الأمد، إلى أن نسأم من أصدقائنا الحميمين، بعد أن يكون قد مرَّ نصف ساعة على وجودنا معهم فحسب؛ فنحن لا نتوق إلى رؤيتهم إلَّا حين نفكِّرُ في أن نراهم، وأفضل الأوقات التي نقضيها معهم هي تلك التي تكون حين نحلم بأنَّنا معهم فحسب. ولا أعرف إن كان هذا دليل على قلَّة الصَّداقة من ناحيتي. ربَّما لا. فالحقيقة رغم ذلك كامنة في أنَّ الأشياء التي نهيم بها عشقاً، أو التي نظنُّ أنَّنا نعشقها، لا تمتلك قيمتَها الكاملة إلَّا حين نحلم بها، ليس إلَّا.

نحن نمقتُ العروض المسرحيَّة ومشاهدَ الفُرجة. نحتقرُ الممثِّلين والرَّاقصين. فليستْ أيُّ فُرجةٍ إلَّا تقليداً مُنحطاً لما نستطيعُ أن نحلم بهِ.

وعلى الرَّغم من لامبالاتنا بآراء الآخرين -ليس [بالفطرة] منذُ البداية، ولكن عبر تهذيب مشاعرنا التي تفرضها علينا تجارب مؤلمة مختلفة- فإنَّنا مهذَّبون دائماً مع الآخرين، حتَّى إنَّنا نحبُّهم محبَّة صادقة عبر ضربٍ من اللَّامبالاة التي تهتمُّ بذواتهم وحسب، فمن المحتمل أن يثير المرء الاهتمام فيغدو قابلاً للتحوُّل إلى مادَّة حُلميَّة، إلى شخص آخَر...

عجزنا عن الحُبِّ، فاجتاحنا سأمٌ من الكلمات، حتَّى قبل أن تُلفظَ؛ الكلمات التي يتوجَّبُ أن نقولها كي نُحَبَّ. ثُمَّ، أيُّنا يرغبُ في أن يُحَبَّ؟ كلماتُ شاتوبريان «كُنَّا نُتعبهُ بِحُبِّنا لَهُ»[87] لا تليقُ بنا بتاتاً. ففكرة أن نُحَبَّ، في حدِّ ذاتها، تصيبنا بالسَّأم إلى درجة الفزَع.

حياتي حُمَّى لا تكفُّ، عطشٌ لا يُطفَأُ. ألفيتُ الحياةَ الحقَّةَ غاشمة كهجير يتلظَّى. ثمَّة شيءٌ مُهِينٌ في ذلك كلَّه إلى حدٍّ بعيد.

92

[1915؟]

يتوجب على المرء ألا يكون قادراً على رؤية وجهه، فلا شيءَ أشدَّ رُعباً من ذلك. لقد حبتهُ الطَّبيعة نعمةَ ألَّا يكون قادراً على رؤية وجهه ولا النَّظر في عينيه.

لَهُ أن يرى وجهه في مياه الأنهار والبرك فحسب. وحتَّى الوضعيَّة التي توجَّب أن يتَّخذها للقيام بذلك كانت رمزيَّة، فلقد تحتمَّ عليه أن ينحني، أن يخفض نَفْسه، كي يجني على نَفْسهِ عارَ أن يرى وجهه.

صانعُ المرآةِ سمَّم الرُّوحَ الإنسانيَّة.

93

[1915؟]

طالما قرأتُ بامتعاض، في يوميَّات أَمْيل[88]، أيَّ إشاراتٍ إلى الكُتب التي نشرها. هُنَاك تحطَّم المِثال الأعلى. ويا لَهُ من رجل عظيم، لولا ذلك!

فطالما أوجعتني يوميَّات أَمْيلْ بصورة شخصيَّة.

فحين وصلتُ إلى المطرح الذي يقول فيه إنَّ شِيرير[89] قد وصفَ ثمرة العقل بأنَّها «وعي الوعي»، شعرتُ بأنَّه كان يُلمِحُ مباشرة إلى روحي.

94

[1915؟]

ستبدو يوميَّاتي هذه، المكتوبة لِنَفْسي وحدها، بالنِّسبة إلى الكثيرين، مصطنعة جداً.

(88) الفيلسوف الأخلاقي والشاعر السويسري هنري فريديريك أميل. (المترجم)

(89) الكاتب النمساوي ڤيلهلم شيرير. (المترجم)

ولكنَّ شيمتي أن أكون مصطنعاً. وإلّا كيف سأسلّي نَفْسي إنْ لم أُدوِّن بأناةٍ هذه الملحوظات الرُّوحانيَّة؟ وهذا لا يعني أنَّني أكترث بها كثيراً. ولكنَّني أُجمِّعها مفتقراً إلى حِرصٍ شديد. فهذه اللغة المُنقَّحة هي الطريقة الطبيعيَّة التي أُفكِّر فيها.

أنا شخص يَعُدُّ العالَمَ الخارجي حقيقةً جُوَّانيَّةً. لا أشعر بذلك غيبياً، بل بالحواسِّ العاديَّة التي أقبض فيها على الحقيقة الواقعيَّة.

طيشُ الأمسِ شوقُ اليومِ (المتواصلُ) الذي يقضمُ حياتي.

لهذه اللَّحظة أورقتُها المُعمَّدة. والشَّمسُ قد غربت على مراوغاتها الزَّهيدة. وفي العيون الزُّرق للبِرَك يأسٌ أخير يعكسُ موتَ الشَّمس. ولقد كُنَّا بعضاً من الحدائق العتيقة إلى حدٍّ بعيد، مُجسَّدينَ على نحو شهوانيٍّ في حضور التَّماثيل المتراصفة على طول الجادَّات الإنكليزيَّة الأنيقة التي تكسوها الأشجار. وكانت الثِّيابُ والسُّيوف والشُّعور المستعارة والتَّزلُّفاتُ انحناءً[90]، والمواكبُ وثيقةَ الصِّلة بالجوهر الذي قُدَّتْ منه روحُنا إلى حدٍّ بعيد! مَن تلكَ الـ «نحنُ»؟ وحدها الحديقةُ المهجورة والنَّافورة، ماؤُها المُجنَّحُ يُحلِّقُ مُنخفضاً في محاولته الحزينة للطَّيران.

95

[1915؟]

يمرُّ عليَّ الوقتُ كأنَّهُ وجعٌ رهيب. فأستاءُ على نحو يبعث على السُّخرية حين يتوجَّب عليَّ أن أغادر أيَّ شيءٍ: الغرفةَ المستأجرة الصغيرة البائسة التي قضيت فيها بضعة شهور، والطاولةَ في الفندق الرِّيفيِّ التي تعشَّيتُ عليها في كلِّ يوم من أيَّاميَ السِّتَّة هُناك، حتَّى حجرة الانتظار في محطَّة السِّكَّة الحديد التي بدَّدتُ فيها ساعتَيْن منتظراً القطار. ولكنَّ الأشياء الجيِّدة الموجود في الحياة تؤلمني ألماً غيبياً، عارفاً بكلِّ الحساسية التي تستطيع أعصابي

(90) Bowings and scrapings: أن ينحني المرء عميقاً لتحيَّة/تملُّق شخص آخر، وقد ألقى ساقه اليُمنى إلى الخلف (كأنَّه يكشط الأرض) ويده اليسرى مضغوطة على بطنه، ويده اليمنى على جانبه. (المترجم)

حشدها أنَّني لن أراها البتَّةَ ثانيةً أو أمتلكها من جديد، ليس على الأقلِّ مثلما تكون في تلك اللَّحظة المُحدَّدة بعينها. هاويةٌ تتثاءب مفغورةً في روحي، وعصفةُ بَرْدٍ من ساعة الله تمسح وجهيَ الشَّاحب.

الزَّمن! الماضي! هُناك، شيءٌ، صوتٌ، أغنيةٌ، رائحةٌ فجائيَّة في الهواء، تُميط اللِّثامَ عن ذكرياتي... ما كنتُ وما لن أكونَه مرَّةً أخرى أبداً! ما مَلَكتُ وما لن أملكَ ثانيةً أبداً! الموتى! الموتى الذين أحبُّوني حين كنتُ طفلاً. وحين أذكرُهم، يجتاح روحيَ البردُ، وأشعرُ نَفْسي منفيَّةً من كلِّ قلبٍ، وحيداً في ليلِ نَفْسي، أبكي مثل شحَّاذٍ على أعتاب الصَّمتِ المُوصَد لكلِّ باب.

96

[1915؟]

يومان أو ثلاثةٌ ويعتريني شيءٌ كأنَّه بدايةُ الحُبِّ...

كلُّ هذه الأشياء مفيدة للمُولَع بالجَمال بسببِ الأحاسيس التي تُثيرها فيه. ولكنَّ التغوُّل أبعدَ سيدخله في ذلك النِّطاق حيث تنشأ الغيرة والمعاناة ويبدأ التهيُّج الجنسيُّ. وثمَّة، في حجرة انتظار المشاعر هذه رقَّةُ الحُبِّ كلُّها، بلا أغوارِها - ولكنَّ رعشةَ اللَّذَّةِ، هُناكَ، وأريجَ الرَّغبةِ الغامضَ، وحين يفقد المرءُ البهاءَ الكامن في مأساة الحُبِّ، تغدو مراقبةُ المآسي بالنِّسبة إلى المُولَع بالجَمال -لاحِظوا ذلك- مثيرةً للاهتمام ولكنَّ مكابدتَها شاقَّةٌ. تهذيبُ الحياة يحول دون تهذيب المخيِّلة؛ إنَّهُ الإنسانُ غير العادي الذي يَسُودُ.

سأكون الآن راضياً تمامَ الرِّضا عن هذا لو أقنعتُ نَفْسي بأنَّ هذه الفرضيَّة ليست ما هي عليه، جلَبة مُعقَّدة أُحدِثُها في أُذنَيْ بصيرتي حتَّى لا تلاحظَ، في أعماق نَفْسي، أنَّ المسألة حين تتعلَّق بالعَيْش، فلا خيارَ إلَّا خَجَلي وعجزي.

97

[1915؟]

أستطيقا اليأس

ولأنّنا لا نستطيعُ استخلاصَ الجَمال من الحياة، فَلَا أقلَّ مِن أن نستخلصَ الجَمال من عجزنا على استخلاص الجَمال من الحياة. فَلْنَصنع من إخفاقنا نصراً، شيئاً إيجابياً نفخرُ به، مكتملاً بأركانه وجلالته وإذعانه الرُّوحانيِّ.

فإنْ لم تهبنا الحياةُ سوى زنزانةٍ، فَلَا أقلَّ مِن أن نُزيِّنها بظلال أحلامنا، بتصاويرَ زاهية الألوان، كي نُدوِّن نِسيانَنا على سُكونِ جدرانها الحجريِّ.

طالما شعرتُ، مثل كلِّ الحالمين، بأنَّ سقفيَ الإبداعُ. فلقد كان، مُذ كنتُ عاجزاً البتَّة عن بذل أيِّ جهد أو تحقيق أيِّ غاية، الشَّيءَ ذاتَهُ بالنِّسبة إليَّ دائماً، كالحُلم أو الرَّغبة أو الشَّهوة، فأصنعُ في الأحلام الإيماءات التي أودُّ صُنعَها.

98

[1915؟]

أخلاقيَّات اليأس

أن تُنشَر[91]= المشاركةُ الاجتماعيَّة للأنا، فيا لها من ضرورة أساسيَّة! ولكنَّها لاتزال بعيدةً كلَّ البُعْد عن كونها فِعلاً، فالنَّاشرُ يجني الأرباحَ، والطَّبَّاعُ يصنعُ الكتاب... ولكنَّ النَّشر يتمتَّع بميزة التَّنافُر على الأقلِّ.

فَمِن أعظم شواغلِ الإنسان، مُذ يبلغُ سنَّ الرُّشد، أنْ يجعل نَفْسَهُ كينونةً مفكِّرةً وفاعلة، وفقَ صورة مثاله الأعلى. ولأنَّ الكَسَل هو المثال الأعلى الذي يُجسِّد، خيرَ تجسيدٍ، منطقَ استجابة روحنا الأرستقراطيَّة تجاهَ هَرَجِ الحياة المعاصرة ومَرَجِها، فلا بُدَّ، إذن، أن يكون **الكَسولُ، الخاملُ**، مثالنا الأعلى. مشروع عبثيٌّ؟ ربَّما. ولكنَّ ذلك لا يؤرِّق سوى أولئك المنجذبين إلى العبث.

(91) يقصد أن يُقدم الكاتب على نشر مؤلَّفاته. (المترجم)

99

[1915؟]

جمالية التَّخلِّي

أنْ تمتثلَ يعني أنْ تُذعِنَ، وأن تفوزَ يعني أنْ تمتثلَ وأنْ تُهزَم. ولهذا فإنَّ جميع الانتصارات مبتذلَةٌ بالضَّرورة. يفقدُ الرَّابحون شعورَ اليأس من الحاضر الذي قادهم في الأصل إلى المعركة التي منحتهمُ النَّصر. يشعرون بالرَّضا، ولا يشعرُ بالرِّضا سوى المُمْتَثِل، الذي لا يمتلك عقليَّة الفائز. فالفائز الحَقُّ الذي لا يفوز بأيِّ شيء البتَّة. والأقوياء حقاً أولئك الذين يعيشون حالةَ فَزَع دائمة. فالتَّخلِّي أنبلُ الأشياء وأشدُّها رِفعةً. فالإمبراطوريَّةُ الأسمى تنتمي إلى الإمبراطور الذي يتخلَّى عن كلِّ شيء في الحياة الطَّبيعيَّة، وعن الرِّجال الآخرين، والذي لا تَعْدِلُ همومُ الدَّولة عِندَهُ كيسَ جواهر.

100

[1915؟]

رَعَيتُ قَرَفِي من الأفعال بحرص الذي يرعى زهرةً في دَفيئةٍ. أُفاخرُ نَفْسي بانشقاقي عن الحياة.

101

[1915؟]

«المشاعر مثلُ هذا الضَّجَر». تلك الكلمات الجُزافيَّة، التي قالها أحدهم في أثناء محادثة مقتضبة، مازالت تلمعُ مُسجَّاةً على أرض ذاكرتي. فلقد أسبغت طبيعةُ العبارةِ المتبذَلةُ على العبارة رونقَها.

102

[1915؟]

حتَّى أحلامي تعاقبُني. فلقد حقَّقتُ درجةً من الإشراق في الأحلام، فَبِتُّ أرى كلَّ شيء

أحلمُ بهِ كأنَّهُ هُوَ في الواقع، ولذلك فإنَّ كلَّ شيء أحلمُ بهِ يفقدُ قيمتَه كلَّها.

لو حلمتُ بأنَّ صيتيَ قد ذاعَ، فسوف أكابدُ كلَّ العُرْيِ الذي يأتي بهِ المجدُ؛ فقدان الخصوصيَّة، وإخفاء الاسم الذي يجعل الشُّهرة بالنِّسبة إلينا مؤلمة أشدَّ الألم.

103

[1915؟]

الإيمانُ غريزةُ الفِعْل.

104

[1915؟]

الحماسةُ ابتذالٌ محض.

وإنَّ التَّعبيرَ عن الحماسة انتهاكٌ أكثرَ من أيِّ شيء لحقوق نفاقِنا.

فنحن لا نعرفُ البتَّة متى نكون صادقين. وربَّما لسنا كذلك أبداً. فحتَّى لو كُنَّا صادقين اليوم، فقد نكذب غداً حول شيء آخر مختلف تماماً.

لم تكُن لديَّ قناعاتٌ البتَّة. كانت لديَّ انطباعاتٌ دائماً. لا أستطيع أن أكره أيَّ مكان رأيتُ فيه غروبَ شمسٍ فاضحاً.

فتسويغ الانطباعات طريقة لإقناع أنفسنا بأنَّ تلك الانطباعات قد ساورتنا دون أن تكون قد ساورتنا بالفعل.

105

[1915؟] [92]

مُعتقداً أنَّ كلَّ خطوة في حياتي قد تعني الاتِّصال مع رعب جديد، وأنَّ كلَّ شخص جديد

(92) لفت انتباهي إلى أنَّ جول كوستا قد أغفلت، هنا، الإشارة إلى عبارة «Sen.to.Apocalyptico» (شعورٌ رُؤيويٌّ/ نُبوئيٌّ) التي خطَّها بِسُوَّا، بحبر أسود، في رأس القصاصة الأولى من القصاصات الخمس التي دوَّن فيها هذا المقطع الطَّويل، مع أنَّ بيسارُّو، محرِّر الطبعة الإنكليزيَّة، هذه، قد أوردها في طبعته البرتغاليَّة الصادرة في العام 2010 (المقطع 105، 110–112)، وعلى هذ النَّهج سارت الطبعات البرتغالية الرَّئيسة الأخرى. أمَّا زينيث، في طبعته الإنكليزيَّة، فقد

أقابله كان جزءاً جديداً وحياً من المجهول يُوضَع أمامي على طاولة تأمُّلي اليوميِّ المرعب، قرَّرتُ الإحجام عن كلِّ شيء، ألَّا أذهب إلى مكان، وأن أُقلِّل الفِعل إلى حَدِّه الأدنى، وأن أتجنَّب مقابلة الرِّجال ومجابهة الأحداث ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، وأن أتعفَّف[93] وأرتادَ في التَّخلِّي آفاقاً جديدة. فكم يخيفني العَيْش هكذا وكم يعذِّبني!

فاتِّخاذُ قرار، وإنهاءُ شيءٍ، وتركُ الرِّيبةِ في نهاية المطاف والعتمةِ ورائي، أشياء تبدو كارثيَّةً بالنِّسبة إليَّ، كأنَّها طامَّاتٌ كونيَّة كُبرى.

هكذا أكابدُ الحياة، كأنَّها نهاية العالَم وطامَّةٌ كُبرى. فكلُّ يوم يجلبُ عجزاً متعاظماً في نَفْسي عن الإتيان بأدنى إيماءةٍ، حتَّى أن أتخيَّل نَفْسي أجابه مواقف حقيقيَّة واضحة. حضورُ الآخرين -الذي دائماً ما يكون حدثاً فجائياً بالنِّسبة إلى روحي- يزدادُ إيلاماً وغماً في كلِّ يوم. يُرعِدُني التَّحدُّث إلى الآخرين. فإنْ أبدوا اهتماماً بي، أهربُ. وإنْ نظروا إليَّ، أرتعشُ. وإنْ [...]

أنا دائماً في موقع المدافع. الحياة تجرحني والنَّاسُ. لا أستطيع أن أنظر في عين الواقع. والشَّمس نَفْسها تتركني قانطاً خَرِباً. وحيداً في اللَّيل، وحَدْي، منسياً وضائعاً -بلا أيِّ صلاتٍ بالواقع، ودونَ حاجة إلى الانهماك في شيء مفيد- أجدُ نَفْسي فأواسيها، فحسبُ.

تُرجِفُني بَرْداً الحياةُ. ووجودي كهوفٌ رطبة وسراديبُ موتى معتمة. أنا الهزيمة العظيمة لآخر جيشٍ حمى الإمبراطوريَّة الأخيرة. لي مذاقُ سقوطِ حضارة قديمة مسيطرة. إنَّني وحيدٌ ومهجور، أنا الذي تعوَّدَ أن يأمرَ الآخرين. لا صديقَ لديَّ، ولا دليلَ، أنا الذي أبداً قد مهَّدَ دربَهُ الآخرون.

أورد العبارة عنواناً لهذا النص بصيغة «Apocalyptic feeling» (شعورٌ رُؤيويٌّ) في الملحق الخاصّ الذي أفرده، في نهاية طبعته، للمقاطع التي كان بِسُوًّا قد عنونها بنفسه. والملحوظة الثَّانية، هي أنَّ بِسُوًّا كان في الأصل قد فصل بين فقرات هذا المقطع بالأرقام (2–9)، بَيْدَ أنَّ الطَّبعات البرتغاليَّة الأربع الرَّئيسة التي صدرت لغاية اليوم (سوبراو كونيا: المقطع 243، 210–213؛ برادو كويلو: المقطع 363، المجلد الثاني، 100–104؛ وزينيث: المقطع 508، 478–481؛ وبيسارُو: المقطع 105، 110–112) قد أغفلت هذه المسألة، دامجةً فقرات النَّص، بعضها وراء بعض، مستعيضةً عن التَّرقيم بمساحات بيضاء فاصلة، دونَ إخلال، بالطَّبع، بترتيب الفقرات أو شكلها (الأمر الذي انسحب، بدوره، على الطبعة الإنكليزية التي ترجمها زينيث بنفسه، وعلى الطبعة الإنكليزية التي وضعتها جول كوستا، هنا، انطلاقاً من طبعة بيسارُو). (المترجم)

(93) هي، هنا، بمعناها الفلسفيِّ العميق: امتناع المرء بمحض إرادته عن الملذَّات والرَّغبات جميعاً. (المترجم)

شيءٌ فِـيَّ يتوسَّلُ العطفَ الأبديَّ ويبكي على نَفْسهِ كَمَن يبكي إلهاً ميّتاً سُلِبَ مذابحَهُ[94] كلَّها، حين لاحَ قدومُ البرابرة الباهتُ عند الحدود فاستدعتِ الحياةُ الإمبراطوريَّةَ كي تحاسبَها، كي تسألها عمَّا فعلتهُ بالسَّعادة.

أخافُ دائماً أن يحكي عليَّ النَّاس. أخفقتُ في كلِّ شيء. ولم أجرؤِ البتَّة على التَّفكير في أنْ أصنع شيئاً من نَفْسي؛ ولا حتَّى حلمتُ بالتَّفكير في اشتهاءِ شيء، فلقد أدركتُ، في قرارة أحلامي، وحتَّى في حالي الرُّؤيويَّةِ التي لا أكون فيها إلَّا مجرَّد حالم، أنّي لم أكُن مُناسباً للحياة.

لا شعورَ يستطيع أن يدفعني إلى رفعِ رأسي عن الوسادة التي أدفنه فيها، فأنا لا أستطيع التكيُّف مع جسدي ولا مع فكرة أنَّني على قيد الحياة، ولا حتَّى مع الفكرة المطلقة عن الحياة نَفْسها.

أنا لا أتحدَّثُ لغة الواقع. أترنَّحُ بين أشياء الحياة كمريضٍ ينهضُ لأوَّل مرَّةٍ بعد أن طالَ عليه الأمدُ في السَّرير. لا أشعرُ إلَّا ببعض الحياة العاديَّة حين أكون في السَّرير. أُسَرُّ حين تستبدُّ بيَ الحُمَّى فهي تبدو مناسبةً وطبيعيَّةً [...] لحالِ رُقادي. أتلعثمُ، كشُوَاظِ نارٍ في الرِّيح، فَيُغْمَى عليَّ. ليسَ إلَّا في هواءِ الغرفِ المُوْصدةِ؛ الهواءِ الميِّتِ[95]، أتنفَّسُ الحياةَ الطَّبيعيَّةَ لحياتي.

لا شيءَ يبقى من الأصداف التي أجدها على شواطئ البحار، ولا حتَّى حنين خافت. تخلَّيتُ عن نَفْسي لأجعلَ من روحي دَيْراً وألَّا أكون لِنَفْسي أكثرَ من خريفٍ في حقل ناشف مهجور، حيث شرارةُ الحياة الوحيدة هي انعكاس ساطع كضوء يحتضر في العتمة التي أرخت سُدولها على البِرَك، ولا مزيدَ جهدٍ أو لونٍ إلَّا البهاءَ البنفسجيَّ، والمنفى المُبدَّدَ لغروبِ الشَّمس فوق الجبال.

ولا مسرَّةَ أعظمُ، في قرارة النَّفْس، من أن يُحلِّلَ المرءُ ألمَهُ، ولا لذَّةَ حسيَّةً أعظم من الانعطافات العَليلة السَّيَّالة للمشاعر حينَ تتداعى وتَبلى - خطوات خفيفة في الظلال الغامضة، يسَّاقطُ وقعها ناعماً على المَسامعِ فلا نلتفتُ حتَّى لنعرف من الذي يخطو؛ أغنيات

---

(94) المقصود، هنا، المذابح التي تقدَّم عليها القرابين في الأضرحة وأماكن العبادة. (المترجم)

(95) عادة ما تشير عبارة dead air (وفي الأصل البرتغالي: ar morto) إلى الهواء الحبيس أو السَّاكن في حيِّز ما، ولكنّني آثرت ترجمتها، حرفياً: «الهواء الميت» لما تنطوي عليه من معنى مرتبط بثنائيَّة الموت والحياة التي ترسمها الصورة الكليَّة لهذا الشَّذرة. (المترجم)

بعيدة وغامضة لا نحاول أن نلتقط كلماتها، ولكنَّها تُهدهدنا أكثرَ، فنحنُ لا نعرفُ ماذا تقول ولا من أين تنبعث؛ الأسرار الغامضة للمياه الشَّاحبة التي تملأُ اللَّيلَ مسافاتٍ واهيةً؛ فمن أين تأتي وماذا تحملُ في داخلها، تلك العرباتُ القصيَّة، بجلجلة أجراسها التي لا تكاد تُسمَع من هُنَا، الوسنانة في سُبات ما بعد الظَّهيرة الحارّ حيث ينزلقُ الصَّيفُ إلى الخريف؟ ماتت الأزهار في الحديقة، فذبلتْ، وأضحتْ زهوراً مختلفة أكبرَ سِناً وأنبلَ، وألوانها الصَّفراء متناغمة مع السرِّ والصَّمت والهجران. تمتلك الفقاعات الطَّافية على سطح البرك أسبابَ أحلامها. أذاكَ نقيقُ الضَّفادع البعيد؟ آهٍ، يا حقولَ نَفْسي الميّتةَ! أيتها السَّكينةَ الرِّيفيَّةَ التي لا تُعرَفُ إلَّا في الأحلام! حياتي العبثيَّة كحياة فلَّاح لا يعمل بل ينام على قارعة الطريق ورائحة الحقول تنسلُّ كالسَّديم إلى روحه، في نوم باردٍ وشَفيف عميقٍ وطافح بالأبديَّة مثل كلِّ شيء يربطُ العدَم بالعدَم؛ ليليٍّ ومجهول، ومُتعَب، ورحَّالٍ تحت حنان النَّجوم البارد.

أتبعُ دربَ أحلامي، جاعلاً من صورها خطوات تُفضي إلى صور أخرى؛ فاتحةً كمروحةٍ الاستعارات التي تُوجَد صُدفةً في اللَّوحات العظيمة لرؤايَ الجوَّانيَّة؛ أُعرِّي نَفْسي من الحياة ثُمَّ أُمدِّدها على أحد الجانبَيْن كبذلةٍ ضاقتْ عليَّ كثيراً. أختبئُ بين أشجار بعيدة عن الطُرُق. أُضيِّعُ نَفْسي. فأتمكَّن، بضعَ لحظات خفيفة، عابرةٍ، من أن أنسى طعم الحياة، وأن أتحرَّر من فكرة الضَّوء والضوضاء وأموت، شاعراً في البَدْءِ بكلِّ وعي وغرابة، كأنَّني إمبراطوريَّةُ أطلال معذَّبة، مدخلاً عظيماً بين راياتٍ وطبولِ انتصاراتٍ في مدينة أخيرة شاسعة حيث سأبكي على لا شيء، راغباً في لا شيء، ولا أطلبُ حتَّى أن أكون نَفْسي.

تُوجعني أسطح البركَ العَلِيلة التي صنعتها في أحلامي. شحوبُ القمر، الذي أتخيَّله ساطعاً فوق مناظر الغابة الطَّبيعيَّة، لي أنا وحدي. خريف السَّماوات الرَّاكدة التي أستحضرها دون أن أكون قد رأيتها ليسَ إلَّا تعبي. حياتي الميّتة برمَّتها تُثقل كاهليَّ، وجميع أحلامي التي أَخفقتْ، وكلُّ شيء امتلكته ولم يكُن لي، وزرقةُ سماواتي الجوَّانيَّة، والحرير المرئيُّ لأنهار روحي، والسَّكينة المضطَّربة، الشَّاسعة، لحقول الحنطة في السُّهول التي أراها ولكنِّي لا أراها. فنجان قهوة، سيگارة، رائحة دخانها النَّفَّاذة، وأنا جالس في الغرفة الظَّلِيلة وقد أغمضتُّ عينيَّ نصفَ إغماضةٍ - لا أُريدُ المزيدَ من الحياة سوى أحلامي وهذا... لا يبدو كثيراً؟ لا

أعرفُ. فما الذي أعرفه عمَّا هُوَ قليلٌ وعمَّا هُوَ كثيرٌ؟

هَا مساءُ الصَّيف هُنَاك، فأنَّى أُحبُّ أن أكون شخصاً آخر... أفتحُ النَّافذة. كلُّ شيء في الخارج شديدُ الرِّقَّة، ولكنَّه يطعنُني بألمٍ مُبهَم، شعورِ استياء غامض.

وثمَّة شيء أخير يطعنُني، يمزِّقُني، يتركُ روحيَ أشلاءً، إنَّهُ أنا في الحقيقة؛ أنا الذي يتوجَّبُ عليه، في هذه اللَّحظة، عند النَّافذة، ناظراً إلى تلك الأشياء الرَّقيقة الحزينة، أنْ يتجلَّى شخصيَّةً جماليَّة، جميلةً كشخص في صورةٍ - ولكنَّني لا أفعلُ، حتَّى إنَّني لا أفعل ذلك...

فَلْتَمُرَّ هذي السَّاعةُ وتُنسَى... فَليأتِ اللَّيلُ، فَلْيَجِنَّ، ويهبط على كلِّ الأشياء ولا ينتهي أبداً. فَلْتَكُنْ هذي الرُّوحُ قبريَ الأبديَّ، وَ... لْتَكُنِ العتمةُ مُطلَقةً، فلا أعيشُ أكثرَ أَبداً ولا أشعر أو أُريدُ...

106

[1915؟]

والأقحوانُ يُبدِّدُ حيواته المُتعبة في حدائق تجهَّمتْ لوجوده.

... للرَّفاهيَّة اليابانيَّة بُعدان واضحان، فحسب.

... الوجودُ المُلوَّن الذي يُغلِّفُ شفافية الأشكال اليابانيَّة على الأكواب.

... طاولةٌ أُعدَّتْ لاحتساء الشَّاي خلسةً -مجرَّد ذريعة لأحاديث عقيمة تماماً- بَدَتْ لي دائماً أنَّها تمتلك شيئاً كوجودها نَفسه، فَرْدَانيَّتِها العاطفيَّة. إنَّها تُشكِّل كُلاً مصطنعاً، كأيِّ كائن حيٍّ آخر، ولكنَّها ليستْ النَّاتجَ الصِّرفَ للأجزاء (التي تُكوِّنها).

107

[1915؟]

يبدو لي أن أكون رائداً[96] متقاعداً حالةٌ مثاليَّة. فيا لعارِ ألَّا أكون دائماً رائداً متقاعداً.

تركني العطشُ، كي يكتملَ، في حالةٍ من الألم العقيم.

عبثُ الحياة المأسويُّ.

فضولي[97]، شقيقُ القُبَّرات.

قَلقُ المَغيباتِ الغدَّارُ، أكفانُ الفجرِ[98] الخجولةُ.

فَلْنَجلِس هُنَا، حيثُ نستطيع رؤية المزيد من السَّماء. المدى الشَّاسعُ لهذه المرتفعات المرصَّعة بالنُّجوم يُواسي المرءَ، أيّما مواساةٍ. تُوجِعُ الحياةُ أقلَّ حين نرى ذلك المدى؛ إنَّهُ يداعبُ خدودَنا الحارَّةَ بالحياةِ بالنَّسيم الباردِ الذي يهبُّ من مروحةٍ خفيفة.

108

[1915؟]

ينتابني إحساسٌ بعدم وجود ظروف ماديَّة مؤاتية لتلك المخلوقات التي على شاكلتي، ولا مواقف ستؤول نهاياتُها إلى خير. وهذا الإحساس كافٍ لِأنأى بنَفْسي عن الحياة؛ ولكنَّه يدفعني، في الواقع، إلى أن أنأى بنَفْسي أكثر. فقائمة الإنجازات التي تجعل النَّجاح محتوماً، بالنِّسبة إلى البشر العاديِّين، قد أدَّتْ، حين طُبِّقتْ عليَّ، إلى نتيجة مختلفة تماماً، وغير متوقَّعة، وعكسيَّة.

ويخامرني في بعض الأحيان الانطباعُ المؤلم بأنَّني ضحيَّة عداوةٍ إلهيَّة. يبدو لي أنَّ التَّفسير الوحيد لسلسلة الكوارث التي تُعرِّفُ حياتي، هو أنَّ شخصاً يتلاعب شُعورياً بالأشياء كي

---

(96) رتبة عسكريَّة. (المترجم)

(97) كلمة فضول (curiosidade) في البرتغالية، مؤنَّثة. وبما أنَّها مذكَّرة في العربيَّة فقد استخدمت لفظة «شقيق» بدلًا من «شقيقة» المستخدمة في الأصل. (المترجم)

(98) بصيغة الجمع في الأصل (في الصَّنعة الإنكليزيَّة: dawns، وفي البرتغاليَّة: auroras). وحيث لا توجد صيغة، كهذه، في العربيَّة، استخدمتها بصيغة المفرد. (المترجم)

يُحوِّل أيَّ إنجاز إلى شيء خبيث.
ونتيجة هذا كُلِّه أنَّني لا أحاول جاهداً البتَّة. فَلْيَأتِ البَختُ[99]، إنْ شاءَ، ويعثر عليَّ. أعرفُ، حقَّ المعرفة، أنَّ جهوديَ العظمى لن تحظى أبداً بالنَّجاح الذي يهنأُ به الآخرون. ولهذا أَسلمتُ نَفْسيَ للبختِ دون أن أتوقَّع منه شيئاً. ولِمَ أتوقَّعُ؟

رِوَاقِيَّتي ضرورةٌ عضويَّةٌ. أحتاجُ إلى تدريع نَفْسي ضدَّ الحياة. وبما أنَّ الرِّواقيَّة ليستْ في الواقع إلَّا شكلاً من الأبيقوريَّة، شديدَ القسوة، فإنَّني أُريدُ، قَدْرَ استطاعتي، الاستمتاعَ بِسُوء بختي. ولستُ متأكِّداً إلى أيِّ مدىً سوف أُحقِّق ذلك. ولستُ متأكِّداً إلى أيِّ مدىً سوف أُحقِّق أيَّ شيء. ولا أعرفُ إلى أيِّ مدىً يستطيعُ المرءُ أن يُحقِّق أيَّ شيء...

وطالما أنَّ المرء يفوزُ، ليس بفضل جهوده، وإنَّما لأنَّ فوزه حتميٌّ، فإنَّني لم أَفُزْ بشيءٍ قَطُّ ولن أفوزَ أبداً، مهما بذلتُ من جهدٍ أو كان ذلك محتوماً.

لعلَّ روحيَ قد وُلدتْ في يوم شتاء قصيرٍ قصير. هبطَ اللَّيلُ مُبكِّراً فوق وجودي. لن أستطيع أن أعيشَ حياتي إلَّا بالإحباط والعزلة.

ولا شيءَ رواقياً من هذا كُلِّهِ في قرارة نَفْسي. فلا تكون معاناتي نبيلةً إلَّا حين أصوغُها بالكلمات، وإلَّا سوفَ أَئِنُّ وأتأوَّهُ كطفل مريض. أهتاجُ وأقلقُ مثل ربَّةِ بيتٍ. حياتي عقيمةٌ بأسرها وحزينة جمعاءُ.

109

[1915؟]

تربية وجدانيَّة

تحدثُ أوَّل خطوة لمن يجعل من أحلامه حياتَهُ، ويجعل من نباتات دفيئةٍ مشاعره ديانةً وسياسة -تلك الخطوة التي تخبره في أعماق روحه بأنَّه قد اتَّخذها حقاً- حين يبدأ في الاستجابة إلى الأشياء المتناهية في الصِّغر بطريقة استثنائيَّة وغير مبالَغ فيها. تلك هي الخطوة الأولى، ولا شيءَ أكثر. أن يعرف كيف يحتسي كوباً من الشَّاي من دون الشهوانيَّة المفرطة التي يجدها الإنسان العاديُّ في المسرَّات العظيمة التي تنجم عن تحقُّق فجائيٍّ لطموحٍ أو

(99) اللفظة مؤنَّثة في الأصل (في الصنعة الإنگليزيَّة Fortune؛ وفي البرتغاليَّة: Sorte). (المترجم)

خفوتٍ غير مُتوقَّع لتوق عارم، أو في المطارحة الغراميَّة الشهوانيَّة الأخيرة؛ أن يكون قادراً على العثور، في تأمُّل غروب شمسٍ أو تفصيلةِ زينةٍ، على تلك الاستثارة العارمة التي تُوجَد عموماً، ليس فيما يراه المرء أو يسمعه، وإنَّما فيما يشمُّه أو يذوقه، دُنُوُّ الشَّيء الحسيِّ الذي لا تستطيع إلَّا الحواسُّ الأشدُّ شهوانيَّةً -اللَّمس، والتذوُّق، والشمُّ- أن تطبعه في اللَّاشعور؛ أن يكون قادراً على جعل عينه الجوَّانيَّة أو أُذُنِ حُلمه -قُصارَى القول، جميع الحواسِّ المُتخيَّلة أو حواسِّ المُخيِّلة- مُتقبِّلةً ومحسوسةً على شاكلة الحواسِّ التي تتحوَّل طبيعيّاً إلى الخارج: فَمِن بين جميع الأحاسيس المثيرة المدهشة التي يستطيع تحقيقَها الحارثُ[100] الحسيُّ الخبير، أختارُ الأخيرة -وثمَّة حواسُّ مماثلة أخرى واضحة- كي أُعطي فكرةً تقريبيَّةً وملموسة عمَّا أحاول قوله، ليس إلَّا.

ولكنَّ الوصول إلى هذه الدَّرجة من الخبرة يفرضُ على عاشق الأحاسيس المثيرة الوطأةَ الجسديَّةَ المُماثلةَ أو عبءَ الأحزان الجوَّانيَّة والخارجية التي لا بُدَّ أن تؤثِّر، وبالشِّدَّة العقليَّة ذاتها، في تركيزه. وما يُحفِّز الحالم، لاتِّخاذ الخطوة الثَّانية في عُرُوجهِ إلى نَفْسه، إدراكُ أنَّ فَيْضَ الأحاسيس، الذي يستطيع استثارة فيض في اللَّذَّة، يمكن أن يتسبَّب أيضاً في بدء فترة مديدة من الألم. أُنحِّي جانباً الخطوةَ التي قد يكون قادراً على اتِّخاذها أو لا يكون؛ الخطوة التي، استناداً إلى كونه يستطيع اتِّخاذها أو لا يستطيعُ، سوف تُحدِّدُ سلوكَه، مِشيته إنْ شئتم، في الخطوات التي يمضي حينئذ في اتِّخاذها، استناداً إلى كونه يستطيع عزل نَفسه تماماً عن الحياة الواقعيَّة أو لا يستطيع (إنْ كان غنياً، بالطَّبع، أو غير ذلك). أعتقد أنَّ ذلك واضحٌ، من خلال القراءة بين سطور ما أقوله، اعتماداً على الدَّرجة التي يستطيع فيها الحالم أن يعزل نَفْسه، مُنكباً عليها، فلا بُدَّ أن يُركِّز تماماً، وقد استبدَّ به قلق شديد، على شحذ حساسيَّته تجاه الأشياء والأحلام، والعمل على إيقاظها. فلا بُدَّ لمن يتوجَّب عليه العيش بين البشر أن يقابلهم بهمَّةٍ في كلِّ يوم -ويمكن للمرء حقاً أن يقلِّص حميميَّته مع الآخرين إلى حدِّها الأدنى (فالحميميَّةُ، وليس مجرَّد الاتِّصال بالنَّاس، هي التي تجلب الضَّرر الأكبر)- لا بُدَّ أن يُحوِّل مظهرَه الاجتماعيَّ الخارجي إلى جليدٍ حتَّى تنزلق كلُّ لفتةٍ أخويَّة أو اجتماعيَّة عن هذا

(100) ذلك الذي يحرث الجسد والرُّوح معاً، فيقلبهما رأساً على عقب، ليزرع فيهما أحاسيس جديدة لا يمكن أن تتحقق للإنسان العاديِّ، وإنَّما للخبير المُجرِّب الذي يعرف، حقَّ المعرفة، كُنْه الجسد وجوهر الرُّوح. (المترجم).

المظهر، فلا تنفذ إليه أو تطبع نَفْسها عليه. يبدو هذا الأمر مُتطلّباً جداً، ولكنّه ليس كذلك حقاً. فمن السَّهل كفايةً إبعادُ الآخرين، فالأمر منوطٌ بقدرة المرء على إبعاد نَفْسه، ليس إلّا.

ولكنّني سأُهمل الخوض في هذ الحديث الآن وأعود إلى ما كنت أقوله.

على الرَّغم من أنَّ إسباغَ شدَّةٍ وتعقيد، في الحال واللَّحظة، على أبسط الأحاسيس المثيرة، وأكثرها حتميَّةً، يُصعِّدُ لذَّةَ الشُّعور إلى حدٍّ كبير، فإنَّهُ يستطيع كذلك تصعيدَ المعاناة النَّاجمة عن الشُّعور إلى حدٍّ يفوق الوصف. ولهذا، فإنَّ الخطوة الثَّانية، التي يتوجَّب على الحالم اتِّخاذَها، تجنُّب المعاناة. ولا ينبغي عليه تجنُّبها مثلما قد يفعل الرِّواقيُّ أو الأپيقوريُّ، بِإقلاق نَفْسه طريقاً لجعلها منيعةً صلدةً ضدَّ اللَّذَّة والألم. لا بُدَّ له، على النَّقيض، من محاولة العثور على اللَّذَّة في الألم، أياً كانت تلك اللَّذة، فثمَّة طرائقُ مختلفة يستطيع من خلالها تحقيق ذلك. الأولى؛ أن يُجري تحليلاً مُفصَّلاً للألم، فالحالمُ، بعد أن كان قد درَّب نَفْسه في البَدْء على كلِّ ما يختصُّ باللَّذَّة، لا يُحلِّلُ وإنَّما يشعر فحسب، وهذا أسهل -بالنِّسبة إلى الحالم الأكثر خبرة- أكثر ممَّا قد يبدو. فتحليل الألم والتَّعوُّد على الاستسلام له كلَّما تجلَّى، حتَّى يصل الحالمُ إلى الطَّوْر الذي يحدث فيه ذلك غريزياً ودون تفكير، فتنضافُ إلى الألمِ لذَّةُ التَّحليل. ولسوف يعمل هذا التَّمرين، بتعظيم قُدرات الحالم التَّحليليَّة وغرائزه وجعلها مثاليَّةً، على امتصاص الألم، فلا تبقى منه إلَّا مادَّة غامضة غير محدودة لتحليلها.

وثمَّة طريقة أبرع وأصعب تكمن في أن يُعوِّد المرء نَفْسه على أن يُجلِّي ألَمَهُ في هيئة صورة متخيَّلة، أن يخلق «أنا» أخرى تتنكَّب عبءَ معاناتنا، فتعاني ما نعاني. والمرحلة التَّالية أنْ يخلق سَاديَّةً جوَّانيَّةً، مازوشيَّةً تماماً، فيلتذَّ بمعاناته كما لو أنَّها معاناة شخص آخر. وهذه الطَّريقة التي تبدو مستحيلةً للوهلة الأولى ليست سهلةً، ولكنْ يتوجَّب ألَّا تكون صعبةً بالنِّسبة إلى أولئك الذين جاهدوا ليكونوا خبراء في خلق الحياة الجوَّانيَّة. إنَّها، في الحقيقة، قابلة للتحقُّق بجدارة لافتة للنَّظر، وحين تتحقَّق، يأخذ الألمُ والمعاناة طعمَ الدَّم والمرض، والمذاقَ الغريب للذَّةٍ بعيدة ومُنحطَّة[101]! للألمِ قوَّةُ الرَّعشةِ المُقلِقةُ، الماحقة. أمَّا المعاناة -النَّوع البطيءُ، المديد- فتأخذُ مِسحةَ الأصفر الحميم للرِّضا الغامض الذي يعقب نقاهةً

---

(101) الانحطاط، هُنا، بمعنى decadence وفي النَّص البرتغاليّ: (decadente)، وهو يشير عند بِسُوَّا إلى اللَّذَّة التي خبا أُوارها. (المترجم)

طال الشَّوق إليها، ثُمَّ تدنو لمسةٌ مبتذلة من قلق وحزن لِتُضارعَ الاضطِّراب[102] المُعقَّد الذي ينجم عن التَّفكير في الطَّبيعة العابرة، سريعة الزَّوال، للملذَّات جميعاً، وفي التَّعب القَبْليِّ الذي يُولَد من التَّفكير في التَّعب الذي لا بُدَّ أن تجلبه الملذَّات المستقبليَّة جميعاً.

وثمَّة طريقة ثالثة لتحويل الآلام إلى لذائذ والشُّكوك والقلَق[103] إلى سرير وثير، أقصدُ منحَ القلق والمعاناة[104] درجةً من الاهتمام، مثيرةً للغيظ، شِدَّةً يجلبُ فَيْضُها لذَّةَ الفَيْض؛ على شاكلة الذي كرَّس نَفْسه ونذرَها، بالعادة والتدرُّب، للَّذَّة، وعنفِ اللَّذَّة المُطلَق الذي يُوجِعُ، في بعض الأحيان، حتَّى إنَّ طعمَهُ دَمٌ. وحينَ تُستخدَم هذي الطُّرُق الثَّلاث متزامنةً، كما في حالتي -بوصفي الذي يُنقِّي التَّصفيات الباطلة، والمهندسَ الذي يُعمِّرُ نَفْسه بالأحاسيس المثيرة التي تنخَّلتْ ناعمةً بالبصيرة والتَّخلِّي والتَّحليل والألم في حدِّ ذاته- فَيُحلِّلُ الحزن الفجائيُّ، الذي لا يترك وقتاً لإيجاد استراتيجيَّة جوَّانيَّة، حتَّى الموت، في التَّوِّ واللَّحظة، مقذوفاً بلا رحمة في «أنا» برَّانيَّةٍ، مدفوناً حتَّى أقصى درجات الحُزن، أشعرُ حقاً بأنَّ نَفْسي هي المنتصرة البطلة. ويحدث هذا حين تتوقَّف الحياةُ، وتُلقِي الصَّنعةُ الفنيَّة نَفْسها عند قدميَّ.

وليست هذه إلَّا الخطوة الثَّانية التي يتوجَّب على الحالم أن يتَّخذها كي يخلق حُلمه.

ولكنْ، مَن إلَّايَ قَدِ اتَّخذَ الخطوة الثَّالثة، التي تُفضي مباشرة إلى عتبة المَعبد الباذخة؟ إنَّها الخطوة الأصعب، فهي تتطلَّبُ جهداً جُوَّانياً أعظم من أيِّ جهد جسديٍّ قد يبذله المرء، ولكنَّه يكافئُ الرُّوح بطريقة تعجز عنها الحياة. فحين تأتي الأشياء جميعاً، على نحو مثاليٍّ، بعضُها مع بعض، وقد استُخدمتِ الطُّرُق البارعة الثَّلاثُ حتَّى فَنِيَتْ، تُمرِّرُ هذه الخطوة الإحساسَ المثير عبر البصيرة الخالصة مباشرة، فتنخله بالتَّحليل الأعلى، مانحةً إيَّاه شكلاً صافياً تُمِدُّه بالحجم والهيئة. هكذا أمنح الإحساس المثير وجوداً سرمداً. وهكذا أجعلُ الخياليَّ حقيقةً، وأُمِدُّ بعيدَ المنال بقاعدة أبديَّة. ثُمَّ كنتُ، في قرارة نَفْسي، الإمبراطور المتوَّج.

---

(102) لا بُدَّ، هنا، من التَّفريق بين لفظتَيْ «desassocego و inquietação» (في صنعة جول كوستا الإنكليزية، هذه: disquiet و unease) اللَّتيْن يستخدمها بِسُوَّا، في هذه الشَّذرة، للإشارة إلى القلَق؛ فالأولى تدلُّ على القلَق بمعناه الوجوديّ؛ في حين تُشير الثَّانية إلى القلَق الآنيّ، الناجم عن حادثة معيَّنة أو متعلِّق بوجودها. ولذا، فقد استخدمتُ لفظة «الاضطِّراب» مقابلاً للثَّانية؛ لأنَّها، في أصل استخدامها عند بِسُوَّا، حالة قلَق تقترب من الكآبة، ولكنَّها تزول بزوال الباعث، وليست كحالة القلق الوجوديَّة الأولى الدَّائمة التي لا تزول إلَّا بالموت. (المترجم)

(103) ترد كلمة القلَق، هُنَا، بصيغة الجمع. (المترجم)

(104) ترد كلمة المعاناة، هُنَا، بصيغة الجمع. (المترجم)

أرجو ألَّا تظنُّوا بأنِّي أكتبُ كي أنشر، أو لأجل الكتابة أو صناعة الفنِّ فحسب. أكتبُ كغايةٍ في حدِّ ذاتها، التَّصفية الأسمى، التَّصفية المزاجيَّة غير المنطقيَّة، لتهذيب أحوال الرُّوح. فلو اخترتُ أحد أحاسيسي المثيرة، ثمَّ اختبرته إلى الدَّرجة التي أستطيع فيها أن أنسج منه حقيقةً جوَّانيَّةً، أُسمِّيها إمَّا «غابة الاغتراب»[105] وإمَّا «الرِّحلة التي لم تكُنْ قطُّ»[106]، فصدِّقوني، أنا أفعل ذلك كي لا يبدو نثري صافياً، مُرتعشاً، أو حتَّى لأنَّ النَّثر يُمتعني -حتَّى لو رغبت في هذا الشَّيء بوصفه تصفيةً أسمى، كستارة جميلة تُسدَل على السِّيناريوهات التي حلمتُ بها- وإنَّما ليمنح برَّانيَّةً كُليَّةً لما هُوَ جُوَّانيٌّ، حتَّى أُدرك الذي يُدرَك، وأن أجمعَ التَّناقضات بعضَها إلى بعضٍ، ثُمَّ لَمَّا أجعلُ الحُلم برَّانياً، مانحاً إيَّاه قُدرةً قصوى كحلم صافٍ، في الدَّور الذي أُأَدِّيه بوصفي الذي يجعل الحياة راكدةً، ونحَّاتَ الأغلاط، والسَّاعي العليل الذي ينقل الرَّسائل إلى روحي المَلِكة، قارئاً لها في ساعات الشَّفق، ليسَ القصائد التي في هذا الكتاب، المفتوح في حضن حياتي، وإنَّما القصائد التي أنظمها وأتظاهر بأنِّي أقرأها، وتتظاهر بأنَّها تسمعها، في حين يقبع المساءُ، بعضَ الشَّيء، في مكان ما -في هذه الاستعارة المُثارَة داخل الواقع المُطلَق- يُخفِّفُ الضَّوْءَ الرَّفيع المتلاشي على مهلِهِ ليومٍ روحانيٍّ غامض.

110

[1915؟]

عذوبة ألَّا يكون لدينا عائلة أو أصحاب، والمتعة الرَّقيقة التي تشبه متعة المنفى، التي نشعر فيها بكبرياء الظلِّ البعيد، بشهوانيَّةٍ متردِّدة، وقلَق غامض ينجم عن كوننا بعيدين عن الوطن - نعم، أَستمتع بطريقتي المُبالية بهذا كُلِّه. وإنَّ إحدى سمات نظرتي العقليَّة وجوبُ ألَّا تُفرِط في انتباهك؛ فحتَّى الحُلم يتوجَّب معاملته بإيجاز، بوعي أرستقراطيٍّ أنَّ الحُلم يدين بوجوده إليك. فمنح الحُلم أهميَّةً بالغة سوف يُفضي، في نهايةِ المطاف، إلى منح أهميَّة بالغة لشيء قد انشقَّ عنَّا فحسب، كي يجد، بقَدْر ما يستطيع، مكاناً لنَفْسه في الواقع، ففقدَ حقَّه المُطلَق في أن نعامله برقَّة.

---

(105) أُنظر المقطع 36: «في غابة الاغتراب». (المترجم)

(106) أُنظر المقطع 26: «رحلة لم تكُن قطُّ»، والمقطع 43: «الرِّحلة التي لم تكُن قطُّ». (المترجم)

للأجسام المُتخيَّلة جوهر وحقيقة أكثر من الأجسام الحَقَّة.

فلطالما كان عالمي المتخيَّلُ العالَمَ الحَقَّ الوحيد بالنِّسبة إليَّ. فلم أَذُقِ قَطُّ صباباتٍ حَقَّةً، خالصةً، طافحةً بالدَّم والشَّغف والحياة، مثلما ذقتُ رفقةَ الشَّخوص التي خلقتها بِنَفْسي. فيا للعار! إنَّني أفتقدها جميعاً، فهي، أيضاً، ككلِّ الصَّباباتِ، تنصرمُ...

111

[1915؟]

أحياناً، في المساءات الرَّائعة لمخيِّلتي، في حواراتي مع نَفْسي، في مجادلات الشَّفق المُتعَبة في صالونات مُتخيَّلة، في أثناء الفواصل الزَّمنيَّة في المحادثة حين أُترَك وحيداً مع أحد المحاورين أكثر من غيره، أتساءلُ لماذا لَمْ يُوسِّع عصرنا العلميُّ إصرارَهُ على الفَهْم ليشملَ المُصطَنع. وأحد الأسئلة التي لا أكفُّ عن طرحها، وقد أضناني الكسل، لماذا لا يُوجَد، إلى جانب علم النَّفْس العادي المتعلِّق بالبشر وما دونَهُم، علمُ نَفْس -مثلما يتوجَّب أن يكون- يختصُّ بتلك الأجسام والمخلوقات الاصطناعيَّة التي لا توجَد إلَّا في السَّجاجيد والرُّسومات. فَمَن يقصر نَفْسه على العضويِّ، ولا يقبل فكرة أنَّ للتَّماثيل ونُجُودِ البيوت[107] أرواحاً، فلا بُدَّ أن تكون لديه فكرة قاتمة، شديدة القتامة، عن الواقع. فحيثما يُوجَد شكلٌ تُوجَد روحُ.

هذه ليست مجرَّد أفكار عقيمة، وإنَّما دراسة علميَّة كغيرها من الدراسات. ولهذا -وقبل أن يتفتَّق الذِّهن عن إجابةٍ، لستُ أملكها- أتخيَّلُ المُمكنَ ثُمَّ أُسلِمُ نَفْسي، في تحليلات جُوَّانيَّة، إلى الرُّؤية المُتخيَّلة للمظاهر المُحتمَلة لذلك الشَّيء الذي أبتغي وجودَه لو كان حقيقةً واقعة. ولا أكادُ أُقلِّبُ المسألةَ، في داخل الرُّؤية الدَّائرة في عقلي، إلَّا وأرى العلماءَ مُنحنين على الرُّسومات، مدركين أنَّهم يُنعمون النَّظر في حيواتٍ؛ والمَجهريِّينَ يفحصون نسيج السَّجاجيد الخشن؛ والفيزيائيِّينَ يحلِّلون زخارفها العريضة المُلتفَّة؛ والكيميائيِّينَ ينسبون أفكاراً إلى أشكال الرُّسومات وألوانها؛ والجيولوجيِّينَ يدرسون طبقات النُّقوش؛ وعلماءَ النَّفْس -وهنا تكمن الأهميَّة القصوى- يلاحظون ويجمعون، واحداً فواحداً، الأحاسيسَ التي يتوجَّب على التِّمثال أن يشعر بها، والأفكارَ التي ينبغي أن تخطر في قرارة

---

(107) نُجود البيوت: السُّتُور التي تُعلَّقُ على الجدران للزِّينة، والتي تكون موشَّاة بالرُّسوم والزَّخارف، إلخ. (المترجم)

النَّفْس[108] المُلوَّنة لجسم في لوحةٍ أو نافذة من زجاج مُعشَّقٍ، والنَّزوات المجنونة، والهُيامات الجامحة، والتَّعاطُفات والاشمئزازات العارضة، والثَّبات الفضوليَّ والموت في الإيماءات الأبديَّة للنُّقوش الغائرة والحركات المحجوبة للأجسام الموجودة على أقمشة الرُّسومات.

الأدب والموسيقى أكثر انفتاحاً من الفنون الأخرى في تأمُّل لطائف علماء النَّفْس ودقائق ملحوظاتهم. فالشُّخوص في روايةٍ هي -كما نعلم جميعاً- شخوص حقيقيَّة كأيٍّ واحد منَّا. وثمَّة أصواتٌ معيَّنة تمتلكُ روحاً مُجنَّحة، رشيقة، أكثر عُرضة لعلم النَّفْس وعلم الاجتماع. فثمَّةَ مجتمعات بأكملها -مثلما يتوجَّب أن يُعلَم الجُهلاء- موجودةٌ في داخل الألوان، والأصوات، والعِبارات، وثمَّة أنظمةٌ وثورات، وممالك، وسياسات و[...] -حرفياً لا مجازياً- في الكُلِّ الرِّياضيِّ للسِّمفونيَّات، وفي الكُلِّ المُنظَّم للرِّوايات، وفي الأمتار المُربَّعة لرسمةٍ مُعقَّدة، حيث تمتزجُ اللَّذَّة والألم في الوضعيَّات الملوَّنة للمحاربين، أو العشَّاق، أو الأجسام الرَّمزيَّة.

فحين يُكسَر أحدُ أكواب مجموعتي اليابانيَّة، أحلمُ بأنَّ مَردَّ ذلك ليس عائداً إلى يدي الخادمة الخرقاوَيْن، وإنَّما إلى رغبات أجسام من يسكنُ الجانبَ المُتَأَوِّدَ من الكوب؛ العزيمة المتجهِّمة الانتحاريَّة، التي سيطرتْ عليهم، لا تُفزعني على الأقلِّ، فلقد استخدموا الخادمة، حيث قد نستخدم مسدَّساً دوَّاراً. وإنَّ معرفة ذلك (مثلما أفعل) هو أن يذهب المرء أبعدَ من علوم وقتنا الرَّاهن.

112

[1915؟]

أَغبطُ كلَّ امرئٍ على حقيقةِ أنَّهُ ليس أنا. طالما بدا هذا المستحيلُ، مِن بين المستحيلات جميعاً، أنَّه الأعظمُ، فلقد شكَّل الجزء الأعظم من جرعتي اليوميَّة من الكَرْب، واليأس الذي ملأ كلَّ ساعة حزينة.

---

(108) النَّفْس، هنا، بمعنى psyche (في البرتغاليَّة: psychismo) المأخوذة عن اليونانيَّة، التي تجمع عدَّة معان دفعة واحدة: النَّفْس، وقرارة النَّفْس، والرُّوح، والعقل. (المترجم)

شعاعُ شمسٍ باهتٌ ومرعب قد سفعَ الإحساس الجسديَّ المثير للرُّؤية. وحَرٌّ أصفرُ قد ركد في لون الأشجار الأخضرَ المُعتمِ. سباتٌ [...]

113

[1915؟]

يومٌ ماطر

الهواءُ أصفرُ محتجبٌ، كأصفرَ شاحب يُرَى عَبْرَ أبيضَ قَذِرٍ. بَيْدَ أنْ لا أصفرَ، على الرَّغم من ذلكَ، في الهواء الرَّماديِّ، أو يكادُ. ولكنَّ الرَّماديَّ الشَّاحبَ يضمُّ، على أيِّ حالٍ، مِسحةً من أصفرَ قد تخيَّلناهُ.

114

[1915؟]

الانتشاءُ الخفيفُ جرَّاءَ حُمَّى خفيفةٍ، حين يملأُ عظامَنا كَدَرٌ خفيفٌ وبردٌ قارس، فتلتهبُ أعينُنا وأصداغُنا تنسحقُ - أُحبُّ ذلك الكَدَرَ كما يُحبُّ العبدُ طاغيةً محبوباً. اِمنحني تلك الحالةَ المرتعشة، الخَرِبَة، من الخمول الذي ألمحُ فيه الرُّؤى، وأُقلِّبُ زوايا الأفكار، فأشعر نَفْسي، بين المشاعر المتلاطمة، وقد صارتْ أشلاءً.

يغدو التَّفكير، والشُّعور، والرَّغبة شيئاً واحداً تصيبه الحيرةُ. تختلطُ المعتقدات، والمشاعر، والمُتخيَّل، كالمحتويات الفوضويَّة لعدَّة أدراج أُفرغَتْ على الأرض.

115

[1915؟]

نصيحة إلى المتزوِّجات التَّعيسات

تَشمَلُ المتزوِّجاتُ التَّعيسات جميعَ المتزوِّجات وبعضَ العوانس.

حرِّرنَ أنفسَكُنَّ، فوقَ كلِّ شيء، من تعزيز أيِّ مشاعرَ إنسانويَّة. فالإنسانويَّةُ مبتذَلة.

أكتبُ ببرود وعقلانيَّة، فلستُ أُفكِّرُ إلَّا في سعادتكنَّ، أيَّتها المتزوِّجات التَّعيسات المسكينات.

يكمن الفنُّ كلُّهُ والحرِّيَّةُ كلُّها في إخضاع العقل بأقلِّ قَدْر ممكن، تاركاتٍ الجسدَ يخضعُ بِقَدْر ما يختارُ.

فلا جدوى في أن تكوني فاسقة، فذلك ينتقص من قَدْرِ شخصيَّتك ويُتفِّهها في عيون الآخرين. كوني فاسقةً في نَفْسك، ما دُمتِ تُحيطينَها باحترام غير منقوص. كوني بَتُوليَّةً جسدياً وزوجةً مخلصة وأُماً متفانية، على الرَّغم من انغماسك في بعض الفجور، العصيِّ على التَّفسير، مع الرِّجال الذين في الحيِّ جميعاً، من البقَّالين إلى [...] – وهذا هُوَ المقصد الحَقُّ لِمَن تُريد حقيقةً الاستمتاعَ بفردانيَّتها وتوسيع حدودها، دونَ الانحطاط إلى أساليب الخادمات، التي لا بُدَّ أنَّها وضيعة، أو الوقوع في الصِّدق الصَّارم للمرأة الغبيَّة، الذي لا جَرَمَ أنَّهُ ثمرة الحرص على المنفعة الشخصيَّة، ليس إلَّا.

ولأنكنَّ متفوِّقات، أيَّتها الأرواح الأنثويَّة، فسوف تَفهمن ما أقولُ. فكلُّ اللَّذَّات تأتي من الدِّماغ؛ وكلُّ الجرائم تُقتَرَف، مثلما يقولون، في أحلامنا. أتذكَّرُ جريمة جميلة لم تحدث البتَّة. وحدها الجرائم التي لا نستطيع تذكُّرها هي الجميلة. فهل اقترف **بُورجا** جرائم جميلة. كلَّا. لقد كان حلمنا عن بورجا، فكرتُنا عنه هي التي اقترفت الجرائم الملكيَّة، الفاتنة، الباهرة. أنا على يقين بأنَّ تشِيزَرِهْ بُورجا الحقيقيَّ كان رجلاً غبيّاً ومبتذَلاً؛ ولا بُدَّ أنَّه كان كذلك حقاً، فوجود المرء في حدِّ ذاته شيءٌ غبيٌّ دائماً ومبتذَل.[٧]

أُسدي هذه النَّصيحة لا مُبالياً، مُطبِّقاً منهجي على حالة لا تهمُّني على الإطلاق. فأحلامي جميعاً، بالنِّسبة إليَّ شخصياً، إمبراطوريَّةٌ ومجدٌ، وليستْ حِسيَّةً البتَّة. ولكنِّي أودُّ أن أكون مُفيداً، حتَّى وإن لم أذهب أبعدَ من ذلك، لأزعجَ نَفْسي فحسب، لأنَّني أمقتُ المُفيد. فأنا، في جِبِلَّتي، أُوثِرُ الآخرين على نَفْسي.

116

[1915؟]

ثمَّة كائنات تعاني، أشدَّ المعاناة، لأنها لم تقابل السيِّد پِكْوِك في الحياة الواقعيَّة قطُّ، ولم تصافح السيِّد وُرْدِل البتَّة[109]. وأنا واحدٌ منها، فلقد ذرفتُ دموعاً حقيقيَّة على تلك الرِّواية،

(109) پِكْوِك Pickwick ووُردل Wardle شخصيَّان في رواية تشارلز ديكنز الأولى [...]

لأنّني لم أعرف ذَيْنِكَ الشَّخصَين، ذَيْنِكَ الشَّخصَيْن الحقيقَيْن، ولم أقابلهما بتاتاً.

الكوارث في الرِّوايات جميلة دائماً فلا دمَ حقيقياً يُسفَح فيها، ولا تبلى أجساد الموتى أيضاً؛ ففي الرِّوايات، لا يبلى حتَّى البِلَى نَفْسُه.

فحين يكون السيِّد بِكْوِك سخيفاً، فإنَّه لا يكون سخيفاً لأنَّه سخيف في روايةٍ فحسب. ربَّما الرِّوايةُ حقيقة واقعة أكثر اكتمالاً، حياة أكثر كمالاً من التي خلقها الإله من خلالنا، وبأنَّنا ربَّما -من يعرف؟- لا نُوجَد إلَّا لنَخلق. فالحضارة لا تظهر إلى الوجود إلَّا لتصنع الفنَّ والأدب، لأنَّ الذي يُعبِّر عنهما، والذي يتبقَّى منهما، هو الكلمات. فلماذا يتوجَّب على تلك الأجسام المفرطة في إنسانيَّتها أن تكون حقيقيَّةً حَقاً؟ تُعذِّبني فكرة أنَّ هذا قد يكون حقيقياً.

117

[1915؟]

ولكي أُسلِّي نفسي، في أكثر الأحيان -فلا شيءَ يُسلِّي أكثر من العلوم أو أشباه العلوم حين تُستخدم على نحوٍ عبثيٍّ- أضعُ دراسةً دقيقة عن نَفْسي مثلما يراها الآخرون. المُتعة، التي تجلبها هذه الحيلةُ البارعة، حزينة في بعض الأحيان، ومؤلمة في أحايين أُخَر.

أحاول دراسة الانطباع العموميِّ الذي أتركه لدى الآخرين، ثُمَّ أستخلصُ النتَّائج. فأنا، بوجه العموم، شخصٌ يحبُّه النَّاس، حتَّى إنَّه يفرض احتراماً غامضاً ومثيراً للفضول. ولكنَّني لا أجنحُ إلى إثارة أيِّ مشاعر قويَّة. فلا أحدَ سيكون صديقي المخلص. ولهذا يستطيع كثير من النَّاس احترامي.

118

[1915؟] [110]

لا نستطيعُ، في هذا العصر البربريِّ المعدنيِّ الذي نعيش فيه منعَ شخصيَّتنا من التَّبدُّدِ

(110) من الملاحظ، هنا، أنَّ جول كوستا قد أغفلت الإشارة (خلافاً لطبعة بِيسارُّو البرتغالية التي اعتمدت عليها في صنعتها الإنكليزية، هذه) إلى أنَّ بِسُوَّا قد دوَّن في نهاية القصاصة، التي خطَّ عليها هذا المقطع، عنواناً منفصلاً من المفترض

عَدَماً أو أن تغدو شيئاً طبقَ الأصل عن الآخرين، إلَّا بتعزيز قدراتنا على الحلم والتَّحليل والجَذْب بمنهجيَّةٍ وعلى نحو مهووس.

ولا تكمن حقيقة أحاسيسنا المثيرة هذه، إنْ كان ثمَّةَ أحاسيس، إلَّا في غَيْرِيَّتِهَا على وجه الضَّبط، فالحقيقة تتكوَّن من المألوف والمُشترَك. ولهذا لا نُوجَد أفراداً، إلَّا في الجزء المُختلَق من أحاسيسنا المثيرة. كم ستغمرني المسرَّةُ حين أكتشف ذات يوم أنَّ الشَّمس كانت قرمزيَّة! ستكونُ تلك الشَّمس لي، لي أنا وحدي!

119

[1915؟]

... ثُمَّ ازدراءٌ عميق ومُبتذَل تجاهَ أولئك الذين يعملون من أجل البشريَّة، أولئك الذين يقاتلون من أجل أوطانهم مُضحِّينَ بحيواتهم كي تستمرَّ الحضارة...

... ازدراءٌ طافح بالقرف تجاهَ أولئك الذين لا يعرفون أنَّ الحقيقة الوحيدة لكلٍّ واحد منَّا هي روحُنا الخاصَّة فحسب، وأنَّ كلَّ شيء آخر - العالَم الخارجيَّ والنَّاسَ الآخرين- كابوسٌ غير جَماليٍّ، يشبه الذي ينجم عن أحلام نَوبةٍ من عُسر الهضم العقليِّ.

يكادُ نُفوري من بذل أيِّ جهدٍ يغدو رعباً هستيرياً في وجه الجهد العنيف. والحرب، العمل المُنتج الحيويُّ، تساعدُ الآخرين... يبدو كلُّ ذلك، بالنِّسبة إليَّ، ليس أكثر من عاقبةِ صفاقةٍ محضة، [...]

مُقارنةً بالحقيقة الأسمى لرُوحي، بالعَظَمُوت المُطلَق المُهيمِن لأشدِّ أحلامي أصالةً وتَواتُراً، يتراءى كلُّ مَا هُوَ مُفيدٌ وخارجيٌّ تافهاً لا يَعْبَأُ بهِ أحد. فأحلامي، بالنِّسبة إليَّ، أكثر واقعيَّةً إلى حدٍّ بعيد.

أن يشتغل عليه، «عشق امرأة صِينيَّة على فنجان شاي من الخزف Amôres com a chineza de uma chavena de porcelana»، ثُمَّ كتب بعد هذا العنوان، في سطر جديد، كلمة «الأسباب Razões» فقط، متبوعة بنقطتَيْن رأسيَّتَيْن، يلحقهما مربَّع صغير. ثُمَّ خطَّ الجملة الوحيدة التَّالية في سطر وحدَه: «وقعنا في الغرام بهدوءٍ وسلام، مثلما أرادتْ، في بُعْدَيْن فقط Os nossos amores decorriam tranquillos, como ella queria, nas duas dimensões do espaço apenas». ولا بُدَّ من الإشارة، أيضاً، إلى أنَّ عبارة «في بُعْدَيْن» تُذكِّر بالمقطع 106، الذي يتحدَّث فيه بِسُوَّا عن بُعْدَيِّ الرَّفاهية اليابانيَّة. (المترجم).

120

[1915؟]

لا حاجةَ للسيَّارات والقطارات السَّريعة كي تغمرني لذَّةُ الشُّعور بالسُّرعة الفائقة ويجتاحني رعبُها. لا أحتاج سوى حافلة كهربائيَّة، وقُدرتي على تعزيز موهبتي الاستثنائيَّة في التَّجريد.

فأنا قادرٌ، في حافلة من هذا النَّوع، بعد تبنِّي موقف رياضيٍّ وتحليليٍّ فوريٍّ، على فصل فكرة الحافلة عن فكرة السُّرعة، حتَّى تغدوان شيئَيْن-واقعيَّيْن مختلفَيْن. ثُمَّ أستطيع أن أشعر بنَفْسي تسافرُ، ليس في الحافلة، وإنَّما في سُرعتها. وإذا أردتُ الذَّهابَ مرحلةً أبعدَ، راغباً في الاستمتاع بهذيان السُّرعة العالية، فإنَّني أستطيع نقل تلك الفكرة إلى «مفهوم السُّرعة المُجرَّد»، فأزيد السُّرعة، في نزوةٍ، أو أُخفِّفها، متجاوزةً كلَّ السُّرعات المحتملة التي حقَّقتها الحافلات الميكانيكيَّة من قَبْل.

وبعيداً عن قذفها الرُّعبَ في قلبي -فلا علاقةَ للخوف بقدرتي على الشُّعور بكلِّ ما هُوَ مُسرِفٌ- فإنَّ مكابدةَ الأخطار الحَقَّةِ تُعطِّل انتباهَ أحاسيسي الكاملَ، فتكدِّرُني، وتُبدِّدُ شخصيَّتي.

أتجنَّبُ كلَّ المخاطر. يُضجِرني الخطرُ ويخوِّفني على حدٍّ سواء.

مغيبُ الشَّمس ظاهرةٌ عقليَّة.

121

[1916؟] (111)

حياتي: مأساةٌ أطلقتِ الآلهةُ ضدَّها صيحات الاستهجان في المسرح بعد الفصل الأوَّل فحسب.

(111) من الملاحظ أنَّ جول كوستا قد أغفلتْ الإشارة هُنا إلى عنوان هذا المقطع بحسب ما أورده پِسُوَّا نفسه. وكان پِسُوَّا قد كتب عبارة «Diario lucido» (التي تعني: يوميّات واضحة) بخطِّ يده، بعد أن كان قد رقن النَّصَّ كلَّه على الآلة الكاتبة، مع التأشير عليه بحروف مختصرة بأنَّه جزء من «كتاب القلَق». ولقد أوردت طبعة پيسارُّو والطبعات البرتغالية الرَّئيسة الأخرى هذا العنوان. وكذلك فعل زينيث في الطبعة الإنكليزيَّة، التي ترجمها بنفسه، ولكنَّه أورد المقطع في الملحق الخاص، الذي وضعه في نهاية الكتاب، للنصوص التي عنونها پِسُوَّا بنفسه، لأسباب ذكرناها في حواشٍ سابقة. (المترجم)

الأصدقاء: لا أحد. بضعة معارف، فحسب، يظنُّون أنَّهم منسجمون معي، وربَّما يأسفون لو صرعني قطار أو أمطرت السماء في يوم جنازتي.

ولقد كانت مكافأتي الطبيعيَّة لانسحابي من الحياة هي عجزُهم، الذي أوجدتُه، عن التَّعاطف معي. ثمَّة هالةٌ من الجَفْوةِ حولي، هالةُ جليدٍ تَدرأُ الآخرين. لم أذُقْ ألَمَ عُزلتي بَعْدُ. يصعبُ بلوغ المنزلة الفارقةِ الواجبة للرُّوح كي تبدو العزلةُ ملاذَ سكينةٍ خِلْواً من كلِّ كَرْب.

لم أومن البتَّة بالصَّداقة التي أظهروها، مثلما لم أكُن لأومن البتَّة بحُبِّهِمُ الذي كان مستحيلاً على أيِّ حالٍ. طريقة معاناتي شديدة التَّعقيد والدِّقَّة إلى درجة أنَّني، على الرَّغم من أنَّه لم تساورني أوهام بخصوص الذين سمَّوا أنفسَهم أصدقائي، مازلتُ أشعر أنَّهم قد خيَّبوا آمالي.

لم أرتب للحظة أنَّهم سوف يخونونني جميعاً، ولكنَّني كنت أُصعَق على الدَّوام حين يفعلون. كنتُ دائماً لا أتوقَّع أن يقع الشَّيءُ الذي أتوقَّع أن يقع.

ولأنَّني لم أجد قَطُّ في نَفْسي الخصالَ التي قد تكون جذَّابةً لشخص آخر، لم أومن البتَّة بأنَّ أحداً يستطيع أن يشعر بالانجذاب نحوي. ويمكن رفض ذلك، بوصفه الرَّأيَ المُعتبر لتواضع أخرَق، إنْ لم تُثبتِ الحقيقةُ بعد الحقيقة -تلك الحقائق غير المتوقَّعة التي توقَّعتُها بلا تردُّد- أنَّه صحيح دائماً.

ولا أستطيع حتَّى أن أتخيَّلهم يشعرون بالشَّفقة عليَّ، لافتقاري -رغم بشاعتي الجسديَّة وشعوري أنَّني غير مرغوب- إلى القَدْر اللَّازم من التَّشوُّه الذي يجعلني مرشَّحاً محتملاً لاستدراج شفقة الآخرين؛ ولا إلى تلك الصفات المثيرة للتَّعاطُف التي تستدرج الشَّفقة حتَّى حين لا تُستَحقُّ على نحو جليٍّ؛ فالسَّجيَّةُ التي فِيَّ لا تستحقُّ شفقةً قد ترثي لحالي، فأصحابُ الأرواح الكسيحة لا يستحقُّون الرِّثاء. ولهذا انجرفتُ، عوضاً عن ذلك، في الحقل الجاذبيِّ لازدراء الآخرين، حيث من غير المحتمل أنْ أستدرج شفقةَ أحد.

أفنيتُ حياتي كلَّها محاولاً التكيُّف مع ذلك دون أن أشعر في قرارة نَفْسي بوحشيَّة هذا كلِّه وخِسَّته.

يحتاج المرءُ إلى شجاعة عقلانيَّة مُعيَّنة ليُدرك، دونَ تردُّدٍ، أنَّه ليس أكثر من حُثَالة إنسانيَّة، إجهاضٍ حيٍّ، مجنونٍ لم يُجَنَّ كفايةً بَعْدُ كي يُحبَسَ؛ ولكنَّه يحتاج، كي يُدركَ ذلك، مزيداً من

الشجاعة الرُّوحانيَّة كي يتكيَّف مع قَدَره، كي يقبله بلا تمرُّدٍ، وبلا خضوع، وبلا إيماءة احتجاج، أو محاولة الإتيان بإيماءة احتجاج، اللَّعنة الأوَّليَّة التي ألقتها الطَّبيعةُ على عاتقه. عليك أن تطلب الكثير، إذا أردتَ ألَّا تشعر بأيِّ ألم البتَّة، فليس من طبع البشر قبول الشَّرِّ، والاعتراف به مثلما هُوَ، وعَدِّه خيراً؛ بَيْدَ أنَّكَ لو قبلته بوصفه شراً، فلن تستطيع حينئذ إلَّا أن تعاني.

يكمن شقائي -شقاء سعادتي- في تخيُّل نَفْسي من خارجها. رأيتُ نَفْسي مثلما رآني الآخرون، فَرُحتُ أستصغرُ نَفْسي، ليس لأنَّني قد اكتشفتُ فيها خصالاً تستحقُّ الازدراء، وإنَّما لأنَّني رأيتُها على الشَّاكلة التي رآني بها الآخرون، فشعرتُ باستخفافهم بي. ولقد كابدتُ ذُلَّ أن أعرف نَفْسي. وبما أنَّ ذلك كان جُلْجُلَةً تفتقر إلى النَّبالة، ولا ينبغي أن تتبعها قيامةٌ في أيَّام لاحقة، فإنَّ كلَّ ما استطعتُ فعله هُوَ أن أعاني بالسَّفالة التي ينطوي عليها ذلك كلُّه.

أدركتُ، حينئذ، أنَّه ربَّما لن يُحبَّني إلَّا شخص يفتقر إلى الإحساس الجماليِّ، وإنْ أحبَّني فسوف أحتقره على ذلك، فلن يكون مَيْلُهم إليَّ أكثر من مجرَّد نزوة وُلِدَتْ من رحم لامبالاة الآخرين.

أنْ نحدِّق في أنفسنا بجلاءٍ وفي الطَّريقة التي يرانا بها الآخرون! أن نرى هذه الحقيقة وجهاً لوجهٍ! فحين رأى المسيح حقيقتَهُ وجهاً لوجهٍ على الصَّليب، صاح صرختَهُ الأخيرة: يا إلهي، لِمَ تخلَّيتَ عنِّي، يا إلهي؟

122

[1916؟]

إعلانُ الاختلاف[vi]

لا سُلطةَ لأشياء الدَّولة والمدينة علينا، فما يضيرنا لو أساءَ الوزراء وبِطانتهم تصريف شؤون الرَّعيَّة؟ كلُّ ذلك يحدث خارج أنفسنا، كالوحل في الأيَّام الماطرة. لا دخلَ لنا بما يحدث، حتَّى لو كان لَهُ دخلٌ بنا.

ولسنا مُهتمِّين على حدٍّ سواءٍ بالاضطِّرابات الكبرى كالحرب والأزمات الاقتصاديَّة. ولا نعبأ طالما، أنَّهم لا يزورون بيوتنا، على أيِّ باب يطرقون. وقد يبدو هذا لإظهار قَدْرٍ كبير من الجهل تجاه الآخرين، ولكنَّه في الواقع ليس إلَّا مجرَّد أُسِّ نظرتنا المتشكِّكة تجاه أنفسنا.

لسنا طيِّبينَ ولا مُحبِّين للخير – ليس لأنَّنا على النَّقيض من ذلك، وإنما لأنَّنا لسنا هذا الشَّيء ولا ذاك. فالطِّيبة كِياسَةُ المُتبذِلين. ولا تثير اهتمامنا إلَّا كشيء يحدث في أرواح الآخرين، وفي طرائق مختلفة من التَّفكير. نراقبُ، فلا نوافق ولا نرفض. رسالتُنا أن نكون لاشيء.

قد نكون فوضويِّين لو وُلدنا لأبناء الطَّبقات التي تصف أنفسها بالمحرومة، أو لأبناء أيِّ الطَّبقات الأخرى التي يستطيع أن ينحطَّ منها المرء أو يصعد. فالحقيقة أنَّنا، في العموم، مخلوقات وُلدتْ في الفجوات بين الطَّبقات والتَّقسيمات الاجتماعيَّة – في الفضاء المُنحطِّ بين الارستقراطيَّة والبرجوازيَّة (الرَّفيعة)، دائماً، على وجه التَّقريب؛ الحلبةِ الاجتماعيَّة للعباقرة والمجانين الذين يستطيع المرء أن يتعاطف معهم.

تُربكنا الأفعال ليس لعجزنا الجسديِّ بعضَ الشَّيء فحسب، وإنَّما لنفورنا الأخلاقيِّ بصورة أساسيَّة. تبدو الأفعال، بالنِّسبة إلينا، لا أخلاقيَّة. نشعر بأنَّ الأفكار تنحطُّ حين تصوغها الكلمات، وحين ننقلها، بعد ذلك، إلى النَّاس الآخرين، فنجعلها مفهومةً لأولئك القادرين على الفهم.

يعتمل فِينَا مَيْلٌ عارم إلى التَّنجيم والفنون الخَفِـيَّة، ولكنَّنا لسنا مُنجِّمين. فنحن نفتقر إلى الإرادة الفطريَّة والصَّبر على تهذيب إرادتنا بطريقة تجعلها وسيلة مثاليَّة للسَّحرة المجوس والمنوِّمين المغناطيسيِّين. بَيْدَ أنَّ لدينا على الرَّغم من ذلك مَيْلٌ إلى التَّنجيم، ولاسيَّما أنَّ له طريقةً في التَّعبير عن نفسه، لا يسبر أغوارها أكثر الذين يقرؤونها، حتَّى بالنِّسبة إلى أكثر أولئك الذين يظنُّون أنَّهم يفهمونها. تُظهِر هذه المُرواغَة تفوُّقاً بديعاً، وهي أيضاً مصدر زاخر بالأسرار والأحاسيس المثيرة المرعبة: الأرواح النَّجميَّة والكائنات الغريبة ذات الأجساد الأغرب المُستحضَرة في معابدهم بالطُّقوس السِّحريَّة والحُضورات غير المُتجسِّدة من ذلك الصَّعيد الأعلى التي تحوِّم فوق حواسِّنا الغافلة في الصَّمت الجسديِّ لصخبنا الجوَّانيِّ - تلمسنا هذه الأشياء جميعاً بيدٍ شبحيَّة، لزجة، في لحظات الظُّلمة والكرب.

ولكنَّنا، من ناحية أخرى، لا نتعاطف مع المُنجِّمين لأنَّهم حواريُّون، أيضاً، ويعشقون البشريَّة، وهذه نظرة تجرِّدهم من هالة الغموض التي تحيط بهم. فالسَّبب الوحيد الذي يدفع المُنجِّم إلى العمل على الصَّعيد النَّجميِّ هُوَ البحث عن الجماليِّ البعيد، وليس بدافع خبيث لمساعدة أحد الأشخاص.

ويخامرنا تعاطُف خَفِيٌّ مُتوارَثٌ، بغير قَصْدٍ أو يكادُ، تجاه السِّحر الأسود، تجاه الأشكال المُحرَّمة من الفلسفة المُتعالِية، تجاه **أسياد القوَّة** الذين باعوا أنفسهم إلى **اللَّعنة** وإلى شكل مُنحطٍّ من **التَّناسُخ**. عيوننا الكليلة المُتحيِّرة منجذبةٌ مثل كلبةٍ في النِّزاء إلى نظريَّة الدَّرجات العكسيَّة، والطُّقوس المقلوبة، ومنحنى الشَّرِّ للهَرميَّة الهابطة.

أمَّا إبليسُ فيجذبنا، شئنا أم أبينا، كانجذاب كلب إلى كلبة. ثعبانُ **البصيرة المادِّيَّة** يلفُّ نَفْسه حول قَلبِنا، كما يلتفُّ حول عصا هِرْمِس، الصَّولجانِ[112]، رمزِ **الإله** الذي يتواصل: عطارد، **ربِّ الفِطنة**.

أمَّا أولئك الذين لا يدنسون الصِّغار، فيتمنَّون لو كانت لدينا الشَّجاعة لنكون كذلك. فثمَّة أثرٌ أُنثويٌّ، لا محالةَ، للنُّفور من الأفعال. افتقدنا مهمَّتنا الحَقَّة كربَّات بيوت وسيِّدات قصور كسولات بسبب سُوء توافقٍ جنسيٍّ في تجسُّدنا الحاليِّ. ولأنَّنا لا نؤمن بهذا تماماً، نتظاهرُ بأنَّنا نتلمَّظُ بدم السُّخرية.

ولا شيء من هذا كلِّهِ قد وُلِدَ من الشَّرِّ، بل من الضَّعف. نعبدُ الشَّرَّ، في عزلتنا، ليس لأنَّهُ شرٌّ، وإنَّما لأنَّهُ أقوى من الخير وأعنفُ منه، والأعصابُ التي توجَّب عليها أن تكون أعصاب امرأةٍ منجذبةٌ إلى كلِّ ما هو عنيف وقويٌّ. لا نستطيع اتِّخاذَ مقولة لوثر «**خطيئةٌ بلا خوف**»[113] شعاراً لنا، لافتقارنا إلى القوَّة الكافية، حتَّى إنَّنا لا نمتلك قوَّة البصيرة، القوَّة الوحيدة التي ربَّما نستطيع الادِّعاء بامتلاكها. **فكِّروا** كثيراً في اقتراف الخطيئة، فذاك أقصى ما يمكن أن يعني قَوْلٌ سائر بالنِّسبة إلينا. ولكن حتَّى ذلك مستحيل في بعض الأحيان: فثمَّة حقيقة لحياتنا الجوَّانيَّة تجرحنا في بعض الأوقات لأنَّها مازالت حقيقة واقعة. فوجود قوانين لتداعي الأفكار، مثلما هي الحال مع جميع العمليَّات العقليَّة الأخرى، تُهينُ انضباطَنا الفطريَّ.

---

(112) القادوسيوس Caduceus: العصا/الصولجان الذي كان يحمله هرمس، رسول الآلهة، في يده اليسرى، وعادة ما يُصوَّر، في الأيقونات الإغريقيَّة، وقد التفَّ حوله ثعبانان، ثُمَّ بات رمزاً للطِّب. (المترجم)

(113) باللَّاتينيَّة في الأصل: Pecca Fortiter. (المترجم)

123[vii]

[1916؟]

تريدُ الرُّوح، التي تستحقُّ اسمَها، أن تعيش الحياةَ إلى **الحدِّ الأقصى**. فقناعة المرء بما منحوه إيّاهُ تعبيرٌ عن موقف يليق بالعبيد؛ وحدهم الأطفال يطلبون المزيدَ، ووحدهم المجانينُ يرغبون في مزيد من الفتوحات، فكلُّ فَتْحٍ [...]

فأن تعيش الحياةَ إلى **الحدِّ الأقصى** هُوَ أنْ تعيشَهَا إلى الحدِّ، وثَمَّ طرائقُ ثلاثٌ لتحقيق ذلك، ولا بُدَّ لكلِّ روح ساميةٍ أن تختار واحدة. أنْ تعيش الحياةَ إلى **الحدِّ الأقصى** هُوَ أنْ تملكها تماماً، أن تشرع في رحلة عُوليسيَّة عبر كلِّ خالجةٍ إنسانيَّة، عبر كلِّ تجلٍّ للطَّاقة البرَّانيَّة. ولكنَّ قِلَّةً استطاعوا، في كلِّ أزمنة تاريخ العالَم، إغماضَ أعينِهم وقد هدَّها التَّعبُ الذي هُوَ خلاصةُ التَّعبِ كلِّه، وأنْ يمتلكوا كلَّ شيء بكلِّ طريقة ممكنة.

قليلون، فحسبُ، استطاعوا فرضَ تلك المطالب على الحياة، فأجبروها على الاستسلام لهم، جسداً وروحاً، عارفينَ أنَّهم في حاجة إلى ألَّا يشعروا بالغيرة، لأنَّهم يدركون أنَّهم يمتلكون حبَّها كلَّهُ، ولا بُدَّ أن يكون ذلك، بلا أدنى شكٍّ، هُوَ رغبةُ كلِّ روح قويَّة وباسقة. فحين تُدرك تلك الرُّوح أنَّ ما ترغب[114] فيه مستحيلٌ، وأنَّها لا تمتلك القوَّة لهزيمة كلِّ جزء من **الكُلِّ شيء**[115]، يتوجَّب عليها حينئذٍ أن تسلك سبيلَيْنْ آخريْن. الأول؛ نُكرانُ الذَّات تماماً، والزُّهد الجوهريُّ التَّامُّ، ونفيُ ما لا يُمكن امتلاكه تماماً، في حلبة النَّشاط والطَّاقة، إلى فَلَكِ الحساسية. فمن الأفضل عدم القيام بأيِّ فعلٍ بتاتاً على أن يذهب الجهد المبذول سُدى، أو يتشظَّى، غير مكتملٍ، كغالبيَّة أفعال التَّافهين الفائضينَ عن الحاجة الذين يَجِلُّون عن الحصر. أمَّا السَّبيل الثَّاني؛ فطريقُ التَّوازن الأكمل، البحث عن **حدود النِّسبة المُطلَقة**، التي ينتقل فيها التَّوقُ إلى **الحدِّ الأقصى** من الإرادة والمشاعر إلى البصيرة، فيغدو طموحُ المرء بأكمله، لا أنْ يعيش الحياةَ حدَّ الكمال، ولا أن يشعر بالحياة حدَّ الكمال، وإنَّما فرضُ النِّظام على الحياة، وأن يعيش في **انسجام وتوافق فكريٍّ**.

---

(114) يستخدم بِسُوَّا الرُّوح، هُنا، بصيغة المذكَّر. (المترجم)

(115) يكتب بِسُوَّا، هنا، لفظة «كلّ شيء» بحرف استهلاليٍّ كبير، إشارة منه إلى أنّه الكلُّ الذي يجمع في كينونته الأشياء كلَّها، ولهذا آثرت ترجمتها بـ «الكلّ شيء»، وليس «كلّ شيء». (المترجم)

والتَّوق إلى الفهم، الذي يأخذ عند كثير من الأرواح النَّبيلة مكانَ الفِعل، يدخلُ في فَلَك الحساسية. فأن يتمكَّن المرءُ من استبدال الطَّاقة بالبصيرة، قاطعاً الصِّلة بين الإرادة والعاطفة، نازعاً المصلحة الشخصيَّة عن كلِّ تجليَّات الحياة الماديَّة، مسألةٌ تستحقُّ ما هو أكثر من الحياة، ولكنَّ امتلاكَها تماماً في غاية الصَّعوبة وفي غاية الحُزن إذا امتلك المرءُ بعضَها دونَ بعض.

ولقد قال المغامرون الخبيرون[116] إنَّ الرِّحلة هي المُهمَّة، وليست الحياة. أمَّا نحن، مغامري الحساسية العَلِيلة، فنقول: ليسَ العيشُ هو المُهِمُّ، بَلِ الإحساسُ.

124

[1916؟]

أَنْتِروس[117] - العاشقُ الرَّائي.

لديَّ مفهوم مُنمَّقٌ، ضحلٌ، عن الحُبِّ العميق واستخدامه المفيد. فأنا رهن إشارة الهُيَامات المرئيَّة. أحافظُ على قلبي سالماً من أيِّ سُوءٍ؛ قلبي الذي وهبَ نَفْسه إلى أقدارٍ باطلة.

لا أذكرُ قَطُّ أنَّني قد أحببتُ شيئاً، في أحدٍ، أكثرَ من «صورته»، لا الصُّورة الشخصيَّة التي يرسمها الرَّسامون، وإنَّما المظهر الخارجي المحضُ الذي تدخل منه الرُّوح لتمنحَ الحركة والحياة.

هكذا أعشقُ: أُركِّزُ على صورة امرأة أو رجل -فحيث تغيب الرَّغبة، تنعدم الجنوسة- جميلَيْن أو جذَّابَيْن أو محبوبَيْن، فتستبدُّ بي تلك الصُّورة، تكبِّلني، وتحكم قبضتها عليَّ. ولكنَّ كلَّ ما أريده أنْ أراها، فلا شيءَ يرعبني أكثر من احتماليَّة أن أعرف شخصاً حقيقياً، وأتكلَّم معه؛ شخصاً تكون تلك الصُّورةُ تجلِّيَهُ البرَّانيَّ.

---

(116) ولأن بِسُوَّا يستخدم لفظة argonauts (في البرتغاليَّة: argonautas) بحرف استهلالي صغير، فإنَّه لا يشير إلى الأرجوانيَّتين («أبطال الإغريق الذين أبحروا، قبل الحرب الطَّراوديَّة، رفقةَ جاسون، على متن سفينة الآرجو، نسبة إلى صانعها آرجوس، لإحضار الصوف الذهبيّ للكبش الذي فرَّ عليه إينو إلى الساحر أييتيس ملك آيا») وإنَّما هي إشارة إلى كلِّ مغامر يشرع في رحلة، بحثاً عن ضالَّة منشودة. (المترجم)

(117) أنتروس Anteros: إله حُبِّ العِوَض (أو الحُبِّ مقابل الحُبّ) في الميثولوجيا الإغريقيَّة، وهو ينتمي إلى طائفة الآلهة المُجنَّحة المرتبطة بالحُبِّ والجماع. (المترجم)

أعشقُ بعينيَّ وليس بخيالي. لا أتخيَّل الصُّورةَ التي تستحوذ علي. لا أتصوَّر نَفْسي مرتبطة بها بأيِّ طريقة، لا شيءَ نَفْسياً بصددِ حُبِّي المُنمَّق. فلا رغبةَ لديَّ في أن أعرف ماذا يفعل هذا الكائن -الذي لا يعنيني منه سوى مظهره الخارجي- أو فيمَ يُفكِّر.

الموكبُ اللَّانهائيُّ للنَّاس والأشياء، الذي يصنعُ العالَم، هُوَ، بالنِّسبة إليَّ، معرض لا مُتناهٍ من الصُّور التي تُضجرني حياتُها الجوَّانيَّة. إنَّها لا تثير اهتمامي، لأنَّ الرُّوح شيء رتيبٌ والشَّيء ذاته دائماً في كلِّ البشر، ولا تختلف إلَّا في تجلِّيها الشخصيِّ، وأفضل جزء فيها هو ذاك الذي يفيضُ في الوجه، في السُّلوكات والإيماءات، ثُمَّ يغدو بعضاً من الصُّورة التي تسترعي انتباهي، فيُبقيني مفتوناً دائماً، بطرائق مختلفة.

لا روحَ، في رأيي، لهذا الكائن. فالرُّوح شأنه/ شأنها الخاصُّ.

هكذا أكابدُ المظاهر الخارجية للأشياء والكائنات برؤية صافية، غير مكترث بماهيَّتها الرُّوحانيَّة كإلهٍ من عالَم آخر. لا أذهبُ عميقاً إلَّا في ظاهر الآخرين؛ فإذا أردتُ ولوجَ الأعماق، فلا أبحث عنها إلَّا في نَفْسي وفي مفهومي عن الأشياء.

فماذا سأجني من امتلاك معرفةٍ شخصيَّة عن الكائنة التي أُحبُّ كشيء مُنمَّق؟ ليسَ خيبةَ الأمل، فغباؤها المحتمل أو ضحالتها عديمة الصِّلة، فلا أُحبُّ فيها غير مظهرها فحسب، الذي لم أتوقَّع منه شيئاً، وبأنَّ مظهرها الخارجي مازال هُناك. علاوة على ذلك، فالمعرفة الشخصيَّة عن أحد الأشخاص ضارَّةٌ لأنَّها عقيمة، والعقيم في العالَم الماديِّ ضارٌّ دائماً. فما نفع أن أعرف اسمَ تلك الكائنة؟ ولكنَّه أوَّل شيء أعرفه حين أتعرَّف عليها.

لا بُدَّ أن تعني المعرفةُ الشخصيَّة حريَّةَ التأمُّل التي ترغب فيها فكرتي عن الحُبِّ، على وجه الخصوص. فلا نستطيع أن نتأمَّل بحريَّة شخصاً نعرفه بصورة شخصيَّة أو نأخذه بعين الاعتبار.

المعرفة الفائضة عن الحاجة عقيمة بالنِّسبة إلى الفنَّان، فهي حين تُكدره تُخفِّفُ حدَّة التأثير الذي يسعى إليه.

قدَري الطَّبيعيُّ أن أكون مُراقباً حُراً وشغوفاً بمظاهر الأشياء وتجليَّاتها، مراقبَ الأحلام الموضوعيَّ، والعاشقَ الرَّائي لكلِّ أشكال الطَّبيعة ومظاهرها.

وهذه ليست الحالة التي يُسمِّيها الأطباء النَّفسيُّون الاستمناءَ النَّفْسيَّ، أوِ الهوسَ الشَّبقيَّ. فأنا لا أنغمس في التخيُّلات، على شاكلة الاستمناء النَّفْسيِّ؛ فلا أحلم بأن يكون الكائن الذي أتأمَّله وأتذكَّره عاشقاً أو صديقاً: فلا تخيُّلات عنه أو عنها. كما إنَّني لا أجعل الشَّيءَ المرغوب مثالياً، على شاكلة المهووس الشَّبِق، ولا آخذه أبعدَ من نطاق الجَماليَّة البحتة: فلا أريدُ، لأشبع رغباتي وأفكاري، أكثرَ ممَّا كان سانحاً لعينيَّ وللذَّاكرة الصافية المباشرة لما رأته عيناي.

125

[1916؟]

لم أتعوَّد نسجَ حبكةٍ بديعة حول الأجسام التي أُسلِّي نَفْسي في تأمُّلها. أنا أراها فحسب، فتكمن قيمتها الحَقَّة في حقيقة أنَّني أستطيع أن أراها. وأيُّ شيء قد أُضيفه سوف يحطُّ من قَدْرها، لأنَّه سوف يحطُّ من قَدْر ما أُسمِّيه «تمظهرَها الواضح».

فلا بُدَّ لأيِّ شيء أتخيَّله حولها أن يكون باطلاً منذ البدء بالنِّسبة إليَّ؛ ثُمَّ على الرَّغم من عشقي للأحلام، فإنَّني أجدُ كلَّ باطلٍ بغيضاً. يُبهجني الحُلم الصَّافي، الحلم الذي لا يمتُّ إلى الواقع بصلة، ولا يتواصل معه البتَّة. أمَّا الحُلم النَّاقص، الذي يمدُّ جذوره في الواقع، فيُكدِّرني، أو بالأحرى سوف يُكدِّرني لو اكترثتُ به البتَّة.

فالبشريَّة بالنِّسبة إلـيَّ فكرة منمَّقة، توجَد عبر عيني المرء وأُذُنيه وعبر العواطف النَّفسيَّة. لا أطلبُ المزيدَ من الحياة أكثر من أن أتفرَّجَ عليها. ولا أطلبُ المزيد من نَفْسي أكثر من أن أتفرَّج على الحياة.

فأنا كمثل كائن من وجودٍ آخر يمرُّ، بفضول أبديٍّ، عبر هذا الوجود الذي أنا غريبٌ عنه في كلِّ شيء. لوحُ زجاج يحول بَيْنَهُ وبيني. أحاول دائماً إبقاءَ ذلك الزُّجاج نظيفاً، بِقَدْر استطاعتي، حتَّى أتمكَّن من سَبْر أغوار هذا الوجود الآخر دون أن تُشوِّه رؤيتي اللَّطخاتُ أو البقع، ولكنَّني أختارُ إبقاءَ ذلك الزُّجاج بيننا.

فرؤيةُ المزيدِ في شيء أكثرَ ممَّا هنالك فعلاً هُوَ في الحقيقة، بالنِّسبة لأيِّ عقل ذي نزعة علميَّة، أنْ ترى أقلَّ. فما تُضيفه في الجوهر تَطرحه في النَّفس.

وأنسبُ إلى حالتي العقليَّة، هذه، نُفوري من معارض الفنون. فالمتحف، بالنِّسبة إليَّ، هُوَ كلُّ الحياة، الذي تكون فيه اللَّوحة مُحكمةَ الصَّنعةِ دائماً والخطأ الوحيد المحتمَل كامن في عين النَّاظر المُختلَّة. فإمَّا أن أحاول التَّقليل من قَدْر أيِّ نُقصانٍ، أو أتقبَّله -إن لم أستطع- مثلما هُو لا أكثر، كما أفعل مع الأشياء جميعاً، فلا طريقة غير ذلك.

126

[بعد يوليو 1916؟]

رائقةً كانتِ السَّاعةُ، يلعبُ فيها الهواءُ، كمثل مذبح للصَّلاة. وكان كشفُ طالعِ لقائنا محكوماً باقترانات خيِّرة، لا ريبَ فيها، وكانت مادَّة الحُلُم الغامضة تنزلقُ في وعي مشاعرنا، ناعمةً كالحرير، خفيفةً، لا يَفطن لها أحدٌ أو تكادُ. هدأتْ كصَيفٍ فكرتُنا الفظَّةُ بأنَّ الحياة لا تستحقُّ العيش، والرَّبيعُ -الذي ربَّما تخيَّلنا، مُخطئَيْنِ، بأنَّنا قد استمتعنا بهِ- قد وُلِدَ من جديد. وكانت البِرَكُ، التي تُشبهنا على نحو يدعو للأسى، تُنشِدُ أناشيدَ الرِّثاء بين الأشجار، وبين الورد في المساطب العارية، يصحبُها -باستهتار مُطلَق- نغمُ الحياة الغامضُ.

لا جدوى من التَّفكير في أنَّك تعرفُ، أو حتَّى في أنَّك تعرف لا محالةَ، ما الذي سوف يحدث. المستقبل سديمٌ يطوِّقنا، وحين تلمحُ الغدَ، في طرفة عينٍ، فَكأنَّهُ اليومَ تماماً. أقداري هي المهرِّجونَ الذين تركهم السِّيركُ وراءه، والقمرُ ليس أسطعَ من نُورِ قمرٍ فوق الطُّرُق، ولا يخفُّ أوراقَ الأشجار إلَّا النَّسيمُ وريبةُ السَّاعة، وقناعتُنا بأنَّنا نستطيع لا محالةَ أن نسمع الخفيف. ألوانُ أُرجوانٍ بعيدة، وظلال هاربةٌ، لا نؤمن بأنَّ الحلم الذي لم يكتمل البتَّة يستطيع حتَّى الموت أن يُكمله، أشعَّةُ شمس باهتة، الضَّوء في المنزل على التَّلِّ، اللَّيلُ المُضني، رائحةُ الموت بين الكُتُب، والحياةُ دائرةٌ في الخارج، والأشجار لها رائحةُ الخُضرة في اللَّيل الشَّاسع المرصَّع بالنُّجوم في الطَّرف الآخر من التَّلِّ. هكذا جابهَتْ أحزانُك لقاءها العذب، وباركَتْ كلماتُكِ القليلةُ الرَّحلةَ مباركةً مَلكيَّةً، فلا سفائنَ عادتْ، ولا حتَّى الملكيَّة، فطوَّقَ دخانُ الأحياء كلَّ شيء، تاركاً ظلالاً وخواءً فحسبُ، والماءُ المجروح لبحيراتٍ مشؤومة، قُربَ دروب سيَّجتها وشائعُ الشَّمشير، ملموحاً في البعيد عبر الأبواب كرسمة من تصاوير وَاتُوْ، ثُمَّ الكَرْبُ ولا شيءَ أكثر. ولقد أفنيتُ ألفيَّاتٍ في انتظار أن تأتي، ولكنَّكِ لن تأتي أبداً،

فالطَّريقُ لا تنعطِفُ. أُزيحَتِ الأقداحُ من أجل الشُّوْكْرَانِ الذي لا مفرَّ مِنهُ -ليستْ أقداحُكِ، بَلِ الأقداحُ جميعاً، ثُمَّ حتَّى الفوانيسُ، والمطارحُ الخَفِيَّة، وخبطُ الأجنحةِ الغامضُ- ولقد سُمِعَتْ، ثُمَّ في العقل وحدَهُ - في اللَّيل الحارِّ، المضطَّرب، الذي يصعدُ بُرهةً بَعْدَ أُخرى، فيخترقُ قَلَقَهُ. الأصفرُ، والأخضرُ الدَّاكنُ، والأزرقُ-الحُبُّ- الكُلُّ ميِّتٌ، يا خليلةُ، وكلُّ السَّفائن تلكَ السَّفينةُ التي لن تُبحر البتَّة! صَلِّي مِن أجلي، لعلَّ الله يُوجَد حين تُصلِّينَ من أجلي. بهدوءٍ، الينبوعُ البعيد، الحياة الحائرة، الدُّخان المتلاشي فوق القرية حيث يهبط اللَّيلُ، الذَّاكرة الغامضة، والنَّهر البعيدُ... دَعِيني أنامُ، فَلأَنْسَ نَفْسي، يا سيِّدةَ **النَّوايا المُلتبِسة**، ويا أُمَّ **العِناقات والبَرَكات** التي تتنافَرُ مع وجودي...

127

[1916؟]

جنازة لودڤيغ الثَّاني، ملك باڤاريا

اليومَ، وقد تريَّثَتْ أكثرَ مِمَّا تعوَّدتْ، جاءتِ المَيْتَةُ[118] إلى بابي لتبيع بضاعتَها. ولقد جاءتْ، بعد أن تريَّثَتْ أكثرَ مِمَّا تعوَّدتْ، لتفردَ أمامي السَّجاجيدَ والأقمشةَ الحريرَ والإستبرقَ الدِّمشقيَّ لِنِسيانِها وسُلوانِهَا. فتبسَّمتْ راضيةً عن بضاعتها، غير مبالية إن استطعتُ رؤية ابتسامتها. ولكنَّها أخبرتني، عندما حاولت شراء شيءٍ، بأنَّهُ ليس للبيع. فهي لم تأتِ راغبةً في أن أشتري، وإنَّما لرغبتي في رؤية ما قد جلبَته لي. أخبرتني بأنَّ سجَّادها كان سجَّادَ قصر بعيد، وأنَّ أقمشتها الحريرَ هي الوحيدة التي لُبِسَتْ في أراضيها المظلمة، وأنَّ الإستبرق الدِّمشقيَّ الأجودَ يغطِّي مذابح المعابد في موطنها خلف العالَم.

حرَّرتني رُويداً من القيود التي أبقتني مربوطاً بموطني الصَّارم. ثُمَّ قالت: «لا نارَ في موقدك، فلماذا لديك موقدٌ؟». ثُمَّ أردفَتْ: «لا خبزَ على مائدتك، فلماذا لديك مائدةٌ؟». ثُمَّ قالتْ: «لا صاحبةَ لك، فلماذا تتشبَّثُ بالحياة؟».

(118) ولأنَّ لفظة الموت (Morte) -سواءٌ في نص بِسُوًّا، هذا، أو في البرتغاليَّة عموماً- هي لفظة مؤنَّثة، فقد آثرتُ استعمال المَيْتَة، بخلاف التذكير الشَّائع في العربيَّة، ولاسيَّما أنَّ بِسُوًّا «يُؤنسن» الموت، هُنَا، بوصفه العشيقة التي طال انتظارها. (ولا تشاطرها اللَّفظةَ ذاتها، «Morte»، ومؤنَّثةً، إلَّا اللُّغة الإيطاليَّة). أمَّا في المطارح الأخرى التي يتحدَّث فيها بِسُوًّا عن الموت مُجرَّداً من أيِّ «أنسنة»، فسوف أستخدم الكلمة بصيغة المُذكَّر، كما هي الحال في العربيَّة. (المترجم)

ثُمَّ قالت: «أنا». «أنا النَّارُ في المواقد الباردة، والخبزُ على الموائد الفارغة، وصاحبةُ الوحيدينَ والمُهمَلين الغيورةُ. ولسوف تجد في أراضيَّ العظيمة المجدَ الدُّنيويَّ الذي أضلَّكَ هُنَا. فالحُبُّ في إمبراطوريَّتي لا يُضنِي، فهو لا يتوق إلى أن يَملك ولا يُعاني، فلقد أخفق في أن يَملك. أضعُ يدي برقَّةٍ على رؤوس أولئك الذين يفكِّرون، فينسَوْن؛ أولئك الذين انتظروا عبثاً أن يُريحوا رؤوسَهم في حضني، يغمرهم إحساسٌ بالطُّمأنينة والثِّقة.

ثُمَّ قالت: «الحُبُّ الذي يُكِنُّونَهُ لي مُجرَّدٌ من الشَّغف الدَّنِفِ والغيرة المجنونة، ولا يُفسده التَّجاهُل. حُبُّهم لي مثل ليلة صيفٍ، حين ينام الشَّحاذون في الهواء الطَّلق فيشبهون ظلالاً ممدَّدة على قارعة الطَّريق. لن تَسمع من شفتيَّ الصامتتيْن أناشيدَ عرائس البحر، ولا حفيفَ أشجارٍ شجياً أو خريرَ ينابيع؛ صمتي حَفِيٌّ كموسيقى خافتة، وسَكينتي تداعبُ كأدنى فكرة عن النَّسيم.

ثمَّ قالت: «لماذا تميلُ إلى الحياة؟ فالحُبُّ لا يبحثُ عنك، ولا المجدُ، ولن يعثر عليك الجاهُ أبداً. فالمنزل الذي ورثتَه أطلالُ منزل، والغِلال في الحقول التي مُنِحتَ قد سفعها الصَّقيعُ، والحصَادُ قد حرَّقته الشَّمسُ، والزَّنابقُ في بركتك قد تعفَّنتْ قبل أن تراها، والأعشابُ قد ملأتِ الدُّروبَ والجادَّات التي لم تطأها قدماك بَعْدُ.

«ولكنَّك سوف تجدُ السُّلوان في أراضيَّ، حيث يُهيمِنُ اللَّيل الأبديُّ، لأنَّكَ لن تذوق الأمل هُناك البتَّة، ستذوق النِّسيانَ وحدَهُ، ولن تتوقَ إلى شيءٍ، بَيْدَ أنَّك سوف تجدُ الرَّاحة، لأنَّكَ لن تحظى بحياةٍ هُناك أبداً».

ثُمَّ أرتني كيف يكون الأمل عبثياً، حين يأمل المرء في أيَّام أفضل وهو لم يُولَد بروح قادرة على إيجادٍ أيَّام أفضل. ولقد أرتني كيف أنَّ الأحلام لا تؤاسي فالحياة لا تؤلمُ ألماً شديداً إلَّا حين يستيقظ المرء. ثُمَّ أرتني كيف أنَّ النَّوم لا يجلب الرَّاحة فهو مسكون بالأشباح، بظلال الأشياء، وبالآثار التي خلَّفتها في الهواء الإيماءاتُ، وبالأجنَّة الميِّتة للرَّغبات، وبالحطام العائم لسفينة العيش المتحطِّمة.

ثُمَّ، وهي تتحدَّث على تلك الشَّاكلة، لفَّتِ السجاد الذي وجدتُه مغرياً جداً، والأقمشةَ الحريرَ التي تشهَّتها روحي، والإستبرقَ المجلوب من مذابح المعابد، الذي كانت تسَّاقطُ عليه دموعي.

لماذا تحاول أن تكون كالآخرين، إنْ كان محكومٌ عليك بأنْ تكون نَفْسك؟ ولماذا تضحك، إنْ كان فرحُك الحَقُّ، حين تضحك، باطلاً، لأنَّه قد وُلِدَ من نِسيانك من أنتَ؟ ولماذا تبكي إنْ كنت تشعر بأنَّه لن يُجدي، حين تبكي أكثر لأنَّ دموعك تُخفق في أن تواسيك أكثر ممّا تفعلُ؟

فإذا كنتَ سعيداً حين تضحك، فلقد فزتُ؛ وإذا كنتَ سعيداً لأنَّك قد نسيتَ من أنت، فكم ستكون أسعد حين تكون معي، حيث لن تتذكَّر شيئاً أبداً. وإذا كنتَ قد حقَّقتَ الرَّاحة الكاملة، لو نمتَ ربَّما نوماً بلا أحلام، فكيف سترتاح راحةً عميقة على سريري، حيث كلُّ النَّوم بلا أحلام؟ وإذا كنتَ نهضْتَ لبرهةٍ لأنَّك قد رأيت شيئاً جميلاً، فتنسى نَفْسك وتنسى الحياة، فكيفَ عالياً سوف تصعدُ في قصريَ الذي لا يَنشِزُ جمالُهُ اللَّيليُّ ولا يَشيخُ ولا يَفسدُ؛ في حجراتي حيث لا ريحَ تُكدِّرُ السَّتائرَ، ولا غبارَ يسترُ ظهورَ المقاعد، ولا نورَ يُبهِتُ ألوانَ قطائفِ المُخمَل والفُرُشِ المُنجَّدة، ولا زمنَ يُصفِّرُ البياضَ الأبيضَ للجدارن البيضاء؟

فهَيَّا، تنعَّم بحنانيَ الذي لا يتبدَّلُ، وبحُبِّيَ الذي لا يموتُ! واشربِ الرَّحيقَ الأسمى من كأسيَ التي لا تَنضبُ؛ الرَّحيقَ الذي لا يُتعِبُ ولا يَمرَرُ ولا يُغثِي ولا يُسكِرُ.

وتأمَّل من نافذة قلعتي، لا ضَوْءَ القمر ولا البحرَ، فتمامُ جمالِهما نُقصَانٌ[119]، وإنَّما اللَّيلَ الأموميَّ الشَّاسعَ، والبهاءَ التَّامَ للهاوية السَّحيقة!

ستنسَى، بين ذراعيَّ، الدَّربَ المؤلم الذي أوصلكَ إليهم. ولن تذوقَ في عناقيَ الحُبَّ الذي حضَّكَ على أن تُفتِّشَ عنه! اجلسْ على عرشيَ قُربي، فسوف تكون إمبراطورَ السِّرِّ والكأسِ المُقدَّسة، الذي لن يُنزَع التَّاجُ مِنهُ إلى أبد الآبدين، ستشاركُ الآلهةَ والأقدارَ وجودَها العَدَمَ، فلا يكون لك هُنَا[120] ولا آخرةٌ، فلا تحتاجُ حتَّى إلى تلك الأشياء الفائضة لديك أو التي تفتقر إليها أو التي اكتفيتَ منها.

سأكونُ زوجتكَ الأُمَّ، وشقيقتكَ التَّوأمَ التي وُجدَتْ بعد أن كانت مفقودةً منذ زمن

---

(119) كانَ بِسُوًّا ينشد مع الشاعر الأندلسيِّ أبي البقاء الرّندي: «لِكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصَانُ». (المترجم)

(120) كلمة «هُنَا here» (وفي البرتغاليَّة aquém) هي بالمعنى الضِّديِّ من لفظة «الآخرة hereafter» (وفي البرتغاليَّة além) التي بعدها. (المترجم)

بعيد. وحين أتزوَّجُ قلقك[121] كلَّهُ، حين يعودُ إليَّ كلُّ شيء كنتَ تبحث عنه ولم تجده، فسوفَ تضيعُ في جوهري الخَفِيِّ، في عَدَمي، في صدري حيث كلُّ الأشياء تتداعى، في صدري حيث كلُّ الأرواح خامدةٌ، في صدري حيث حتَّى الآلهةُ تتلاشى.

128

[1916؟]

يا عاهلَ التَّجرُّد والزُّهدِ، يا إمبراطورَ الموت وحطامِ السَّفائن، أيُّها الحُلمُ الحيُّ الذي يطوفُ، مُجلَّلاً بالأُبَّهة، بين أطلال العالَم ومنافيه!

يا عاهلَ اليأس والخُيَلاءِ الأجوف، أيُّها السَّيِّدُ الحزينُ للقُصور التي لا تجلبُ الرِّضى، يا سيِّدَ المواكب والاحتفالات التي أخفقتْ في أن تمحو الحياة!

أيُّها العاهلُ المبعوثُ من القبور، يا مَن جئتَ في ضوء القمر كي تَقُصَّ على الأحياء حياتَك؛ أيُّها السَّاعِي الملكيُّ الذي يحملُ الزَّنابق التي فقدتْ بتلاتها؛ أيُّها الرَّسولُ الإمبراطوريُّ للعاجِ البارد!

أيُّها العاهلُ، يا راعي اللَّيالي التي طارَ النَّومُ من أجفانها، يا فارسَ القلَقِ الشَّاردَ، بلا مجدٍ ولا صبيَّةٍ تصحبها على امتداد الطُّرُق المقمرة؛ يا سيِّدَ غابات سُفوح التِّلال، الذي امتطى صهوةَ جواده، في صورة جانبيَّة صامتة، عبر الوديان، وحافَّةُ القُبَّعة نازلةٌ، فأُسيءَ فهمه في القُرى، وسُخِرَ منه في البلدات، وازدُرِيَ في المُدن.

أيُّها العاهلُ الذي كرَّسته المِيْتَةُ[122] عاهِلَها، أيُّها الشَّاحبُ العبثيُّ المنسيُّ الذي لا يُعرَفُ، يا مَن تَسُودُ بين الجواهر وقطائف المُخمَل الباهتة فوق عرشك في أقصى المُمكِن، مُحاطاً بحاشية ظلالٍ وهميَّة، وتحرسك ميليشيا خياليَّة، غامضة وفارغة.

هَاتُوا الكؤوسَ، أيُّها السُّعاةُ، العذراوات، الغِلمانُ والجواري، هَاتُوا الأطباقَ والأكاليل من أجل الوليمة التي تدعونا إليها الموتُ! نعم، هاتوها كلَّها، وتعالَوْا مُرتدين الأسودَ، مُكلَّلينَ بالآسِ.

(121) ترد كلمة القلَق، هُنَا، بصيغة الجمع. (المترجم)

(122) الموت، هنا، بصيغة المؤنث، لذلك استعملت «مِيْتَة». راجع الحاشية السابقة المتعلقة بالمقطع السابق. (المترجم)

وَامْلَؤوا الكؤوسَ بِبَيضِ الجِنِّ[123]، وَامْلَؤوا الأطباقَ بـ [...]، وانسجوا الأكاليلَ من قطائف المُخمَل [...]، من الأزهار الحزينة التي تتضوَّعُ منها رائحةُ الحزن.

فالملكُ ذاهب لتناول العشاء رفقةَ الموت اللَّيلةَ في قصره العتيق قُربَ البحيرة، بين الجبال، بعيداً عن الحياة، بعيداً عن العالَم.

فَلْتَتألَّفِ الأوركسترا التي تتمرَّنُ لإحياء الوليمة من آلاتٍ غريبة، صوتُها في حدِّ ذاتهِ يُبكينا. ولا بُدَّ أن يرتدي الغلمانُ أزياء داكنة ذات ألوان غريبة، باذخة وبسيطة مثل حمَّالات نعوش المنتحرين.

وَلْيَعبُرْ موكبُ الحاشية القروسطيُّ المَهيبُ، قبل بدء الوليمة، عبر جادَّات من حدائق واسعة، في مراسمَ جليلة، مثيرة، وصامتة، كجَمالٍ في كابوس.

الموتُ انتصارُ الحياة!

نعيشُ في الموت، لأنَّنا نُوجَد اليومَ فحسب، لأنَّنا قد مِتنا بالأمس. ننتظرُ الموت، لأنَّنا لا نستطيع إلَّا أن نؤمن بالغد، بمعرفة أنَّ اليومَ سوف يموتُ. نعيش في الموت حين نحلمُ، لأنَّ الحُلم إنكارُ الحياة. ونموتُ في الموت حتَّى حين نعيشُ، فالعيشُ إنكارُ الأبديَّة! الموتُ يقودنا، الموت يبحث عنَّا، الموت يرافقنا. فكلُّ ما نملكه هو الموتُ، وكلُّ ما نريده هو الموت، وكلُّ ما نرغبُ في أن نرغبَ فيه هو الموتُ.

نسيمٌ مُنذِرٌ ينفشُ ريشَ أجنحةٍ.

هَا هُو يأتي، كالموت الذي لا يراه أحدٌ والـ[...] الذي لا يَصِلُ.

فَانفخوا في الأبواقِ، أيُّها المُنادونَ! شيِّعوهُ!

عشقُكَ للأشياء المَحلوم بها كان احتقارَك للأشياء الحيَّة.

أيُّها **المَلِكُ-البتولُ** الذي احتقرَ الحُبَّ،
أيُّها **الملكُ-الظلُّ** الذي ازدرى الضِّياء،

(123) Mandrake، ويعرَف أيضاً باسم تُفَّاح المجانين، واليَبروح: نباتٌ يسبب الهلوسة، كان يستخدم في العصور الغابرة كمخدِّر، وزيادة الرغبة الجنسيَّة. (المترجم)

أيُّها الملكُ-الحُلمُ الذي رفضَ الحياة!

العتمةُ تُنادي بكَ إمبراطوراً، وسطَ الصَّخب المكتومِ للصُّنوج والطُّبول!

129

[1916؟]

ولكِ، أيّتها الميتةُ، أرواحُنا وإيمانُنا، وأملُنا وتوقيرُنا!

يا سيِّدةَ الأشياء الأخيرة، يا اسماً شهوانياً؛ يا اسمَ السِّرِّ ويا اسمَ الجحيمِ - أثلجِي نفوسَ أولئكَ الذينَ بحثوا عنكِ دونَ أن يجرؤوا على ذلك حقاً، واشرَحِي صدورَهم!

يا سيّدةَ السُّلوانِ [...]

فَابْذُرِي، أيّتها الأُمُّ البتولُ؛ يا أُمَّ العالَمِ العبثيِّ، يا شَوَاشاً لا يُسبَرُ غورُهُ، وانثُرِي ملكوتَكِ على كلِّ شيءٍ - فوقَ الأزهار التي تشعرُ بأنَّها تذوي، وعلى الحيوانات البرِّيَّة التي قد بلغتْ منَ الكِبَرِ عِتِيّاً كي تسيرَ، وعلى الأرواح التي وُلدتْ كي تَضنى بين الضَّلالة ووهمِ الحياة!

أيّتها البحيرةُ التي بين الصُّخور في ضوء القمر الأبلج، بعيداً عن وحل الحياة ودَنَسِها!

أيّتها الحياةُ التي تصَّاعدُ في العَدَم، وتتوقُ إلى ما لا تستطيع أن تملكه، إلى الأبد.

130

[1916؟]

سيمفونيَّة اللَّيل المضْطَرب

مساءاتٌ في مدن عتيقة، ذات أعراف مجهولة كُتِبَتْ على الأحجار السَّوداءَ لأبنية شاسعة؛ السَّاعاتُ المرتجفة قبل الفجر، في حقولٍ سَبِخَةٍ أغرقها الطُّوفان، نديَّةٌ كالهواء قبل شروق الشَّمس؛ الأزقَّةُ الضَّيِّقة حيث كلُّ شيء ممكنٌ؛ الصَّناديقُ المتروكة في قاعات عتيقةٍ، عتيقة؛ البئرُ في قاع الحديقة في ضوء القمر؛ أولى رسائل الحُبِّ المكتوبة للجدَّة التي لم نعرفها قطُّ؛ رائحةُ عفونة حجراتٍ خُزِّنَ فيها الماضي؛ البندقيَّةُ التي لم يَعُدْ أحدٌ يعرف كيف تُستخدَم؛ حُمّى آصالٍ قائظة بُدِّدَتْ في التَّحديق خارج النَّافذة؛ الشَّارعُ المهجور؛ نومُ ليلةٍ مضطَّربة؛ الآفةُ المنتشرة بين الكروم؛ الأجراسُ؛ ألمُ الأحياء الرُّهبانيُّ... ساعةُ البرَكات، يداكِ المُرهفتان...

العِناقُ الذي لا يأتي أبداً، الحجرُ في خاتمكِ ينزفُ في العتمة التي تقتربُ... احتفالاتُ الكنائس ولا إيمانَ في الرُّوح: الجمالَ الجسديَّ للقدِّيسين القُساة، البشعين؛ الصَّباباتُ الرُّومانسيَّة التي لا تُحَسُّ إلَّا في العقل؛ مذاقُ البحر الملحيُّ واللَّيلُ يهبط على خلجان المدينة التي تزدادُ ندىً في الهواء البارِدِ...

تَجَنَّحَتْ يداكِ النَّحيلتانِ فحامتْ فوقَ الذي تسرقهُ الحياةُ. أروقةٌ طويلة ونوافذُ ضيِّقة تظلُّ مفتوحةً حتَّى حين تُغلَقُ، الأرضُ باردة كالقبر، توقٌ إلى الحُبِّ كرحلة لم تُجْرَ بَعْدُ إلى أراضٍ لم تكتمل بَعْدُ... أسماءُ مَلكاتٍ قديمات... نوافذُ زجاج مُعشَّقٍ تُصوِّرُ أعداداً قويَّةً ومتينة... ضوءُ النَّهار مبعثرٌ كبخور بارد في هواء الكنيسة، مُقطَّرٌ في عتمة الأرض المنيعة... وأيدٍ ناشفةٌ تشابكتْ في الصَّلاة.

وساوسُ الرَّاهب الذي يجد تعاليمَ تكتنفها الأسرارُ في الرُّموز العبثيَّة لكتاب قديم وخطوات التَّكريس في لوحات مُلوَّنة.

شاطئٌ في الشَّمس وحُمَّى فِيَّ... البحر يلمعُ في الغصَّة المُتلهِّفة في حلقي... الشُّموع البعيدة، كيف تومضُ في حُمَّايَ... في حُمَّاي، الخطوات إلى الشَّاطئ... الدِّفءُ في نسيم الأقيانوس البارد، بحرِ الظُّلمات، البحرِ الهائج الذي يتوعَّدُ[124] - ليلِ المغامرينَ البهيمِ في مكان بعيد، ورأسي يحترقُ [ويشعل النِّيران؟] في تلك المراكب الشراعيَّة الصغيرة البدائيَّة...

كلُّ شيء ينتمي إلى شخص آخر، إلَّا ألم عدم امتلاكه.

فهلَّا أعطيتني الإبرةَ؟ ثمَّة اليومَ شيءٌ مفقود في قلب المنزل، خطواتها الصغيرة وجهلي أين هي، وما الشَّيء الذي سوف تُطرِّزهُ، بالطَّيَّات والألوان والدَّبابيس... اليومَ، أُغلقَ جوشنُ الأدراج على تطريزِ إبرتها الفائضِ - إلى الأبد، وتلاشى دفءُ ذراعَيْن محلومٍ بهما يلتفَّان حول عنق أُمِّي.

18 يوليو 1916

لا مشكلةَ قابلةٌ للحلِّ. ولا أحدَ منَّا يحلُّ المُشكلة العويصةَ؛ فإمَّا أن نستسلم وإمَّا أن نحلَّها بالقوَّة. نحلُّ مشاكل الفِكر عبرَ مشاعرنا، بفظاظةٍ، فلقد سئمنا التَّفكيرَ أو بتنا هيَّابين من استخلاص النَّتائج، جرَّاءَ حاجتِنا العبثيَّة إلى طلب العَوْنِ أو غريزتِنا القَطِيعيَّة التي تحثُّنا على الانضمام إلى الآخرين ثانيةً، والانضمام إلى الحياة من جديد.

ولأنَّنا لا نستطيع أن نعرف بتاتاً العواملَ التي تنطوي عليها كلُّ مسألة، فلن نستطيع حلَّها أبداً.

نحن نفتقرُ، كي نبلغ الحقيقةَ، إلى الحقائق الضروريَّة والسَّيرورات الفكريَّة، على حدٍّ سواء، التي تستطيع أن تستنفد جميعَ التَّأويلات الممكنة لتلك الحقائق.

132

[1916؟]

لا مَرَاسيَ لأولئك الذين لا يترجَّلُونَ من السَّفائن. فألَّا تصل أبداً يعني ألَّا تصل أبداً.

133

[1916؟]

وبعدَ أن رأيتُ الوضوحَ والتَّرابطَ المنطقيَّ الذي يُبرِّرُ بهما بعضُ المجانين (بوتيرة منهجيَّةٍ في جنونهم) أفكارَهم المجنونةَ لأنفسهم وللآخرين، فقدتُ إلى الأبد الثِّقة الحَقَّةَ بِوُضوحِ وُضوحي.

134

[1917؟]

أنتمي إلى جيل توارثَ كُفرَهُ بالدِّين المسيحيِّ فأوجدَ في نَفْسه كُفْراً بالدِّيانات كلِّها. مازالت تعتمل في نفوس أسلافنا غريزةٌ عارمة إلى الإيمان، فنقلوه من المسيحيَّة إلى أشكال الوهم الأخرى. ولقد كان بعضُهم من المتحمِّسين إلى المساواة الاجتماعيَّة، في حين كان

بعضهم الآخر واقعاً في غرام الجَمال فحسب، ووضع آخرون ثقتهم في العلم ومنافعه، في حين ضربَ آخرون، حتى من أولئك الأكثر مسيحيَّةً، في مشارق الأرض ومغاربها، بحثاً عن ديانات أخرى يستطيعون بها إشباعَ وعيهم عبر العيش المتقشف، وقد بدا ذلك على النقيض خاوياً.

لقد فقدنا هذا كلَّهُ، فَتَيَتَّمنا عند ولادة كلِّ تلك السُّلوانات. تتشبَّثُ كلُّ حضارة بالملامح الحميمية للدِّيانة التي تمثِّلها: فالبحث عن دِين آخر يعني خسارةَ الدِّيانة الأولى ومِن ثَمَّ الأديان كلِّها في نهاية المطاف.

وخسرنا دينَنا والدِّيانات الأخرى على حدٍّ سواء.

إذ تُرِكْنَا لأنفُسِنا، مهجورين، وسط خرابِ معرفةِ أنَّنا على قيد الحياة فحسب. قد يبدو القارب مجرَّدَ شيءٍ غايتُه الوحيدة التِّرحال، ولكنَّ غايته الحَقَّة ليستْ كامنة في التَّرحال، وإنَّما في الوصول إلى الميناء. وجدنا أنفسنا في أعالي البحار، ولا فكرةَ لدينا أيَّ ميناء يتوجَّب علينا أن نقصده. هكذا، نُمثِّل صيغةً مؤلمةً لشعار المغامرين الجريء: الرَّحلة هي المُهمَّة، وليستْ الحياة!

مُجرَّدِينَ من الأوهام، نعيشُ على الأحلام التي هي أوهامُ أولئك الذين لا يستطيعون امتلاكَ أوهام. نعيشُ خارج أنفسنا وحيدين، نحطُّ من قَدْر أنفسنا، فالإنسان الكامل هُوَ الذي يَجهلُ نَفْسه. فمن دون إيمانٍ لا نمتلك الأمل، ومن دون أملٍ لا نمتلك حياةً حقاً. ومن دون أدنى فكرة عن المستقبل، لا نستطيع امتلاك فكرة حقيقيَّة عن الحاضر، فالحاضر بالنِّسبة إلى الإنسان الفاعل ليس أكثر من توطئة للمستقبل. وُلدت الرُّوح المقاتلة ميِّتةً فِينَا، فلقد وُلدنا بلا حماسة للقتال.

ولقد ركد بعضُنا في الغزو السَّخيف الذي تشنُّه الكائنات اليوميَّة، المنحطَّة والمبتذلة، باحثةً عن خبزنا اليوميِّ، راغبةً نيله دون أن تعمل للحصول عليه، ودون أن تشعر بالجهد المبذول في صنعه، ودون نبالة الإنجاز.

وثمَّة آخرون، من سُلالة أفضل، قد اعتزلوا الحياة العامَّة، لا يرغبون في شيءٍ ولا يشتهون أيَّ شيء، محاولين أن نحمل إلى جُلْجُلةِ النِّسيان صليبَ الوجود، لا أكثر. سَعيٌ عبثيٌّ لدى البشر الذين يفتقر وعيهم، بخلاف ذلك الذي لحامل الصَّليب الأصيل، إلى أيِّ شرارةٍ إلهيَّة.

وانهمك آخرون خارج أرواحهم، فوهبوا أنفسهم لعبادة الحيرة والجلَبة، ظانِّين أنَّهم أحياءٌ لأنَّهم يُسمَعُون، ظانِّين أنَّهم قد أحبُّوا حين ارتطموا بجدران الحُبِّ الخارجية فحسب. تؤلمنا الحياةُ، فلقد عرفنا أنَّنا كُنَّا على قيد الحياة؛ لا تُخيفنا المِيتَةُ، فلقد فقدنا كلَّ فكرة عاديَّةٍ عن الموت.

ولكنَّ آخرينَ، **شعبَ النِّهايةِ، الحدَّ الرُّوحانيِّ لِـ السَّاعة الميِّتة**، لم يمتلكوا الشَّجاعة كي يتخلُّوا عن ذلك كلِّه والبحث عن ملاذٍ في أنفسهم. عاشوا في النُّكران، والسُّخط، والخراب. ولكنَّا عشناه داخلَ أنفسنا، دون أن نأتي بأدنى إيماءة، محبوسينَ بِقَدْر ما عشنا في حدود جدران غرفتنا الأربعة وفي داخل الجدران الأربعة لقدرتنا على الفِعل.

135

[1917]

كلَّما تأمَّلتُ منظرَ العالَم ومَدَّ التَّغيُّر في الأشياء وجَزْرَهُ، ازدادتْ قناعتي بالطَّبيعة الخياليَّة الفطريَّة لكلِّ ذلك، وبالوجاهة الباطلة الممنوحة لأُبَّهة الواقع. وفي هذا التَّأمُّل، الذي سوف يكون قد جرَّبه أيُّ مُتأمِّلٍ في وقت من الأوقات، فإنَّ العرض المتنوِّع للملابس والأزياء، والمسارَ المُعقَّد للتطوُّر والحضارات، والتَّداخُل البديع للإمبراطوريَّات والثَّقافات؛ تبدو لي كلُّها كأنَّها أسطورة وخيال، محلوم بها وسط الظِّلال والنِّسيان. ولكنِّي لا أعرفُ إنْ كانت الخلاصة الأسمى لكلِّ هذه المقاصد، العبثيَّة حتَّى عندما تتحقَّق، تكمنُ في التَّبرُّؤ النَّشوان من بوذا، الذي، حين أحاط بِكُنْهِ خواء هذا كُلِّه، فاقَ من نشوةِ وَجْدِه قائلاً: «أعرفُ الآن كلَّ شيء»، أو في لامبالاة الإمبراطور سيفيروس التي سئمتِ الحياة: «كنتُ كلَّ شيءٍ؛ وكان كلُّ شيء باطلاً»[125].

(125) قيل إنَّ هذا الإمبراطور الروماني قال هذه العبارة وهو على فراش الموت. وردت في شذرة بِسُوًّا الأصليَّة بصيغتها اللَّاتينيَّة: «omnia fui, nihil expedit». (المترجم)

136[viii]

[1917]

وُلِدَ الجِيلُ الذي أنتمي إليه في عالَمٍ جُرِّد من اليقين تُجاه أيِّ شخص يمتلك فكراً وقلباً على حدٍّ سواء. فلقد سعى التَّهديم الذي مارسته الأجيال السَّالفة إلى أن يغدو العالَم، الذي وُلدنا فيه، عاجزاً عن توفير الطُّمأنينة لنا على الصَّعيد الدِّينيِّ، وتوفير الملاذ على الصَّعيد الأخلاقيِّ، وتوفير الاستقرار على الصَّعيد السِّياسيِّ. ولذلك، فقد وُلِدنا في حالة من الكَرْب الغَيبيِّ والأخلاقيِّ على حدٍّ سواء، وفي حالة من القلَق السِّياسيِّ. وكانت الأجيال السَّالفة، بعد أن أثملتهما الصِّيَغُ الظَّاهريَّة، وسيرورات العلم والمنطق، في حدِّ ذاتها، قد هدمتْ أركان الإيمان المسيحيِّ، فتأويلاتها الكِتَابيَّة[126]، التي تحوَّلتْ من النَّصيِّ إلى الأسطوريِّ، قد حصرتِ الأناجيلَ وأسفارَ اليهود الأولى[127] في مجموعة من الخرافات والأساطير الافتراضيَّة، وحوَّلتها إلى أدب محض. واكتشف نقدهم العلميُّ، شيئاً فشيئاً، جميع الزَّلَّات والبراعات الجامحة التي اكتنفَتْ «علم» الأناجيل البدائيَّ، في حين أدَّتْ حريَّةُ الجِدال، في الوقت ذاته، إلى مناقشة المسائل الغيبيَّة الإشكاليَّة كافَّة، ومن ضمنها المسائل الدِّينيَّة. وانتقدت تلك الأجيالُ، تحت تأثير نظريَّةٍ غامضة سمُّوها «المذهب الوضعيَّ»، جميعَ النَّظريات الأخلاقيَّة وأمعنتِ النَّظر في قواعد العيش كافَّة. ولم يبقَ من كلِّ صراع العقائد، هذا، إلَّا الشكُّ وألَمُ ذلك الشكِّ. فلا يمكن، بالطَّبع، للمجتمع الذي تعمُّ الفوضى أركانَهُ الثَّقافيَّة أن يكون، على الصَّعيد السِّياسيِّ، ضحيةَ افتقاره إلى النِّظام، ولهذا فقد صحونا على عالم شديد التَّوق إلى التَّغيير الاجتماعيِّ، فتقدَّم مُبتهجاً ليدحرَ حريَّةً لم نفهم معناها، وفكرةً عن التَّقدُّم لم نُعرِّفها بوضوح قَطُّ.

ولقد أورثَنا النَّقدُ الفجُّ، الذي مارسه أسلافُنا، استحالةَ أن نكون مسيحيِّين، ولكنَّه حرمنا من كلِّ إمكاناتِ الرِّضى. أورثونا السُّخطَ على الأعراف الأخلاقيَّة الرَّاسخة، ولكنَّهم لم

(126) التأويلات الكِتابيَّة biblical exegesis (وفي الأصل البرتغاليّ: critica biblica): التَّفسيرات والتأويلات النَّقديَّة التي تتناول الكتاب المقدَّس. (المترجم)

(127) لا يستخدم بِسُوًّا، هُنَا، لفظة «العهد القديم» أو «التَّوراة»، وإنَّما عبارة «anterior hierographia dos judeus»، التي تعني «أسفار اليهود الأولى»، ربَّما إشارة منه إلى أسفار موسى؛ الأسفار الخمسة الأولى من التَّوراة؛ فكلمة «hierographia» (وفي صنعة جول كوستا الإنكليزيَّة: hierography) مأخوذة من كلمة «هيروغرافيا» اليونانيَّة القديمة، التي تعني، حرفياً: الكتابة المقدَّسة. (المترجم)

يورثونا لامبالاةً تجاه المبادئ الأخلاقيَّة وقواعد العيش. وفي حين أنَّهم قد تركوا المسائل السِّياسيَّة في حالة من الشَّكِّ، فإنَّهم لم يتركوا أرواحنا لامباليةً تجاه الطَّريقة التي قد تُحَلُّ بها تلك المسائل. هدم أسلافُنا كلَّ شيء، دون الشُّعور بالذَّنب وتأنيب الضَّمير، فلقد عاشوا في عصر مازال بإمكانه الاعتماد على أجزاء مُتفرِّقة من صلابة الماضي. كان الذي هدموه هُوَ الشَّيء ذاته الذي منح المجتمعَ قوَّته، وسمح لهم بهدمه دون ملاحظة الشُّقوق التي في الجدران. فلقد ورثنا الدَّمار وعواقبه.

ينتمي العالَمُ، في الحياة المعاصرة، إلى الحمقى والبَلِيدين والمُشوَّشين. يستطيع المرءُ أن ينتزع اليومَ حقَّهُ في العيش والنَّجاح بالمؤهِّلات ذاتها التي يحتاجها المرءُ كي يُحبَس في مستشفى للمجانين: الفسادِ الأخلاقيِّ، والهَوَسِ الخفيف، والعجزِ عن التَّفكير.

137

[1917؟]

لا محالةَ أنَّ الرُّوح الإنسانيَّةَ ضحيَّةُ ألم الدَّهشة المبرحة التي تُثيرها حتَّى الأحداثُ غير المتوقَّعة بتاتاً. ولهذا، فإنَّ الرَّجل الذي تحدَّث طيلة حياته عن تقلُّب المرأة وتبدُّلها، بوصفهما أمرين طبيعيَّيْن ونموذجيَّيْن، سوف يشعرُ بكلِّ كَرْبِ الدَّهشةِ الحزينة حين يعرفُ أنَّه قد تعرَّض للخيانة في الحُبِّ - كما لو كانت عقيدته هي إخلاصُ المرأة الأبديُّ وولاؤها. أُسوةً برجل آخر، يعتقد أنَّ كلَّ شيء خاوٍ وفارغ، سوف يُذهَل، كأنَّ صاعقةً قد ضربته من السَّماء، حين يكتشف فجأةً أنَّ كتاباته قد استخفَّ بها الآخرون، وأنَّ كلَّ الجهود التي بذلها في تثقيف النَّاس قد ثَبَّتَ عقمها، وأنَّه قد أخفق تماماً في توصيل مشاعره.

وهذا لا يعني أنَّ جميع الرِّجال الذين حلَّتْ بهم هذه الكوارث أو تلك كانوا غير صادقين فيما قالوه أو كتبوه، حتَّى لو كانت تلك الكوارث حتميَّة، في كلماتهم، أو متوقَّعة. فلا علاقةَ للصِّدق في التَّعبير الفكريِّ بعفويَّة الاسترسال العاطفيِّ. ويبدو أنَّ الرُّوح تكابد تلك الدَّهشات حتَّى لا تفتقر البتَّة إلى الألم أو العار؛ حتَّى تتلقَّى دائماً نصيبَها الأوفرَ من المعاناة في الحياة. فنحن متساوون في قدرتنا على ارتكاب الأخطاء والمعاناة. وحدهم أولئك الذين لا يشعرون بشيء هم المُستثنون. أمَّا أولئك الأسمى، والأنبل، والأبعدُ نظراً، فسوف يعانون ويكابدون ما توقَّعوه وما ازدروه. هذا ما نُسمِّيه الحياة.

138[ix]
[1917؟]

لا بُدَّ أن أختارَ ما أكرهه - إمَّا الحُلم الذي تمقته بصيرتي، وإمَّا الفِعل الذي تبغضه حساسيتي؛ إمَّا الفِعل الذي لم أُولد لَهُ، وإمَّا الحُلم الذي لم يُولَد أحدٌ لأجلهِ.

ولأنّي أكرهُ الاثنَيْن، فلن أختارَ أحداً منهما، لكنْ حين يتوجّب عليَّ أن أختار في بعض الأحيان الحُلم أو الفِعل، فإنَّني أمزجُ الأوّل بالثّاني.

139
[18 سبتمبر 1917]

طالما عدُّوني دخيلاً أو غريباً على الأقلّ أينما وُجدتُ في الحياة، ومهما كانت الظُّروف، وأينما عشتُ قرب الآخرين وعملت معهم. دائماً ما يُنظَر إليَّ، بين أقاربي ومعارفي على حدٍّ سواء، على أنَّني دخيلٌ. بَيْدَ أنَّني لم أشعر مرَّةً أنَّهم عاملوني على تلك الشَّاكلة، ولكنَّ ردَّة فعل الآخرين العفويَّة تجاهي أكَّدت لي ذلك.

لطالما عاملني الجميع بلُطفٍ في كلِّ مكان، وأظنُّ أنَّ قلَّةً قد رفعوا أصواتهم عليَّ، أو تجهَّموا في وجهي، إلَّا في أوقات محدودة، ونادراً ما طالتني غطرسةُ أحدٍ أو نَزَقُه. ولكنَّ اللُّطف الذي عاملوني به افتقر دائماً إلى المودَّة. ولطالما كنتُ ضيفاً، بالنِّسبة إلى أولئك الذين سوف يكونون بطبيعة الحال مُقرَّبين إليَّ؛ ضيفاً يُحسِنون معاملته، ولكنَّهم يجاملونه مجاملةَ الغريب، ويودُّونه مودَّةَ الدَّخيل التي تفتقر إلى المحبَّة.

ولا يساورني شكٌّ بأنَّ مصدر هذا كلِّه -أقصدُ تصرُّفات الآخرين تجاهي- نابعٌ في المقام الأوَّل من عِلَّةٍ غامضة مُتأصِّلة في طَبعي. لعلِّي أتصرَّفُ ببرود يجبر الآخرين، دون قصدٍ، على أن يبادلوني المشاعر ذاتها.

أتعرَّفُ إلى النَّاس بسرعة، ولا يستغرقون وقتاً طويلاً كي يُعجَبوا بِيَّ، ولكنَّني لا أنال مودَّتهم البتَّة. لم أختبر الإخلاص قطُّ. طالما بدتْ مسألةُ أن أُحَبَّ مستحيلةً، فمن غير المحتمل أن يخاطبني غريبٌ تماماً باسمي الأوَّل بأُلفةٍ.

لا أعرف إنْ كان هذا يجعلني أعاني أمْ أنَّني أتقبَّلُه ببساطة على أنَّه قدَري اللَّامبالي الذي لا تندرج فيه أسئلة المعاناة والقبول.

أردتُ دائماً إرضاءَ الآخرين ولكنَّ لامبالاتهم أوجعتني. أحتاجُ، أنا يتيمُ البَخت، كما الأيتام جميعاً، إلى أن يُسبغَ أحدٌ عليَّ مودَّتَه. فلطالما تضوَّرتُ جُوعاً إلى تلك المودَّة. كبرتُ وقد أَلِفتُ ذلك الجوعِ المحتومَ حتَّى إنَّني أرتابُ، في بعض الأحيان، إن كنتُ ماأزال أشعرُ بالحاجة إلى تناول الطَّعام.

بالمودَّة أو دونها، مازالت تؤلمني الحياةُ.

لدى الآخرين شخصٌ مخلصٌ. لم أحظَ يوماً بأحدٍ فكَّر حتَّى في أن يخلص لي. هكذا هي الحال بالنِّسبة إلى الآخرين: أنا، إنَّهم يعاملونني باحترام فحسب.

أعرف في نَفْسي القُدرة على اكتساب الاحترام لا المودَّة. لم أفعل شيئاً لسوء الحظِّ يُبرِّرُ في حدَّ ذاته ذلك الاحترام المبدئيَّ، ولذلك لم يُفلح أحدٌ في أن يحترمني تماماً.

وأظنُّ أحياناً أنني أستمتع بالمعاناة، لكنَّ الحقيقة أنَّني أُفضِّل شيئاً آخر.

لا أمتلك الصِّفات المناسبة لأكون قائداً أو تابعاً، حتَّى إنَّني لا أمتلك ميزةَ أن أقنعَ؛ تلك التي تبقى حين يُخفق كلُّ شيء.

ثمَّة مَن هُم أقلُّ ذكاءً منِّي ولكنَّهم في الواقع أشدُّ قوَّة. إنَّهم أفضل منِّي في نحت حيواتهم بين الآخرين، وأكثر مهارة في إدارة ذكائهم. أمتلك جميع الصِّفات الضَّروريَّة كي أُؤثِّر في الآخرين، وليس فنَّ فعل ذلك، ولا حتَّى الرَّغبة في فعل ذلك.

فلو قُدِّرَ لي أن أُحبَّ شخصاً ذات يوم، فَلن يُقدَّرَ أنْ أُحَبَّ في المقابل.

يكفي أن أرغب في شيء حتَّى يموت. ولكنَّ قدَري ليس قادراً بما يكفي كي يُمِيت. عِلَّتهُ المشؤومةُ أنَّه ليس قادراً إلَّا على إماتةِ الأشياء التي أُريدُ.

140

[1917؟]

لطالما ذقتُ تلك الأحاسيس المثيرة الحَقَّةِ بشدَّة أقلَّ من الإحساس المثير بتلك الأحاسيس المثيرة، فلقد وجدتُ دائماً أنَّ وعيي بالمعاناة أكثر إيلاماً من المعاناة ذاتها.

ولقد انتقلتْ حياةُ مشاعري في وقت مُبكِّر إلى مركز الفِكر، فاستمتعتُ هُناك بمعرفة عاطفيَّة أوسع عن الحياة.

وبما أنَّ الفِكر يغدو، حين يمنح العاطفة ملاذاً، أكثر تطلُّباً من العاطفة ذاتها، فإنَّ نظامَ الوعي، الذي اختبرتُ فيه ما كنت أشعرُ به، جعلَ طريقةَ الشُّعور يوميَّةً أكثرَ، وأكثرَ ظاهريَّةً، وأكثر دغدغةً للمشاعر.

جعلتُ نَفْسي، بالتَّفكير، صدىً وهاويةً على حدٍّ سواء. ثُمَّ تعدَّدتُ، بالذَّهاب عميقاً في نَفْسي. فأدنى حادثة -تغيُّرٌ في الضَّوء، السُّقوط اللَّولبيُّ لورقة شجر ناشفة، بتلةٌ مُصفرَّة تنزعُ نَفْسَها، صوتٌ ينبعث من الطرف الآخر للجدار، أو وقع خطى شخص يتكلَّمُ قربَ وقع خطى الشَّخص الذي يُنصت، الباب المفضي إلى الحديقة القديمة وقد تُرِكَ مُوارباً، الباحةُ التي تنفتحُ عبر قوس على البيوت المحتشد في ضوء القمر- كلُّ تلك الأشياء، التي لا تنتمي إليَّ، تشدُّ وثاقي بتأمُّلاتي المرهفة بأواصر القُرْب والحنين. فأنا، في كلِّ واحدٍ من تلك الأحاسيس المثيرة، «**أنا**» مختلفةٌ؛ أُجدِّدُ نَفْسي، يجتاحني الألمُ، في كلِّ انطباع لا يُعرَفُ.

أعيشُ على الانطباعات التي لا تنتمي إليَّ، فأنا مُسرِفٌ في زُهدي، مختلفٌ على الدَّوام في طريقةِ أن أكونَ نَفْسي.

141

[1917؟]

أنْ نتكلَّم يعني أنْ نُبدِي اهتماماً بالغاً بالآخرين. فلقد ماتتِ السَّمكةُ وأوسكار وايلد، كلاهما، عن طريق الفَم.

142

[1917؟]

حتَّى الكتابة فقدتْ عذوبتها. أضحتْ فعلاً مُبتذَلاً، ليستْ سيرورة التَّعبير عن مشاعري فحسب، وإنَّما مُتعة تقليب عبارة بديعة في رأسي؛ أكتب الآن بالطَّريقة التي يأكل فيها الآخرون أو يشربون ذاهلاً يجتاحني السَّأم، ولا أعيرُ الأشياء إلَّا قليلَ بالٍ، بلا حماسةٍ، بلا شرارة إلهام.

143

[1917؟]

إنَّ غريزة البشر الطُّفوليَّة تجعلُ حتَّى الأشدَّ فخراً بيننا -لو كانوا رجالاً عُقلاءَ غير مجانين- يَصبون، أيَّها الآبُ الأقدس، إلى يدٍ أبويَّة تقودهم على نحو ما، مهما كانت الطَّريقة، عبر سرِّ العالَم وفوضاه. فكلُّ واحد منَّا ذرَّة غبار تذروها ريحُ الحياة. لا بُدَّ أن نجد العَوْن، أن نضع يدنا الصَّغيرة في يدٍ أخرى كبيرة، فالسَّاعةُ مُلتبِسة دائماً، والسَّماوات بعيدةٌ، والحياة شيءٌ غريب.

أمَّا أولئك الذين ارتقوا إلى الأعالي فلا يعرفون حقَّ المعرفة كيف أنَّ كلَّ شيء خاوٍ ومُلتبِس.

قد يقودنا وهمٌ، ولكنَّ الذي لا ريبَ فيه هُوَ أنَّ وعيَنا لا يقودُنا.

144

[1917؟]

كانتِ الفكرةُ الوثنيَّة عن الإنسان الكامل هي كمالُ الإنسان الموجود؛ والفكرة المسيحيَّةُ عن الإنسان الكامل هي كمالُ الإنسان غير الموجود؛ والفكرة البوذيَّةُ عن الإنسان الكامل هي الكمالُ المفارق للإنسان تماماً.

الطَّبيعةُ هي الفارق بين الرُّوح والله.

كلُّ ما يلفظه الإنسانُ أو يُعبِّرُ عنه حاشيةٌ هامشيَّة في مَتنٍ مُحِيَ تماماً. نستطيعُ من معنى الحاشية أن نستنبطَ، بعضَ الشَّيء، معنى ذلك المتنِ الذي تلاشى، بَيْدَ أنْ ثمَّةَ شكٌّ دائماً ومعانٍ كثيرة محتملة.

145 (128)

[1918؟]

حين عبرتِ المسيحيَّةُ فوق أرواحنا كعاصفة هاجتْ في الهزيع الأخير من اللَّيل، أحسَّ

(128) لم تُشر جول كوستا، هُنا، إلى وجود عبارة «prefacio» (= مُقدِّمة) تتصدَّر هذا المقطع؛ فالقصاصة التي كتب عليها

النَّاسُ بالخراب الخَفِيِّ الذي أحدثته، ولكنَّ الأطلال التي خلَّفتها لم تُرَ كاملةً إلَّا حين عبرَتْ تماماً. ظنَّ بعضُهم أنَّ رحيلَها هو الذي أوجدَ الأطلال، ولكنَّ الخراب لم يتجلَّ إلَّا حين انقشعَتْ فحسبُ.

ولكنَّ الذي خُلِّفَ حينئذٍ في عالم الأرواح هذا، كانت تلك الأطلالُ المرئيَّة، تلك الكارثةُ الواضحة، دونَ العتمة التي غمرتها ذات مرَّة بمودَّة مُفتعَلة. رأتِ الأرواحُ أنفسَها على حقيقةِ ما كانت عليه تماماً.

تفشَّى مرضٌ في تلك الأرواح المكشوفة حديثاً، مرضٌ يُسمَّى الرُّومانسيَّة، وهي مسيحيَّةٌ افتقرت إلى الأوهام والأساطير، على حدٍّ سواء، وتجرَّدتْ حتَّى في جوهرها المريض الصَّارخ.

معضلة الرُّومانسيَّة أنَّها تُشوِّش ما نحتاجه وما نرغب فيه. فكلُّنا يحتاجُ إلى تلك الأشياء الحيويَّة للحياة، وصَونها وديمومتها؛ وكلُّنا يرغبُ في حياةٍ أكملَ، وسعادةٍ أكملَ، وتحقيقِ أحلامه و[...]

فالطَّبيعة البشريَّة أن نرغب فيما نحتاج، والطَّبيعة البشريَّة أن نرغب فيما لا نحتاجه حقاً، ولكنَّنا نرغبه. والشَّيء غير السَّويِّ هُوَ أنْ نرغب في الضَّروريِّ وفي المُشتهَى بشدَّةٍ متساوية، وأن نعاني بالشِّدَّة ذاتها، لأنَّ حياتنا ليست كاملة كما نشاء لو لم يكُن ثمَّة خبز. عِلَّةُ الرُّومانسيَّة: الرَّغبةُ في القمر كما لو تُوجَد طريق حقيقيَّة للحصول عليه.

«لا يمكنك الإبقاء على كعكتك وأكلها [في الوقت نفسه]»

ويمكن العثور على العِلَّة ذاتها في الأطياف الدُّنيا للسِّياسة، مثلما الأمر في الحلَبة الخاصَّة للرُّوح.

بِسُوَّا هذه الشَّذرة، بالحبر الأسود، تُظهر وجود هذه العبارة بين قوسين كبيرين في منتصف رأس الصَّفحة، رفقة عبارة «L. do. D.» (التي تعني أنَّ هذا المقطع جزء من كتاب القلَق) وتحتها خطٌّ. ورد هذا العنوان في طبعة سوبراو كونيا (331: 281–282) وفي المجلد الثاني من طبعة برادو كويلو (468: 302–203) مرقونةً «prefácio» (بنبرةِ إطالةٍ acento grave)، على حدٍّ سواء؛ في حين وردت في طبعة پيسارُو (151: 153) دون هذه النَّبرة على الألف، وهي الأقرب للصيغة التي خطَّها بِسُوَّا بنفسه. أمَّا طبعة زينيث (53: 89–90)، فقد خلت من الإشارة إلى هذه الكلمة عنواناً لهذه المقطع. (المترجم)

لم يعرف الوثنيُّ شيئاً من هذا الإحساس غير السَّوِيِّ بالأشياء والنَّفْس، فلقد رغب هُوَ أيضاً في المستحيل حين أراد أن يكون إنساناً، ولكنْ ليس على حساب كلِّ شيء آخر. كانت ديانته [...] والأفكار المتسامية التي بصَّرتْ بها الأديان؛ تلك التي تملأ الرُّوح بخواء العالَم، ولا تُوجَد إلَّا في قرارة أعماق السِّرِّ، ولم يُبصرها إلَّا المُكرَّسون، بعيداً عن النَّاس العاديِّين والـ [...]

146

[1918؟]

بؤسُ الإنسان، الذي يشعر بسأم الحياة وهو جالس على شرفة دارته الفارهة، شيءٌ، وبؤسُ واحدٍ مثلي، يتأمَّلُ المشهد من غرفته بالطَّابق الرَّابع في بَايْشَا[129]، عاجزاً عن نسيان أنَّه مُحاسِبٌ مساعدٌ، شيءٌ آخر. «**يحلمُ كلُّ كاتبِ عَدْلٍ بالسُّلطانات المشرقيَّات**»...[130].

وفي الاجتماعات الرَّسميَّة، حين يتوجَّب عليَّ أن أقوم بواجباتي كموظَّف إداريٍّ، أستمتعُ دونَ سواي بمفارقة تلك السُّخرية غير المستحقَّة التي تمرُّ دون أن يلاحظها أحد. لا أعرف تماماً كيف أو لماذا، ولكنَّ اسمي يظهر في **السِّجلِّ التِّجاريِّ** على هذا النَّحو:

غِيْدِش (ڤسنته)، موظف إداريٌّ، خُوَا دُوش رِيتْرُوچِيرُوش[131]، 17، الطَّابق الرَّابع، **السِّجلُّ التِّجاريُّ للبرتغال.**

وما هذا الهوسُ بالعبثيِّ والمُتناقِض إلَّا فرح الحُزناء الحيوانيُّ، فالرَّجال العاديُّون يُنكِّتون ويَصفقُ بعضُهم ظهورَ بعض تملؤهم الحماسة المطلقة للحياة. أمَّا أولئك العاجزون عن

---

(129) Baixa (المعنى الحرفيُّ للكلمة هو: وسط البلد؛ قاع المدينة) حيٌّ تاريخيٌّ في وسط لشبونة، يُعَدُّ قلب المدينة ومركزها التجاريَّ. (المترجم)

(130) العبارة بالفرنسيَّة في الأصل: «Tout notaire a rêvé des sultanes»، وقد أوردتها جول كوستا كما هي، دون ترجمة. وأصل هذا القول هو للرِّوائي الفرنسي غوستاف فلوبير «Le plus médiocre libertin a rêvé des sultanes, chaque notaire porte en soi les débris d'un poète»، وردت في رواية «مدام بوفاري»، ويعني: «حَلُمَ أردأُ الخُلعاءِ بالسُّلطانات المشرقيَّات، وكلُّ كاتبِ عَدْلٍ يحملُ في داخله حطام شاعر»، ولكنَّ بِسُوَّا يحرِّف مقولة فلوبير، لتغدو بالصورة التي ظهرت عليها، لتتناغم مع إشارته إلى غيدش على أنَّه محاسب مساعد. (المترجم).

(131) Rua dos Retrozeiros ويعرف أيضاً باسم Rua da Conceição، وهو شارع في منطقة بايشا. (المترجم)

الحماسة أو الفرح فيستطيعون الانهماك في انقلاباتٍ فكريَّة[132]، فيحلُّ سلوكهم البارد محلَّ كلِّ إيماءة دافئة ودودة.

والعمَّاتُ[133] الكَهلاتُ، لأولئك الذين لديهم عمَّاتٌ كَهلاتٌ، يُبدِّدنَ الوقتَ في المساءات المضاءة بمصابيح الزَّيت، في بيوت ريفيَّة كبيرة وخاوية، والخادماتُ ينعسنَ والغلَّاياتُ تغلي، وهُنَّ يلعبنَ السُّوليتير بانتظام وعقلانيَّةٍ، يغمرهنَّ الحنينُ. ويشعرُ شخصٌ، يأخذُ مكانيَ فِـيَّ، بحنينٍ عارم إلى تلك السَّكينة العبثيَّة. يُقدَّم الشَّايُ، ومجموعة أوراق اللعب القديمة موضوعة بعناية مفرطة على طرف الطَّاولة. وخزانة آنية الخزف الكبيرة تجعل العتمةَ أعتمَ في حجرة الطَّاعم التي ادلهمَّتْ للتوِّ. والخادمة النَّعسانة تعرق آنَ تُسرع لإنهاء عملها. أرى هذا كُلَّه فِـيَّ بِكَرْبٍ وتوقٍ لا صلة لهما بأيِّ شيء آخر، ثُمَّ أَجِدُ نَفْسي تتأمَّلُ، بغير قَصْدٍ، الحالةَ الذِّهنيَّة لشخص يلعبُ السُّوليتير.

147

[1918؟]

حتَّى لو أردتُ أن أُبدِع...

الفنُّ الحَقُّ الوحيد هُوَ فنُّ البِنَاء، ولكنَّ العالَم المعاصر يجعل من المستحيل أن تظهر السِّماتُ البنَّاءة في النَّفْس.

ولهذا طُوِّر العِلم. الشَّيءُ الوحيد الذي يؤدِّي فيه البناءُ دوراً اليومَ هو الآلة؛ فالحُجَّة المنطقيَّة الوحيدة هي برهانٌ رياضيٌّ.

---

(132) Intellectual summersaults (وفي البرتغاليَّة: cambalhotas na intelligencia) والمقصود بها تبدُّل الأفكار وانتقال المرء من موقف إلى آخر مختلف تماماً. (المترجم)

(133) هذه الشَّذرة معنونة في الأصل من لدن بِسُوَّا نفسه: «Paciências»، التي تعني «لعبة السُّوليتير»، على الرَّغم من أنَّه قد خطَّها رفقة الشَّذرات الأخرى على الورقة ذاتها، بعضها وراء بعض. ولهذا عمدت سوبراو كونيا في طبعتها (المقطع 600) وزينيث في طبعته (المقطع 351) إلى إدراج هذه الشَّذرة في مقطع منفصل وحدها، بهذا العنوان ذاته؛ أمَّا بيسارُّو فقد أدرج جميع هذه الشَّذرات في مقطع واحد (المقطع 152)، في حين نرى أنَّ طبعة برادو كويلو قد خلتْ البتَّة من هذه الشَّذرة. (المترجم)

تحتاجُ قوّةُ الخلق إلى عَوْنٍ، إلى ركيزة الواقع.

الفنُّ عِلمٌ...
إنَّهُ يعاني يقودُهُ الإيقاعُ.

لا أستطيع قراءة أيِّ شيء، فمَداركي النَّقّادَةُ لا ترى إلّا المثالب والنَّقائص والتَّجويدات المحتملة. ولا أستطيع أن أحلم، فالحلم يتجلّى فِيَّ شديداً حتّى أُقارنه بالواقع، فأشعرُ إذّاك على الفور بأنَّه ليس حقيقيّاً؛ فيفقدُ قيمته كلَّها. لا أستطيع نسيان نَفْسي في التَّأمُّل البريء للأشياء والبشر، لأنَّني أشعر لا محالةَ برغبة في الذَّهاب أعمق. ولأنَّ شغفي لا يمكن أن يُوجَد دون تلك الرغبة؛ فَإمَّا أن يموتُ على يَدَي تلك الرَّغبة، وإمَّا أن يَذوي [...]

لا أقدرُ على التَّرويحِ عن نَفْسي بالتَّبصُّرات الغيبيَّة، فأنا أعرف حقَّ المعرفة، من تجربتي الحياتيَّة، أنَّ جميع المنظومات يمكن تبريرها، ومُحتمَلة على الصَّعيد الفكريِّ؛ ولكي أستمتع بالفنِّ الفكريِّ لبناء المنظومات، فإنَّني أفتقر إلى القُدرة على نسيان أنَّ مقصدَ جميع التَّبصُّر الغيبيِّ البحثُ عن الحقيقة.

ماضٍ سعيدٌ سوف تجعلني ذاكرتُهُ سعيداً مرَّةً أخرى، فلا شيء في الحاضر قد يجلب لي المسرَّة أو يثير اهتمامي، ولا حلم أو مستقبلَ مُفترَضاً يمكن أن يكون مختلفاً عن هذا الحاضر، أو يمكن أن يمتلك ماضياً آخر غير ذلك الماضي - هُنَا تكمنُ حياتي، طيفاً واعياً لفردوسٍ لم أعرفه قطُّ، الجُثَّة حديثة الولادة لآمالي المستقبليَّة.

طُوبى لمن يعانون مُتَّحدين! أولئك الذين يُكدِّرهم القلَقُ ولكنَّه لا يُفرِّقهم، الذين يؤمنون، حتَّى لو كانوا يؤمنون بالكُفْرِ، الذين لا يعارضون الجلوس في الشَّمس.

148

[1918؟]

أبسط حاجات الإنسان حاجتُه إلى أن يَثِق، إلى أن يعترف. إنَّها حاجة الرُّوح إلى أن تذهب خارج نَفْسها.

لا بأس! اعتَرِفْ، ولكن لا تعترف إلَّا بما لا تشعر به. حرِّر روحك من وطأة أسرارك كلِّها، بالبوح بها بصوت عالٍ؛ فمن الأفضل ألَّا تحتفظ البتَّة بالأسرار التي تبوح بها. اكذب على نَفْسك بدلاً من أن تتفوَّه بتلك الحقيقة. فمن الخطأ أن يُعبِّر المرء عن نَفْسه دائماً. احترس من ذلك، واجعل التَّعبير عن النَّفس توأمَ الكذب.

149

[1918؟]

أنا إحدى تلك الأرواح التي تزعمُ النِّساءُ بأنَّهُنَّ يُحْبِبْنَهَا، ولكنَّهُنَّ لا يَعْرِفْنَها حين يلتقين بها؛ أنا إحدى تلك الأرواح التي حين تريدُ امرأةٌ أن تعرفها، تظلُّ عاجزة عن أن تعرفني. انكفأتُ على رِقَّة مشاعري مُزدرياً. أمتلكُ جميعَ الصِّفات المُقدَّرةِ في الشُّعراء الرُّومانسيِّين، حتَّى الافتقارَ إلى تلك الصِّفات بعينها التي تجعل المرء شاعراً رومانسياً أصيلاً. أجدُ نَفْسي (بعضَ الشَّيءِ) موصوفةً في عدَّة روايات بكونها بطلة حبكات مختلفة، ولكنَّ كُنْهَ حياتي وكُنْهَ روحي هما ألَّا أكون البطل.

لا فكرة واضحةً لديَّ عن نَفْسي، ولا حتَّى فكرة تنطوي على عدم وجود فكرةٍ عن نَفْسي. فأنا رحَّالةُ وعيي بِنَفْسي. تناثرتْ قطعانُ غِنَايَ الجُوَّانيِّ في أثناء الخَفارة الأولى.

المأساة الوحيدة أن نكون عاجزين عن تصوُّر أنفسنا بوصفها مأساويَّةً. امتلكتُ دائماً تلك الرُّؤية الواضحة لتعايُشي مع العالَم، فلم أشعر قَطُّ بافتقارٍ إلى تعايشي معه، ولهذا، لم أكُن شخصاً عاديّاً بتاتاً.

أنْ تفعلَ يعني أنْ تستريح.

كلُّ المعضلات غير قابلة للحلِّ، فجوهر أيِّ مشكلة غيابُ الحلِّ. والذَّهابُ بحثاً عن الحقيقة يعني عدم وجود حقيقة، والتَّفكيرُ هُوَ ألَّا تعرف كيف تُوجَد.

أقضي ساعاتٍ في بعض الأحيان قرب النَّهر في «تَخَايْرُو دُو پَاسُّو[134]» أتأمَّلُ بعبثٍ. لا يكفُّ تبرُّمي عن سعيه إلى انتزاعي من ذلك المزاج الهادئ، ولا يكفُّ كسلي عن إبقائي هناك ساكناً لا أتحرَّك. فأتأمَّل حينئذ، بِسُبَاتٍ فيزيقيٍّ لا يُشبه إلَّا الشَّهوانيَّةَ على الشَّاكلة التي تُشبه فيها الرِّيحُ الهامسة الأصواتَ، في النَّهَم الأبديِّ لرغباتي الغامضة، في تقلقُل أشواقي المستحيلة الذي لا يكفُّ. أُعاني، في المقام الأوَّل، من القُدرة على المعاناة. أفتقرُ إلى شيء لا أُريده، والمعاناة جرَّاء الافتقار ليستْ معاناة حقاً.

رصيفُ الميناء والأصيلُ وهواءُ البحر بعضٌ من قلقي. ونایاتُ الرُّعاة المستحيلين ليستْ أعذبَ من غياب النَّايات التي تُذكِّرني بهم هُنَا. تَطعنُني، في هذه السَّاعة التي تُشبه نَفْسَها، أناشيدُ الغزل العُذريِّ البعيدة التي يُبدِّدها الرُّعاةُ قرب الجداول [...]

150

[1918؟]

أيُّ ملكةٍ غامضة تنتظرني قرب بحيرتها، ولا تسأمُ من السَّهر على ذاكرة حياتي المُحطَّمة؟ كنتُ السَّاعيَ، حاملَ الرَّسائل إلى الجادَّات التي تحفُّها الأشجارُ والتي تكشَّفَ أنَّها عاديَّة جداً ولا تليقُ بالسَّاعات الطَّيْريَّة لِسَكِينتي الزَّرقاء. سفنٌ بعيدة أكملتِ البحرَ الذي راقبتُ أمواجَه من الشُّرفات، فضيَّعتُ في السُّحُبِ الجنوبيَّة روحي كمجذافٍ مرميٍّ بِطَيْش.

151

[1918؟]

تُدهشني قُدرتي على تحمُّل الكَرْب. ولأنَّني لم أكُن بِطَبْعي غيبياً، فقد بدَّدتُ أيَّاماً بأكملها في كَرْب شديد عاجزاً، حتَّى جسدياً، عن الوصول إلى حلٍّ لبعض المسائل الغيبيَّة والدِّينيَّة الإشكاليَّة...

---

(134) Terreiro do Paço (وتلفظ، أيضاً: تِخِيْرْ دُ پاسُّو؛ وتعني حرفيّاً: ساحة القصر) وتعرف، أيضاً، باسم Praça do Comércio (وتعني حرفيّاً: ساحة التّجارة): ساحة في لشبونة تضمُّ مجموعة من المباني والأروقة تعود إلى القرن الثامن عشر مقابل نهر تيجو. (المترجم)

ثُمَّ سرعان ما تنبَّهتُ إلى أنَّ حلَّ المسائل الدِّينيَّة الإشكاليَّة كان يعني، بالنِّسبة إليَّ، العثور على حلٍّ منطقيٍّ لمشكلتي العاطفيَّة.

152 [135]

[1918؟]

نهرُ الحِيازة

من البداهة أن نكون مختلفين جميعاً على الصَّعيد الإنسانيِّ. لا نبدو متشابهين إلَّا من بعيدٍ، أي حين لا نكون أنفسَنا حَقاً. تُفضِّلُ الحياةُ، حينئذٍ، غيرَ المُعرَّف؛ فلا يمكن أن يتعايشَ إلَّا أولئك الذي يفتقرون إلى التَّعريف، وأولئك الذين هُم جميعاً لا أحدَ على حدٍّ سواء.

كلٌّ واحدٍ مِنَّا اثنان، وكلَّما التقى شخصان أو تقاربا أو توحَّدتْ قوَّتهما، فإنَّ من النَّادر أن يتَّفق هؤلاء الأربعة. وإذا تشاجرَ الحالمُ الذي في كلا الشَّخصَيْن الفاعلَيْن كثيراً مع الشَّخص الفاعل الذي هُو داخله، فلا بُدَّ أن يتشاجرَ مع الحالم الذي في الشخص الآخر ومع الشَّخص الفاعل الآخر نَفْسه.

كلُّ حياةٍ قوَّةٌ في ذاتها، ويميلُ كلُّ واحدٍ مِنَّا نحو نَفْسه عن طريق الآخرين. لو كان لدينا ما يكفي من احترام الذَّات لنجد أنفسنا مرغوبين [...] كلُّ لقاءات الصُّدفة، التي يدنو فيها بعضُنا من بعض، صراعاتٌ محتمَلةٌ. فالشَّخص الآخر عقبةٌ دائمةٌ بالنِّسبة إلى أولئك الباحثين عن شيء أو شخص ما. وحدهم الذين لا يبحثون هم السُّعداء، لأنَّ الذين لا

(135) توجد على الأوراق الثّلاث، الضّاربة الى الزُّرقة، التي كتب عليها بِسْوّا هذا المقطع، بحبر أسود، ثلاث قصائد؛ الأولى، قصيدة قصيرة في بيتَيْن، مؤرّخة بتاريخ 1918/11/14: «Nesta hora tu liberta e tu consola،/ Filha virgem de Deus» (= «تُحرِّرينَ في هذي السّاعةِ وتواسينَ،/ يا ابنةَ الإلهِ البتولَ»). نُشرت لاحقاً في مجلّد أعماله الشّعرية الكاملة الصادر بالبرتغاليّة Obra poética de Fernando Pessoa في جِيو جي جانيرو بالبرازيل عن دار Nova Fronteira في العام 2016). والقصيدةُ الثّانية بعنوان «Juliano em Antiochia» (= جوليانو في أنطاكيّة)، كتبَتْ بتاريخ 1918/11/23، وهي في ستّة أبياتٍ، مطلعها: «No azul da tarde o hymno christão se mexe» (= تهتزُّ في زُرقة المساءِ ترنيمةُ كريشتَو). أمّا القصيدة الثّالثة، فمؤرّخة بتاريخ 1918/11/14، وتحمل عنوانًا بالإنجليزية: «Poem on the War» (= قصيدة عن الحرب). (المترجم)

يبحثون سوف يجدون وحدهم -نظراً إلى أنَّ الذين لا يبحثون قد نالوا ما أرادوه فعلاً- أنَّ الذي يمتلكونه بالفعل، مهما كانَ، هو السَّعادة، وأنَّ الجزء الأسعدَ في كون المرء غنياً هو ألّا يُفكِّر.

أنظرُ إليكِ داخل نَفْسي يا عروسيَ المُتخيَّلة، ولقد تشاجرنا في الحال حتَّى قبل أن تُوجَدي. تمنحني عادتي في الحُلم الجليِّ البصيرةِ فكرةً شديدةَ الوضوح عن الواقع. فمَن يحلم كثيراً يحتجْ إلى أن يمنح أحلامَهُ حقيقةً واقعيَّةً. ولا بُدَّ لمن يمنح أحلامه حقيقةً واقعيَّة أن يُضفي على تلك الأحلام توازنَ الواقع. ويتوجَّب على الذي يُضفي على أحلامه توازنَ الواقع أن يعاني من واقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من واقعيَّة الحياة ومن لاواقعيَّة الحُلم بالقَدْر الذي يعاني فيه من إحساسه بالحياة بوصفها لاواقعيَّةً.

إنَّني أحلمُ أحلامَ يقظةٍ وأنتظرُكِ في حُجرتنا ذاتِ البَابَيْن، أحلمُ بأنَّكِ وصلتِ، وأنَّكِ قد دخلتِ في حُلمي ثُمَّ تقدَّمتِ نحوي عبر الباب الأيمن، بَيْدَ أنَّكِ لو دخلتِ حين دخلتِ، من الباب الأيسر، لأَضحى ثمَّة فارقٌ بينكِ وبين حُلمي. يكمن كلُّ ما تنطوي عليه المآسي الإنسانيَّةُ في ذلك المثال الصَّغير؛ أنَّ أولئك الذين نُفكِّر بهم ليسوا البتَّة الأشخاصَ الذين نُفكِّر أنَّهم كذلك.

يتطلَّب الحُبُّ مِنَّا أن نكون متشابهين تماماً ومختلفين، وهذه مسألة غير ممكنة في المنطق، ولكنَّها ماتزال قليلة في الحياة. يريدُ الحُبُّ أن يحوز، أن يصنع شيئَهُ الخاصَّ الذي يتوجَّب أن يظلَّ في الخارج حتَّى يكون قادراً على التَّفريق بين الشَّيء الذي صنعه لِنَفسه وبين نَفْسه ذاتِها. أنْ نُحِبَّ يعني أنْ نُسلِمَ أَنْفُسَنا للحُبِّ. فكلَّما تعاظمَ الاستسلامُ، تعاظمَ الحُبُّ. ولكنَّ الاستسلام الكليَّ أنْ يُسلِمَ المرءُ وعيَهُ إلى الشَّخص الآخر. فالحُبُّ الأعظمُ هُوَ الموتُ أو النِّسيانُ أو الزُّهدُ - فكلُّ حُبٍّ هُوَ رِجسُ الحُبِّ.

كُنَّا على شُرفة القصر العتيق، عالياً فوق البحر، نتأمَّلُ صامتَيْن الاختلافات التي بيننا. كنتُ الأمير، على الشُّرفة قرب البحر، وأنتِ الأميرة. وُلِدَ حُبُّنا في لقائنا الأوَّل، كالجَمال الذي انبثقَ حين التقى القمر بالماء.

يُريد الحُبُّ أن يحوزَ، ولكنَّهُ لا يفهمُ ما الحِيازةُ؟ فإنْ لم أكُن مُلكِي، فكيف سأكون لكِ أو تكونين لِي؟ وإنْ لم أحُزْ كينونتي، فكيف سأحوز كينونة شخص آخر؟ وإن كنتُ مختلفاً بالفعل عن الشَّخص الذي أُشبهه تماماً، فكيف سأُشبه الشَّخص الذي أنا مختلف عنه تماماً؟

الحُبُّ تصوُّفٌ يرغبُ في أن يُطبَّق، واستحالةٌ لا بُدَّ أن تكون، وفقَ أحلامنا، مُمكنة.

غيبيَّاتٌ محضةٌ. ولكنَّ الحياة غيبيَّاتٌ في العتمة، والآلهةُ الثَّرثارون، في الخلفيَّة، وجهلُنا المُطلَق بالطَّريق التي أمامَنا بوصفها الطَّريق الوحيدة الممكنة إلى الأمام.

أسوأ خدعة يمارسها انحطاطي[136] عليَّ هي حُبِّي للصِّحة الجيِّدة والوضوح. فلطالما شعرتُ بأنَّ الجسد الجميل والمشية المَرِحة لشخص فتيٍّ لهما الحقُّ في أن يكونا في العالَم أكثر من أيِّ حُلم من أحلامي. أحياناً، في الآصال -بِفَرَح المُسِنِّ في الرُّوح، ولكنْ بلا أيِّ رجفةٍ أو حسد أو رغبة- أشاهدُ الأزواج يتمشَّون، وقد تأبَّط بعضُهم أذرعَ بعض، صوب وعيهم الطَّافح بكونهم يافعين. أتمتَّعُ برؤيتهم تمتُّعي بحقيقةٍ ما، غافلاً إنْ كان الأمر يخصُّني أم غير ذلك. وحتَّى لو قارنتهم بِنَفْسي، فماأزالُ أتمتَّع برؤيتهم، ولكن كشخص يتمتَّع بحقيقة مؤلمة، تمزج ألم الجرح ببلسم فهم الآلهة.

أنا نقيضُ أولئك الأفلاطونيِّين الرَّمزيِّين الذين ينظرون إلى الكينونة كلِّها، والفعل كلِّه، على أنَّهما ظلٌّ حقيقة واقعة هي في حدِّ ذاتها مجرَّد ظلٍّ ليس إلَّا. فكلُّ شيء، بالنِّسبة إلي، نقطةُ انطلاقٍ لا نقطة وصول. وكلُّ شيء، بالنِّسبة إلى المُنجِّم، ينتهي في كلِّ شيء؛ أمَّا بالنِّسبة إلي، فكلُّ شيء يبدأ في كلِّ شيء.

ولكنَّني مثلهم؛ تقودني المُماثَلَةُ والإيحاءُ، بيد أن الحديقة الصَّغيرة التي تَشي عندهم بنظام الرُّوح والجَمال، هي عندي مجرَّد تذكرةٍ بالحديقة الأكبر حيث، بعيداً عن البشريَّة، يمكن لهذه

(136) الانحطاط، هُنَا، بمعنى الـ decadence، الذي سبق الإشارة إليه في حاشية سابقة، وليس بمعنى الانحطاط الأخلاقي. (المترجم)

الحياة التَّعيسة أن تكون سعيدة. فلا شيءَ، بالنِّسبة إلي، يَشي بحقيقته التي هي الظِّلُّ، وإنَّما بالحقيقة التي هي الطَّريقُ إليه.

تتراءى لي حديقةُ إِشْترِيلا[137] في الآصال حديقةً قديمة تعود إلى القرن الذي سبق خيبةَ أمل الرُّوح.

153

[1918؟]

كلَّما سافرتُ أسافرُ بعيداً. أشعرُ أنَّ التَّعب قد هدَّني بعد رحلة بالقطار إلى **كَشْكَايْش**[138] كما لو عبرتُ في وقت قصيرٍ المناظرَ الطَّبيعيَّة والمدن لأربع دول مختلفة أو خمسٍ.

أتخيَّلُنِي أعيش في كلِّ بيت أعبره، وكلِّ دارة، وكلِّ كوخ صغير منعزل مُبيَّضٍ وصامت؛ أتخيَّلُني سعيداً في البداية، ثُمَّ ضجراً، ثُمَّ مُتعباً، ثُمَّ حاملاً معي، وقد هجرته، الحنينَ الهائل إلى الوقت الذي قضيته هُناك. هكذا، كلُّ رحلة حصادٌ سعيد مؤلم لمسرَّاتٍ عظيمة، وسأمٍ عميم، وحنينٍ[139] باطل لا حَدَّ لَهُ.

ثُمَّ وأنا أعبر البيوت والدَّارات والشَّاليهات، أعيش داخل نَفْسي كلَّ حيوات النَّاس الذين عاشوا هُناك. أعيش كلَّ تلك الحيوات المنزليَّة في وقت واحدٍ فأكون، في الوقت نَفْسه الأب، والأمَّ، والأطفال، وأبناء العمومة، والخادمة وابن عمِّ الخادمة. والفضل يعود إلى موهبتي الخاصَّة في أن أشعر بعدَّة أحاسيس مختلفة في الوقت نفسه، وأن أختبر حيوات أشخاص مختلفين في آنٍ معاً، في حين أراهم خارجي، طيلة الوقت، وأشعرُ بهم فِـيَّ.

أخلقُ شخصيَّات مختلفة داخل نَفْسي ولا أكفُّ، ثُمَّ سرعان ما يتجسَّدُ كلُّ حُلم أحلم به، لحظةَ الحُلم، في شخص آخر يواصل الحلم بذلك الحلم، عوضاً عنِّي.

ولكي أُبدع أُدمِّرُ نَفْسي، فلقد جعلتُ نَفْسي بَرَّانيَّةً، شديدةَ البرَّانيَّةِ، داخل نَفْسي حتَّى إنَّني لا أُوجَدُ داخل نَفْسي إلَّا خارجَ نَفْسي. أنا خشبةُ المسرح الخالية التي يُؤدِّي عليها ممثِّلون مختلفون مسرحيَّاتٍ مُختلفة.

154

[1918؟]

ذات يوم

ذهبتُ عِوضاً عن تناول طعام الغداء -وهي رغبة لديَّ لأُجبر نَفْسي على أن تشعر بكلِّ يوم- لرؤية نهر تيجو، ثُمَّ عدتُّ أدراجي هائماً في الشَّوارع دون أن أتخيَّل أنَّني قد أجدُ من المفيد لروحي أن تكون قد رأتِ النَّهر. بَيْدَ أنَّ...

العيشُ عبثٌ. وحده النَّظرُ يستحقُّ العناء، فإنِ استطعتُ النَّظرَ دون أن أظلَّ على قيد الحياةِ فسوف أبلغُ السَّعادة، ولكنَّ ذلك مستحيل مثل كلِّ شيء نحلم به. كم نشوانة النَّشوةُ التي لا تتورَّطُ فيها الحياةُ! ...

ولَو استطعنا على الأقلِّ إيجادَ تشاؤم جديد، نَفْيٍ جديد للحياة، لاستطعنا امتلاكَ وهمِ أنَّ شيئاً مِنَّا، حتَّى لو كان سيِّئاً، سوفَ يظلُّ!

155 (140)

[5 أكتوبر 1919]

لا شيءَ يكشفُ بحميميَّةٍ، ويُفسِّرُ تفسيراً كاملاً، ماهيَّةَ سوءِ بختي الفطريِّ مثلُ أحلام يقظتي المفضَّلة، البلسمِ الذي أختاره غيرَ مرَّةٍ لقلقي الوجوديِّ الشخصيِّ. كُنْهُ ما أُحبُّ: أنَ

(140) أغفلت جول كوستا، هُنَا، الإشارة إلى أنَّ هذا المقطع معنون في الأصل من لدن بِسُوَّا نفسه بعبارة «الرَّائد O Major». ولم تغفل الطبعات البرتغالية المختلفة الإشارة إلى العنوان. وثمَّة قصيدة «غير مكتملة»، دوَّنها بِسُوَّا على ظهر الصَّفحة المُسطَّرة، التي خطَّ عليها هذا المقطع، مؤرَّخة بتاريخ 1919/10/8، وموزَّعة في عمودَيْن. القصيدة بعنوان «Sonitus Disilientes aquae»، الذي يمكن ترجمته بـ «صوت الماء المُقطَّر». (المترجم)

أنامَ حياتي. أُحبُّ الحياة كثيراً حتَّى إنَّني أرغبُ في أن تنتهي؛ أحبّ ألا أعيشها كثيراً حتَّى أشعر برغبةٍ مُلحَّة، أكثرَ ممَّا ينبغي، في أن أعيشها.

وهذا يغدو حينئذٍ حلمي المُفضَّل بين جميع أحلامي. أحياناً، في اللَّيل، حين لا تكون ثمَّة نأمةٌ في البيت، لأنَّ أصحابه قد خرجوا أو غرقوا في الصَّمت، أُغلقُ نوافذ غرفة نومي، وأُوصد مصاريع الأبواب الثَّقيلة، ثمَّ وأنا أرتدي بذلة عتيقة بالية أغرقُ في أريكتي الأعمق، وأنطلق في حُلم أنَّني رائدٌ متقاعد في فندق ريفيٍّ، ظلَّ بعد انصراف الآخرين، رفقةَ زوجَيْن لم يشملا مثل بقيَّة النُّزلاء.

أتخيَّل أنَّني قد وُلدتُّ على تلك الشَّاكلة. لستُ مكترثاً بفتوَّة ذلك الرَّائد المتقاعد، ولا كيف ترقَّى ليصل إلى تلك الرُّتبة العسكريَّة التي أتوق إليها. بمعزلٍ عن **الوقت والحياة**، لا حياةَ ماضية، ولا والدَيْن، للرَّائد الذي أتخيَّلُ أنْ أكونَهُ؛ إنَّهُ موجودٌ إلى الأبد في ذلك الفندق الرِّيفيِّ، ولقد هدَّه التَّعبُ في هذه الأثناء من الحكايات التي قصَّها عليه نُزلاء آخرون لم يبرحوا أماكنهم بعد انصراف الآخرين.

156

[1919؟]

يخطر في بالي أحياناً، وقد غمرني فرحٌ حزين، أنَّ هذه الجُمَل التي أخطُّها لا بُدَّ أن تحظى بالمديح ذات يوم في المستقبل الذي لن أنتمي إليه، سوف أكون على الأقلِّ قد عثرت على ناسٍ «يفهمونني»، على شعبي، عائلتي الحَقَّة التي سوف أُولَد لها، التي سوف تُحبُّني. ولكنْ، بعيداً عن ولادتي في تلك العائلة، سيكون قد مرَّ على موتي حينئذٍ أمدٌ مديد. لن أُفْهَم إلَّا وأنا في شكل صورة أو تمثال، ولن تتمكن المودَّة حينها أن تُعوِّض الشَّخص الميِّت عن نقص الحُبِّ الذي شعر به وهو على قيد الحياة.

ربَّما سيفهمون ذات يوم أنَّني قد أكملتُ، كما لم يفعل أحدٌ قطُّ، واجبي الفطريِّ كشارحٍ لحقبة معيَّنة من قرننا؛ وحين يفهمون سيكتبون أنَّه قد أُسيءَ فهمي في زماني؛ سيكتبون أنَّني عشتُ -يا للحسرة!- مُحاطاً ببرودة المشاعر واللَّامبالاة، ويا لها من خسارة أنَّني قد كنتُ كذلك. ولسوف يحار الشَّخص الذي يكتب -بصرف النَّظر عن الحقبة المستقبليَّة التي

يكتب أو تكتب فيها- مِن نِدِّي في ذلك الزمن المستقبليّ، مثلما سيحار أولئك الذين مِن حولي الآن. لأنَّ البشر لا يتعلَّمون إلَّا كي يُعلِّموا أسلافهم الذين ماتوا منذ زمن بعيد، ولن نكون قادرين إلَّا على تعليم قواعد الحياة الحقَّة لأولئك الذين قد ماتوا فعلاً.

لقد توقَّف المطر أخيراً في هذا الأصيل الذي أكتبُ فيه. ثمَّة مرَحٌ في الهواء يسري رِعشةً في بدني. والنَّهارُ لا ينقشعُ رمادياً بل أزرقَ شاحباً. حتَّى الحصى في الشَّوارع تعكسُ هذه الزُّرقة الغامضة. من المؤلم أن يكون المرء على قيد الحياة، ولكنَّه وجع بعيد. الشُّعور غير مُهمٍّ. أُضيئَت الأنوار في فترينة حانوت أو حانوتَيْن.

أستطيع أن أرى، عالياً في نافذة أخرى، أنَّ النَّاس هُنَاك قد أنهوا أعمالهم. والشَّحاذُ الذي لمسني حين مرَّ مسرعاً سيدبُّ في قلبه الخوف لو عرفني.

والأزرقُ، الذي يزدادُ على مَهْلٍ، أقلَّ شحوباً وأقلَّ زُرقةً، منعكسٌ على المباني مثلما تهبطُ هذي السَّاعةُ الغامضة أبعدَ في المساء.

إنَّها تسقطُ بخفَّةٍ نهايةُ هذا النَّهار الأكيدةُ، حيث أولئك الذين يؤمنون ويرتكبون الأخطاء الفاحشة مستغرقون في أعمالهم العاديَّة، الذين يتنعَّمون في غمرة آلامهم بنعيم اللَّاوعي. إنَّها تسقطُ بخفَّةٍ، موجةُ الضوء المُحتضر، كآبة المساء المُبدَّد، السَّديم الرَّفيع الذي يدخل قلبي. إنَّه يسقطُ بخفَّةٍ ورقَّةٍ، هذا الشُّحوبُ الأزرق الشَّفَّاف الغامض للمساء المائيِّ؛ خفيفاً، ورقيقاً، وحزيناً، يسقطُ على الأرض البسيطة، الباردة. إنَّه يسقط بخفَّةٍ، كرمادٍ محجوب، كرتابةٍ مُعذَّبة، كسأمٍ نشيط.

157 [141]

[نحو 12 يناير 1920]

[جنازة؟]

كم مرَّةً، في تاريخ جميع العوالم المختلفة، يتوجَّب على مُذنَّب شاردٍ أن يُدمِّر واحداً منها!

(141) ثمَّة قصيدة قصيرة «غير مكتملة» بعنوان «Limitations» (= تقييدات) كان پِسُوًّا قد نظمها، بالإنكليزيَّة، بتاريخ 1920/1/12، على ظهر الورقة الأولى من هاتَيْن الورقتَيْن الضاربتَيْن إلى الزُّرقة اللَّتَيْن خطَّ عليهما هذه الشَّذرات. مطلع القصيدة: «لا خيارَ لديَّ سوى الأحلام I have no choice but dreams». وثمَّة أيضاً مقطع بالإنكليزيَّة مرقون على الآلة الكاتبة، بتاريخ 1920/1/21، يبدأ بعبارة «شقيقها الشَّابُّ Her young brother». (المترجم)

مثل تلك الكارثة الفيزيقيَّة مرتبطة بمصير كثير من المشاريع الفكريَّة. **المِيْتة** تراقب[142]، مثل شقيقةِ مُفكِّرٍ، و**القَدَرُ** [...]

الموتُ يعني الخضوع لبعض حقيقةٍ خارجية، ونحنُ، في كلِّ لحظة من حيواتنا، انعكاسٌ وأثرٌ لما يحيط بنا على حدٍّ سواء.

الموتُ خلفَ كلِّ إيماءة حيَّةٍ. نُولَد موتى، ونعيش موتى، وندخل الموتَ موتى.

ومَا نحنُ إلَّا من خلايا حيَّةٍ وفي حالة من الفناء الدَّائم، مخلوقينَ من الموت.

158 [143]

[1920؟]

جنازة

ماذا يفعل أيٌّ مِنَّا في هذا العالَم ليزعجَهُ أو يُغيِّره؟ أليسَ لكلِّ امرئٍ جديرٍ شخصٌ آخر على قَدْرِ الجدارةِ ذاتها؟ فالمرءُ العاديُّ جديرٌ جدارةَ امرئٍ عاديٍّ آخر؛ والمرءُ الفاعل جديرٌ بالطَّاقة التي يَمنحها؛ والمفكِّرون جديرون بكلِّ ما يُبدعون.

كلُّ ما يُبدِع المرءُ من أجل البشريَّة هُوَ تحت رحمة **الأرض** الباردة. وكلُّ ما يتركه المرءُ خلفَه من أجل الأجيال القادمة فهو إمَّا طافح بأفكاره الخاصَّة التي لن يفهمها أحد، وإمَّا أنَّه يعبِّر تعبيراً نموذجياً عن العصر الذي يعيش فيه المرء إلى درجة أنَّ العصور الأخرى لن

---

(142) سبقت الإشارة بالتَّفصيل في حاشية سابقة إلى أنَّ لفظة الموت عند بِسُوَّا تأتي مؤنثة في سياقات معينة، لذا فإنني أستعمل «مِيتة» عوضاً عنها (المترجم).

(143) ثمَّة قصيدة نظمها بِسُوَّا تظهر في هذه الصَّفحات التي دوَّن عليها هذا المقطع، تعود لتاريخ 1917/3/12، بحسب ما يذكر پيسارُّو في طبعته البرتغالية (2010: 738). مطلع القصيدة: «**السَّكينةُ أخيراً. يا قلبيَ المهجور** Sossego enfim. Meu coração deserto». أدرجت القصيدة كاملة في الطبعة البرتغاليَّة لأشعار بِسُوَّا المكتوبة بين عامي 1902 و1917، التي حرَّرتها مانويلا پاريرا دا سيلفا وآنا ماريا فريتاش ومادلينا دايني في العام 2005. وثمَّة قصيدة أخرى، في ستَّة أبيات مُقتضبة، دوَّنها بِسُوَّا على ورقة منفصلة، ضمن حزمة الأوراق التي كتب عليها هذا المقطع، بحبر أسود، تبدأ بـ: «شيءٌ صغيرٌ جداً! ولكنْ ثمَّة واحاتٌ صغيرةٌ Tão pouca cousa!/ Mas ha oasis pequenos». (المترجم)

تفهمه، وإمَّا أنَّه سوف يروق لجميع العصور، ولكن لن تفهمه الهاوية الأخيرة التي سوف تندفع إليها في نهاية المطاف العصور كلُّها.

نومئُ في العتمةِ، نحن الذين لسنا إلَّا ظلالاً فحسبُ. خلفَنا، السِّرُّ [...]

كُلُّنَا فانٍ، خُلِقنا لندومَ بعضَ الوقت ليسَ إلَّا، لا أكثرَ أو أقلَّ. فبعضهم يموتُ حينَ يموت، وبعضُهم يعيش قليلاً من الوقت في ذكريات أولئك الذين رَأَوْهُ وسمعوه؛ في حين يظلُّ بعضٌ في ذاكرة الأُمَّة التي وُلد فيها؛ وبعضٌ يملأ ذاكرة الحضارة التي امتلكته؛ ولكنَّ قِلَّةً تُجسِّرُ الدَّوافع المتناقضة للحضارات المختلفة... بَيْدَ أنَّ هاوية الزَّمن تحيد بِنَا جميعاً، ولسوف تلتهمنا في النِّهاية؛ نعم، سوف نسقطُ بين فَكَّيِّ الهاوية التي [...]

أنْ تعيشَ إلى الأبدِ رغبةٌ، وأنْ تكون أبدياً وهمٌ.

نحنُ الموتُ ونعيشُ الموتَ. وُلِدنا موتى، ونُوجَدُ في الموتِ، وندخلُ في الموتِ موتى.

فكلُّ شيءٍ يعيشُ، يعيشُ لأَنَّهُ يتغيَّرُ؛ يتغيَّرُ لأنَّ كلَّ شيءٍ يمرُّ؛ ولأنَّ كلَّ شيءٍ يمرُّ، فإنَّهُ يموتُ. وكلُّ شيءٍ يعيشُ أبدَ الدَّهرِ يُصبِحُ غيرَهُ الذي يُنكِرُ الحياةَ ولا يكفُّ ويراوغُ الحياةَ ولا يكفُّ.

إذَّاكَ تغدو الحياةُ برزخاً، آصرةً، صِلةً، ولكنَّها الصِّلةُ بين ما حدثَ وما سوف يحدثُ، برزخاً ميِّتاً بين الموتِ والموتِ.

... بصيرةٌ، خيالٌ منسوجٌ من الظَّاهريِّ والخطأِ فحسب.

ليست الحياةُ الماديَّة إلَّا حُلماً صافياً أو مُجرَّدَ فوضى ذرَّاتٍ لا تعرفُ شيئاً عمَّا استخلصته بصيرتُنا[144] أو عن بواعث مشاعرنا. ولهذا، فإنَّ كُنْهَ الحياةِ وهمٌ، مظهرٌ، فلا وجودَ إلَّا

(144) استخدم كلمة البصيرة، سواء هُنا، أو في المواضع الأخرى من الكتاب، كمقابل لكلمة intelligence (وفي البرتغاليَّة: intelligencia)؛ فهي أعمق، في دلالتها، من لفظة الذَّكاء/الفطنة مجرَّدة، إذ إنَّها لا تقتصر في معناها الظَّاهريِّ على الفراسة والفطنة والنظرة النَّافذة إلى خفايا الأشياء فحسب، وإنما تتعداه، أيضاً، لتشمل الذَّكاء، في حدِّ ذاته، والعقل الثَّاقب والإدراك والذِّهن المتوقِّد والعلم والخبرة والعقيدة والرأي... إلخ. (المترجم)

للوجودِ أو العَدَم؛ أي أنَّ الحياةَ هي الموتُ.

كم عبثيَّة، مُطلقَ العبثِ، تلك الجهودُ التي نبذلها في البناء والإنشاء وعيونُنا مُسمَّرةٌ على وهم أنَّنا لن نموت! نقول: «قصيدةٌ أبديَّةٌ، كلماتٌ لن تموتَ أبداً». ولكنَّ برودة المادَّة الأرضيَّة لن تجرفَ الأحياءَ الذين يعيشون فوق سطحها فحسب، وإنما [...]

قصيدةٌ لهوميروس أو قصيدة لميلتون[145] ليست أكثر من مُذنَّبٍ يرتطمُ بالأرض.

159 [146]

[1920؟]

القبر الأجوف

لم تضع الأرملةُ ولا الابن على لسانهِ قطعةَ النُّقود المسكوكة التي دفعها إلى خارون[147]. محجوبتان عنَّا إلى الأبدِ العينانِ اللَّتان عبرَ بهما نهرَ أخيرون[148]، فرأى انعكاسَ الوجه الذي لا نعرفُ، تسعَ مرَّاتٍ، في المياه الجهنَّميَّة. ولا اسمَ للظلِّ الذي يطوفُ الآن ضفافَ أنهار العالم السُّفليِّ، لا اسمَ لَهُ بيننا؛ فاسمُهُ هُوَ أيضاً ظِلٌّ.

ماتَ فداءَ وطنه، دون أن يعرف كيف أو لماذا. لتضحيته مجدُ ألَّا تُعرفَ. بذلَ حياتَهُ بروحه كلِّها: بالفطرة، وليس بدافع الواجب؛ لحُبِّه لوطنه، وليس بدافع الوعي. دافع عنه كما ندافع عن أُمٍّ نحن أولادها بحكم الولادة لا بالمنطق. لم يُفكِّر ولم يرغبْ، مُخلصاً للسِّرِّ البَدْئيِّ، ماتَ موتَهُ بالفطرة مثلما عاش بالفطرة حياتَهُ. والظلُّ الذي يرتديهِ الآنَ يجعلُهُ أُماً لأولئك الذين

---

(145) الشاعر الإنكليزي جون ميلتون، صاحب الفردوس المفقود. (المترجم)

(146) يذكر زينيث، في حواشي طبعته الإنكليزيَّة، وجودَ شبه جُملتَيْن غير مكتملتَيْن، بعد الفقرة السَّادسة، يُفترض أنَّ پِسْوّا قد فكَّر في دمجهما في نسخة مُنقَّحة من هذا النَّص؛ الأولى: «عن البطولة الخالصة، بلا جنَّة يفوز بها بالشَّهادة، ولا بشريَّة يصونها بالكفاح؛ عن الجنس الوثنيِّ القديم الذي ينتمي إلى المدينة التي ليس خارجها إلَّا البرابرة والأعداء». أمَّا الثانية، فهي: «ولكن بعواطف ابنٍ يُحبُّ أُمَّه لأنَّها أُمُّه ولأنَّه ابنها». (المترجم)

(147) Charon (بالبرتغاليَّة: Charonte): واجبُ خارون، في الميثولوجيا الإغريقيَّة، أن يعبر بقاربه نهر أخيرون (ستيكس) ناقلاً أرواح الذين ماتوا، مقابل أن يحصل على قطعة النقود المعدنيَّة التي توضع على لسان الميِّت عند دفنه. (المترجم)

(148) Styx (بالبرتغاليَّة: Styge): ويعرف أيضاً باسم نهر ستيكس، وهو نهر عالم الأموات في الميثولوجيا الإغريقيَّة. (المترجم)

سقطوا في ثيرموپيلاي[149]، مُخلصينَ في قرارة أنفسهم للعهد الذي وُلِدوا من أجله.

لا ريبَ أنَّه قد مات فداءَ وطنه، مثلما تُشرق الشَّمس في كلِّ يوم. فلقد كان في أصل نَفْسهِ ما سوف يصنع منه **الموتُ**.

لم يمُت عبداً لعقيدةٍ حماسيَّة، ولم يُقتَل محارباً من أجل ذلك الشَّيء الشِّرير، من أجل فكرة عظيمة. ودونَ أن يحدوه أدنى أمل بأيَّام أفضل للبشريَّة، لم يسقط دفاعاً عن فكرةٍ سياسيَّة، أو عن مستقبل البشريَّة، أو عن ديانة جديدة. وبعيداً عن الإيمان بعالَمٍ آخر يخدعُ فيه المؤمنون بالمسيح، أو أتباع روما، أنفسَهم، رأى الموت يصلُ بلا أمل يأتي بحياة جديدة، ورأى الحياةَ تعبرُ بلا أمل إلى حياة أفضل بعدَها.

ماتَ مِيتةً طبيعيَّةً، كما تموتُ الرِّيحُ أو يموتُ النَّهارُ، آخذاً معه الرُّوح التي كانت روحَهُ وحدَهُ. اقتحم العتمةَ، كمَن يمرُّ عبر بابٍ، فبلغَ وُجهته. ماتَ فداءَ وطنِهِ، الشَّيءِ الوحيد الأسمى الذي لا يُدانيه شيءٌ عندنا، الذي نستطيع معرفته وفهمه على هذا النَّحو. لا جنَّةُ المسيحيِّين انعكستْ في عينيهِ، حين انطفأتْ فيهما شعلةُ الحياة الأرضيَّة، ولا جنَّةُ المسلمين ولا نِسيانُ البوذيِّين المتسامي.

لم يعرف مَن كانَ، مثلما لا نعرفُ من هُو. أدَّى واجبَه دونَ أن يعرف أنَّه قد كانَ. قادَهُ الشَّيءُ ذاتُه الذي يجعلُ الوردَ يتفتَّح وسقوطَ الأوراقِ يَحزنُ. لا سببَ أعظم لدى الحياة، ولا مَثُوبةَ أعظم لدى الموت.

الآن، لو سمحت الآلهةُ، سوف يزور تلك الأقاليم حيث لا نُورَ، عابراً كُوسيتوس، نهرَ الرِّثاء، ونهرَ فليغيثون الملتهب، ولسوف يسمع في اللَّيل الوُلُوغَ النَّاعم لمياه نهر النِّسيان الشَّاحبة.

إنَّهُ مجهولٌ كالغريزة التي قتلته. لم يُفكِّر بأنَّه سيموت فداءَ وطنه، ولكنَّه قد فعل فحسب. ولم يشرع في القيام بواجبه، ولكنَّه قد فعل فحسب. حريٌّ ألَّا نسأل شخصاً لا اسمَ لَهُ ولا روحَ أيَّ اسمٍ مُنحَ لجسده. كان برتغالياً، ولم يكُن برتغالياً بعينه، كان البرتغاليِّين جميعاً.

(149) Thermopylae: ممرٌّ ساحليٌّ ضيِّق في اليونان، يعرف باسم البوابات الحارَّة، والمعركة دارت بين إسبرطة والفُرس. (المترجم)

ليس مكانُه قُربَ من أوجدوا البرتغالَ، الذين تمتَّعوا بمكانة مختلفة ووعيٍ مختلف. ولا ينتمي إلى زمرة أشباه الآلهة الذين شقَّتْ جُرأتُهم دروباً طويلة أكثرَ عبر البحر واكتشفوا أراضيَ أكثرَ ممَّا نستطيعُ استيعابَه.

لا تمثالَ ولا شاهدةَ قبرٍ تُخبرنا مَن كانَ، هذا الرَّجل الذي كان نحن جميعاً؛ ولأنَّهُ البشريَّة جمعاء، فلا بُدَّ أن تكونَ الأرضُ كُلُّها قبرَه. ولا بُدَّ أن ندفنه في ذاكرته، ولا شاهدةَ قبرٍ إلَّا مِثالُهُ.

160 (150)

[نحو 13 يناير 1920]

أتعمَّدُ تجنُّب الأشياء، عارفاً مقدارَ العذاب الذي أجده حتَّى في أصغرها. أتخيَّل كيف لواحد مثلي يعاني حتَّى حين تحجبُ غيمةٌ الشَّمسَ، أن يكابد مجبوراً اليومَ المُظلم الذي كانَ على الدوام حياتَهُ!

عزلتي ليستْ بحثاً عن السَّعادة التي ليس لديَّ ما يكفي من الرُّوح كي أظفر بها؛ أو بحثاً عن السَّكينة التي لن يصل إليها أحدٌ إلَّا حين يفقدها في المقام الأول؛ إنَّها بحثٌ عن النَّوم، والفناء، والزُّهد المتواضع.

جدرانُ غرفتي الأربعة هي، على التَّوالي، زنزانةٌ وبُعْدٌ وسريرٌ وتابوت. وأَسعدُ ساعاتي تلك التي لا أُفكِّرُ فيها بشيءٍ ولا أرغبُ في شيء، حين لا أحلمُ حتَّى، ضائعاً في سُباتٍ خضَريٍّ للطَّحالبِ التي تنمو على سطح حياتي. ألتذُّ دونَ مرارةٍ بوعيي العبثيِّ أنَّني لا شيءَ، بهذا الطَّعم المُسبقِ للموت والفناء.

لم يسبق أن كان لديَّ أحدٌ أُناديه «سيِّدي». ولم يمت المسيحُ من أجلي. ولم يُشِر بوذا إلى الدَّربَ الذي سوف أسلكه. ولم يتجلَّ أپولُّو في أحلامي ولا حتَّى أثينا كي تنير روحي.

(150) ثمَّة قصيدة «غير مكتملة» خطَّها پِسُوَّا في النصف السُّفليِّ (مقلوباً) من الورقة الثَّانية من أصل الورقتَيْن اللَّتَيْن دوَّن عليهما هذه الشَّذرة بالحبر الأسود. تتكوَّن القصيدة من مقطعَيْن و13 بيتاً، مؤرَّخة بتاريخ 1920/1/13، ويُشير پيسارُّو في ملحق طبعته (2010: 741) إلى أنَّه ليس بالضرورة أن تكون منسوبةً إلى برناردو سوارش. مطلع المقطع الأوَّل من القصيدة: «شيءٌ واحدٌ أشكرُ الآلهةَ عليه:/ النَّوم. اِنسَ الحياةَ/ فهي لن تكون هانئةً أبداً .. Aos deuses uma cousa
se agradeça:/ O somno. A vida esqueça/ Já que não pode ∧nunca ser feliz

161

[1920؟]

كلُّ الرِّجال المعاصرين، أولئك الذين مكانتُهم الأخلاقيَّة والفكريَّة تبزُّ على الأقلِّ مكانةَ الأقزام والفلَّاحين، يعشقون، حين يعشقون، عشقاً رومانسياً. فالعشق الرُّومانسيُّ هو الحصيلة المتطرِّفة للتأثير المسيحيِّ قَرْناً بَعْدَ قرن؛ ويمكن تفسير ماهيَّته وتطوُّره لكلِّ مَن لا يفهمه بمقارنته بِصُدريَّةٍ أو بذلةٍ صنعتها الرُّوحُ أوِ المخيِّلة، لتكسو بها المخلوقات التي قد تظهر صُدفةً، ويعتقد العقلُ أنَّها سوف تكون على مقاس تلك المخلوقات.

ولأنَّ كلَّ البذلات ليست أبديَّةً، فالبذلة لا تدومُ إلَّا بمقدار ما تدومُ؛ ثُمَّ سرعان ما يبرزُ، من تحت تلك البذلة المثاليَّة الرَّثَّة التي لا تنفكُّ تبلى، جسدٌ حَقٌّ للكائن الآدميِّ الذي نرتديه.

ومِن ثَمَّ، فإنَّ العشق الرُّومانسيَّ طريقُ خِذلانٍ لا ريب فيها، مَا لَمْ يُحتوِ ذلك الخِذلانُ منذ البداية، ويُسمَح لَهُ ألَّا يكفَّ عن تبديل مِثَالِه، في ورشاتِ الرُّوح، وألَّا يكفَّ عن إنتاج بذلاتٍ جديدة، فيُجدِّد بذلك مظهرَ المخلوق الذي يَكسوه.

162

[1920؟]

فلسفةُ طُمأنينةٍ[151] جماليَّة تصدُّ الإهانات التي تكيلها إلينا الحياةُ، والإذلالات التي تُذيقنا إيَّاها، رفقةَ العَيْش الذي غدا منذ البداية أكثر من مجرَّد حدٍّ خارجي مَهينٍ يُحيطُ بحساسيَّتنا، خلفَ الجدار الخارجي للرُّوح الواعية.

(151) أستخدم هُنَا عبارة «الطُّمأنينة» (وليس السَّكينة أو الهدوء، على سبيل المثال) مقابلاً لكلمة quietism (بالبرتغالية: quietismo)، ذلك أنَّها عند بِسُوَّا حالة صُوفيَّة تكاد تقترب من مفهوم «نعيم الطُّمأنينة» كما هو عند المتصوِّفة المسلمين، ولاسيِّما ابن عطاء السَّكندري. وثمَّة مذهب يعرف بالإنكليزية باسم Quietism، ظهر في سبعينيَّات القرن السابع عشر وثمانينيَّاته، قائم على تعاليم المتصوِّف الإسپاني ميغيل دي مولينوس، حيث يصل «المريد»، عبر التأمُّل إلى «نعيم الطُّمأنينة»، فتفنى إرادته، ويتَّحد مع المقدس. (المترجم)

L. do D. – Prefacio

Elle mobilara — é impossivel que não fosse á custa de algumas cousas essenciaes — com um certo approximado luxo os seus dois quartos. Cuidara especialmente das cadeiras — de braços, fundas, molles —, dos reposteiros e dos tapetes. Dizia elle que assim se creava um interior "para manter a dignidade do tedio". No quarto á moderna o tedio torna-se desconforto, magoa physica.

Nada o obrigara nunca a fazer nada. Em creança passara isoladamente. Aconteceu que nunca passou por nenhum agrupamento. Nunca frequentara um curso. Não pertencera nunca a uma multidão. Deu-se com elle o curioso phenomeno que

«ولقد أثثَ حُجرتَيه — غير مكترثٍ بتكاليف بعض الحاجات الأساسيّة — بأشياءَ شِبه فخمة». [توطئة]

com tantos — quem sabe, ciumes
bem, se com todos? — se dá, de
as circumstancias exteriores
da sua vida se teem talhado
á imagem e semelhança da
direcção dos seus instinctos,
de inercia todos, e de af-
fastamento.

Nunca teve de se defron-
tar com as exigencias do Es-
tado ou da sociedade. Ás
proprias exigencias dos seus
instinctos elle se furtou.
Nada o approximou nunca
nem de amigos nem de
amantes. Fui o unico
que, de alguma maneira,
estive na intimidade d'elle.
Mas — a par de ter vivido sempre
com uma falsa personalidade
minha, e de suspeitar que nunca
elle me teve realmente por ami-
go, percebi sempre que elle alguma
tempo de chamar a si para

«ولم يتوجَّب عليه البتَّة التعامل مع متطلَّبات الدَّولة أو المجتمع. حتَّى إنَّه قد تجنَّب مُتطلَّبات غرائزه هُوَ». [توطئة]

vendo tudo atravez do seu interior digno de um psycho-logo, que fiquei do mesmo modo amigo d'elle e dedicado ao ~~seu~~ fim para que elle me approximou de si — a publicação d'este seu livro.

Até nisto — é curioso descrevel-o — as suas circumstancias, postas ante elle quem, do meu caracter, lhe poderiam servir, lhe foram favoraveis

«وبقيتُ صديقَهُ، الصَّديقَ المنذورَ للسَّبب ذاته الذي جذبني إليه في المقام الأوَّل: نشرِ كتابه هذا». [توطئة]

Maneira de bem sonhar. [illegible]

- Adia tudo. Nunca se deve fazer hoje
o que se pode deixar de fazer tambem
amanhã. [O que se pode [deixar para] fazer amanhã].
[illegible]
- Nunca penses no que vaes fazer. Não o faças.
- Vive a tua vida. Não sejas vivido por ella.
Na verdade e no erro, no gozo e no
mal estar, sê o teu proprio ser.
- Despreza tudo, mas de modo que o des-
prezar te não incommode. Não te julgues su-
perior ao desprezares. A arte do desprezo nobre
está n'isso.
Só poderás fazer isso sonhando, porque a tua
vida real, a tua vida humana é aquella
que não é tua, mas dos outros. Assim,
substituirás o sonho á vida e cuidarás
apenas em que sonhes ~~ao cuidadosamente~~
com perfeição. ~~Desde nascer até morrer~~
Em todos os teus actos da vida real,
desde o de nascer até ao de morrer,
tu não ages: és agido; não vives: és vivido
apenas.
Torna-te, para os outros, uma esphynge
absurda. Fecha-te, mas sem bater com a
porta, na tua torre de marfim. E a
torre de marfim és tu proprio.

«أجّل كلَّ شيء. ولا تفعل اليوم ما تستطيع تأجيلَه إلى الغد. لا يتوجّب عليك أن تفعل أيَّ شيء، غداً أو اليوم». [39]

7-23

L. do D.

Um dia ([illegible])

Não te [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]!
Que [illegible] tanto [illegible] [illegible] [illegible] me
não te [illegible] [illegible]!

Depois d'isto [illegible] [illegible] o grande
[illegible] [illegible] o [illegible] [illegible]:
a alma [illegible] e [illegible]
[illegible] [illegible] o [illegible], [illegible].

Depois de [illegible] e [illegible]
desce da tua realidade, desce e
vem [illegible] o mundo.

L. do D. 433

Dois, tres, seis de semelhança de principio de amor ...

Tudo isto vale para o estheta pelas sensações que lhe causa. Avançar mais será entrar no dominio onde começa o ciume, o soffrimento, a excitação. Nesta antecamara da emoção ha toda a suavidade do amor sem a sua profundeza — um gozo leve, portanto, aroma vago de desejos; se com isso se perde a grandeza que ha na tragedia do amor, repare-se que, para o estheta, as tragedias são coisas interessantes de observar, mas incommodas de soffrer. O proprio cultivo da imaginação é prejudicado pelo da vida. Reina quem não está entre os vulgares.

Afinal, isto bem me contentaria se eu conseguisse persuadir-me que esta theoria não é o que é, um complexo barulho que faço aos ouvidos da minha intelligencia, quasi para ella não perceber que, no fundo, não ha senão a minha timidez, a minha incompetencia para a vida.

«تهذيبُ الحياة يحول دون تهذيب المخيِّلة». [96]

15²-89

~~Esthetica~~ Ethica do Desalento

Publicar-se — socialização de si proprio. [Que ignobil necessidade! Mas ainda assim que afastado de um acto — o editor ganha, o typographo produz.] O merito da incoherencia ao menos.

Uma das preoccupações maiores do homem, attingida a edade lucida, é talhar-se, agente e pensante, á imagem e semelhança do seu ideal. Posto que nenhum ideal incarna ~~tanto~~ como o da inercia toda a logica da nossa attitude de alma ante as realidades — exteriores e interiores, o heroe, o caracter que seja o nosso ideal. Futil? Talvez. Mas isso só preoccupará como um mal aquelles para quem a felicidade é um attractivo.

«أن تُنشَر المشاركةُ الاجتماعيّة للأنا. فيا لها من ضرورة أساسيّة!». [98]

7.15

L. do D.

Que rainha imprecisa guarda ao pé de seus lagos a memoria da minha vida partida? Fui o pagem de alamedas insufficientes a horas aves do meu socego azul. Naus longe completavam o mar á roda dos meus terraços, e nas nuvens do sul perdi minha alma, como um remo deixado cahir.

«أيُّ ملكةٍ غامضة تنتظرني قرب بحيرتها، ولا تسأمُ من السّهر على ذاكرة حياتي المُحطَّمة؟». [150]

كتاب القلَق

الطَّوْر الثَّاني

من[152] كتاب القلَق
تأليف برناردو سوارش،
المحاسب المساعد بمدينة لشبونة

(152) العنوان في أصله البرتغاليّ واردٌ بـ «الصِّيغة»، هذه، أعلاه، على النَّحو الذي وضعه بِسُوَّا بنفسه (DO «LIVRO DO DESASOCEGO», COMPOSTO POR BERNARDO SOARES, AJUDANTE GUARDA-LIVROS NA CIDADE DEL LISBOA)، حين نشر أُولى الشَّذرات عن برناردو سوارش، ولكن باسمه الصَّريح، وليس عزواً إلى سوارش، في مجلة Revista (العدد الثَّاني، الصَّفحة الخامسة والعشرون، 1929). ولذلك، فإنَّ عبارة «من» (do، بالبرتغاليَّة) الواردة في مُفتتح العنوان لا تعني أنَّ شذرات «الطَّور الثَّاني»، هذه، هي «مختارة» من الشَّذرات المنسوبة إلى سوارش، وإنَّما «تأكيد» أنَّها -في مجملها- جزءٌ «من» **كتاب القلق**؛ فالجزء الأوَّل (بشذراته الـ 162) يُنسَب إلى قَسِيْنته غيدش، وثمَّة، من بين المُتضلِّعين في أعمال بِسُوَّا وأطوار حياته، من يضيف جزءاً ثالثاً، هو تلك الشَّذرات المنسوبة إلى بارون تيف Barão de Teive، كما فعلت تيريزا ريتا لُوپس Teresa Rita Lopez، النَّاقدة البرازيليَّة الذَّائعة الصِّيت، في الطَّبعة التي أصدرتها بعنوان Livro(s) do Desassossego (**كتاب/كُتُب القلَق**) في العام 2017. (المترجم)

*163

[29 مارس 1930] [153]

وُلدتُ في الزَّمن الذي فقد فيه معظم الشَّباب إيمانَهم بالله، للسَّبب ذاته الذي دفع كُبراءَهم إلى المحافظة على إيمانهم – دون أن يعرفوا لماذا. وهكذا، ولأنَّ الرُّوح البشريَّة نزَّاعة إلى النَّقد بالفطرة، فهي تشعر أكثر ممَّا تُفكِّر، فلقد اختار معظم الشَّباب **الإنسانيَّة** بديلاً عن الله. ولكنَّني أنتمي إلى سلالة الإنسان الذي يظلُّ دائماً على شَفَا الشَّيء الذي ينتمي إليه؛ الإنسانِ الذي لا يرى الحشدَ الذي هو جزء منه فحسب، وإنَّما الفضاءات العظيمة التي في كلِّ مكان أيضاً. ولهذا السَّبب لم أجحدِ الله، في أعماق قلبي، مثلما فعلوا، ولم أتَّخذِ **الإنسانيَّة** بديلاً البتَّة. ولأنَّ الإله غير موجود على الأرجح، فقد اعتقدتُ بأنَّه قد يكون موجوداً، ولذلك فهو يستحقُّ أن يُعبَد، بَيْدَ أنَّ **الإنسانيَّة**، لكونها مجرَّد فكرة بيولوجيَّة لا تدلُّ إلَّا على الجنس البشريِّ في حدِّ ذاته، فإنَّها لم تستحقَّ العبادة أكثرَ من السُّلالات الحيوانيَّة الأخرى. فلطالما صعقتني عبادة **الإنسانيَّة**، هذه، بطقوسها الدَّاعية إلى الحُريَّة والمساواة، بوصفها إحياءً للعقائد القديمة، حيث كانت الحيواناتُ آلهةً أو الآلهة ذات رؤوس حيوانيَّة.

هكذا، دونَ أن أعرف كيف أومن بالله، ولكوني عاجزاً عن الإيمان بقطيع من الحيوانات، فقد حافظتُ، مثل كلِّ الذين يُقيمون في الهوامش، على تلك الشُّقَّةِ البعيدة التي تفصلني عن كلِّ شيء؛ تلك التي تُسمَّى «**الانحطاط**»[154] عموماً. فالانحطاط غيابُ اللَّاوعيِ التَّامُّ، ذلك أن اللَّاوعيَ أُسُّ الحياة المُطلَقُ. فلو فكَّرَ القلبُ، لتوقَّفتْ دقَّاتُهُ.

---

(153) على الرَّغم من أنَّ تاريخ هذا المقطع يعود إلى العام 1930 (أي بعد تاريخ المقاطع التي تليه، العائدة إلى العام 1929)، فإنَّ الطبعات البرتغاليَّة المختلفة قد درجت على البدء به، كمقطع أوَّل (بعد مقدِّمة بِسُوَّا نفسه، التي يذكر فيها كيف التقى برناردو سوارش) في افتتاح الجزء الخاص بسوارش من «كتاب القلَق»، ذلك أنَّه بمثابة تقدمة تعريفيَّة بالبيئة الفكرية والدينية التي وُلد فيها سوارش نفسه والأفكار التي يحملها. والنَّص، في الأصل، مرقون على الآلة الكاتبة (ملحق به صفحتان مكتوبتان بخط اليد)، والتاريخ مرقون من لدن بِسُوَّا نفسه بالحبر الأحمر على هذه الشَّاكلة (29/3/1930.)، ولا يذكر اسم الشَّهر، شهر مارس، كما يرد هُنَا. (المترجم)

(154) الانحطاط هُنَا بمعنى Decadence، الذي سبقت الإشارة إليه في حواشٍ سابقة. (المترجم)

ما الذي سيبقى -لواحد مثلي، وللقِلَّة التي تُشبهني، الذين يعيشون دون معرفة أنَّهم على قيد الحياة- سوى الزُّهدِ طريقةً للحياة والتَّأمُّلِ قَدَراً؟ فكلُّ مَا يبقى لنا، لتبرير وجود رُوحنا، هُوَ التَّأمُّل الجمَاليُّ في الحياة، فنحن غير قادرين على معرفة معنى وجود حياةٍ دينيَّةٍ، وعاجزين عن اكتشافه بالمنطق، وعاجزين عن الإيمان بالمفهوم المُجرَّد للإنسان، وعاجزين حتَّى عن معرفة ماذا نفعل به. وهكذا -وقد تبلَّدت أحاسيسُنا تجاهَ وقار العالَم، غير مكترثين بالإلهيِّ، مُحتقرين الجنسَ البشريَّ- نُسلِمُ أنفسَنا، عبثاً، إلى حِسيَّةٍ جُزافيَّة ممزوجةٍ بأبيقوريَّةٍ ساميةٍ تُناسب أعصابَنا الدِّماغيَّة.

لم نأخذ من العلم إلَّا قانونَهُ المركزيَّ بأنَّ كلَّ شيء خاضعٌ لنواميس القَدَر التي لا يستطيع أيُّ فعل مستقلٍّ أن يكون ضدَّها، فكلُّ الأفعال مجرَّد أفعال فحسب. لاحظنا أنَّ هذا النَّاموس قد توافق جيِّداً مع ذلك النَّاموس الأقدم القائل بالقَدريَّة الإلهيَّة للأشياء، فتخلَّينا عن النِّضال، مثلما يتخلَّى الرِّياضيُّون الضُّعفاء عن تدريباتهم، ثُمَّ بكلِّ الاهتمام النَّيِّق الذي ينطوي عليه التَّبحُّر في العلوم الحَقَّةِ، ركَّزنا على كتاب الأحاسيس المثيرة.

ولكنَّنا لا نلوذَ إلَّا بمشاعرنا، فنرتادها كأنَّها أراض عظيمة غير مستكشفة، فإنَّنا عاجزون عن أخذ الأشياء على محمل الجِدِّ، وعن الإيمان بأنَّنا قد مُنحِنَا حقيقةً واقعيَّةً أُخرى غير مشاعرنا. وحين ننكبُّ جاهدينَ، لا على التَّأمُّل الجمالِيِّ فحسبُ، وإنَّما على محاولة إيجاد تعبيرٍ لأفانينه ومآلاته، فذاكَ لأنَّ النَّثرَ والشِّعرَ، اللَّذَيْن نكتبهما مُجرَّدَيْن من رغبةِ التَّأثير في تصوُّرات الآخر أو تغيير أفكاره، قد أضحيا كمثل شخص يقرأُ بصوت عالٍ ليُضفي موضوعيَّةً بالغةً على مُتعة القراءة الشَّخصيَّة.

فلا نعرفُ، حقَّ المعرفةِ، إلَّا أنَّ كلَّ عمل محكومٌ بالنَّقص، وألَّا تأمُّلَ جماليّاً أقل يقيناً من التَّأمُّل الجَماليِّ في كلِّ ما نكتبُ. ولكنَّ كلَّ شيء ناقصٌ؛ فلا مغيبَ شمسٍ مهما كان بهيّاً يمكن ألَّا يكون أكثرَ من مغيبٍ، ولا نسيمَ عليلاً يُهدهدنا للنَّوم يمكن ألَّا يهدهدنا لنوم هادئ أعمق. هكذا، حينَ نَقرُّ عيناً بتأمُّل الجبال أو التَّماثيل على حدٍّ سواء، مُتدبِّرين الأيَّامَ كأنَّها كُتُبٌ، حالمينَ بكلِّ شيءٍ، قبلَ كلِّ شيءٍ، كي نُحوِّله إلى شيءٍ يخصُّنا على نحو حميم، فإنَّنا، أيضاً، سوف نكتبُ أوصافاً وتحليلاتٍ سوف تغدو، آنَ تُكتَبُ، موضوعاتٍ غريبةً نستطيع الاستمتاع بها كما لو أنَّها جاءتْ، ببساطةٍ، مع الغسق.

وهذا ليس تفكيرَ متشائمينَ على شاكلة ڤِيني[155]، الذي كانت الحياة بالنِّسبة إليه سجناً حاك فيه القشَّ[156] تزجيةً للوقت. فلكي يكون المرء متشائماً، لا بُدَّ أن ينظر إلى الحياة بوصفها مأساةً، وهذه مُغالاةٌ غير مُريحةٍ. صحيحٌ أنَّنا لا نمتلكُ مفهومَ قيمةٍ نستطيع تطبيقه على العمل الذي ننتجه. وصحيحٌ أنَّنا نُنتج ذلك العمل تزجيةً للوقت، ولكنَّنا لا نفعل ذلك كالسَّجين الذي يحوك القشَّ لِيُشغل نَفْسه عن قَدَره، وإنَّما كالفتاة الصَّغيرة التي تُطرِّزُ أغطيةَ وسائد لتسلية نَفْسها ولا شيءَ أكثر.

الحياةُ بالنِّسبة إليَّ خانٌ لا بُدَّ أن أنزلَ فيهِ حتَّى تأتي العربةُ القادمة من الجحيم كي تُقلَّني. ولا أعرف إلى أين سوف تأخذني تلك العربة، فأنا لا أعرف شيئاً. أستطيعُ أن أَعُدَّ هذا الخانَ سجناً، فأنا مُجبَرٌ على أن أظلَّ هُنا، ويمكنني أن أَعُدَّه نادياً، لأنَّني أقابل أشخاصاً آخرين فيه. ولكنَّني، على النَّقيض من الآخرين، لستُ جَزوعاً أو أَلُوفاً. أترك أولئك الذين يحبسون أنفسهم في غرفهم وينتظرون، مُسترخين في أسرَّتهم، عاجزين عن النَّوم؛ وأترك أولئك الذين يثرثرون في الرُّدهات، حيث يترامى إليَّ الصَّوتُ النَّاعمُ للموسيقى والأصوات. أجلسُ عند الباب لأملأَ عينيَّ وأُذُنيَّ بألوان المناظر الطَّبيعيَّة وأصواتها، ثُمَّ أُغنِّي لِنَفْسي وحدَها، أُغنِّي على مَهْلي أغنياتٍ غامضة أُلحِّنُها وأنا أنتظرُ.

سيُرخي اللَّيلُ سُدُولَهُ علينا والعربةُ سوف تصلُ. أستمتعُ بالنَّسيم الذي هبَّ عليَّ والرُّوح التي وُهِبَتْ لي، فلا أسأل المزيد من الأسئلة، ولا أنظرُ أبعدَ ممَّا أنظرُ. لا بأسَ لو قرأَ الآخرون، ذات يوم، ما تركتُهُ مكتوباً في سجلِّ النُّزلاء، فسلَّاهم في رحلتهم، ولا بأسَ، أيضاً، لو لم يقرأْهُ أحدٌ ولَم يَتعلَّل به أحدُ.

164 [157]

[بعد 15 يناير 1929]

أُحبُّ، في مساءات الصَّيف المُتوانية هذهِ هدوءَ هذهِ [اللَّحظة]، الجزءَ التِّجاريَّ من

---

(155) Vigny: الكونت ألفريد دي ڤِيني، روائيٌّ وشاعر فرنسيٌّ. (المترجم)

(156) هُنا إشارة إلى العبارة التي خطَّها ڤِيني في يوميَّاته بعد أن انسحب من الحياة واعتزل النَّاس: «أكابدُ سجني. أحوك القشَّ، أحياناً، كي أنسى». (المترجم)

(157) نشر پِسُوًا الفقرتَيْن الأولى والثَّانية من هذا المقطع، في الأصل، باسمه الصَّريح، بمجلَّة Revista (العدد الثاني، 1929)، وتحت عنوان: (مقطع. من «كتاب القلق» تأليف برناردو سوارش، المحاسب المساعد بمدينة لشبونة». أمَّا باقي النَّص فقد دوَّنه بخط يده لاحقاً على النسخة المطبوعة من الأصل. (المترجم)

البلدة، أكثرَ من ذي قَبْل، فهو على النَّقيض من الهرج والمرج الصَّاخب الذي يملؤه في أثناء النَّهار. خُوَا ذُو أرسينال، وخُوَا ذَا أَلْفَانْدِغَا[158] -الشَّارعان الحزينان الذَّاهبان شرقاً حيث تنتهي أَلْفَانْدِغَا- وصفُّ الأرصفة البحريَّة الطَّويل المُتوحِّدُ: إنَّها تشرحُ صدري بالحُزن في تلك المساءات حين أختار أن أُقاسِمَها عزلتَها. يعودُ بي الزَّمنُ إلى الوراء، إلى ما قبل الزَّمن الذي أعيش فيه الآن بفترة طويلة. يروقُ لي أن أتخيَّل نَفْسي معاصراً لسيزاريو ڤِيرد[xi]، فأشعر داخل نَفْسي، ألَّا مزيد من الأشعار كتلك التي كتبها، وإنَّما جوهر أشعاره. لا تختلفُ الحياة التي أجرُّها خلفي حتَّى يهبط اللَّيلُ عن حياة الشَّوارع ذاتها. تضجُّ في النَّهار بصخب عبثيٍّ، وتضجُّ في اللَّيل بِفُقدان الصَّخب، على حدٍّ سواء. أنا لا شيءَ في النَّهارِ، وفي اللَّيلِ أنا نَفْسي. لا فرقَ بيني وبين الشَّوارع حول أَلْفَانْدِغَا سوى أنَّها شوارع وأنا روح آدميَّةٌ، وقد لا يكون لهذا الشَّيء أهميَّةٌ يُعتدُّ بها كثيراً، حين يُقارَن بجوهر الأشياء جميعاً. فالبشر والأشياء يتشاركون قَدَراً جماعياً مُجرَّداً: ألَّا يكون لهم قَدْرُ الأهميَّة ذاتُهُ في جَبْرِ سرِّ الحياة.

ولكنْ ثمَّة شيء آخر... في تلك السَّاعات البطيئة، الفارغة، ينهضُ من روحي إلى عقلي شعورُ حُزنِ الوجود كُلِّه، الشُّعور المريرُ بأنَّ كلَّ شيء قد ضجَّ فِيَّ بقوَّةٍ، ولكنَّهُ مازال، في الوقت ذاته، برَّانياً عنِّي، وبأنَّني مَهيضُ الجناح غيرُ قادرٍ على أن أُغيِّره. فكم مرَّةً شاهدتُ أحلامي تتجسَّدُ حَيَّةً، فتهاجمني من الخارج في هيئة حافلةٍ كهربائيَّة عند زاوية الطَّرف القصيِّ من الشَّارع، أو صوتِ بائع جوَّال في اللَّيل (لا أحد يعرف ماذا يبيع) يُغنِّي لحناً عربياً، الصَّوتِ الذي انبجس فجأةً كي يكسر رتابة المساء، لا لتمنحني [تلك الأحلامُ] حقيقةً واقعيَّة بديلة، وإنَّما لتعلن أنفُسَها سواسيةً في استقلالها عن إرادتي.

165

[1929؟]

سأمُ الأوهامِ كلِّها، وسأمُ كلِّ ما تنطوي عليهِ الأوهامُ: خسارتها، وعبثِ امتلاكها، والسَّأمِ المُسبَق لوجوب امتلاكها كي نفقدها، وألمِ أنَّنا قد امتلكناها، والعارِ الفكريِّ النَّاجم عن امتلاكنا إيَّاها على الرَّغم من معرفتنا بالنِّهاية التي سوف تؤول إليها.

---

(158) Rua do Arsenal (وتعني حرفياً: شارع التَّرسانة البحريَّة) و Rua da Alfândega (وتعني حرفياً: شارع الجمارك): شارعان في وسط لشبونة. (المترجم)

إنَّ وعيَ لاوعيِ الحياةِ هُوَ الشَّهادة[159] العُظمى المفروضةُ على البصيرة. ثمَّة بصائرُ واعيةٌ -ومضاتُ ألمعيَّةٍ، ودفقاتُ فَهْمٍ، وأسرارٌ، وفلسفاتٌ- تتصرَّفُ عفوياً كردودِ أفعال جسديَّة، مثلما يتصرَّفُ الكبد والكلى مع إفرازاتهما.

166

[22 مارس 1929]

في الخليج، بين الغابات والمروج، تقلَّبتِ الرَّغبةُ المحتدمة حين تملَّكتنا الرِّيبةُ في الهاوية الخاوية. لم تكُن ثمَّة حاجةٌ للاختيار بين الحنطة والآس، فأكملَتِ المسافةُ انسحابَها بين السَّرْوات.

قوَّةُ الكلماتِ السِّحريَّةُ، سواءٌ أكانت معزولةً أمْ محتشدةً لتصنعَ توليفةً موسيقيَّةً، طافحةٌ برنينٍ حميم ومعانٍ تتباعدُ حتَّى حين تقتربُ، وفخامةِ الجُمَل الموضوعة بين معاني الجُمَل الأخرى، والأطلالِ الخبيثة، والغابات المفعمة بالأمل، ولا شيء سوى البِرَك الهادئة في حدائق طفولةِ ذرائعي... هكذا، بين الجدران العالية للجُرأة العبثيَّة، بين صفوف الأشجار والرِّعشات الجافلة لأشياءَ تذبلُ، سوف يسمعُ شخصٌ غيري من شفاهٍ حزينة الاعترافَ المُنكَرَ لتضرُّعاته المُلحَّة. وحتَّى لو عادَ الفرسانُ على صهوات جيادهم في الطَّريق المرئيَّة من أعلى جدار القلعة، فلن يكون ثمَّة مزيد من السَّلام في «**قلعة آخر الرِّجال المفقودين**»، حيث تناجزتِ الرِّماحُ ذات مرَّة وتقارشَتْ[160] في الباحة؛ ولن يتذكَّر أحدٌ اسماً آخر في هذا الجانب من الطَّريق، باستثناء الاسم الذي اعتاد أن يسحرنا ليلاً، مثل حكاية السيِّدات المغربيَّات، والطِّفل الذي مات، فيما بَعْدُ، من الحياة والتَّعجُب.

وعلى طُول الأخاديد في العُشب، حيث تُركَتِ الخُطَى جوفاءَ في الخُضرةِ المُلوِّحة، تردَّدت أصداءُ عبورِ آخرِ الرِّجال المفقودينَ خافتةً، على مهلها، كذكريات عن المستقبل. سيكون أولئك الذين سوف يأتونَ طاعنينَ في السِّنِّ، أمَّا اليافعون فلن يأتوا البتَّة. كان دويُّ طبولٍ بجانب الطَّريق، والأبواق تتدلَّى صامتةً في أيدٍ متعبة كانت ستُسقطها لو امتلكت القوَّة لإسقاط أيِّ شيء.

---

(159) الشهادة هنا بمعنى الاستشهاد في سبيل فكرة ما. (المترجم)

(160) تقول العرب: «اقْتَرَشَ/تقارشَ الرِّماح: «صَكَّ بعضُها بَعْضاً فسُمع لها صوتٌ». (المترجم)

ثُمَّ رنَّتْ، مرَّة أخرى، جرَّاءَ السِّحر صرخاتُ الموتى ثانيةً، فَرُئِيَتِ الكلابُ تحوم في ممَّرات الحديقة. كانت كأنَّها يقظة عبثيَّةٌ، وأميراتُ أحلام الآخرين قد تمشَّينَ خليَّاتِ البالِ إلى الأبد.

167

[1929؟]

أشعر بالأسى تجاه أولئك الذين يحلمون بالمُحتمَل، والمُباح، والذي في متناول الأيدي، أكثرَ من أسايَ على أولئك الذين يحلمون أحلامَ يقظةٍ بالبعيد والغريب؛ أولئك الذين يحلمون على نطاق واسع أو المجانين السُّعداء الذين يؤمنون بأحلامهم، أو الحالمين البسيطين الذين يحلمون أحلام يقظة هي بالنِّسبة إليهم موسيقى للرُّوح، بلسمٌ عبثيٌّ. ولكنْ ثمَّة احتماليَّةٌ حقيقيَّة أن يذوق الذين يحلمون بالمُمكن خيبةَ أملٍ حقيقيَّة، وقد لا يُثقل كاهلي كثيراً أنَّني لم أَغدُ إمبراطوراً رومانياً، ولكنَّني قد أتألَّمُ إنْ لم أُكلِّم الخيَّاطةَ البتَّة التي تظهر في نحو السَّاعة التَّاسعة من كلِّ صباحٍ عند الزَّاويةِ يمينَ نافذتي. فالحلم الذي يعدنا بالمستحيل قد حرمنا سلفاً من تحقيقه، ولكنَّ الحلم الذي يعدنا بالمُمكن يتدخَّلُ في الحياة الحَقَّة ويترك الأمر للحياة كي تجد حلاً. تعيش الفئة الأولى حصرياً وعلى نحو مُستقلٍّ، وتخضع الثَّانيةُ إلى الأحداث الطَّارئة لما قد يحدث.

ولهذا أُحبُّ المناظر الطَّبيعية المستحيلة والمساحات الشَّاسعة الخالية العظيمة للسُّهول التي لم أزرها قطُّ. والعصور التاريخيَّة السَّابقة معجزةٌ أيضاً، فليستْ ثمَّة فرصة لأكون جزءاً منها بتاتاً. أنامُ حين أحلم بما لا يُوجَد، وأستيقظُ حين أحلم بالموجود.

أنظرُ من نافذة شرفة المكتب المهجور عند الظَّهيرة إلى الشَّارع في الأسفل، فأغرق حين أُحسُّ حركة النَّاس بعينيَّ، عميقاً في أفكاري كي أراهم رأي العين. أنام مع الدَّرابزين وهو يحفر مؤلماً في مرفقيَّ فلا أُدرك شيئاً سوى الإحساس العظيم بالوعد. أستطيعُ، بعزلةٍ غريبة، تبيُّن تفاصيل الشَّارع المتوقِّف الطَّافح بالمارَّة: الصَّناديق المكدَّسة على عربة يجرُّها حصان، والأكياس خارج المخزن المجاور، وألمح في فترينة البقَّالة في الزَّاوية البعيدة زجاجات نبيذِ بُورتو[161] التي أتخيَّل ألَّا أحدَ يستطيع شراءها. تفصل روحي نَفسها عن الماديِّ المحض.

(161) نبيذ بورتو vinho do Porto (أو نبيذ پورت port wine بالإنگليزيَّة): نبيذ أحمر فاخر، حلو المذاق، يصنع في وادي داورو بشمال البرتغال. (المترجم)

أسبرُ الأغوار عميقاً بمخيِّلتي، فالنَّاس الذين يمشون في الشَّارع هم دائماً الذين عبروا قبل قليل، الهيئات المتقلّبة ذاتها، والحركات الغائمة، والأصوات المتردِّدة، والأشياء التي تمرُّ ولا تحدُث.

ألاحظُ هذا كُلَّهُ بوعيي بحواسِّي أكثرَ من أحاسيسي ذاتها... احتماليَّة الأشياء الأخرى... ثُمَّ أسمعُ فجأةً خلفي الحضورَ الغيبي المُباغتَ لساعي المكتب. كنتُ أودُّ قتلَهُ لتكديره صَفْوَ الـ«أنا»، فأنا لم أكُن حتَّى أُفكِّر كي لا أكدِّرها. درتُ حوله ثُمَّ رميتُهُ بنظرةِ اشمئزازٍ صامتة مشحونة بميول إجراميَّة كامنة. أستطيع سماع الصَّوت الذي سوف يستخدمه حين يتكلَّم. تبسَّم من الطَّرف القصيِّ من المكتب، وقال: «عمتَ مساءً». أكرهه كُرهي الكونَ كُلَّه. عيناي مثقلتان بالتخيُّل.

168

[1928؟]

يرفض التَّاريخُ اليقين. ثمَّة أزمنة هادئةٌ حين يكون كلُّ شيء بائساً، وأزمنة مضطَّربة حين يكون كلُّ شيء سامياً. ويمكن لأزمنة الانحطاط أن تكون خصبة فكرياً، والأزمنة الاستبداديَّة لا تكون خصبة إلَّا في البلاهة وخفَّة العقل. فكلُّ شيء يتداخل ويتقاطع، والحقيقة الوحيدة الموجودةُ موجودةٌ في مخيَّلة المرء.

سقط كثير من الأفكار النَّبيلة في كومة الرَّوث، وضاع كثير من الرَّغبات الأصيلة في الوحل!

جميع الآلهة وجميع البشر متساوون، بِقَدْر ما أستطيع أن أرى، في الارتباكَ الطَّويل للقَدَر المُلتبس. ولقد تقاطروا أرتالاً في أحلام متعاقبة، في الغرفة الغامضة في الطَّابق الرَّابع حيث أعيش، فلم يكونوا بالنِّسبة إليَّ أكثر ممَّا كانوا بالنِّسبة إلى أولئك الذين آمنوا بهم. أوثان الزُّنوج ذوي العيون الذَّاهلة والخائفة، وآلهةُ الهمجِ الحيواناتُ القادمون من بريَّاتٍ متواشجة، والأجسام التي حوَّلها المصريُّون رموزاً، وأرباب الإغريق المُشرقون، وآلهة الرُّومان الصَّارمون، ومِيثرا، ربُّ الشَّمس والمشاعر كلِّها، ويسوع سيِّد الاستقامة والإحسان، التَّأويلات المختلفة لذلك المسيح بعينه، القدِّيسون الجُدد، آلهة البلدات الجديدة، تقاطروا كلُّهم أرتالاً إلى المسير

البطيء (أَحجٌّ هُوَ أم جنازةٌ؟) للأخطاء والأوهام. يسيرون جميعاً، وجاءت خلفهم الظِّلالُ الخاوية، والأحلام التي يؤمن أشدُّ الحالمين سخافة بأنَّها لا بُدَّ قد هبطت لتعيش على الأرض، لأنَّها تطرح ظلالاً، ليس إلَّا. مفاهيم مثيرة للشَّفقة بلا روح أو وجه -**الحريَّةُ**، **والإنسانيَّة**، **والسَّعادة**، **والمستقبل الأفضل**، **والعلوم الاجتماعيَّة**- تزحف في عزلة العتمة كأوراق أشجار تتجرجر على طول حاشية عباءة ملكيَّة، في منفى الملوك الأبديِّ، عباءة سرقها الشحَّاذون الذين احتلُّوا حدائق آلِ المهزومين.

169

[1929؟]

...

يمكن أن تكون الأفكار نبيلة من دون أن تكون مُنمَّقة، ولكنَّ أكثرَها تنميقاً أقلُّها تأثيراً. فالقوَّة بلا دهاءٍ مُجرَّدُ مادَّةٍ لا تُسمِن ولا تُغني من جُوع.

170

[1929؟]

قراءة الصُّحف على الصَّعيد الجَماليِّ مؤلمة دائماً، ولكنَّها ليستْ أقلَّ إيلاماً على الصَّعيد الأخلاقيِّ، في الغالب الأعمِّ، حتَّى بالنِّسبة إلى شخص لا يُعير الأخلاقيَّةَ من وقته إلَّا القليل.

فحين يقرأ المرء عن الحروب والثَّورات -فثمة حرب دائرةٌ على الدَّوام أو ثورةٌ- لا يشعر بالرُّعب وإنَّما بالسَّأم. فليس القَدَرُ الوحشيُّ؛ قدَرُ أولئك الموتى والمجروحينَ جميعاً، هُوَ الذي تشتدُّ وطأته ثقيلةً على القلب، ولا التَّضحيةُ التي بذلها أولئك الذين ماتوا محاربينَ أو مُتفرِّجين، بَل الغباءُ الذي يُضحِّي بالحيوات والأملاك في سبيل أيِّ شيء عبثيٍّ يَجِلُّ عن الوصف. ليستِ المُثُل العُليا والطُّموحات جميعاً إلَّا هذيانات بشرٍ يثرثرون، فلا إمبراطوريَّة تستحقُّ حتَّى تحطيمَ دُمية طفل. ولا مِثَال أعلى يستحقُّ حتَّى التَّضحية بلعبة-قطار واحدة. فأيُّ إمبراطوريَّة مفيدة حقاً، وأيُّ مثال أعلى مُجدٍ في الحقيقة؟ كلُّ شيءٍ يأتي من البشريَّة والبشريَّةُ هي ذاتها دائماً: متغيِّرةٌ ولكنَّها عاجزة عن الكَمال، مُتردِّدةٌ ولكنَّها عاجزة عن

التَّقدُّم. بَيْدَ أنَّنا، بالنَّظر إلى هذي الحال السَّادرة في غَيِّها، وإلى الحياةِ التي مُنحْنَاهَا، لا نعرفُ كيف سنفقدُ الحياةَ ولا متى سنفقدها، ولا نعرفُ أينَ، بالنَّظر إلى مباريات الشِّطرنج العشرة آلاف التي هي نضالات الحياة المُعاشَة في المجتمع، بالنَّظر إلى سأم التَّأمُّل العبثيِّ في الذي لن يتحقَّق البتَّة [...] - فما الذي يستطيع الحصيفُ فعله إلَّا أن يتوسَّل، كي يأخذ قسطاً من الرَّاحة، كي يستريح من التَّفكير في العيش (كأنَّ ضرورة العيش ليستْ كافية)، كي يحظى بمكان صغير في الشَّمس، والرِّيف المُترامِي بلا حَدٍّ، وحُلمِ أن تكون ثمَّة سكينةٌ في مكان ما خلف الجبال على الأقلِّ.

171

[1929؟]

الفارق الذي يرسمه الثَّوريُّون بين البرجوازيِّين والشَّعب، بين النُّبلاء والشَّعب، أو بين الحكَّام والمحكومين، خطأٌ فادح وجسيم. فالفارق الحَقُّ الوحيد الذي يستطيع المرء أن يرسمه هُوَ بين أولئك الذين يتكيَّفون مع المجتمع أو يخضعون له وبين أولئك الذي لا يتكيَّفون أو يخضعون؛ البقيَّةُ أدبيَّاتٌ، وأدبيَّاتٌ رديئة علاوة على ذلك. يستطيع الشَّحاذ إذا تكيَّف مع المجتمع أن يغدو ملكاً في الغد، ولكنَّه سوف يفقد بذلك مكانته كشحَّاذ. فلقد عبر الحدود وفقد جنسيَّته.

أتسلَّى بهذه الفكرة هُنَا في هذا المكتب الضيِّق الذي تُطلُّ نوافذه المُتَّسخة على شارع طافح بالمرح. يُسلِّيني التَّفكير في أنَّ صُنَّاعَ الوعي في العالَم هُم أخوتي - المسرحيَّ الجامح وليام شكسبير، ومديرَ المدرسة جون ملتون، والصعلوكَ دانته أليغيري [...] وحتَّى يسوعَ المسيح نَفْسه، لو سُمح لي بأن أذكره، الذي كان شديد التَّواضع في هذا العالم إلى درجة أنَّ بعضهم يشكُّ في وجوده التَّاريخيِّ. أمَّا الآخرون جميعاً فسلالةٌ مختلفة - مستشار الدَّولة يوهان فولفانغ غوته، والسِّيناتور فكتور هوغو، ورأسا دولتيهما لينين وموسوليني.

إنَّهم نحن الذين في الظِّلال، بين السُّعاة والحلَّاقين، الذين يُشكِّلون الإنسانيَّة.

يجلس الملوكُ بهيبتهم في هذي الزَّاوية، والأباطرة بمجدهم، والعباقرة بهالتهم، والقدِّيسون بهالاتهم، وقادة الشَّعب بقوَّتهم، والمومسات، والأنبياء، والأغنياء... وفي الزَّاوية الأخرى نجلسُ نحن - السَّاعي القادم من حول الزَّاوية، والمسرحيُّ الجامح وليام شكسبير، والحلَّاق الذي يقصُّ الحكايا، ومدير المدرسة جون ملتون، وصبيُّ الدُّكَّان، والصُّعلوك دانته أليغيري، أولئك الذين نسيهم الموت أو كرَّسهم، الذين نسيتهم الحياة أو لم تكرِّسهمُ البتَّة.

172

[1929؟]

شعرَ جسدي اليومَ بأنَّ الكَرْب القديم الذي يتورَّمُ فيَّ أحياناً قد تغشَّاهُ، لا آكلُ كما ينبغي ولا أشرب قَدْرَ ما أشربُ في العادة، حين أكون في المطعم أو المحلِّ الذي يُقدِّم الطَّعام بأثمان زهيدة، الذي تمدُّني حجرته العلويَّة ببعض أساسيَّات استمرار وجودي. يستديرُ النَّادل نحوي حين أُغادر، وقد لاحظ أنَّ زجاجة النَّبيذ مازالت نصف مملوءة، ثُمَّ يقول: «طابتْ ليلتُك، يا سيِّد سوارش. أتمنَّى أن تكون غداً على خير ما يرام».

وكان الصَّوت العالي والواضح لتلك العبارة البسيطة يُريح روحي، كما لو أنَّ الرِّيح قد بعثرت فجأة الغيمَ الذي يحجبُ السَّماء. ثُمَّ أُدرك حينئذ شيئاً لم أُدركه، تمامَ الإدراك، مِن قَبْل البتَّة: أنَّني أُكنُّ تعاطفاً عفوياً لا تكلُّف فيه لندلاء المقاهي والمطاعم هؤلاء، رفقةَ الحلَّاقين والسُّعاة الواقفين عند الزَّاوية، ولا أستطيع القول صراحةً إنَّني أشعر بهذا التَّعاطف تجاه أولئك الذين تربطني بهم علاقات أكثر حميميَّة، لو كانت «حميميَّة» هي الكلمة المناسبة...

فالإخاءُ شيءٌ سَام، في غاية السُّمُوِ.

يحكمُ بعضُهم العالَمَ، أما الآخرون فهُم العالم. لا فرقَ نوعياً بين مليونير أمريكيٍّ، قيصر أو نابليون، أو لينين وزعيم القرية الاشتراكي، بل فرقٌ كَميٌّ فحسب. ثُمَّ نأتي بعدهم، نحن الذين أشكالُنا عَدَمٌ، والمسرحيُّ الجامح وليام شكسبير، ومدير المدرسة جون ملتون، والصُّعلوك دانته أليغيري، والصَّبيُّ الذي حمل إليَّ رسالةً بالأمس، والحلَّاق الذي يقصُّ عليَّ القَصص دائماً، والنَّادل الذي، لمجرَّد أنَّني لم أشرب إلَّا نصف زجاجة النَّبيذ فحسب، قد منحني أملاً أخوياً بأنَّني سأكون غداً على خير ما يرام.

[1929؟]

كلَّما ارتفعتْ طموحاتي تحت تأثير أحلامي فوق مستوى حياتي اليوميّ، أشعر بأنَّني أُحلِّقُ عالياً لبرهةٍ كطفل في أُرجوحةٍ، بَيْدَ أنَّه في كلِّ مرَّة يتوجَّب عليَّ، كمثل ذلك الطِّفل تماماً، أن أهبطَ إلى الحدائق البلديَّة، فأُدرك هزيمتي بلا رايات مرفرفة أحملها إلى المعركة وبلا سيف تكون لديَّ القُدرة على أن أُجرِّده من غِمده.

ولسوف أحزر -كي أحكم من خلال الحركات الصَّامتة لشفاههم والحيرة الغامضة في عيونهم أو الطَّريقة التي يرفعون بها أصواتهم حين يصلُّون معاً- أنَّ معظم النَّاس، الذين أمرُّ بهم في الشَّوارع، كيفما اتَّفق، حاملون في دواخلهم الطُّموحات ذاتها لشنِّ حرب عبثيَّة بجيش لا راية لَهُ. ولسوف يذوقون، كلُّهم، مِثلي -أستديرُ كي أتأمَّل ظهورهم المتلاشية- طعمَ هزيمة مُطلَقة ومذلَّة، بؤساء ومجهولين بين الوحل والبُوْص، بلا ضوء قمر يشعُّ على الضِّفاف ولا شِعْر يُوجَدُ بين الأهوار.

لهم جميعاً قلوب حزينة ونشوانة، مثلي. أعرفهم حقَّ المعرفة على بكرة أبيهم: يعمل بعضهم في الحوانيت، ويعمل آخرون في المكاتب، ويمتلك بعضٌ مشاريع تجاريَّة صغيرة، وآخرون أبطالُ المقاهي والبارات، مَهيبون من غير قصدٍ في نشوة أحاديثهم المتبجِّحة أو مُكتفُونَ بأنْ يظلُّوا صامتين على نحو مُتبجِّح، فلا شيءَ يقولونه على أيِّ حال. ولكنَّهم شعراء جميعاً، هؤلاء المساكين الذين يبدو أنَّهم يجرُّون أمام عينيَّ (مثلما لا بُدَّ أنَّني أجرُّ أمام أعينهم) البؤسَ ذاته لتناقضنا المشترك. إنَّ مستقبلهم، مثل مستقبلي، قد باتَ في الماضي سلفاً.

في هذه اللَّحظة، وحيداً وكسلانَ في المكتب، بعد أن ذهب الجميع لتناول طعام الغداء، أُمعن النَّظر عبر النَّافذة المتَّسخة في الكهل الذي يتهادى هَوْناً على الرَّصيف في الجانب الآخر من الطَّريق. ليس ثَمِلًا، بل حالمٌ فحسبُ. إنَّه متنبِّهٌ لما هُوَ غير موجود؛ ربَّما مازالت لديه آمال. فلو كانت الآلهة عادلة في ظُلمها، لحفظت أحلامنا مهما كانت مستحيلة، ومنحتنا أحلاماً طيِّبة مهما كانت مثيرة للشَّفقة. أستطيع اليوم، حين لم أطعن في العُمْر بَعْدُ، أن أحلم بجُزر بحر الجنوب وبلاد هندٍ مستحيلة؛ ربَّما غداً ستمنحني الآلهة ذاتها حُلمَ امتلاكِ متجر صغير لبيع التَّبغ، أو التَّقاعد بمنزل في الضَّواحي. فالأحلام كلُّها متشابهة، لأنَّها أحلام.

فَلْتُغيِّرِ الآلهةُ أحلامي، ولكنْ ليس موهبتي في أن أحلم.

ولكنَّني أنسى الكهل، وأنا أُفكِّر في ذلك. لا أستطيع أن أراه في هذه الأثناء. أفتح النَّافذة كي أطلَّ عليه، ولكنَّه قد توارى عن النَّظر. لقد مضى. كان قد أدَّى، بالنِّسبة إليَّ، وظيفةَ رمزٍ بصريٍّ؛ وما إن أدَّاها حتَّى انعطف عند الزَّاوية. ولو أخبرني أحد أنَّه قد انعطف عند زاويةِ المُطلَق وأنَّه لم يكُن هُناكَ قَطُّ، لقبلت ذلك بالإيماءة ذاتها التي أغلق بها النَّافذة الآن...

ولكي تَصِل؟ ...

أنصافُ الآلهة المساكين الأغرار، الذين يستطيعون دحر الإمبراطوريَّات بالكلمات والنَّوايا الطَّيبة، ولكنَّهم مازالوا يحتاجون إلى المال كي يدفعوا أُجرة المَسكن وثمن المأكل! إنَّهم مثل قُوَّاتِ جيشٍ مُنحَلٍّ حلم قوَّادُها بالمجد الذي لم يبق منه لهؤلاء الجنود الضَّائعين في طمي الأهوار إلَّا فكرة العظَمة، ومعرفة أنَّهم كانوا جيشاً ذات مرَّة، وخواء عدم معرفة ما الذي فعله حقّاً القائد الذي لم يروه قطُّ.

وهكذا يحلم كلُّ امرئ في بعض الأحيان بأنَّه قائد الجيش الذي فرَّت مؤخِّرتُه. وهكذا، يُحيِّي كلُّ امرئ، وسط الطَّمي على الضِّفاف، تحيَّةَ النَّصر الذي لن يستطيع أحدٌ الاستمتاع به؛ النَّصر الذي لم يبقَ منه إلَّا الفتاتُ على مفرش الطَّاولة المُبقَّع الذي لا يكترثُ بأن ينفضَهُ أحدٌ.

إنَّهم يملؤون شقوق الحياة اليوميَّة مثلما يملأ الغبارُ شقوق الأثاث الذي لا يُنفَض عنه كما يجب. وينهضون كلَّ يوم، في ضوء النَّهار العاديِّ، ضدَّ خشب الماهوغانيِّ الأحمر أو ضدَّ المُشمَّع مثل ديدان رماديَّة. تستطيعُ أن تكشطهم بمسمار صغير، بَيْدَ أنْ لا أحدَ لديه الصَّبر كي يفعل ذلك.

كم أحسدُ رفاقي المساكين، أصحاب الأحلام السَّامية، ولكم أحتقرهم! أنا في صفِّ الآخرين، الأشدِّ مَسْكَنَةً، الذين لا يمتلكون إلَّا أنفسَهم كي يقصُّوا أحلامهم عليها، ويصنعوا من تلك الأحلام ما سوف يكون قصائدَ لو كتبوها؛ يا للمساكين الذين لا شيءَ لديهم إلَّا الأدبُ الذي تكتبه الرُّوحُ [...] الذين يموتون وقد غَصُّوا بحقيقة الوجود المُجرَّدة، دونَ حتَّى أن يكابدوا ذلك الامتحان الغريب المُتسامِي الذي يؤهِّلُ المرءَ كي يعيش.

بعضُهم أبطالٌ بطحوا خمسةَ رجال دفعةً واحدة في زاوية شارع الأمس. وبعضُهم مُغوٍ لا تستطيع مقاومتهم حتَّى النِّساء اللَّواتي لم يُوجَدن بَعْدُ. يؤمنون بهذا الشَّيء حين يقولونَهُ، ويقولونَهُ جميعاً لأنَّهم يؤمنون به. وآخرون أصحاب أحلام عاديَّة أصاخوا السَّمع فقبلوا ما سمعوه. وآخرون [...] لا يكترثون بالمنتصرين في هذا العالم، فهم مُجرَّد بشر مثلهم.

ولقد تشابك بعضُهم في بعضٍ، كأسماكٍ ثعابينَ في طاسٍ، حتَّى لا يهربوا البتَّة. وقد يردُ ذكرهم في الصُّحف من حين إلى آخر. فالصُّحف تتحدَّث عن الآخرين مراراً - ولكنَّ صيتَهم لن يطبق الآفاق البتَّة.

إنَّهم سعداء لأنَّهم قد مُنِحوا [...] حُلم الحماقة. أمَّا بالنِّسبة إلى أولئك الذين على شاكلتي، الذين يحلمون أحلاماً بلا أوهامٍ [...]

174

[1929؟]

يبدأُ كضجيجٍ يُحدِثُ ضجيجاً آخرَ في الهاوية المظلمة للأشياء. ثُمَّ يغدو عويلاً غامضاً يصحبه بالتَّناوُبِ صريرُ لافتات حوانيت تتأرجح في الشَّارع، ثُمَّ الصَّوتُ المزمجر للفضاءِ يهوي في الصَّمت فجأةً. كلُّ شيء يرتعدُ، ثُمَّ يتوقَّف، فيعمُّ هدوء في غمرة هذا الخوف كُلِّه كخوفٍ صامت يرى خوفاً أخرسَ يمرُّ.

ثُمَّ لا شيءَ سوى الرِّيح، الرِّيح فحسبُ، فأرى وقد أخذتني سِنَةٌ من النَّوم كيف تشدُّ الأبواب على المفصلات وكيف يقاوم الزُّجاج في النَّوافذ وهُوَ يئنُّ.

لا أنامُ؛ فأنا نصفُ موجود. تطفو جذاذاتُ وعيي إلى السَّطح. مُثقَلٌ بالنَّوم ولكنَّ اللَّاوعي يَروغُ. لا أعرف شيئاً. الرِّيحُ... أستيقظُ ثمَّ أنجرفُ في النَّوم ثانيةً دون أن أكون قد نمتُ بَعْدُ. ثمَّة منظر طبيعيٌّ من ضجيج رهيب عالٍ لا أعرفُ أبعدَ مِنهُ نَفْسي. أستمتعُ خائفاً باحتماليَّة النَّوم. ولكنَّني أنامُ في الحقيقة دون أن أعرف أنني نائم. وفي كلِّ شيء أظنُّه النَّومَ يكون ثمَّة ضجيج آخَر يُعلِن نهاية كلِّ شيء، الرِّيح في الظَّلام، وصوت رئتيَّ وقلبي، لو أصختُ السَّمع أكثر.

175

[1929؟]

يصعدُ في الشَّرقِ الضَّوءُ الأشقرُ للقمرِ الذَّهبِ. كأنَّ الوميضَ المتلألئَ فوقَ النَّهرِ العريضِ حيَّاتٍ على البحرِ.

176

[1929؟]

إصرار الحياة الغريزيُّ الذي يفوق طاقة أيِّ بصيرة شيءٌ يوفِّر مادَّةً لبعض أكثر تأمُّلاتي مثابرةً وحميميَّةً. فلا يخدم القناعُ الباطل للوعي إلَّا لكي يؤكِّد لي وجودَ لاوعيٍ بلا قناع.

يعيش الإنسان، منذ الولادة حتَّى الموت، عبداً للمفهوم الخارجي ذاتهِ عن النَّفْس كما تعيش الحيوانات. فهو لا يعيش حياتَهُ، وإنَّما ينمو نباتياً في مستوى أعلى وأعقد. يتبع معايير لا يعرف أنَّها موجودة ولا يعرف أنَّ نَفْسه تسير على هديها، فتغدو أفكاره ومشاعره وأفعاله كلُّها غير واعية - لا لأنَّها تفتقر إلى الوعي، وإنما لأنَّها لا تحوي وعيَيْن.

فقد تكون التَّلميحات العَرَضيَّة خدَّاعةٌ في حدِّ ذواتها - وهذا، هذا وحدَهُ، هُو ما يختبره البشر جميعاً.

أُلاحقُ بأفكاري الجُزافيَّة الحكاية العاديَّة للحيوات العاديَّة. أرى كيف أنَّ البشر عبيدٌ في كلِّ شيء لحالتهم المزاجيَّة غير الواعية وللظُّروف الخارجية وللدَّوافع التي تحثُّهم على أن يكونوا رفقةَ النَّاس أو وحيدين؛ الدَّوافع التي ترتطم في تلك الحالة المزاجيَّة وتتصادم معها كما لو كانت عدماً.

فكم مرَّة كنتُ قد سمعتهم يخرجون جميعاً من عِبارةٍ ترمز إلى عبث حيواتهم، وإلى عدميَّة تلك الحيوات وجهلها المُطبق. إنَّها العبارة التي يستخدمونها للحديث عن المُتعة الماديَّة: «إذا هبَّت رياح المُتعة فاغتنمها». يغتنمها ويأخذها إلى أين؟ وكيف؟ ولماذا؟ سيكون حزيناً أن أُوقظهم من الظِّلال التي يسكنون فيها بطرح مثل تلك الأسئلة عليهم... فالماديُّ وحده من يستطيع التَّلفظ بمثل تلك العبارة، فلا بُدَّ لمن يتكلَّم على تلك الشَّاكلة أن يكون مادياً. ما الذي يتوقَّع أن ينتزعه من الحياة وكيف؟ وأين سيأخذ رِيَش لحم الخنزير والنَّبيذ الأحمر

وصاحبته المُغتنَمة في تلك اللَّحظة؟ أَإلى جنَّةٍ لا يؤمن حتَّى بها؟ إلى أيِّ أرض غير هذي الأرض التي تفضي، لا محالةَ، إلى التَّعفُّن البطيء الذي كان حياتَهُ دوماً؟ لا أعرف عبارةً أخرى أكثر مأسويَّةً وأوضح في الكشف عن الطَّبيعة البشريَّة. إنَّها ما سوف تقوله النَّباتات لو كانت واعية في الاستمتاع بالشَّمس، وإنَّها ما سوف تقوله عن رغباتها السَّائرة في نومها الحيواناتُ الأدنى منزلة من الإنسان في قُدرتها على التَّعبير عن أنْفُسها. ولكنْ من يعرفُ سوى أنَّني في هذه الأثناء؛ في أثناء كتابة هذه الكلمات، محملاً بالفكرة المخاتلة أنَّ الكلمات قد تظلُّ، لا أُفكِّرُ أيضاً في أنَّ ذكرى كتابتها هي ما «أنتزعهُ من الحياة». ومثل الجثمان العبثيِّ لإنسان عاديٍّ يُنزَل كي يُدفَن في الأرض المشاعِ، فإنَّ الجثمان العبثيَّ للنَّثر الذي كتبتُه وأنا أنتظرُ قد أُنزلَ كي يُدفَن في النِّسيان المَشاعِ. فأيُّ حقٍّ لديَّ كي أسخر من رِيَش لحم الخنزير التي تخصُّ شخصاً آخر ومن نبيذهِ الأحمرَ وصاحبته؟

أيُّها الأخوة في جهلنا، الأوعية المختلفة للدَّم ذاته، والأشكال المختلفة للميراث ذاته - مَن مِنَّا يُنكِرُ الآخَر؟ أنكروا زوجاتكم لا أمَّهاتكم، أو آباءكم، أو إخوانكم.

177

[1929؟]

... كبؤس المقاصد التي نعيش من أجلها، المقاصد التي لا نختارها.

يعيش معظم البشر، إنْ لم يكُن كلُّهم أجمعون، حياة بائسة، حتَّى أفراحهم بائسة، كمعظم أحزانهم، إلَّا أحزان الموت، فالسِّرُّ يُقلِّبها بين أصابعهِ كيفما يشاءُ.

تأتي من الخارج أصواتٌ متقطِّعة، مُنخَّلة عبر غفلتي، سيَّالة ومتناثرة كأمواج متواشجة، كأنَّها قادمة من عالم آخر: صيحات الباعة الجوَّالين الذين يبيعون أشياء طبيعيَّة كالملفوف أو أشياء اجتماعيَّة كتذاكر اليانصيب؛ دمدمة العجَلات -عربات بدواليب وأُخرى تجرُّها الخيول؛ سيَّارات تُسمَع حين تقتربُ أكثر ممَّا حين تمرُّ؛ نَفْضُ شيءٍ كسجَّادة خارج نافذة؛ صبيٌّ يصفر؛ ضحك عال من الطَّوابق العلويَّة؛ الصَّرير المعدنيُّ للترام في الشارع المجاور؛ بلبلةُ أصوات تنبعث من مفارق الطُّرُق؛ طائفة من أصوات عالية وأصوات ناعمة وصمت[162]؛

(162) وردت كلمة الصَّمت، هُنا، بصيغة الجمع. (المترجم)

دويُّ زحمة السَّير المُتلجلج؛ بضع خطوات؛ بدايات الأصوات ومُنتصفاتها ونهاياتها- وكلُّ هذا موجود من أجلي، حين أنامُهُ-مُفكِّراً فيه، كحجر مخبوء بين العشب، يُمعن النَّظر من مخبئه، بطريقة أو أخرى.

ثُمَّ يأتي عبر الجدران طوفانٌ من أصوات تختلطُ مع الأخرى: خطوات، قرقعة آنية فخَّارية، مِقشَّة تكنس، نُتفةُ أغنيةٍ (لعلَّها أغنيةُ فَاذُوْ؟[163])؛ مُواعدةٌ غراميَّة مسائيَّة تحت الشُّرفة؛ صرخة غضب حين يُفقَد شيء من طاولة الطَّعام؛ وشخص يسأل أن تُحضَر له السگائر التي نسيها على منضدة الزِّينة – هذي هي الحقيقة الواقعيَّة، الحقيقة المُجفِرة[164] التي تُخفق في النَّفاذ إلى مُخيَّلتي.

الخطواتُ الخفيفة للخادمة الشَّابَّة الجديدة، وخُفَّاها اللَّذان أتخيَّلهما مُزيَّنَيْن بشريطَيْن قرمزيَّيْن وأسودَيْن، وخطوات الجزمة الثَّابتة الواثقة التي يرتديها ابن أصحاب المنزل، وهو يهمُّ بالخروج قائلاً: «إلى اللِّقاء» بصوت عالٍ، وخبطة الباب تقطع صدى «إلى» التي تعقبُ «اللِّقاء»[165]؛ هدوء، كأنَّ العالَم قد انتهى في الحجرة الواقعة في الطَّابق الرَّابع هذا؛ صوت الأطباق تُوضَع في المغسلة؛ ماءٌ يجري؛ «لقد أخبرتُك من قَبْل...» ومن النَّهر يتعالى صفيرُ الصَّمت.

ثُمَّ تأخذني سِنَةٌ من النَّوم، مُستوعباً ومُتخيِّلاً، بين الأحاسيس المُواكِبة. ومن المدهش التَّفكير في أنَّني -لو سُئِلتُ الآن- لن أرغب في المزيد لحياتي القصيرة أكثر من هذه اللَّحظات المديدة، وغيابِ التَّفكير والعاطفة والفعل وحتَّى الإحساس، هذا، وهذا المَغيبِ الجُوَّانيِّ للرَّغبة المتغيِّرة. ثُمَّ أُفكِّر حينئذ، دون إعمال نظر أو أكادُ، أنَّ كلَّ البشر، إنْ لم يكونوا جميعاً، بصورة أو أخرى، يعيشون على هذا النَّحو، سواءٌ ظلُّوا في أماكنهم لم يبرحوها أو مضوا قُدُماً،

---

(163) الفَاذُوْ fado (والكلمة تعني حرفيّاً: القَدَر/النَّصيب): موسيقى «شَجَن» برتغاليَّة ظهرت في مطلع القرن التاسع عشر في لشبونة، وثمَّة من يقول إنَّها «مزيج من الألحان الإفريقيَّة والبرتغالية وتأثيرات عربيَّة». هي مرتبطة، ارتباطاً وثيقاً، بالـ «Saudade»: «حالة شعوريَّة من الألم والمرارة والكآبة يصعب وصفها تنتاب المرء جرَّاء الحنين/التَّوق إلى شيء/شخص قد لا يلتقيه المرء في حياته ثانية البتَّة». (المترجم)

(164) المُجفِر anaphrodisiac (وفي البرتغاليَّة: anaphrodisiaca): كل ما يقطع المرء عن الجماع أو يُقلِّل الباه. (المترجم)

(165) أيّ بين الـ «bye» والـ «good» في كلمة «goodbye»، كما في الصنعة الإنگليزيَّة، هذه. ولهذا، فقد استخدمت عبارة «إلى اللِّقاء» (وليس «وداعاً»، على سبيل المثال) مقابلاً لـ goodbye (أو despede في البرتغاليَّة) من أجل تحقيق هذه الغاية في الفصل بين جزئَيّ العبارة. (المترجم)

شاعرينَ بالخمول الوسنان ذاته حين يتعلّق الأمر بالمقاصد النّهائيّة، وباللّامبالاة ذاتها تجاه المخطّطات المستقبليّة، وبالوهن ذاته تجاه الحياة. فكلّما رأيتُ قطّة في الشّمس، فإنّها تذكّرني ببشرٍ يستلقي في الشّمس. وكلّما رأيتُ أحداً ينام، فإنّهُ يذكّرني بأنّ كلّ شيء ينام. وكلّما أخبرني أحدهم أنّه قد رأى حُلماً، فإنّني أتعجّب إنْ كان مُدركاً أنّه لم يفعل شيئاً آخر البتّة سوى أن يحلم. يتعالى الضّجيج القادم من الشّارع، كأنّ باباً قد فُتح، فرنّ الجرس.

لم يكُن شيئاً، لأنّ الباب قد أُغلق على الفور ثانيةً. توقّفت الخطى في نهاية الممرّ. والأطباق المغسولة قد رفعتْ أصواتها المائيّة، الفخّاريّة. فهل ارتجفَ الهواءُ؟ تمرُّ شاحنة، فيهتزُّ المنزل كُلُّه، وبما أنّ كلّ شيء لا بُدَّ أن ينتهي، أنهضُ من تفكيري.

178

[1929؟]

يعيش معظم البشر -بداهةً- حياةً خياليّة وغريبة. ولقد كان أوسكار وايلد على حقٍّ تماماً، حين قال إنّ معظم النّاس ناسٌ آخرون[166]. فبعضهم يقضي حياته باحثاً عن شيء لا يريده؛ في حين يَجِدُّ بعضٌ في البحث عن شيء يريدونه، ولكنّ سعيهم يذهب هباءً منثوراً؛ بَيْدَ أنّ آخرين مازالوا يفقدون أنفسَهم [...]

ولكنّ معظم البشر سعداء ويستمتعون بالحياة على أيِّ حال. يبكي البشر قليلاً، في العموم، وحين يتذمّرون، فإنّهم يصنعون أدباً من شكواهم، ذلك أنّ التشّاؤم ليس صالحاً في الحقيقة كصيغةٍ ديمقراطيّة. أولئك الذين يتفجّعون من شرور العالم قلّةٌ منعزلة - إنّهم لا يتفجّعون إلّا من شرور أنفسهم. فلو لم يحظَ شخص على شاكلة ليوپاردي أو أنتيرو دي كوينتال بمحبوبة أو معشوقة، لكان الكون مكاناً رهيباً[xii]. ولو شعر ڤِيني بأنّه غير محبوب وغير مرغوب فيه، لكان العالم سجناً. ولو تاق شاتوبريان إلى المستحيل، لكانت الحياة الآدميّة مُضجرة. ولو غطّت القُروح أيّوبَ، لغطّت القُروح الأرض كلّها. ولو دُستَ ثآليلَ

(166) إشارة إلى قول أوسكار وايلد في رسالته الشّهيرة، «من الأعماق De Profundis»، التي كتبها في سجنه إلى اللورد ألفريد دوغلاس: «معظم النّاس ناسٌ آخرون. أفكارهم آراء أشخاص آخرين، وحيواتهم محاكاة، وعواطفهم مجرّد اقتباس». (المترجم)

قدمَي شخص حزين[167]، فالويلُ، إذن، لأقدام الشَّمس والنُّجوم.

ولكنَّ البشريَّة تواصل هضم الطَّعام ومطارحة الغرام، غير مكترثة بهذا كلِّه، فلا تبكِ إلَّا على ما ينبغي البكاء عليه، وبأقصر وقت ممكن؛ مثل بكاء المرء على موت ابنه الذي سرعان ما ينساه على مرِّ السِّنين، إلَّا في عيد ميلاده؛ وبكاء المرء على خسارة المال الذي يظلُّ يبكي عليه حتَّى يحصل على المزيد أو يتعوَّد خسارتَه. الحياة تتعافى وتستمِّر في الحياة. الموتى مدفونون. والخسارات منسيَّة.

179

[1929؟]

لا بُدَّ لأيِّ جهد نبذله، بصرف النَّظر عن الهدف الذي يلوح في الأفق، أن يتكيَّف مع التَّغيُّرات التي تفرضها عليه الحياة؛ إنه يغدو حينئذ نوعاً آخر من الجهد، بأهداف مختلفة، وقد يُحقِّق بالضَّبطِ عكسَ ما بُذِلَ لتحقيقهِ في الأصل. وحده الهدف التَّافه يستحقُّ السَّعي إلى تحقيقه، فالهدف التَّافه هو الوحيد الذي لديه الفرصة ليتحقق. لو بذلت جهودي كُلَّها في سبيل الحصول على ثروة، فسوف أُحقق ذلك إلى حدٍّ ما، فمثل تلك الأهداف الكميَّة التَّافهة، سواء أكانت شخصيَّة أم غير ذلك، هي في متناول اليد ويمكن تحقيقها. ولكنْ كيف سأشرع في تحقيق مسعاي في خدمة بلادي أو إثراء الثَّقافة الإنسانيَّة، أو المساهمة في تقدُّم البشريَّة برمَّتها؟ لن أستطيع أبداً التَّأكُّدَ من أنَّ ما أفعله صحيحٌ، ولا أنَّ هدفي قد تحقَّق؛ [...]

(167) آثرت، هُنا، الإبقاء على المعنى الحرفيِّ للعبارة، ولم أستخدم المعنى المجازي لها، للعلاقة الخاصَّة التي ينسجها بِسُوَّا بين «قدمَي الشخص الحزين وأقدام الشمس والنجوم: فكأنَّ المرء حين يدوس ثآليل قدمي الشخص الحزين فإنه في الواقع يدوس أقدام الشمس والنجوم. فالعبارة عند بِسُوَّا، في الأصل «Pisam os callos do triste?» (وفي صنعة جول كوستا الإنگليزيَّة، هذه: If you tread on a sad man's corns) وهي عبارة لا تستخدم عادة بمعناها الحرفي الظاهريِّ، وإنما هي كناية عن جرح مشاعر المرء بالضَّرب على وترٍ حسَّاس أو التَّعدي على خصوصيَّه أو امتيازاته؛ فكأنَّ المرء حين يجرح مشاعر شخص حزين، فإنَّه في الواقع –بحسب بِسُوَّا– يجرح مشاعر الشَّمس والنجوم. (المترجم)

180 [168]

[1929؟]

ثُمَّ هَا هُمُ الأصدقاء، الفِتيَةُ العظامُ الذين يسرُّني الحديث إليهم، وتناول الغداء معهم وتناول العشاء، ولكنَّهم مُنحطُّون، بطريقة أو أخرى، وأنذالٌ ومثيرون للشَّفقة، ومازالوا مغلولين إلى مكاتبهم حتَّى حين يخرجون إلى الشَّارع، ومازالت أنوفهم محشورة في سجلَّات الحسابات حتَّى حين يشرعون في مغامرة خارجَ البلاد، ومازال رؤساؤهم في العمل واقفين فوق رؤوسهم حتَّى في المُطلَق.

مفتوحاً كلُّ شيء ومُزداناً بالزِّينة، ينتظرُ الملك الذي سوف يأتي؛ الذي على وشك الوصول، فالغبارُ المُسَّاقط من حاشية ثوبه تُشكِّلُ سديماً جديداً في الشَّرق الذي يُشرق على مهله، وفي المسافة الرِّماحُ التي تُنير فجرَها السَّاطع.

181

[1929؟]

التَّفاهات الطَّبيعيَّة للحياة، تفاهاتُ العاديِّ والمُبتذَل، ترتمي كطبقة غبار، راسمةً خطاً غائماً وغريباً أسفل بؤس وجودي الإنسانيِّ وسفالته.

---

(168) وثمَّة، هُنا، دليلٌ آخر على «تعدُّد» قراءات شذرات «كتاب القلَق» و«اختلاف» ترتيبها، حتَّى في الطبعات البرتغاليَّة الرَّئيسة نفسها؛ فهذا المقطع (الذي كُتبَتْ شذراته بقلم رصاص، على وجهَيْ صفحة واحدة طُويَتْ من المنتصف، إلَّا اثنتَيْن ضُربتا بالحبر الأسود على الآلة الكاتبة) يظهر في طبعة برادو كويلو كمقطع واحد (124، المجلَّد الأوَّل، 129–130)، ولكنَّه ظهر كمقطعَيْن، سواء في طبعة سوبراو كونيا (172 و173، 311–312) أو في طبعة زينيث (419، 379؛ و421، 380)، في حين يظهر كثلاثة مقاطع متواليةٍ، بعضها وراء بعض، في طبعة پيسارُّو (185–187، 187–188) وتقابلها المقاطع (180–182) في صنعة جول كوستا الإنگليزيَّة، هذه، التي نُترجم عنها، والتي استندت في الأساس إلى طبعة پيسارُّو. وسبب «الاختلاف» في «التَّرتيب» عائدٌ، من وجهة نظري، إلى «العشوائيَّة» التي انتهجها پسُوًّا في كتابة هذه الشَّذرات، فهي متناثرة، بعضها لصق بعض، في أرجاء الصَّفحة كافَّة وفي جميع الاتِّجاهات! كأنَّه كان يسعى، في قرارة نفسه، إلى «الكتاب المتاهة» الذي كان يحلم به خورخي لويس بورخيس! وتحتوي الصَّفحة أيضاً على عبارة كتبها پسُوًّا بالحبر الأرجوانيِّ: «ألڤَر دو كامپوش/ نشيدٌ إلى حقيقة الأشياء. الحقيقة المُجفِرة. / مهما يحدث، فإنَّهُ يحدث حين يحدث / Álvaro de Campos. / Ode á Realidade das Coisas. (?) / A realidade anaphrodisiaca. Aconteça o que acontecer, aconteceu quando acontecer». ولقد وردت في طبعة پيسارُّو كملحق للمقطع 185 في نهاية الكتاب (2010: 757). (المترجم)

يرتمي سجل الحسابات مفتوحاً أمام عينيَّ اللَّتَيْن حياتُهما تحلم بكلِّ عوالم الشَّرق؛ نُكتة مدير المكتب غير المُسيئة التي تُسيء إلى الكون كلِّه؛ رئيس العمل وقد أخبروه أنَّ صاحبته الآنسة فُلانه الفُلانيَّة على الهاتف، في غمرة تأمُّلي في الجزء اللَّاجنسيِّ من نظريَّة جماليَّة ومعرفيَّة محضة على حدٍّ سواء.

ولكنَّ الحالمين كلَّهم، حتَّى لو لم يحلموا أحلامهم في مكتب يقع في البَايْشَا (وسط البلد)، أو أمام كشف الميزانيَّة العموميَّة لشركة نسيج، فإنَّ لدى واحد منهم سجلَّ حسابات مفتوحاً أمام ناظريه بصرف النَّظر عمَّا يحتويه؛ سواء أكان المرأة التي تزوَّجها أم التَّخطيط لمستقبل ورثه، بصرف النَّظر عمَّا يكون ذلك المستقبل مادام واضحاً لديه.

لكلِّ امرئٍ رئيسُ عملٍ فقدتْ روحُه الاتِّصال بالكون، ولديه دائماً نُكتة غير مناسبة. لكلِّ امرئ رئيسٌ وصاحبةٌ رئيسٍ ومكالمة هاتفيَّة تَرِدُ دائماً في لحظة غير مناسبة على شفير المساء الرَّائع الذي يهبط فتتجلَّى العشيقاتُ عشيقاتٍ يتكلَّمن في هاتف تلك الصَّاحبة قائلاتٍ إنَّهنَّ في حفلة شاي باذخة مثل جميع السيِّدات الأُخريات.

وما نحن جميعاً -نحن الذين نحلم ونفكِّر- إلَّا مساعدو محاسبين في شركة نسيج، أو نتاجر ببعض بضائع أُخرى في بَايْشَا أُخرى. نُجرى الحسابات فنخسر؛ نجمع الأرقام ونُرحِّلها؛ نُغلق الحساب فيكون الرَّصيد المحجوب ليس في صالحنا البتَّة.

ولكنَّني أبتسمُ، على الرَّغم من ذلك، وأنا أخطُّ هذه الكلمات، في حين أنَّ قلبي يشعر بأنَّه سوف ينفطر، سوف ينكسر كما تنكسر الأشياء، إلى شظايا، إلى كِسَر، وإلى نُفاية كثيرة سوف تُلقَى في سلَّة المهملات، وتُحمَل فوق الكتفَيْن إلى عربة القمامة الأبديَّة التي تطوف على جميع المجالس البلديَّة.

182 [169]

[1929؟]

أُحدِّقُ من غرفتي بالطَّابق الرَّابع في المُطلَق، في الحميميَّة الظَّاهريَّة للمساء الذي يهبط، عندَ نافذتي المفتوحة على بداية النُّجوم، تشرع أحلامي -بتوافُقٍ إيقاعيٍّ مع المسافة الممتدَّة أمامي- في رحلات إلى بلاد مجهولة أو مُتخيَّلة أو مستحيلة، ليس إلَّا.

183

[بعد 31 مايو 1929]

جنازة

تصطَّف أجسامٌ هيراطيقيَّة[170] تعودُ لهرميَّاتٍ مجهولة في انتظارك في الممرَّات - سعاةٌ ذوو وجوه نضرة وشعور شقراء، وفتيانٌ في [...] تناثرُ أنصالٍ لامعة وخُوَذٌ وحليٌّ باذخة، وبريقٌ داكن لذهبٍ باهت وحريرٌ أَكمَدُ.

فكلُّ ما تلوِّنه المخيِّلة يُضفي على جميع المراسم مهابةً جنائزيَّةً تُثقِل كواهلنا حتَّى في النَّصر، وباطنيَّةُ الخواء، وتقشُّف الزُّهد المُطلَق.

وينبع نهر الغانج، أيضًا، من «خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ»[171]. وتوجَد جميع العصور في هذه الغرفة الضيِّقة - الخليط

تحوُّلات آداب السُّلوك المُبرقَشة،

المسافات بين البشر المختلفين،

وطائفة الشُّعوب المتنوِّعة.

---

(169) تتصدَّر عبارة «A Viagem na Cabeça» (= رحلةٌ في العقل) هذه الشَّذرة، في الأصل. وقد أوردتها الطبعات البرتغاليَّة المختلفة عنواناً لهذا المقطع. أُنظر الحاشية السَّابقة لمزيد من التَّفصيل. (المترجم)

(170) Hieratic (وفي البرتغاليَّة: hieraticas): مشتقَّة من الكلمة اليونانيَّة «غراماتا هيراتيكا grámmata hieratiká» (وتعني: الكتابات الكهنوتيَّة) وهي نوع من الكتابة المصريَّة القديمة المُبسَّطة للرموز الهيروغليفيَّة. (المترجم)

(171) Rua dos Douradores (وتعني حرفياً: شارع الصَّاغة): شارع في وسط لشبونة. (المترجم)

وهُنَاك، مُنتشياً، في شارع وحيدٍ، أنتظرُ الموتَ بين السُّيوف وشُرفات البُروجِ المُشيَّدة.

وليست سِتَّ الأقدام من الأرض الباردة التي تُغمَضُ على العينَيْن المُغمضتَيْن تحتَ الشَّمس الحارقة قُربَ العشب الأخضر، وإنما الموتُ الذي يمضي أبعدَ من حياتنا؛ الموتُ الذي هُوَ نَفْسه حياةٌ - حضورٌ ميِّتٌ في شخصٍ، إلهٌ مجهول قد تذكُره الآلهة.

184

[1929؟]

نهضتُ من مقعدي بَعْدَ جهدٍ جهيد لأجدَ كأنَّني مازلتُ أحمله معي أنَّى ذهبتُ، إلَّا أنَّهُ الآن أثقل، فقد غدا مقعدَ ذاتيَّتي.

185

[1929؟]

عقلي الواعي طافح بنعاس لا أستطيع تفسيره ولكنَّه يهجم علـيَّ مرَّات ومرَّات، لو جاز لي القول إنَّ شيئاً غامضاً، شديدَ الغموض، يمكن أن يهجم عليَّ. أمشي في أحد الشَّوارع كما لو كنتُ في الحقيقة جالساً في أريكة وعقلي اليقظ، المتحفِّز لكلِّ شيء، مازال طافحاً بكسل جسدٍ يرقد. سأعجز عن تجنُّب عابر سبيل يقترب. سأكون غير قادر على الرَّدِّ بالكلمات، أو عاجزاً حتَّى عن صياغة جواب في رأسي على سؤال طرحه عابرُ سبيل عابرٌ يستغلُّ فرصة وجودي الفجائيِّ في الشَّارع. سأكون عاجزاً عن إخفاء أيِّ رغبة، أو أمل، أو أيِّ شيء يمكن أن يُفسَّر على أنَّه حركة ليست بالضَّرورة نابعة من إرادة كينونتي كلِّها، وإنَّما، لو جاز لي القول، من الإرادة الجزئيَّة والفرديَّة لكلِّ عنصر من العناصر التي يمكن أن أتكوَّن منها. سأكون غير قادر على التَّفكير، والشُّعور، والرَّغبة. ولكنَّني مازلت أسير، وأتحرَّك، وأنجرف. ولا شيء في حركاتي (أعلم هذا لعدم وجود شخص آخر يبدو أنَّه يلاحظ) يخون حالتي الجامدة. وهذا الافتقارُ إلى الحيويَّة، الذي يمكن أن يكون مريحاً وحتَّى سَوِياً لدى شخص يستلقي أو يرقد، شيءٌ مزعج في حدِّ ذاته، وحتَّى مؤلم لدى رجل يمشي في الشَّارع.

كأنَّ الكسَل قد أثملني، كأنَّهُ قَصْفُ سُكْرٍ طافح بالكآبة، في حدِّ ذاته، وفي العلَّة التي جرَّتني إليه. إنَّه مرضٌ لا أمل في شفائه. إنَّه موتٌ بَشوشٌ.

186
[1929؟]

وحين أرفع رأسي الثَّقيل في بعض الأحيان عن السِّجلَّات التي لا أكفُّ فيها عن تقصِّي حسابات الآخرين وتغييب حياتي الخاصَّة، أشعر بغثيان يسري في جسدي. قد يكون ناجماً عن الجلوس منحنياً، شديد الانحناء، فوق السِّجلَّات، ولكنَّ الأمر يتعدَّى مسألة الأرقام وخيبة الأمل فحسب. تصيبني الحياة بالغثيان كجرعة دواء فاسد. ثُمَّ أرى، حينئذ، بوضوح الرؤية الهائل، كم من السَّهل انتزاعَ نَفْسي من السَّأم لو امتلكتُ قوَّة الرَّغبة لفعل ذلك حقاً.

نعيشُ بالأفعال، أقصدُ بالإرادة. أمَّا أولئك الذين لا يعرفون كيف يرغبون -سواء أكانوا عباقرة أم شحَّاذين- هم أخوتنا في العُنَّة المشتركة. فما جدوى أن أعدَّ نَفْسي عبقرياً حين لا أكون في الحقيقة إلَّا مجرَّد محاسب مساعد؟ حين عرَّف **سيزاريو ڤِيرد** نَفْسه للطَّبيب بأنَّهُ ڤِيرد الشَّاعر، وليس **السيِّد ڤِيردي** الكاتب التِّجاري، فقد كان يستخدم إحدى تلك العبارات التي تُعبِّر عن الكبرياء العقيم الذي يغرق في الغرور. ولكنَّ المسكين لم يكُن قَطُّ سوى **السيِّد ڤِيرد**، الكاتب التِّجاريِّ. الشَّاعر لم يُولَد إلَّا بعد وفاته، فشعره لم يُقدَّر حقَّ قدره إلَّا بعد موته فحسب[172].

الأفعال هي البصيرة الحَقَّة. سأكونُ ما أريدُ. ولكنْ يتوجَّب عليَّ أن أُريد أيَّ شيء أوَّلاً. فالنَّجاح يعني أن تكون ناجحاً، وليس أن تكون لديك إمكانيَّة النَّجاح فحسب. فثمَّة إمكانيَّةٌ أن تغدو أيُّ أرض كبيرة قصراً، ولكنْ أين القصر إنْ لم يبنه أحدٌ هُنَاك؟

---

(172) لم يحظَ سيزاريو ڤِيرد (على شاكلة پِسُوًا نفسه!) بالشُّهرة إلَّا بعد وفاته، فهو لم ينشر في حياته القصيرة (31 عاماً) سوى نحو أربعين قصيدة في الصُّحف والدَّوريَّات الأدبيَّة المختلفة، وبعد وفاته جمع صديقه النَّاقد أنطونيو ذَا سيلڤا پنتو أشعاره في ديوان أسماه «**كتاب سيزاريو ڤِيرد O Livro De Cesário Verde**» في العام 1887، ونشره على نفقته الخاصَّة. فهل استوحى پِسُوًا عنوان كتابه، «**كتاب القلق**»، من هذا العنوان، ولاسيَّما أنَّه لا يكفُّ، هو وأنداده «ألبيرتو كآيرو، وبرناردو سوارش، وألفَر دُو كامپوش» عن ذكر **ڤِيرد** البتَّة؟! (المترجم)

يرجمُ العميانُ كبريائي والمُتسوِّلونَ يدوسونَ خِذلاني.

أمَّا الذين لا يجرؤون على قول أيِّ شيء لمحبوباتهم، فإنَّهم يقولون في القصائد التي لا يرسلونها البتَّة: «لا أُريدُ إلَّاكِ حتَّى أستطيع أن أحلم بكِ». وهذا البيت «لا أُريدُ إلَّاكِ حتَّى أستطيع أن أحلم بكِ» مُستلٌّ من إحدى قصائدي القديمة. أُدوِّن هذه الذِّكرى بابتسامةٍ، ولا أُعلِّق على الابتسامة حتَّى.

187 (173)

[ربيع 1929؟]

تقابلني على المنضدة المائلة صفحتان كبيرتان من دفتر الحسابات الثَّقيل؛ أرفعُ بصري بعينَيْن مُتعبتَيْن، ولكنَّ روحي أكثر تعباً من عينيَّ. ووراءَ هذا العَدَم الذي يُمثِّله هذا يقعُ المستودع الكائن في «**خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ**»، بصفوف رفوفه العاديَّة وموظَّفيه العاديِّين، ونظامه البشريِّ وسكينة المُبتَذل وهدوئه. تأتي عبر النَّافذة أصوات مختلفة، وتلك الأصوات المختلفة مُبتذلةٌ ابتذالَ سكينة الرُّفوف وهدوئها.

أنظرُ بعينَيْن جديدتَيْن إلى الصَّفحتَيْن البيضاوَيْن، حيث تُسجِّلُ أرقامي الدَّقيقة نتائجَ أعمال الشَّركة، فأبتسم في نَفْسي حين أُفكِّر بأنَّ الحياة التي تتضمَّن هاتَيْن الصَّفحتَيْن المحتويتَيْن أسماءَ أقمشةٍ ومبالغ إجماليَّة مختلفة، ومساحات فارغة، وأحرفاً، وأسطُراً مُسطَّرة، تحوي أيضاً أسماء الملَّاحين العظماء، والقدِّيسين العِظام، والشُّعراء من كلِّ عصر، الذين لا تظهر أسماؤهم في هذا الكتاب، ذُرِّيَّة هائلة بأكملها أُقصِيَتْ من لدن أولئك الذين يُعرِّفون مَا هُوَ القَيِّمُ في هذا العالَم.

(173) نشر بِسُوَّا هذا النَّص، موقَّعا باسمه الصَّريح، في العدد الرَّابع من مجلَّة Revista A في العام 1929، بعنوان: (مقطع آخر من «كتاب القلَق» تأليف برناردو سوارش، المحاسب المساعد بمدينة لشبونة) Outro Trecho، وفي الصفحة ذاتها (الصَّفحة الثَّانية والأربعين) التي ضمَّت قصيدة «شَفَق» للشَّاعر البرتغالي كارلوش كيروش Queirós Carlos. وكان بِسُوَّا قد خطَّ هذا النَّص، في الأصل، على ظهر بيان صحفيٍّ بعنوان «حول بيان طُلَّابيٍّ Sobre um Manifesto de Estudantes» نشره في لشبونة سنة 1923. (المترجم)

وفي حين أكتبُ اسم القماش الذي لا أعرفه، تنفتحُ أبواب السِّند وسمرقند أمامي، ثُمَّ يتجلَّى شِعرُ بلاد فارس (الذي لا ينتمي إلى أيٍّ من المكانَيْن) برباعيَّاته التي تختلف قافية بيتها الثَّالث[174]، فيكون بمثابة عزاء بعيد يواسي قلقي. ولكنَّني لا أغلط بتاتاً، على الرَّغم من ذلك، فأُدوِّنُ، وأجمع، وتُواصِل الحسابات حياتها محفوظةً ومحمولةً، كما هي العادة دوماً، من طرف موظَّف يعمل في هذا المكتب.

188

[1929؟]

اليومَ، في أثناء نوبة من نوبات أحلام اليقظة التي مازالتْ تُشكِّلُ، على الرَّغم من افتقارها لأيِّ مَرام أو كرامةٍ، الجزءَ الأكبرَ من الجوهر الرُّوحيِّ لحياتي، تخيَّلتُ نَفْسي وقد تحرَّرتْ إلى الأبد من «**خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ**»، ومن **ڤاسْكِش**، ربِّ عملي، ومن **مُوْرِيرا**، المحاسب، ومن جميع الموظَّفين الآخرين، صبيِّ المهمَّات، وساعي البريد، وحتَّى القطَّة. ففي الأحلام، تلك الحريَّة التي تُشعرني كأنَّ البحار الجنوبيَّة قد وهبتني هديَّةً من جُزرٍ خلَّابة لم تُكتشَف بَعْدُ. فالحريَّة تعني راحة كينونتي، وإنجازها الفنيَّ، وتحقُّقها الفكري.

ثُمَّ فجأةً، حتَّى وأنا في غمرة التَّخيُّل (في أثناء الفُرصة القصيرة التي أتاحتها استراحة الغداء في المقهى)، يتسرَّب إلى الحلم شعور من الاستياء: فيجتاحني الحزن. نعم، أقول ذلك بكلِّ جدِّيَّةٍ: يجتاحني الحزن. وذلك لأنَّ **ڤاسْكِش**، ربَّ عملي، وموريرا المحاسب، و**بُورجيش**، أمين الصَّندوق، وجميعَ الصِّبية، الصَّبيَّ المرح الذي ينقل الرَّسائل إلى مكتب البريد، وصبيَّ المهمَّات، والقطَّةَ الودودة، سوف يغدون جميعاً بلا استثناءٍ جزءاً من حياتي. لن أترك كلَّ ذلك ورائي دون أن أبكي، دون أن أُدرك، مهما كانت الفكرة مزعجة، أنَّ ذلك الجزء سوف يظلُّ معي، وأنَّ فقدَهم سوف يكون أقربَ للموت.

ثُمَّ لو تركتهم غداً جميعاً وخلعتُ عنِّي بذلةَ «**خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ**»، فما عساي أن أفعل؟ لا بُدَّ أن أفعل شيئاً. وأيَّ بذلة سوف أرتدي؟ فلا بُدَّ أن أرتدي بذلةً.

يُوجَد **السيِّد ڤاسْكِش** لدينا جميعاً، وقد يكون في بعض الأحيان كائناً آدمياً حقيقياً، ولا

---

(174) يُعرف هذا النَّوع من الرُّباعيَّات (أو الدُّوبيت) بالخَصيِّ أو الأعرج تمييزاً له عن الرُّباعيِّ الكامل. (المترجم)

يكون كذلك في أحايين أخرى. إنَّه يُدعَى **ڤاسْكِش**، حَقاً، بالنِّسبة إليّ، وهو رجل لطيف ويتمتَّع بصحَّة جيِّدة، فظٌّ في بعض الأحيان، ولكنَّه ليس أَفَّاكاً على الإطلاق. إنَّه أنانيٌّ ولكنَّه عادلٌ بطبعه، أعدل من أكثريَّة العباقرة العظماء وأكثريَّة فَلْتَاتِ الزَّمان الذين جادت بهم الحضارة ذات اليمين وذات الشِّمال على حدٍّ سواء. يأخذ **ڤاسْكِش**، لدى الكثيرين، شكل الغرور، والرَّغبة في ثروة أعظم، والتَّوق إلى المجد أو الخلود... ولكنَّني أُفضِّل، شخصياً، أن يكون **ڤاسْكِش** ربَّ عملي في حياتي الواقعيَّة، فمن السَّهل التَّعامُل معه في أوقات الشِّدَّة أكثر من أيِّ رئيس مُبهَم يتوجَّب أن يجود به العالَم.

وبالأمس، قال لي صديق؛ أحد الشُّركاء في شركة مزدهرة تُدير أعمالاً في أنحاء البلاد كافَّة، وهو يَعُدُّ راتبي قليلاً إلى حدٍّ بعيد: «إنَّهم يستغلُّونك، يا **سوارش**»[175]. جعلتني هذه العبارة أُدرك أنَّني كذلك فعلاً. وبما أنَّ قدَر المرء أن يُستغَل في حياته، فإنَّ تساؤلي سوف يكون على هذه الشَّاكلة: هل استغلالُ السيِّد **ڤاسْكِش**، وشركة النَّسيج التي يمتلكها، سيكون أسوأ من استغلال الغرور، أو المجد، أو الحقد، أو الحسد، أو المستحيل؟ فبعضُ الأنبياء والقدِّيسين الذي يذرعون هذا العالم التَّافه، قد استُغلوا كذلك.

وأعود، كمن يعود إلى بيتِ غيره، إلى المكتب الفسيح في «**خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ**»، على الشَّاكلة التي يعود بها بعضهم إلى بيوتهم. أقترب من مكتبي كما لو كان حصناً ضدَّ الحياة. أشعرُ كأنَّ حناناً يغمرني فتطفح بالدَّمع عيناي شوقاً إلى كُتُبي التي هي في الحقيقة كتب أشخاص آخرين أحتفظُ بحساباتهم لديَّ، وإلى المَحبرة التي أستخدمها، وإلى كتفي **سِيرج**[176] المُنحنيتَيْن، ليس بعيداً عنِّي، يجلسُ مُحبِّراً بوالص الشَّحن. أشعر بالحُبِّ تُجاه هذا كُلِّه، ربَّما لأنَّه ليس لديَّ شيء آخر أُحبُّه، أو ربَّما أيضاً لأنَّه على الرَّغم من عدم وجود شيء يستحقُّ في الحقيقة حُبَّ أيِّ روحٍ، لو توجَّب علينا منحَهُ بدافع العاطفة، فقد ينبغي لي أن أُغدقَهُ على ضآلة مَحبرتي مثلما أُغدقه على لامبالاة النُّجوم.

---

(175) تظهر هذه العبارة في طبعة سوبراو كونيا (المقطع 425، 351–353)، وفي طبعة برادو كويلو (المقطع 81، المجلَّد الأوَّل، 83–85): «**إنَّهم يستغلُّونك، يا بُورجيش** Você é explorado, Borges»؛ في حين نرى الاسم الوارد هُوَ «سوارش» وليس «بورجيش»، في طبعة زينيث (المقطع 7، 54–56)، علمًا بأنَّ پيسارُو قد أورده «بورجيش» في طبعته الصادرة في العام 2010، (المقطع 93، 191–192)، ثُمَّ عدَل عن ذلك، واستعاض عنه بـ «سوارش» في طبعته الصادرة في العام 2017 (وهي الطبعة التي اعتمدت جول كوستا عليها في صنعتها الإنگليزيَّة هذه). (المترجم)

(176) Sergio: لا يُلفظ حرفا العلَّة الأخيران في البرتغاليَّة الأوروبيَّة. (المترجم)

189

[1929؟]

سألتُ الحياةَ أقلَّ القليل فحرمتني حتَّى من ذلك؛ بعضَ شعاعِ شمسٍ، وحقلاً مجاوراً، وبعضَ سكينةٍ وهدوءٍ ولقمةَ خُبزٍ، وألَّا أشعرَ أنَّ معرفتي بوجودي شديدة الوطأة عليَّ، وألَّا أطلب شيئاً من الآخرين وألَّا يطلبوا شيئاً منِّي. ولقد حُرمتُ من ذلك، كشخص يَحرم الشحَّاذَ، لا بدافع الضَّغينة، وإنَّما كي لا يُضطرَّ إلى فك أزرار سُترته فحسب.

حزينٌ، في غرفتي الهادئة، ووحيدٌ مثلما كنتُ دائماً ومثلما سأكون، أجلس فأكتب. أتساءل إنْ كان ذلك الشَّيء الذي يبدو واهناً صوتي، ربَّما لا يُجسِّد كُنْهَ آلاف الأصوات، والتَّحرُّقَ إلى المجاهرة بآلاف الحيوات، وصبرَ ملايين الأرواح التي استسلمتْ مثلي في حيواتها اليوميَّة إلى الأحلام العبثيَّة والآمال البائدة. يدقُّ قلبي أسرع، في مثل هذي اللَّحظات، لأنَّني واعٍ به، لا أكثر. أعيشُ الحياة بحدَّةٍ، لأنَّني أعيشُ الحياة بكلِّ ما تعنيه الحياةُ. أشعر بأنَّ في نَفْسي عنفواناً دينياً، شكلَ صلاةٍ، شيئاً كمثل عجيجِ أصواتٍ. ولكنَّ ردَّة الفعل ضدَّ نَفْسي تبدأ في عقلي... فأرى نَفْسي في غرفة بالطابق الرابع في «خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ» فينتابني النُّعاس. ألاحظُ على الصفحة نصفِ المكتوبة كتابةً بشعة، والسِّيگارة الرَّخيصة في يدي اليسرى حين تستريح على سجلِّ اليوميَّة القديم. هَأَنَذَا في غرفة الطَّابق الرَّابع هذه، أطلبُ الإجابات من الحياة! أُفصح عمَّا تشعر به الأرواح الأخرى! وأكتبُ النَّثر كأنَّني عبقريٌّ حقيقيٌّ، كاتب ذائع الصِّيت! وإنَّني، هُنَا، على هذا النَّحو!

190

[1929؟]

البحث عن الحقيقة -سواء الحقيقة الذَّاتيَّة لمعتقدات المرء، حقيقة الواقع الموضوعيَّة، أو الحقيقة الاجتماعيَّة للمال والسُّلطة- يجلب معه دائماً، إنْ كان الباحث يستحقُّ الجائزة، المعرفةَ المُطلَقة بأنَّ الحقيقةَ ليست موجودة. فجائزة يانصيب الحياة الأكبر لا تذهب إلَّا إلى أولئك الذين يصدف أنَّهم قد اشتروا البطاقات.

تكمنُ قيمة الفنِّ في أنَّه يأخذنا بعيداً عن هُنَا.

191

[1929؟]

كأنَّ الابتذالَ بيتُنا واليوميَّ أُمُّنا. فبعد توغُّل طويل في الشِّعر العظيم، واقتحام جبال الإلهام السَّامي، وارتياد منحدرات المُتعالي والباطنيِّ، لا ألذَّ مذاقاً ولا أعذب شعوراً يجمع في ثناياه دفءَ الحياة كلَّه من العودة إلى الخان الذي يضحك فيه الحمقى السُّعداء ويُنكِّتون، ومشاركتهم الشَّراب، بالحماقة التي جبلهم الله عليها، قانعين بالكون الذي مُنحناه، تاركين البقيَّة لأولئك الذين يتسلَّقون الجبال، ولا يفعلون شيئاً حين يبلغون القمَّة.

ولا أُدهَش البتَّة حين يقول النَّاس عن شخص أَعُدُّه مجنوناً أو غبياً إنَّه أفضل من بعض الأشخاص الذين حياتهم وإنجازاتهم عاديَّةٌ ليس إلَّا. فحين تستبدُّ الصَّرعة بالمصروعين تشتدُّ قوَّتهم على نحو خارقٍ للعادة، ويمتلك المصابون بجنون العظمة قوىً عقلانيَّة تفوق تلك التي لدى معظم البشر العاديِّين؛ ويجتذبُ المهووسون المُتديِّنون في هذيانهم حشوداً من المؤمنين أكبر من (معظم) الغوغائيِّين، ويمدُّون مُريدهم بقوَّة جوَّانيَّة لا يقدر عليها الغوغائيُّون. ولكنَّ هذا كُلَّه لا يُثبت إلَّا أنَّ الجنون هُوَ الجنون. أُفضِّل هزيمةً تعرف أسرار جمال الأزهار على نصرٍ في فَلاةٍ، فالنَّصر عمى الرُّوح التي تُركَتْ وحيدةً مع تفاهتها.

فكم مرَّةً خلَّاني حُلمٌ عقيم ممتلئاً برعب الحياة الجوَّانيَّة، وقد جاشَتْ نَفْسي إلى الرُّوحانيَّات والتَّأمُّلات. أُهرع من بيتي الذي حلمت فيه بهذه الأشياء، ذاهباً إلى المكتب، حيث أُحدِّق في وجه مُوريرا مثل مسافر يصل إلى الميناء أخيراً. أُفضِّل مُوريرا، بعد أخذ كلِّ الأشياء في الحسبان، على العالَم النجميِّ؛ أُفضِّل الواقع على الحقيقة، ولكنِّي أُفضِّل الحياةَ، في الحقيقة، على صانعها. هكذا قدَّمها لي، وهكذا سوف أعيشها. أحلم لأنَّني أحلم، ولكنَّني لا أهين نَفْسي حين أمنح الأحلام قيمةً لا تنطوي عليها، باستثناء كونها مسرح نَفْسي الشَّخصي، مثلما لا أُسمِّي النَّبيذ (الذي لم أمتنع عنه بَعْدُ) «طعاماً»، أو أعدُّه «أحد ضروريَّات الحياة».

192

[1929؟]

لو لم تكُن لديَّ أيُّ فضيلة أخرى، فثمَّة في داخلي على الأقلِّ جِدَّةُ الإحساس المتحرِّر.

لاحظتُ اليومَ، فجأةً، وأنا أمشي في «خُوَا نُوڤا ذُو أَلماذا»[177]، ظهرَ الرَّجل الذي يمشي أمامي: الظَّهرَ العاديَّ لرجل عاديٍّ، سُترةَ بذلة متواضعة على ظهر عابر سبيل صُدفةً. كان يتأبَّطُ حقيبةً قديمة تحت ذراعه الأيسر، وينقرُ الرَّصيف، في كلِّ خطوة يخطوها، بطرف الشَّمسيَّة المطويَّة التي يحملها في يده اليمنى.

ثُمَّ انتابني، فجأة، شعور يقترب من الرِّقَّة تجاه ذلك الرَّجل. شعرتُ أنَّ في داخله تلك الرِّقَّة التي يشعر بها المرء تجاه الأشياء الإنسانيَّة العاديَّة، والحياة اليومية المبتذلة لربِّ أسرة في طريقه إلى العمل، ومنزله المتواضع الذي يضجُّ سعادةً، وملذَّاته الحزينة والمبهجة التي لا شكَّ أنَّها تُشكِّل حياته، وبراءة العيش بلا تفكير، والطَّبيعة الحيوانيَّة لذلك الظَّهر الذي تكسوه الثِّياب.

نظرتُ ثانيةً إلى ظهرِ الرَّجل، النَّافذةِ التي رأيتُ من خلالها هذه الأفكار.

شعرتُ بالإحساس ذاته الذي ينتاب المرء حين يكون في حضرة شخص نائم. فحين ينام المرء يعود طفلاً مرَّة أخرى، ربَّما لأنَّ المرء لا يستطيع القيام بأفعال شرِّيرة في أثناء النَّوم، ولا يكون حتَّى واعياً بوجوده.

ويستطيع أشدُّ الأنانيِّين انشغالاً بذاته، وأشدُّ المجرمين فتكاً، أن يغدو مُقدَّساً ببعض هذا السِّحر الطَّبيعي الذي نُسمِّيه النَّوم. فلا أرى فارقاً واضحاً بين قتل طفل وقتل شخص نائم.

ظَهْرُ الرَّجل نائمٌ، وكلُّ جزء من الرَّجل الذي يمشي أمامي، بالسُّرعة التي أمشي بها، نائمٌ. إنَّه يتحرَّك لا شعورياً، وهو يعيش لا شعورياً، وينام مثلما ننام جميعاً. فكلُّ ما تنطوي عليه الحياة حُلمٌ. لا أحد يعرف ماذا يفعل، ولا أحد يعرف ماذا يريد، ولا أحد يعرف ماذا يعرف. نحنُ -أبناءَ القدَر الأبديِّين- ننامُ حيواتنا بعيداً. ولهذا، حين أُفكِّر مستخدماً ذلك الشُّعور تنتابني رقَّةٌ هائلة، لا نهائيَّة، تجاه جميع ما تنطوي عليه الإنسانيَّة الطُّفوليَّة، وحيوات البشر السَّائرة في نومها، وتجاه كلِّ واحد وكلِّ شيء.

تجتاحني في تلك اللَّحظات إنسانويَّةٌ خالصة لا تستخلص شيئاً ولا تعرف أيَّ دوافع خفيَّة. وتغمرني رقَّة كأنَّني رأيت هذا كلَّه بعيني إله. أرى كلَّ واحد بعاطفة الكائن الواعي الحيِّ الوحيد: يا للنَّاس المساكين، يا للبشريَّة المسكينة. ما الذي يفعله هذا كلُّه هُنَا؟

---

(177) Rua Nova do Almada: شارع في لشبونة شُقَّ تخليداً لذكرى «خُوِي فرنانديش ذِي ألماذا» الرَّئيس الأسبق لمجلس شيوخ البلديَّة. (المترجم)

أعدُّ كلَّ حركة وكلَّ قوّة مُحفِّزة في الحياة، من تمدُّد رئاتنا البسيط وانقباضها إلى بنايات المُدن ورسم الحدود الإمبراطوريَّة، شكلاً من أشكال النَّوم أو أحلاماً أو فترات تحدث تلقائياً في الفواصل بين حقيقة واقعة وأخرى، بين يوم من أيّام المُطلَق والذي يليه. أنحني في اللَّيل كجسم أُموميٍّ مُجرَّد فوق أسرَّة الأطفال الطيِّبين والأشرار على حدٍّ سواء، فأساوي بينهم في النَّوم الذي يجعلهم أطفالي، لرقَّة مشاعري تجاههم كَرَمُ كائن مُطلَق. أشيح بصري بعيداً عن ظهر الرَّجل الماثل أمامي مباشرة كي أنظر إلى الآخرين، إلى كلِّ من يمشي في هذا الشَّارع، فأشملهم جميعاً، عن وعي، بالرِّقَّة الباردة والعبثيَّة ذاتها التي أثارها في ظهرُ الكائن اللَّاواعي الذي ألحقُ خَطوه. إنَّهم جميعاً على شاكلته: الفتيات اللَّواتي يتجاذبن أطراف الحديث في طريقهنَّ إلى المشغل، والكَتبة الشَّباب الذين يضحكون في طريقهم إلى المكتب، والخادمات العائدات إلى المنزل مُحمَّلات بالمشتريات، والصِّبية الخارجون في أولى مهامهم اليوميَّة - وهذا كُلُّه مجرَّد لا شُعورٍ يرتدي وجوهاً وأجساداً مختلفة، دُمى تتحرَّك بخيوط تجذبها أصابع الكائن المحتجب ذاته. إنَّهم يمنحون كلَّ مظهرِ وعياً، ولكنْ لأنَّهم غير واعين بأنَّهم واعون، فإنَّهم غير واعين بشيء. وسواء أكانوا أذكياء أمْ أغبياء، فإنَّهم في الحقيقة أغبياء على حدٍّ سواء. وسواء أكانوا شِيباً أمْ شُبَّاناً، فإنَّهم في العُمْر ذاته على حدٍّ سواء. وسواء أكانوا رجالاً أمْ نساءً، فإنَّهم ينتمون إلى الجنس غير الموجود ذاته.

193

[1929؟]

حاولتُ كثيراً الحلم بأن أكون ذلك النَّوع الفرديَّ المَهيب الذي تخيَّل الرُّومانسيُّون أنْ يكونوا هُم أنفسُهم عليه، وكلَّما حاولتُ ينتهي بي الأمر دائماً بالضَّحك على نَفْسي عالياً لمجرَّد أنَّني قد أفسحت المجال لأن تعنَّ تلك الفكرة على بالي. ومع ذلك، لا وجود لزير النِّساء الفتَّاكِ[178] في أحلام البشر العاديِّين، فليستْ الرُّومانسيَّة إلَّا شقلبة أَنْفُسِنا اليوميَّة العاديَّة بطناً لِظَهر. فجميع الرِّجال العاديِّين يحلمون، في أشدِّ أجزاء كينونتهم سريَّةً، بحكم

(178) «homme fatal» (وفي البرتغاليَّة: homem fatal): على شاكلة عبارة «femme fatale» التي تعني المرأة اللَّعوب التي تستغل جمالها الصَّارخ وأنوثتها الصَّارخة لتفتك بالآخرين. (المترجم)

إمبراطوريَّة عظيمة، فيكون جميع الرِّجال رعايا، وجميع النِّساء جواري يذوقون عسيلتَهُنَّ أنَّى شاؤوا، ويعبدهم النَّاس جميعاً و(إنْ كانوا رجالاً أدنى منزلةً) من مختلف الأعمار... قلَّةٌ تعوَّدوا الأحلام، مثلما قد تعوَّدتُ، ولهذا فهم ليسوا شفَّافين بما يكفي لأنْ يضحكوا على الاحتماليَّة الجماليَّة لتعهُّد تلك الأحلام بالرِّعاية والتَّحليق بها.

لم يظهر بَعْدُ النَّقدُ الأشدُّ رصانةً للرُّومانسيَّة، أقصدُ مِن حيثُ إنَّها تُمثِّل الحقيقةَ الجوَّانيَّة للطَّبيعة البشريَّة وتجسيداً لما هُوَ ثاوٍ عميقاً في الرُّوح الإنسانيَّة، ولكنَّ هذا التَّجسُّدَ الماديَّ والمرئيَّ وحتَّى المُمكنَ، إنْ كان ذلك ممكناً، يعتمدُ على شيءٍ غير **القَدَر**؛ شيءٍ تنبعُ منه فُيُوضَاتُها وعبثيَّاتُها وتعدُّداتُها المختلفة اللَّازمة لتحريك البشر وإغوائهم.

وحتَّى أنا، الذي يضحك على كمائن الإغواء التي نصبتها المخيِّلة، كثيراً ما أجدُ نَفسي وقد تخيَّلتُ روعةَ أن يطيرَ صِيتي، ومُتعةَ أن أُحبَّ، وإثارةَ أن أنجح! ولكنَّني مازلتُ غير قادر بتاتاً على رؤية نَفْسي في أدوار المسرَّة تلك، دونَ أن أسمع قهقهةَ الـ «**أنا**» الأخرى التي أُبقيها دائماً قريبةً منِّي، بِقَدْر ما أستطيعُ، قُربَ شارع في بَايْشَا. فهل أتخيَّل نَفْسي ذائع الصِّيت؟ محاسباً ذائع الصِّيت فحسبُ. وهل أسرحُ بخيالِ نَفْسي فأراها وقد ارتقَتْ عالياً حتَّى عروش الشُّهرة؟ ولا يهبطُ عليَّ هذا الخيال الجامحُ إلَّا وأنا في المكتب في «خُوَا دُشْ دُورَادُورِشْ»، وزملائي، لا محالةَ، يُفسدون تأثير ذلك فيَّ. فهل أسمع تصفيقَ الحشود التي جاءت من كلِّ حدب وصوب؟ يتعالى التَّصفيق من الغرفة الرَّخيصة في الطَّابق الرَّابع حيث أعيش، ويتصارع بعنف مع الأثاث البالي، والابتذال المحيط بكلِّ شيء يذلُّني والحُلمَ على حدٍّ سواء. لم يسبق حتَّى أن امتلكتُ قلعةً في إسبانيا، مثل أولئك الإسبانيِّين الذين كُنَّا نخشاهم دائماً نحن البرتغاليِّين. كانت قلاعي مُشيَّدة من مجموعة غير مكتملة من أوراق الشَّدَّة المتَّسخة؛ لم تسقط من تلقاء أنفسها، وإنَّما كان لا بُدَّ أن تدكَّها حركةُ اليد الكاسحة، الحركة التي عِيلَ صبرها للخادمة العجوز التي ترغب في استعادة مفرش الطَّاولة وتجهيز المائدة، لأنَّ وقت شرب الشَّاي قد أَزِفَ مثل لعنة قدَريَّة. حتَّى تلك الرؤيَّة ضئيلة القيمة، فأنا لا أمتلك بيتاً في الأقاليم أو عمَّات عجائز أجلس إلى موائدهنَّ في نهاية لَمِّ شملٍ عائليٍّ أحتسي كوب شاي لمذاقه طعمُ الرَّاحة والسَّكينة بالنِّسبة إليَّ. ولقد أخفقَتْ أحلامي حتَّى في استعاراتها وتصوُّراتها. ولم تمتدَّ إمبراطوريَّتي حتَّى أبعدَ من مجموعة أوراق لعبٍ قديمة. ولم يَغنم نصري حتَّى إبريقَ

شاي أو قطّة قديمة. سأموتُ مثلما عشتُ بين خردوات غرفتي، المباعة بالوزن بأسعار بخسة، بين ملاحق الأشياء المفقودة.

فهل لي على الأقلّ أن آخذ معي، في الاحتمالات الهائلة التي تُوجَد في هاوية كلِّ شيء، مجدَ خذلاني كما لو كان مجدَ حُلم عظيم، وبهاءَ كُفري رايةَ هزيمة - رايةً رَفَعَتْها عالياً الأيدي النَّحيلة، ولكنَّها كانت قد تمرَّغتْ، مجرورةً، في وحل الضُّعفاء ودمائهم، فرفعت عالياً ونحن نغرق في الرِّمال المتحرَّكة، ولا أحد يعرف إن كُنَّا قد رفعناها احتجاجاً أم عصياناً أم يأساً... ولا أحدَ يعرفُ فلا أحد يعرف شيئاً، والرِّمال تبلع رافعي الرَّايات وأولئك الذين لا يرفعون... والرِّمال تغطِّي كلَّ شيء، حياتي، ونثري، وأبديَّتي.

أحملُ معي معرفتي بهزيمتي كأنَّها رايةُ انتصاري.

194

[1929؟]

كلُّ شيء مكسورٌ هُنَاك، ومجهول، ويتيم. شهدتُّ هُنَاك إيماءات رقَّةٍ سخيَّة بدتْ كأنَّها تكشف لي أعماق الأرواح المسكينة الحزينة؛ فاكتشفتُ أنَّ تلك الإيماءات لم تَدُم إلَّا دوامَ الكلمات التي أفصحتْ عنها، ثُمَّ لاحظتُ -مثلما غالباً ما ألحظُ بحكمةِ الصَّامتين- أنَّها قد تجذَّرتْ في شيء يُشبه الشَّفقة، ولكنَّ ذلك الشَّيء سرعان ما تلاشى كالدَّهشة التي اعترتني حين لاحظتُ وجوده أوَّل مرَّة، أو تلاشى مع النَّبيذ المُحتسَى في أثناء عشاء ذلك الشَّخص العَرَضيِّ رقيق الفؤاد. كانت ثمَّة آصرة واضحة على الدَّوام بين ذلك الدَّافع الإنسانويِّ ومقدار البراندي المُحتسَى، ولقد عانت إيماءات عظيمة كثيرة من تلك الكأس الواحدة كثيراً جداً أو من فَيْض العَطَش.

ولقد باعت جميع تلك المخلوقات أرواحها إلى شيطان من عامَّة أهل الجحيم، شيطان لا يشبع من الأشياء الدَّنيئة والفاحشة. عاشوا على نَقيع مُسكرٍ من خُيلاء وكسَل، وماتوا مُسترخين بين وسائد الكلمات وبلبلة عقارب تبصق سُماً.

وكان أغرب شيء يحيط بهؤلاء النَّاس خواؤهم المُطلَق. كتب بعضهم في صحف مُهمَّة ولكنَّهم عجزوا عن الوجود؛ وشغل بعضهم الآخر مناصب عموميَّة مذكورة في السجلَّات

المهنيَّة ولكنَّهم عجزوا عن فعل أيِّ شيء في الحياة، وكان بعضهم شعراء طارَ صيتُهم، ولكنَّ الثَّرى المُترمِّد ذاتَهُ قد لطَّخ وجوههم المُضحكة بالرَّماديِّ كأنَّهم في ضريحِ جثامينَ مُحنَّطة، وأيديهم، كما في الحياة، وراء ظهورهم.

أتذكَّرُ من الوقت القصير الذي اِتَّاقلتُ فيه إلى ذلك المنفى الفكريِّ بعضَ اللَّحظات المضحكة والممتعة حقاً، والعديدَ من اللَّحظات الحزينة والمُضجرة، وبعض الصُّور الجانبيَّة التي انعكستْ ظلالُها على الخواء، وبعضَ الإيماءات التي أشرنا بها إلى أيِّها نادل صَدَفَ أنَّه كان يخدمنا في تلك اللَّحظة؛ قصارى القول، يجتاح جسدي سأمٌ مُغثٍ وذكرى بعض الحكايات المليحة.

وكان بعضُ كُهولٍ يتناثرونَ مثل مساحات خالية بين الآخرين، حيث كان بعضهم يلقون نُكَتاً مبتذلةً، ولكنَّهم كانوا على قَدْرِ سُوْءِ الآخرين حين ذكروا الآخرين بِسُوءٍ؛ أجل، لقد ذكروا بسوء الأشخاصَ ذاتهم الذين دائماً ما يذكرونهم بسوء.

لم أشعر قَطُّ بالتَّعاطُف تجاه أولئك الأشخاص الذين ينتمون إلى الطَّبقات الدُّنيا، وقد ذاع صيتُهم، بالقَدْر الذي شعرتُ به حين حطَّ من قَدْرهم أولئك النَّكرات، على الرَّغم من أنَّهم لم يسعَوا بتاتاً إلى ذلك الصِّيت المثير للشَّفقة. أدركتُ أنَّ سببَ انتصارِ منبوذي العظَمة كامنٌ في أنَّهم قد انتصروا على أولئك النَّكرات لا على البشريَّة جمعاء.

يا للأشقياء المساكين، الجائعين دائماً؛ إمَّا إلى طعام الغداء وإمَّا إلى الشُّهرة وإمَّا إلى ملذَّات الحياة، فأيُّ غريب يسمع حديثهم يظنُّ أنَّه يستمع إلى أساتذة نابليون أو مُعلِّمي شكسبير.

ثمَّة أولئك الذين ينتصرون في الحُبِّ، وأولئك الذين ينتصرون في السِّياسة، وأولئك الذي ينتصرون في الفنِّ. يحظى الأوَّلون بميزة القُدرة على نسج رواياتهم الخاصَّة للانتصارات الغراميَّة التي حقَّقوها من دون أن يعرف أحدٌ ما الذي قد حدث فعلاً. ولكنَّنا، حين نسمع أحد هؤلاء الأفراد يقصُّ سيرة فتوحاته الجنسيَّة الطَّويلة، فإنَّ ريبةً تخامر المرءَ حين يصل إلى وصف فضِّ بكارة المرأة السَّابعة. أمَّا عشَّاق السَّيدات النَّبيلات صاحبات الألقاب، أو المشهورات (وتبدو هذه حالة معظم هؤلاء العشَّاق) فيحظَوْنَ بسيِّداتٍ من الأشراف كثيراتٍ، إلى درجة أنَّ قائمة فتوحاتهم سوف تزعزعُ وقارَ جدَّاتِ أُمَّهات أولئك النِّسوة النَّبيلات صاحبات الألقاب، وتهزُّ رباطة جأشهنَّ.

أمَّا المتخصِّصون بالنِّزالات الجسديَّة، فيزعمون أنَّهم ذبحوا جميع أبطال أوروبا في الملاكمة ذات ليلة سُكْرٍ في زاوية شِيَاذُوْ[179]. وأمَّا الذين يزعمون أنَّ لهم تأثيراً على جميع الوزراء في جميع الوزارات، فإنَّ مزاعمهم أكثر وجاهة بعضَ الشَّيء، لأنَّهم أقلُّ تنفيراً، ليس إلَّا.

وبعضهم ساديُّون عظماء، وبعضهم الآخر لوطيُّون عظماء، وآخرون يعترفون، بصوت عال، ونبرات حزينة، بأنَّهم يضربون النِّساء اللَّواتي جلدوهنَّ بالسِّياط على طول دروب الحياة، ودائماً ما يدعون شخصاً آخر يدفع ثمن مشروباتهم.

ثُمَّ هُنَالك الشَّعراء، الـ [...]

لا أعرف علاجاً لسيل قاذورات الظِّلال العَرِم هذا أفضلَ من أن أكون على اتِّصال مباشر بالحياة البشريَّة العاديَّة بكلِّ واقعيَّتها التجاريَّة؛ كالحياة بالمكتب في «خُوَا دُش دُوْرَادُوْرِش»، على سبيل المثال. فيا للرَّاحة التي شعرتُ بها حين تركت مستشفى المجانين الدُّمى ذاك من أجل الحضور الأصيل لُموريرا، مُحاسبي الأسمى، والعارف الأصيل الذي يُعَدُّ، رغم ثيابه البالية الملبوسة على نحو رديء، شيئاً لا يمكن أن يكون عليه الآخرون البتَّة، ما نُسمِّيه رجلاً...

195

[1929؟]

يجلسون أمام المرآة كلَّما استطاعوا، ثُمَّ يرمقونَ أنفسَهم، في أثناء حديثهم إلينا، بعينَيْن شغوفتَيْن. ولكنَّ تلك التَّولُّهات تجعلهم شاردي الذِّهن أحياناً. شعرت بالشَّفقة دائماً عليهم، فلقد علَّمني نفوري من مظهري الرَّاشد أنْ أجلس دائماً وظهري إلى المرايا. ولقد أدركوا ذلك بالفطرة فكانوا لطيفين معي؛ كنتُ المُنصتَ الجيِّد الذي تركهم أحراراً في إطلاق العنان لغرورهم وولعهم بالخطابة.

---

(179) Chiado (وتعني حرفيّاً: أزيز/صرير؛ وهو اللَّقب الذي كان يُطلَق على الشَّاعر البرتغالي أنطونيو خيرو Ribeiro الذي عاش في القرن السادس عشر): حي في وسط لشبونة مشهور بمقاهيه ومطاعمه وحاناته التي كان يرتادها الكتاب والمثقفون في زمن بِسُوًا. (المترجم)

لم يكونوا فِتيةً سيِّئين، بعضهم جيد، وآخر رديء. حتَّى إنَّهم أدهشوني أحياناً -أنا الذي يراقب البشر العاديِّين من كثب- بإظهار كرم ورقَّة لا ريب فيهما، ولكنَّهم يغدون خسيسين ومُنحطِّين أيضاً بطرائق لن يلحظها النَّاس العاديُّون إطلاقاً. خلاصة القول إنَّهم لئيمون وحسودون ومُوَسوَسون، ويمكن أن تنطبق الكلمات ذاتها على أيِّ جزء من هذا المحيط الذي تسرَّب إلى أعمال البشر المُوقَّرين الذين غرقوا في تيَّار الأمواج السُّفليَّة لبحر خداع الذَّات ذاك. (إنَّه موجود في أعمال فيَالْيُو[xiii]: الحسد السَّافر، والابتذال المُطلَق، وافتقار الأناقة الصَّارخ...)

بعضهم خفيف الظلِّ، وبعضهم خفيف الظلِّ فحسب، وبعضهم لم يُوجَد بَعْدُ. وخفَّةُ الظلِّ السَّائدة في المقاهي تُقسِّم نَفْسَها إلى تعليقات ظريفة بشأن أولئك الذين ليسوا هُنَاك، وتعليقات وقحة بشأن الذين هُنَاك. وهذا النَّوع من الدُّعابة صفاقة محضة فحسب. ولا يوجد مؤشِّر على فقر الرُّوح أوضح من عجز شخص عن أن يكون خفيف الظلِّ إلَّا على حساب الآخرين.

ولقد جئتُ ورأيت، ثُمَّ بخلافهم انتصرت، لأنَّ نصري متوقِّفٌ على الرُّؤية. رأيتُ تلك الكائنات الدُّنيا غير مختلفة عن أيِّ مجموعة كائنات دُنيا: وجدتُ هُنَا في المنزل الذي استأجرتُ فيه غرفة، الرُّوحَ الخسيسة ذاتها التي وجدتها في المقاهي، ما عدا -حمداً للآلهة جميعاً- تلك الفكرة الدَّاعية إلى دخول باريس عنوةً. وقد تحلم مالكة المنزل، في أشدِّ لحظاتها طموحاً، في الانتقال إلى منطقة راقية من البلدة، ولكنْ لا مطامح لديها في غزو باريس، وهذا يمسُّ شغاف قلبي.

ولا أحتفظ، من الوقت الذي قضيته في هذا الجزء القريب من مقبرة الإرادة، إلَّا على ذلك الإحساس بالسَّأم المُطلَق وبضع حكايات مُسليَّة فحسب.

إنَّهم في طريقهم إلى المقبرة، ويبدو أنَّهم قد تركوا الماضي وراءهم في المقهى، فقد توقَّفوا عن ذِكره البتَّة في الوقت الحاضر.

... ولن تعرف الأجيالُ القادمة أيَّ شيء عنهم، مطمورين إلى الأبد تحت الكومة المتعفِّنة للرَّايات المُغتنمَة في انتصارات لم تحدث قط.

196

[1929؟]

أكثر الأشياء المتعلِّقة بالأحلام جدارةً بالازدراء هو أنّها متاحة للجميع. تأخذ صبيَّ المهمَّات سِنَةٌ من النَّوم في العتمة، طيلةَ اليوم، مُستنداً إلى عامود الإنارة في الفواصل بين المهمَّات الرَّتيبة، غارقاً في أفكاره حول شيء أو آخر. أعرفُ أحلام يقظته: الأحلام ذاتها التي استغرقت فيها بين القيود المحاسبيَّة في سأم الصَّيف الذي يعمُّ المكتب الصَّامتَ صمتَ القبور.

197

[1929؟]

يا للأشياء العبثيَّة، المرعبة، العاجزة عن الكلام، التي تستطيع الرُّوح إيجادها في الزَّوايا الخبيئة بقليل من الجهد، بعيداً عن تلك الأحلام المُبتذَلة التي تتدفَّق مُجلَّلةً بالعار إلى مجاري الرُّوح، ولا يجرؤ أحدٌ على الاعتراف بها؛ الأحلامِ التي تطاردنا في ليالي السُّهاد كأشباح قذرة؛ النُّفايات القذرة، اللَّزجة، لحساسيتنا المكبوتة!

الرُّوح الإنسانيَّة مستشفى مجانين شخوص هَزْليَّة. لَوِ استطاعت الرُّوح أن تكشف نَفْسَها تماماً، لو كانت حاجتُها إلى الاحتجابِ لم تذهبْ أعمقَ من كلِّ أفعالها المعروفة والمُسمَّاة الجالبة للعار، لكانتْ بلا ريبٍ، كما يقول النَّاس عن الحقيقة، بئراً سحيقةً، بئراً منحوسة طافحةً بأصداءٍ غامضة تسكنها حيواتٌ سافلة وحَمْأَةٌ هاجعة وبُزَّاقاتٌ عديمة الحياة ومخاطُ النَّزعة الذاتيَّة.

198

[1929؟]

نعرفُ أنَّ الكتاب الذي لن نكتبه أبداً سيكون رديئاً، ولكنَّ الأردأَ التَّوقُّف عن الكتابة. فالكُتب التي كُتِبَتْ موجودة على الأقلّ. قد لا تكون جيِّدةً بما يكفي، ولكنَّها موجودة، كالنَّبتة الصَّغيرة البائسة في الأصيص الوحيد العائد إلى جارتي الكسيحة. تلك النَّبتةُ كبرياؤُها

وقرَّةُ عينها، وتغدو نبتَتِي في بعض الأحيان أيضاً. فقد يُتيح ما أكتُبُه، عارفاً بأنَّه رديء، بضعَ لحظاتٍ تصرفُ الذِّهن عن الانشغال بالأشياء الرَّديئة إلى التَّفكير في رُوحٍ أخرى حزينة أو مجروحة. وهذا يكفي، أو، بالأحرى، ليس يكفي، ولكنَّه يساعد، رغمَ ذلك، بطريقة أو أخرى، وهكذا هي الحال مع الحياة.

سأمٌ ليسَ فيهِ إلَّا احتمالُ مزيدٍ من السَّأم؛ الحزنُ المُنتظَرُ لشعوريَ بالحزنِ لأنَّني قد شعرتُ بالحزنِ اليوم - تواشجاتٌ عظيمة من مشاعر تفتقرُ إلى الجدوى أو الحقيقة، تواشجاتٌ عظيمة...

... حيثُ، وقد جلستُ مُحدودباً على مقعدٍ في محطَّةٍ للقطارات، يغفو عاري تحتَ جُبَّةِ كَسَلِي...

... عالمُ الصُّور المحلوم بها الذي يُشكِّلُ، بأجزاءَ متساويةٍ، معرفتي وحياتي...

وعيٌ باللَّحظة الرَّاهنة ليسَ شيئاً يزعجني حقاً. أتوقُ إلى الزَّمن بكلِّ ديمومته الطَّويلة، وإلى أنْ أكون نَفْسي بلا قَيْدٍ أو شرط.

199

[1929؟]

... في التَّشَعُّثِ الحزين لعواطفي الحيرانة...

حزنٌ شفقيٌّ من تعبٍ وتخلِّياتٍ باطلة، بعضُ ضجرٍ لا يشعرُ بأيِّ شيءٍ البتَّة، ألمٌ كنشيجٍ مكبوت أو حقيقةٍ أُدركَتْ فجأةً. وينتشرُ أمامي في روحي السَّاهية منظرُ التَّخليَّاتِ الطَّبيعيُّ هذا - جادَّاتُ إيماءاتٍ مهجورة، وحدودٌ طويلة من أحلام لَمْ تُحلَم على أكمل وجه، وتناقضاتٌ مثل وشائع الشَّمشير التي تفصل بين ممرَّات مُقفرةٍ، وظُنونٌ مثل بِرَكٍ قديمة لم تُجدِّد مياهَها الينابيعُ، وكلُّ شيء يبدو متواشجاً ومثيراً للشَّفقة في التَّشَعُّثِ الحزين لعواطفي الحيرانة.

200

[1929؟]

أَجِدُ سعادةَ هؤلاء البشر، الغافلين عن تعاستهم، مُثيرةً للسُّخط. فحياتهم الآدميَّة طافحة بكلِّ ما يُمكن أن يُشكِّل متواليةً من القلَق بالنِّسبة إلى أيِّ روح حسَّاسة حقاً. ولكنْ، ولأنَّ حياتهم الحَقَّة خاملةٌ تماماً، فإنَّ كلَّ ألم يشعرون به يزولُ دونَ حتَّى أن يلمس روحهم، فيعيشون حياةً لا يُمكن أن تُقارَن إلَّا بحياةِ شخص ثريٍّ لا يعاني إلَّا من وجع في الأسنان، بين حين وآخر، ولكنَّه يتناول الكثير من أقراص الأسپرين - الحظُّ السَّعيد الحقّ للبقاء على قيد الحياة دون إدراك ذلك؛ الحظُّ الذي هُوَ النِّعمة العظمى التي يمكن أن تجود بها الآلهة، فهي النِّعمة التي تجعل المرءَ شبيهاً بهؤلاء البشر، وتجعله يسمو، مثلهم (وإنْ بطريقة مختلفة) فوق تلك الحوادث التي تُسمَّى الفرح والألم.

ولهذا أُحبُّهم جميعاً، على الرَّغم من كلِّ شيء. آهِ يا خُضَرِي المحبوبة!

201

[1929؟]

جعلتني العُزلة على صورتها. فحضور شخص آخر -ولا تقتضي الحال أكثر من ذلك البتَّة- يُبطئُ وتيرةَ تفكيري فوراً، ومثلما يكون اتِّصالُ الشَّخص العاديِّ بالآخرين بمثابة مُحفِّز للتَّعبير والكلام، فإنَّ ذلك الاتِّصال يكون بالنِّسبة إليَّ بمثابة مُحفِّز مُضادٍّ، إنْ وُجِدَتْ عبارةٌ من هذا النَّوع. فحين أكون وحيداً يتفتَّقُ ذهني عن مُلَحٍ وأقوال بارعةٍ لا نهائيَّة، وأجوبةٍ سريعة لاذعةٍ ضدَّ ملحوظات لم يُدلِ بها أحدٌ، وومضاتِ كياسةٍ اجتماعيَّة لا أتبادلها مع أحد؛ ولكنَّ كلَّ ذلك يتلاشى حين أُقابل كائناً آدمياً آخر. أفقد بصيرتي كلَّها، وأفقد قوَّة الكلام، ثُمَّ أشعر بعد برهةٍ بأنَّ كلَّ ما أفعله هو النَّوم. نعم، يجعلني الحديث إلى الآخرين أشعر برغبة في النَّوم. ولا تُوجَد حقيقة واقعيَّةٌ وجوهر إلَّا لأصدقائي الطَّيفيِّين والمُتخيَّلين، والمحادثات التي أجريها في الأحلام حيث تكون الرُّوح حاضرة كصورة في مرآة.

فَفِكرة أن أكون مُجبراً على التَّواصل مع أحدٍ تجعلني، في حدِّ ذاتها، أشعر بالاضْطِهاد. ودعوة بسيطة إلى العشاء يوجِّهها صديقٌ تُثير فِيَّ كآبةً يصعب وصفها بالكلمات. ففكرة

الواجب الاجتماعيّ -حضور جنازة، أو مناقشة مسألة مع شخص في المكتب، أو الذَّهاب لملاقاة أحدهم في المحطَّة (سواء أكان معروفاً لديَّ أم مجهولاً)- فكرةٌ تُعيق أفكار ذلك اليوم بأكمله، فأقلق بشأن ذلك أحياناً منذ اللَّيلة السَّابقة، فيسوءُ نومي. ولكنَّ الحقيقةَ حين تأتي تكون تافهةً تماماً، لا تُبرِّر تلك الضجَّة الكبيرة، فلا أَعبأُ بها البتَّة، ولكنَّها، رغم ذلك، تحدث مرَّاتٍ ومرَّات، ولا أتعلَّمُ أبداً.

ولا أعرف إنْ كان روسُّو أمْ سِينانكور[181] هُوَ الذي قال: «عاداتي عاداتُ العُزلة وليست عادات البشر»، ولكنَّ القائل روحٌ تنتمي إلى النَّوع ذاته الذي أنتمي إليه، على الرَّغم من أنَّني ربَّما لا أستطيع القول إنَّها تنتمي إلى العِرق ذاته.

202

[1929؟]

... وهَأَنَذَا عالقٌ بين الحياة التي أُحبُّها بازدراءٍ والموتِ الذي أجدهُ مرعباً وفاتناً على حدٍّ سواء. خائفٌ من العَدَم الذي قد يغدو شيئاً آخر، خائفٌ منه بوصفه عدَماً وبوصفه شيئاً آخر في الوقت ذاته، كما لو أنَّه يُمكن أن يجمع بين اللَّاوجود والمجهول المُرعِب في آنٍ معاً، كما لو أنَّهم قد يُوقِفون، في التَّابوت، الأنفاسَ الأبديَّةَ للرُّوح الجُثمانيَّة؛ كما لو أنَّهم سوف يصفقون الغطاءَ على غير الشَّخصيِّ. تبدو لي فكرة الجحيم، التي لا تقدر على اختراعها إلَّا روحٌ شيطانيَّة، مُشتقَّةً من ذلك الارتباك، ذلك الخلط بين خوفَيْن مُدنَّسَيْن متناقضَيْن.

203

[1929؟]

ثمَّة أيَّامٌ يكتسبُ فيها كلُّ شخص ألتقيه، ولاسيَّما النَّاس الذين يتوجَّب عليَّ مخالطتهم يومياً، دلالةَ رموزٍ، سواء أكانت معزولة أم مترابطة، تحتشد لتكوِّن كتابات باطنيَّة أو نبوئيَّة، وأوصافاً غامضة لحياتي. يغدو المكتب صفحةً يكون النَّاسُ فيها كلماتٍ، ويغدو الشَّارعُ كتاباً؛ أمَّا الكلماتُ المتبادلة مع المعارف واللِّقاءات التي نجريها مع الغرباء، فَمقولاتٌ لا

---

(181) إتيان سينانكور Senancour (1770–1846)، فيلسوف وروائي فرنسي. (المترجم)

تظهر في أيِّ قاموسٍ ولكنَّ فَهمي يستطيع أن يحلَّ رموزها أو يكادُ. إنَّهم يتكلَّمون، وإنَّهم يتواصلون، ولكنَّهم لا يتكلَّمون عن أنفسهم، ولا يتواصلون حتَّى معها؛ ومثلما قلتُ، إنَّهم كلمات لا تكشفُ شيئاً مباشرةً، ولكنَّها تسمح للمعنى أنْ يُكشَفَ من خلالها. ولكنَّني لا أستطيع، برؤيتي الغَسقيَّة، سوى أن أتبيَّن على نحو غامض أياً كان الذي تُظهِره فجأةً ألواحُ زجاج النَّوافذ على سطح الأشياء التي تختار أن تُظهرها من الدَّواخل التي تحرسها وتكشفها على حدٍّ سواء. أفهمُ، بلا معرفةٍ، كرجل أعمى يُكلِّمه النَّاسُ عن الألوان.

وأسمعُ، أحياناً، وأنا أمشي في الشَّارع، نُتَفاً من أحاديث شخصيَّة تكون في الغالب عن امرأة أخرى، ورجل آخر، وابن شخص ثالث أو عشيقة شخص آخر [...]

وبمجرَّد سماع تلك النُّتَف الغامضة من الخطاب البشريِّ التي ليستْ، بعد كلِّ شيءٍ، إلَّا ما تخوض فيه معظم الحيوات الواعية، أحملُ معي سأماً تمخَّضَ عن قَرَفٍ، رُعبَ نَفْيِي بين الأوهام[182] والإدراكِ الفجائيِّ لمدى العَطَب الذي أصابني به الآخرون؛ فلقد حكم عليَّ المالكُ والسَّاكنون الآخرون بأنْ أظلَّ مُجرَّد ساكن آخر بين كثيرين، أسترقُ النَّظرَ، وقد مُلِئتُ قَرَفاً، عبر قضبان النَّافذة خلفَ المستودع، إلى قمامة الآخرين التي تتراكم في المطر بالفناء الجوَّانيِّ الذي هُوَ حياتي.

204 [183]

[1929؟]

خلقني الله لأكون طفلاً وتركني لأكون طفلاً إلى الأبد. ولكنْ لماذا ترك الحياةَ تضربني،

---

(182) الكلمة في الأصل البرتغاليِّ هي «aranhas»، والتي تعني «العناكب»، وقد آثرت جول كوستا، هُنَا، أن تترجمها بـ «الأوهام illusions»، ذاهبةً أبعد ممَّا يحمله المعنى الظَّاهريُّ للكلمة؛ إذ كيف سيكون المرء منفياً بين العناكب! في حين اختار زينيث، في طبعته الإنگليزيَّة، على سبيل المثال، أن يترجمها ترجمةً حرفيَّة. ونرى أيضاً أنَّ أنخل كريسپو قد نزع، في طبعته الإسپانيَّة، على سبيل مثال آخر، إلى أن يترجمها حرفياً كذلك، فأوردها بلفظة «arañas» التي تعني العناكب. (المترجم)

(183) لم تُشر جول كوستا، هُنَا، إلى وجود عبارة «chuva» (= مطر/ انهمار المطر) التي أوردها پِسُوَّا بين قوسَيْن كبيرين، مرقونةً على الآلة الكاتبة، في رأس الصَّفحة الأولى من هذا النَّصِّ الطَّويل، تسبقها عبارة (L; do D.) التي تعني أنَّ المقطع جزء من **كتاب القلَق**. وقد اختلفت الطبعات البرتغاليَّة الرَّئيسة في التَّعامل مع هذه العبارة عنواناً لهذا المقطع؛ ففي حين اكتفَتْ طبعة برادو كويلو (المقطع 365، ص303) وطبعة پيسارُّو (المقطع 210، ص 206) بإدراجها وفقَ ما أوردها پِسُوَّا نفسه، دون زيادة شارحة، لجأت تيريزا سوبراو في طبعتها (المقطع 365، ص 303) إلى عنونة المقطع

وتأخذ ألعابي، فتتركني وحيداً في وقت اللَّعب، ومَريُولي الأزرق المُعروق بالدُّموع يتجعَّد في يديَّ النَّحيلتَيْن؟ ولأنَّني لا أستطيعُ العيش بلا عاطفة، فلماذا أُخذَتْ تلك العاطفةُ منِّي؟ فكلَّما رأيتُ طفلاً في الشَّارع يبكي، طفلاً نفاهُ الآخرون، يجتاحني ألمٌ أعظمُ من حزن الطِّفل الذي رأيتُه في الرُّعب الذي لا ريب فيهِ؛ رعبِ قلبي الذي أضناهُ التَّعَب. أتألَّمُ في كُلِّ سَمٍّ من مَسامِّ حياتي المَعيشَة، واليدانِ اللَّتان تُجعِّدان حاشيةَ المَريُول، والفمُ الذي لَوَّتْ قَسَماتُه دموعٌ حَقَّةٌ، والضَّعفُ والعُزلة، كُلُّها لي، وضحكُ الرَّاشدين العابرين مثل لهيب عود ثقابٍ قُدِحَ على رقَّةِ قلبي المُرهَفة.

205

[1929؟]

وأخيراً -أراهُ بعين عقلي[184]- فوقَ عتمة الأسطح السَّاطعة، الضَّوءُ الباردُ للصَّباح الدَّافئ ينبلجُ كعذابٍ صاعد من سِفْر الرُّؤيا. اللَّيلُ الهائلُ للبريقِ الذي يشتدُّ، مرَّةً أُخرى. والرُّعبُ ذاتُهُ، مرَّةً أخرى - يومٌ آخر، الحياةُ وجدواها الباطلة والحيويَّةُ العبثيَّة؛ شخصيَّتي الجسديَّة، مرئيَّة، واجتماعيَّة، وقابلة للتَّواصل عبر كلمات لا تعني شيئاً، تستخدمها أفكارُ الآخرين وإيماءاتُهم. وأنا أنا مرَّةً أخرى، تماماً مثلما أنَّني لستُ أنا. وحين يأتي الضَّوء المعتم الذي يملأُ شقوقَ المصاريع (البعيدةِ، كلَّ البُعْد، عن أن تكون كتيمةً، مُحكمةَ السَّدِّ!) بِرِيَبٍ رماديَّة، ينتابني شعور أنَّني لن أكون قادراً على أن أظلَّ طويلاً في مأواي، مستلقياً على سريري غير نائم، ولكنْ يعتريني إحساسٌ لا ينقطع باحتماليَّة النَّوم والانجراف في الأحلام. لا أعرفُ إنْ كانت الحقيقة هي الموجودة أم الواقع، مُمدَّداً بين الدِّفء العذب للملاءات النَّظيفة، غير مُدركٍ، بعيداً عن الإحساس بالرَّاحة، وجودَ جسدي نفسه.

على هذه الشَّاكلة: PAISAGEM DE CHUVA (= منظر طبيعيٌّ ماطر)؛ وعلى منوالها سار زينيث في طبعته، ولكن بوضع كلمة «منظر طبيعي» بين معقوفتين، وعلى هذا النَّحو «PAISAGEM DE [CHUVA]» (المقطع 436، ص 398). (المترجم)

(184) تستخدم جول كوستا، هُنَا، عبارة «عين العقل mind's eye» مقابلاً لكلمة الذَّاكرة memoria التي يستخدمها بِسُوَّا في الأصل. و«عين العقل»، وفق التَّعريف الفلسفيِّ الشَّائع، إشارة إلى «قدرة الفرد على التَّصوُّر/التَّخيُّل: قدرته على رؤية الأشياء بواسطة العقل»، ولذا فهي لا تبتعد عن المعنى العميق الذي أراده بِسُوَّا، حين يقول في الأصل، حرفياً: «أراه بالذَّاكرة/أراهُ لأنَّني أتذكَّر vejo-o por memoria». (المترجم)

أشعرُ بانحسار الافتقارِ البَّهيج للوعي الذي يستمتع به وعيي، الطريقةِ الحيوانيّة الكسولة التي أنظرُ بها من بين عينَيْن نصف مغمضتَيْن، مثل قطٍّ في الشَّمس، إلى الحركات المنطقيَّة لمخيِّلتي المُطلقَة السَّراح. أشعر بالانزلاق بعيداً عن امتيازات هالة الظلِّ، الأنهار البطيئة التي تجري أسفل أشجار رموشي المَلمُوحة شَزْراً، وهمس الشَّلّالات المفقودة بين صوت الدَّم المتواني الذي يدقُّ في أُذُنيَّ والمطر الخافت الذي لا يكفُّ. أفقدُ نَفْسي في الحياة على مَهلي. لا أعرفُ إنْ كنتُ نائماً أمْ أنَّني أشعرُ بأنَّني قد كنتُ. لا أحلم بهذا البرزخ الزمنيِّ بعينه، ولكنَّني أُلاحظ، كما لو كنتُ قد شرعت في الاستيقاظ من حُلم يقظةٍ، أوَّلَ حركات الحياة في المدينة، تصعدُ كَمَدَّ كلماتٍ من تلك البئر الغامضة في الأسفل، من الشَّوارع التي خلقها الله. كانت أصوات بهيجة، صفَّاها المطر الحزين المنهمر، أو الذي كان ينهمر، فأنا لا أسمعه في هذه الأثناء... أعرفُ ذلك من فيض الرَّمادي في الضوء المُتشظِّي في المسافة البعيدة، في الظِّلال التي طرحها بريقٌ مُتردِّد، وهُو معتمٌ على غير عادته في هذا الوقت من الصَّباح، مهما كان الوقتُ. الصَّوت الذي أسمعه بهيجٌ منثورٌ. إنَّها تجعلُ قلبي يتوجَّعُ كأنَّها قد تعالَتْ كي تناديني لأذهب معها إلى استجوابٍ أو إعدامٍ. ويبدو كلُّ يوم أسمع فيه الفجرَ، من السَّرير الذي أستلقي فيه فارغاً من المعرفة، يومَ حدثٍ عظيم في حياتي سوف أفتقر شجاعةَ مواجهته. كلُّ يوم أشعرُ بأنَّه يصعد من سريره الظِّلال، ناثراً الملاءات عبر الشَّوارع والأزقَّة في الأسفل كي يستدعيني إلى محاكمةٍ. سيُحكَم عليَّ في كلِّ يوم ينبلج. والرَّجل المُدَانُ الأبديُّ الذي فِـيَّ يتشبَّثُ بالسَّرير كأنَّه يتعلَّق بأطراف أُمِّه المفقودة، ويخبط الوسادة كأنَّ مُربِّيتي ستحميه من الأولاد الآخرين.

قيلولةُ الوحش العظيم المُطمئنَّةُ في ظلِّ الأشجار، تعْبُ قُنفذ الشَّارع وسط برودة الأعشاب الطَّويلة، ونعاسُ الزِّنجيِّ الثَّقيلُ في ظهيرة حارَّةٍ بعيدة، ولذَّةُ التَّثاؤب الذي يُغمِضُ العيون المُجهَدة، والرَّاحة الهادئة لرؤوسنا المرتاحة: كلُّ شيء يهزُّنا مِن النِّسيان إلى النَّوم يُغلِقُ نوافذَ الرُّوح، على مهله، في مُداعَبة النَّوم المجهولة.

فأنْ ينام المرء، يعني أنْ يكون بعيداً دون أن يُدرك ذلك، أنْ يُمدِّدَ نَفْسه، أنْ ينسى جسدَه، وأنْ يلتذَّ بحُريَّة اللَّاشعور، وذاك المأوى قرب بحيرة منسيَّة راكدةٍ بين الأشجار المُورقة لغابات شاسعة نائية.

عَدَمٌ يبدو بأنَّه يتنفَّس، وموتٌ خفيفٌ يستيقظُ منه المرء شاعراً بالانتعاش وبأنَّه قد عاد إلى الحياة من جديد، حصادُ جوهر الرُّوح التي مَرَّخَها النِّسيان.

ولكن، كصيحات احتجاجٍ أطلقَها ثانيةً مُنصِتٌ لم يقتنع بَعْدُ، أسمعُ مرَّةً أخرى جلبةَ المطرِ الفجائيَّة وهو يغمر الكونَ الذي يُشرِقُ على مهله. أشعر بالبرد ينخر عظامي المُتخيَّلَة، كما لو أنَّني كنتُ قد خِفْتُ. أُقعي مُستوحشاً وإنسانياً، وحيداً تماماً في العتمة القليلة التي بَقِيَتْ لي، أبكي، نعم، أبكي عزلتي وحياتي وألمي المُسجَّى مهجوراً على قارعة طريق الحقيقة الواقعة رفقةَ الرَّوث، عقيماً كعربة بلا دواليب. أبكي كلَّ شيءٍ، فقدانَ الحضنِ الذي تعوَّدتُ الجلوس فيه، وموتَ اليد التي كانت تَمُدُّ إليَّ، والذِّراعَيْن اللَّتَيْن لم تستطيعا حملي، والكتفَ الذي أبكي عليه ولم يكُن هُنَاكَ البتَّة... والنَّهارَ الذي لاحَ أخيراً، والألَمَ الذي ينبلج فِيَّ مثل حقيقة النَّهارِ العارية، وكلَّ شيء حلمتُ به، وفكَّرتُ فيه، ونسيتُه في نَفْسي - وهذا كله، في مزيج من الظِّلال والتخيُّلات والنَّدَم، قد انهارَ في أعقاب عوالم عابرة، ثُمَّ سقط بين أنقاض الحياة، مثل شِمراخٍ[185] عنقود عنبٍ أكله في زاوية الشَّارع الفِتيةُ الذين سرقوه.

صوتُ نهارِ البشر الذي يتعالى، فجأةً، كصوتِ الجرس الذي ينادي النَّاس للصَّلاة. أسمعُ في الدَّاخل كانفجارِ صوتَ شخص يُغلِقُ بهدوءٍ أوَّلَ الأبواب التي سوف تُفتَح اليومَ على الحياة. أسمعُ صوتَ خُفَّيْن يمشيان في رواق عبثيٍّ يُفضي مباشرةً إلى قلبي. ثُمَّ، بحركةٍ مفاجأة، كشخص عقدَ العزم أخيراً على الانتحار، ألقيتُ الملاءات الثَّقيلة التي تحضنُ جسدي القاسي. إنَّني مستيقظٌ. وصوتُ المطر، في مكان في الخارج، يتحرَّكُ مُبتعداً. أشعر أنِّي أسعدُ. فلقد أدَّيتُ واجباً لا أعرفُه، ثُمَّ نهضتُ وقد عقدتُّ العزم بجرأةٍ مفاجئة، وذهبتُ إلى النَّافذة وفتحتُ المصراعَيْنِ على يوم من المطر الصَّافي الذي غمر عينيَّ بضوءٍ خافت. أفتحُ النَّوافذ. الهواء البارد رطبٌ على بشرتي الدَّافئة. نعم، إنَّها تمطر، ولكنْ حتَّى لو ظلَّ كلُّ شيء على حاله، فما نفعُ ذلك في النَّهاية! أريدُ أن أشعر بالانتعاش، أريدُ أن أعيش وأميلَ خارجَ النَّافذة كَمَن يحني رقبتَه إلى الحياة، كَمَن يحمل ثِقْلَ نيْرِ الله المُجرَّدِ.

---

(185) الشِّمْراخ: العنقود عليه العنب. اللَّفظة عند بِسُوَّا هي «esqueleto» (وفي الترجمة الإنكليزيَّة skeleton) التي تعني حرفياً: هيكل عظمي. تُستخدم في علم تشريح النَّبات لفظة rachis لتدلَّ على هذا «الهيكل» وتعني، من ضمن ما تعني: السِّيساء/سلسلة الظَّهر، وساق النَّبتة، وسهم النَّوْرة، ومحور السُّنبلة، إلخ. (المترجم)

[1929؟]

لا أستطيعُ أن أَفْقَهَ إلَّا الكَسَلَ المُعمِّرَ الذي أسمحُ فيه لحياتي التي تسير بلا أحداثٍ، على وتيرة واحدةٍ، أن تستلقي، كطبقة من غبارٍ أو تراب على سطح ثَبَاتٍ لا يتغيَّر، كافتقارٍ إلى النَّظافة الشخصيَّة.

لا بُدَّ أن نُحمِّمَ أقدارَنا كما نُحمِّم أجسادَنا، وأن نُغيِّر حيواتنا كما نُغيِّر ثيابنا - لا لكي نُبقي أنفسَنا على قيد الحياة فنأكل وننام، وإنَّما بدافع الاحترام اللَّامُبالي لأنفسنا؛ الاحترام الذي يمكن أن ندعوه النَّظافة إلى حدٍّ بعيد.

وثمَّة كثير من النَّاس لا يكون الافتقار إلى النَّظافة لديهم فعلاً إرادياً، وإنَّما هزَّةَ كتفَيْن ذهنيَّة. وثمة كثير من النَّاس لا يعدُّون كآبة حيواتهم ورتابتها الخيارَ الذي كانوا سيختارونه لأنفسهم، ولا توافقاً طبيعياً مع الافتقار إلى القدرة على الاختيار، وإنَّما، بالأحرى، تَنَشُّقاً لمعرفةِ الذَّات، سخريةً آليَّةً للفَهْم.

وثمَّة خنازير تُخفِق في انتزاع أنفسها من قذارتها، بصرف النَّظر عن الاشمئزاز الذي تشعر به تجاه هذه القذارة، وتبقى أسيرة تطرُّف الشُّعور الذي يمنع المرعوبين أن ينتزعوا أنفسهم من درب الخطَر. وثمَّة أولئك الذين، مثلي، قد جعلهم القدَرُ خنازيرَ، فلا يحاولون الهروب من التَّفاهة اليوميَّة للحياة، مُتيَّمين بعجزهم. وثمَّة طيور مفتونة بغياب الأفعى؛ وذباب يحوم فوق الأغصان، غافلاً، حتَّى يغدو في المدى اللَّزج للسان الحرباء.

وهكذا أُنزِّه لاشعوريَ الواعي كلَّ يوم على طول غصنيَ المُعيَّن من شجرة الرَّتابة. أُنزِّه قدَري الذي يهرول أمامي دون أن ينتظرني، ووقتي الذي يتقدَّم حتَّى حين لا أتقدَّم. والشَّيء الوحيد الذي ينقذني من الملل هي هذه الملحوظات الموجزة التي أُبديها عنه. وأشعر بالغبطة لمجرَّد وجود ألواح زجاج في هذا الجانب من قضبان زنزانتي، فأخطُّ، بحروف كبيرة، في غبار الضَّرورة توقيعيَ اليوميَّ على العقد الذي أبرمتُه مع الموت.

هل قلتُ العقد الذي أبرمته مع الموت؟ كلَّا، ليس حتَّى مع الموت. فَمَن يَعِش مثلي لا يموتُ: سيصل إلى نهايةٍ، يذبل، يكفُّ عن الحياة، ليس إلَّا [186]. سيواصل الفضاءُ، الذي

(186) هو لم يمُت، ولكنَّه كفَّ عن وجوده السَّابق. حالة تكاد تقترب ممَّا يُعرَف بالوجود السَّلبي الذي لا يبذل فيه أيَّ مجهود جسديٍّ أو عقليٍّ. كأنَّه في حالة سُباتٍ مُطلَق. (المترجم)

كان يشغلُه، الوجودَ دونه، ويظلُّ الشَّارع الذي كان يمشي فيه على الرَّغم من أنَّه لم يَعُد يُرَى هُناك، ويسكنُ غيرُه المنزلَ الذي كان يعيش فيه. ذاك كلُّ شيءٍ وما ندعوه لا شيء؛ ولكن متى وضعناه، فلن تضمن حتَّى مأساةُ الإنكار هذه حصولَها على التَّصفيق، فنحن لا نعرف، على وجه اليقين، أنَّه لا شيء، نحن الذين خُضَر الحقيقةِ بِقَدْر ما نحن خُضَر الحياة، والغبار الذي يغطِّي زجاج النَّوافذ في الدَّاخل والخارج على حدٍّ سواء، وأحفاد **القَدَر**، وأَرِبَّاء **الرَّبِّ** الذي تزوَّج **اللَّيلةَ الأبديَّةَ** بعد أن مات عنها زوجُها **الشَّواشُ**[187]، أبونا الحَقُّ.

أنْ أتركَ «**خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِش**» إلى **المستحيل**... وأنهض من مكتبي وأشرع في رحلةٍ إلى **المجهول**... رحلةٍ يتداخلُ فيها **المنطق** – ما يُسمِّيه الفرنسيُّون **الكتاب الأعظم**.

207

[1929؟]

مأساةُ حياتي الحَقَّةُ، مثل كلِّ المآسي، سخريةُ القَدَر، ليسَ إلَّا. أرفضُ الحياة لأنَّها عقوبةُ سِجن، وأرفضُ الأحلام بوصفها شكلاً من أشكال الهروب المُبتذَل. ولكنَّني أعيش الحياةَ الأشدَّ انحطاطاً وعاديَّةً من كلِّ الحيوات الحَقَّة، وحياةَ الأحلام الأشدَّ حدَّةً واستمراريَّةً من كلِّ حيوات الأحلام. فأنا مثل عبدٍ يسكرُ في وقت راحته – بؤسان يسكنان جسداً واحداً.

بالصَّفاء الذي توفِّره الومضات العقليَّة السَّاطعة التي تلتقطُ من سواد الحياة الكثيف الأشياءَ المباشرة التي تُكوِّنها، أرى بشفافية مُطلَقة كلَّ ما هُوَ أساسيٌّ، ورخوٌ، ومُهمَل، ومُختلَق، في «خُوَا دُش دُوْرَادُوْرِش» هذا الذي يُشكِّل حياتي كلَّها: المكتبُ البائس الذي تتسرَّبُ أوساخه إلى نخاع عظام قاطنيه، والغرفةُ المستأجرة بالشَّهر، التي لا يحدث فيها شيء سوى الموتِ الحيِّ للذي يسكنُ فيها، والبقالةُ في زاوية الشَّارع التي لا أعرف صاحبها إلَّا على النَّحو العاديِّ العابر الذي أعرف فيه الآخرين جميعاً، والصِّبيةُ الواقفون بباب الحانة القديمة، والعبثُ الشَّاقُّ لكلِّ يوم لا يختلفُ عن غيره، والشُّخوص ذاتهم الذين يواصلون

(187) استخدم، هُنا، كلمة **الشَّواش** مقابلاً لكلمة Chaos التي يستخدمها بِسُوَّا بصيغة المذكَّر، وبحرف استهلاليٍّ كبير. (المترجم)

التَّدرُّبَ على أدوارهم، كمسرحيَّة دراميَّة لا تتكوَّن إلَّا من مشهدٍ واحد، وحتَّى هذا المشهد الواحد تدور أحداثه بالطَّريقة الخطأ...

ولكنَّني أرى أيضاً أنَّه يتوجَّبُ عليَّ، إنْ أردتُّ الهروب من هذا كُلِّه، أنْ أتغلَّب عليه أو أُنْكِرَه. ولا أتغلَّبُ عليه لأنَّني لا أستطيع الذَّهابَ أبعد من الواقع، ولا أُنكرهُ لأنَّني، مهما كان الشَّيء الذي قد أحلم به، فسوف أظلُّ حيث أنا بالضَّبط.

وماذا عن أحلامي؟ تلك التَّحليقةِ المخزية في نَفْسي، خشية أن نغلط فنظنَّ الحياةَ طرف نُفايةِ الرُّوح التي لا يزورها الآخرون إلَّا في نومهم، في شَبَهِ الموتِ، ذاك الذي يشخرون من خلاله، في حالة السَّكينة، تلك التي يبدون فيها، أكثر من أيِّ شيء آخر، مثل خُضَرٍ مُطوَّرة إلى حدٍّ بعيد.

عاجزٌ عن الإتيان بإيماءةٍ نبيلة غير ما أُومئ به لِنَفْسي، أو أن تكون لديَّ رغبةٌ عبثيَّة لا تكون عبثاً تماماً!

وضعَ قيصرُ التَّعريف النهائيَّ للطُّموح حين قال: «من الأفضل أن تكون زعيم قريةٍ من أن تكون تابعاً لروما». ولكنَّني لا أَنعَمُ بأيِّ المكانتَيْن، لا في قريةٍ ولا في روما. يستحقُّ البقَّال، في الحيِّ القابع بين «**خُوَا ذَا أَسُّنسَوْ**» و«**خُوَا ذَا فكتوريا**»[188]، بعضَ الاحترام على الأقلِّ؛ إنَّه قيصر الحيِّ كُلِّه. فهل أنا متفوِّق عليه؟ بأيِّ صَدَدٍ، حين لا يَنعَمُ العَدَمُ بأيِّ تفوُّق، أيِّ دُونيَّة، ولا يسمح بأيِّ مُقارنة؟

البقَّالُ قيصرُ حيٍّ بأكمله، وجميع النِّساء يعشقنه، وهذا هُوَ الشَّيء الحَقُّ الوحيد.

ولهذا أجرُّ نَفْسي، قائماً بأعمالٍ لا أريدُ القيام بها، حالماً بما لا أستطيعُ أن أملكه [...]، بلا أيِّ جدوى كساعةٍ عموميَّة توقَّفتْ...

وهذه الحساسيةُ الطَّفيفة الثَّابتة، وهذا الحلم الطَّويل الواعي [. . .]، هما اللَّذان يُشكِّلان، معاً، مكانتي المُتميِّزة هُنا في الظِّلال.

---

(188) Rua da Assumpção و Rua da Victoria: شارعان في لشبونة. أعتقد أنَّ الأوَّل سُمِّي تيمُّناً باسم الأميرة ماريا ذي أَسُّنسَوْ، والثَّاني على اسم الأميرة ماريانا فكتوريا (أو فيتوريا)، وقد ورد لفظ اسم هذين الشَّارعَيْن في طبعة زينيث وطبعة سوبراو كونيا على حدٍّ سواء، باللَّفظَيْن الشَّائعَيْن الآخرين: Rua da Assunção و Rua da Vitoria. (المترجم)

208[189]

[1929؟]

رفرفَ الصَّباحُ نصف البارد ونصف الدَّافئ بجناحيه مُحلِّقاً فوق البيوت القليلة في منحدرات التِّلال عند الحافَّة الخارجيَّة للمدينة. كان ثمَّة سديمٌ خفيف، طافح بضوء مستيقظ، في تلك المنحدرات النَّعسانة، يتلاشى شيئاً فشيئاً، إلى أشلاء ضبابيَّة. (لم يُكن ثمَّة بردٌ، لولا البرد النَّاجم عن ضرورة مواصلة الحياة). وكانت كلُّ تلك -كلُّ تلك البرودة الصَّباحيَّة، الخفيفة، المتوانية- مثل بهجة لم يكُن قادراً على الشُّعور بها بتاتاً.

كان الترام في طريقه البطيء إلى الجادَّات. وحين اقترب من المناطق المأهولة أكثر بالبنايات، تملَّكَهُ إحساسٌ غامض بالخسارة. وكانت الحقيقة البشريَّة اليوميَّة قد بدأت في الظُّهور.

وفي ساعات الصَّباح تلك، حين تكون الظِّلال قد غابَتْ، ولكنَّ ثِقَلَها الخفيفَ لم يغبْ بَعْدُ، تتوقُ إلى الوصول الرُّوحُ التي تسمح لنَفْسها بالانجراف في تيَّار اللَّحظة، تتوق إلى الوصول إلى الميناء القديم المُشمس. وما يُبهِجُ المرءَ حينئذٍ؛ ليسَ أن تظلَّ هذه اللَّحظة باقيةً مثلما هي إلى الأبد، كمثل البهجة التي تغمره حين يُحدِّق في منظر طبيعيٍّ مَهيب أو في أشعَّة القمر تسطع صافيةً فوق النَّهر، وإنَّما أن تكون الحياة شيئاً آخر، حتَّى تكون هذه اللَّحظة مختلفةً، بالنِّسبة إليه، وذات مذاق يسهل التعرُّف عليه.

رقَّ السَّديم الغامض أكثرَ فأكثر، وأشرقت الشَّمس، وتعالت أصوات الحياة.

ومن الأفضل ألَّا نصل أبداً، في تلك السَّاعة، إلى الحقيقة البشريَّة الواقعيَّة المُقدَّرة لحياتنا. أن يظلَّ المرءُ مُعلَّقاً، بلا وزنٍ، بين السَّديم والصَّباح، مُحوِّماً فوق الحياة الواقعيَّة، لا بروحه، وإنَّما بجسده الرُّوحانيِّ، وهذا من شأنه أن يُرضِي توقَه إلى إيجاد ملاذٍ، أكثر من أيِّ شيءٍ آخر،

---

(189) لا توجد إشارة، هُنَا، في طبعة جول كوستا هذه، إلى أنَّ پِسُوَّا كان قد عنون، في الأصل، هذا المقطع بعبارة «.trecho» (= مقطع.). والطبعة البرتغاليَّة الوحيدة التي أوردت هذا النَّص بعنوانه، هذا، هي طبعة پيسارُّو (المقطع 213)، في حين نلحظ أنَّ طبعة برادو كويلو لم تُورد النصَّ برمَّته أساساً. ومردُّ ذلك ربَّما عائد إلى «الطبيعة الغريبة» التي كتب بها پِسُوَّا هذا النَّص بالتَّحديد، فهو ليس على شاكلة الشذرات الأخرى المكتوبة بضمير الأنا، مثلما يشير پيسارُّو في ملحق طبعته (2010: 781) ذاكراً أنَّه لو قُيِّض لِپسُوَّا مراجعة «الأسلوب» لحذف هذا المقطع برمَّته من الكتاب. ناهيك عن أنَّ پِسُوَّا قد أغفل الإشارة إلى أنَّ هذا النَّصَّ جزءٌ من **كتاب القلق**، كما كان يفعل مع شذراته الأخرى المرقونة على الآلة الكاتبة، بإيراد عبارته المختصرة الشَّهيرة (LdoD). (المترجم)

حتَّى وإنْ لم يكن لديه سبب يدفعه إلى البحث عن ملاذ.

وأنْ نبرع في الشُّعور بكلِّ شيءٍ يجعلنا غير مبالين، إلَّا تجاه تلك الأشياء التي لا نستطيع امتلاكها - الأحاسيس المثيرة بأنَّ روحنا ماتزال في شكل جَنينيٍّ جداً كي نشعر بها، والأنشطة البشريَّة التي تتوافق مع المشاعر العميقة، مع الشَّغف والعواطف المفقودة بين الأنواع الأخرى من الإنجازات.

ولا علاقة للأشجار المرصوفة على طول الجادَّات بهذا كلِّه.

ولقد توقَّفت تلك اللَّحظةُ فجأةً، كما تفعل الضِّفة الأخرى من النَّهر حين يلمس القاربُ الرَّصيف. ولكنَّها كانت، قبل ذلك، قد حملت المنظر الطَّبيعيَّ مطبوعاً على بَدَنِها إلى الشَّاطئ الآخر الذي تلاشى مع صوت البدن يكشط طرف الرَّصيف. والرَّجل الذي رفع سرواله إلى ركبتيه قد أمسك الحبل، فكانت تلك الحركة الطَّبيعيَّة حاسمةً لا تقبل الجدل. ولقد أضفتْ خاتمةً غيبيَّة على استحالة أن تواصل روحُنا التمتُّعَ بلذَّة قلَقٍ مُتردِّد. نظر الصِّبيةُ الواقفون على الرَّصيف إليَّ مثلما ينظرون إلى أيِّ أحد، إلى شخص لا يشعر بمثل هذه العواطف غير المناسبة في أثناء مشاهدة الأحداث الواقعيَّة لسيرورة رسوِّ القارب.

209

[1929؟]

إنَّها مُجرَّد مطبوعة حجريَّة عاديَّة. أُحدِّق فيها دون أن أعرف إنْ كنتُ أراها في الحقيقة. ثمَّة أُخرياتٌ في ڤترينة الحانوت وثمَّة هذه. إنَّها في المنتصف، في النُّقطة التي تحجب رؤيتي للدَّرَج.

المرأةُ تشبك زهرةَ الرَّبيع بصدرها، والعينان اللَّتان تُحدِّقان فيَّ حزينتان. لابتسامتها بعضُ بريقِ الورقة الصَّقيلة [المطبوعة عليه] ووجنتُها مَشوبة بالأحمر، والسَّماء خلفَها زرقاءُ صافية. لها فمٌ صغير منحوتٌ وفوقَ قسماته المُعبِّرة، التي كأنَّها في بطاقة بريديَّة مُصوَّرة، عيناها اللَّتان تتفرَّسان فيَّ بنظرة حزنٍ رهيب. والذِّراع التي تضغط أزهاراً على صدرها تذكِّرني بذراع شخص آخر. الثَّوب أو البلوزة مقوَّرة حول العُنُق وتميل إلى الجانب قليلاً. عيناها حزينتان جداً: تنظران إليَّ من خلفيَّة وجودهما في الواقع المطبوع على الحجَر، فتفصحان عن شيء كأنَّه

الحقيقة. وصلتْ مع الرَّبيع. لها عينان واسعتان حزينتان، لكنَّها لا تبدو حزينة بسبب ذلك. أجرُّ قدميَّ بعيداً عن الڤترينة. أعبرُ الطَّريق ثُمَّ أستديرُ بحركة تمرُّد عقيمة. مازالتْ تحمل زهرةَ الرَّبيع التي أعطوها إيَّاها، وعيناها تعكسان حزن كلِّ شيء أفتقرُ إليه في الحياة. المطبوعة الحجريَّة زاخرة بالألوان، حين تُرَى من بعيد. فثمَّة شريط قرمزيٌّ معقود حول شعر الجسم الذي أراه؛ لم ألحظ ذلك مِن قَبْل. ثمَّة شيءٌ رهيب بشأن عيون البشر حتَّى في المطبوعات الحجريَّة: الدَّليل الحتميُّ على وجود اللَّاشعور، والصَّرخة الخَفِـيَّةُ بأنَّ للعيون روحاً أيضاً. أجرُّ نَفْسي، بعد جهد جهيدٍ، خارجَ حلم اليقظة[190] الذي غرقتُ فيه، مثل كلب، أنفضُ عنِّي عتمة الضَّباب الرَّطبة. وفوقَ يقظتي، في تلويحة وداع لشيءٍ آخر تماماً، كانت تلك العينان، اللَّتان تُفصحان عن حزن الحياة كُلِّه، وعن المطبوعة الحجريَّة الغيبيَّة التي نتأمَّلها من بعيد، وقد ظنَّتَا أنَّ لديَّ فكرة حقيقيَّة عن الله. وثمَّة رزنامة موصولة بقعر النَّقْش. إنَّها مؤطَّرة، من الأعلى والأسفل، بخطَّيْن أسودَيْن، مُحدَّبَيْن، عريضَيْن، مرسومَيْن على نحو رديء. وبينَ الحدَّيْن الأعلى والأدنى، فوقَ الورقة الخضراء التي تحمل الخطوط القديمة التي تُغطِّي أوَّلَ يناير المحتومَ، تتبسَّمُ العينان الحزينتان بتهكُّم في وجهي.

وممَّا يدعو إلى الغرابة أنَّني أعرف ذلك الشَّكل من قَبْل، فثمَّة رزنامة مطابقة، أراها غالباً في المكتب، بزاوية في الخلف. ولكنْ لسببٍ غامض، له علاقة بالمطبوعة الحجريَّة وبي على حدٍّ سواء، فإنَّ الرُّزنامة التي في المكتب ليس لديها عينان حزينتان. إنَّها مجرَّد مطبوعة حجريَّة، (إنَّها مطبوعة على ورقة لامعة وتنام بعيداً، حياتُها المملَّة فوق رأس ألفِيْش، الموظَّف الإداريِّ الأعسر).

أودُّ أن أضحك على هذا كلِّه فحسب، ولكنَّ قلَقاً رهيباً يجتاحني. أشعر بقشعريرة مرض فجائيَّة تسري في روحي. لا أقوى على التمرُّد ضدَّ هذا العبث. فأيُّ نافذةٍ مفتوحةٍ على الأسرارِ الإلهية اقتربتُ منها بلا قصدٍ؟ وما الذي تطلُّ عليه النافذة القابعة أسفلَ الدَّرَج في الحقيقة؟ وعينا مَنْ قد نظرتا إليَّ مِن تلك المطبوعة الحجريَّة؟ إنَّني أرتعش أو أكادُ، فأنظرُ دون أن أدري إلى زاوية المكتب البعيدة، إلى المطبوعة الحجريَّة الحَقَّة، وأرفع عينيَّ كي أنظر مرَّات ومرَّات.

(190) تستخدم جول كوستا، هُنَا، لفظة trance (حلم اليقظة/الغَيْبة عن الواقع) مقابلاً لكلمة «somno» (= النَّوم) التي استخدمها پِسُوَّا، في الأصل، ذاهبة أبعد ممَّا تنطوي عليه الكلمة في معناها الظَّاهريِّ، ولاسيَّما أنَّ «أحلام اليقظة» هي عالم سوارش الحقيقي، في حين نرى أنَّ زينيث يلجأ في طبعته إلى ترجمة هذه الكلمة ترجمة حرفيَّة: النَّوم. (المترجم)

[1929؟]

أكرهُ القراءة. أشعرُ بنوع من السَّأم الاستباقيِّ لمنظر تلك الصَّفحات غير المقروءة. لا أستطيع قراءة سوى الكُتُب التي أعرفها مِن قَبْل. على منضدة القراءة قرب سريري كتاب **الأب فِغِريدُو** عن الخَطابة الذي أقرأ فيه كلَّ ليلة للمرَّة الألف، ببرتغاليَّة واضحة ورَهْبانيَّة، وصفَ الصِّيغ البلاغيَّة المختلفة التي لم أحفظ أسماءها بَعْدُ، على الرَّغم من قراءتها آلاف المرَّات[xiv]. ولكنَّ اللُّغة تُهدِّئني [...] فيضطرب نومي إنْ لم أقرأ تلك الكلمات الدَّقيقة بتهجئاتها المكتوبة بالطَّريقة القديمة[191].

ولكنَّني مدينٌ إلى كتاب **الأب فِغِريدُو**، بصفائيَّته اللُّغويَّة المُبالغة، بالحرص النِّسبيِّ الذي أتنكَّبُه -بِقَدْر ما أستطيع- في كتابة اللُّغة التي أُعبِّر بها عن نَفْسي باللَّياقة التي [...]

وأقرأ:

(فقرة من كتاب **الأب فِغِريدُو**)

-البداية، والوسط، والنِّهاية،

وهذا يعزِّيني لأنَّني مازلتُ على قيد الحياة.

أو هذه

(فقرة عن الصِّيغ البلاغيَّة)

فتجعلني أعودُ إلى المُقدِّمة.

أنا لا أبالغُ مثقالَ ذَرَّةٍ في الألفاظ: أشعرُ بهذا كلِّه حقيقةً.

أقرأ كتابَهُ عن الخطابة، مثلما يقرأ الآخرون آياتٍ من الإنجيل. أستمتعُ بفضيلة السَّكينة والافتقار إلى التَّقوَى.

---

(191) العبارة في الأصل: «as palavras justas escriptas com C» (= الكلمات المكتوبة بدقَّةٍ بحرف c) في إشارة من بِسُوًّا إلى أنَّ فِغِريدو مازال يستخدم حرف c في رسم مختلف الكلمات، وهو الحرف الذي أُسقط لاحقاً في الإملاء البرتغالي إمَّا لأنَّه حرف صامت وإمَّا لاستبداله بحرف s أو حرفَي ss. ولعلَّ هذا يُفسِّر لجوء بِسُوًّا إلى رسم كلمة «القلَق» التي في عنوان كتابه على هذا النَّحو: Desasocego وليس Desassossego. (المترجم)

211
[1929؟]

لطالما انزعجتُ، في لحظات العزلة تلك التي ندرك فيها أنفسنا كأفراد ينظر إليهم الآخرون بوصفهم آخرين، من تَخَيُّل نوعِ الشخصيَّة الأخلاقيَّة والجسديَّة التي يتوجَّب أن أكونها أمام أولئك الذين يرونني ويتكلَّمونَ معي سواء بشكل يوميٍّ أو من حين إلى آخر.

لقد تعوَّدنا جميعاً على التَّفكير في أنفسنا بوصفها حقائق واقعيَّة ذهنيَّة وفي الآخرين بوصفهم مجرَّد حقائق واقعيَّة جسديَّة؛ فالطريقة التي يستجيب بها الآخرون إلينا، تجعلنا نفكِّر في أنفسنا بغموض على أنَّها كائنات جسديَّة، ونفكِّر في الآخرين بغموض على أنَّهم كائنات ذهنيَّة، ولكنَّنا لا نتقبَّل في الواقع حقيقةَ أنَّ الآخر يمتلك روحاً، مثلما نمتلك نحنُ، إلَّا حين نجد أنفسنا واقعين في غرام الآخر أو في صراع معه.

وهذا السَّببُ الذي يدفعني في بعض الأحيان إلى أن أفقد نَفْسي في تخيُّلات عقيمة حول نوع الشَّخص الذي أنا عليه بالنِّسبة إلى أولئك الذين يرونني، وكيف يبدو صوتي، وأيَّ انطباع أتركه في ذاكرة الآخرين اللَّاإراديَّة، وكيف تطبعُ إيماءاتي وكلماتي وحياتي البرَّانيَّة أنْفُسَها عميقاً على شبكيَّة تأويلات الآخرين. لم أتمكَّن قَطُّ من رؤية نَفْسي من خارجها. فلا مرآة تستطيع أن تُرِيَنا أنفسنا كأنْفُسٍ برَّانيَّةٍ، لأنَّه لا توجد مرآة تستطيع أن تأخذنا إلى برَّانيَّة أنفسنا. نحتاج إلى روح أخرى، وإلى طريقة أخرى في النَّظر والتَّفكير. وحتَّى لو استطعتُ التَّمثيل في أحد الأفلام، أو تمكَّنتُ من تسجيل صوت كلامي على قُرص، فأنا على يقين بأنَّني سأظلُّ بعيداً، كلَّ البُعْدِ، عن معرفة كيف أبدو من برَّانيَّتي، لأنَّني سوف أظلُّ، حين أُسجِّل عن نَفْسي ما أريدُ، عالقاً داخلَ الحديقة العالية الأسوار لوعيي بنَفْسي، سواءٌ أعجبني ذلك أمْ لم يعجبني.

ولا أعرف إنْ كان الآخرون يشعرون بالشَّيء ذاته، أو إنْ كان علم الحياة يقومُ أساساً على كون المرء يعيش في غُربةٍ شديدة عن نَفْسه حتَّى يصل بالفطرة إلى الاغتراب الذي يُمكِّنه بالضَّرورة من المشاركة في الحياة كأنَّه غائب عن وعيِهِ نَفْسه؛ أو إنْ كان الآخرون، الذين هم أشدُّ منِّي تبصُّراً بأنفسهم، لم يستسلموا كُليَّةً إلى وحشيَّة أن يكونوا أنفسَهم، ليس إلَّا، عائشينَ برَّانيِّين تماماً عبر تلك المعجزة، في حين أنَّ النَّحل يُكوِّن مجتمعات أكثر تنظيماً من أيِّ

أُمَّةٍ بشريَّة، والنَّمل يتواصل بلغةِ قُرون استشعارٍ مرتعشة أشد تفوُّقاً من قابليَّتنا المُعقَّدة لأنْ يسئ بعضُنا فهم بعض.

جغرافيَّةٌ وعينا بالحقيقة الواقعيَّة ذاتُ تضاريس مُعقَّدة من السَّواحل والبحيرات والجبال الوعرة. ولكنَّي إنْ فكَّرتُ فيها كثيراً، فسوف تبدأ بالظُّهور كأنَّها خريطةٌ تشبه «الخرائط التي تقود إلى أرض الحُبِّ»[xv] أو تلك التي يجدها المرء في «**رحلات غوليفر**»، وهي دُعابة صيغَتْ بدقَّةٍ في بعض الكتب العجائبيَّة أو السَّاخرة للتَّرويح عن الكائنات المتفوِّقة التي تعرف أين تكون البلادُ بلاداً حقاً.

فكلُّ شيءٍ، بالنِّسبة إلى أولئك الذين يُفكَّرون، مُعقَّدٌ. والتَّفكيرُ، في حدِّ مُتعته المحضة، يزيدُ تعقيدَ الأشياء دون شكٍّ. ولكنَّ الشَّخص المُفكِّر يحتاج إلى تبرير زُهده ببيانِ إحاطةٍ طويل مُنمَّق، على شاكلة الأعذار التي يقدِّمها الكذَّابون، مُفرطٍ في تفاصيله التي ما إن تُكشَف، كما يُنفَضُ الغبار عن نبتةٍ، حتَّى يتبدَّى جِذرُ الكذبة.

كلُّ شيء مُعقَّدٌ أو ربَّما أنا المُعقَّدُ فحسب. ولكنَّ ذلك لا يعنيني في نهاية المطاف، فلا شيء يعنيني في الواقع بتاتاً. فهذا كُلُّه، وجميع تلك التَّبصُّرات التي انحرفتْ عن الصِّراط الرَّئيس، تنمو في حدائق الآلهة المنفيَّة، مثل نباتات متسلِّقة تنمو بعيداً عن الجدران التي يتوجَّب أن تتسلَّقها. بَيْدَ أنَّني، في هذه اللَّيلة التي ترى نهاية أفكاري المهلهلة وليس خلاصتَها، أتبسَّمُ ضاحكاً من المُفارَقة الجوهريَّة التي تجعلها تصعد في روح إنسانيَّةٍ تَيتَّمَتْ قبل أن تُخلَق النُّجوم من بواعث القَدَر الكُبرى.

212

[1929؟]

دمَّرتُ نَفْسي كي أفهم. فلا بُدَّ، كي تفهمَ، أنْ تنسى أنْ تُحبَّ. ولا أعرف شيئاً ينطوي على خطأٍ فادح، ولكنَّه في الوقت ذاته طافحٌ بالمعنى، أكثرَ من مقولة **ليوناردو دافنشي** إنَّ المرء لا يستطيع حُبَّ شيءٍ أو كُرْهَهُ إلَّا حين يفهمَه.

تُعذِّبني العُزلة؛ وتضطهدني الصُّحبة. فحضور شخص آخر يُلهيني عن أفكاري؛ أحلمُ بحضورهم بطريقة مُجرَّدة غريبةٍ لا تستطيعُ تعريفَها أيُّ فكرة تحليليَّة من أفكاري.

[1929؟]

أجدُ فكرةَ السَّفر مغريةً بصورة غير مباشرة، كما لو كان من المحتمل أن تغري شخصاً غيري. مشهد العالَم الشَّاسع برمَّته يملأُ مخيَّلتي المستيقظة بموجة من السَّأم البهيِّ؛ فأخطُّ رغبةً على عُجَالةٍ، مثل شخص ملَّ الإيماءات كلَّها، والرَّتابةُ المُنتظرَة للمناظر الطَّبيعيَّة المحتملة تُعكِّرُ سطح قلبي الرَّاكد[192] مثل ريح عاتية.

ومثلما هي الحال مع الرَّحلات هي الحال مع الكُتُب، ومثلما هي الحال مع الكُتُب هي الحال مع كلِّ شيء آخر... أحلمُ بحياة متبحِّرة في المعرفة عن طريق الصُّحبة الصَّامتة للقدماء والحديثين، مُجدِّداً مشاعري عبر مشاعر الآخرين، ومالئاً نَفْسي بأفكار متناقضة نابعة من تناقضات المفكِّرين الحقيقيّين وأولئك الذين لا يمعنون التَّفكير كثيراً؛ بعبارة أخرى: غالبيَّةِ أولئك الذين يكتبون. بَيْدَ أنَّني في اللَّحظة التي ألتقطُ فيها كتاباً من على المنضدة، تتلاشى رغبتي في القراءة؛ فالحقيقة الفيزيقيَّة لضرورة قراءته تُبطل الرَّغبة في القراءة... وفكرة السَّفر تضمُر بالطريقة ذاتها حين يصدف أنَّني ذاهب إلى أيِّ مكانٍ قُربَ مكانٍ يمكنني في الواقع أن أنطلق منه. فأعودُ، حين أكون عَدَماً أنا نَفْسي، إلى النَّقيضَيْن اللَّذَيْن لا ريب فيهما: حياتي اليوميَّة كعابر سبيل لا يعرفه أحدٌ، وسُهادِ أحلامي اليَقظان.

ومثلما هي الحال مع الكُتُب، فإنها الحال مع كلِّ شيء آخر... ولأنَّ كلَّ شيء يمكن أن يُحلَم به ليغدو بمثابة انقطاع حقيقيٍّ لتدفُّق أيامي الصَّامت، أرفعُ عينيَّ باحتجاج مُتعَبٍ إلى

---

(192) وهُنَا مثالٌ آخر، جديرٌ بالملاحظة، على تعدُّد «تأويل/ترجمة» المعاني الثَّاوية عميقاً في الصُّور «المُحلِّقة» التي ينسجها بِسُوَّا؛ فأصل هذه العبارة في صيغتها البرتغاليَّة «a flor do coração que estagnou»، وهي تعني حرفياً: «زهرة قلبي الرَّاكد». نرى جول كوستا، في صنعتها الإنكليزيَّة هذه، قد ذهبت إلى المعنى «العميق» الذي تنطوي عليه كلمة «زهرة flor»، فترجمتها إلى «سطح surface»، مستندة إلى التَّعبيرات البلاغيَّة التي يأتي فيها «معنى» هذه الكلمة- مجازياً- على نحو ما آثرتِ الذَّهاب إليه (ولاسيَّما أنَّ عبارة بِسُوَّا، في حدِّ ذاتها، تنطوي على صورة غامضة غموض مخيِّلته الجامحة) مثل عبارة « à flor d'água»، التي تعني حرفيّاً «زهرة الماء»، ولكنَّها تعني مجازياً «على السَّطح»؛ أو عبارة « à flor da pele»، التي تعني حرفياً «زهرة الجِلْد»، ولكنَّ معناها المجازي يعني «على الحافَّة» (أن يكوْن المرء في قمَّة التوتُّر؛ على حافَّة الانفجار العاطفيّ، كأنَّ مشاعره عرقٌ يتصبَّ من جلده). نرى في هذَيْن المثالَيْن أنَّ كلمة «flor» قد خرجت من معناها الظَّاهري، الذي هو الزَّهرة، إلى معناها المجازيِّ، الذي هو «السَّطح». وهو المذهب الذي اختارته جول كوستا في ترجمتها هذه. بَيْدَ أنَّنا نرى ريتشارد زينيث قد آثر، في طبعته الإنكليزيَّة، الذَّهاب إلى تبنِّي المعنى الظَّاهري، فترجم العبارة: «زهرة قلبي المُتدلِّي the flower of my drooping heart». (المترجم).

الفتاة الهيفاءِ التي لي أنا وحدي، إلى الفتاة المسكينة التي، لو تعلَّمت الغناء، لربَّما كانت من عرائس البحر[193].

214

[1929؟]

أيُّ تغيُّر في الجدول الزَّمنيِّ الذي تعوَّد عليه المرءُ يملأ الرُّوح بجدَّةٍ باردة، لذَّةٍ مُقلِقة بعض الشَّيء. فالشَّخص الذي يغادر المكتب في السَّاعة السَّادسة عادةً، ثُمَّ يصدف أن يغادر في السَّاعة الخامسة، يشعر على الفور بعطلة ذهنيَّة، ثُمَّ يغتمُّ على الفور أو يكاد، لأنَّهُ لا يعرف ماذا يفعل بنَفْسه.

غادرت المكتب، أمسِ، في السَّاعة الرَّابعة، لوجود عمل لا بُدَّ أن أقضيه في الخارج، وبحدود السَّاعة الخامسة أنجزتُ مهمَّتي. لم أعتد الوجود في الشَّوارع في تلك السَّاعة فوجدت نَفْسي في مدينة أخرى. كانت ثمَّة عذوبة عقيمة للضوء المتواني على واجهات الحوانيت المألوفة، وكان العابرون المعتادون يمشون في مدينة موازية لمدينتي، كبحَّارة غادروا الشَّاطئ في اللَّيلة السَّابقة.

ولأنَّ المكتب مازال مفتوحاً منذ تلك السَّاعة، هُرعتُ عائداً، فاعترتِ الدَّهشة الواضحة وجوه الموظَّفين الآخرين الذين ودَّعتهم حين هممت بالمغادرة في ذلك النَّهار. هل عُدتَ بالله عليك؟ نعم، لقد عدتُ. كنتُ مُتحرِّراً من أن أشعرَ ثانيةً، وحيداً مع أولئك الأشخاص الذين رافقوني في كلِّ شيء إلَّا الرُّوح... كان ذلك أشبه بأنْ يكون المرء في المنزل، أقصدُ في المكان الذي لا تنتابه فيه أيُّ مشاعر على الإطلاق.

---

(193) تختلف عروسة البحر (السِّيْرَانة siren) عن حوريَّة البحر mermaid في أنَّ للأولى رأس امرأة فائقة الجمال وجسد طائر، وللثَّانية رأس امرأة فائقة الجمال وجسد سمكة. وتصوَّر الأولى عادة على أنَّها شريرة، تغوي البحارة، كي تقتلهم؛ فيما تُصوَّر الثَّانية على أنَّها مسالمة تحاول عيش حياتها بهدوء بعيداً عن البشر. وأطلقت العرب اسم «خَيْلان» على ذلك الوحش البحريِّ الخرافيِّ الذي نصفه إنسان ونصفه سمكة. (المترجم)

[1929؟]

استيقظتُ مُبكِّراً جداً في هذا الصَّباح وقد اعتراني ارتباك فجائيٌّ مُضْطَرِبٌ، فجلستُ في السَّرير على مهلي شاعراً بالاختناق من سأم لا أستطيع أن أسبر غورَهُ. لم يُثِر هذا الشُّعورَ حلمٌ ولا حقيقةٌ واقعة. لقد كان شعوراً بالسَّأم المُطلَق والكُلّيِّ الذي تمتدُّ جذوره في شيء أو آخر. كانت قوىً محجوبة ومجهولة تخوض معركةً، في الأعماق المعتمة لروحي، فأضحَتْ كينونتي ساحة الحرب، واهتزَّ كياني كُلُّهُ جرَّاء هذا الصِّراع الخَفِيِّ. وحين استيقظتُ، كان غثيانٌ من كلِّ شيء في الحياة يجتاح جسدي. استيقظَ رعبُ اضْطِراري إلى العيش وجلسَ بجانبي على السَّرير، فَلاحَ لي كلُّ شيءٍ عقيماً، وتملَّكني انطباعٌ بارد بأنَّ كلَّ معضلة، مهما كانتْ، لن تكون قابلة للحلِّ على نحو أكيد.

أخذَ قلَقٌ رهيبٌ بأدنى إيماءاتي ورجَّها، فشعرتُ بالخوف من أنّني قد أُجنُّ؛ ليس من الجنون، وإنَّما من كوني هُنَاكَ لا أكثر. كان جسدي كلُّه صرخةً مكبوتة، وقلبي يخفقُ كأنَّه ينشجُ.

ثُمَّ خطوتُ بقدميَّ الحافيتَيْن خطوات واسعة وطويلة ومترنِّحة، محاولاً عبثاً أن تكون غير ما كانت عليه، ذارعاً غرفتي الصَّغيرة، مقتفياً أثر خطٍّ مائل فارغ عبر الغرفة التي بجانب غرفتي؛ تلك التي لها بابٌ في الزَّاوية المفتوحة على الرِّواق. وحين أضحتْ حركاتي أكثر ترنُّحاً وأقلَّ دقَّةً، خبطتُ صُدفةً بالفُرَش الموجودة على منضدة الزِّينة، وارتطمت بكرسيٍّ، ثُمَّ خَبَطَتْ يدي المترنِّحةُ، دفعةً واحدةً، الحديدَ الصُّلب لهيكل السَّرير. أشعلتُ سيگارة دخَّنتُها من دون تفكير، ولم أدرك إلَّا حين رأيتُ ذلك الرَّماد وقد سقط على الوسادة -ولكنْ أنَّى لَهُ ذلك وأنا لم أستلقِ حتَّى هُنَاك؟- أنِّي قد مُسِسْتُ (أو في حالة شبيهة على الأقلِّ في التَّأثير إنْ لم تكُنْ في الاسم) وأنَّ وعيي بنَفْسي الذي لم يبرحني في العادة قَطُّ قد باتَ مصهوراً بالخواء.

استقبلتُ قدوم الصَّباح، الضَّوءَ الطَّفيف البارد الذي يُضفي بياضاً مُزرقاً غامضاً على الأفق الذي ينبلجُ، مثل قُبلةِ امتنانٍ من العالَم. ولأنَّ ذلك الضَّوء، ذلك النَّهار الحَقَّ، قد حرَّرني، حرَّرني من شيءٍ، ومدَّ يداً حانيةً، تشدُّ أزرَ كهولتي التي لم أَصِل إليها بَعْدُ، وتُربِّتُ

على جبين طفولتي الباطلة، وتُؤوي هجعةَ البؤس والشَّقاء لحساسيتي التي تفيضُ.

فَيَا لَهُ من صباحٍ هذا الذي يُوقظني على وحشيَّة[194] الحياة ورقَّتها المُفرطة على حدٍّ سواء! أكادُ أبكي كي أرى الضَّوء يكبر أمامي وتحتي في الشارع الضيِّق العتيق، وحين تتَّسخُ المصارع المؤصدة على حانوت البقَّال في الزَّاوية فتغدو خضراءَ في الضَّوء الذي يكاد يسطعُ، تغمرُ قلبي سكينةُ حكايةٍ خرافيَّة، وتنسربُ طمأنينة عدم الشُّعور بشيءٍ عائدةً إليَّ.

فَيَا لَهُ من صباحٍ هذا الذي يجلبه معه الألمُ! وأيُّ ظلال ترتدُّ على أعقابها أمامَهُ؟ وأيُّ أسرارٍ كانت تتكشَّفُ؟ لا شيء: إنَّه صوتُ الترام الأول، فحسبُ، الذي يشبه عود ثقاب ينير عتمةَ روحي، والخُطى الثَّابتة لأوَّل العابرينَ، والصَّوت الودودُ للواقع الماديِّ الذي يخبرني بألَّا أقلق.

216

[25 ديسمبر 1929] [195]

وما إن غِيضَ المطر الأخيرُ، فلَم تسقط إلَّا قطرات متقطِّعة من أفاريز السُّطوح، تراءتْ زُرقة السَّماء المنعكسة على طول منتصف الشَّارع المرصوف بالحصى، حتَّى تنكَّبتْ حركةُ السَّير أغنيةً مختلفة، أعلى وأبهجَ، فتعالى صوت النَّوافذ وقد فُتحتْ كي تُحيِّي عودةَ الشَّمس النَّسَّاية. ثُمَّ، أسفلَ الشَّارع الضَّيِّق، على طول الزَّاوية المجاورة، تعالتْ صيحةُ بائع اليانصيب، ودوَّى صوتُ المسامير، التي تُدقُّ بالصَّناديق في الحانوت المجاور، حولَ المكان المشرق.

كانت الأجواء كعُطلةٍ اختياريَّة، قانونيَّة تماماً، ولكنْ لم يلحظها أحد. عاشت الرَّاحة والعمل، بعضهما قرب بعض، فلم يكُن لديَّ شيءٌ أقوم به البتَّة. نهضتُّ باكراً ولكنَّني توانيتُ في تحضيرات وجودي. مشيتُ من طرف الغرفة إلى الآخَر، حالماً بصوت عالٍ بأشياء مستحيلة وغير مترابطة – إيماءات نسيتُ أن آتي بها، طموحات مستحيلة لم تتحقَّق إلَّا عشوائياً فحسب، محادثات طويلة وثابتة كانت ستحدث لو قمتُ بها. وفي حلم اليقظة، هذا، المتجرِّد

(194) يستخدم بِسُوا، هُنَا، كلمة «estupidez»، التي تعني، حرفياً: التَّفاهة/الغباء؛ ولكنَّ جول كوستا تبتعد هنا عن الحَرْفيّة، فتفضِّل ترجمها بـ «الوحشيَّة/الهمجيَّة brutishness» كي تتناغم مع الشقِّ الثاني من العبارة الذي يتحدث عن «رقَّة» الحياة. (المترجم)

(195) خطَّ بِسُوَّا هذا التاريخ في الأصل على هذه الشَّاكلة: 25/XII/1929، مستخدماً الصِّيغة الرُّومانيَّة للرَّقم 12. (المترجم)

من الأُبَّهة والسَّكينة، في التَّسكُّع اليائس السَّرمديِّ، بدَّدَتْ قدماي الماشيتان صباحيَ الحُرَّ، وكلماتي المنطوقةُ عالياً بصوت خفيض تضاعفتْ حين دوَّتْ حول صومعة عُزلتي البسيطة.

ثُمَّ، منظوراً مِن خارجه، تراءى شكلي الآدميُّ سخيفاً على الشَّاكلة التي يتراءى فيها كلُّ إنسان حين يُرَى منعزلاً وحده. فارتديتُ، فوقَ الثِّياب البسيطة للنَّوم المهجور، معطفاً عتيقاً أرتديه في تلك اليقظات الصَّباحيَّة. كانت فردتا خُفِّي القديمتان، ولاسيَّما الفردة اليُسرى، متشقِّقتَيْن كثيراً. ثُمَّ، بخطىً طويلة حاسمة، ويدايَ في جيبَي معطفي الذي سأرتديه بعد وفاتي، سرتُ في جادَّة غرفتي الصَّغيرة مستمتعاً، في تلك الأفكار العبثيَّة، بحلمٍ على شاكلة أحلام الآخرين تماماً.

ويستطيع المرءُ أن يسمع، في البرودة التي تدخل عبر النَّافذة، القطرات الرَّيَّانة تسقطُ من الأسطح، وقد غِيضَتْ في هذه الأثناء مياهُ الأمطار التي تجمَّعتْ. وكانت ماتزال ثمَّة إشارة خفيَّةٌ من الأجواء العذبة التي خلَّفتها وراءها. ولكنَّ السَّماءَ كانت زُرقةً تستحوذُ على كلِّ شيءٍ، والغيومُ التي خلَّفها المطرُ المدحور المُتعَبُ انسحبَتْ فوق جدران القلعة، متنازلةً عن جميع الدُّروب الشرعيَّة التي تقود إلى السَّماء.

كان وقتاً للسَّعادة، ولكنَّ شيئاً قد اشتدَّتْ وطأتُه عليَّ، حنيناً غامضاً، رغبةً مجهولة ولكنَّها ليستْ وضيعةً تماماً. ربَّما استغرقتُ وقتاً كي أُعوِّد نَفْسي على إحساسِ أن أكون على قيد الحياة. وحين مِلتُ خارج النَّافذة العالية فوق الشَّارع الذي نظرتُ إليه دون أن أراهُ، شعرتُ فجأةً كأنِّي إحدى تلك الخِرَق الرَّطبة التي تستخدم عادةً لتنظيف أشياء المنزل المُتَّسخة فتُنشَر على النَّافذة كي تجفَّ، ولكنَّها تُركتْ هُنَاك، هذه المرَّة، مُكوَّمةً على حافَّة النَّافذة التي تُبقِّعها على مهلها.

217

[1929؟]

أحسدُ -على الرَّغم من أنَّني لستُ متأكِّداً إن كان الحسد الكلمةَ المناسبة- أولئك الذين يستطيع المرء كتابةَ سيرتهم الغَيْريَّة، أو الذين يستطيعون كتابة سيرتهم الشخصيَّة. ولكنَّني، عبر تلك الانطباعات غير المترابطة قصداً، الرَّاوي اللَّامبالي لسيرتي الشخصيَّة الخالية من

الأحداث، ولتاريخي الذي لا حياةَ فيه. هذه اعترافاتي، وإذا كنتُ لا أقول فيها شيئاً، فذاك لأنّني لا أملكُ شيئاً لأقوله.

ما الذي يستحقُّ أن يكون جديراً بالاعتراف أو يكون ذا غاية نافعة؟ فما حدث لنا: إمَّا أنه حدث للجميع، وإمَّا لنا وحدنا؛ فإنْ كان للجميع، فلن يكون ذا قيمة جديدة؛ وإنْ كان لنا، فسوف يكون عصياً على الفهم. أخطُّ ما أشعر به كي أخفض حُمَّى الشُّعور. لا قيمةَ لما أعترف به، لأنَّهُ لا قيمةَ في الأصل لأيِّ شيء. أُوجِدُ مناظرَ طبيعيَّة بما أشعر به. أقضي عُطلةً من الأحاسيس. أفهم النِّساء اللَّواتي يُطرِّزن بدافع الحزن واللَّواتي يَحِكْنَ بالسِّنارة لأنَّ الحياة هي ما عليه الحياة. بدَّدت عمَّتي الكهلةُ مساءاتها اللَّانهائيَّة تلعبُ السُّوليتير. اعترافاتُ مشاعري تلك هي لعبتي السُّوليتير، ولكنَّني لا أُفسِّرُ أوراق اللعب مثلما يفعل بعضُهم كي أعرف المستقبل. ولا أتفرَّسُ فيها، كما في لعب السُّوليتير، فلا قيمةَ للأوراق في ذاتها. أحلُّ نَفْسي كشِلَّة غَزْلٍ مُلوَّنة، أو أصنعُ من نَفْسي أمهدةَ قِطَطٍ[196] كتلك التي ينسجها الأطفال حول أصابعهم المُتيبِّسة ويمرِّرونها من واحدٍ إلى آخر. وأحرصُ على ألَّا يُفلِتَ إبهامي الحلَقةَ الحيويَّة، ثُمَّ أقلبُها لأكشف عن شكل مختلف، وأبدأُ من جديد.

وليس العيشُ إلَّا كمثل حياكةِ أشكالٍ بالسِّنارة وفقَ تصميم وضعه شخصٌ آخر. ولكنَّ المرء حين يبدأ في العمل، تتحرَّرُ أفكارُه، ويصبح جميع الأمراءِ المسحورين الذين وجدوا في الحياة أبداً، حين تغوص السِّنَّارة العاجيَّة في الصُّوف ثُمَّ تخرج منه، أحراراً بالتنزُّه في مُتنزَّهاتهم. حياكةُ الأشياء بالسِّنَّارة... فاصلٌ... لا شيء...

فأيُّ صفاتٍ فِيَّ أستطيعُ الاعتماد عليها، فضلاً عن ذلك؟ إدراكُ أحاسيس رهيبٌ، ثاقبُ النَّظر، ووعيُ مشاعر عميقٌ... بصيرة ثاقبةٌ تُدمِّرُ نَفْسَها بِنَفْسها وموهبةٌ استثنائيَّة للحُلم فأُسلِّي بالأحلام نَفْسي... وإرادةٌ فانية وروحٌ تأمُّليَّة تُهدهدها مثل طفلة حيٍّ... خلاصة القول، حياكةٌ بالسِّنَّارة...

---

(196) تستخدم جول كوستا، هُنَا، التّعبير cat's cradles مقابلاً لعبارة بِسُوَّا «ou faço comigo figuras de cordel» (= أصنع من نَفْسي أشكالَ خيوطٍ)، وهو التعبير الإنكليزيُّ الشّائع للعبة الخيطان التي يلعبها الأطفال وفق ما يشرح بِسُوَّا نفسه في الجملة التي تليها. (المترجم)

218

[1929؟]

السَّاعةُ التي في أعماق منزل مهجور، مهجور لأنّهم نائمون جميعاً، تترك الصَّوتَ الرُّباعيَّ[197] الواضحَ للسَّاعةِ الرَّابعة صباحاً، أنْ يسقطَ على مهله. لَمْ أنمْ بَعْدُ، ولا أتوقّع أنّني سأنامُ. استلقيتُ في الصَّمت المُضجِر لجسدي الغريب في الظلِّ الذي يجعله ضوءُ القمر الغامض، المنبعث من مصابيح الشَّارع، أكثرَ عُزلةً، ولا شيء يشغلني فيحول بيني وبين النَّوم، أو تشتدَّ وطأتُه على جسدي فيحرمه من الرَّاحة. ولقد هدَّني التَّعبُ فبِتُّ غير قادر حتَّى على التَّفكير، وغير قادر حتَّى على الشُّعور.

ولا شيءَ من حولي إلَّا الكونُ المُجرَّد، العاري، الذي لا يتكوَّنُ إلَّا ممَّا هُوَ نقيضُ اللَّيل. وبقيتُ مُفرَّقاً بين الإعياء والقلق حتَّى قاربتُ، بجسدي، علماً غيبيّاً عن سرِّ الأشياء. وتَرِقُّ روحي في بعض الأحيان فتطفو التَّفاصيل عديمة الشَّكل للحياة اليوميَّة على سطح وعيي وأخطُّ ميزانيَّةً عموميَّة[198] على ظهر أَرَقِي. أستيقظُ، في أوقات أخرى، وقد رانَ الكَرَى عليَّ[199] فأستلقي خاملاً، وصورٌ غامضة بألوانٍ شِعريَّةٍ عشوائيَّة تتركُ عرضَها المسرحيَّ الصَّامت أن يمرَّ أمام ذهني السَّاهي. عيناي ليستا مغمضتَيْن تماماً. ونظري الضَّعيف مُهدَّبٌ بضوء بعيد ينبعث من مصابيح الشَّارع التي مازالت مضاءةً في الأسفل، في مناطق الشَّارع المهجورة.

ليتني أكفُّ، فأنام، فأُبدِّلُ هذا الوعي المتقطِّع بأشياءٍ أفضلَ، أشدَّ كآبة، قِيلَتْ في السرِّ إلى أحد الغرباء!... أكفُّ، فأتدفَّقُ مثل نهر، كمدِّ بحر شاسع وجَزْرِهِ على طول سواحل تُرَى في ليلٍ يستطيع حَقّاً أن ينام فيه المرءُ!... أكفُّ، فأكون مجهولاً وبرَّانياً، رعشةَ الأغصان في جادَّاتٍ قصيَّة، وسقوطَ أوراق الأشجار الهشَّ الذي يشعر به المرءُ دون أن يسمع الأوراق وهي تسقطُ، والبحرَ الماكر؛ بحرَ الينابيعِ البعيدة، وعالمَ الحدائق الغامضَ برمَّته في اللَّيل، الضَّائعَ في تعقيدات لا نهائيَّة، والمتاهات الطَّبيعيَّة التي للظَّلام!... أكفُّ،

(197) الذي تضاعف أربعة أمثال حجمه الأصليّ. (المترجم)

(198) العبارة التي يستخدمها بِسُوَّا في الأصل هي «lançamentos» وتعني: ترحيل القيود المحاسبيَّة في دفتر الحسابات. (المترجم)

(199) أستخدمُ، هُنَا، عبارة «وقد رانَ الكَرَى عليَّ» مقابلاً لعبارة «the half-sleep» (تعني حرفياً: نصف النَّوم؛ وهي عبارة تطلق عندما لا يكون المرء قد استيقظ تماماً أو استيقظ وهو يشعر بتعب شديد) التي وضعتها جول كوستا مقابلاً لعبارة بِسُوَّا «meio-somno» (= نصف النَّوم). والكَرَى في العربيَّة هي تلك الحالة بين اليقظة والنَّوم. (المترجم)

فأنتهي مرَّةً واحدةً وإلى الأبد، كي أُوجَد في شكلٍ آخر: صفحةً في كتاب، خُصلةَ شعر مرخيَّة، كرمةً تعترشُ متمايلةً خارج نافذة نصف مفتوحة، خطىً متواضعة على الحصى الأملس في عَطْفَةِ درب، لفَّةَ الدُّخان الأخيرة عالياً فوق قريةٍ آنَ تغرق في النَّوم، السَّوطَ الخامل لسائق العربة المتوقِّفة عند حافَّة الطَّريق في الصَّباح... العبث، الحيرة، الفناء - أيَّ شيء إلَّا الحياة...

ولكنَّني أنامُ في حياة الرَّجم بالغيب الخاملة هذه، بطريقتي الخاصَّة، التي هي بلا نوم أو راحة، وفوقَ جفنيَّ المضطربين يُحوِّمُ، كالزَّبد الصَّامت لبحرٍ وضيع، الوميض البعيدُ لمصابيح الشَّارع الأخرس في الأسفل.

أنامُ، وأنام والكرى قد ران في عينيَّ.

وخلفي، خلف المكان الذي أستلقي فيه، صمتُ المنزل يلمسُ المُطلَق. أسمع الزَّمن يسقطُ، قطرةً قطرة، ولكنَّني لا أسمعُ القطراتِ أنفسَها تسقط. قلبي يضطهدُ ذاكرتي جسدياً؛ ذاكرتي -التي صارتْ عدَماً- عن كلِّ شيء كانَ وكلِّ ما كنتُهُ. أشعرُ برأسي يستريح على الوسادة التي جعلتُ فيها وَهْدَةً. ولمسُ غطاء الوسادة كمثل جِلْدٍ يلامسُ جِلْداً في الظِّلال. والأُذُن التي أستلقي عليها تطبعُ نَفْسَها رياضياً على عقلي. وأجفاني تتدلَّى من التَّعب ورموشي تُحدِثُ نَأْمَةً خافتةً أو تكادُ فوق البياض الحسَّاس للوسادة الريَّانة. أزفرُ أنفاسي، وأتنهَّدُ، وأنفاسي التي أزفرُها ليستْ أنفاسي. أُعاني بلا شعور أو تفكير. وفي المنزل، السَّاعةُ، التي تحتلُّ مكاناً مُحدَّداً في قلب الأشياء، تدقُّ نصف السَّاعةِ، حادَّةً، وعقيمةً. كلُّ شيء كثيرٌ جدّاً، وعميقٌ جداً، أسودُ وباردٌ!

أمرُّ عبر الزَّمن، عبر الصَّمت[200]، مثلما تمرُّ العوالم عديمة الشَّكل من خِلالي.

فجأةً، كطفلِ السِّرِّ المتبرئ من وجودِ اللَّيل، ديكٌ يصيحُ. أستطيع النَّومَ الآن فالصَّباحُ قد أشرقَ فِـيَّ. ثم أشعرُ بشفتيَّ تبتسمان، تنضغطان برقَّةٍ في الطَّيَّات الوثيرة للوسادة التي تحضنُ وجهي. أستطيعُ هجرَ نَفْسي من أجل الحياة، أستطيع النَّوم، وأستطيع نسياني... ثمَّ، عبر النَّوم الجديد الذي يكتسحني غامضاً، أتذكَّرُ الدِّيكَ الذي صاحَ؛ فَإمَّا ذاكَ وإمَّا أنَّهُ هُوَ الذي، في الحقيقة، يصيحُ للمرَّة الثَّانية.

---

(200) ترد كلمة الصَّمت، هُنَا، بصيغة الجمع. (المترجم)

219

[1929؟]

في الأيَّام القليلة الأولى من هذا الخريف الفجائيِّ، حين تبدو العتمة قد حلَّت قبل أوانها بطريقة ما، تتبدى الحياة وكأنَّنا توانينا كثيراً في أعمالنا اليوميَّة. وحتَّى في غمرة جولتي اليوميَّة، أتمتَّع مُسبقاً بلذَّة العطالة عن العمل التي تجلبها العتمة معها، فالعتمةُ تعني اللّيلَ واللّيلُ يعني النَّوم والمنزل والحريَّة. وحين تُضاء الأنوار في المكتب الكبير، طاردةً العتمة، فننتقل بلا مشقَّةٍ من النَّوبة النَّهاريَّة إلى الورديَّة المسائيَّة، ينقضُّ عليَّ إحساسٌ عبثيٌّ بالرَّاحة، مثل ذكرى من زمن آخر، فأشعر بالرِّضى عمَّا أكتبُ، كما لو كنتُ جالساً أقرأُ لِنَفْسي كي تنام في السَّرير.

ونحن، جميعاً، عبيدُ ظَرفٍ خارجيٍّ: يستطيعُ نهار مشمسٌ أن يُجلِّي أمامنا، حتَّى على طاولة بمقهى في شارع خلفيٍّ، رؤى حقول واسعة؛ ويستطيعُ ظلٌّ يخيِّم على الرِّيف أن يجعلنا ننكمش في أنفسنا، باحثين عن ملاذ غير مريح في منزل أنفسنا الذي بلا أبواب؛ وحتَّى هبوطُ العتمة في غمرة الأشياء النهاريَّة يستطيعُ أن يُوسِّع، كمروحة تنتشرُ على مهلٍ، حدودَ وعينا العميق بحاجتنا إلى الرَّاحة.

ولكنَّ ذلك لا يعيقُ أعمالَنا، بل إنَّه، بالأحرى، يُبهجنا. لم نَعُد نعمل بتاتاً؛ إنَّنا نستمتع بالعمل المحكوم علينا تأديته. ثُمَّ، فجأةً، على الصَّفحة المُسطَّرة الشاسعة لِقَدَري كمحاسبٍ، ينتصبُ منزل عمَّاتي الكهلات، مغلقاً على العالَم تماماً، في حين مايزال الشَّاي يُقدَّم في السَّاعة العاشرة الطَّافحة بالنُّعاس، ومصباحُ الزَّيت، مصباح طفولتي المفقودة، وبِركةُ نوره التي لا تضيء سوى مفرش الطَّاولة، تغمرُ عتمةَ رؤيتي لِموريرا، البعيد عنِّي بُعْدًا لا حَدَّ لَهُ، تُنيره في هذه اللَّحظة كهرباء سوداء. تُقدِّم الشَّاي الخادمة التي هي أكبرُ سِنّاً من عمَّاتي، جالبةً إيَّاه، وقد ران النُّعاس الخفيف في عينيها، بالرِّقَّة الصَّبورة، حادَّة الطَّبع، التي تتمتَّع بها الخادمات الكهلات – ولكنَّني لم أغلط مرَّة في تدوين رقم أو مجموع طيلة ماضيَّ الميِّت. ولقد استغرقتُ في نَفْسي ثانيةً، أفقدُ نَفْسي فِيَّ، وأنسى نَفْسي في تلك اللَّيالي البعيدة، لا يُلوِّثني الواجبُ ولا العالَمُ، نقياً من الأسرار والمستقبل، نقاءً بلا دَنَس.

فيا لشدَّة رقَّةِ هذا الشُّعور الذي يُشتِّتني عن خانات المدين والدَّائن إلى درجة أنَّني أُجيب عن أيِّ سؤال قد يسأله أحدٌ برقَّةٍ مماثلة، كما لو كانت كينونتي جوفاء في حدِّ ذاتها، كأنَّني

لستُ إلّا آلةً كاتبة أحملها معي، نسخةٌ منقولةٌ من نَفْسيَ المكشوفة. وانقطاع أحلامي على تلك الشَّاكلة لا يضايقني، فهي في غاية الرِّقَّة إلى درجة أنَّني أواصل الحلم بها حتَّى وأنا أتكلَّم، وأكتب، وأُجيب، وأُواصل المحادثة. وأخيراً، يقترب وقت الشَّاي الضَّائع من نهايته وقد أزف وقت إغلاق المكتب. أغلق الكتاب على مهلي وأرفع عينيَّ المُنهكتَيْن من الدُّموع غير المسفوحة، ثُمَّ، من بين جميع المشاعر المُتخيَّلة التي يثيرها هذا كلُّه، يعتريني، أكثرَ من أيِّ شيء آخر، شيءٌ من الحزن بأنَّ إغلاقَ المكتب قد يعني نهاية حُلمي؛ وأنَّ إيماءة يدي وهي تغلق الكتاب قد تعني حجبَ ماضيَّ الذي لا يُعوَّض؛ وأنَّني سوف أذهب إلى سرير الحياة، لا يمسسني تعبٌ البتَّة، وإنَّما بلا صاحبةٍ، ينهشُني القلَقُ، عالقاً في مَدِّ وعييَ المشوَّشِ وجَزْرِهِ، كأنَّ مَدَّيْن توأمين يجريان في اللَّيل البهيم، عند الحدود الخارجية للحنين والوحشة.

220

[5 فبراير 30] [201]

ليستِ الجدرانُ المتصدِّعة لغرفتي العاديَّة، ولا مكاتبُ الكتابة القديمة في المكتب، ولا حتَّى بؤسُ شوارع بَايْشَا اليوميَّة التي تفصل بين الغرفة والمكتب (الشَّوارع التي مشيت فيها كثيراً حتَّى بدت كأنَّها قد استقرَّتْ ثابتةً في موضعها على نحو يتعذَّر تغييره) هُوَ ما يُثير فِيَّ مشاعرَ الغثيان المتكرِّرة جرَّاء روتين الحياة اليوميَّة الوضيع. إنَّهم النَّاس من حولي الذين يتركون عُقدةَ الغثيان الفيزيقيِّ هذه في روحي، الأرواح التي لا تعرفُ شيئاً عنِّي، ولكنَّها تعاملني، في تواصلها اليوميِّ وأحاديثها معي، كأنَّها لا تعرفُ. وإنَّه رِجسُ هذه الحيوات الرَّتيب الذي ينتشرُ إزاءَ حياتي البرانية، وإنَّه يقينُهم الجوَّانيُّ في أنَّهم أندادي هُوَ الذي يلسعني بالسِّياط على ظهر سُترتي الضَّيِّقة التي تُقيِّدُني[202]، ويحبسني في الزِّنزانة، ويجعلني أشعرُ بأنَّني مُزيَّفٌ ووضيع.

---

(201) تُورد جول كوستا رقم السَّنة، هُنَا، على هذا النَّحو: 30 وليس 1930، سيراً على نهج پيسارُو في طبعته. بَيْدَ أنَّ پِسُوَّا كتب التَّاريخ برمَّته، في الأصل، على هذه الشَّاكلة: 30/2/5. (المترجم)

(202) Straitjacket (وفي البرتغاليَّة: traje de forçado): تشبه السترة التي يلبسونها للمجانين كي تمنعهم من تحريك أياديهم. (المترجم)

وثمَّة لحظات تثير فيها اهتمامي كلُّ تفصيلة من تفاصيل العاديِّ، في حدِّ ذاتها، فأشعرُ بالعاطفة تجاه كلِّ شيءٍ، لأنَّني أستطيع قراءته بكلِّ وضوح. فأرى، حينئذٍ -مثلما يقول ڤييرا إنَّ سُوزا، في صوره الوصفيَّة، قد رأى- فردانيَّةَ العاديِّ، فأغدو شاعراً يمتلك روحاً على شاكلة تلك التي أوجدَتْ، بين الإغريق، العصرَ الفكريَّ للشِّعر[xvi]. ولكنْ، ثمَّة لحظات أخرى، كهذه اللَّحظة، حين أشعرُ باضْطِهاد نَفْسيَ الشَّديدِ ووعيها الشَّديدِ الرَّاغب في أن تكون واعية بالأشياء الخارجية، فيغدو كلُّ شيء، حينئذ، بالنِّسبة إليَّ، ليلةً ماطرةً مُوحلة، وأنا وحيد وضائع في محطَّة قطارات مهجورة، وقطارُ الدَّرجة الثَّالثة الأخير قد غادر منذ ساعات والقطار التَّالي لم يصل بَعْدُ.

أمَّا فضيلتي الجوَّانيَّةُ -قُدرتي على التَّفكير بموضوعيَّة التي تمنعني من التَّفكير في نَفْسي- فإنَّها تعاني من أزمة ثقةٍ، على شاكلة جميع الفضائل والرَّذائل على حدٍّ سواء. ثُمَّ أتساءل بشأن قُدرتي على النَّجاة، وحضوري الجبان هُنَا بين هؤلاء البشر، على أُسس المساواة التَّامَّة، في انسجام حقيقيٍّ مع أوهامهم السَّخيفة كلِّها. وجميع الحلول التي تفتَّقتْ عنها مخيَّلتي تومضُ على عقلي مثل أشعَّة تلوح من منارة بعيدة: انتحارٌ، طيرانٌ، زُهدٌ؛ خلاصة القول: الإيماءات الأرستقراطيَّة الكبرى لفردانيَّتنا، العباءة- و- الخنجر للوجود[203] الذي على شاكلة وجودي، حيث لا شُرفات نصعد إليها.

ولكنَّ جولييت المثاليَّة الموجودة في الواقع الأمثل قد أغلقت النَّوافذ العالية للخطاب الأدبيِّ على روميو المُتخيَّل في دمي. تطيعُ والدها، وهو يطيع والده. والمبارزة التي دارت بالسُّيوف بين عائلة مونتاغو وعائلة كاپوليت مازالت دائرة؛ تُسدل السِّتارة على الذي لم يَحدُث؛ وياقةُ زميلي في المكتب قد ظهرتْ بعفويَّةٍ فجأةً حول رقبة شاعرٍ، وحذائي الذي دائماً ما أشتريه من المتجر ذاته يتفادى بالفطرة بركَ مياه المطر الباردة، فأعود إلى المنزل (إلى تلك

(203) تستخدم جول كوستا، هُنَا، عبارة cloak-and-dagger (العباءة والخنجر: وهي عبارة تستخدم للإشارة إلى الحكايات/الأحداث المليئة بالمغامرات والسِّحر وقصص الغدر والخيانة والتآمر) أو ما يعرف، أيضاً، باسم الـ «Swashbuckler» (حكاياتِ المغامرين الطَّائشين)، في مقابل عبارة پِسُوَّا «o capa e espada»، التي تعني حرفيّاً «العباءة والسَّيف»، ولكنها تنسحب في استخدامها على المعنى أعلاه. وقد آثرت استخدام العبارة مثلما هي في الأصل، دون أيِّ تأويل، سيراً على نهج جول كوستا، وپِسُوَّا نفسه. ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ پِسُوَّا يستخدم كلمة «الوجود» بصيغة الجمع في إشارة منه إلى أنَّ لكل شيء وجوداً مستقلاً بذاته. (المترجم)

الغرفة حيث مالكةُ المنزل الغائبة الخسيسةُ في الواقع خِسَّةَ الأطفال الذين يُشاهَدون لماماً وزملاء المكتب الذين سوف أقابلهم ثانيةً في الغد)، مُوجساً خِيفةً بأنَّني قد أفقدُ شمسيَّتي وجلالَ روحي على حدٍّ سواء.

221

[21 فبراير 1930]

فجأةً، كأنَّ القدَر قد باتَ جرَّاحاً، ثُمَّ أجرى بنجاح ساحق عمليَّةً لعمىً قديم، رفعتُ عينيَّ من حياتي المجهولة إلى المعرفة الواضحة لطريقة وجودي. أرى أنَّ كلَّ شيء فعلته، وكلَّ شيء فكَّرتُ فيه، وكلَّ شيء كُنْتُه، ضربٌ من الوهم والجنون. أتعجَّبُ من أنَّني لم أرَ ذلك من قَبْل. يدهشني كلُّ شيء كُنْتُهُ ويدهشني أنَّني أرى في هذه الأثناء أنَّني لم أكنه.

أنظرُ إلى حياتي الماضية كما لو كانت سهلاً ممتداً تحت شمس تشرقُ للتوِّ عبر السَّحاب، فأرى، تعتريني صدمةٌ غيبيَّة، كيف أنَّ جميع إيماءاتي الأشدَّ تحقُّقاً، وجميع أفكاري الأشدَّ وضوحاً ومقاصدي الأشدَّ منطقيَّةً، لم تكُن بعد كلِّ شيءٍ إلَّا سُكْراً فطرياً، وجنوناً طبيعياً، وجهلاً هائلاً. فلقد كنتُ الإيماءاتِ فحسبُ، وليس المُمثِّل.

كلُّ شيء فعلته، أو فكَّرتُ فيه أو كانَ، بدا متواليةً من خُضُوع إمَّا إلى كيانٍ باطل اتَّخذتُه ليكون نَفْسي، لأنَّ جميع أفعالي قد صدرت عنه؛ وإمَّا إلى قوَّةِ ظَرْفٍ اتَّخذتُه ليكون الهواء الذي تنفَّستُه. ثُمَّ أغدو، فجأةً، في لحظة الرُّؤيا هذه، شخصاً متوحِّداً يُدرك أنَّه قد نُفيَ من البلد التي طالما عَدَّ نَفْسه مواطناً فيها. فَلَمْ أَكُنِّي في جوهر كلِّ شيء فكَّرتُ فيه.

يستبدُّ بي رعبُ الحياة المُتهكِّم؛ الكآبةُ التي تفيضُ عن حدود كينونتي الواعية. أعرفُ أنَّني لم أكُنِ قَطُّ إلَّا خطأً أو غلطة، أنِّي لم أَعشِ بتاتاً، وأنِّي لم أُوجَد إلَّا بمعنى أنَّني قد ملأتُ الوقتَ بالوعي والفكر. وإنِّي أُحسُّ نَفْسي إحساسَ شخص يمشي بعد نوم طافح بأحلام حَقَّة، أو مثل شخص حرَّرته هزَّةٌ أرضيَّة من الضَّوء الكليل للسِّجن الذي تعوَّد عليه.

شديدةُ الوطأة عليَّ هذي الفكرةُ الفجائيَّة عن الطَّبيعة الحَقَّة لكينونتي الفردانيَّة التي لم تفعل شيئاً إلَّا الشُّروع في رحلات وسنانةٍ بين ما شعرتُ به وما قد رأيتُه، شديدةُ الوطأة عليَّ كأنَّها حُكمٌ ليس بالإعدام وإنما بالمعرفة.

من الصَّعب جداً وصف الشُّعور الذي ينتاب المرء حين يشعر المرءُ بأنَّه غير موجودٍ وأنَّ الرُّوح كينونة حَقَّةٌ، وأنَّني لا أعرف أيَّ الكلمات البشريَّة أستطيع استخدامها لتعريف هذه الكينونة. لا أعرف إنْ كانت الحُمَّى تنتابني حين أشعرُ أمْ أنَّني شُفِيتُ أخيراً من حُمَّى سِنَةِ النَّوم التي تأخذُني عبر الحياة. نعم، إنَّني أُشْبِهُ رحَّالةً يجد نَفْسه فجأةً في بلدة غريبة ولا فكرة لديه كيف وصل إلى هُنَاك، فأتذكَّرُ بعض حالات فقدان الذَّاكرة؛ أولئك الذين، حين فقدوا ذاكرة حيواتهم السَّابقة كلَّها لوقتٍ مديد، عاشوا مثلما يعيش الآخرون. ولقد كنتُ شخصاً آخر، سِنينَ عدَّةً -منذ الوقت الذي ولدتُ فيه وبِتُّ كينونةً واعية- والآنَ أستيقظُ فجأةً لأجد نَفْسي واقفةً في منتصف الجسر، ناظرةً إلى النَّهر، عارفةً بإيجابيةٍ أكثرَ من أيِّ وقت مضى أنَّني موجودٌ. ولكنَّني لا أعرف المدينة، الشَّوارع جديدة عليَّ والغثيانُ عُضَالُ. أنتظرُ، مُتَّكِئاً عل الجسر، أن تمرَّ الحقيقة كي أستطيع استعادة نَفْسي العَدَمَ، الخيَّاليَّة، البصيرةَ، الطَّبيعيَّة.

لم يَدُم ذلك إلَّا لحظةً وهَا قَدِ انقضَتِ الآن. أرى الأثاث من حولي، والرَّسمَ على ورق الجدران العتيق، والشَّمسَ عبر زجاج النَّوافذ المُغبرِّ. رأيتُ الحقيقةَ بُرهةً. فكنتُ، لبرهةٍ واعيةٍ، ما يكونُه البشر العِظَامُ طيلة حيواتهم. أتذكَّرُ أفعالهم وكلماتهم، فأتساءلُ إنْ كان أيضاً قد أغواهُمُ الواقعُ الشَّيطانُ فاستسلموا له. لا بُدَّ ألَّا يعرف المرءُ شيئاً عن نَفْسه كي يعيش. ولا بُدَّ أن يُفكِّر كي يعرفَ القليل عن نَفْسه. فالتعجُّل في معرفة النَّفْس، مثلما فعلتُ في لحظة الإشراق الصَّافي تلك، هُوَ القبضُ على فكرة لايبنتس[204] الدَّائرة حول الجوهر الفَرد المسيطر، الكلمة السِّحريَّة للروح. ضوءٌ فجائيٌّ يسفع كلَّ شيء ويُبدِّده، يُجرِّدنا عراةً حتَّى من أنفسنا.

لم تكُن إلَّا لحظةً واحدةً، ولكنَّني رأيتُ نَفْسي، ولا أستطيع حتَّى أن أقول في هذه الأثناء ماذا كنتُ. بَيْدَ أنَّني أشعرُ بالنَّعاس، بعد كلِّ شيء، لأنَّني أظنُّ -على الرَّغم من أنَّني لا أعرف لماذا حقاً- أنَّ معنى ذلك كلِّه هُوَ أن أنام، ليس إلَّا.

(204) غوتفريد فيلهلم لايبنتس Leibniz: فيلسوف وعالم رياضيَّات ألماني. (المترجم).

[14 مارس 1930]

الصَّمتُ المنبعث من صوت سقوط المطر ينتشرُ في حِدَّة تعاظُم الرَّتابةِ الكئيبة على طول الشَّارع الضَّيِّق الذي أُحدِّقُ في الأسفل إليه. أنامُ على قدميَّ، مائلاً إلى النَّافذة، كأنْ لا شيءَ آخر في العالَم. أبحثُ عن نَفْسي كي أعرف المشاعرَ التي كانت لديَّ قبل هذا السُّقوط المُتنسِّل لمياهٍ داكنة، نيِّرة، تتجلَّى واضحةً على الواجهات المُتَّسخة، حتَّى إنَّها أوضح على النَّوافذ المفتوحة. لا أعرف بماذا أشعر، ولا أعرف بماذا أُريد أن أشعرَ، ولا أعرف بماذا أفكِّر ولا أعرف ماذا أنا.

وأمامَ عينيَّ القاسيتَيْن، المرارةُ المكبوتة لحياتي برمَّتها تتقشَّرُ من على بذلة الفرح الطبيعيِّ التي ترتديها في العشوائيَّة اليوميَّة المديدة. أُدرك أنَّني دائماً حزينٌ، مهما شعرتُ في الغالب أنَّني سعيد أو راض. وبعضي الذي يُدرك ذلك يقفُ ورائي قليلاً، كأنَّه يميلُ عليَّ وأنا واقفٌ عند النَّافذة، ويُحدِّقُ إلى الخارج، بعينَيْن أكثر نفاذاً من عينيَّ، مِن فوق كتفي، ومن فوق رأسي، على المطر المتموِّج خفيفاً على مهله، الذي يُحرِّمُ الهواءَ البنيَّ الشِّرير.

لا بُدَّ للمرء أن يتخلَّى عن الواجبات جميعاً، حتَّى تلك التي لم تُطلَب منَّا، وأن يرفض جميع البيوت الدَّافئة المريحة، حتَّى تلك التي ليست لنا، وأن يعيش على كلِّ ما هُوَ غامض وأثريٌّ، بين أُرجوانيَّات الجنون الباذخة والدَّانتيلَّا الخياليَّة للبَهاءاتِ المُتخيَّلة... أن يكون شيئاً لا يشعرُ بوطأة المطر في الخارج، أو ألم الخواء الجوَّانيِّ... وأن يطوفَ بلا روح، وبلا أفكار، مُجرَّدَ إحساس صافٍ غير شخصيٍّ، على طول طرق جبليَّة ملتوية وعبر أودية مخبوءة بين تلال مُتحدِّرة؛ بعيداً، وشارداً، وقليلَ البخت... وأن يفقدَ نَفْسه في مناظر طبيعيَّة تشبه اللَّوحات. أن يكون عدَماً في المسافة البعيدة وفي الألوان...

آمناً خلف زجاج النَّوافذ، لا أشعرُ بهبَّة الرِّيح الخفيفة التي تُمزِّقُ سقوطَ المطرِ العموديَّ وتُشظِّيه. وثمَّة ناحيةٌ من السَّماء تصفو في مكان ما. أعرفُ ذلك، فخلفَ النَّافذة التي نُظِّفَ نصفُها في الجهة المقابلة تماماً، أستطيع رؤية الرُّزنامة على الجدار التي لم أستطع رؤيتها من قَبْلُ.

أَنسى. أَكفُّ عن الرُّؤية، أكفُّ عن التَّفكير.

يكفُّ المطرُ، ولكنَّه يتوانى برهةً أطولَ في غيمةٍ من أحجار ماسٍ صغيرة كأنَّها فتات خُبزٍ نُفِضَ عن مفرش الطَّاولة الأزرق العظيم في مكان ما في الأعالي هُنَاك. تستطيعُ في هذه الأثناء أن تشعر بأنَّ بعض السَّماء قد بات أزرقَ للتوِّ. أستطيعُ أن أرى الرُّزنامة في النَّافذة المقابلة أوضحَ الآن. إنَّها تحملُ وجه امرأة فأتقرَّاهُ لأعرف أنَّه إعلانٌ عن معجون الأسنان الأشهَرِ قاطبةً.

ولكن، ما الذي كنتُ أُفكِّرُ فيه قبل أن أفقدَ نَفْسي في النَّظَر؟ لا أعرف. الإرادة؟ الجهد؟ الحياة؟ أستطيع القول، من الضوء المنتشر، إنَّ السَّماء لا بُدَّ أن تكون قد عادتْ زرقاءَ تماماً مرَّة أخرى أو تكادُ. بَيْدَ ألَّا سكينةَ -ولن تكون ثمَّةَ سكينةٌ أبداً!- في أعماق قلبي، البئرِ العتيقة في الطَّرف القصيِّ من العِزبة التي بِيعَتْ منذ زمانٍ، ذاكرةِ طفولتي الحبيسة تحت الغبار في عُلّيَّة منزل شخص آخر. لا سكينةَ ولا حتَّى رغبة -واحسرتاه!- في العثور عليها...

223 (205)

أرى المناظر الطَّبيعيَّة التي حلمتُ بها واضحةً وضوحَ المناظر الطَّبيعيَّة الحَقَّة التي أراها. وأميلُ على شيءٍ حَقٍّ، حين أميلُ كي أنظر في أحلامي. وإنَّني أحلمُ بشيءٍ، حين أرى الحياةَ تمرُّ.

ولقد قال شخصٌ عن شخص آخر إنَّ الذين يراهم في أحلامه لا يختلفون عنده البتَّة عن الذين يراهم في الحياة الحَقَّة. أستطيع تفهُّم الشَّخص الذي قد يقول تلك الكلمات بعينها عنِّي، ولكنَّني لن أُوافق. فالنَّاس الذين في أحلامي ليسوا النَّاس ذاتهم الذين في الحياة الحَقَّة؛ إنَّهم موازون لهم. فكلُّ حياةٍ -حياةِ الأحلام وحياةِ العالَم على حدٍّ سواء- تمتلكُ واقعَها الخاصَّ، الواقعَ ذاتَهُ، ولكن بصورة مختلفة. على شاكلة الأشياء التي هي قريبة والأشياء التي هي بعيدة. فالنَّاس الذين في أحلامي أقربُ إليَّ، ولكنَّهم [...]

(205) لا ذِكر، هُنَا، لتاريخ مُحدَّد؛ سواء في طبعة جول كوستا هذه، أو في طبعة پيسارُو. وهذه الشَّذرة، في الأصل، مضروبة بالحبر البنفسجيِّ على الآلة الكاتبة، ما عدا عبارة أضافها بخطِّ يده قبل الجملة الأخيرة. ولم يُدوِّن عليها بِسُوًا أيَّ تاريخ، على غير عادته في النصوص التي يرقنها على الآلة الكاتبة، مكتفياً فقط بالإشارة إلى أنَّها جزء من كتاب القلق، ولكنَّ الدَّارسين يرجِّحون أنَّها تعود إلى العام 1930. (المترجم)

224

[23 مارس 1930]

ثمَّة شيء يُسمَّى تعبُ الفطنة المُجرَّدة، التَّعب الأفظعُ الذي تقشعِّر له الأبدانُ. لا تشتدُّ وطأته عليكَ كالتَّعب الجسديِّ، ولا يُكدِّرك مثل تعب المشاعر. إنَّه الوعيُ بوطأةِ العالَمِ كُلِّه، وعجزُ الرُّوح عن التَّنفُّس.

إذَّاكَ، في تلك اللَّحظة، تكون كلُّ فكرةٍ جرَّبنا بها الحياةَ، وكلُّ طموح وخطَّة بنينا عليهما آمالنا في المستقبل، قد مُزِّقَتْ كُلَّ مُمزَّقٍ، وقُطِّعتْ كُلَّ مُقطَّع، كأنَّها غيماتٌ ذرَّتها الرِّيحُ، فتُحمَل بعيداً كبقايا السُّدُم الرَّماديَّة، وأطمارِ الذي لم يكُنِ البتَّةَ ولا الذي يُمكن أن يكون. ثُمَّ تنهضُ، في أعقاب تلك الهزيمة، العزلةُ السَّوداء العنيدة؛ عزلةُ السَّماء المهجورة المرصَّعة بالنُّجوم، بكلِّ صفائها.

يُوجعنا سرُّ الحياة ويُخيفنا بطرائق عدَّة. يأتي إلينا في بعض الأحيان وهماً شبحياً، التَّجسيدَ الوحشيَّ للعدَم، فترتعدُ أرواحنا رعدةَ الخوف الرَّهيب. ويكمنُ خلفَنا، في أوقات أخرى، فلا يُرَى إلَّا حين لا نلتفت كي نراهُ - إنَّها الحقيقة الكاملة في رعب عجزنا عن معرفته.

ولكنَّ الرُّعبَ الذي يؤلمني اليوم أقلُّ نُبلاً وأكثرُ تدميراً على حدٍّ سواء. إنَّه توقٌ ألَّا أُفكِّر، رغبةُ ألَّا أكون أيَّ شيء بتاتاً، القنوطُ الواعي في كلِّ خليَّة من روحي. إنَّه الإحساس الفجائيُّ بأنِّي حبيسُ سجنٍ لانهائيٍّ. فأين المفرُّ؟ لا يستطيع المرءُ حتَّى التَّفكير في ذلك مادامت الزِّنزانة هي كلُّ ما هُوَ موجود؟

ثُمَّ تستبدُّ بيَ رغبة عبثيَّةٌ لا تُقهَرُ؛ نزعةٌ إبليسيَّةٌ سبقَتْ وجود إبليس نَفْسه، بأنَّنا قد نعثرُ ذات يوم -ذات يوم خارج الزَّمن والمادَّة- على طريق الهروب أبعدَ من الله حتَّى يكفَّ الشَّيءُ الذي يكوِّن الجزءَ الأعمق من أنفسنا، بصرف النَّظر عمَّا يكونُ، أن يكفَّ تماماً (على الرَّغم من أنَّني لا أعرف كيف) عن المشاركة في الوجود أو العدَم.

225

[نحو 23 مارس 1930]

ولأني لا شيءَ لديَّ لأفعله، ولا أُفكِّر حتَّى في أن أفعل شيئاً، أخطُّ على هذه القصاصة

وصفاً لمثاليَ الأعلى:

حاشيةٌ[206]:

حساسيةُ[207] مالارمي بأسلوب ڤييرا؛ أن أحلم مثل ڤرلين في جسد هوراس؛ وأن أكون هوميروس وقتَ ضوء القمر.

أن أشعر بكلِّ شيء بالطرائق الممكنة جميعاً؛ أن أكون قادراً على التَّفكير بالمشاعر والشُّعور بالعقل؛ وألَّا أرغب كثيراً في شيء إلَّا ما ترغب فيه المخيِّلة؛ أن أُعاني بدلالٍ؛ وأن أرى بوضوح كي أكتب على وجه الضَّبط تماماً؛ أن أعرف نَفْسي بالمحاكاة والتَّكتيك؛ أن أغدو حيادياً كشخص مختلف تماماً، وفي حوزته جميع الوثائق الصَّحيحة؛ خلاصة القول: أن أُجرِّب جميع الأحاسيس التي فِـيَّ، أن أُجرِّدها من الإله، لكنَّني أَلُفُّها ثانية وأعيدها إلى ڤترينة المتجر مثلما يفعل موظف المبيعات المساعد الذي أستطيع رؤيته في هذه الأثناء، مع العلب الصَّغيرة لنوع ورنيش الأحذية الجديد.

ولسوف تذهب هذه المُثُل العليا أدراجَ الرِّياح جميعاً، سواء أكانت ممكنة أم مستحيلة، وإنْ كانت ثمَّة أُخَرُ، فقد نسيتُها. فها هي الحقيقة الواقعيَّة ماثلة أمامي - وإنَّه ليس حتَّى موظف المبيعات المساعد، وإنَّما المخلوق المنعزل الذي أرى يديه، والمجسُّ العبثيُّ لروحٍ تمتلكُ عائلةً وقدَراً وهو يقوم بإيماءات عنكبوت بلا بيت حين تصل إلى الڤترينة المقابلة.

ثُمَّ سقطتْ إحدى العُلَب، مثل حاشيتي هذه.[208]

---

(206) كأنَّ بِسُوَّا، هُنَا، يكتفي بإيراد «حاشيةٍ» على «مَتْنٍ» غير موجود أصلاً؛ كأنَّ «مثاله الأعلى» مجرَّدُ «حاشية على متن الزَّمن»، ولقد اختلفت الطبعات البرتغاليَّة الرَّئيسة في «الشَّكل الطِّباعي» الذي أوردتُ فيه كلمة «حاشية apontamento»، التي هي مفتاح القول كلِّه. فقد أوردتها سوبراو كونيا (المقطع 479) في سطر وحدها متبوعة بنقطتَيْن رأسيَّتَيْن، للتأكيد أنَّ القول كلَّه الذي يورده بِسُوَّا في هذه الشَّذرة يندرج تحت الحاشية؛ وعلى منوالها سار زينيث في طبعته (المقطع 131) بوضعها في سطر وحدها، ولكن دون نقطتَيْن رأسيَّتَين. في حين ذهب برادو كويلو (المقطع 30) إلى إلحاقها بآخر الجملة التي افتتح بها بِسُوَّا الشَّذرةَ، فاصلاً بينها وبين كلمة «مثالي الأعلى» بشرطة كبيرة؛ وعلى نهجه سار پيسارُو (المقطع 230)، ولكنَّ جول كوستا توردها، هنا، خلافاً لنهج پيسارُو (الذي تعتمد على طبعته في ترجمتها هذه) فوضعتها في سطر وحدها وبعدها نقطة نهائيَّة. ولكنني آثرتُ وضع نقطتَيْن رأسيَّتَيْن بعد الكلمة، خلافاً لنهج جول كوستا، منعاً لأيِّ غموض. (المترجم)

(207) رقَّة الشُّعور ورهافة الإحساس. (المترجم)

(208) وهُنا، أيضاً، مثال واضح آخر، على «تعدُّد» قراءات خطِّ بِسُوَّا المتداخل بعضه في بعض، من طرف أولئك الدَّارسين الذين عكفوا طويلاً عن فكِّ «شفرته»، فنجد اختلافاً واضحاً في صياغة هذه الجملة في الطبعات البرتغاليَّة الرَّئيسة، حيث وردت، في طبعة برادو كويلو (المقطع 30) وطبعة زينيث (المقطع 131) على حدٍّ سواء، على هذه الشَّاكلة: E

226

[نحو 23 مارس 1930]

كان صبيُّ المكتب يحزمُ الطُّرود اليوميَّة في البرودة الغسقيَّة للمكتب الرَّحب، ثُمَّ قال «أَصغِ إلى صوت الرَّعد»، قالها بصوت عالٍ طافح بالبهجة، ليسَ إلى أحد بعينه، كأنَّ الأزعرَ الشَّقيَّ كان يقول «صباح الخير». راح قلبي يخفق ثانيةً، فلقد مرَّت نهايةُ العالَم. كانت ثمَّة سَكْتَةٌ أكَّدتْ حدوثَها خربشةُ القلم.

فبأيِّ راحةٍ -برقٍ ساطع، سَكْتةٍ، هزيم- أراحَنا ممَّا كانَ ذلك الرَّعدُ، الذي باتَ في هذه اللَّحظة قاب قوسَيْن أو أدنى، وهَا هُوَ الآن يبتعدُ. كان الإله ينسحبُ. شعرتُ نَفْسي تملأُ رئتيَّ. فلاحظتُ كم كان المكتب هادئاً. ولاحظتُ أيضاً وجود أشخاص آخرين، بالإضافة إلى صبيِّ المكتب. كانوا غارقين في الصَّمت، ثُمَّ تعالى صوتٌ واضح ومرتعش؛ صوت الصَّفحة الكبيرة والسَّميكة من دفتر الحسابات التي قلبها مُوريرا فجأةً وهو يتحقَّقُ من بعض الأرقام.

227

[24 مارس 1930]

أعدتُ، والكسلُ يجتاحني، قراءةَ تلك الأبيات البسيطة التي نظمها كَآيْرُو[209]، الخلاصةَ الطَّبيعيَّة التي خلص إليها مُتأمِّلاً صِغَر قريته، مُستقياً منها ما شعرتُ أنَّهُ ملهم ومُحرِّرٌ على حدٍّ سواء. يستطيع المرء، بالنِّسبة إلى كآيرو، أن يرى المزيدَ من العالَم، في قريته الصَّغيرة، أكثر ممَّا يستطيع أن يراه في المدينة، وبذلك المعنى تكون قريته أكبر من المدينة...

لأنَّني بحجم ما أراهُ

وليسَ بحجم قامتي.[210]

---

uma das latas cahiu, como o Destino de toda a gente (= **ثُمَّ سقطتْ إحدى العُلَب، مثل قدَرنا جميعاً**)؛ في حين نراها في كلٍّ من طبعة سوبراو كونيا (المقطع 479) وطبعة پيسارُّو (المقطع 230) على هذه الشَّاكلة: E uma das latas caiu, como este meu apontamento (= **ثُمَّ سقطتْ إحدى العُلَب، مثل حاشيتي هذه**) وهي الصِّيغة التي أوردتها جول كوستا في صنعتها الإنگليزيَّة هذه. ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ زينيث يذكر في إحدى حواشيه الختامية أنَّ العبارة الأخيرة تحتمل القراءتَيْن، «**مثل قَدَرِنا جميعاً**» و«**مثل حاشيتي هذه**»، على حدٍّ سواء. (المترجم)

(209) يقصد ألبيرتو كَآيْرُو Caeiro، أحد الأنداد الشُّعراء الذين أوجدهم پِسُوَّا. (المترجم)

(210) هذان البيتان مستلَّان من القصيدة السَّابعة من ديوان كَآيْرُو «**راعي القطيع** O guardador de Rebanhos». (المترجم)

ولقد خلَّصتني أمثال تلك الأبيات، التي تبدو أنّها قد ظهرت إلى الوجود عَفْوَ الخاطر كأنَّ إملاءَها لم يتطلَّب أيَّ إرادة بشريَّة، من جميع الغيبيَّات التي أضفتُها عَفْوَ الخاطر إلى الحياة. أذهب، بعد قراءتها، إلى النَّافذة التي تطلُّ على الشَّارع الضيِّق. أنظرُ إلى السَّماء العظيمة والنُّجوم الكثيرة والأجنحة الخفَّاقة لحريَّةٍ بهيَّة ترجُّ جسدي كُلَّه.

وكلَّما فكَّرتُ في عبارة «أنا بحجم ما أراه!»، بأعصاب كينونتي كلِّها، تملأُني إيماناً راسخاً بقدرتها على إعادة تنظيم السَّماوات في بُروج جديدة. «أنا بحجم ما أراه!». فأيُّ طاقة ذهنية تنبجسُ من بئر المشاعر العميقة صاعدةً إلى النُّجوم العاليات التي تعكس صورتَها وتسكنُ فيها على نحو ما.

أنظرُ، في هذه الأثناء تماماً، واعياً بقدرتي على الرُّؤية، إلى الغيبيَّات الموضوعيَّة الشاسعة للسَّماوات بيقينٍ يجعلني راغباً في الموت مُنشداً: «أنا بحجم ما أراهُ!». وضوءُ القمرِ الغامضُ، الذي لي أنا وحدي تماماً، يبدأُ بغموضه في تشويه زُرقة الأفق التي قتَّمَتْ أو تكادُ.

أشعرُ كأنَّني أُطوِّحُ ذراعيَّ، صارخاً بعبارات همجيَّة لم يُسمَع بها من قَبْلُ، أُطارحُ الأسرارَ العلويَّة الكلامَ، مُعلناً للفضاءات الشاسعة من المادَّة الفارغة وجودَ شخصيَّة جديدة مترامية الأطراف.

ولكنَّني أتمالكُ نَفْسي فأُهدِّئ من روعها. «أنا بحجم ما أراهُ!». مازالت العبارة تملأُ روحي كلَّها، فأُريحُ عليها مشاعري كلَّها، والسَّكينةُ الطِّلسمُ لضوء القمر القاسي الذي بدأ بالانتشار حين حلَّ اللَّيلُ، قد نزلتْ عليَّ وفِـيَّ، مثلما على المدينة الأبعد.

228

[29 مارس 1930]

كانت السَّماء المعتمة، جنوبيَّ نهر تيجو، سوداءَ تُنذِر بشرٍّ، على النَّقيض من الأجنحة البيضاء الزَّاهية لطيران النَّوارس القَلِق. ولم تكُن، رغم ذلك، أيُّ عاصفة بَعْدُ. انتقل التَّهديد الخطير للمطر إلى الضِّفة المقابلة، وبَايْشَا التي ماتزال نديَّةً من زخَّة مطر قصيرة، قد تبسَّمتْ من الأرض لسماءٍ شاحبة كانت تستحيلُ زرقاءَ ثانيةً، على مهلها، جهةَ الشِّمال. وكانت ثمَّة رعشةُ بَرْدٍ تسري في هواء الرَّبيع البارد.

أُحبُّ، في هذه اللَّحظات الفارغة التي لا يُسبَر غورها، أن أُوجِّهَ أفكاري إلى تأمُّلٍ هُوَ لا شيء في حدِّ ذاته، ولكنَّه يحتفظ في شفافيته الفارغة بشيءٍ من البرد المتوحِّد للنَّهار المشرق بخلفيَّته التي من غيوم سوداء بعيدة وبعض المشاعر البديهيَّة التي تستحضر، مثل النَّوارس على سبيل التَّناقُض، سرَّ جميع الأشياء في الدَّيجور.

ثُمَّ، فجأةً، على النَّقيض من مقاصدي الأدبيَّة الشخصيَّة، تستحضر السَّماء السَّوداء التي في الجنوب سماءً أخرى -ولا أعرف إنْ كانت تلك ذكرى متخيَّلة أم حقيقيَّة- سماءً ربَّما تُرَى في حياة أخرى، فوق نُهيْر في الشَّمال طافح بقصب حزين وبعيد عن أيِّ مدينة. ودون أن أعرف كيف ولماذا، ينتشر على مهله منظرٌ طبيعيٌّ من بطٍّ بريٍّ عبر مخيَّلتي فأشعرُ، بوضوح حُلم غريب، أنَّني قريب جداً من المشهد المُتخيَّل.

وفي أرض القصب والأَسَل هذه، قُرب ضفاف الأنهار -الأرض التي خُلِقتْ للصيَّادين والخوف- تندفعُ الضِّفاف المثلَّمةُ إلى الخارج مثل نتوءات صغيرة متَّسخة في المياه الصَّفراء الرَّصاصيَّة ثُمَّ تتراجع كي تُشكِّل خلجاناً موحلة لقوارب صغيرة كالدُّمى، وشواطئَ تلمعُ فيها المياه على سطح الوحل المطمور بين السِّيقان السَّوداء المُخضَّرة للأَسَل الكثيف كثافةً تحول دون المرور من خلاله.

الخرابُ خرابُ سماء رماديَّة ميِّتة تنهارُ، هُنَا وهُنَاك، غيوماً أشدَّ سواداً من سوادها. وثمة ريحٌ تهبُّ، على الرَّغم من أنَّني لا أُحسُّ بها، فأرى أنَّ مَا ظننتُه الضِّفة الأخرى هُوَ، في الحقيقة، جزيرةٌ طويلة يستطيع المرءُ أن يُبصر خلفَها، في المسافة المُنبسطة عبرَ النَّهر العظيم المُتوحِّد، الضِّفَّةَ الأخرى؛ الضِّفَّةَ الحَقَّة.

لا أحدَ يذهبُ إلى هُنَاك، ولن يذهب أحدٌ أبداً. ولكنَّني أستطيع، عبر طيران عكسيٍّ في الزَّمان والمكان، الهروبَ من هذا العالَم إلى ذلك المنظر الطَّبيعيِّ، ولن يستطيع أحدٌ سواي الذَّهاب إلى هُنَاك على الإطلاق. سأنتظرُ بلا جدوى شيئاً لا أعرفه ورغم ذلك أنتظره، ولن يكون في النِّهاية إلَّا الهبوط البطيء لليل يكتسبُ فيه كلُّ شيء، على مهلٍ، لونَ الغيوم الأشدَّ سواداً، ثُمَّ يفقد نَفْسه رويداً رويداً في امِّحاء السَّماء.

ثُمَّ فجأةً، هُنَا، أشعرُ بالبرد قادماً من هُنَاك. ينزُّ في جسدي مِن عظامي. تنفَّستُ عميقاً ثُمَّ صحوتُ. نظر إليَّ الشَّخصُ، الذي مرَّ بي في الممرِّ المقنطر قُرب البورصة، بريبةٍ مُحيِّرة.

والسَّماء السَّوداء، التي باتتْ أشدَّ سواداً في هذه الأثناء، مازالت تتدلَّى واطئةً فوق الشَّاطئ الجنوبيِّ.

229

[نحو 4 أبريل 1930] (211)

لا أجدُ السَّكينة، مهما انتميتُ في روحي إلى الرُّومانسيِّين، إلَّا في قراءة الأعمال الكلاسيكيَّة. فتعصُّب الكلاسيكيِّين، الذي يعبرون من خلاله عن وضوحهم، يجلب لي نوعاً من الرَّاحة. أخذت عنهم ذلك الإحساس الذي يشرح الصَّدر بوجود حياة هائلة تطلُّ على فضاءات فسيحة دون أن أجازف حتَّى في ارتيادها، فحتَّى آلهةُ الوثنيِّين ترتاحُ هُناك من الغموض.

تحليلٌ للمشاعر مُفرِطٌ في فضوله -مُخيِّلةٌ صافية في بعض الأحيان- مماثلةُ القلب بالمنظر الطَّبيعيِّ، والتَّعريةُ التِّشريحيَّة للأعصاب، واستبدالُ الإرادة بالرَّغبة والفكر بالإلهام - كلُّ هذه الأشياء مألوفةٌ جداً كي تبدو غيرَ مألوفةٍ في كلمات شخص آخر أو كي تجلب لي السَّكينة. أتمنَّى، كلَّما شعرتُ بها، لأنَّني لا أشعرُ بغيرها البتَّة، لو أنَّني كنتُ أشعر بشيء آخر. وقراءة أعمال مؤلف كلاسيكيٍّ يمنحني ذلك الشَّيء الآخر.

أعترف بهذا صراحةً ودون خجل... فلا توجَد فقرةٌ من أعمال **شاتوبريان**، ولا قصيدةٌ غنائيَّة من أشعار **لامارتين** -فقرات تبدو في الغالب أنَّها تُعبِّر عن أفكاري، وقصائد غنائيَّة تبدو في الغالب أنَّها قد نُظِمتْ حتَّى أعرفَ ربَّما نَفْسي- تجعلُني أَخِفُّ طَرَباً، محلِّقاً في سماء النَّشوة، مثلما تفعلُ قطعةُ نثرٍ خطَّها **ڤييرا** أو قصيدة غنائيَّة نظمها الكتَّابُ البرتغاليُّون الكلاسيكيُّون القلائل الذين كانوا تلامذة **هُوراس** الخُلَّص.

أقرأُ فأتحرَّرُ. أتجرَّدُ عن أهوائي. أكفُّ عن أن أكون نَفْسي المتغيِّرة. وبدلاً من أن يغدو الذي أقرأه حُلَّةً شِبْهَ مرئيَّة تثقل كاهلي أحياناً، فقد باتَ الوضوحَ العظيم للعالَم الخارجي حيث كلُّ شيء فيه جديرٌ بالملاحظة، الشَّمس التي نستطيع رؤيتها جميعاً، والقمر الذي يحوك نسيجاً من ظلال على الأرض السَّاكنة، الفضاءات الواسعة التي تنفتح على البحر، الرُّسوخ المعتم للأشجار التي تلوِّحُ عالياً بأغصانها الخضراء، السَّكينة الوطيدة للبِرك في الحدائق، والممرَّات

(211) التَّاريخ المدوَّن بخطِّ يد بِسُوَّا على القصاصة الأصليَّة هو الخامس من إبريل 1930، لا كما يرد هُنَا. (المترجم)

الزاخرة بكروم العنب على السُّفوح المصَطبة للتِّلال.

أقرأُ كَمَن تخلّى عن عرش الحياة. ولأنَّ التَّاج والعباءة الملكيَّة لم يبدوا بمثل المهابة التي جلّلَتْهما حين ألقاهما الملكُ الرَّاحل على الأرض، فقد أجلسْتُ على الأرض الفسيفساء لحجرات الانتظار جميعَ الانتصارات السَّابقة لسأمي وأحلامي، وصعِدتُ السَّلالمَ لا شيءَ عليَّ إلَّا نَبَالة الرُّؤية.

أقرأُ كَمَن يصدفُ أنَّهُ قد مَرَّ للتوِّ. ولا أشعرُ أنِّي عابرُ سبيل مُقدَّس، وحاجٌّ مَسِيحٌ[212]، وراءٍ بلا غايةٍ يُحدِّقُ في عالَم بلا غاية، وأميرُ المنفى العظيم الذي يصنع من وحشته، وهو يغادرُ، صَدَقَةً أخيرةً للمتسوِّل الأخير، إلَّا حين أقرأ أعمال الكلاسيكيِّين الذين تغشاهم السَّكينة، ولا يبثُّون لواعجهم حين يعانون.

230

[5 أبريل 1930]

فجأةً، تفتَّقَ ذهنُ الشَّريكِ الصَّامت[213]، وهو رجلٌ يعاني كثيراً من أمراض غامضة، عن فكرةٍ (نزوةٍ تتنابه كما يبدو بين البلاء والبلاء) مُفادها أنَّه راغبٌ في الحصول على مجموعة من الصُّور الفوتوغرافيَّة تُلتَقط لكادر العاملين في المكتب. ولذلك، فقد اصطففنا جميعاً، في اليوم الذي قبل الأمس، بناءً على توجيهات المصوِّر الظَّريف، مستندين إلى الحائل الأبيض المُتَّسخ الذي يُعَدُّ بمثابة فاصل خشبيٍّ مُتقلقل بين المكتب العموميِّ ومكتب السيِّد **ڤاسْكِش**. وقفَ في المنتصف **ڤاسْكِش** بنفسه. وعلى جانبَيْه، وفقَ تراتُبيَّةٍ بدأت منطقيَّة بما يكفي ثم سرعان ما انهارت، وقفتْ أرواحٌ آدميَّةٌ أخرى تجتمعُ هُنَا في كلِّ يوم، بقضِّها وقضيضها، لإنجاز المهامِّ الصغيرة التي لا يعرف سرَّ مقصدها النهائيِّ إلَّا الآلهة.

اليوم، حين وصلتُ إلى المكتب متأخِّراً قليلاً، وقد نسيتُ في الحقيقة تماماً اللَّحظةَ السَّاكنة التي التقطها المُصوِّر مرَّتَيْن، وجدتُ مُوريرا الذي حضر مُبكِّراً على غير عادته وأحد الكتبة يمعنان النَّظر في بعض الأشياء الضَّاربة إلى السَّواد. عرفتُ بدايةً أنَّها النُّسخ المطبوعة الأولى من الصُّور. لقد كانت، في الواقع، نسختين من الصُّورة ذاتها التي تبيَّن أنَّها الأفضل.

---

(212) أي مُسِحَ بالطِّيب أو الدِّهن المُقدَّس؛ وهو الطَّقس المعروف في المسيحيَّة. (المترجم)

(213) الشَّريك الصَّامت (sleeping partner) هو الشَّريك المتضامن غير العامل. والعبارة عند بِسُوَّا في الأصل هي «capitalista»، وتعني: رأسمالي/ثريّ. (المترجم)

ذقتُ ألم الحقيقة حين رأيتُ نَفْسي هُنَاك، فلا بُدَّ أنَّني نظرتُ إلى وجهيَ أوّلاً. لم يَرُق لي مظهري الجسديُّ قَطُّ، ولكنَّني لم أشعر بتفاهتي البتَّة مثلما شعرتُ حينئذ، مقارناً وجهي بالوجوه الأخرى المألوفة لي كثيراً في ذلك الصَّف الذي يضمُّ رفاقي اليوميِّين. بدوتُ يسوعياً مُملًّا. لا يُفصِح وجهي النَّحيل غير المُعبِّر عن أيِّ فطنة، أو حِدَّة، أو أيِّ شيء آخر يجعله مميَّزاً ظاهراً للعيان في مَدِّ الوجوه الأخرى الذي لا حياة فيه. وثمَّة في الحقيقة بعض الوجوه المُعبِّرة هُنَاك. فوجه السيِّد ڤاسكِش مثلما هُوَ في الحياة الحَقَّة بالضَّبط - الوجه الصَّارم، الجدير بالمحبَّة، والنَّظرة الثَّابتة، والشَّاربُ الكثُّ المشدود الذي يضفي عليه رونقه كلَّه. أمَّا حيويَّةُ الرَّجل وذكاؤه -خصيصتان مبتذلتان تماماً، في نهاية الأمر، وتُوجَدان في آلاف الرِّجال الآخرين حول العالم- فمطبوعتان على الصُّورة كما لو كانت جوازَ سفرٍ نفسانياً. يبدو مندوبا المبيعات الجوَّالان في غاية الرَّوعة؛ وظهر الموظف الإداري بصورة جيِّدة، لكنَّ نصف جسده محتجب خلف موريرا. أمَّا موريرا! رئيسي المباشر موريرا، التَّجسيد الحيُّ للرَّتابة والرُّوتين، فيبدو أكثر إنسانويَّةً ممَّا أبدو أنا! وحتَّى صبيُّ المكتب -يخامرني شعور، أعجز عن مقاومته، آملاً ألَّا يكون الحسد- فيمتلك ابتسامةً واضحة يطغى بريقُها على بلادة وجهي الباهتة وعليَّ أنا؛ أبي هول مستودع القرطاسيَّة.

ماذا يعني هذا كلُّه؟ وهل صحيحٌ أنَّ الكاميرا لا تكذب البتَّة؟ وما هذه الحقيقة التي وثَّقَتْها عدسةٌ باردة؟ ومن أنا حتَّى أمتلك مثل ذلك الوجه؟ ثُمَّ خاطبني مُوريرا، فجأة، كأنَّهُ يرشُّ الملح على الجرح: «إنَّها صورة جميلة لك». ثُمَّ قال، وقد استدار إلى مندوب المبيعات الجوَّال: «إنَّها صورة طبق الأصل عنه، أليس كذلك؟». كانت موافقةُ مندوب المبيعات الجوَّال الدَّمثة والبشوشة بمثابة إشارة على نفيي الأخير إلى كوم النِّفايات.

231

[5 أبريل 1930]

شعرتُ اليوم، وأنا أُفكِّرُ في حياتي، أنَّ مخلوقاً حياً قد حُمِلَ في سلَّة على ذراع شخص ما بين محطَّتَيْن في الضَّواحي. إنَّها صورة غبيَّة، حتَّى إنَّ الحياةَ التي تصفها أغبى. وثمَّة غطاءان في العادة لهذه السِّلال؛ كلٌّ منهما نصفُ بيضويٍّ، يرتفعان قليلاً ناحيةَ الطَّرفَيْن المُنحنيَيْن

حين يضطربُ المخلوق الذي في الدَّاخل. ولكنَّ الذِّراع الحاملةَ السَّلّةَ، المُستريحةَ بخفَّةٍ على المُفصَّلات في المنتصف، تسمحُ لمثل هذا المخلوق الضَّعيف أن يفعل أيَّ شيء أكثر من مُجرَّد أن يرفع ذَيْنك الطَّرفَيْنِ سُدىً، كجناحَي فراشة تحتضر.

نسيتُ أنَّني كنتُ أتحدَّث عنِّي حين وصفتُ تلك السَّلَّة. أستطيع رؤيتَها بوضوح، والذِّراعَ الرَّيَّانةَ المسفوعةَ للخادمة التي تحملها. لا أستطيع رؤيةَ إلَّا ذراع الخادمة وشَعرها الزَّغِب. لا أستطيع أن أستريح - ثُمَّ، فجأةً، هبَّ نسيم عليلٌ من... مِن... شرائط الصَّفصاف والقماش تلك التي صُنِعَتْ منها السَّلَّة، حيث أتلوَّى، أنا المخلوق، منقولاً بين تَيْنك المحطَّتَيْن. أستريح، بين المحطَّتَيْن، على ما يبدو أنَّه مقعد، فأسمعُ النَّاس يتحدَّثون في الخارج. المكان هادئ فأنام، حتَّى يرفعوني ثانيةً حين نصل إلى المحطَّة.

232

[6 أبريل 1930]

البيئةُ المحيطة روحُ الأشياء. لكلِّ شيء أسلوبُ تعبيره الخاصّ ولا يأتي ذلك التَّعبير إلَّا من الخارج.

كلُّ شيءٍ مكونٌ من تقاطع ثلاثة خطوطٍ تُشكِّلُ سويَّةً ذلك الشَّيء: مقياسٌ ماديٌّ، الطَّريقة التي نُفسِّر بها الشَّيءَ والبيئةَ المحيطة التي يُوجَد فيها. فهذه الطَّاولة التي أكتب عليها قطعةٌ من الخشب، إنَّها طاولة وإحدى قطع الأثاث، الموجودة في هذه الحجرة، على حدٍّ سواء. ولا بُدَّ لانطباعي عن هذه الطَّاولة، لو اردتُ تدوينَه، أن يتكوَّن من أفكار مختلفة: أنَّها مصنوعة من الخشب؛ وأنَّني أُسمِّيها طاولة وأنسبُ إليها بعض الاستعمالات والغايات؛ وأنَّ الأشياءَ، التي تكتسبُ في حضورها روحَها البرَّانيَّة، مُنعكسةٌ أو داخلةٌ فيها؛ الأشياءَ المفروضةَ عليها، التي تعمل على تحويلها. ولسوف تلاحظ أنَّ اللَّون الذي مُنحَ لها، والطَّريقةَ التي بهت فيه اللَّون، والعُقد والشُّقوق التي تحتويها، نابعة من الخارجي؛ فهذه الأشياء هي التي تمنحُ الطَّاولة روحَها، أكثرَ من طبيعتها الخشبيَّة الفطريَّة. والجوهر الجوَّانيُّ لتلك الرُّوح؛ أن تكون طاولةً، أقصدُ شخصيَّتها، تنبعُ من الخارجي أيضاً.

ولذلك فإنَّني أعتقد أنَّه ليس مجرَّد خطأ بشريٍّ أو أدبيٍّ أن ننسبَ روحاً إلى الأشياء التي نعدُّها جامدةً لا روحَ فيها. فأنْ تكون شيئاً هُوَ أن تكون موضعَ نسبةٍ. فقد يكون من الخطأ القول إنَّ الشَّجرة تشعر، وإنَّ النَّهر يجري، وإنَّ مغيب الشَّمس حزينٌ أو إنَّ البحر الهادئ (الأزرقَ زُرقةَ السَّماء التي لا تحتويه) يتبسمُ (لأنَّ الشَّمس فوقَهُ). ومن الخطأ أيضاً، بالقَدْر ذاته، نسبةُ الجمال إلى شيءٍ، أن ننسب إليه لوناً، وشكلاً، وحتَّى كينونة. فالبحر ماء مالح. ومغيب الشَّمس ليس إلَّا زوال نور الشَّمس عن خطِّ الطُّول هذا وخطِّ العرض ذاك. وهذا الطِّفل الذي يلعب أمامي حزمة من خلايا عقليَّة، ولكنَّه أيضاً ساعةٌ صُنعتْ من حركاتٍ دُونَ ذَرِّيَّةٍ، تكتُّل كهربائيٌّ غريب من ملايين الأنظمة الشَّمسية في مُنَمنَمةٍ ميكروسكوبيَّة.

كلُّ شيءٍ ينبع من الخارجي، وربَّما لا تكون الرُّوح البشريَّة إلَّا شعاعَ نور شمسٍ ينيرُ الأرض فيجتبي كومةَ الرَّوث التي هي الجسد.

وقد تحتوي هذه التأمُّلات المتروِّية بذورَ فلسفةٍ تامَّة لأيِّ شخص يتمتَّع بالقوَّة الكافية لاستنباط الخلاصة منها. ولكنَّني لستُ ذلك الشَّخص. تنتابني أفكارٌ جليَّة، ولكنَّها غامضة، بشأن الاحتماليَّات المنطقيَّة، فيتلاشى كلُّ شيء في رؤية شعاع ذهبيٍّ واحد من الشَّمس التي تشرق على كومة الرَّوث مثل قشَّةٍ معتمة ورطبة ومسحوقة، على الأرض التي تكاد تسودُّ قرب جدار حجريٍّ.

كَذَا أنا. فحين أرغبُ في التَّفكير، أرى. وحين أرغبُ في الخروج من روحي، أتوقَّفُ فجأةً، شاردَ الذِّهن، على الدَّرجة الأولى من الدَّرَج اللَّولبيِّ المُنحدِر، ناظراً خارجَ النَّافذة في الطَّابق العلويِّ إلى الشَّمس الغائبة التي تنيرُ بالذَّهب الأغبرِ فوضى الأسطح المنتشرة.

233

[10 أبريل 1930]

ليست حياةُ الرُّوح الآدميَّة برمَّتها إلَّا حركة في الغسَق. نعيشُ في شفقٍ من الوعي فلا نعرفُ، حَقَّ اليقين، مَن نحنُ أو مَا نظنُّ أنَّهُ نحنُ. وتُوجَد، حتَّى في داخل أفضلنا، بعضُ مشاعر غرورٍ حول شيء بعينه، وبعض خطأٍ لا نستطيع إحصاءَ أبعاده. نحنُ شيء يحدثُ في أثناء فاصل مسرحيٍّ؛ فنلمحُ، أحياناً، عبر أبواب معيَّنة، ما قد يكون المشهدَ، ليس إلَّا. العالمُ

برمَّته مشوَّشٌ، كأصوات في اللَّيل.

أعدتُ للتَّوِّ قراءةَ هذي الصَّفحات التي أكتبُ فيها بوضوح سوف يبقى ما بقيت تلك الصَّفحات، فأسألُ نَفْسي: ما هذا؟ وما جدواهُ؟ ومَن أنا حين أشعرُ؟ وما الذي يموتُ فِيَّ حين أكونُ نَفْسي؟

أنظرُ في الأسفل، مثلَ شخص في أعلى قمَّةٍ يحاول أن يتبيَّن حيوات أولئك الذين يعيشون في الوادي، فأرى نَفْسي، رفقةَ كلِّ شيء آخر، مجرَّدَ منظرٍ طبيعيٍّ مُغبَّش ومشوَّش.

تُحزنني أدنى تفصيلةٍ، كما لو كانت رسالةَ وداعٍ، حين تنغمسُ روحي، إبان أوقات كهذا الوقت، في الهاوية. أشعرُ دائماً كأنَّني في عَشِيَّة يقظةٍ. أُكافحُ، تحت ركام خانقٍ من خَواتيم داخل غطاءٍ خارجي هُوَ أنا. كنتُ سأصرخُ لو خطر ببالي أنَّ أحداً سوف يسمعني. ولكنَّ كلَّ الذي أشعرُ به هُوَ وَسَنٌ عظيمٌ ينقلني من شعورٍ إلى آخر كتعاقُب غيماتٍ؛ التَّعاقُبِ الذي يترك أنماطاً من ضوء شمسٍ وخُضرةٍ على عشب المروج المديدة الذي يكادُ يَحزنُ.

أنا كمثل شخص منهمك في بحث عشوائيٍّ عن شيء لم يصفه لَهُ أحدٌ بَعْدُ. نلعبُ الغُمَّيضة وحدَنا. وثمَّة في مكان ما علَّةٌ متساميةٌ لهذا كُلِّه؛ بعضُ ألوهيَّةٍ سيَّالةٍ تُسمَع ولا تُرَى.

نعم، أُعيد قراءة صفحات السَّاعات الخاوية هذه، صفحات اللَّحظات البسيطة من السَّكينة أو الوهم، صفحات الآمال العظيمة وقد صارت مناظرَ طبيعيَّة، صفحات الأحزان التي تشبه حجرات لا يدخلها أحدٌ، صفحات الأصوات القليلة، والتَّعب العظيم، صفحات الإنجيل الذي لم يُكتَب بَعْدُ.

كلُّ امرئ مَزْهُوٌّ بشيء، وزَهْوُ كلِّ واحد منَّا يكمن في أنَّنا ننسى وجودَ آخرين يمتلكون أرواحاً مثل روحنا. زَهْوِي بضعُ صفحات، بضع فقرات، وشكوك معيَّنة...

هل قلتُ أُعيدُ قراءة هذي الصَّفحات؟ كذبتُ. فأنا لا أجرؤُ على إعادة قراءتها. فما جدوى ذلك بالنِّسبة إليَّ؟ فثمَّة شخص آخر هُنَاك [هُوَ الذي يكتبُ]. لم أَعُد أفهم أيَّ شيء...

[10 أبريل 1930]

أشعرُ بالغثيان في جسدي من البشر العاديِّين، الذين هم، علاوةً على ذلك، الجنس الوحيد الموجود. وأعملُ أحياناً على إثارة ذلك الغثيان، على نحو ما يفعل المرء حين يجعلُ نَفْسه تَقيء أحياناً لكي يستريح من رغبتها في ذلك.

وحين أتوجَّسُ خيفةً، في الصَّباحات، من تفاهة اليوم القادم، كشخص قد يخاف السِّجنَ كثيراً، أُفضِّلُ المشيَ مُتوانياً في الشَّوارع، قبل أن تُفتَح الحوانيت والمتاجر، مسترقاً السَّمعَ إلى نُتَف الأحاديث المتبادلة بين مجموعات من البنات أو الأولاد أو مجموعات من البنات والأولاد التي تسقطُ، مثل صَدَقاتٍ مُتهكِّمة، في صحن الشِّحاذة المرئيِّ لتأمُّلاتي الشَّوارعيَّة.

وإنَّها متواليةُ العبارات ذاتها دائماً... «ثُمَّ قالت حينئذ...» والنَّبرةُ تُلمِح إلى المكيدة القادمة. «لم يكُن هُو، إنَّه أنت...» والصَّوتُ الذي يجيب يرتفع محتَّجاً فلا أعودُ أسمع. «كلَّا، أنت قُلتِ ذلك...» وصوتُ الخيَّاطة الأجش يعلن «أُمِّي تقول إنَّها لا تريد...». «أنا؟» والدَّهشةُ التي عبَّر عنها الصَّبيُّ، الذي يحمل غداءه ملفوفاً في ورق لا تنزُّ منه الدُّهون، لا تقنعني، ولا تستطيع ربَّما أن تقنع الشَّقراءَ الوضيعة التي يتحدَّث إليها. «ربَّما كان...» والضِّحكةُ التي أطلقتها ثلاث بنات، من الأربع الماشيات قُربي، تحجبُ الفُحْشَ الذي [...] «أنا لا أمزح، يا جُوْ[214]، فلقد ذهبتُ إلى الرَّجل ونظرت مباشرةً في عينيه...» المسكينُ كان يكذب، فمدير المكتب -الذي لا أعرفه شخصياً، ولكنْ لا بُدَّ أن يكون هُوَ المعنيَّ، نظراً إلى ما قاله المُجادِل الآخر- لم يواجه ذلك المُجادل التَّافه في ساحة المكتب. والصَّبيُّ الصَّغير، ببنطاله المُرقَّع برقع داكنة عند المؤخِّرة، يقهقه قائلاً: «ثُمَّ ذهبتُ ودخَّنت سيگارة في حَمَّام الرِّجال».

وثمَّة آخرون يمرُّون بمفردهم أو بعضهم رفقة بعض، لا يتكلَّمون، وإنْ فعلوا لا أسمعهم، ولكنَّ الأصواتَ، حين تتناهى إلى مسمعي، تفعلُ ذلك عبر حَدْس جليٍّ ومضطَرب لديَّ. لا أجرؤ على البوح -ولا أجرؤ حتَّى على البوح بذلك لنَفْسي كتابةً، حتَّى لو كنتُ عازماً على محوه على الفَوْر- بما قد رأيتُه في تلك النَّظرات العجولة العابرة، وتلك الخِسَّة الجاهلة، وتلك

(214) ولأنَّ بِسُوَّا يستخدم، هُنَا، Zé الذي هو تصغير جُوزيه José في البرتغاليَّة، فقد استخدمتُ «جُوْ» مقابلاً له. (المترجم).

العلاقات الغامضة. لا أجرؤ، فالمرءُ حين يريد أن يُغْنِي نَفْسه، فإنَّه لا يريد أن يفعل ذلك إلَّا مرَّة واحدة وحسب.

«كان الرَّجلُ حانقاً حتَّى إنَّه لم يلحظ وجود الدَّرج». رفعت رأسي. كان الصَّبي على الأقلِّ يصف شيئاً ما. حين يصف هؤلاء الأشخاص شيئاً، فإنَّهم يفعلون ذلك أفضل بكثير ممَّا يفعلون حين يعبِّرون عن مشاعرهم وحسب، فالمرءُ ينسى نَفْسَه حين يصف شيئاً. زال غثياني. أرى الرَّجل. أراه على نحو فوتوغرافيٍّ. أبهجتني طريقته العاميَّة في الكلام. إنَّه كنسيم عليل يُنعشني، ذلك الرَّجل الذي كان حانقاً حتَّى إنَّه لم يلحظ الدَّرج، ربَّما كان الدَّرجَ الذي تتعثَّر عليه البشريَّة، فتتلمَّس طريقها مُتخبِّطةً، صاعدةً دربَ الباطل المرسوم للمُنحدَر.

تدبيرُ المكائد، والاستغابةُ والتَّبجُّح بشأن الذي لم يجرؤ أحدٌ على فعله في الحقيقة، ورضا كلِّ بائسٍ مسكين يرتدي وعيَ روحه اللَّاواعيَ، ومطارحات الغرام التي لم تُغسَل بَعْدُ، والنُّكَت التي يقصُّونها، مثل قرد يحكُّ نَفْسه، وجهلُ وضاعتهم المرعب... هذا كلُّه يتركُ لديَّ انطباعاً بأنَّ حيواناً متوحِّشاً شرِّيراً قد أوجدته الأحلامُ الجاهلة لقشور الرغبة الرَّطبة، بقايا المشاعر المثيرة التي مُضِغَتْ مرَّات ومرَّات.

235

[12 أبريل 1930]

أشعرُ كأنَّني إنسانٌ، في أغلب الأحيان، حين يفتنني ظاهرُ الأشياء الذي يخلب اللُّبَّ. فأعيش إذَّاكَ، والمسرَّة تغمرني، رفقةَ أُناسٍ آخرين، فيغدو وجودي واضحاً. أطفو على سطح الأشياء. ينشرح صدري حين أقبض راتبي وأذهب إلىَ البيت. أشعر بالطَّقس من دون أن أراه، ويسُّرني أي شيء عضويٍّ. وحين أتأمَّلُ، لا أُفكِّرُ. أستمتع، في مثل تلك الأيَّام، بالحدائق والمتنزَّهات.

لا أعرفُ ما هُوَ هذا الشَّيء المسكين، الغريب، الموجود في الجوهر الجوَّانيِّ لمتنزَّهات المدينة، الذي لا أستطيع أن أشعر به إلَّا حين أشعرُ في قرارة نَفْسي بأنِّيَ راضٍ عن نَفْسي. الحديقة خُلاصة الحضارة - تحويرٌ مجهول **للطَّبيعة**. ثمَّة نباتٌ، ولكنْ تُوجَد أيضاً ممرَّات كالشَّوارع. تنمو الأشجار، ولكنْ ثمَّة مقاعد موضوعة في ظلالها. والمقاعد، في الممرَّات

الأربعة التي انعطفتْ لتواجه أطراف المدينة الأربعة، أكبرُ وتكون دائماً مكتظَّة بالنَّاس.

أنا لا أكره دوامَ الأزهار في المساكب. ولكنَّني أكره الاستعمال العموميَّ للأزهار. فلو كانت المساكب في متنزَّهات مغلقة، وكانت الأشجار تنمو في عِزَب إقطاعيَّة، ولم يكُن ثمَّة مَن يجلسُ على المقاعد، لاستطعتُ تعزية نَفْسي بعقم تأمُّلي في الحديقة. كأنَّ حدائق المدينة المُنسَّقة والنَّافعة، بالنِّسبة إليَّ، أقفاصٌ لا تمتلك فيها العفويَّاتُ الملوَّنة للأشجار والأزهار إلَّا مساحة كافيةً -لا مهربَ منها- وجمالَها الخاصَّ، بَيْدَ أنَّها لا تمتلك الحياةَ التي تتماشى مع الجَمال.

ولكن ثمَّة أيَّامٌ حين يكون ذلك هُوَ المنظر الطَّبيعيُّ الذي أنتمي إليه فحسب، فأدخلهُ كأنَّني ممثلٌ في مَلهاةٍ مأسويَّة. أشعرُ، في تلك الأيَّام، أنَّ خَطْباً ما قد ألمَّ بيَّ، ولكنَّني أشعرُ، على الأقلِّ، أنِّي أسعدُ، على نحو ما. فإذا نسيتُ نَفْسي لحظةً، أتخيَّلُني صاحبَ بيتٍ في الحقيقة أعودُ إليه. وإذا نسيتُ نَفْسي، فأنا طبيعيٌّ، منذورٌ لغاية بعينها، فأنفضُ الغبار بالفرشاة عن بذلة أخرى وأقرأُ الجريدة من الأمام إلى الخلف.

لا يدوم ذلك الوهم طويلاً، لأنَّهُ لا يدوم ولأنَّ اللَّيل يهبط. ولون الأزهار، وظلُّ الأشجار، والممرَّات والمساكب، تتلاشى جميعاً وتشرد. وفوقَ إحساسي بالذَّنب وشعوري بأنِّي مجرَّد إنسان عاديٍّ، تتراءى -كأنَّ النَّهار كان ستارةَ مسرح محجوبةً رُفعَتْ فجأةً- الخلفيَّةُ العظيمة للنُّجوم. ثُمَّ تنسى عينايَ، بكلِّ الإثارة التي يشعر بها طفلٌ في السِّيرك، الجمهورَ الذي بلا ملامح، فأنتظر قدوم أوَّل الممثِّلين.

أنا حُرٌّ وضائع.

أشعرُ. أرتعشُ محموماً. أنا أنا.

236

[13 أبريل 1930]

أظنُّ أنَّ ما يخلق فِيَّ إحساسيَ العميق بأنَّني على النَّقيض من الآخرين حقيقةُ أنَّ معظم البشر يفكِّرون بمشاعرهم في حين أشعرُ بأفكاري.

فالشُّعورُ عند الإنسان العاديِّ هُوَ العيشُ، والتَّفكيرُ معرفةُ أنَّهُ يعيشُ. أمَّا أنا، فالتَّفكير

عندي هُوَ العيشُ، والشُّعور يمدُّني بِقُوت الفِكر فحسبُ.

ولأنَّ قدرتي على الحماسة قد بلغتْ حدَّها الأدنى، فمن الغريب أنْ يجذبني أولئك الذين يناقضونني في المزاج أكثر من أولئك الذين ينتمون إلى الفصيلة الرُّوحانيَّة التي أنتمي إليها أنا نَفْسي. ولا أحدَ في الأدب يعجبني أكثر من الكتَّاب الكلاسيكيِّين الذين لا أشياء كثيرة مشتركة بيننا. فإنْ خُيِّرتُ في القراءة بين **شاتوبريان** و**ڤييرا** دون غيرهما، فلن أتردَّد البتَّة في اختيار **ڤييرا**.

فكلَّما كان الشَّخص مختلفاً عنِّي، بدا أكثر واقعيَّة، لأنَّه لا يعتمد كثيراً على نزعتي الذَّاتيَّة. ولهذا فإنَّ سبب الغاية المتأصِّلة لقراءتي اللَّصيقة هي بالضَّبط تلك البشريَّة المبتذلة التي أرفضها وأُبعد نَفْسي عنها. أُحبُّها لأنَّني أكرهها، وأستمتع في مراقبتها لأنَّني أكره في الحقيقة الشُّعور بها. فالمنظر الطَّبيعيُّ الذي يُعجَب به المرء، إعجابَهُ بلوحةٍ، لا يصلح أن يكون سريراً مريحاً إلَّا نادراً.

237

[14 أبريل 1930]

يتنابنا إحساسٌ بالحظوة، حين نبلغُ القممَ العارية لِذُرى الطَّبيعة. فنحنُ، حين يُضَافُ طولُنا، نغدو أعلى من القمَّة الأعلى. فقمَّةُ الطَّبيعة الأعلى، في موضعنا ذلك على الأقلِّ، ترزخ تحت أقدامنا. ونحنُ، إذ نقفُ هُنَاك، ملوكُ العالَم المرئيِّ؛ فكلُّ شيء من حولنا أدنى: الحياةُ سَفح هابطٌ، سَهل هاجعٌ، ونحن الأَوج المُطلَقُ.

لكنَّنا جميعاً حَدَثٌ عارضٌ وحِيلة بارعةٌ، والعُلوُّ الشَّاهق الذي نستمتع به حين نقف على جبلٍ، ليس عُلوَّنا كي نستمتع به؛ فلسنا أعلى، حين نكون على تلك القمَّة، ممَّا نحن عليه في العادة. إنَّ ما نقف عليه هُوَ الذي يرفعنا عالياً، ويجعلنا نبدو أطول.

يتنفَّس المرء بسهولة أكثر حين يكون ثرياً، ويغدو المرءُ أكثر حريَّة حين يذيع صيتُه؛ حتَّى إنَّ حصوله على لقب أرستقراطيٍّ يضعه تلقائياً على ربوة صغيرة. كلُّ شيء حيلة بارعة، لكنَّها حيلة بارعة ليست لنا: فإمَّا أن نصعد إلى ذلك التَّلِّ، وإمَّا أن نُحمَل إليه، وإمَّا أن نُولَد في منزل على التَّلِّ.

والإنسانُ العظيم الحَقُّ هُوَ ذاك الذي يؤمن بأنَّ الفرقَ في المسافة بين الوادي والسَّماء، أو بين الجبل والسَّماء، لا يُقدِّم ولا يُؤخِّرُ بتاتاً. سنكون أكثر أمناً فوق التِّلال، حين تصعدُ مياه الطُّوفان، ولكنَّ لعنة الله، حين تأخذ شكل صواعق برق جوبيتر أو رياح أيُولوس، فمن الأفضل أن نظلَّ في الوادي، خافضين رؤوسنا.

يمتلك الإنسان الحكيم في جسده القدرةَ على تسلُّق المرتفعات العظيمة، وفي عقله، القدرةَ على رفض ذلك. فهو يستطيع، حيثُ يقف، رؤية جميع الجبال وجميع الأودية. وتبدو الشَّمس، التي تُذَهِّبُ الذُّرى، بالنِّسبة إليه أكثرَ ذهبيَّةً ممَّا تبدو بالنِّسبة إلى شخص موجود فعلياً فوق الذُّروة المكشوفة لذلك الضُّوء السَّاطع؛ ويبدو القصر المشيَّد عالياً في أعماق الغابة أجمل بالنِّسبة إلى شخص ينظر إليه من الوادي ممَّا يبدو بالنِّسبة إلى شخصٍ حبيس حجراته الكبيرة.

أُعزِّي نَفْسي بهذه الأفكار، فأنا لا أستطيع أن أُعزِّي نَفْسي بالحياة. والرَّمزُ ينصهر في الحقيقة الواقعيَّة حين أرى، أنا عابر السَّبيل في الجسد والرُّوح على طول هذه الشَّوارع الواطئة التي تُفضي إلى نهر تيجو، تلالَ المدينة تتوهَّجُ، كمجد ينتمي إلى شخص آخر، بألوانٍ وأنوار مختلفة خلَّفتها شمسٌ قد غابتْ في الحال.

238

[21 أبريل 1930]

بعض المشاعر تشبه أحلاماً تنتشر في كلِّ زاوية من روح المرء مثل سديم، فلا تسمح للمرء بالتَّفكير أو العمل أو حتَّى أن يكون. وبعض آثار أحلامنا تظلُّ باقيةً فِينًا، كأنَّنا لم نَنَم كما يجب، فَيدفِّئُ سباتُ نهارٍ سطحَ الأحاسيس الرَّاكد. إنَّهُ سُكْرُ أن يكون المرءُ عدَماً، حين تكون إرادةُ المرء دلوَ ماء قد ركلته في الباحة قدَمٌ طائشةٌ عابرة.

ينظرُ المرء ولكنَّه لا يرى، والشَّارع الطَّويل المكتظُّ بمخلوقات آدميَّة يشبه لافتة خانٍ ساقطة لم تَعُدِ الحروفُ المختلطة التي عليها مفهومةً البتَّة، والمنازلُ منازلُ لا غير. وعلى الرَّغم من أنَّ المرء يرى الأشياء واضحة، فمن المستحيل أن يُضفي معنىً على ما يراه.

ثمَّة غرابة مألوفةٌ تنبعث من ضربات المطرقة المجلجلة التي تتعالى من ورشة صانع الصَّناديق. كلُّ ضربةٍ متباعدة في الزَّمن، ولكلِّ ضربةٍ صداها وعبثها المُطلَق. وتلوح العربات

العابرة مثلما تلوحُ في الأيَّام التي يتوعَّدُ فيها الرَّعدُ. ولا تنبعث الأصوات من حناجر النَّاس، وإنَّما من الهواء نَفْسه. وحتَّى النَّهر يلوحُ مُتعباً، في الخلفيَّة.

ليس السَّأمَ الذي يعترينا، ولا الحزنَ، ولا حتَّى التَّعب الذي نشعر به. إنَّهُ الرَّغبةُ في أن يذهب المرءُ إلى النَّوم مرتدياً شخصيَّةً أُخرى؛ رغبة أن ينسى، وقد سئم من أن يزيد راتبه. ولستَ تشعرُ إلَّا بنهوض ساقيك الآليِّ وهبوطِهما حين تمشيان إلى الأمام غصباً على قدمَيْن واعيتَيْن بفردتَي الحذاء اللَّتَيْن ترتديانِهما. وربَّما لا تشعرُ إلى ذلك الحدِّ. يشتدُّ شيءٌ في رأسك فيعميك ويسدُّ أُذُنيك.

كأنَّ نزلةَ بردٍ قد أصابتِ الرُّوح. ويتولَّدُ رفقةَ تلك الصُّورة الأدبيَّة للمرض حنينٌ إلى أن تكون الحياةُ فترة طويلة من النَّقاهة، مقصورةً على البقاء في السَّرير؛ وفكرةُ النَّقاهة تستحضر صورةَ داراتٍ كبيرة على أطراف المدينة، ولكنَّها نقاهة في أعماق تلك الدَّارات، قرب المدفأة، بعيداً عن الشَّوارع وزحمة السَّير. كلَّا، لن تسمع شيئاً. تمرُّ واعياً عبر الباب الذي لا بُدَّ أن تدخل منه، فتذهب من خلاله كأنَّك نائم، غير قادر على جعل جسدك يذهب في اتِّجاه آخر. تمرُّ عبر كلِّ شيء. فأين دُفُّكَ الآن، أيُّها الدُّبُّ النَّائم؟

باهتاً، كشيء بدأَ السَّاعةَ، حامَ نسيمُ الملح فوق نهر **تيجو**، فانسلَّ نَتِناً إلى أطراف **بَايْشَا**. هبَّ بارداً فزنَّخ سُباتَ البحر الدَّافئ. وباتت الحياةُ شيئاً ثاوياً في معدتي، فسكنتْ حاسَّةُ الشَّمِّ لديَّ مطرحاً أبعدَ من عينيَّ. وفي الأعالي، لا تجثمُ على شيءٍ، شِلَلٌ رفيعةٌ من سحابٍ قد انحلَّتْ من الرَّماديِّ إلى الأبيض الباطل. كان الجوُّ مثل خيطٍ صنعته سماءٌ مخلوعةُ الفؤاد، مثل رعدٍ خافتٍ، لا يطفحُ بشيءٍ إلَّا بالهواء.

وحتَّى النَّوارس لاحتْ ساكنةً حين طارتْ، أخفَّ من الهواء نَفْسه، كأنَّ شخصاً قد تركها مُعلَّقةً هُنَاك، ليس إلَّا. ولكنَّ الجوَّ لم يكُن عدائياً. فلقد هبطَ المساءُ على قلَقنا؛ وباتَ الهواءُ أبردَ حِيناً بعدَ حِين.

يا لآمالي المسكينة، المولودة من الحياة التي أُجبِرتُ على عَيْشِها! إنَّها كهذي السَّاعة وهذا الهواء، وهذي السُّدُم المتلاشية، والمحاولات السَّخيفة لإثارة عاصفةٍ باطلة. أشعرُ كأنِّي أصرخُ، لأضع حداً لهذا المنظر الطَّبيعيِّ وأُنهي هذا التَّأمُّل. ولكنَّ رائحة البحر المالحة تملأُ

نواياي الطَّيبة، والجَزْرُ المنخفض قد أماطَ فِـيَّ اللِّثامَ عن الكآبة المُوحلة التي لا تخبرني بأنَّها هُنَاك إلَّا حاسَّةُ الشَّمِّ لديَّ.

فَيَا لَهُ مِن هُراءٍ كثير أُرضي به نَفْسي فحسب! ويا للتَّبصُّرات المُتهكِّمة في العواطف المفترضة المحضة! وهذا كُلُّه مَزيجٌ من الرُّوح والمشاعر، من أفكاري عن الهواء والنَّهر، لكي أقول إنَّ الحياة تؤلم حاسَّة الشَّمِّ لديَّ وتؤلم وعيي، لأنَّني لا أمتلكُ الكياسة كي أستخدم الكلمات البسيطة الجامعة لسِفر أيُّوب: «قَدْ كَرِهَتْ نَفْسي حياتي»[215].

239

[23 أبريل 1930]

نسيم مسائيٌّ حائرٌ يلمسُ جبهتي ووعيي بشيءٍ يشبه مُداعبةً غامضة؛ شيءٍ رقيقٍ كلَّ الرِّقة كي يكون مداعبة. ولا أعرف إلَّا أنَّني قد شعرتُ فجأةً، وللحظة لا أكثر، أنَّ سأمي بات أكثرَ راحة، كقطعة ثيابٍ تكفُّ عن حَكِّ دُمَّلٍ.

فَيَا لها من حساسيةٍ بائسة تعتمدُ على حركة الهواء الخفيفة تلك، كي تنعم بشيءٍ من السَّكينة، بين حين وآخر! ولكنَّ تلك طبيعة جميع الحساسيات البشريَّة، ولا أعتقد أنَّ الكائنات الآدميَّة الأخرى تُقِيم وزناً لذلك النَّسيم القصير، العابر، أكثرَ من حصولها على ربح ماديٍّ مفاجئ أو ابتسامة دافئة غير متوقَّعة. أستطيع أن أُفكِّر بالنَّوم، وأستطيع أن أحلم بأنَّني أحلمُ. وأستطيع أن أرى بوضوح أكثرَ موضوعيَّةَ كلِّ شيء. وينشرحُ صدري أكثرَ حين يخامرني شعورٌ بأنَّ الحياة كامنةٌ خارجي. وهذا كلُّه لأنَّ هبَّةَ ريح خفيفةً جعلت بدني يقشعرُّ من الفرح حين كنت في زاوية الشَّارع أو أكادُ أكون.

فكلُّ ما نحبُّ أو نفقد -الأشياء، والنَّاس، والمعاني- يمسُّ أبداننا، مساً خفيفاً، فينفذ إلى أرواحنا، وهذا، بعينِ الله، ليسَ أكثرَ أو أقلَّ من نسيمٍ لم يجلب لي سوى الرَّاحة المُتخيَّلة، اللَّحظةِ المواتية، والقُدرةِ على فقدان كلِّ شيء على نحوٍ بهيٍّ.

---

(215) أوردتُ العبارة مثلما وردت في الترجمة العربيَّة للآية الأولى من الإصحاح العاشر من سفر أيُّوب. (المترجم)

[25 أبريل 1930]

دوَّاماتُ رياحٍ ودوَّاماتُ مياهٍ في عَبث الحياة السَّيَّالِ! تدفُّقُ المارَّة الرَّصينُ الملوَّنُ يُغيِّر مسارَهُ في السَّاحة الكبيرة بوسط المدينة، فيغدو بِرَكاً وينفجرُ شلَّالاتٍ ليعانقُ الغُدران. عينايَ ترقبان وقد رانتْ عليهما الحيرةُ، فتنثالُ فِيَّ تلك الصُّورة المائيَّةُ التي تناسبُ هذي الحركات الحائرة؛ لأنَّها أفضل من غيرها، ولأنَّني ظننتُ أنَّها ستمطر.

وحين كتبتُ الجُملة الأخيرة، التي تصف ما رأيتُه بالضَّبط، ظننتُ أنَّه قد يكون مفيداً أن أخطَّ في نهاية كتابي، حين يُنشَر، تحت «**قائمة الأخطاء المطبعيَّة**» بضعَ «**أخطاء غير مطبعيَّة**» ثُم أقول: عبارة «هذه الحركات الحائرة» الموجودة في الصَّفحة الفُلانيَّة صحيحةٌ، على الرَّغم من أنَّ الضَّميرَ بصيغة الجَمْع واسمَ الإشارة بصيغة المُفرَد. ولكنْ، ما علاقة ذلك بما كنتُ أُفكِّر فيه؟ لا شيء البتَّة، ولهذا أسمحُ لنَفْسي بالتَّفكير فيه.

الترامات تهدرُ وتُقرقع حول أطرف السَّاحة، كعُلب ثقابٍ كبيرة، صفراءَ، متحرِّكة، حيثُ غَرز طفلٌ عودَ ثقاب مُستهلَكاً في إحدى الزَّوايا كأنَّهُ سارية؛ تُطلِق، حين تنطلق، صفيراً عالياً صارّاً كالحديد. والحمام الذي يتجوَّل حول التِّمثال المركزيِّ يشبه فُتاتاً مُعتماً يتبدَّل دائماً تحت رحمة ريح مُبعثِرة، والطُّيور الرَّيَّانةُ تَدرجُ على أقدامها الصَّغيرة.

يبدو الجميع، لو نظرنا إليهم من كثب، مختلفين على نحو رتيب. قال **ڤيرا** إنَّ **الأب لويش ذي سوزا** قد كتبَ عن العاديِّ بطريقة فريدة. وهؤلاء النَّاس فريدون بطريقة عاديَّة، على النَّقيض من أسلوب «**حياة المُطران**»(216). وهذا كلُّه باعثٌ على الحُزن واللَّامبالاة المُطلقَة في آن معاً. أتيتُ إلى هُنَا بلا سببٍ، مثلما هي الحال مع كلِّ شيءٍ في الحياة.

والجزء الذي أستطيع رؤيته من المدينة، جهةَ الشَّرق، يتراءى صاعداً عمودياً كأنَّهُ يشنُّ هجوماً ساكناً على القلعة. والشَّمس الشَّاحبة تَغيبُ هالةً نديَّةً غامضة حول كومة المنازل الفجائيَّة التي تحجبُها من المشهد. السَّماء زرقاءُ مبيضَّةٌ رطبة، وقد يعود مطر الأمس اليومَ، لكنَّه سيكون ألطف. كأنَّ الرِّيح سوف تهبُّ من الشَّرق، ربَّما لأنَّ رائحةً غامضة تنبعث

---

(216) إشارة إلى كتاب سوزا «Vida do Arcebispo D. Frei Bartolomeu dos Mártires» (= حياة المُطران الدُّومينيكانيِّ الأب بارتولوميو دوش مارتيرش) الصَّادر في العام 1619، الذي يُعَدُّ تحفة نثرية. (المترجم)

منها هُنَا، فجأةً، كأنَّها رائحة الخُضرة النَّاضجة للسُّوق المخفيِّ. وثمَّة مزيد من الأجانب في الطَّرف الشرقيِّ من السَّاحة أكثر من الطَّرف الغربيِّ. السَّتائرُ المعدنيَّة مطوية إلى أعلى، وهي مثل طلقات رصاص مكتومة؛ لا أعرف لماذا، لكنَّ ذلك ما يُوحي به إليَّ الصَّوت. ربَّما لأنَّها تُحدِث مزيداً من الضَّجيج حين تُسدَل، على الرَّغم من أنَّها قد رُفعَتْ في هذه اللَّحظة. ثمَّة تفسير لكلِّ شيء.

فجأةً، أنا وحيد في العالم. أرى هذا كلَّه وأنا أنظر من السَّقف المعدنيِّ. أنا وحيد في هذا العالم. فأنْ ترى هُوَ أنْ تكون بعيداً، وأنْ ترى بوضوح هُوَ أنْ تتوقَّف، وأن تُحلِّل هُوَ أنْ تكون أجنبياً. يعبر النَّاس دون حتَّى أن يمسُّوني. لا شيء من حولي إلَّا الهواء. أشعرُ بالعزلة الشَّديدة إلى درجة أنَّني أُدرك المسافة التي بين بذلتي وبيني. أنا طفل يحمل شمعة راعشةً ثُّم يجوب، بقميصه اللَّيليِّ، المنزلَ الكبير المهجور. ظلال حيَّةٌ تحيط بي - ظلال فحسب، بنات الأشياء الميِّتة والضُّوء يرافقنني. وتحيط بي هُنَا في الشَّمس أيضاً، لكنَّها بشرٌ. مع أن البشر ظلالٌ أيضاً، ظلالٌ...

241

[25 أبريل 1930]

تأمَّلتُ، اليومَ، وقد تحرَّرتُ قليلاً من مشاعري، شكلَ النَّثر الذي أتبنَّاه، قُصارى القول: كيف أكتب. لديَّ، مثل كثيرين، الرَّغبة النَّزقة لإرساءِ قواعد منهج وسَنِّ سُنَّةٍ، على الرَّغم من أنَّني قد كتبتُ، حتى هذه اللَّحظة، دونَ الحاجة إلى مثل تلك السُّنَّة وذلك المنهج؛ فلا أختلفُ، في ذلك، عن أيِّ شخص آخر.

ولكنَّني اكتشفتُ، حين كنتُ أُحلِّلُ نَفْسي هذه الظَّهيرة، أنَّ منهجي الأسلوبيَّ يقوم على مبدَئَيْن اثنَيْن، جعلتهما على الفور، مُقتفياً أثرَ المؤلِّفين الكلاسيكيِّين، الأساسَيْن العامَّين للأساليب كلِّها: الأوَّل، أن تُفصح عمَّا تشعر به مثلما تشعر به تماماً - بوضوح، إن كان واضحاً؛ وبغموض، إن كان غامضاً؛ وبارتباكٍ، إن كان مُرتبكاً. أمَّا الثَّاني، فأنْ تُدرك أنَّ النَّحوَ أداةٌ وليس قانوناً.

فَلْنفترض أنَّ ما أراه أمامي فتاة صغيرة صبيانيَّة. قد يصفها شخص عاديٌّ قائلاً: «تبدو تلك

الفتاة مثل صبيٍّ»، وقد يصوغ العبارة بطريقة مختلفة شخصٌ عاديٌّ آخر أكثر وعياً بالفارق بين الكلام والقول: «تلك الفتاة صبيٌّ». وقد يقول شخصٌ يعي قواعدَ التَّعبير، بالقَدْر ذاته، ولكنَّه أكثر شغفاً بالمَيْل إلى الإيجاز الذي هو بذخ الفِكر: «ذلك الصَّبيُّ». ولكنَّني، من جهة أخرى، سوف أقول: «إنَّها صبيٌّ»، منتهكاً بذلك أبسط قواعد النَّحو التي تتطلَّب الموافقة بين الاسم والضَّمير العائد عليه، من حيث التَّذكير والتَّأنيث. ولسوف أكون مُصيباً؛ فلقد كنتُ أتكلَّم بالمُطلَق، بصورة فوتوغرافيَّة، متجاوزاً كلَّ الأعراف المتبذلة الدَّارجة، ومُتخطِّياً المألوف. لن ألفظَ الكلمات فحسب: سوف أتكلَّم.

فالنَّحوُ، حين يُحدِّد طريقة استخدام الألفاظ، يجعل التَّقسيمات التي تكون صحيحةً في بعض الأحيان خاطئةً في أحايين أُخَر. فهو يُقسِّم الأفعال، على سبيل المثال، إلى متعدٍّ ولازم؛ ولا بُدَّ للشَّخص، الذي يفهم مدارَ القول، أن يعمد في العادة إلى جعل الفعل المتعدِّي لازماً، والعكس صحيحٌ إنْ كان يُعبِّر عمَّا يشعر به تماماً، وليس لمجرَّد الإلماح الغامض إليه، مثل معظم الحيوانات البشريَّة. لو رغبتُ في الحديث عن وجودي البسيط، فسوف أقول: «أنا موجودٌ». ولو رغبتُ في الحديث عن وجودي بوصفه روحاً مستقلَّة، فسوف أقول: «أنا أنا». لكنَّني لو رغبت في الحديث عن وجودي بوصفه كينونة تتحكَّم بنَفْسها وتشكِّلها على حدٍّ سواء، وتمارس في نَفْسها الفعلَ الإلهيَّ في خلق النَّفْس، فلا بُدَّ أن أبتكر صيغةَ فعل مُتعدٍّ فأقول، مبتهجاً بالظَّفْر، متفوِّقاً على نحوٍ غير نَحْوي: «أنا أوجدتُنِي»[217]. ولقد عبَّرتُ عن فلسفة كاملة بكلمتَيْن بسيطتَيْن[218]. أليس ذلك أفضل من استخدام أربعين جُملة لقول لا شيء؟ فأيُّ مَزيدٍ يبتغيه المرءُ من الفلسفة واللُّغة؟

وحدهم العاجزون عن التَّفكير فيما يشعرون يُطيعون قواعدَ النَّحْو. فمن يعرف كيف يُعبِّر عن نَفْسه قادرٌ على استخدام تلك القواعد كيفما يشاء ويرضى. وثمَّة حكاية يقصُّونها عن سيغيسموند، ملك روما، الذي قال للشَّخص الذي أشار إلى الخطأ النَّحْوي الذي

---

(217) يتحدث بِسُوَّا في الأصل عن تحويل فعل الكينونة «ser» إلى مُتعدٍّ، فيصوغ العبارة الأولى «أنا موجودٌ» على هذه الشَّاكلة: «Sou» (وعند جول كوستا: I exist)؛ وعبارة «أنا أنا»: «Sou eu» (وعند جول كوستا: «I am me»)؛ وعبارة «أنا أوجدتُني»: «Sou-me» (وعند جول كوستا: I exist me). (المترجم)

(218) كذا في الأصل، لأنَّ بِسُوَّا يستخدم عبارة مكوَّنة من كلمتَيْن «Sou-me»، وكذلك جاءت عبارة «أنا أوجَدْتُني» التي استخدمتُها، ولكنَّ جول كوستا اضْطرَّت، هُنا، إلى القول «ولقد أوجَدْت فلسفةً كاملة بثلاث كلمات بسيطة» لأنها قد استخدمت في ترجمتها عبارة مكوَّنة من ثلاث كلمات «I exist me». (المترجم)

ارتكبه في أثناء إلقائه خطاباً عمومياً: «أنا ملك روما، أنا أكبر من النَّحْو». وتخبرنا المدوَّنات التَّاريخيَّة بأنَّه قد بات يُعرَف باسم سيغيسموند «الأكبر من النَّحوْ»[219]. يا لَهُ من شعارٍ بديع! فكلُّ من يعرف كيف يقول ما يرغب في قوله هُوَ ملكُ روما، بطريقته الخاصَّة. اللَّقبُ ملكيٌّ وعلَّتُه مستحيلة.

242

[نحو 4/1930] [220]

غالباً ما أتساءل: أيَّ شخص سأكون لو كنتُ قد احتميتُ من ريح القدَر الباردة بستار الثَّروة، وأنَّ يد عمِّي البارَّةَ لم تقدني قَطُّ إلى مكتب في لشبونة، وأنَّني لم أنتقل البتَّة من هُنَاك إلى مكاتب أخرى، بالغاً الأعالي المُبهرجَة لأنَّني محاسبٌ مساعد جيِّدٌ في وظيفة تشبه قيلولة في الظَّهيرة، وتُوفِّر راتباً يمنحني ما يكفي لأعيش فحسب؟

أعرف لو أنَّ ذلك الماضي لم يكُن موجوداً، لما استطعتُ في هذه الأثناء كتابةَ هذي الصَّفحات، التي رغم قلَّتها، هي على الأقلِّ أفضل من جميع الصَّفحات التي كنتُ بلا شكٍّ سأحلم بها في أحلام يقظتي في ظلِّ ظروف أكثر راحة. فالابتذال شكل من أشكال الفطنة، والحقيقةُ الواقعيَّة، لاسيَّما إذا كانت وحشيَّة وقاسية، تُشكِّلُ تكملةً طبيعيَّةً للرُّوح.

أدين بكثير ممَّا أشعر به وأُفكِّر فيه إلى عملي كمحاسب مساعد، فالشُّعور موجود كنفي للفِكر وتحليقةٍ بعيدة عنه.

ولو توجَّب عليَّ أن أملأ المساحة التي يوفِّرها استبيانٌ يستطلع قائمة التأثيرات الأدبيَّة التَّكوينيَّة التي أثَّرت في المرء، لكتبتُ في السَّطر المُنقَّط الأوَّل اسم سيزاريو ڤِيرد، ولكنَّ القائمة ستكون ناقصة من دون أسماء السيِّد ڤاسْكِش، ومُوريرا المحاسب، وڤييرا مندوب المبيعات الجوَّال، وأنطونيو صبيِّ المكتب. ثُمَّ أكتب، بعد كل اسم، بحروف كبيرة، الكلمةَ المفتاحيَّة: لشبونة.

---

(219) super-grammaticam: العبارة التي قالها سيغيسموند باللَّاتينيَّة، وتعني: أكبر من النَّحْو. وتذكر المصادر التاريخيَّة بأنَّ سيغيسموند كان عالي الثقافة، ويجيد التَّحدث بلغات عدَّة. (المترجم)

(220) تُورد جول كوستا التَّاريخ، هُنَا، على هذه الشَّاكلة، بخلاف الصِّيغة التي اعتمدتها في تأرخة الشَّذرات التي قبلها. (المترجم).

لقد كانوا جميعاً، في الحقيقة، على قَدْر أهمِّيَّة سيزاريو ڤِيرد في توفير عوامل تصحيح لرؤيتي عن العالَم. أعتقدُ أنَّ «عوامل التَّصحيح» هُوَ المصطلح (على الرَّغم من أنَّني لستُ متأكِّداً، بالطَّبع، من معناه الدَّقيق) الذي يستخدمه المهندسون في منهجيَّةِ تطبيق الرِّياضيَّات على الحياة. فإذا كان المصطلحَ الصَّحيح، فلقد كانوا كذلك بالنِّسبة إليَّ. وإذا كان غير ذلك، فَلْيَكُن ما كان يمكن أن يكون، ويكون قصدي بمثابة استعارة مُخفِقة.

وحين أتأمَّل ما كانت عليه حياتي في الظَّاهر، بكلِّ الوضوح الذي أستطيع حشده، فأتخيَّلها كقصاصةٍ ملوَّنة، وبرَّاقة -لِفافة قطعة شوكولاتة أو سِوَار سيگار- تنفضُها النَّادلةُ، التي تسترق السَّمع، بخفَّةٍ من فوق مفرش الطَّاولة المتَّسخ إلى سلَّة المهملات، بين فتات الواقع وقشوره. إنَّها تبرز من بين تلك الأشياء التي تشاركها قدَرها بفضل حظوة مُقدَّرة أيضاً لسلَّة المهملات. تواصل الآلهة أحاديثها فوق الكُناسة، غير آبهةٍ تماماً بتلك الحوادث في العالم الذي في الأسفل.

نعم، لو كنتُ ثرياً، ومُدلَّلاً، وأنيقاً ومزداناً بعناية، لما عرفتُ البتَّة تلك اللَّحظة القصيرة كقصاصة جميلة بين فتات الخبز؛ لكنتُ قد تُركتُ فوق إحدى صواني الحظِّ - «ليس من أجلي، شكراً»- فأعود إلى صواني السُّفرة، كي أهرم ويطول عليَّ الأمد. وما إنْ يُؤكل جوهري المفيد، حتَّى أُنبذَ، فأُبعد إلى سلَّة المهملات، رفقةَ رفات ما تبقَّى من جسد المسيح، عاجزاً حتَّى عن تخيُّل ما سيحدث لاحقاً، تحت النَّجوم؛ لكنَّي أعرف أنَّه سيكون ثمَّة «بَعْدُ».

243

[نحو 4/1930]

عبءُ الشُّعور! عبءُ وجوب أنْ نشعر!

244

[نحو 4/1930]

لم أرغبِ قَطُّ في أن يفهمني الآخرون. كأنَّ المرء يُعهِّر نَفْسه حين يُفهَم. أُفضِّلُ أن أؤخذَ على محمل الجدِّ خلافاً لما أنا عليه، وأن أظلَّ مجهولاً، كشخص، بكلِّ لياقة وبساطة.

لا شيء يزعجني أكثر من أن يظنَّ زملائي في العمل أنَّني مختلف. أرغبُ في تذوِّق طعم سخرية أنَّهم لن يفعلوا ذلك. أريدُ التَّكفير عن خطيئة جعلهم يظنُّون أنَّني مثلهم. أريد أن يصلبونني بعدم تفكيرهم أنَّني مختلف، فثمَّة استشهادات غامضة أكثر من تلك المدوَّنة بين القدِّيسين والنُّسَّاك. وثمَّة عذابات للعقل لا تختلف عن تلك التي للجسد والرَّغبة. ولهذه العذابات، مثل العذابات الأخرى، شهوانيَّتها الخاصَّة [...]

245

[نحو 4/1930]

غابة

ولكن، آهٍ، لم تكُن حقيقيَّةً حتَّى حجرة النَّوم[221] – لقد كانت حجرة النَّوم العتيقة لطفولتي الضَّائعة! لقد تحرَّكت، مثل سديم، فمرَّت بالفعل عبر الجدران البيضاء لحجرتي الحَقَّة التي برزتْ من الظِّلال أصغرَ ولكنَّها في غاية الوضوح، مثل الحياة والنَّهار، مثل عبور العربة والصَّوت الخفيض للسَّوط الذي يوقظ عضلات النُّهوض في الجسد الرابض للحصان النَّاعس.

246

[6 مايو 1930]

ولطالما فكَّرتُ في الغيبيَّات بوصفها شكلاً مديداً من جنون خَفِيٍّ. فلو عرفنا الحقيقةَ، لرأيناها؛ كلُّ شيء آخر مجرَّد منظومات خاوية وبهارج عبثيَّة. ولا بُدَّ، حين نفكِّر في الحقيقة، أن نقنع بغموض الكون وعجزنا على سبر أغواره؛ فالرَّغبة في الفهم تجعلنا أقلَّ إنسانويَّةً، ولا بُدَّ أن تَعرف، كي تغدو إنساناً، أنَّ الإنسانَ لا يَفهم.

---

(221) الكلمة التي يستخدمها بِسُوًا في الأصل هي alcova، وهي تنطوي على معنيَيْن: «حجرة النَّوم» (كما في ترجمة جول كوستا هذه) أو «الكوَّة/قُرنة في حجرة عادة ما تحيطها الجدران وتحتوي على سرير أو أريكة كبيرة» (كما في ترجمة زينيث، على سبيل المثال). وكلمة alcova في أصلها عربيَّة، مستمدة من كلمة «القُبَّة»، عبر الإسپانيَّة alcoba. والقُبَّة في العربيَّة: «بناءٌ مستدير مجوَّف يُعقَدُ بالآجُرِّ ونحوه» أو «خيمة صغيرة أعلاها مستدير». (المترجم)

أحضروا إليَّ الإيمانَ ملفوفاً مثل طَرْدٍ، ومحمولاً على صينيَّة شخص آخر. رغبوا في أن أقبله من دون أن أفتحه. وأحضروا إليَّ العِلم، مثل سكِّين على طبَق، سأقطع بها صفحات كتاب صفحاته بيضاء. وأحضروا إليَّ الشَّكَّ، كغبار في صندوق، لكن لماذا أحضروا إليَّ الصَّندوقَ إذا كان ما فيه ليس سوى غبار؟

أكتبُ لأنَّني أفتقرُ إلى المعرفة؛ واستخدم عبارات الآخرين الطنَّانة بشأن الحقيقة، وفقَ ضرورات عاطفة معيَّنة. فإذا كانت العاطفة واضحةً وقطعيَّة، فإنَّني أتحدَّثُ عن الآلهة، ومِن ثَمَّ أُشكِّلها في داخل وعيي بالعالَم المُتعدِّد. وإذا كانت العاطفة عميقةً، فإنَّني أتحدَّث عن الله، بطبيعة الحال، فأُرسِّخها في وعيي بوحدانيَّة العالَم. وإذا كانت العاطفة فكرةً، فإنَّني أتحدَّث عن القدَر، بطبيعة الحال مرَّةً أخرى، فأجعلها تتدفَّق مثل نهرٍ عبدٍ لمجراه.

ويتطلَّب إيقاعُ العبارةِ الفعليُّ، في بعض الأحيان، استخدامَ كلمة «الله» بدلاً من كلمة «الآلهة»؛ ويفرضُ المقطعان، اللَّذان يُكوِّنان كلمة «الآلهة»، نَفْسَيْهما، بكلِّ بساطة، على العبارة، في أحايين أُخرى، فأُغيِّرُ من النَّاحية اللَّفظيَّة الكون الذي أتصوَّره[222] حينئذٍ؛ بيد أنَّ الحاجة في بعض الأوقات، وعلى النَّقيض من ذلك، إلى قافية داخليَّة، أو تحوُّلٍ في الإيقاع، أو صدمة عاطفيَّة، سوف تقلبُ التَّوازُن، فيغدو الأنسبَ لوصف تلك اللَّحظة إمَّا الشِّرْك أو التَّوحيد[223]. فالآلهة صنعةُ الأسلوب، لا أكثر.

247

[14 مايو 1930]

معرفةُ أنَّ الواقع ضرب من الوهم، وأنَّ الوهم ضرب من الواقع، مسألةٌ ضروريَّة وعبثيَّة على حدٍّ سواء. فلا بُدَّ للحياة التَّأمُّليَّة لكي تُوجَد أن تُفكِّر ملياً في الحوادث الموضوعيَّة بوصفها مُقدِّمات متباينة لخُلاصة يتعذَّر الوصول إليها؛ بَيْد أنَّها لا بُدَّ، في الوقت ذاته، أن تُفكِّر ملياً في جوهر الأحلام الجُزافيِّ بوصفه جديراً، إلى حدٍّ ما، بالاهتمام الذي نوليه إلى الأحلام، فنغدو متأمِّلين بفضل وجوده.

---

(222) يقصد أنَّه يُغيِّرُ الألفاظ المستخدمة وفقَ الكون الذي يتصوَّره؛ فهو إمَّا كون يقتصر على إله واحد أو آلهة مُتعدِّدين. (المترجم)

(223) إنْ كان كونًا يقتصر على إله واحد فيختار الألفاظ التي تناسب التَّوحيد، وإنْ كان مقتصراً على آلهة متعدِّدين، فيختار الألفاظ التي تناسب الشِّرك. (المترجم)

ويمكن لأيِّ شيء، وفقَ الكيفيَّة التي ننظر فيها إليه، أن يغدو شيئاً مُدهشاً وعقبةً على حدٍّ سواء؛ كلَّ شيءٍ ولا شيءَ على حدٍّ سواء، طريقاً إلى الأمام أو باعثاً على القلَق. والنَّظرُ إلى شيء، بطريقة مختلفة في كلِّ مرَّة، يعني تجديده ومضاعفته. وهذا مناطُ أنَّ الرُّوحَ المُتأمِّلَ [224] الذي لا يترك قريته البتَّة يكون الكونُ كلُّه تحت تصرُّفه على الرَّغم من ذلك. يكمن المُطلَق في زنزانةٍ أو صحراء، ويستطيع المرء أن ينامَ نَوْمةً كونيَّةً مُتوسِّداً حجراً.

بَيْدَ أنَّ ثمَّة أوقاتاً -وهذا يحدث لكلِّ الذين يتأمَّلون- يبدو فيها كلُّ شيء، مهما كان جديداً، قديماً وبالياً ومبتذلاً، فنحن لا نستطيع البتَّة، مهما تأمَّلنا الشَّيء بقوَّة -فنحوِّله، بالتَّأمُّل- إلَّا أن نحوِّلَه إلى شيء يمكن أن يستخدم كمادَّة إضافيَّة للتَّأمُّل، ثُمَّ تتكالبُ علينا رغبةٌ في العيش، ومعرفة الأشياء دون أن نعرفها، وألَّا نتأمَّل إلَّا بالحواسِّ، وألَّا نُفكِّر إلَّا بطريقة محسوسة أو حسَّاسة، من داخل الشَّيء الذي نُفكِّر فيه، كما لو كان إسفنجةً ونحن الماء. سيكون لنا ليلُنا، حينئذٍ، ويغدو تعبُ العواطف كلِّها بعيدَ الغَوْر، فهي عواطف الفِكر العميقة في حدِّ ذاتها. ولكنَّه ليلٌ بلا سكينة، بلا ضوء قمر، وبلا نجوم؛ ليلٌ كأنَّ كلَّ شيء فيه قد قُلبَ بطناً إلى ظَهْر - المُطلَقُ وقد تحوَّل إلى جوَّانيةٍ ضيِّقة وكتيمة، والنَّهارُ وقد باتَ البطانةَ السَّوداء لبذلة لم نرها قَطُّ من قَبْل.

نعم، من الأفضل، إلى حدٍّ بعيد، أن نكون البزَّاقةَ البشريَّة التي تعشق في جَهالة مرحة، والعَلَقةَ التي تجهل خِلقَتها القبيحة. الجهل بوصفه طريقاً للعَيْش! والإحساس المثير بوصفه طريقاً للنِّسيان! فكم من المغامرات قد ضاعت في اليقظة البيضاء المُخضرَّة لتلك السَّفائن المتلاشية، مثل قطرة بصاق باردة سقطت من على الدَّفَّة الطَّويلة التي كانت بمثابة أنْفٍ تحت أعين الكبائن العتيقة!

248

[15 مايو 1930]

تمنحني نظرة خاطفة إلى منظر ريفيٍّ فوق حائط في الضَّواحي إحساساً عارماً بالحريَّة أكثر

(224) ترد لفظة الرُّوح (soul) هُنا اسماً مُذكَّراً، سيراً على منوال اللغة البرتغاليَّة التي تُذكِّر لفظة الرُّوح (espirito). والرُّوح في العربيَّة تُذكَّر وتؤنَّث، والتَّأنيث على معنى النَّفس. (المترجم)

ممَّا قد تمنحه إلى شخص آخر رحلةٌ برمَّتها [في الرِّيف]. فنقطة الرَّصْد التي ننظر من خلالها إلى شيء بعينه هي التي تُشكِّل قمَّةَ الهرم المقلوب الذي يتعذَّر تحديد قاعدته.[225]

وثمَّة وقت كانت فيه الأشياء، التي تجعلني أبتسم اليومَ، تثير حنقي إلى حدٍّ بعيد. ومن بين تلك الأشياء، التي لا تكاد تغيب عن بالي في كلِّ يوم، الطريقةُ التي لا يكفُّ فيها البشر العاديُّون، الفاعلون، عن السُّخرية من الشُّعراء والفنَّانين. ولكنَّ البشر العاديِّين لا يُديمون السُّخرية مِنَّا بمسحة من التفوُّق، على الرَّغم من أنَّ فلاسفة الجرائد يريدوننا الاعتقادَ بخلاف ذلك. إنَّهم يسخرون بمودَّةٍ في الغالب الأعمِّ، ولكنَّها السُّخرية التي دائماً ما تشبه تربيتةً يقوم بها أحد الرَّاشدين على رأس طفل، شخص غير مقتنع بيقين الحياة وصحَّتها.

وكان ذلك يثير في العادة حنقي، لاعتقادي السَّاذج -فلقد كنتُ ساذجاً حينئذ- أنَّ الابتسامة التي يطلقونها ضدَّ انهماك الآخرين في أحلامهم، وفي وصف تلك الأحلام، كانت بمثابة رائحة كريهة تنبعث من إحساس عميق بالتفوّق. إنَّها، في الواقع، مجرَّد اعتراف صريح بالاختلاف. وفي حين كنت أعدُّ تلك الابتسامة إهانةً، لأنَّها تنطوي على نوع من التفوُّق، فإنَّني أُعدُّها الآن تعبيراً عن ريبة غير واعية؛ فمثلما يستشفُّ الرَّاشدون في العادة تمتُّعَ الأطفال بفطنةٍ أمضى من تلك التي يتمتَّعون بها، فإنَّ المبتسمين السَّاخرين يستشفُّون فينا -نحن الذين نحلم ونفصح عن أحلامنا- اختلافاً يرتابون فيه لأنَّه غريب. أودُّ الاعتقاد بأنَّ الأكثر فطنة من بينهم يلمحون تفوّقنا فيبتسمون ساخرين كي يحجبوا تلك الحقيقة.

ولكنَّ تفوُّقنا ليس مثلما ينظر إليه كثير من الحالمين؛ فالحالم ليس أسمى من الإنسان العمليِّ، لأنَّ الحلم أسمى في جوهره من الواقع. يكمن تفوُّق الحالم في حقيقة أنَّ الحلم عمليٌّ أكثر من العيش، وفي حقيقة أنَّ الحالم يجني من الحياة لذَّة أعظم وأكثر تنوُّعاً من الإنسان العمليِّ. المختصر المفيد: الحالم هو الإنسان العمليُّ الحَقُّ.

ولأنَّ الحياة بالضرورة حالة ذهنيَّة، وكلُّ شيء نفعله أو نفكِّر فيه لا يكون قيِّماً إلَّا حين نفكِّر في أنَّه كذلك، فإنَّها تعتمد علينا في أيِّ قيمة قد تمتلكها. إن الحالم هو مَن يُوزِّع الأوراق

---

(225) وثمَّة، هُنَا، مثال آخر على «تعدُّد» النَّظرة التي تعامل بها محرِّرو الطَّبعات البرتغاليَّة المختلفة مع شذرات بِسُوَّا هذه. فنرى برادو كويلو يورد الفقرة الأولى من هذا المقطع كشذرة مستقلَّة بذاتها في طبعته (المقطع 136) نظراً لقيام بِسُوَّا في الأصل بوضع خطٍّ طويل متقطِّع يفصل هذه الفقرة عن بقيَّة الفقرات، في حين أوردت الطَّبعات الأخرى هذه الفقرة كجزء من النَّص الكليِّ المرقون أصلاً على الآلة الكاتبة، بالحبر الأزرق، في صفحة واحدة. (المترجم)

النَّقدية، وتُمرَّر هذه الأوراق حول مدينةٍ روحه مثلما يحدث في الحقيقة بالضَّبط. ما يهمُّني إمكانية ألَّا تتحوَّل الورقة النَّقديَّة لروحي إلى ذهب البتَّة، فلا ذهبَ هناك البتَّة في الخيمياء المُختلَقة للحياة. نحنُ وبعدنا الطُّوفان، ولكنْ ليس إلَّا بعدنا جميعاً. فالبشر المتفوِّقون الحقيقيُّون (والأسعد) هُم أولئك الذين يؤلِّفون رواياتهم الخاصَّة، مدركين أنَّ كلَّ شيء خياليٌّ، قبل أن يؤلِّفها شخص آخر نيابة عنهم، ثُمَّ يرتدون أردية الحاشية الملكيَّة، على شاكلة ميكافيلي، كي يكتبوا في السِّرِّ.

249

[18 مايو 1930]

أنْ تعيشَ يعني أنْ تكونَ غيرَك. فحتَّى الشُّعور مستحيل لو شعر المرءُ اليومَ بما شعر به بالأمس، لأنَّ ذلك ليس شعوراً، وإنَّما تذكُّر ما شعر به المرء بالأمس لا غير، أن يكون الجثَّة الحيَّةَ لحياة الأمس المفقودة.

أنْ تمحو كلَّ شيء على السَّبُّورة من يوم إلى آخر، أن تكون جديداً كلَّ فجر جديد، في حالةٍ من البتولة العاطفية المتجدِّدة أبدَ الدَّهر - ذاك، وذاك وحده، ما يستحقُّ أن نكونه أو نملكه، لو كُنَّا سنكون، أو نملك، أنفسَنا المنقوصة.

وهذا الفجرُ أوَّل فجرٍ رآهُ العالَم. ولم يسبق لهذا الضَّوء البنفسجيِّ أن تضاءل أصفرَ ثُمَّ أبيضَ وهَّاجاً فاسَّاقطَ هادئاً بهذي الطَّريقة على الوجوه فاستدارتِ العيونُ المحجوبة خلف زجاج النَّوافذ غرباً إلى الصَّمت الذي يأتي مع الضَّوء المتعاظم. ولم يسبق لكينونتي أن وُجدَتْ قبل هذي السَّاعة وهذا الضَّوء. سيكون مختلفاً ما سيأتي غداً، وما أراه سوف يُرَى بعينَيْن مختلفتَيْن، طافحتَيْن برؤيا جديدة.

أيَّتها الجبالُ العالياتُ؛ يا جبالَ المدينةِ! أيَّتها العماراتُ العظيمة التي تجذرتْ في السُّفوح المُنصَبَّة، ثُمَّ صعدَتْ فوقَها سَيْلاً من بيوتٍ تكوَّمتْ خَبْطَ عشواءٍ، ثُمَّ حَبَكَ بعضَها ببعضٍ الضَّوءُ المنبعث من الظِّلال والنَّارِ - أنتِ النَّهارُ، وأنا أنتِ لأنَّني أراكِ، وأنتِ ما [لن تكُونيْهِ] غداً، وإنِّي، إذ أميلُ مَيْلَ المُستندِ إلى السِّياج الذي يُطوِّق سطحَ السَّفينة، أُحبُّكِ حُبَّ السَّفائن حين يمرُّ بعضُها ببعضٍ، يعتريها في العبور حنينٌ لا يُفسَّرُ.

[12 يونيو 1930]

ثمَّة أوقاتٌ يُرهقنا فيها كلُّ شيء، حتَّى تلك الأشياء التي تجلب لنا الرَّاحة في العادة. فمن الواضح أنَّ المُرهِقَ يُرهقنا لأنَّه مُتعَبٌ؛ ويُتعبنا المُرِيحُ لأنَّ فكرةَ ضرورة الحصول عليه مُتعِبةٌ. يكمن وراء الكَرْب كُلِّه والألم كُلِّه بعضُ أَوْهَانِ الرُّوح، وأظنُّ أنَّ الذين يظلُّون غير مدركين هذه الأَوْهَان هُم أولئك الذين يتفادون الكَرْب والألم، فيحجبون سأمَهم بمهارةٍ عن أنفسهم. ولأنَّهم يُدرِّعون أنفسَهم بهذه الطَّريقة ضدَّ العالَم، فلا عجبَ أن يشعروا فجأةً، في مرحلة معيَّنة من وعيهم بأنفسهم، أنَّهم مسحوقون تحت ثِقَل ذلك الدِّرع برمَّته، فتتكشَّف الحياة لهم كَرْباً معكوساً وألماً غائباً.

هكذا أشعر في هذه اللَّحظة، فأكتب هذي السُّطور كشخص يكافح ليعرف أنَّه على الأقلِّ يعيشُ. عملتُ طيلة النَّهار حتى هذه اللَّحظة وأنا نصف نائم، حالماً بطريقي عبر الحسابات التي أُدوِّنها على أكمل وجه في أثناء سُباتي. فلقد شعرتُ طيلة اليوم وكأنَّ الحياة تُثقِل جفوني وصدغيَّ - عيناي مُثقلتان بالنَّوم، وضغطٌ متواصل على صدغيَّ، وعيٌ بهذا كُلِّه في هاوية معدتي، ومشاعر غثيان ويأس.

يبدو العيش، بالنِّسبة إليَّ، غلطةً غيبيَّة على صعيد المادَّة، وزلَّةً على صعيد الكَسَل. لا أنظر حتَّى لأرى أيَّ نهارٍ اليوم؛ لأرى إن كان ثمَّة شيء قد يلهيني عن نَفْسي، فأغطِّي بالكلمات، حين أُدوِّن وصفه هُنَا، الكأسَ الفارغة لعشقي ذاتي. ولا أنظر حتَّى إلى النَّهار، وإنَّما أجلسُ محدودبَ الكتفَيْن، دون أن أعرف إنْ كانت ثمَّة شمس هُناك في الشَّارع الحزين حُزناً شخصياً، في الشَّارع المهجور حيث لا أسمع رغم ذلك أصواتَ المارَّة. لا أعرف شيئاً وقلبي يوجعني. أنهيتُ العمل، ولكنَّني لا أريد أن أتحرَّك من هُنا. أنظرُ إلى المدى الأبيض الضَّارب للصُّفرة في دفتر تسجيل المبيعات المُغرَّى عند أطرافه بالسَّطح العتيق للمنضدة المائلة. أُحدِّقُ في غبش الخربشات، نتيجة الاستغراق في الذَّات أو تشتُّت الفِكر المحض. يظهر توقيعي عدَّة مرَّات مقلوباً رأساً على عقب ومن الخلف إلى الأمام، على شاكلة بعض الأرقام وبعض الرُّسوم العبثيَّة، إبداعات ذهني المُشتَّت. أنظر إلى هذا كلِّه مثل فلَّاح لم يَرَ دفتر تسجيل مبيعات من قَبْل، مثل شخص يُحدِّق في آخر التَّقليعات، وذهني مشلول بأكمله (إلَّا المناطق المعنيَّة بالنَّظَر).

أشعرُ بنعاس جوَّانيٍّ عظيم حتَّى إنَّه يفيض عن حدود النَّفْس. لا أريد شيئاً، ولا أفضِّل شيئاً، فلا شيءَ أستطيع الهروب إليه.

251

[13 يونيو 1930]

أعيشُ دوماً في الحاضر. لا أعرف شيئاً عن المستقبل ولم يَعُد لديَّ ماضٍ البتَّة. فالمستقبل يرهق كاهلي بآلاف الاحتمالات، والماضي يرهق كاهلي بحقيقة العَدَم. لا آمال لديَّ في المستقبل ولا تَوْقاً حرَّاقاً (226) إلى ما قد كان. فأيُّ افتراضات يمكن أن أفترضها بشأن حياتي، حين أعرفُ ما كانت عليه حتَّى هذه اللَّحظة -وهي حياة كانت على النَّقيض تماماً ممَّا تمنَّيتُه في كثير من الأحيان- سوى أنَّها لن تكون ما أفترضه أو ما أرغب في أن تكون، وأنَّها ستكون شيئاً حدثَ لي من الخارج، ضدَّ رغبتي حتَّى؟ لا شيء في حياتي الماضية يملؤني برغبة عبثيَّة كي أُكرِّرها. فلم أكُن قَطُّ أكثر من مجرَّد أثرٍ وصورة زائفة لنَفْسي. ماضيَّ كلُّ شيء لم أستطع أن أكُونَه. ولا حتَّى المشاعر المرتبطة باللَّحظات الماضية تجعلني أشعر بالحنين؛ فما يشعر به المرء هو شعوره باللَّحظة. وبمجرَّد أن يغدو ذلك ماضياً تُقلَب الصَّفحة وتستمرُّ الحكاية، ولكنَّ النَّص يختلف.

يا أيُّها الظِّلُّ القصيرُ المعتمُ لشجرةٍ في المدينة، أيُّها الصَّوتُ الخفيفُ للماء المسَّاقط في بركة حزينةٍ، يا أخضرَ العشب الوثيرِ -أيَّتها الحديقة المَشاعُ على شفير الغسق- أنتِ لِي الكونُ كُلُّهُ، في هذه اللَّحظة، لأنك تملئينَ شعوريَ الواعي كُلَّهُ. لا أريدُ من الحياة إلَّا أن أشعرَ بأنَّها تَغِيضُ بعيداً في تلك المساءات المُباغتة، على أصوات أُناسٍ آخرين يلعبون في الحدائق التي سيَّجتها كآبة الشَّوارع المحيطة، وضربت السَّماءُ قُبَّتها التي راحتْ تلوحُ فيها النَّجومُ مرَّةً أخرى فوقَ أغصان الشَّجر العالية.

252

[نحو 13 يونيو 1930]

عاصفةٌ رعديَّة

سماءٌ واطئةٌ من غيوم ساكنةٍ. كانت زرقةُ السَّماء قد دنَّسَها بياضٌ شَفِيفُ.

وكان صبيُّ المكتب قد توقَّفَ في طرف الغرفة القصيِّ لحظةً عن رَزْمِهِ الأبديِّ للطُّرود... قائلاً بامتنان: «أَصغِ السَّمعَ إلى ذلك [...]».

صمتٌ بارد. توقَّف الصَّوت المنبعث من الشَّارع كأنَّ سكيناً قد قطعته. شعرنا، في تلك اللَّحظة التي بدتْ كأنَّها دهرٌ، بالضِّيق في كلِّ شيء، بِحَبْس أنفاسٍ كونيٍّ. توقَّف الكونُ كُلُّه. مرَّت هُنيهاتٌ وهنيهات. فادلهمَّت العتمةُ بالصَّمت.

ثُمَّ، فجأةً، بريقُ فولاذٍ لامع [...].

كم بدا الصَّليلُ المعدنيُّ للترامات إنسانياً! وكم بهيجاً مشهدُ المطر البسيط المنهمر في الشَّوارع وقد جُرَّ من الهاويةِ!

آهِ، لشبونة، يا موطني!

253

[27 يونيو 1930]

الحياة، بالنِّسبة إلينا، هي ما نتخيَّلُ أن تكون. فالحقل الوحيد بالنِّسبة إلى الفلَّاح هو كلُّ شيء؛ إنَّه إمبراطوريَّة. والإمبراطوريَّة الشَّاسعة، التي مازال قيصر يشعر أنَّها ضيِّقة، هي حقل بالنِّسبة إليه. للفقير إمبراطوريَّةٌ، وللرَّجل العظيم حقلٌ فحسب. الحقيقةُ أنَّنا لا نملك شيئاً سوى أحاسيسنا المثيرة، ولذلك لا بُدَّ أن نُشيِّد واقعَ حياتنا عليها هي في حدِّ ذاتها لا على ما تُدركه.

ولكنَّ هذا كلّه ليس وثيقَ الصِّلة بأيِّ شيء.

لقد حلمتُ كثيراً، وأنا مُتعَبٌ في هذه اللّحظة لأنّني حلمتُ، لكنّني لستُ متعباً من الحُلم. لا أحد يتعبه الحُلم، فالحُلم أنْ تنسى، والنّسيان لا يُثقِل كاهل أحد، إنّه نومٌ بلا أحلام نظلُّ فيه مستيقظين. لقد حقّقتُ بالأحلام كلَّ شيء. واستيقظتُ أيضاً، فما جدوى ذلك؟ كم قياصرةً يُعدُّون ولا يُحصَوْنَ كنتُ! ولكنْ، يا لخسّة العظماء الماجدين! فلقد بحث قيصرُ طويلاً وحثيثاً عن القرصان الرَّحيم الذي نجّاه من الموت، فاعتقله، ثُمّ صلبه. وحين خطَّ نابليون وصيّته الأخيرة في جزيرة القدِّيسة هيلانة، أوصى بتركته إلى مجرم حاول اغتيال ويلنغتون[227]. لا فرقَ بين عظمة الرُّوح تلك وعظمة روح الجار الأحول! أيّها العظماء المولودون لطبَّاخِ عالَمٍ آخر! كم قياصرةً يُعدُّون ولا يُحصَون قد كنتُ ومازلت أحلم بأنْ أكون!

كم قياصرةً يُعدُّون ولا يُحصَون كنتُ، ولكنّني لم أكُن قَطُّ مثل القياصرة الحقيقيّين. كنتُ إمبراطورياً تماماً في أحلامي، ولهذا لم أُحقِّق أيَّ شيء. هُزمَت جيوشي، ولكنَّ الهزيمة ليست ذات شأنٍ، فلم يمُت أحد. ولم تسقط رايةٌ قطُّ، فلم يسبق لي أن حلمتُ بجيش إلى الدَّرجة التي خفقَتْ فيها تلك الرَّاياتُ عند طرف تحديقة أحلامي. وكم قياصرةً يُعدُّون لا يُحصَون كنتُ هُنَا، في **خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ**. مازال أولئك القياصرة أحياء في مخيّلتي، ولكنَّ القياصرة الحقيقيّين ماتوا منذ أمدٍ بعيد، ولن تعرفهم **خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ** (أقصدُ: **الحقيقة الواقعيّة**) في هذه اللّحظة.

أقذفُ علبة ثقاب فارغة في الهاوية التي هي الشَّارع خلف عتبة نافذتي العالية. أجلسُ في كرسيّي وأُنصِت. كأنَّ الحقيقة كانت مهمَّة، فتقذفُ علبةُ الثِّقاب الفارغة صدىً واضحاً إليَّ لتخبرني بأنَّ الشَّارع مهجور. لا صوتَ بمعزل عن الأصوات التي تضجُّ بها المدينة برمَّتها. نعم، أصوات المدينة برمَّتها - أصوات كثيرة غير مفهومة، ولكنَّ كلَّ صوت في محلِّه تماماً.

يا لقلَّة ما يحتاجه المرء من العالَم الحَقِّ مُنطلَقاً لأفضل تأمُّلاته: وصلتُ متأخِّراً لتناول طعام الغداء، نفدت أعواد الثِّقاب فرميتُ العلبة الفارغة إلى الشَّارع، واعتراني بعضُ الضِّيق لتناولي الغداء متأخِّراً. ولأنَّه يوم الأحد، لا شيء يلوح في الأفق إلَّا ما يتوعَّد بمغيب شمس

(227) يقصد الدُّوق ويلنغتون الذي هزم نابليون في معركة واترلو التي نفي بعدها إلى جزيرة القدِّيسة هيلانة. (المترجم)

بائس، وبأنَّني لا أحدَ في هذا العالَم، وبعض المسائل الغيبيَّة التي من هذا القَبيل.

ولكن، كم قيصراً كنتُ!

254

[يونيو/يوليو 1930]

كانت ساعاتٍ غريبة، لحظات متوالية غير مترابطة، بدَّدتُها سائراً في اللَّيل قُربَ الشَّاطئ المتوحِّد للبحر. مرَّتْ في ذهني، وأنا أتأمَّل ماشياً، جميعُ الأفكار التي جعلت البشر أحياء، وجميع المشاعر التي سمحت للبشر بالوجود، كأنَّها تلخيصٌ غامضٌ للتَّاريخ.

ولقد كابدتُ في نَفْسي، ومع نَفْسي، طموحات كلِّ حقبةٍ، وتجوَّلتْ قلاقلُ الأزمنة كلُّها بجانبي على امتداد الشاطئ الصَّاخب الهدَّار. وكانت بعض أشياء الرُّوح الحسَّاسة التي صاحبتني على طول الشَّاطئ اللَّيليِّ: ما رغبَ البشرُ في فعله ولم يفعلوه، وما دمَّروه في أثناء قيامهم بذلك، وما حدث لأرواحهم ولم يُحكَ عنه قَطُّ. ولقد سار معي، وعاد معي، والأمواجُ الهائلة تسحقُ الصُّحبة التي هدهدتني كي أنام: ما وجدَه العُشَّاق ناقصاً لدى الذين يحبُّونهم، وحقيقةُ الزَّوجة التي أخفَتْها عن زوجها دائماً، والأفكار التي خطرت ببال الأُمِّ عن الطِّفل الذي لم تُنجبه على الإطلاق، والأشياء التي لم تجد طريقاً للتَّعبير عن نفسها إلَّا في ابتسامة أو فرصة، في لحظة لم تكُن مناسبةً أو في عاطفة مفقودة.

نحنُ ما لسنا عليه، والحياة سريعة وحزينة. وصوت الأمواج في اللَّيل صوت ليليٌّ، فكم هُم الذين سمعوه في أرواحهم كالأمل الرَّاسخ الذي يتفشَّى عند العتمة في الصَّوت الكتيم لارتطام الزَّبد العميم! وأيُّ دموع ذرفها المُخفِقون، وأيُّ دموع سفحها النَّاجحون! جاء هذا كلُّه إليَّ، في نزهتي قُربَ البحر، كأسرار اللَّيل، الأسرارِ المهموسة؛ أسرارِ الهاوية. كم واحداً نحنُ، وكم ذاتاً خَدعنا من تلك الذوات! وأيُّ بحارٍ تتكسَّرُ فِينَا، في ليل كينونتنا، على طول شواطئ لا نشعر بها إلَّا في طوفان مشاعرنا العميم!

إنه ما فقدناهُ، ما توجَّب أن نُحبَّهُ، ما جنيناهُ وقرَّتْ أعيُننا سَهواً بهِ، فَرَأَيْنَا، حينَ فقدناهُ، أنَّنا لم نُحبَّهُ ولكنَّنا مانزالُ نُحبُّهُ لأنَّنا فقدناهُ؛ ما ظننا أنَّه قد عَنَّ على بالنا حين شعرنا بشيءٍ؛ ما ظنناهُ عاطفةً فكان في الحقيقة مجرَّدَ ذكرى؛ ثُمَّ، وأنا أمشي، جاءَ البحرُ يتماوجُ كُلُّهُ، بارداً،

صخَّاباً، من أعمقِ أعماق الظَّلام، كي ينقشَ نَفْسَهُ برقَّةٍ فوق الرِّمال...

مَن منا يعرفُ الشيءَ الذي يُفكِّر فيه أو يرغبُه؟ ومَن يعرفُ، حقَّ المعرفة، أيَّ معنى يحمله لِنَفْسه؟ كم مِن الأشياء اقترحتها علينا الموسيقى، وكم من المريح معرفة أنَّ تلك الأشياء لن تكون أبداً! كم هي الأشياء التي يتذكَّرها اللَّيل وكم نبكي عليها على الرَّغم من أنَّها لم تكُن قطُّ! تتقوَّسُ الموجةُ، مثل صوت أُطلِقَ لَهُ العِنَانُ من الخطِّ السَّاكن الطَّويل للبحر، فتتكسَّرُ وتموتُ، تاركةً خلفَها صوتَ مياهها يلعقُ الشَّاطئ المحجوب.

كيف سأموت لو سمحتُ لِنَفْسي أن تشعر بتلك الأشياء كلِّها! وكم سأشعر لو سمحتُ لِنَفْسي بأن تنجرف، روحياً وجسدياً، وقلبي هادئ كشاطئ. وفي اللَّيل الذي نعيش فيه، في نزهتي اللَّيليَّة الأزليَّة على امتداد شاطئه، يهدرُ بحرُ الأشياء كلِّها عالياً مُتهكِّماً، ثُمَّ يهدأُ.

255

[16 يوليو 1930]

كأنَّ الحياةَ مرضٌ في هاوية المعدة، كأنَّ وجودَ روحك تشنُّجٌ عضليٌّ. فخراب الرُّوح، حين يُحَسُّ بحدَّة، يخلقُ أمداءً بعيدةً في الجسد فيُوجِعُ بالإنابة.

أعي في نَفْسي اليومَ أنَّ ألمَ الوعي هُوَ، كما يقول الشَّاعر[228]:

وَهَنٌ، وغثيانٌ

وشوقٌ رهيبٌ.

256

[20 يوليو 1930]

كلَّما حلمتُ كثيراً، أخرجُ إلى الشَّارع وعيناي مفتوحتان، ولكنَّ طمأنينة تلك الأحلام مازالت تُدثِّرني. تعجَّبتُ كيف أَخفق كثير من النَّاس في إدراك عَفويَّتي، فأنا أسير في الحياة

(228) يقصد الشَّاعر الإسباني الرُّومانسي خوسيه دي إسبرونثيدا Espronceda (1808–1842)، والبيتان مُستلَّان من قصيدته الطويلة El Estudiante de Salmanca (تلميذ سالامنكا، أو شَلَمنقة، بحسب اللَّفظ الذي أورده الإدريسي في نزهة المشتاق). وهي قصيدة طويلة، نشرت في نحو 1840 بيتاً. وكان بِسُوًّا قد عكف على ترجمتها إلى الإنكليزيَّة، تاركاً التَّرجمة إلى زميله تشارلز جيمز سيرتش، ولكنَّه لم يُكملها. (المترجم)

اليوميَّة ممسكاً بيد مُربِّيتي النَّجميَّة، وقدمايَ في الشَّارع متوافقتان ومتناغمتان مع المُخطَّطات الغامضة التي وضعتها مُخيِّلتي النَّائمة. غير أني أسير، رغم ذلك، في الاتِّجاه الصَّحيح في الشَّارع. أنا لا أتعثَّر، وأتصرَّف مثلما ينبغي لي؛ إنَّني موجودٌ.

ولكن، كلَّما كان فاصلٌ زمنيٌّ لا يتوجَّب عليَّ فيهِ أن أنظرَ إلى حيث أذهبُ كي أتفادى السيَّارات أو المارَّة، حين لا ينبغي أن أُكلِّم أحداً أو أتفادى الدُّخول إلى مدخل قريب، أترك نَفْسي تنجرف مرَّة أخرى مثل قارب ورقيٍّ على ماء الأحلام، فأعودُ ثانيةً إلى الوهم المحتضر الذي احتضن وعيي الغامض بالصَّباح الضاجِّ بالحياة في غمرة أصوات السيَّارات التي تحمل الخُضَر إلى السُّوق.

إنه هُنَاك، في غمرة الحياة، حيث يصير الحلم مثل شاشة سينما شاسعة. أذهب في شارع حُلميٍّ في بَايْشَا والحقيقة الواقعيَّة للحيوات المحلوم بها التي تقطن فيه تعصبُ برقَّةٍ عصابةً بيضاء من ذكريات باطلة حول عينيَّ. أصيرُ ملَّاحاً يستكشفُ أنا مجهولةً[229]. أهزمُ الجميع حتَّى في الأماكن التي لم أزرها البتَّة. وكأنَّها نسيم عليلٌ، حالة السَّكينة، هذه، التي أمشي فيها، مائلاً إلى الأمام، في مسيرتي فوق المستحيل.

تُسْكِرُ كلَّ واحدٍ مِنَّا أشياءُ مختلفة. ثمَّة سُكْرٌ يكفيني في وجودي فحسب. تُسكِرني مشاعري، أترَنَّحُ، لكنِّي لا أَضِلُّ. إذا كانَ وقتُ العودة إلى العمل، أعودُ إلى المكتب مثل أيِّ شخص آخر تماماً. وإذا لم يكُن، أذهبُ إلى النَّهر كي أُحدِّق في المياه، مرَّة أخرى، مثل أيِّ شخص آخر. أنا ذاتي، لا غير. لكنَّني، خلفَ هذه الرَّتابة التي لا تتبدَّلُ، أنثرُ سمائيَ بالنُّجوم سِراً، فأخلقُ أبديَّتي.

257 [230]

[نحو 24 يوليو 1930]

أكتبُ وإحساسٌ غريب بالحُزن يعتريني، أستفيدُ من اختناقٍ فكريٍّ مُعيَّن ينتابُني جرَّاءَ

---

(229) الأنا، هُنا، نكرةٌ؛ إشارة إلى الأنوات الكثيرة التي تعيش في داخل نفس بِسُوًا. (المترجم)

(230) تُوجَد على ظهر القصاصة، التي خطَّ عيها بِسُوًّا هذه الشَّذرة، قصيدةٌ بعنوان «Brisa Irreal da aurora» (= نسيمُ فجرٍ كاذب) مؤرَّخة بتاريخ 1930/7/24، مطلعها: «Brisa irreal da aurora,/ Ar de nascer o dia,/ A um coração que implora/ Que lhe deem alegria/ Dizes porque é que chora.» (= يا نسيمَ الفجر

كَمال المساء. وهذي السَّماء الزَّرقاء البديعة تتلاشى ورديَّةً شاحبة فوق نسيم عليل وطيد يملأُ وعيي بنَفْسي برغبةٍ مُلحَّة في الصُّراخ. فأنا، بعد كلِّ شيء، أكتبُ لأهربَ وأهربَ من جديد. أجتنبُ المُثُل العُليا. أنسى تعبيرات معيَّنة، فتتجلَّى لي في أثناء الحركات الفيزيقيَّة للكتابة، كأنَّ القلمَ كان يقوم بتلك الحركات.

ولم ينجْ ممَّا فكَّرتُ فيه، وممَّا شعرتُ به، إلَّا رغبة غامضة وعقيمة في البكاء.

258

[25 يوليو 1930]

لا نُحبُّ أحداً بتاتاً. لا نُحبُّ إلَّا فكرتَنا عمَّا يبدو عليه شخصٌ ما. نحبُّ فكرةً من أفكارنا؛ بيتُ القصيد: إنَّنا نحبُّ أنفسَنا.

وينطبق هذا على كلِّ أنواع الحُبِّ. نبحثُ، في الحُبِّ الجنسيِّ، عن لذَّتنا عبر وسيط جسدِ الآخر. ونبحثُ، في الحُبِّ غير الجنسيِّ، عن لذَّتنا عبر وسيطِ الفكرة التي لدينا. فقد يكون المُستمنِي مخلوقاً وضيعاً، لكنَّه، في الحقيقة، التَّعبيرُ المنطقيُّ عن العاشق. إنَّه الوحيد الذي لا يقرف من نَفْسه ولا يغويها.

إن العلاقات بين روح وأخرى، المُعبَّر عنها عبر تلك الأشياء المتباينة غير المؤكَّدة كالكلمات المتبادلة والإيماءات الصَّادرة، لهي علاقاتٌ ذات تعقيدٍ غريب. فالطريقة التي نستخدمها كي يعرف بعضُنا بعضاً هي ذاتها شكل من أشكال الجهل. وحين يقول شخصان لبعضهما «أحبُّك» (أو ربَّما يفكِّران أو يتبادلان العاطفة) فإن كلَّ واحد منهما يقصدُ بذلك شيئاً مختلفاً، حياة مختلفة، أو حتَّى لوناً ورائحة مختلفَيْن في الخُلاصة المجرَّدة للانطباعات التي يتكوَّن منها نشاط الرُّوح ربما.

إنَّني شفَّافٌ اليومَ كأنَّني قد أحجمتُ تماماً عن الوجود. تتمدَّدُ أفكاري عاريةً مثل هيكل عظميٍّ، وقد تجرَّدتْ من الأسمال البالية لوهم التَّواصُل. وهذه الأفكار، التي أُشكِّلها في البَدْءِ ثُمَّ أنبذُها، مولودةٌ من العَدَم، مِن لا شيءَ بتاتاً، ليس من شيءٍ موجود في هاوية وعيي على

الكاذب/ يا هواء الشَّمس المشرقة/ لِمَ تقولُ للقلب الذي يستجدي الفرحَ:/ لماذا تبكي). وثمَّة بعض عبارات فضفاضة أخرى في طرف القصاصة: «لا شيء في الصَّباح/ إنَّها مجرد برهة/ إنَّها مُجرَّد «Não é nada a manhã | É só um tempo | É só uma». (المترجم)

الأقلّ. ربَّما من الخيبة في الحُبِّ التي ذاقَها مندوبُ مبيعاتنا الجوَّال، في علاقته مع الفتاة التي كان يُواعدها، وربَّما من عبارة أُخذتْ من حكاية علاقة غراميَّة أعادت نشرها الصُّحف المحليَّة نقلاً عن الصحافة الأجنبيَّة، وربَّما من غثيان غامض أحمله فِيَّ ولم أستطع طرده من جسدي...

ولقد أخطأ شارحُ ڤرجيل، فنحن ندرك تماماً أنَّ الشعور الذي نحس به أكثر من أي شيء آخر لا بُدَّ أن يكون التَّعَب. فأنْ نعيش يعني ألَّا نُفكِّر.

259

[نحو 27 يوليو 1930]

الإحساس بالرَّائحة يشبه طريقة غريبة في النَّظَر. إنَّها تستثيرُ المناظر العاطفيَّة من مُجرَّد رسم خُطَّ في عقولنا اللَّاواعية. لطالما شعرتُ بذلك. أسيرُ في شارعٍ. لا أرى شيئاً، أو بالأحرى: على الرَّغم من أنَّني أنظرُ إلى كلِّ شيء، فإنني لا أرى سوى ما يراه الجميع. أعرفُ أنِّي أمشي في شارعٍ، لكنَّني غير واعٍ أنَّ لَهُ جانبَيْن يتكوَّنان من بيوت مختلفة شيَّدتها كائنات بشريَّة. أسير في شارعٍ. تفوح من الفُرنِ رائحة الخبز الشَّهيَّة التي تكاد تُغثيني، فتنهض طفولتي من حارة في الطرف الآخر من المدينة، ويتجلَّى أمامي فرنٌ آخر من تلك المملكة الخرافيَّة التي هي كلُّ شيء فقدناه. أسير في شارعٍ. فيفوحُ فجأةً برائحة الفاكهة على المنصب خارج دكَّان صغيرة ضيِّقة، ووقتي القصيرُ في الرِّيف -لم أعُد أعرفُ متى كانَ أو أينَ- يزرعُ أشجاراً في قلبي وسلوى هادئةً، للحظة هي بالتَّأكيد لحظة الطِّفل الذي كُنتُه. أسير في شارعٍ. فتجتاحني، على نحو فجائيٍّ تماماً، رائحةُ صناديق الخشب التي سوَّاها صانع الصَّناديق: آهِ، يا **سيزاريُو**[231]، هَا أنتَ تظهرُ الآنَ أمامي، فتغمرني السَّعادة أخيراً. لقد عدتُ، عبر ذاكرتي، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي الأدب.

260

[نحو 27 يوليو 1930]

سببُ معاناة معظم النَّاس عجزُهم عن قول ما يرونه أو يُفكِّرون فيه. يقولون إنَّه لا

---

(231) يقصد الشَّاعر سيزاريو ڤيرد، الذي سبقت الإشارة إليه في شذرات سابقة. (المترجم)

يُوجَد شيءٌ أصعبُ من تعريف لولبٍ بالكلمات؛ يقولون إنَّه لا بُدَّ، لوصفه في الهواء، بيدي المرء الأُمِّيَّتَيْن، من استخدام إيماءات تصعدُ لولبيَّةً على مهلها إلى الأعالي، لإظهار كيف ترى العينُ ذلك الشَّكل اللَّولبيَّ المُجرَّد، الخاصَّ بالزُّنبركات المُلتفَّة وبعض السَّلالم. ولكن، طالما نتذكَّر أنَّ الكلام يعني تجديد اللُّغة، فلن نواجه صعوبة مهما كانت في وصف اللَّولب: إنَّه دائرةٌ تصعدُ عالياً لكنَّها لا تنغلق على نَفْسها أبداً (أعرفُ، حقَّ المعرفة، أنَّ معظم النَّاس لن يجرؤوا على تعريفه على هذا النَّحو، لأنَّهم يظنُّون أنَّه لا بُدَّ للمرء، إذا أراد تعريف شيء، أن يقول ما يرغب فيه الآخرون لا ما يحتاج إلى قوله كي يضع تعريفاً معيَّنا لذلك الشَّيء). وقد أذهب أبعدَ: اللَّولبُ دائرة افتراضيَّة تُكرِّرُ نَفْسها حين تصعدُ، لكنَّها لا تكتملُ أبداً. ولكن، كلَّا، مازال ذلك مُجرَّداً. فلو جعلته ملموساً، سيغدو واضحاً تماماً: اللَّولب أفعى، ليست في الحقيقة أفعى، تلتفُّ عمودياً حول لا شيء.

ينطوي الأدب كلُّه على محاولة جعل الحياة واقعيَّة. فالحياة، في واقعيَّتها الملموسة، غير حقيقيَّة البتَّة، والجميع يعرف ذلك، حتَّى حين يتصرَّفون وكأنهم لا يعرفون؛ فالحقول، والمدن، والأفكار محضُ خيالٍ، نسلُ تجربتنا المعقَّدة عن أنفسنا. والانطباعات عصيَّةٌ على التَّعبير إلَّا بعد تحويلها إلى أدب. الأطفال أدباء بالفطرة لأنَّهم يقولون ما يشعرون به ولا يتحدَّثون مثل شخص يشعرُ وفقَ مشاعر شخص آخر. سمعتُ طفلاً على وشك الانفجار باكياً، إنه لا يقول: «أشعرُ برغبة في البكاء»، على شاكلة ما سيقوله شخص راشد، شخص أحمق، وإنَّما: «أشعر برغبة في الدُّموع». وهذه العبارةُ -الأدبيَّةُ بكلِّ ما في الكلمة من معنى، إلى الحدِّ الذي تُعَدُّ فيه حذلقةً لو نطقتْ بها شفتا شاعر ذائع الصِّيت (إن كان قادراً على اختلاقها أصلاً)- تشيرُ، بصورة قطعيَّة، إلى الوجود الحارِّ للدُّموع خلف الجفون التي تضطرم بسائل لاذعٍ مرير. «أشعر برغبة في الدُّموع»، ولقد صاغ ذلك الطِّفل تعريفاً بديعاً للولبه الخاصِّ.

أن نقول الأشياء! أن نعرف كيف نقول الأشياء! أن نعرف كيف تُوجَد عبر الصَّوت المكتوب والصُّور الذِّهنيَّة: هذا هُوَ جوهر الحياة. والبقيَّة مجرَّدُ رجال ونساء، وعشَّاق متخيَّلون وأباطيل متخيَّلة، وأعذار ناجمة عن سوء الهضم والنِّسيان، وبشر يتلوُّون تحت جلمود الصَّخر العظيم المُجرَّد لسماءٍ زرقاء عقيمة، كما تتلوَّى الحشرات حين نرفعُ عليها حجراً.

[10 ديسمبر 1930] (232)

تنتابني فترات خمول عميم. لا أقصدُ بهذا أنَّني أستغرق، مثل معظم البشر، أيَّاماً وأيَّاماً للرَّدِّ ببطاقة بريديَّةٍ على رسالة عاجلة أرسلها إليَّ شخص ما. ولا أقصدُ أنَّني أُؤجِّلُ إلى أجل غير مسمَّى، مثل معظم البشر مرَّة أخرى، شيئاً بسيطاً قد يكون مفيداً لي، أو شيئاً مفيداً قد يجلب لي المسرَّة. فسوءُ فهمي مع نَفْسي أدق من هذا. أنا أتأسَّن داخل روحي. أعاني من تعطيل الإرادة والعاطفة والفِكر الذي يستمرُّ أيَّاماً في كلِّ مرَّة؛ فلا أستطيع التَّعبير عن نَفْسي إلَّا إلى الآخرين الذين أستطيع التَّعبير من خلالهم عن نَفْسي إليَّ، في الحياة الخاملة المحضة للرُّوح، بالكلمات، والإيماءات، والعادات.

أكون، في هذه الأوقات الغامضة، عاجزاً عن التَّفكير، أو الشُّعور، أو الرَّغبة. ولا أستطيع كتابة شيء إلَّا أرقاماً أو مجرَّد خربشات بالقلم. لا أشعر بشيء، فلا يعنيني حتَّى موت شخص أحبُّه، كأنَّ موتَهُ قد حدث في لغة أجنبيَّة. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً، كأنَّني قد نمت فكانت إيماءاتي وكلماتي وأفعالي مجرَّد سطحٍ خارجي يتنفَّس؛ غريزة إيقاعيَّة لكائن حيٍّ.

هكذا تمرُّ الأيَّام والأيَّام؛ فكم كنتُ سأُضيف من حياتي إلى تلك الأيَّام، لا أعرف. أُفكِّرُ أحياناً بأنَّني حين أخلع عنِّي في نهاية المطاف ثيابَ الخمول هذه، قد لا أقف عارياً مثلما أتخيَّل، فربَّما تظلُّ بعض الثِّياب الغامضة تكسو الغياب الأبديَّ لروحي الحَقَّة. يخطر ببالي أن التَّفكير أو الشُّعور أو الرَّغبة قد تكون أشكالاً خاملة لطريقة في التَّفكير أكثر ذاتيةً، ومشاعر أكثر حميميَّة، وإرادة ضاعت في مكان ما، في متاهة مَن أكون حقاً.

سأترك الحقيقة مثلما هي، بصرف النَّظر عمَّا تكون، وسوف أُسلِمُ ما سوف أكون عليه إلى الآلهة أو الإلهات التي قد تُوجَد بصرف النَّظر عمَّا تكون، مستسلماً لأيِّ قدَرٍ قد تجود به، وأيِّ فرصة قد تُتيحها، مخلصاً لوعد منسيٍّ.

(232) كتب بِسُوَّا هذا التاريخ في الأصل على هذه الشَّاكلة: 1930/XII/10، مستخدماً الأرقام الرُّومانية XII في الإشارة إلى شهر ديسمبر. (المترجم)

[1930؟]

لا أومن، حَقَّ الإيمان، بسعادة الحيوانات، إلَّا حين أريد استخدامها إطاراً لبعض المشاعر التي تدعم تلك الفرضيَّة. فلكي يكون المرء سعيداً لا بُدَّ أن يعرف أنَّه سعيد. فالسَّعادة الوحيدة التي ينالها المرء من تمتُّعه بنوم بلا أحلام هي اليقظة ومعرفة أنَّه قد نام دون أن يحلم. السَّعادة تُوجَد خارج نَفْسِها.

لا سعادةَ دون معرفة، ولكنَّ معرفة السَّعادة تجلب التَّعاسة، فلا بُدَّ للمرء كي يعرف أنَّه سعيد أن يعرف أنَّه يمرُّ بحالة من السَّعادة، وسوف يضْطَرُّ قريباً إلى تركها خلفه. فالمعرفة قتَّالةٌ، سواء في السَّعادة، أو في أيِّ شيء آخر، ولكنَّ عدم المعرفة يعني انعدام الوجود.

ولم يتمكَّن إلَّا مُطلَقُ هيغل، عبر عدَّة صفحات، من أن يكون شيئَيْن في آنٍ معاً. لم يندمج الوجود والعَدَم، في المشاعر وقوى الحياة المُحفِّزة، أو يختلطا سويَّةً البتَّة؛ فقد ظلَّ أحدُهما يُقصي الآخَر، عبر سيرورةِ تخليقٍ ضِدِّيٍّ.

فما عسى المرء أن يفعل؟ أن يعزل اللَّحظة كأنَّها شيء ماديٌّ ويكون سعيداً في هذه الأثناء. ففي اللَّحظة التي يشعر فيها المرء بأنَّه سعيد، من دون حتَّى التَّفكير فيما يشعر به، فإنَّه يستبعدُ ببساطةٍ كلَّ شيء آخر. أنْ يحبسَ الفِكر في الشُّعور [...]

الابتسامةُ الأُموميَّة المشرقة للأرض السَّخيَّة، والبهاءُ الكثيف للعتمة التي فوق [...][233]

هذا ما أومن به في هذا الأصيل، ولكنَّ الأمر سيكون مختلفاً صباحَ الغد، لأنَّني سأكون مختلفاً صباحَ الغد. فأيَّ نوع من المؤمنين سأكونُ غداً؟ لا أعرفُ، ولا بُدَّ، كي أعرف، أن أبلغَ الغدَ فعلاً. ولا حتَّى الإله الذي أومن به في هذه اللَّحظة يستطيع أن يعرف ذلك، لا اليوم ولا غداً. فأنا اليومَ أنا، وقد لا يكون هُوَ موجوداً البتَّة في الغد.

(233) تظهر هذه الجملة في الأصل معزولة بين سطرين كبيرين متقطِّعين مرقونيْن على الآلة الكاتبة. (المترجم)

[1930؟]

تنتابني الدَّهشة كلَّما انتهيت من شيء. أُدْهَشُ فأكتئب. لا بُدَّ لرغبتي في الكَمال أن تمنعني الانتهاءَ من أيِّ شيء أبداً؛ ولا بُدَّ حتَّى أن أمنع نَفْسي أن تبدأ، لكنَّني أنسى ذلك فأبدأ. وما أُحقِّقه ليس نتاجَ التَّطبيق وإنَّما نتاج استسلام الإرادة. أبدأُ لأنَّني لا أمتلك القوَّة لأفكِّر، وأنتهي لأنَّني لا أمتلك الجرأة كي أتخلَّى عنه؛ فهذا الكتاب جُبني.

وسببُ انقطاعي عادةً عن فكرةٍ ما لإدخال وصف لمنظر طبيعيٍّ يكون متناغماً بطريقة حقيقيَّة أو مُتخيَّلة مع المخطط الإجماليِّ لطموحاتي، كامنٌ في أنَّ المنظر الطبيعيَّ بابٌ أستطيع عبره الهروبَ من معرفة عُقمي الإبداعيِّ. فغالباً ما أشعر، في غمرة أحاديثي مع نَفْسي التي تكوِّن هذا الكتاب، برغبةٍ فجائيَّة في الحديث مع شخص آخر، فأُخاطب الضَّوء المُحوِّم، مثلما يفعل في هذه الأثناء، فوق أسطح البيوت التي تلمع كأنَّها مُخضَّلةٌ بالنَّدى، أو كأنَّ الأشجار العالية التي تبدو قريبةً تتمايلُ بخفَّةٍ فوق سفح تلِّ المدينة، تتمرَّنُ على احتماليَّة سقوطها الصَّامت، أو المُلصقات الدَّعائيَّة المُلصقة، بعضُها فوق بعض، على جدران البيوت المنحدرة بنوافذ تغطِّيها الكلمات، حيث تجعلُ الشَّمس الميِّتة الغراءَ الذي مازال رطباً يبدو ذهبياً.

لماذا أكتبُ إنْ لم أستطع الكتابة أفضل؟ وماذا سأصيرُ إنْ لم أكتب ما أتمكَّن من كتابته، مهما انحططتُ إلى ما دون مستوى معاييري؟ فأنا مُبتذَلٌ في طموحاتي لأنَّني أحاول أن أُبدع؛ أخاف الصَّمتَ مثلما يخاف الآخرون الدُّخول إلى غرفة معتمة وحيدين. أنا مثل أولئك البشر الذين يُقدِّرون الميداليَّة أكثر من الجهد المبذول للفوز بها؛ الذين يرون المجد في الشَّرائط الذهبيَّة المجدولة[234] التي تُزيِّنُ البزَّات الرسميَّة.

الكتابةُ عِنْدي احتقارُ نَفْسي، ولكنَّني لا أكفُّ عن الكتابة، فالكتابة مثل مُخدِّرٍ أشمئزُّ منه بيد أني لا أكفُّ عن تناوله، رذيلةٍ أحتقرها لكنَّني أعيش من أجلها. فثمَّة سموم ضروريَّةٌ وأخرى في غاية البراعة، مصنوعة من مكوِّنات الرُّوح، وأعشاب جُمِعَتْ في زوايا أحلامٍ يبَابٍ، والأوراق الطَّويلة لأشجار فاحشةٍ تلوِّح بأغصانها على الضِّفاف الصَّاخبة للأنهار الجهنميَّة للرُّوح.

(234) كتلك التي تُزيِّن البزَّات العسكريَّة الرَّسميَّة. (المترجم)

نعم، أنْ تكتبَ أنْ تُضيِّع نَفْسك، ولكنَّ الجميع يضيعون، لأنَّ كلَّ شيء في الحياة ضائعٌ. ولكنِّي، بخلاف النَّهر المتدفِّق في المَصبِّ الذي يجهل أنَّه قد وُلِدَ من أجله، لا أشعرُ بالبهجة حين أُضيِّع نَفْسي، ولكنَّني أستلقي مثل البركة التي تُركتْ على الشَّاطئ في المدِّ العالي، بركةٍ لن تعود مياهُها، التي بلعتها الرِّمال، إلى البحر أبداً.

264

[1930؟]

تنتشرُ المدينة الحائرة الصَّامتة تحتَ تحديقتي التي يغمرها الحنين. والمنازل، المختلفة جميعاً، تنتصب معاً في حشد مُكتظٍّ على بكرة أبيه، وضوءُ القمر الحيران، حيرةَ المدينة نَفْسها، يُبَرِّكُ هذه الفوضى الصَّامتة، المتدافعة، بعِرقٍ من اللُّؤلؤ. لا شيء سوى الأسطح واللَّيل والنَّوافذ وهواء خفيف يهبُّ من العصور الوسطى، ولا شيء آخر. نَفَسٌ قادم من بعيد يُخيِّمُ على كلِّ شيء. وما أراه، من مكان وقوفي، يستلقي متأرجحاً في أغصان الأشجار المعتمة. أحمل المدينة النَّائمة كلَّها في قلبي المسكين الكئيب. فَيَا لِلشبونةَ في ضوء القمر، ويا لتعبي من مشهد يوم آخر!

ويَا لَهُ من ليلٍ! أتمنَّى ألَّا يُنعِمَ عليَّ مَن أوجدَ هذي التَّفاصيل الدَّقيقة، بحالٍ أفضلَ، ولا لحنٍ أعذبَ، من هذي اللَّحظة القمريَّة الفريدة التي أعرف فيها نَفْسي وأجهلُ فيها نَفْسي على حدٍّ سواء.

فلا نسيمَ، ولا بشرَ يقطعون الأفكار التي لا تخطر ببالي. الوَسَنُ والعَيْشُ شيءٌ واحدٌ. إلَّا أنَّني أستطيع الشَّعورَ بشيءٍ يضغطُ على جفوني. أستطيع سماعَ أنفاسي. أنائمٌ أنا أمْ يقظانُ؟

أمشي إلى المنزل، قدماي ثقيلتان كالرَّصاص، وحواسِّي مُرهَقة. مداعبةُ النَّوم الماحي، زهرةُ العبثِ المُطلَق، اسمي الذي لم يُنطَق بتاتاً، وقلَقي المطويُّ بين شاطئَيْن، ومتعةُ الواجبات المهجورة، ثُمَّ، في العطفة الأخيرة للممرِّ الذي يشقُّ المتنزَّهَ العتيق، يطلُّ ذلك القَرنُ الآخَرُ مثل حديقةٍ من الزُّهور.

265

[1930؟]

يتمتَّع الإنسان العاديُّ، مهما كانت حياته شاقَّة، بلذَّة عدم التَّفكير على الأقلِّ. عيشُ الحياة كما هي، في الظَّاهر، مثل قطٍّ أو كلب - وهذا ما يفعله معظم البشر، وهكذا يتوجَّب عليك أن تعيش إذا أردتَ أن تكون قانعاً قناعةَ قطٍّ أو كلب.

أنْ تُفكِّر يعني أنْ تُدمِّر. فالتَّفكير في حدِّ ذاته تُدمِّرُهُ سيرورةُ التَّفكير نَفْسُها؛ التَّفكير أنْ تُتلِف وتُفكِّك. ولو كان البشر قادرين على تأمُّل سرِّ الحياة، ولو كانوا قادرين على الشُّعور بآلاف التَّعقيدات التي تتجسَّسُ على الرُّوح في كلِّ تفصيلة من كلِّ فِعل، لما أقدموا على فعل شيء البتَّة - حتَّى إنَّهم لن يكونوا قادرين على العيش أبداً. سوف يقتلون أنفسهم خوفاً من الخوف نَفْسه، على نحو ما يقتل بعض البشر أنفسهم كي لا يُعدَموا بالمقصلة في اليوم التَّالي.

266

[1930؟]

باغتَ روحي بعنفٍ مُذهِل، أكثر من مرَّة، وأنا أتمشَّى في الخارج مساءً، حضورُ الأشياء الغريب وطريقة ترتيبها في العالَم. ليست الأشياء الطَّبيعيَّة التي تؤثِّر فِـيَّ كثيراً، والتي تُعبِّرُ عن ذلك الشُّعور بقوَّة، وإنَّما ترتيب الشَّوارع، ويافطات المتاجر، وحديث البشر بعضُهم إلى بعض، وثيابهم، ووظائفهم، وجرائدهم، والفطنة التي تكمُن في كلِّ شيء. أو إنَّها بالأحرى عينُ حقيقةِ وجود الشَّوارع، ويافطات المتاجر، والوظائف، والبشر، والمجتمع، تتآلفُ معاً، فتتبع مسارات مألوفة، ثُمَّ تندفع على طُول مسارات جديدة.

تفرَّستُ في شخص فرأيتُ أنَّه غير واعٍ مثل قطٍّ أو كلب؛ فاللَّاوعي الذي ينطقُ من خلاله، ويحكم حياتَهُ في المجتمع، أحطُّ من اللَّاوعي الذي يوظِّفه النَّمل والنَّحل في حياتهم الاجتماعية، بكلِّ ما في الكلمة من معنى. بَيْدَ أنَّ ما يتجلَّى لي، حينئذٍ، في بريق ضوءٍ، أبعدَ من وجود الكائنات الحيَّة، وأبعدَ من وجود قوانين فيزيقيَّة وفِكريَّة صارمة، هُوَ الذَّكاء الذي يخلقُ العالَم ويُخصِبُه.

وكلَّما شعرتُ بذلك، تقفزُ في ذهني على الفور العبارة القديمة لذلك السُّكولائيِّ الذي

نسيتُ اسمه: «الله روح الحيوانات»[235]. هكذا حاول مؤلف هذه الجُملة الرَّائعة تفسير اليقين الذي تقود به الغريزة الحيوانات الدُّنيا التي لا يرى فيها المرء علامةً -أو مجرَّد بصيص، في أفضل الأحوال- على تمتُّعها ببصيرة ثاقبة. ولكنَّنا جميعاً حيوانات دُنيا، والنُّطق والتَّفكير مجرَّد غريزتَيْن جديدتَيْن، أقل دقَّةً من الغرائز الأخرى، لأنَّهما في غاية الجِدَّة. ويمكن توسيع نطاق كلمات ذلك السُّكولائيِّ السَّديدةِ في صياغتها الجميلة، لِتُقرأ: الله روح كلِّ شيء.

لم أفهم البتَّة كيف يمكن لأيِّ شخص، أدرك ذات مرَّة الحقيقةَ العظيمة لهذه السَّاعة الكونيَّة، أن يُنكِر وجود السَّاعاتيِّ الذي لم يكفر به حتَّى ڤولتير. أفهمُ أنَّ المرء، حين ينظر إلى جوانب معيَّنة من خُطَّةٍ[236]، تبدو خاطئة في الظَّاهر (ولا بُدَّ من معرفة ماهيَّة الخُطَّة، لمعرفة إن كانت هذه الجوانب خاطئة حَقاً) أن ينسبَ إلى تلكَ البصيرة العَلِيَّةِ بعض النَّقص. أفهم ذلك، على الرَّغم من أنَّني لا أقبله. أفهم أن يشعر المرء، إذ يبصر الشَّرَّ الموجود في العالَم، بالعجز عن قبول فكرة الألوهيَّة المُطلَقة لتلك البصيرة التي تخلقُ من العَدَم. أتفهَّم ذلك، أيضاً، على الرَّغم من أنَّني لا أقبله مرَّة أخرى. ولكنَّ إنكار وجود تلك البصيرة، وجود الله، يصيبني بالذُّهول كمثل تلك الأهواء البلهاء التي غالباً ما انتابتْ منطقة مُعيَّنة من بصيرة البشر، المتفوِّقين في المناحي الأخرى؛ كمثل أولئك الذين لا يستطيعون الجَمْع والطَّرْح أو حتَّى (آخذين في الحُسبان البصيرة الكامنة في الحساسية الفنيَّة) أولئك العاجزين عن الشُّعور بالموسيقى أو الرَّسم أو الشِّعر.

لا أقبلُ نظريَّة السَّاعاتيِّ النَّاقص ولا حتَّى نظريَّة السَّاعاتيِّ القاسي. أرفض الأولى لأنَّنا، من دون أن نعرف الخُطَّة برمَّتها، لن نكون قادرين على القول إنْ كانت تفاصيل الطَّريقة، التي تحكم العالَم وتُنظِّمه، هفواتٌ أو أخطاء مثلما هي الصُّورة التي تبدو عليها. نرى خُطَّةً بوضوح في كلِّ شيء؛ نرى بعض الأشياء تبدو خطأً، ولكن يتوجَّب أن نأخذ في الحسبان بأنَّه إذا كان ثمَّة سبب لكلِّ شيءٍ، فلا بُدَّ أن يكون ثمَّة سبب للأشياء التي تبدو في ظاهرها خطأً.

---

(235) يُورِد پِسُوًا في الأصل هذه المقولة بصيغتها اللَّاتينية (Deus est anima brutorum)، ثم يذكر معناها بالبرتغاليَّة، وعلى نهجه سارت جول كوستا في صنعتها الإنكليزيَّة هذه. وسبق لڤولتير أن أشار إلى هذه العبارة بصيغتها هذه في معرض حديثه عن الحيوانات، ناسباً إياها إلى أحد الفلاسفة، دون أن يذكر اسمه. ويبدو أنَّ پِسُوًا قد أخذها عن ڤولتير، ولاسيَّما أنَّه يأتي على ذكر اسمه في الأسطر اللَّاحقة. (المترجم)

(236) الخطَّة، هُنا، تعني: القضاء والقدر. (المترجم)

نرى السَّبب ولكنْ ليس الخُطَّة؛ فإنْ لم نعرف ما هي الخُطَّة، فكيف سنقول إنَّ أشياء معيَّنة تقع خارجها؟ مثلما يُقدِم شاعرٌ، يجيد الإيقاعات الدَّقيقة، على سبيل المثال، إلى إدخال بيتٍ نشازٍ في قصيدة لأسباب تتعلَّق بالإيقاع، أقصدُ لسببٍ يبدو متناقضاً تماماً مع طبيعة القصيدة (وهو سبب سوف يشجبه النَّاقد غير الخلَّاق ويعدُّه خطأً)، ولهذا فقد يُقحِم الخالقُ في الدَّفق المَهيب لإيقاعاته الغيبيَّة أشياءَ يظنُّها منطقُنا الضيِّقُ أخطاءً.

ولا أقبل، مثلما قلتُ، نظريَّةَ السَّاعاتي القاسي. أُقرُّ بأنَّ الإجابة عن هذه المجادلة أصعب لكنَّها تبدو في الظَّاهر كذلك. نستطيع القول إنَّنا نعرف حقَّ المعرفة ماذا تعني كلمة «سيِّئ»، ولذلك لا نستطيع الجزم بأنَّ الشَّيء جيِّد أم سيِّئ. فاليقينيُّ أنَّ الألم، حتَّى لو جلب لنا الخيرَ، هو سيِّئٌ في حد ذاته، وإنَّه دليلٌ كافٍ في حد ذاته على وجود الشَّرِّ في العالَم. فألمٌ في الأسنان كافٍ ليجعلنا نكفر بإحسان الخالق. وقد تبدو المثلبة الرَّئيسة لهذه المجادلة كامنة في جهلنا المطبق بخُطَّة الله، وفي جهلنا المطبق أيَّ نوع من الكائنات الذَّكيَّة قد يكون المُفكِّرُ المُطلَق. فوجود الشَّرِّ شيءٌ، وسبب وجوده شيءٌ مختلف تماماً. وقد يكون الفارق دقيقاً لدرجة السَّفسطة، ولكنَّه دقيق. لا نستطيع أن ننكر وجود الشَّرِّ، ولكنَّنا نستطيع رفض فكرة أنَّ وجود الشَّرِّ في حدِّ ذاته شرٌّ. أُدركُ أنَّ المعضلة ستظلُّ قائمةً، وذلك بسبب نقصنا المتواصل ليس إلَّا.

267

[1930؟]

لا أعرفُ لذةً تَعْدِلُ لذةَ قراءة الكُتُب، ولكنَّني قليلاً ما أقرأُ. تُعَدُّ الكتب مُقدِّماتٍ للأحلام، وتلك المقدِّمات ليست ضروريَّة لشخص يستطيع الدَّخول، بسهوله بالغة وعفويَّة شديدة، في حوار مع الأحلام. لم أكُن قادراً قَطُّ على تسليم نَفْسي لكتاب بعينه؛ ففي كلِّ خطوة تُبدي بصيرتي أو مخيِّلتي بعض التَّعليقات التي تعترض طريق السَّرد. ثُمَّ أغدو بعد بضع دقائق الشَّخصَ الكاتب، فلا تعود الكلمات التي في الصَّفحة موجودةً في أيِّ مكان.

ما أحبُّه، أكثر من غيره، قراءةُ الكتب المبتذلة التي تنام قُربي على المنضدة، بجوار سريري، وإعادة قراءتها مرَّات ومرَّات. وثمَّة كتابان بعينهما لا أملُّ منهما أبداً - الخَطابة للأبِ فِغريدُو،

وتأمُّلات في اللُّغة البرتغاليَّة للأبِ فريير[xvii]. فإعادة قراءة هذَيْن الكتابَيْن متعةٌ دائماً. وعلى الرَّغم من أنَّني قد قرأتهما مرَّات كثيرة، فإنَّني لم أقرأ أياً منهما من أوَّله حتَّى آخره البتَّة. أدين لهذَيْن الكتابَيْن بالانضباط الذي ظننتُه مستحيلاً فِيَّ؛ أقصدُ وجوبَ أن يكتب المرء بموضوعيَّة وعقلانيَّة.

فأسلوب الأب فِغِريدو المؤثِّر والرَّهبانيّ والمُحافظ انضباطٌ يُسَرُّ لَهُ فهمي. أمَّا أسلوب الأب فريير الرَّشيق غير المنضبط في الغالب، فَيُروِّحُ عن عقلي دون أن يرهقه، ويوجِّهُ دون إثارةِ إيِّ مشاعر قلَق. كلاهما هادئ، وهما عقلان متبحِّران يُقدِّمان الدَّليل على افتقاري المُطلَق لرغبة أن أكون مثلهما - أو مثل أيِّ شخص آخر.

أقرأُ فأهجرُ نَفْسي، لا إلى القراءة وإنَّما إلى نَفْسي. أقرأُ فأغرق في النَّوم، وأتبعُ، كما لو أنَّني مازلتُ أحلم، أوصافَ الأب فِغِريدُو للأساليب البلاغيَّة، وأسمعُ الأب فريير يخبرني، في غابات بديعة، بضرورة أن أقول «ماغدالينا»، لأنَّ البشر العاديِّين يقولون «مادانيلا»[237].

268

[1930؟]

واحدةٌ من أعظم مآسي حياتي -على الرَّغم من أنَّها واحدة من تلك المآسي التي حدثت وسط الظِّلال والخديعة- عجزي عن الشُّعور على نحو طبيعيٍّ. أنا قادر على الحُبِّ والكُرْه والخوف والحماسة، مثل أيِّ شخص آخر، بَيْدَ أنَّ حُبِّي وكُرْهي وخوفي وحماستي لا تبدو مثلما هي عليه تماماً، فهي إمَّا تفتقر إلى عنصرٍ ما، وإمَّا تمتلك شيئاً مُضَافاً إليها. لكنَّ الشَّيءَ المُؤكَّد أنَّها شيء آخر، وما أشعر به يتناقضُ مع الحياة.

ففي تلك الأَنْفُس التي نُسمِّيها، على نحو ملائم، «الأَنْفُسَ الحريصة»، تكون المشاعرُ محسوبةً بعناية، تنتابها وساوس أنانيَّة فتبدو مختلفة. ويمكن أن نرى انفصام الغرائز الطَّبيعيَّة ذاته في تلك الأَنْفُس التي نُسمِّيها «الأَنْفُسَ المُوسوَسة»، ولكنَّني لستُ حريصاً ولا مُوسوَساً، على الرَّغم من أنَّ في داخلي التَّشويش ذاته للمشاعر الواضحة. لا عُذرَ لِشعوري بالأشياء

(237) ربَّما هي إشارة إلى والدة بِسُوَا «ماريا ماغداليَنا» (= مريم المجدليَّة)، واسم «مادانيلا Madanela» صيغة شعبيَّة أخرى للاسم الأصليّ ماغدالينا Magdalena. (المترجم)

على نحو سقيم، فمسخُ الغرائزِ غريزةٌ فطريَّة مُطلَقةٌ فِـيَّ. وحتَّى حين أرغبُ، فإنني أرغبُ بطريقة خاطئة.

269

[1930؟]

على شاكلة السَّاعات التي تختمرُ فيها عاصفةٌ فتنطقُ الجُلَبُ[238] في الشَّارع بصوتٍ متوحِّدٍ واحد.

تجعَّدَ الشَّارعُ تحت وطأة الضَّوء الشَّديد الشَّاحب، فارتعشتِ العتمةُ المُتَّسخة من الشَّرق إلى الغرب كهزيم رعدٍ دوَّى منتشراً مثل قهقهةٍ هائلة تتردَّد أصداؤها... والحزنُ القاسي للمطر الوحشيِّ قد جعل الهواءَ المُعتم أبشع إلى حدٍّ بعيد، لا أكثر. بردٌ، دفءٌ، حَرٌّ -كلُّها في الوقت ذاته- في كلِّ مكان، بدا الهواء كأنَّ خطباً قد ألمَّ به. ثمَّ حينئذٍ، في الغرفة الفسيحة، دقَّ إسفيناً في رُقادِ أجسادنا الآدميَّة ضوءٌ معدنيٌّ، ثُمَّ كخضَّةٍ شديدة البرودة، دقَّنَا صوتٌ مبحوحٌ، متغلغلاً في كلِّ شيء كي يخلق صمتاً هائلاً لا مَثيل لَهُ. غِيضَ صوتُ المطر كأنَّه يعتنقُ نغمةَ صوت أرق. سَكَتَ ضجيجُ الشَّوارع على نحو مُقلِق. وضوءٌ خاطف، جديدٌ، أصفرُ، قد حجبَ العتمة الصَّامتة، فلم يبقَ وقتٌ إلَّا كي يلتقط المرء أنفاسَهُ قبل قبضةِ الصَّوت الذي تردَّدت أصداؤه فجأةً من مكان آخر، والعاصفةُ الرَّعديَّة شرعتْ في مغادرة المكان، كأنَّها تلوِّحُ تلويحةَ وداعٍ غاضبة.

[...] بهمسةٍ مُدغَمةٍ تحتضرُ، مُعتماً في الضَّوْءِ الذي يكبرُ، كان هزيمُ الرَّعد يتحرَّكُ في المسافة البعيدة -في مكان قُربَ ألْمَاذَا[239]- [...]

وانشقَّ فجأةً بريقُ ضوءٍ، منفجراً في عقول النَّاس وأفكارهم، فتوقَّف كلُّ شيء. توقَّفتِ القلوبُ كأرواح حسَّاسة. الصَّمتُ يُرهِبُ كأنَّ موتاً قد حلَّ للتوِّ. وصوت المطر المتعالي يجلبُ شعوراً بالرَّاحة مثل دموعٍ سُحَّتْ مِدراراً. الهواء ثقيلٌ كالرَّصاص.

(238) الجُلَب: جمع جَلَبة. (المترجم)

(239) ألماذا Almada: بلدة قرب لشبونة، على الطرف الآخر من نهر تيجو. واللَّام في «ألماذا» تُلفَظ مُفخَّمة. (المترجم)

[1930؟]

شيءٌ من ترقُّبٍ يلوح في الأفق مُعلَّقاً في الهواء مثل أملٍ قاتم: حتَّى المطر لاحَ مفزوعاً، وعتمةٌ مكفهرَّة أثقلتْ كواهلنا. ثُمَّ اندلعَ فجأةً، مثل صرخةٍ، نهارٌ مُرعِب. فانبعثَ ضوءٌ من جهنَّم باطلة غامراً كلَّ شيء، كلَّ عقل، وكلَّ زاوية. فبُهِتَ الجميع، ثُمَّ عَمَّ شهيقٌ عميق فالعَصفةُ قد مرَّتْ. كان المطر الوحشيُّ مبتهجاً في ضجيجه الذي يكاد يشبه ضجيج البشر. استأنفت القلوب إيقاعَها الطبيعيَّ، وحتَّى التَّفكير أصابنا بالدُّوار. ملأ المكتبَ شعور دينيٌّ غامض. لم يكُن أحدٌ ما هُوَ عليه، فتراءى **ڤاسْكِش**، ربُّ العمل، في المدخل كي يُفكِّر في قول شيء. تبسَّم **مُوريرا**، وصُفرة الخوف الفجائيِّ مازالت تعلو أطراف وجهه. كانت ابتسامته تشي باحتماليَّة أن تكون قصفة الرَّعد القادمة بعيدة جداً. ضجيج العربة اليدويَّة المُسرعة طغى على الأصوات المنبعثة من الشَّارع، فاهتزَّ الهاتف من تلقاء نَفْسه. ولكنَّ **ڤاسْكِش**، ربَّ عملي، توجَّه بدلاً من الرُّجوع إلى غرفته إلى الهاتف في المكتب الكبير. رانت لحظة سكينة وصمت، والمطر ينهمر مدراراً على نحو كابوسيٍّ. ثُمَّ نسي **ڤاسْكِش** أمر الهاتف الذي توقَّف عن الرَّنين، وفَزَّ إلى الحياة صبيُّ المكتب في الطَّرف القصيِّ من الغرفة، مثل شيء ثقيل.

فانتابنا فجأةً فرح عظيم طافح بالسَّكينة والتَّحرُّر. استأنفنا عملنا دائخينَ أو نكادُ، فكُنَّا مبتهجين وبعضُنا يتعامل بمودَّة مع بعض. انطلق صبيُّ المكتب وفتح النَّوافذ من تلقاء نَفْسه. فدخلت الغرفة رائحة نديَّةٌ منعشة. كان المطر ينهمر خفيفاً في هذه اللَّحظة على نحو متواضع أو يكاد. كانت الجُلَبُ المنبعثة من الشَّارع هي ذاتها، ولكنَّها مختلفة. استطعنا سماع أصوات سائقي العربات اليدويَّة، فكانت أصواتَ البشر الحقيقيِّين. وبدت الأجراس المُجلجة الواضحة فوق الترامات، التي في الشَّارع المجاور، تنضمُّ إلينا في مرحنا الصَّاخب. ثُمَّ تلك الابتسامةُ الخفيفة التي فرَّت من طفل وحيدٍ قد رفعتْ صوتَها بالغناء مثل كناريٍّ في الهواء النَّظيف. تلاشى المطر الخفيف.

كانت السَّاعة السَّادسة، والمكتب يغلق أبوابه. وعبر باب غرفته الموارب، قال **ڤاسْكِش**، ربُّ عملي: «تستطيعون العودة إلى بيوتكم جميعاً الآن»، قائلاً ذلك كأنَّه يُغدِق علينا نعمةً تجاريَّة. فنهضت على قدميَّ فوراً، وأغلقت دفتر الحسابات ووضعته بعيداً، ثُمَّ أعدتُّ قلمي مزهُواً إلى المحبرة، وذهبت إلى مُوريرا، قائلاً لَهُ، يحدوني التَّفاؤل: «أراك غداً»، مصافحاً إيَّاه

كأنّه قد أسدى لي على الفور خدمة عظيمة.

271

[1930؟]

خيَّمت غيومٌ شعثاء، معتمة، فوق المدينة المضطَّهدة، منذ بداية ذلك اليوم الحارِّ المُخاتِل. واصلت تلك الغيوم المعتمة الاحتشاد، غيمةً فوق أخرى، على ما نُسمِّيه مصبَّ النَّهر، فأشاعتْ رفقةَ الشَّوارع النَّاقمة على نحو غامض -التي تخاصم الشَّمسَ الغاضبة- شعوراً بمأساةٍ وشيكة.

كانت الظَّهيرة، فبدت كأنَّ نذير شؤم يُثقل الهواء الباهت، حين هممنا بالمغادرة لتناول طعام الغداء. اشتدَّ سوادُ جُذاذات من غيوم شعثاء. وكانت السَّماء قرب القلعة صافيةً زرقاء لكنَّها تُنذِر بسُوءٍ. كانت مُشمسةً لكنَّ شمسها ليست التي قد يستمتع بها المرء.

بدت السَّماء أصفى، في السَّاعة الواحدة والنِّصف، حين عُدنا إلى المكتب بعد الغداء، ولكن فوق المناطق القديمة من المدينة فحسب، بيد أنها غيَّمَتْ قليلاً قُرب المصبِّ. لكن الغيوم بدتْ، جهةَ الشِّمال، غيمةً واحدة سوداء لدودةً تتقدَّمُ متوانيةً، مادَّةً أذرعَها السَّواءَ ومخالبَها المُثلَّمةَ الرَّماديَّة، ولم يمض وقت طويل حتَّى حجبتِ الشَّمسَ، فتبدت أصواتُ المدينة خرساءَ تترقَّب. وكانت السَّماء أصفى، جهةَ الشَّرق، أو كأنَّها كذلك، بَيْدَ أنَّ الحَرَّ كان شديد الوطأة. فكُنَّا نتصبَّبُ عرقاً حتَّى في برودة المكتب النِّسبيَّة. قال مُوريرا: «ثمَّة عاصفة هائلة قادمة»، ثُمَّ قلب صفحة في دفتر حساباته.

كانت الشَّمس قد حُجِبَتْ بأكملها، بحلول السَّاعة الثَّالثة. فتوجَّب أن نشعل الأضواء -شيء محزنٌ في الصَّيف- أوّلاً، في المنطقة الخلفيَّة من المكتب الكبير، حيث كانت الطُّرود جاهزةً لكي تُرسَل، ثُمَّ في المنتصف، حيثُ كان من الصَّعب الرُّؤية بوضوح يكفي لتعبئة إشعارات التَّحويلات الماليَّة وتدوين الأرقام الصَّحيحة للقطارات عليها. وأخيراً، في نحو السَّاعة الرَّابعة، لم نستطع الرُّؤية كي نعمل، حتَّى نحن القلَّة الذين تمتَّعنا بميزة أن تكون مكاتبنا قرب النَّوافذ. فأُشعلَت الأضواء في المكتب برمَّته. دفع ڤاسْكِش، ربُّ عملي، الباب

المؤدِّي إلى غرفته، ثُمَّ خرج قائلاً: «كان من المفترض أن أذهب إلى بَيْفِيكَا[240] بعد ظُهر هذا اليوم، يا مُوريرَا، لكنَّني لا أظنُّ أنِّي سأفعل الآن، فقد تندلعُ العاصفة، في أيِّ لحظة، وينهمر المطر غزيراً». فأجاب مُوريرا، الذي يقطن بالقُرب من أَفْنِيذَا[241]: «نعم، وهذا، بالتَّأكيد، المكان الذي سوف تندلع منه». توقَّفتِ الجُلَبُ في الشَّوارع، ثُمَّ تبدَّلتْ ببراعة، فعمَّتْ نغمةٌ كئيبة جلجلة أجراس الترامات في الشَّارع الذي يُوازي شارعَنا.

272

[1930؟]

... كان المطرُ مايزال يسَّاقطُ حزيناً، ولكنْ أقلَّ غزارةً، كأنَّ تعَباً كونياً أصابَه. لم يكُن ثمَّة برقٌ في هذي اللَّحظة، لكنَّ هزيمَ رعدٍ خاطِفاً دَمْدم أحياناً في مكان بعيدٍ، ثُمَّ توقَّف، كأنَّهُ، أيضاً، قد أضناه التَّعب. فجأةً، خفَّ المطر أكثر. فتح أحد الكَتَبة النَّوافذ التي تطلُّ على خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ. فانسلَّ إلى الغرفة نسيم عليلٌ تشوبُه بقيَّةُ حَرٍّ تتلاشى. فرنَّ صوت فَاسْكِش، ربِّ عملي، عالياً في الهاتف: «أتقصدُ إنَّ الخطَّ مازال مشغولاً؟» ثُمَّ رانَ، حينئذٍ، صوتُ شتيمة مَهموسةٍ – تعقيب نافد الصَّبر موجَّهٌ (على الأرجح) ضدَّ المستقبِل في الطَّرف الآخر.

273

[1930؟]

نثرٌ عُطلة

كان هذا الشَّاطئ الصَّغير، الذي يُشكِّل خليجاً صغيراً قَدَّهُ من العالَم نتُوءانِ بحريَّان مُنَمْنَمانِ، ملاذيَ مِنْ نَفْسي، طيلةَ تلك الأيَّام الثَّلاثة. وصلت إلى الشَّاطئ عبر درَج شاقٍّ بدأ بخطوات خشبيَّة ثُمَّ باتَ، في منتصف الطَّريق نزولاً، مُجرَّد حوافَّ ناتئة قُدَّت من الصَّخر،

(240) بَيْفِيكَا Benfica (وتلفظ في البرتغاليَّة على هذا النَّحو، وليس بنفيكا): حيٌّ في شمال لشبونة، كان في الماضي ضاحية نائية. (المترجم)

(241) يقصدُ: أَفْنِيذَا ذَا لِيبِرذَاذِه Avenida da liberdade (= جادَّة الحُرِّية) في وسط لشبونة. (المترجم)

وسياج حديديٍّ صدئ للتَّشبُّث به. كنتُ في كلِّ مرَّة أنزلُ فيها على الدَّرَجات العتيقة، ولاسيَّما تلك التي قُدَّت من الصَّخر، أتركُ وجودي خلفي وأعثرُ على نَفْسي.

يقول المُنجِّمون، بعضُهم على الأقلِّ، بوجود لحظات سامية في حياة الرُّوح حين تتذكَّرُ الرُّوح، من خلال عاطفة أو نُتفةِ ذكرى، لحظةً أو مظهراً أو مجرَّد ظلِّ شيء تجسَّد في السَّابق. إذَّاكَ، ولأنَّها تعودُ إلى زمن أقرب إلى أصل جميع الأشياء وبدايتها من الزَّمن الحاضر، فهي تشعر بطريقة ما أنَّها عادت طفلةً من جديد، فينتابها شعورٌ بالتَّحرُّر.

وأستطيع القول إنَّني حين هبطتُ رويداً رويداً تلك الدَّرَجات، التي يندر أن تطأها قدمٌ إلى الشَّاطئ الصَّغير المهجور دائماً، فقد كنتُ أستخدم سيرورة سحريَّة كي أُقرِّب نَفْسي إلى الجوهر الفَرْد المُمكِن الذي هو نَفْسي. تلاشت منِّي بعضُ ملامح حياتي اليوميَّة وبعض مظاهرها -التي تمثِّلُها، في ذاتي المتواصلة، الرَّغباتُ والكراهية والمخاوف- كأنَّ دوريَّةً ليليَّة قد طاردتها بعيداً، فذابتْ ظلالاً، بكلِّ بساطةٍ، حتَّى لم أستطع تبيان أشكالها، فبلغتُ حالةً من البُعْد الجوَّانيِّ وتعسَّرَ عليَّ حتَّى أن أتذكَّر الأمسَ، أو أن أتعرَّف إلى الكينونة التي تسكُنُنِي من يوم إلى آخَر. ثُم بَدَتْ مشاعري العاديَّة، وعاداتي غير المنتظمة على الدَّوام، ومحادثاتي مع الآخرين، وتكيُّفاتي مع الطَّريقة الاجتماعيَّة السَّارية في العالَم - بَدَتْ كلُّها مثل أشياءٍ قرأتُها في مكان ما، الصَّفحات البائدة لسيرتي شخصيَّة مطبوعة، تفاصيل من روايةٍ، تلك الفصول المتداخلة التي نقرأها وذهنُنا مشغول بشيء آخر، تاركين عُقْدةَ السَّرد تنحلُّ وتسعى خيوطها كالحيَّة على الأرض.

وعلى الشَّاطئ، حيث لا صوت إلَّا صوت الأمواج أنفسها أو صوت الرِّيح تمرُّ في الأعالي مثل طائرة هائلة محجوبة، هجرتُ نَفْسي إلى أحلام جديدة - أشياء ناعمة، بلا شكل، وبدائع أبهرَتْ من دون صُوَرٍ أو عواطف، صافيةٍ صفاءَ السَّماء والماء، ترتعشُ كالدَّانتيلَّا المُتفتِّتة فوق طيَّات البحر الصَّاعد من أعماق حقيقة عُظمى، وزُرقةٍ كامدة في البعيد، ثمَّ غَدَتْ شفافيَّتُها، حين وصَلَت الشَّاطئ، مُبقَّعةً بخُضَرٍ باهتة تناثرتْ، فَهَسَّتْ، ونكَصَتْ ألفَ ذراع مكسورة عبر الرَّمل المعتم، تاركةً بَغْشَةً من زبدٍ أبيضَ، ليس إلَّا، جامعةً لِنَفْسها الأمواج المُتقهقرة كلَّها، والعَودة إلى الحُرِّيَة الأصليَّة، والحنين الإلهيَّ، والذِّكريات -مثل ذاكرتي الضَّبابيَّة والمؤلمة عن وقتٍ أسعدَ، سعيد إمَّا لأنَّه كان بهياً حقاً وإمَّا لأنَّه كان، وقتاً آخر، ليس إلَّا،

جسداً من حنينٍ لَهُ روحٌ من زبد– السَّكينة، الموت، الكُلُّ أو العَدَمُ المحيطُ، كبحر عظيم، بجزيرة الأرواح المحطَّمة التي هي الحياة.

ثُمَّ نمتُ بلا نومٍ، متجرِّداً مِمَّا رأيتُهُ بحواسِّي، في شَفقِ نَفْسي، صوتِ الماء بين الأشجار، هدوءِ الأنهار العريضة، برودةِ المساءات الحزينة، الشَّهيقِ البطيء للصَّدْر الأبيض وزفيرِهِ البطيء؛ صدرِ نوم التَّأمُّلات الذي يشبه نوم الأطفال.

274

[1930؟]

هزَّةُ كتفَيْن[242]

غالباً ما نلوِّن أفكارنا عن المجهول بلون تصوُّراتنا عمَّا نعرفُه فِعلاً: فحين نُسمِّي الموتَ نوماً، فذاك لأنَّ لَهُ هيئة النَّوم؛ وحين نُسمِّي الموت حياةً جديدة، فذاكَ لأنَّه يبدو مختلفاً عن الحياة. نصوغ قناعاتنا وآمالنا من الأفهام الخاطئة الصَّغيرة عن الحقيقة الواقعيَّة، فنعيش على فتات الخبز الذي نُسمِّيه كعكاً، مثلما يتظاهر الأطفال الفقراء بأنَّهم سعداء.

ولكن، هكذا هي الحياة برمَّتها؛ أو هكذا على الأقلِّ طريقةُ الحياة المعروفة عموماً باسم الحضارة. فالحضارة تقوم على منح اسم غير مناسب إلى شيء ما، ومن ثَمَّ الحُلم بالنَّتائج المرجوَّة من ذلك. ولكنَّ الاسم الباطل والحُلم الحَقَّ يخلقان، في الواقع، حقيقةً واقعيَّة جديدة. فيغدو الشَّيء في الحقيقة شيئاً آخر، لأنَّنا قد صنعناه على ذلك النَّحو. نحن نصنع الحقائق الواقعيَّة. نستخدم الموادَّ الخام التي استخدمناها دائماً، ولكنَّ الشَّكل الذي منحَتْه إيَّاها الصَّنعةُ يمنعُها، على نحو فعَّال، من أن تظلَّ نَفْسَها. فالطَّاولة المصنوعة من خشب الصَّنوبر هي شجرة

(242) تُوجَد عبارة «كاملاً/بأكمله whole»، كتبها پِسُوًا بالإنگليزيَّة، بين سطرَيْن صغيرَيْن بالحبر الأسود، في أقصى الطَّرف الأيمن من القصاصة التي ضرب عليها هذه الشَّذرة بالآلة الكاتبة، إشارة منه إلى إدراج هذا النَّصّ، بأكمله، في كتاب القلق. وقد أوردتها الطَّبعات البرتغاليَّة الرَّئيسة بجانب العنوان الرَّئيس، إلَّا طبعة زينيث وطبعة ريتا لُوبِس. ونلاحظ، أيضاً، اختلاف الشَّكل الكِتابيّ لكلمة «كتفَيْن» في الطبعات البرتغاليَّة المختلفة؛ فقد وردت في طبعة پيسارُّو (المقطع 280) وفي طبعة برادو كويلو (المقطع 39) على هذا الشَّكل: Hombros (أقرب إلى اللَّفظ الإسپاني)، على الشَّاكلة التي تظهر في القصاصة بخطّ پِسُوًا نفسه؛ فيما وردت الكلمة في طبعة سوبراو كونيا (المقطع 391) وطبعة ريتا لُوبِس (المقطع 265) بلفظها البرتغاليّ المتعارف عليه: Ombros. (المترجم)

صنوبر، ولكنَّها طاولة أيضاً. نحن نجلس إلى الطَّاولة لا إلى شجرة الصَّنوبر. وعلى الرَّغم من أنَّ الحُبَّ غريزة جنسيَّة، فإنَّنا لا نُحبُّ بتلك الغريزة، وإنما نفترض مُسبقاً وجودَ شعور آخر، وذلك الافتراض المُسبَق، في حدِّ ذاته، شعور آخر على نحو فعَّال.

وهذه الأفكار السَّارحة التي أُدوِّنها بهدوء في هذا المقهى الذي صدف أن جلستُ فيه قد أثارها شيءٌ، حين كنتُ أمشي في الشَّارع، لا أعرف ما هو تماماً؛ خدعةُ ضوء فجائيَّة بارعة، جلبةٌ غامضة، ذكرى عِطرٍ أو نُتفَةُ موسيقى، فلقد دندنَ كلَّ فكرةٍ إلى الوجود تأثيرٌ مجهول من خارجها. لا أعرف إلى أين كنت أمضي بتلك الأفكار أو إلى أين سأختار أن أمضي بها. ثمَّة سديمٌ خفيف اليومَ، رطبٌ ودافئ، حزين بلا وعيدٍ، ورتيبٌ على نحو غريب. شعور لا أعرفه يُوجِعُني؛ أشعرُ كأنَّني قد أضعتُ خيطَ مُحاوَرةٍ؛ الكلمات التي كتبتُها مسلوبة الإرادة تماماً. الحزنُ تحتَ الوعي يتربَّصُ. أكتبُ، أو بالأحرى أخربشُ هذي السُّطورَ، لا لِأَقولَ أيَّ شيء بالتَّحديد، وإنَّما لأمنح شرودَ ذهني شيئاً كي يفعله. وبهذه الخربشات النَّاعمة التي يخطُّها قلمي الرَّصاص الكليل الذي لا يطاوعني قلبي أن أبريه، أملأُ ورقةً بيضاء من تلك التي يستخدمها المقهى في لفِّ الشَّطائر (وقد أمدُّوني بها لأنَّني لم أكُن في حاجةٍ إلى أيِّ شيء أفضل، فأيُّ شيء كان سيفي بالغرض، طالما كان أبيض). شعرتُ بالرِّضى. فملتُ إلى الخلف. المساء يُرخي سُدولَهُ، رتيباً، بلا مطرٍ، في شيءٍ من الضَّوءِ قَنوطٍ ومُرتاب... فتوقَّفتُ عن الكتابة لأنَّني قد توقَّفتُ عنها، لا أكثر.

275

[1930؟]

هكذا أنا، الطَّائش، الحسَّاس، القادر على القيام بنزوات يمكن أن تكون عنيفةً، مستحوذةً عليَّ تماماً، لائقةً وشرِّيرة، نبيلةً ووضيعة، ولكنَّها لا تنطوي البتَّة على أيِّ شعور دائم، أو أيِّ عاطفة راسخةٍ يمكن أن تنفذ حقاً إلى جوهر روحي. كلُّ شيء فِيَّ نزعةٌ وشيكة إلى أن أغدو شيئاً آخر؛ نفادُ صبر الرُّوح على نَفْسها الذي يشبه نفاد الصَّبر على طفل لجوج؛ قلَقٌ يشتدُّ دائماً ولكنَّه يظلُّ ذاتَهُ دائماً. كلُّ شيءٍ يثيرُ اهتمامي ولا شيء يستحوذ على اهتمامي. أُنصِتُ إلى كلِّ شيء في حين لا أكفُّ عن الحُلم؛ ألاحظُ أدقَّ الخلجات التي ترتسم على وجوه الذين أتحدَّثُ

إليهم، وألتقطُ أدنى التَّغيُّرات التي تطرأ على نبرة حديثهم؛ لكنَّني حين أسمع لا أُنصت، لأنَّني أُفكِّر في شيء آخر، فأخرج من أيِّ محادثة بفكرة بسيطة عمَّا قِيلَ، سواء ما قلته أنا أو ما قاله الشَّخص الآخر. لذلك أجد نفسي في كثير من الأحيان أُعيد على مسامع أحدهم شيئاً قد أخبرته به مسبقاً، أو أسأله عن الشَّيء ذاته الذي أخبرني عنه منذ قليل؛ لكنَّني أستطيع أن أصف، بأربع كلمات تصويريَّة، قسمات وجهه حين قال الكلمات التي لم أَعُد أذكُرها، أو الطَّريقة المكترثة التي أصغى بها إليَّ حين أخبرته الحكاية التي لا أتذكَّر أنَّني قد قصصتها عليه. فأنا شخصان يحافظان، بالقَدْر ذاته، على مسافةٍ بينهما - توأمان سياميان يعيشان حياتَيْن منفصلتَيْن.

276

[1930؟]

لو صدف أن حظيتُ، ذات يوم، بحياةٍ آمنة طيلة الوقت، وفرصةٍ في العالَم كي أكتب وأنشر، فأنا على يقين بأنِّي سأحنُّ إلى هذه الحياة القلِقة التي لا أكتب فيها البتَّة إلَّا نادراً ولا أنشر فيها شيئاً على الإطلاق. أشعر بالحنين، لا لأنَّ هذه الحياة العاديَّة سوف تكون قد ولَّت ولن أحظى بها مرَّة أخرى أبداً، وإنَّما لأنَّ كلَّ نوع من الحياة ينطوي على ميزة معيَّنة ومتعة عجيبة. وحين نمضي إلى حياة أخرى، حتَّى لو كانت حياةً أفضل، فإنَّ تلك المتعة العجيبة تخمد، وتلك الميزة تَهِن، فتكفَّان عن الوجود ويفتقدهما المرء.

ولو تمكَّنتُ ذات يوم من حمل صليب نواياي إلى الجُلجُلة المُطلَقة، فأنا على يقين أنَّني سأجدُ جُلجُلة أخرى فِـيَّ، ولسوف ينتابني الحنينُ إلى الأيَّام التي كنتُ فيها عقيماً، وعاديّاً، وناقصاً. سأكون قد تضاءلتُ بطريقة أو أخرى.

أشعر بالنُّعاس. قضيتُ يوماً مُضجراً منهمكاً في مهمَّة عبثيَّة على وجه الخصوص في مكتب يكاد يكون مهجوراً. فثمَّة موظَّفان مريضان والآخرون ليسوا موجودين، بكلِّ بساطة، اليوم. أنا وحيد بمعزل عن صبيِّ المكتب القابع بعيداً في الطرف المقابل من الغرفة. أشعر بالحنين إلى احتماليَّة أن أشعر بالحنين ذات يوم، بصرف النَّظر عن مدى العبثيَّة التي قد يبدو عليها ذلك الحنين.

أكادُ أتضرعُ إلى الآلهة كي تسمح لي بأن أظلّ هُنَا، كأنّني حبيسُ خَزنةٍ حديديّة، محمياً من مرارة الحياة وأفراحها على حدٍّ سواء.

277

[1930؟]

سأل صوت مُوريرَا بلطف من وراء الرَّفَّيْن اللَّذَيْن يفصلانه عن القمَّة الشَّمَّاء: «ما الذي يُضحكك؟».

فقلتُ، بعد أن تمكَّنتُ من كبح ضحكتي: «أوه، لقد أُشكِلَتْ عليَّ بعض الأسماء، فخلطتُ بعضها في بعض».

لم يَقُل مُوريرَا سوى «آه»، ثُمَّ خيَّمتِ السَّكينةُ الباهتة مرَّةً أخرى على المكتب وعليَّ.

ولا حتَّى بُورجيه البائس الشَّقي، الذي تصعب قراءة أعماله، فهي مرهقة كصعود بناية شاهقةٍ لا مصعدَ فيها إلَّا الدَّرَج... استدرتُ، ثُمَّ مِلتُ خارج النَّافذة كي أنظر مرَّة أخرى على **جادَّة سان جيرمان**(243)؛ جادَّتي الشخصيَّة، في اللَّحظة التي يميل فيها جارنا، المالك الثَّريُّ، من النَّافذة كي يبصق على الشَّارع. الڤيكونت شاتوبريان يدوِّن الحسابات! والبروفيسور أَمِيلْ جالس على مقعد ملكيٍّ مرتفع بلا ظَهر! والكونت ألفريد دي ڤيني يُقيِّد مبلغاً في الجانب المدين من حساب متجر **غرانديلا** الكبير(244)! وسينانكور في **خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِشْ**. وبين التَّفكير في هذا كلِّه، وتدخين سيگارة، دون أن أربط الأحداث بعضها ببعض، تصادف ضحكتي الذِّهنيَّة الدُّخانَ، فتختلط في حلقي، حيث تتعاظمُ إلى نوبةٍ خجولة من الضَّحك المسموع[xviii].

278

[1930؟]

سئمتُ الشَّارع؛ كلَّا، لم أسْأَمْهُ – فالحياةُ كلُّها في الشَّارع. الحانةُ قُبالتي، أستطيع رؤيتها إذا

(243) Boulevard Saint-Germain (= جادَّة القدِّيس جيرمان): جادَّة في پاريس. فمن نافذة المكتب يطلُّ بِسُوَّا، في أحلام يقظته، على العالَم كلِّه. يتصوَّر المكان الذي يريده، ويطلُّ عليه. (المترجم)

(244) أوَّل المتاجر الكبرى التي أنشئت بلشبونة في العام 1907، على غرار المتاجر الكبرى في پاريس ولندن. (المترجم)

نظرتُ من فوق كتفي الأيمن؛ وورشةُ صانع الصَّناديق التي أستطيع رؤيتها إذا نظرتُ من فوق كتفي الأيسر؛ وفي منتصف الشَّارع، الذي لا أستطيع رؤيته إلَّا حين أستديرُ، الإسكافيُّ الذي يحتلُّ المدخل المؤدِّي إلى مكتب شركة **إفريقيا**، بِطَرْقه المُنتظِم. لستُ متأكِّداً بخصوص الطَّوابق الأخرى، فثمَّة نُزُلٌ صغير في الطَّابق الثَّالث، يقولون إنَّه مكان غير أخلاقيٍّ، ولكنَّ المرء يستطيع قول الشَّيء ذاته عن الحياة.

سئمتُ الشَّارع؟ أنا لا أسأم إلَّا حين أُفكِّر. وحين أنظر إلى الشَّارع، أو أشعر به، فإنَّني لا أُفكِّر: أُؤدِّي عملي يغمرني إحساسٌ هائل بالسَّكينة الجوَّانيَّة، مُتبوِّئاً رُكني في المكتب على نحو مفيد، لا أحدَ كتابياً [245] كائنٌ، لا روحَ لي، ولا روحَ لأحد - فكلُّ الذي هُنَا هُوَ العمل، والعمل، والعمل. وثمَّة عملٌ، أيضاً، هُنَاك بعيداً، في مكان أجنبيٍّ من دون شكٍّ، حيث يتجوَّل أصحاب الملايين، بَيْدَ أنْ لا أرواحَ موجودة أيضاً، مثلما هي الحال هُنَا. فكلُّ ما تبقَّى شاعرٌ أو اثنَان. حبَّذا لو أترك خلفي عبارةً أو قولاً مأثوراً يقول عنه الآخرون إنَّهُ «رائع!»، على شاكلة الأرقام التي أدوِّنها، ناسخاً إيَّاها في كتاب حياتي كلِّها.

أعتقدُ أنَّني لن أكفَّ عن كوني محاسباً مساعداً في مستودع للأقمشة. أتمنَّى، مخلصاً، من أعماق قلبي، ألَّا أُرقَّى إلى رُتبة كبير المحاسبين.

279

[1930؟]

لو ثمَّة في الفنِّ صانعٌ مثاليٌّ، لكانت لي وظيفة في الحياة، فيما يخصُّ فنِّي على الأقلِّ.

أنْ تُوكِلَ مهمَّة إنجاز العمل إلى شخص آخر، ثُمَّ تبذل قصارى جهدك في تجويد ذلك العمل كي يبلغ حدَّ الكمال، فحسب... ربَّما هكذا كُتِبت **الإلياذة**...

ألَّا أبذل قصارى جهدي لخلق شيء من العدَم!

---

(245) تصوغ جول كُوستا، هُنَا، عبارة «a clerical» مقابلاً لعبارة بِسُوًّا «escripturantemente»؛ إذ لجأ بِسُوًّا إلى خلق كلمة جديدة -منتهكاً الأعراف النَّحوية السَّائدة- بإضافة اللَّاحقة الظَّرفيَّة «mente» إلى كلمة «escripturante». (المترجم)

كيف أحسدُ أولئك الذين يكتبون روايات، الذين يبدأُونها فَيكتبونها فَيُنهونها! أستطيع تخيُّل رواية، فصلاً فصلاً، وأتخيَّل في بعض الأحيان الحوارات بأكملها ونُتَف الأحاديث التي بينها، ولكنَّني لن أكون قادراً على أن أدوِّن على الورق أحلامَ الكتابة تلك [...]

280

[1930؟]

نعبدُ الكَمال، لأنَّنا لا نستطيع أن نحظى به؛ ولسوف نمقتُهُ لو حظينا به. فالكمال غير إنسانيٍّ، ولا بُدَّ، كي تغدو إنساناً، أن تكون ناقصاً.

نكرهُ الفردوس خِفيةً - فرغبتنا في الوصول إليه تشبه رغبة البائس الفقير الذي يأمل في أن يجد الرِّيف في الجنَّة. وليستِ النَّشواتُ المجردَّة أو بدائع المُطلَق هي التي تفتنُ الرُّوح المُرهفة، وإنَّما البيوت المُريحة الدَّافئة والتِّلال البديعة، والجُزر الخضراء القائمة في البحار الزَّرقاء، والطُّرق المصفوفة بالأشجار، والسَّاعات المديدة المُبدَّدة في العِزَب المتوارثة عن الأسلاف، حتَّى تلك التي لم نمتلكها قطُّ. فإنْ لم تكُن ثمَّة أرضٌ في الجنَّة، فمن الأفضل ألَّا نقلق بشأن وجود الجنَّة بتاتاً. من الأفضل كثيراً أن يكون كلُّ شيء لا شيءَ في النِّهاية، ومن الأفضل لهذي الرِّواية، التي بلا حبكة، أن تنتهي هُنَا. يحتاج الإنسان، كي يبلغ الكَمال، إلى برودةٍ [في المشاعر] غريبة على البشر، ولكنَّه سيفتقر حينئذ إلى القلب الإنسانيِّ الذي يجعله يُحبُّ كَماله.

نشعر بالرَّهبة من رغبة الفنَّانين العظماء في الكَمال. نحبُّ محاولتهم بلوغ الكمال، ولكنَّنا نحبُّ تلك المحاولة لأنَّها محاولة ليس إلَّا.

281

[1930؟]

... وأُحدِّقُ إلى الأسفل من أعالي الحُلم المَهيبة هذه، هَأنذا، المحاسب المساعد في مدينة

لشبونة. ينتابني، بعيداً عن الشُّعور بتلك المقارنة التي تسحقني، شعورٌ بالتَّحرُّر، طبعاً، فالمفارقة الكامنة في ذلك كلِّه هي روح حياتي. فالشَّيء ذاته الذي كان ينبغي عليَّ أن أجده مُهيناً أضحى شيئِيَ المعياريَّ الذي أرفع رايته بكلِّ فخر؛ والضَّحكة السَّاخرة التي كان ينبغي عليَّ أن أُحيِّي بها أفكاري باتت بُوقاً أُبوِّقُ فيه كي أخلقَ الشَّفق القطبيَّ الذي صِرتُهُ، وأُبوِّقُ مُرحِّباً به.

المجد اللَّيليُّ في أن أكون عظيماً في الوقت الذي لا أكون فيه أيَّ شيء! الجلالةُ الحزينة لروعة أن أكون مجهولاً. وفجأةً، أشعر بالحبور الجليل الذي يغمر الرَّاهب في البرِّيَّة، والنَّاسك في مغارته، المنسجمين تماماً مع جوهر المسيح في رمال الصَّحراء وتجاويف التَّماثيل الفارغة في المتنزَّه...

وأنا جالس على مكتبي في غرفتي العاديَّة حدَّ العبث، ولستُ إلَّا مجرَّد كاتبٍ في مكتب، أكتبُ هذه الكلمات كما لو كانت خلاصَ روحي، فأُزيِّن نَفْسي بغروب الشَّمس المستحيل على قمم شاهقة، شمَّاء، بعيدة، والثَّوب الكهنوتيُّ مخلوعٌ عليَّ لقاء الملذَّات التي ذقتُها، وخاتمُ الزُّهد في إصبعي الإنجيليِّة؛ الجوهرةُ الوحيدة لازدراءِ نَفْسي الأبديِّ.

282

[1930؟]

... الحِدَّةُ المؤلمة لأحاسيسي المثيرة، حتَّى تلك التي تجلبُ الفرح؛ الحِدَّةُ المؤلمة لأحاسيسي المثيرة، حتَّى تلك الأحاسيس الحزينة.

أكتبُ في وقت متأخِّر من صباح الأحد، في يوم طافح بضوء خافت، حيث زرقةُ السَّماء المدهشة، فوق أسطح المدينة المُتقطِّعة، تُسَربِلُ وجودَ النُّجوم الغامضَ بالنِّسيانِ...

وإنَّهُ يومُ الأحد فِـيَّ أيضاً... فقلبي سوف يذهبُ إلى الكنيسة أيضاً، على الرَّغم من أنَّه لا يعرف أين تقع الكنيسة تماماً، وإنَّه يرتدي بذلة مخمليَّة صغيرة، وفوقها ياقة كبيرة أضعاف حجمها، ووجنتاهُ اللَّتان ورَّدتهما الإثارةُ التي جلبتها الانطباعات الكثيرة الأولى، تتهلَّلانِ بلا ريبٍ، سعيدتين بعزمٍ لا يلين(246).

---

(246) نلحظ، هُنا، ابتعاد جُول كوستا عن التَّرجمة الحرفيَّة لعبارة بِسُوًّا، وجنوحها نحو ترجمة أكثر تحليقاً. فالعبارة في

283

[1930؟]

ألَّا يُخضع المرء نَفْسه إلى شيءٍ -سواء أكان كائناً بشرياً آخر، أم شخصاً نُحبُّه أم فكرةً- للمحافظة على الاستقلال المنعزل القائم على عدم الإيمان بالحقيقة، وعلى عدم الإيمان بفائدة معرفة ذلك، إنْ وُجِدَ شيءٌ من هذا القَبيل: يبدو ذلك، بالنِّسبة إلي، الحالةَ الأنسب لحياة المُفكِّرين الفكريَّة. أمَّا أن تنتمي إلى شيء - فذاك هُوَ العاديُّ المُبتذَل. ليست العقيدة، والمثل الأعلى، والزَّوجة، والوظيفة إلَّا زنازين وأصفاد. فأنْ تكون يعني أنْ تكون حُراً. وحتَّى الطُّموح يكون عبئاً حين يعتمد على الكبرياء الباطل والشَّغف العقيم فحسب؛ فلن نشعر بالفخر إذا أدركنا أنَّه مجرَّد الخيط الذي يجرُّنا. كلَّا، لا روابط، حتَّى مع أنفسنا! ولسوف نحيا، نحن عبيدَ الله المتحرِّرين، الفاصلَ الزَّمنيَّ القصير الذي يحوِّله شُرود أذهان جلَّادينا إلى استراحة مؤقَّتة تتوقَّف فيها الإعدامات، متحرِّرين من أنفسنا تحرُّرَنا من الآخرين، متأمِّلين بلا نشوة، مفكِّرين بلا خلاصات. سوف نواجه المقصلة غداً أو بعد غد. فَلْنُبدِّد هذه المُهلةَ قبل النِّهاية نمشي في الشَّمس، غاضِّين الطَّرْفَ، طواعيةً، عن كلِّ المقاصد والمساعي. ستجلو الشَّمسُ جباهنا النَّاعمة ويجلبُ النَّسيمُ الهدوءَ إلى ذاك الذي تخلَّى عن الآمال كلِّها.

سأضعُ قلمي، وقبل أن أتمكَّن من التقاطه ثانيةً، سوف يتدحرج أسفل مُنحَدر المكتب الذي أكتب عليه. خطر ببالي هذا كلُّه على عجالة، فتجسَّدتْ سعادتي في هذه الإيماءة التي من غضبٍ لا أشعر به حقاً.

284

[1930؟]

سيمفونيَّةُ ليلٍ مُضْطَرِب

كان كلُّ شيء نائماً، كأنَّ الكون غلطةٌ، وكانت الرِّيح المُتردِّدةُ رايةً منشورة تتدلَّى فوق قمَّة

الأصل هي: ووجههُ، الذي ورَّدتهُ الانطباعات الأولى، يبتسمُ بلا عينَيْن حزينتَيْن فوق الياقة الكبيرة جدّاً com a cara corada das primeiras impressões a sorrir sem olhos tristes por cima do colarinho muito grande. (المترجم)

بناية[247] غير موجودة. ولم يكُن ثمَّة شيءٌ قد تمزَّقَ أشلاءً في الرِّيح العاتية العالية، في حين هزَّت إطاراتُ النَّوافذ ألواح الزُّجاج كي تجعل أنْفُسَها مسموعةً من الدَّاخل. كانت الرُّوح تعاني بصمتٍ، في أعماق كلِّ شيءٍ، شاعرةً بالشَّفقة على الله.

ثُمَّ، فجأةً، فرض نظامٌ جديد من أشياءَ كونيَّةٍ نَفْسَهُ على المدينة؛ صفَّرت الرِّيحُ حين صمتتِ الرِّيحُ، فعمَّ شعورٌ مُنوِّمٌ من جيشانٍ عظيمٍ في الأعالي. أطبق اللَّيلُ مثل باب مسحور، فجعلتني السَّكينة التي أعقبَتْ ذلك أتمنَّى لو كنتُ نائماً.

285

[1930؟]

نَسَمةٌ[248] موسيقى أو حُلُمٍ، أيُّ شيء قد يجعلني أشعرُ أو أكادُ، أيُّ شيء قد يجعلني أتوقَّفُ عن التَّفكير.

286

[1930؟]

اِمنحْ كلَّ حركةٍ شخصيَّةً، وكلَّ حالةٍ ذهنيَّةٍ روحاً.

ظهرت مجموعةٌ من الفتيات عند منعطف في الطَّريق. كُنَّ يتجوَّلن مغنياتٍ، وجرْس أصواتِهِنَّ بهيجٌ. لم أعرف مَن هُنَّ أو ماذا كُنَّ. أصغيتُ إليهنَّ بعضَ الوقت من بعيدٍ، دون أن أشعر بشيء على وجه التَّحديد، ثُمَّ قَرَّ في قلبي شيءٌ من الحُزن عليهنَّ.

---

(247) وهُنا مثال آخر على «تعدُّد» فكِّ «شفرة» خطِّ بِسُوَّا المتسارع، المتداخل بعضه في بعض، حتَّى في الطَّبعات البرتغاليَّة أنفسها؛ فهذه الكلمة بعينها قُرِئَتْ «بناية edificio» في طبعة بِسَّارو (المقطع 290) وطبعة سوبراو كونيا (المقطع 499) على حدٍّ سواء؛ ولكنَّها قُرِئَتْ «ثكنة/سارية عسكريَّة quartel» في طبعة برادو كويلو (المقطع 92) وطبعة زينيث (المقطع 32) على حدٍّ سواء. حتَّى إنَّنا نرى، أيضاً، اختلافاً في كتابة كلمة «سيمفونيَّة» التي في العنوان؛ ففي طبعة بسارُّو وطبعة برادو كويلو وردت «symphonia»، في حين وردت «sinfonia» في طبعة سوبراو كونيا وطبعة زينيث، ووردت أقرب إلى لفظة «symph» في أصل القصاصة التي خطَّ عليها بِسُوَّا هذه الشَّذرة. (المترجم)

(248) أترجم كلمة «breath» (بالبرتغاليَّة um hálito) بـ «نَسمة» (وليس نَفَس، على سبيل المثال) اقتداءً بالتَّرجمة التَّوراتيَّة لهذه الكلمة، ولاسيَّما في عبارة «نَسمة حياة breath of life» التي وردت في الإصحاح الثاني في سفر التَّكوين: «جبلَ الرَّبُّ الإلهُ آدمَ تُراباً من الأرض، ونفخَ في أنفهِ نَسمةَ حياة. فصارَ آدمُ نَفْساً حَيَّةً». ونرى، هُنا، أنَّ بِسُوَّا يبحث عن «نَسمة الحياة»، هذه، في الموسيقى أو الأحلام. (المترجم)

أَعَلَى مستقبلهنَّ؟ أَعَلَى لَهْوِهِنَّ البريء؟ كلَّا، ليس عليهنَّ مباشرة، ولكن ربَّما -مَن يدري- على نَفْسي، ليس إلَّا.

الدَّربُ يُفضِي إلى الطَّاحونة، ولكنَّ الجهد يُفضِي إلى اللَّامكان.

كان ذلك في أواخر ما بَعْدَ الظَّهيرة إبان أوائل الخريف، حين سرى في السَّماء شيءٌ من دفءٍ باردٍ هاجع، فكانت ثمَّة غيوم تُلفِّعُ الضَّوء ببطانيَّاتٍ ثقيلة.

الشَّيئان اللَّذان أعطانيهما القَدرُ: بعضُ دفاتر حسابات عموميَّة وموهبة أن أحلم.

287

[1930؟]

أَصغى إليَّ وأنا أقرأ شِعري -ولأنَّني كنتُ شارد الذِّهن، فقد قرأتُ على نحو جيِّد بعضَ الشَّيء- فقال لي ببساطة كما لو كان يُفصِحُ عن أحد قوانين الطَّبيعة: «أتعرف، لو كنتَ دائماً على تلك الشَّاكلة، ولكنْ بوجهٍ مختلف، لكنتَ فاتناً حَقّاً». لقد كانت كلمة «وجه»، أكثر من أيِّ شيء آخر قاله، هي التي جذبتني من ياقة عجزنا الفطريِّ عن معرفة أنفسنا. تخيَّلتُ المرآة في غرفتي، تعكس وجهي الذي يشبه الوجه البائس لشحَّاذٍ غير فقير، فتحرَّكت المرآةُ، فجأةً، مُبتعدةً، فانشقَّ طيفُ **خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِش** أمام ناظريَّ مثل نِيرْڤَانَا (249) من أجل سعاة البريد.

شدَّةُ أحاسيسي المثيرة مثل مرضٍ منفصل عنِّي تماماً. شخص آخر، أنا الجزء المريض منه، يعاني من ذلك المرض، لأنَّني أشعرُ تماماً كما لو كنتُ قد اعتمدتُ على القُدرة الأعظم، التي يتمتَّع بها شخص آخر، كي أشعرَ. فلستُ إلَّا نسيجاً فريداً، أو حتَّى خليَّةً، مسؤولةً عن كائن حيٍّ برمَّته.

(249) النِّيرڤَانَا nirvana: السَّعادة/الطُّوبَى الأبديَّة التي تجاوز كلَّ معاناة، والتي تتحقَّق، وفق البوذيَّة، بكبح الشَّهوات وتلاشي الوعي الفردي بالتَّأمُّل العميق. (المترجم)

فإذا كنتُ أُفكِّر، فذاك لأنِّي غارق في أحلام اليقظة؛ وإذا كنتُ أحلمُ، فذاك لأنِّي مستيقظٌ.
كلُّ شيءٍ فِـيَّ يختلطُ، ولا يعرفُ أيَّ طريق كي يكون.

288

[1930؟]

فضوليٌّ تجاه أيِّ شخص، جشعٌ إلى كلِّ شيء، مَنهُومٌ بالأفكار. تُثقل كاهلي، مثل فقدانِ [...]، فكرةُ أنْ ليسَ كلُّ شيء يمكنُ أن يُرَى أو يُقرأ أو يُفكَّر فيه...

ولكنَّني لا أرى إلَّا سهواً، ولا أقرأ إلَّا شاردَ الذِّهن، ولا أُفكِّرُ إلَّا مُشوَّشاً كذلك. فأنا، في كلِّ شيء، هاوٍ شديدُ الانفعال، غليظٌ إلى حدٍّ ما.

روحي واهنةٌ حتَّى إنَّها لا تستطيع أن تمتلك قوَّة حماستها. خُلِقتُ من أطلالِ أشياء لم تنتهِ بَعْدُ، والمنظر الطَّبيعيُّ الذي قد يُحدِّد كينونتي هُوَ منظرُ التَّخلِّي والاستغناء.

أغرق في أحلام اليقظة حين أُركِّزُ؛ فكلُّ شيء فِـيَّ زُخرفيٌّ وغامض، كمنظر عظيم مُسجَّى بسديم كثيف.

وهذه النَّزعة الشَّهوانيَّةُ لتحويل كلِّ شيء إلى تعبير أو، بالأحرى، للتَّفكير في كلِّ شيء بوصفه تعبيراً عن الفِكر كلِّه؛ لرؤية المشاعر كلِّها ملوَّنةً ومُجسَّدةً وحتَّى رؤية النُّكران كلِّه في الإيقاع [...]

أكتبُ بحدَّة مشاعر عظيمة، حتَّى إنَّني لا أعرفُ بماذا أشعر. نصفي سائرٌ في نومِهِ ونصفي عَدَمٌ.

أغدو المرأةَ التي أكونُها حين أعرف نَفْسي حقاً.

أفيونَ الأَشْفاق الملكيَّة والأعجوبةَ الهاجعة في العتمة، واليدَ التي تنبثقُ من الأسمال.

ويكون الدَّفقُ المُركَّز للصُّور والعبارات التي تملأُ عقلي المُجرَّد، في بعض الأحيان، عظيماً جداً، وسريعاً جداً، وغزيراً جداً، فأهذي وأتلوَّى وأبكي لفقدها - لأنَّني أفقدها فعلاً.

فلكلِّ صورة أو عبارة لحظتها الخاصَّة ولا يمكن استعادة تلك اللَّحظة حين تنقضي. ومثل عاشق لم يبقَ لَهُ سوى حنين إلى وجه محبوب، يلمحه لمحاً، ولا تشخص أبصارُه إليه البتَّة، لم يبقَ لي سوى ذكرى كينونتي كما لو أنَّها كانت ميِّتة، ذكرى تحديقي في هاوية ماضٍ يتدفَّقُ مسرعاً؛ ماضٍ من صُوَر وأفكار وأشكال ميِّتة مغمورة في السَّديم ذاته الذي صُنِعتْ منه.

سيَّالاً، غائباً، لا لزومَ لي، أفقدُ نَفْسي كما لو كنتُ أغرقُ في شيءٍ؛ فأنا صيغةُ فعل ماضٍ تماماً، وتلك الكلمةُ، التي تتكلَّمُ ثُمَّ تتوقَّفُ، تقولُ كلَّ شيءٍ وهي كلُّ شيء.

إيقاعُ كلمةٍ، والصُّورة التي تستحضرها، ومعناها بوصفه فكرةً، تتحدُّ لا محالةَ في كلمة واحدة، ولكنَّها، بالنِّسبة إليَّ، تتَّحدُ منفصلةً. فمجرَّد التَّفكير في كلمة يجعلني أفهم مفهومَ **الثَّالوث**. أُفكِّرُ في عبارة «لا حدَّ لَهُ»[250]، فأختارها مثالاً، لأنَّها مُجرَّدة وغامضة. ولكنَّني إذا سمعتها في كينونتي الحَقَّة، تهتاجُ أمواج عظيمة هادرةً بصوت لا يتوقَّفُ في البحر اللَّامُتناهِي؛ تتلألأُ السَّماوات، بلا نجوم، وإنَّما بموسيقى جميع الأمواج المتلألئة بلا صوتٍ، وفكرةِ لا تَناهٍ سيَّالٍ ينشقُّ أمامي، مثل راية منشورة، في شكل النُّجوم أو أصوات البحر؛ أمامَ «أنا»[251] تعكسُ كلَّ النُّجوم.

فلو يظهر «الدُّوْن سِبَسْتِياوْ»[xix] في هذه اللَّحظة من السَّديم الذي لن يتعارض مع التَّاريخ. فالتَّاريخ كلُّه يحدث في السَّديم، والمعاركُ العظيمة التي أخبرونا عنها، والطُّقوس العظيمة، وجميع إنجازات البشر العظيمة، ليستْ إلَّا مناظر عظيمة مسجَّاة بالسَّديم، ومواكب حاشيات لُمِحَتْ بعيداً في الشَّفق الخافت.

الرُّوح التي فِـيَّ مُعبِّرةٌ ومادِيَّة. فإمَّا أن أخمد في حالة من اللَّاكينونة الاجتماعيَّة، وإمَّا

(250) الكلمة، هُنَا، هي «numberless»، وفي البرتغاليَّة « innumero» (= غير معدود/ لا حدَّ له/لا يحصَى، إلخ) ويتعذَّر صياغتها في العربيَّة في «كلمة واحدة»، تكون «مُجرَّدة وغامضة»، على الشَّاكلة التي يستخدمها بِسُوَّا. (المترجم)

(251) يستخدم بِسُوًّا الـ «أنا»، هُنَا، بصيغتها المُجرَّدة، لا لتشير إلى نفسه، في حدِّ ذاتها، المذكورة في العبارة التي قبلها حين يقول «ينشقُّ أمامي»، وإنَّما إلى واحدة من «الأنوات» الكثيرة التي تعيش في داخله. (المترجم)

أستيقظ. وإذا استيقظتُ، أُظهِرُ نَفْسي بالكلمات كما لو كانت الكلمات طريقةَ كينونتي في فتح عينَيْها. وإذا فكَّرتُ، تنهض الأفكار في عقلي على شاكلة جُمَل إيقاعيَّة، قصيرة، ولستُ متأكِّداً تماماً إنْ كنتُ أُفكِّرُ قبل قول تلك الجُمَل أمْ بعد أن أجد نَفْسي تقولُها. وإذا وجدتُ نَفْسي تحلم، تغمرني الكلمات على الفور. كلُّ عاطفة فِـيَّ صورةٌ، وكلُّ حلم لوحةٌ تؤول إلى موسيقى. قد يكونُ ما أكتبُه رديئاً، ولكنَّه يُشبهني أكثر ممَّا ظننتُ... أو هكذا أظنُّ في بعض الأحيان...

لقد كنتُ أسردُ نَفْسي طيلة حياتي، وإذا ملتُ كي أنظر إلى السَّأم الأقلِّ الذي لديَّ، فإنَّهُ يُورِقُ، بقوَّةِ مغناطيسيَّةِ الـ[...] إلى أزهار بلونِ هاوياتٍ موسيقيَّة.

289

[1930؟]

وحين أنظرُ إلى النِّتاج الأدبيِّ الثَّرِّ -فإنْ لم يكُن ثَراً فهو شامل ومكتمل- لكثير من الأشخاص الذين أعرفهم أو أعرف أعمالهم، أشعر بشيء من الحسد، بإعجاب مُزدَرٍ، بمشاعر مختلطة مُتنافِرة.

القُدرة على إكمال شيء، سواء أكان جيِّداً أم رديئاً -على الرغم من أنه لن يكون جيِّدا تماماً، فإنَّه لن يكون في الغالب رديئاً تماماً أيضاً- نعم، القُدرة على إكمال شيء ربَّما تثير فِـيَّ الحسدَ أكثر من أيِّ شيء آخر. إنَّه مثل طفل، غير كامل مثل جميع الكائنات البشريَّة، ولكنَّه رغم ذلك طفلنا.

لا يسمح لي عقلي، الذي لا يكفُّ عن نقد ذاته، إلَّا أن أرى العيوب والأخطاء في أعمالي، فلا أملكُ الجرأةَ إلَّا لكتابة نُتَفٍ وشذرات، حواشٍ قصيرة على موضوعة اللَّاوجود، ولكنَّ القليل الذي أكتبه، على الرَّغم من ذلك، يفتقرُ إلى الكَمال. بَيْدَ أنَّهُ من الأفضل إمَّا إنتاجُ شيء مكتمل، حتَّى لو كان رديئاً، ولكنَّه موجودٌ على الرَّغم من ذلك، وإمَّا غيابُ الكلماتِ الكاملُ، الصَّمتُ الأبيضُ[252] لروحٍ تعرفُ أنَّ نَفْسَها عاجزةٌ عن الفِعل.

(252) ارتأيتُ ترجمة كلمة blank بالأبيض (وليس الأجوف/الفارغ، على سبيل المثال) لأنَّ الصَّمت الأبيض، هُنا، عند بِسُوَّا، هو المقابل للصَّفحة البيضاء؛ صفحة الكتابة ذاتها، فهي إمَّا مملوءة كلاماً وإمَّا صمتٌ أبيض هو الغياب الكامل للكلمات. (المترجم)

290

[1930؟]

أتساءلُ إنْ كان كلُّ شيء في الحياة ليس شكلاً مُنحطاً من شيءٍ آخَر فحسبُ، وإنْ كانت كينونتُنا ليستْ مُقارَبةً فحسبُ: عَشِيَّةَ شَيءٍ أو ضَواحيه...

ومثلما كانت المسيحيَّةُ مُجرَّدَ شكلٍ غير سوي من أفلاطونيَّةٍ مُحدَثة مُنحطَّةٍ -رَوْمَنةِ التَّقليد الهيلينيِّ عبر اليهوديَّة- فإنَّ عصرنا الهيَّابَ، عديم الملامح، هُوَ مُجرَّد تشوُّهٍ مُتعدِّد الأوجه لجميع الفلسفات العظيمة، المُتقاربَة والمُتناقضة على حدٍّ سواء، التي مِنْ إخفاقِها ظهرتِ التَّكرَاناتُ المتراكمة التي نُعرِّف بها أنْفُسَنا.

نعيشُ بين الفواصل المسرحيَّة رفقةَ موسيقى أوركستراليَّة.

ولكنْ، ماذا يتوجَّب عليَّ أن أفعل بكلِّ تلك الحضارات، أنا الذي يعيش في هذه الغرفة بالطَّابق الرَّابع؟ كلُّ شيء حُلُم، بالنِّسبة إلي، كأميرة بابل[253]، والقلَقُ بشأن البشريَّة عبثٌ مُطلَقٌ - هوسٌ بكُتُب الأُمِّيِّين، أركيولوجيا الحاضر.

سأختفي في السَّديم[254]، غريباً على الأشياء كلِّها، جزيرةً بشريَّة منفصلةً عن حُلم البحر، سفينةً فائضة تطفو على سطح كلِّ شيء.

291

[1930؟]

لم أُحبَّ، حقَّ المحبَّة، في حياتي إلَّا مرَّةً واحدةً فحسب. ولقد عاملني الجميعُ بلُطفٍ دائماً. حتَّى معارفي العاديِّين قد شقَّ عليهم معاملتي بوقاحة أو جلافة أو برودة. ويمكن، في بعض الأحيان، وبمساعدة قليلة منِّي، أن يتطوَّر ذلك اللُّطف -أو قد تتطوَّر على الأقلِّ- إلى محبَّةٍ أو مودَّة. لم يكُن لديَّ صبرٌ ولا تركيز ذهنيٌّ كي أرغب في بذل ذلك الجهد.

---

(253) ربَّما هي إشارة إلى الأميرة في حكاية «أميرة بابل» التي كتبها ڤولتير. (المترجم)

(254) أظنُّه، هُنَا، يستحضر أسطورة الملك سِبَشْتِيَاو الذي اختفى في السَّديم، فباتت العامَّة تنظر إليه على أنَّه «المنشود/ المُشتَهى» الذي سوف ينقذ البرتغال من الضَّلال. فلطالما نظر بِسُوًّا إلى نفسه على أنَّه عبقري وعظيم. انظر المقطع رقم 288 لمزيد حول الملك سبشتياو. (المترجم)

وحين لاحظت في نَفْسي هذه المسألة -فنحن لا نعرف عن أنفسنا إلّا أقلّ القليل- عَزوتُها إلى بعض خجل يصيب الرُّوح، ثُمَّ أدركتُ أنَّ المسألة ليست كذلك، فقد كانت سأماً عاطفياً مختلفاً عن السَّأم من الحياة؛ قلَّةَ صبرٍ على فكرة ربط نَفْسي بشعور واحد متواصل، ولاسيَّما إذا كان ذلك يعني سرقةَ نَفْسي[255] لبذل بعض جهدٍ لا ينقطع. ولكنَّ الجزءَ غير المفكِّر فِيَّ قد فكَّرَ: لِمَ تتجشَّمُ العناء؟ لديَّ كياسةٌ وحساسيةٌ سيكولوجيَّة كافيتان لمعرفة الكيفيَّة، ولكنَّ السَّبب كان يفوتني دائماً. يبدأ ضعف إرادتي دائماً بكونه ضعفاً في الإرادة حتَّى في أن تكون لديها إرادة. والشَّيء ذاته قد حدث لمشاعري، وبصيرتي، وإرادتي نَفْسها، ولكلِّ شيء في حياتي.

ولكنَّني، في المناسبة الوحيدة التي جعلني فيها القَدَرُ الحقود أعتقدُ أنَّني قد أحببتُ شخصاً ما وأنَّه قد أحبَّني في المقابل حقاً، شعرتُ بالذُّهول والحيرة، باديءَ الأمر، كأنَّ رقمي قد ظهر في سحب اليانصيب ففزتُ بمبلغ كبير من المال بعملة غير قابلة للتَّحويل، ثُمَّ شعرتُ بالإطراء، فأنا لستُ إلَّا بشراً. ولكنَّ عفويَّة المشاعر تلك سرعان ما تلاشت، فطغى عليَّ شعورٌ يصعب تحديده، لكنَّهُ من ذلك النَّوع الذي يسوده السَّأم والمَذلَّة والتَّعب الشَّديدُ.

شعورٌ بالسَّأم كأنَّ القدَرَ قد فرض عليَّ مهمَّةً يتوجَّب تنفيذها في أثناء ورديَّة ليليَّة غير مألوفة. كأنَّ واجباً جديداً -واجبَ المعاملة بالمِثْل البغيضة- قد فُرِضَ عليَّ، يا لسخرية القَدَر، بوصفه امتيازاً يُحتِّمُ عليَّ أن أكدح، شاكراً **القَدَر** عليه طيلة الوقت. كأنَّ رتابةَ الحياةِ المتراخيةَ لم تكُن كافيةً كي أحتملها دون أن تجلب معها الرَّتابةَ الإلزاميَّة لشعورٍ بعينه.

والمذلَّةُ، نعم، لقد شعرتُ بالمَذلَّة. استغرقتُ بعض الوقت لفهم تبريرِ ذلك الشُّعور الذي يبدو غير قابل للتَّبرير. حُبُّ أنْ تكون محبوباً لا شكَّ قد لاحَ لديَّ. وربَّما شعرتُ بالإطراء لأنَّ أحداً قد بذل وقتاً كافياً مُنتبِهاً إلى وُجودي، خالصاً إلى احتماليَّة أن يكون وجودَ كائن جدير بالحُبّ. ولكن، بمعزل عن لحظة الكبرياء القصيرة تلك -على الرَّغم من أنَّني لست متأكِّداً تماماً أنَّ تلك الدَّهشة لم تطغ على الكبرياء- فإنَّ الشُّعور الذي جاشَ فِيَّ كان شعوراً بالمَذلَّة. شعرتُ كأنَّني قد مُنِحتُ جائزةً رُصِدَتْ لغيري؛ جائزةً ذات قيمة عظيمة بالنِّسبة إلى الشَّخص الذي يستحقُّها حقاً.

---

(255) يقصدُ: سرقةَ نَفْسه مِن نَفْسه. (المترجم).

ثُمَّ شعرتُ بالتَّعب، فوق ذلك كلِّه - تعبٍ يفوقُ السَّأمَ كلَّهُ. فلم أفهم، إلَّا حينئذٍ، ذلك الشَّيءَ الذي كتبه شاتوبريان؛ الشَّيء الذي طالما حيَّرني، حتَّى تلك اللَّحظة، لافتقاري إلى المعرفة الضَّروريَّة بِنَفْسي. فعن شخصيَّته يقول رينيه: «أتعبني النَّاسُ بحبِّهم»، فأدركتُ ذاهلاً أنَّ ذلك ما مررت به تماماً، الحقيقة التي لا أستطيع إنكارها.

فكم من المُتعِب أن تُحبَّ، أن تُحَبَّ حقاً! وكم من المُتعِب أن تكون موضعَ باقة مشاعر شخص آخر! أن أتغيَّر من شخصٍ يريد أن يكون حُراً، حراً دائماً، إلى صبيٍّ مهمَّاتٍ ميدانيَّة مسؤول عن أن يردَّ بالمثل على تلك المشاعر، أن يتحلَّى بلباقة ألَّا يهرب، حتَّى لا يُفكِّر الشَّخص الآخر أنَّه لا يتصرَّف بازدراءٍ، يشبه ازدراء الأمراء، رافضاً الهبة العظمى التي يمكن أن تمنحها الرُّوح الإنسانيَّة. فكم من المُتعِب أن تترك وجودَ المرء يتحوَّلُ إلى شيء يعتمد كليَّةً على مشاعر شخص آخر؛ ألَّا يكون لديك إلَّا خيار أن تشعر، وأن تُحِبَّ قليلاً، سواء أكان ذلك معاملة بالمِثْل أم غير ذلك.

مرَّتْ بِي تلك الفترةُ، مثلما أتَتْ إليَّ تماماً، في الظِّلال. فلا أثرَ منها يبقى، في هذه اللَّحظة، سواءٌ في بصيرتي أو في عواطفي. لم تُكسبني أيَّ خبرةٍ لم أستطع استنباطها من قواعد الحياة البشريَّة، ولم تجلب لي أيَّ معرفةٍ غريزيَّة أستطيع استيعابها فِـيَّ بحُكم كوني بشراً فحسب. لم تجلب لي لذَّةً أستطيع أن أتذكَّرها بُحزنٍ فيما بَعْدُ، ولا أسىً يُذكَرُ بحُزنٍ مماثل. تبدو كشيءٍ قرأته في مكان ما، شيءٍ حدث لشخص آخر في رواية لم أقرأ إلَّا نصفَها، فالنِّصف الآخر مفقودٌ، ولم أكترث بأنه مفقود، لأنَّ الذي قرأته حتى ذلك الحين كان كافياً. وعلى الرَّغم من أنَّه بلا معنى، فقد كان واضحاً إذَّاكَ أنَّ الجزء المفقود، بصرف النَّظر عن تحوُّلات الحبكة، لن يُوضِّح شيئاً.

فكلُّ ما تبقَّى عرفانٌ بالجميل تجاه الشَّخص الذي أحبَّني. ولكنَّه عرفانٌ مُجرَّدٌ، مشدوهٌ، عرفانٌ ذهنيٌّ أكثر من كونه عاطفياً. آسفٌ لأنَّ أحداً قد توجَّب عليه أن يعاني بسببي؛ أتندَّم على ذلك، لا أكثر.

من غير المُرجَّح أن تُدبِّر لي الحياةُ لقاءً آخر مع المشاعر الطَّبيعيَّة. أكادُ أتمنَّى أن تفعل، لأرى كيف سأشعر في المرَّة الثَّانية فحسب، بعد أن حلَّلتُ في هذه الأثناء تلك التَّجربة الأولى تحليلاً

عميقاً. قد تنتابني مشاعر أقلُّ؛ وقد تنتابني مشاعر أكثرُ. فإنْ قدَّرَ القدَرُ ضرورةَ أن يحدثَ، فَلْيَكُن! ينتابني فضول تجاه المشاعر. ولا ينتابني الفضولُ، البتَّةَ، تجاه الحقائق، بصرف النَّظر عمَّا قد تكونُ.

292

[1930؟]

تستيقظ بَايْشَا مُتثاقلةً، في سديم مُنتصَف الرَّبيع الصَّباحيِّ الخفيف، وحتى الشَّمسُ كذلك لا تشرقُ إلَّا على مهلها. بهجةٌ هادئة تملأُ الهواء البارد، وفي الأنفاس العليلة لنسيمٍ لا يكادُ يُوجَد، ترتجفُ الحياة قليلاً في البرد الذي قد مرَّ، تعتريها ذكرى البرد، أكثرَ من البرد نَفْسه، فترتجفُ، ترتجفُ حين تقارنهُ بالصَّيف القادم لا بالطَّقس الحاضر.

لم يُفتَح شيءٌ بَعْدُ إلَّا المقاهي والمَلابِنُ، ولكنَّ الهدوءَ ليس الهدوءَ المُتَّثاقلَ؛ هدوءَ صباحات أيَّام الأحد، إنَّه هدوءٌ فحسبُ. للهواء حافَّةٌ شقراءُ والسَّماء الزَّرقاءُ تحمرُّ عبر السَّديم الذي يَرِقُّ. ويشيرُ وجود بعض المارَّة إلى أنَّ الحركات الأولى المتردِّدة للحياة قد دبَّت في الشَّوارع، وعالياً في النَّافذة التي نادراً ما تُفتَحُ يظهر الوجهُ الذي لا يظهر إلَّا صُدفةً في الصَّباح الباكر. وكلَّما مرَّت الترامات، تقتفي أثرَ ثَلمٍ أصفرَ مُرقَّم عبر الهواء، ثُمَّ تبدأ الشَّوارع، دقيقةً بعد أخرى، تَعْمُرُ أنْفُسَها بالنَّاسِ مرَّة أخرى.

أنجرفُ بلا أفكار أو مشاعر، لا أهتمُّ إلَّا بحواسي فحسبُ. استيقظتُ باكراً فخرجتُ هائماً على وجهيَ في الشَّوارع. أرى الشَّوارع مستغرقاً في التَّأمُّل. أراها بأفكاري، ثُمَّ ينهضُ فِـيَّ، على نحو عبثيٍّ، سديمُ عاطفةٍ خفيف، كأنَّ الضَّبابَ الذي يصَّاعد من العالَم الخارجي ينسربُ فِـيَّ على مهلهِ.

أُدركُ ذاهلاً أنَّني كنتُ أُفكِّر في حياتي. لم أعرف أنَّني كنتُ أفكر على هذا النحو، لكنَّها الحقيقة. فكَّرتُ في أنَّني كنتُ أرى وأسمع فحسب، وأنَّني لم أكُن في تجوالاتي الكسولة إلَّا عاكسَ صورٍ مُستقبَلةٍ؛ شاشةً بيضاءَ أسقطَتْ عليها الحقيقةُ الواقعيَّة ألواناً ونُوراً بدلَ الظِّلال. ولكنْ، على الرَّغم من أنَّني لم أكُن واعياً بذلك، فقد كنتُ أكثر من مجرَّد ذلك فحسب. كنتُ ماأزال روحيَ التي تُنكر نَفْسَها، وكانت رؤيتي الشَّارعَ نُكراناً في حدِّ ذاتها.

وحين ينقشعُ السَّديم، يُغطِّي الهواءُ نَفْسَه بضوء شاحب اختلطَ فيه السَّديم بطريقة أو أخرى. أُلاحظ وجودَ مزيدٍ من الضَّجيج، مزيدٍ من البشر حولي. تبدو خُطى هذا العدد الكبير من المارَّة أقلَّ عجلةً. ثُمَّ تظهر في الشَّارع، مرَّةً أُخرى، وعلى النَّقيض الصَّارخ من مشية الآخرين المتمهِّلة، الخطواتُ الرَّشيقة لبائعة السَّمك والخُطى الواسعة المتمايلة للفرَّانين الحاملين السَّلالَ الهائلة. ولا تقطعُ الرَّتابةَ المتنوِّعة لبائعي المنتجات الأخرى إلَّا ما تحتويه سلالُهم المتفاوتة في اللَّون أكثر من المحتوى. يُخشخِشُ بائعو الحليب بالعُلب المعدنيَّة المختلفة لِحرفَتهم الجوَّالة كما لو كانت مجموعة من المفاتيح المُجوَّفة العبثيَّة. وقف رجال الشُّرطة مُتبلِّدي الحِسِّ في المفارق، كأنَّ الحضارة تُنكِر ببزَّات رسميَّةٍ اليومَ المُشرِق على نحو غير ملحوظ.

ليتني أشعر في هذه اللَّحظة، ليتني أستطيع أن أكون شخصاً قادراً على رؤية هذا كلِّه كأنْ لا صِلة تجمع بينهما إلَّا صلة أن يراهُ؛ شخصاً قادراً على مشاهدة كلِّ شيء كما لو كان رحَّالة راشداً وصل اليومَ إلى سطح الحياة! ليت المرءَ لم يتعلَّم، منذ الولادة فصاعداً، أن يخلعَ معانيَ معيَّنة مقبولة على كلِّ شيء، بَيْدَ أنَّهُ كان قادراً، عوضَ ذلك، على رؤية المعنى الكامنِ في كلِّ شيء بدلَ المعنى المفروض عليه مِن خارجه. ليت المرءَ يعرف الحقيقة الإنسانيَّة للمرأة التي تبيع السَّمك، فيذهب أبعد من وسمها على أنَّها مجرَّد بائعة سمك، وأبعد من الحقيقة المعروفة بأنَّها موجودة وتبيع سمكاً. ليت المرء يستطيع أن يرى الشُّرطيَّ مثلما يراهُ الله. ليت المرء يستطيع ملاحظة الأشياء، لأوَّل مرَّة، لا بوصفها تجليَّاتِ السِّرِّ المُروِّعة، وإنَّما بوصفها تجليَّاتٍ مباشرة **للحقيقة الواقعيَّة**.

أسمعُ جرساً أو برج أجراسٍ يدقُّ السَّاعة - لا بُدَّ أنَّها السَّاعة الثَّامنة على الرغم من أنَّني لا أَعُدُّ. الحقيقة المبتذلة لوجود الوقت، القيود التي تفرضها الحياة الاجتماعيَّة على الوقت المتواصل -تَخمٌ حول المُجرَّد، وحَدٌّ على المجهول- تُعيدني إلى نَفْسي. أفيقُ من غَشيتِي، ناظراً من حولي إلى كلِّ شيءٍ طافح، في هذه الأثناء، بالحياة والإنسانيَّة العاديَّة، فأرى أنَّ السَّديم، بمعزل عن بقع الأزرق النَّاقص الذي أطالَ المُقام، قد انقشعَ من السَّماء تماماً وانسربَ، عوضاً عن ذلك، في روحي وفي الأشياء كلِّها، وفي جزء الأشياء، ذلك الذي يلمس روحي. فقدتُ رؤيةَ ما رأيتُهُ. أُبصِرُ لكنَّني أعمى. مشاعري تنتمي في هذه اللَّحظة إلى ملكوت المعرفة المُبتذَل. لم تَعُد هذه الحقيقةُ الواقعيَّة: إنَّها الحياةُ، ليس إلَّا.

... نعم، **الحياة** التي أنتمي إليها والتي تنتمي إليَّ؛ ليست **الحقيقة الواقعيَّة** التي تنتمي إلى الله وحدَهُ أو إلى نَفْسِها فلا تحتوي على السِّرِّ ولا على الحقيقة، وتُوجَد، نظراً إلى أنَّها حقيقيَّةٌ أو تدَّعي ذلك، في مكان آخَر، في صورة شكل ثابت، متحرِّرة من الحاجة إلى أن تكون زائلةً أو أبديَّة، صورةً مُطلقَة، الشَّكلَ الأمثل لروحٍ تجلَّتْ مرئيَّةً.

أشقُّ طريقي ببطء (على الرَّغم من أنَّهُ ليس بالبطء الذي أتخيَّله) عائداً إلى بابي كي أذهب إلى غرفتي مرَّة أخرى. ولكنَّني لا أدخلُ، أتردَّد، ثُمَّ أُواصل. ساحةُ **پرَاسَا ذا فِيغَايْرَا** [256]، الحافلة بالآلهة والألوان المختلفة، تعجُّ بالزَّبائن والبشر وتملأُ أُفُقي بالباعة المتجوِّلين من كلِّ نوع. تقدَّمتُ بأناةٍ، رجلاً ميِّتاً، ورؤيتي التي لم تَعُد رؤيتي باتَتْ لا شيءَ في هذه اللَّحظة: إنَّها مجرَّد رؤية ذلك الحيوان الآدميِّ الذي ورثَ من غير قصدٍ الثَّقافةَ الإغريقيَّة، والنِّظام الرُّومانيَّ، والأخلاقيَّة المسيحيَّة، وجميع الأوهام الأخرى التي تصنع الحضارة التي أعيش فيها وأشعر.

فما الذي سوف يكونُهُ الأحياءُ؟

293

[1930؟]

بتُّ مُدركاً أنَّني دائماً ما أُفكِّر وأُنصِتُ إلى شيئَيْن في الوقت ذاته. أظنُّ أنَّ كلَّ امرئ على ذلك النَّحو بعضَ الشَّيء. فبعض الانطباعات في غاية الغموض إلى درجة أنَّنا لا نعلمُ أنَّها كانت لدينا إلَّا بعد أن نتذكَّرها لاحقاً. أظنُّ أنَّ هذه الانطباعات تُشكِّلُ جزءاً (الجزءَ الجوَّانيَّ ربَّما) من هذا الانتباه المزدوج الذي نُولِيه للأشياء. ولكنَّ الحقيقتَيْن الواقعيَّتَيْن اللَّتَيْن أحضرُ فيهما بكامل انتباهي متساويتان في القَدْر، بالنِّسبة إلى حالتي هذه. ففي ذلك تكمن أصالتي، وفي ذلك، ربَّما، تكمن مأساتي وملهاةُ مأساتي على حدٍّ سواء.

أكتبُ برويَّةٍ، مُنكباً على السِّجل الذي أضبطُ فيه بميزانيَّات عموميَّة التَّاريخَ العبثيَّ لشركة مجهولة، في حين تتبع أفكاري، في الوقت ذاته وبالانتباه ذاته، مسارَ سفينةٍ مُتخيَّلة

(256) ساحة پَارْسَا پرَاسَا ذا فِيغَايْرَا Praça da Figueira: وتعني، حرفياً، «ساحة شجرة التِّين»؛ ساحة كبيرة في وسط لشبونة. (المترجم)

تبحر عبر مناظر طبيعيَّة مشرقيَّة لم تُوجَد مِن قَبْلُ بتاتاً. الشَّيئان واضحان بالقَدْر ذاته، أراهما بالقَدْر ذاته: الصَّفحة المُسطَّرة التي أدوِّن فيها بدقَّة بالغة أبياتَ القصيدة التجاريَّة الملحميَّة التي اسمها «ڤاسْكِش وشركاؤه» وسطح السَّفينة حيث، قليلاً جهةَ أحد جوانب الأسطر الذي أوجدتها المسافات المُقيَّرة التي بين الألواح، أراقبُ، باهتمام شديد، صفوفَ مقاعد الاستلقاء والسِّيقان الممددة لأُناس يستجمُّون في الرِّحلة البحريَّة.

حجرة التَّدخين تحجب الرُّؤية، فلا أستطيع أن أرى سوى السِّيقان.

أغمس قلمي في المحبرة، فيظهر غريبٌ من باب حجرة التَّدخين، التي تكاد تكون بجوار المكان الذي أشعر أنَّني أقف فيه. يدير ظهره لي وينطلق كي ينضمَّ إلى الآخرين. يمشي ببطء شديد فلا يُعبِّرُ وَرِكَاه إلَّا عن أقلِّ القليل. إنَّه إنكليزي. فأدوِّنُ حركةً محاسبيَّة أخرى. ولأنَّني كنتُ منهمكاً في النَّظَر، فقد ارتكبتُ غلطةً. لا بُدَّ أن أُدوِّن الحركة في الجانب المدين من حساب مَارْكِش لا في الجانب الدَّائن (أستطيع أن أراه، بديناً وودوداً وصاحب نُكتة، ولكنَّ السَّفينة قد اختفتْ في تلك اللَّحظة تماماً).

(لو صدمتني درَّاجةٌ هوائيَّة لأحد الأطفال، لباتَتْ تلك الدَّراجة جزءاً من حكايتي).

294 [257]

[1930؟]

تمضي العربات اليدويَّة وهي تشخر في الشَّارع، الصَّوتُ بطيءٌ وجليٌّ في انسجامه، على ما يبدو، مع النُّعاس الذي ينتابُني. إنَّه وقت الغداء، لكنَّني بقيتُ في المكتب. النَّهار دافئ ومُلبَّدٌ قليلاً بالغيوم، بَيْدَ أنَّ الجُلَبَ المنبعثة من الشَّارع تعكس، لسببٍ ما -ربَّما بسبب النُّعاس الذي ينتابُني- أيَّ نوعٍ من النَّهارات هُوَ.

(257) هذه الشَّذرة مكتوبة بقلم رصاص على ظهر ورقة يوجَد عليها نصٌّ بالإنگليزيَّة، رقنه پِسُوًا على الآلة الكاتبة، يتحدَّث بالتَّوصيف عن قصَّة بوليسيَّة من تأليفه، بطلها مُحقِّق صينيٌّ. (المترجم)

295 [258]

[1930؟]

يَعِنُّ لي الأمر، أحياناً، أنَّني لن أغادر خُوَا دُش دُوْرَادُوْرِش أبداً. فما إنْ كتبتُ هذا، حتَّى بدتْ كأنَّها أبديَّةٌ.

لا لذَّةَ، ولا مجدَ، ولا قوَّة: حرِّيَّةٌ فحسب، حرِّيَّة فحسبُ.

وليس الانتقالُ من أوهام الإيمان إلى أطياف المنطق إلَّا مجرَّدَ تغيير الزِّنزانة. وفي حين يحرِّرنا الفنُّ من الأصنام المُجرَّدة للأزمنة الأولى، فإنَّه يُحرِّرنا أيضاً من الأفكار الجزلة والشَّواغل الاجتماعيَّة التي هي أصنامٌ أيضاً.

لا يجد المرءُ شخصيَّته إلَّا بفَقْدِهَا - الإيمانُ ذاتُه يُقرُّ هذا الشُّعور بالقدَر.

296

[1930؟]

يبدو لي أنَّ الأدبَ، الذي يعني اقترانَ الفنِّ بالفِكر والإدراكُ غير المُدَنَّس للحقيقة الواقعيَّة، هو الهدفُ الذي لا بُدَّ أن تبذل البشريَّةُ جمعاء جهودَها من أجل تحقيقه، طالما ذلك الجهد إنسانيٌّ حقاً وليس مجرَّد أثرٍ للحيوان الذي فِينا. أعتقدُ أنَّ قولَ أيِّ شيءٍ هُوَ المحافظةُ على فضيلة ذلك الشَّيء وإزالةُ أيِّ خوفٍ قد يُثيره. فالحقولُ، حين تُوصَف، تغدو أكثرَ اخضراراً من أنْفُسِها الخضراء المحضة. فإذا أراد المرء أن يصف الأزهار بالكلمات التي تُعرِّفها في هواء المُخيِّلة، فلا بُدَّ أن تكون لها ألوان تدوم أكثرَ من أيِّ شيء تُدبِّرُ حياتَهُ الحياةُ الخلويَّة المُجرَّدة. أنْ تتحرَّك يعني أنْ تعيش، وأن تُعبِّر عن نَفْسك يعني أنْ تتحمَّل. فلا شيء واقعياً في

---

(258) وهُنا، مثال آخر واضح، على «تعدُّد» الرؤية «التَّحريريَّة» لكتاب القلق من طرف الذين عكفوا على فكِّ شفرة شذراته طويلاً؛ فهذه الشَّذرات، على سبيل المثال، نجدها منشورةً، في طبعة برادو كويلو، في ثلاثة مقاطع متفرِّقة (المقاطع: 35، 90، 503)، في حين نُشرت مقطعاً واحداً في الطبعات الرَّئيسة الأخرى. وهي في الأصل مكتوبة على ظهر رسالة تجاريَّة موجَّهة إلى مدير البنك الوطني لما وراء البحار. (المترجم)

الحياة لا يغدو أكثر واقعيَّةً حين يُوصف على نحو جميل. فغالباً ما يُشير النُّقاد ضيِّقو الأفق إلى أنَّ القصيدة الفُلانيَّة، بكلِّ إيقاعاتها الزَّاخرة، لا تقول شيئاً أكثر عُمقاً مِن: إنَّه يوم رائع. ولكنْ، ليس من السَّهل أن نقول إنَّه يومٌ رائع، فينقضي اليوم الرَّائع نَفْسُه. واجبنا، حينئذ، أن نحفظ ذلك اليومَ الرَّائع في ذاكرة مُورِقة، لا نهائيَّة، ونُكلِّل حقولَ العالم الخارجي، الفارغ، الزَّائلِ -وسماواتِه- بالأزهار الجديدة والنُّجوم الجديدة.

كلُّ شي يعتمد على ما نحن عليه، وسيدرك أولئك الذين سيأتون بعدنا العالَمَ، مع تغير الوقت، معوِّلين على مدى الشِّدَّة التي تخيَّلناهُ بها، أقصدُ مدى الشِّدة التي كُنَّا فيها العالَمَ حقاً - نحنُ الذين تجسَّدت مُخيِّلتُنا فِينَا، فكنا الجسدَ والمخيِّلة في نَفْس واحدة. لا أومنُ بأنَّ التَّاريخ، ومَشهديَّته العريضة العظيمة الباهتة، أكثرَ من تدفُّقِ تأويلاتٍ متواصل، وإجماعٍ مشوَّش لشهود عَيانٍ شاردي الذِّهن. كُلُّنا روائيُّون، نروي ما نراهُ، فالرُّؤية، مثل أيِّ شيء آخر، ماهيَّةٌ مُعقَّدة.

تنتابني في هذه اللَّحظة أفكارٌ جوهريَّةٌ كثيرة جداً، كثيرٌ من الأشياء الغيبيَّة الحَقَّة التي أودُّ قولَها، إلى درجة أنَّني أشعر بالتَّعب فجأة، فأقرِّرُ ألَّا أكتب بَعْدُ، ألَّا أُفكِّر بَعْدُ، بل أتركُ حُمّى القَوْلِ تُهدهدني للنَّوم، في حين أُربِّتُ، بعينَيْن مُغمضتَيْن، على جميع الأشياء التي قد قلتُها، مثلما أُربِّتُ على قطَّة.

297

[1930؟]

في إحدى فترات الأَرَق تلكَ التي نُسلِّي فيها أنْفُسنا بفطنة كافيةٍ دونَ اللُّجوء إلى فطنتنا، أُعيدُ قراءةَ بعض الصَّفحات التي حين تُوضَع سويَّةً ستُكوِّن كتاب انطباعاتي العشوائيَّة، ثُمَّ ينبعث منها، مثل رائحة مألوفة، إحساسٌ عقيم بالرَّتابة. أشعرُ أنَّني أستخدم دائماً الكلمات ذاتها، حين أصف حالاتي المزاجيَّة المختلفة كلَّها؛ أشعر أنَّني أُشبه نَفْسي أكثر ممَّا قد أظنُّ؛ أنَّني، حين تُدوَّن الحسابات الختاميَّةُ، لن أذوقَ فرحة الفوز ولا إثارةَ الخسارة. فأنا غيابُ التوازن، لاتّزانٍ لا إراديٍّ يعذِّبني ويُوهِنُني[259].

(259) [illegible] نَفْسه بحساب ختامي/ميزانيّة ختاميّة، حيث كفتا المدين والدّائن، لنفسه الحَقَّة، غير متوازنتَيْن؛ والتَّوازُن

كلُّ شيء أكتبُه رماديٌّ. كأنَّ حياتي، حتَّى حياتي العقليَّة، نهارٌ رذَّتْ فيه السَّماءُ فكان كلُّ شيءٍ طيفاً لا حوادثَ فيه، امتيازاً فارغاً وسبباً منسياً. أنوحُ في جُمجمة مُهشَّمةٍ. لا أعرف نَفْسي في هذا الضَّوء وهذا السَّأم.

وليست محاولتي المتواضعة إلَّا كي أقول مَن أنا، كي أُدوِّن، مثل آلةٍ تشعرُ، أدقَّ تفاصيل حياتي النَّزِقة، المغرقة في ذاتيَّتها. ولقد أُفرِغَ ذلك كلُّه مِنِّي كأنَّهُ دلوٌ قُلِبَ فغمرَ الأرض مثل ماءٍ تماماً. ولقد رسمت نَفْسي بألوان باطلةٍ، فانتهيتُ في عُلِيَّةٍ شُيِّدت لتكون إمبراطوريَّة. اليومَ، وأنا أُعيد قراءةَ ما كتبتُه على هذه الصَّفحات البعيدة بروح مختلفةٍ، يلوح قلبي الذي نشلتُ منه الحوادث العظيمة للنَّثر الذي عِشتُهُ، مثل مضخَّة في حديقة ريفيَّة، نُصِبَتْ بالفطرة فراحتْ تعمل بحكم الواجب المفروض عليها. ولقد تحطَّمتُ تحت سماء غير عاصفةٍ في بحر ضحلٍ بما يكفي كي أنهض فيه على قدميَّ.

ثُمَّ أسألُ ما تبقَّى من وعيي، في هذه المتوالية المشوَّشة من الفواصل الزَّمنية بين الأشياء التي هي غير موجودة أصلاً: ما الجدوى المحتملة التي كنت سأجنيها حين مَلأْتُ تلك الصَّفحات الكثيرة بكلمات لا أومن بأنَّها كلماتي، بعواطف شعرت أنَّني قد فكَّرتُ فيها، بأعلام جيوش ورايات ليست في نهاية المطاف إلَّا مجرَّد قُصاصات تلصقُها ببصاقها على الأفاريز ابنةُ الشَّحَّاذ؟

أخاطبُ ما تبقَّى منِّي فأسألُ ما جدوى تلك الصَّفحات العبثيَّة التي قُدِّرَ لها أن تُلقَى في كومة النُّفاية، وأن تبلى مفقودةً حتَّى قبل أن تخرج إلى الوجود بين صحائف القَدَر المُمزَّقة.

أسألُ ثُمَّ أُواصل. أدوِّن السُّؤال، أُغشِّيه بجُمل جديدةٍ، ثُمَّ أكشف عنه ليكوِّن مشاعر جديدة. ولسوف أعود، غداً، إلى كتابي السَّخيف، كي أُدوِّن، بمشاعر باردة، مزيداً من الأفكار عن افتقاري إلى اليقين.

فَلْتَنْتَل، مثلما هي. وحين تُلعَب الدُّومينو الأخيرة، فتُكسَب اللُّعبةُ أو تُخسَر، تُقلَبُ القطع كلُّها فتنتهي اللُّعبة في الظَّلام.

اللَّاإراديُّ (تساوي كفتي الدَّائن/الفوز، والمدين/الخسارة) الذي يشعر به داخل نفسه، هو توازن غير حقيقيٍّ، ولهذا يتعذَّب. (المترجم).

[1930؟]

أُدوِّنُ يوماً بعد آخر في روحي العميقة الوضيعة الانطباعاتِ التي تُشكِّل الجوهر الخارجي لوعيي بِنَفْسي. أصوغها بكلماتٍ ضالَّةٍ لا أكادُ أكتبها حتَّى تهجرني فتطوف، مستقلَّةً بذواتها، تلالَ الصُّوَر ومروجَها، وعلى امتداد جادَّات مرصوفة بالأوهام وأزقَّةِ الارتباكات. لا جدوى من هذا كلِّه، فلا جدوى من أيِّ شيء. ولكنَّ السَّكينة تغمرني حين أكتبُ، على الشَّاكلة التي يتنفَّسُ فيها العليلُ بسهولة أكثرَ مع أنَّه لم يبرأ من سقَمه بَعْدُ.

يُخربشُ بعض النَّاس، حين تشردُ أذهانُهم، بعض الأسطر والأسماء العبثيَّة على سجلِّ اليوميَّة المساعدة، المُسجَّى فوق مكاتبهم، بصفحاته المطويَّة من أطرافها. وليست هذه الصَّفحات إلَّا الخربشات العابثة لوعيي الفكريِّ بِنَفْسي. أخطُّها ومشاعري في سُباتٍ، مثل قطٍّ في الشَّمس، فأعيد قراءتها بين حين وآخر بلوعةٍ كئيبة متأخِّرة، كأنَّني أتذكَّر شيئاً قد نسيتُه في السَّابق دوماً.

الكتابة تشبهُ أنْ أزورَ نَفْسي زيارةً رسميَّة. لديَّ حجراتٌ خاصَّة، تذكَّرَها في برازخ المخيِّلة شخصٌ آخر، حيث أُمتِّعُ نَفْسي في تحليل ما لا أشعر به، مسترقاً النَّظر إلى نَفْسي، كأنَّني أسترقُ النَّظر إلى لوحة مُعلَّقة في الظِّلال.

فقدتُ قلعتي القديمة حتَّى قبل أن أُولَد. وبِيعَتِ السَّجاجيدُ الجداريَّة المُزخرفة الموجودة في قصر أسلافي قبل حتَّى أن أظهرَ إلى الوجود. وقصري، الذي شُيِّد قبل أن أعيشَ، قد تهدَّم أطلالاً، وليسَ إلَّا في أوقات معيَّنة، حين يصعدُ القمر فِـيَّ فوقَ القصب، أشعر ببردِ الحنين المنبثق من ذلك المكان حيث تنتصبُ البقايا الهَتْماءُ للجدران مُظلَّلةً سوداءَ على صفحة السَّماء التي تشحبُ زرقتُها الدَّاكنة، شيئاً فشيئاً، حتَّى تغدو صفراءَ حليبيَّةً.

أُقسِّم نَفْسي، كأبي الهول. وشلَّةُ خيوطِ روحي المنسيَّةُ تسقطُ من حُضن الملكة التي أفتقدها، كمشهد مُستلٍّ من سجَّادتها الجداريَّة العقيمة. تتدحرجُ أسفل الصَّندوق المُرصَّع، فيتبعها شيءٌ من نَفْسي، كما لو كان ذلك الشَّيء عينيَّ، حتَّى ضاعت الشِّلَّةُ وسط رُعب عميمٍ لقبور ونهايات.

299

[1930؟]

وليست كلُّ إثارة في حساسيتنا، مهما كانت ممتعةً، إلَّا مجرَّد تأويل لحالة أخرى، لا أعرف ما تكونُ بتاتاً، ولكنَّها تُشكِّل الحياة الجوَّانيَّة لتلك الحساسية ذاتها. ليستْ حالات القلَق الرَّئيسة هي التي تُشتِّتُنا عن أنْفُسنا، وإنَّما حالات الضِّيق البسيطة التي تستطيع تكديرَ راحةِ البال التي نصبو إليها جميعاً، من غير قَصْدٍ.

نكادُ نعيش خارجَ أنْفُسنا تماماً، والحياةُ في حدِّ ذاتها تشتُّتٌ أبديٌّ. لكنَّنا نرتدُّ إلى أنْفُسنا، رغم ذلك، كما لو كُنَّا نرتدُّ إلى مركزٍ ندورُ مِن حوله، كالكواكب، نقتفي أثر أشياء إهْلِيلَجيَّة عبثيَّة بعيدة.

300

[1930؟]

أفترضُ أنَّني ما يُسمِّيه النَّاس مُنحطاً[260]، شخصٌ تُعرِّفُ روحَهُ في الظَّاهر تلك الومضاتُ الحزينة لغرابةِ أطوارٍ باطلةٍ تُضفي تعبيراً غير متوقَّع على روح بارعة ولكنَّها مُتلهِّفة. هكذا أشعرُ بِنَفْسي، على الأقلِّ، فأجدها عبثيَّةً. ولهذا أبحثُ في محاكاةِ كلاسيكيَّةٍ مُفترضَة عن رياضيَّاتٍ تعبيريَّة أصفُ بها الأحاسيس المُبهرجَة لروحي المُزيَّفة. ثمَّة نقطةٌ، حين أُدوِّنُ أفكاري، أفقدُ فيها دائماً مسارَ تركيز انتباهي – سواء أكانت الأحاسيس المُتباينة التي أحاول وصفَها كما لو كانت سجاجيد جداريَّة مزخرفة وغير مألوفة، أم الكلمات التي أعلقُ في خضمِّها حين أحاول وصفَ وَصْفِي نَفْسِه، فأُضيِّعُ طريقي وأرى أشياء أُخرى. تخطر ببالي أفكار أُخرى وصُوَر وكلمات -واضحة ومُستفيضَةٌ على حدٍّ سواء- فأقول ما أشعر به وما أتخيَّلُ أنَّني أشعر به على حدٍّ سواء، ولا أستطيع التَّمييزَ بين ما تُخبرني به روحي وبين تلك الصُّوَر التي أهملتها روحي؛ تلك الصُّوَر التي تنبثق من الأرض بطريقة أو أخرى، ولا أستطيع التَّمييزَ، أيضاً، إنْ كان صوتُ كلمة بربريَّة أو إيقاع عبارة مُقحَمة هُوَ مُجرَّد تشتُّتٍ نابع من موضوعي الضَّبابيِّ أو من إحساس مهجور سلفاً، فأُحرِّرُ نَفْسي هكذا من التَّفكير

(260) المُنحطُّ، هُنَا، بمعنى decadent الذي سبق الإشارة إليه. (المترجم)

والقول، كما لو كانت هذه الأشياء رحلات بحريَّة طويلة هدفتْ إلى تشتيت الانتباه. ولا بُدَّ لهذا كلِّه، حتَّى وأنا أُردِّده، أن يغمرني بإحساسٍ بالعُقم والإخفاق والمعاناة، بدلاً من أن يمنحني أجنحةً من ذهب. فكلَّما تكلَّمتُ عن الصُّوَر -ربَّما حتَّى لشجب الإفراط في استخدامها- تُولَد صورٌ أخرى فِيَّ على الفور؛ وكلَّما واجهتُ نَفْسي -مُنكراً ما أشعرُ به في الحقيقة- أشعرُ على الفور بتلك المشاعر، ويغدو إنكاري شعوراً آخرَ مُوشَّى على نحو باذخ؛ وكلَّما رغبتُ، بكلِّ بساطة، في أن أترك عقلي يطوفُ حُراً -بعد أن فقدتُ الإيمان بجهودي كلِّها- تكشفُ صِيغةٌ تعبيريَّة بسيطة ورصينة، وصِفةٌ حسيَّة وواقعيَّة، أمامَ ناظريَّ مثل شعاع شمس ساطع، الصَّفحةَ التي كتبتُها وقد أخذني النُّعاس، فتغدو الحروف التي خطَّها قلمي خريطةً عبثيَّة للافتات سحريَّة. وضعتُ نَفْسي وقلمي، ثُمَّ ملتُ إلى الخلف مُدثِّراً نَفْسي برداء التَّنافُر، بعيداً، متوسِّطاً وخاملاً، كضحيَّة سفينة تحطَّمت يغرقُ في مرمى البصر من الجُزُر البديعة القائمة في البحار الذهبيَّة-الأرجوانيَّة ذاتها التي حلمتُ بها حقاً ذات مرَّة في سرير يبدو الآن بعيداً.

301

[1930؟]

ثمَّة التَّبحُّرُ في المعرفة، وهو ما نقصد به «سِعة الاطِّلاع» عادةً، وثمَّة التَّبحُّر في الفهم، وهو ما نُسمِّيه «الثَّقافة». ولكن ثمَّة، أيضاً، التَّبحُّرُ في الحساسية.

وهذا ليس له علاقة بتجربة المرء الحياتيَّة. فالتَّجربة الحياتيَّة، على شاكلة التَّاريخ، لا تعلِّمُنا شيئاً البتَّة. فالتَّجاربُ الحقَّة تنطوي على تقليص المرء اتِّصالَهُ بالحقيقة الواقعيَّة في حين يعمل في الوقت ذاته على تكثيف تحليله لذلك التَّواصُل. ويمكن لحساسية المرء أن تتوسَّع وتتعمَّق، بتلك الطَّريقة، ولاسيَّما أنَّ كلَّ شيء يكمن داخلنا على أيِّ حال؛ يكفينا أن نبحث عن الشَّيء وأن نعرف كيف نبحث.

ما التَّرحال وما جدواه؟ إنَّ غروبَ شمسٍ يُشبه الغروب الآخَر كثيراً؛ ولا يتوجَّب عليك أن تذهب إلى القسطنطينيَّة كي ترى الشَّمس تغربُ. وماذا عن الإحساس بالحُرِّية التي يجلبها التَّرحال؟ أستطيع التَّمتُّع بذلك لمجرَّد الذَّهاب من لشبونة إلى بَيفِيكَا، وأستطيع

الشُّعور بالحرِّيَّة أشدَّ ممَّا يشعر بها شخصٌ يسافر من لشبونة إلى الصِّين، فإنْ لم يكُنِ الإحساسُ بالحرِّيَّة في داخلي، فَلَنْ يكون في أيِّ مكانٍ آخَر. لقد قال **كارلايل**[261]: «إنَّ أيَّ طريق، حتَّى هذه الطَّريق البسيطة إلى **إنْتِپْفُول**، سوف تقودك إلى نهاية العالَم». ولكنَّ الطَّريق إلى **إنْتِپْفُول** سوف تقود، إذا قُطِعَتْ حتَّى النِّهاية، إلى **إنْتِپْفُول** ثانيةً، الأمر الذي يعني أنَّ **إنْتِپْفُول**، حيث بدأنا، هي «نهاية العالَم»؛ تلك التي شرعنا في البحث عنها منذ البداية.

وبدأ **كُونديَاك**[262] كتابَهُ الذَّائع الصِّيت بهذه الكلمات: «مهما صعدنا عالياً، ومهما هبطنا إلى الحضيض، فلن نستطيع الهرب من مشاعرنا[263] أبداً». لن نستطيع التَّرجُّل[264] من أنْفُسنا البتَّة، ولن نستطيع أن نكون شخصاً آخر البتَّة، إلَّا حين نُتيح لأنْفُسنا بأن تكون شخصاً آخر، بالتَّطبيق الحسَّاس لمخيِّلاتنا على أنفسنا. فالمناظر الطَّبيعيَّة الحَقَّة هي تلك التي نخلقها بأنْفُسنا، لأنَّنا نراها -بوصفنا من خلقها- كما هي في الحقيقة، أقصدُ، كما خُلِقَتْ تماماً. لست مُهتماً بأنْ أرى حقاً أيَّ منطقة من مناطق العالَم السَّبع، ولا أستطيعُ؛ أسافرُ في المنطقة الثَّامنة التي هي منطقتي.

ليس الشَّخص الذي أبحر في كلِّ بحر إلَّا مُجرَّد شخص أبحرَ في رتابة نَفْسه. ولقد أبحرتُ في بحار أكثر من أيِّ شخص. ورأيتُ جبالاً أكثر من تلك التي تضمُّها الأرضُ. وعبرتُ مُدُناً أكثر من تلك التي وُجدَتْ أبداً، ولقد تدفَّقت الأنهار العظيمة لعوالم مستحيلة، صافيةً، تحتَ تحديقتي المتأمِّلة. فإذا رغبتُ في السَّفر، فسوف أختارُ صورةً باهتة ممَّا قد رأيتُهُ دون سَفَرٍ.

---

(261) هو توماس كارلايل Carlyle، الكاتب والمؤرِّخ الأسكتلندي الذي عاش في العصر الفيكتوري. والعبارة مستلَّة من عمله «Sartor Resartus». أمَّا **إنْتِپْفُول** Entepfuhl فهي قرية ألمانيَّة، وتعني حرفياً: بركة البطّ. (المترجم)

(262) هو الفرنسيُّ إتيين كونديَاك Condillac، أحد فلاسفة عصر التَّنوير. (المترجم)

(263) يذكر زينيث في حاشيته على هذه الشَّذرة أنَّ كونديَاك لم يفتتح كتابه «Essai sur l'origine des connaissances humaines» (*= مقال عن أصل المعرفة الإنسانيَّة البشريَّة*) بعبارة «لن نستطيع الهرب من مشاعرنا»- بحسب ما يذكر بِسُوَّا- وإنَّما بعبارة «لن نستطيع الهرب من أنفسنا» وهي العبارة ذاتها التي يذكرها بِسُوَّا في الجملة التي تليها. ويذكر، أيضاً، بأنَّ بِسُوَّا قد هضم عدَّة أفكار في فكرة واحدة، دون أن يخون الأفكار الأساسيَّة لهذا الفيلسوف الفرنسيّ. (انظر الحاشية 138 من طبعة زينيث). (المترجم)

(264) الكلمة التي يستخدمها بِسُوَّا، هُنَا، هي «desembarcamos» (وفي صنعة جول كوستا: disembark): يترجَّل/ينزل/يهبط، وليس «يهرب» بحسب العبارة الأصليَّة -كما هي عند كونديَاك- وفق ما ذكر زينيث في الحاشية أعلاه. (المترجم)

وحين يزور المسافرون الآخرون بلاداً، فإنَّهم يقومون بذلك كأنَّهم حُجَّاج مجهولون. ولكنَّني لم أكُن، في البلاد التي زرتها، المُتعةَ السِّريَّةَ التي ذاقَها المسافر المجهول فحسب، وإنَّما جلالةَ الملك الذي يحكم هُنَاك، ولقد كنتُ الشَّعبَ الذي يعيش هُنَاك وأعرافَهم، وتاريخَ تلك الأُمَّة والأممَ الأخرى على حدٍّ سواء. رأيتُ المناظر الطَّبيعيَّة تلك، وتلك البيوت، لأنَّني كُنْتُهَا، مخلوقةً من جوهر مخيِّلتي.

الزُّهد هُوَ الحُرِّيَّة. وعدم الرَّغبة هُوَ القُوَّة.

فما الذي تستطيع الصِّينُ أن تمنحني إيَّاهُ لَمْ تمنحني إيَّاهُ روحيَ من قَبْلُ؟ وإنْ لم تستطع روحي أن تمنحني ذلك، فكيف تستطيعُ الصِّين، وهل كنتُ سأرى الصِّين أبداً، لو لم أكُن أراها بروحي؟ أستطيع الذَّهاب بحثاً عن الكنوز في الشَّرق، ولكن ليس بحثاً عن كنوز الرُّوح، فأنا كنوز روحي، وأنا حيثُ أنا، سواءٌ مع الشَّرق أو دونه.

أستطيع أن أفهم البشر العاجزين عن الشُّعور كيف يكون السَّفَر. ولهذا تفتقر كُتيِّباتُ السَّفر دائماً إلى أن تكون كُتيِّبات تجارب [حقيقيَّة]، فهي لا تكون جيِّدة إلَّا بمقدار ما تكون كذلك مخيِّلةُ الشَّخص الذي يكتبها. فإذا امتلك الشَّخص مخيَّلةً [خصبة] فإنَّه يستطيع امتاعَنا بوصف فوتوغرافيٍّ مُفصَّل للرَّايات والمناظر الطَّبيعيَّة بمقدار ما يُمتعنا بالوصف الذي لا بُدَّ أنَّه أقلُّ تفصيلاً للمناظر الطَّبيعيَّة التي تخيَّل أنَّه قد رآها فحسب. نحن حسيرو البصر جميعاً، إلَّا حين ننظر داخل أنْفُسنا، فلا نرى حقّاً إلَّا في الأحلام.

ولا تستطيع أن تمنحنا التَّجربة التي خُضناها في العالَم إلَّا شيئَيْن اثنَيْن، ليس إلَّا: الكونيَّ والشَّخصيَّ. فوصف الكونيِّ يعني وصفَ المُشترَكِ بين كلِّ روح بشريَّة، والمُشترَكِ بين كلِّ تجربة بشريَّة - السَّماءِ الشَّاسعة والأيَّام واللَّيالي التي تنبلجُ منها وتُوجَد فيها؛ الأنهارِ الجارية - التي تجري بالماء البارد ذاته الذي لا يُشبه الرَّاهبات[265]؛ البحارِ والجبال العظيمة المتماوجة، التي تصونُ جلالَ عُلُوها العظيم في سرِّ أعماقها؛ والحقولِ، والفصول، والسَّاعات، والوجوه، والإيماءات، والثِّيابِ والابتسامات؛ والحُبِّ والحرب؛ والآلهةِ، الفانية والأبديَّة، واللَّيلِ الذي لا شكلَ لَهُ، أُمِّ أصلِ العالَم؛ والقدَرِ، الوحشِ الفكريِّ الذي هُوَ كلُّ شيء...

(265) يستخدم بِسُوَّا، هُنَا، لفظة sororal (وفي صنعة جول كوستا nunlike؛ وفي صنعة زينيث nunnish)، وهي كلمة تشير في البرتغاليَّة إلى ما يتعلَّق بالأُخت/الرَّاهبة. (المترجم)

وحين تصفُ روحي هذا، أو أيّ شيء كونيٍّ، فإنَّها تنطقُ بلغةٍ إلهيَّة بدائيَّةٍ؛ اللّغةِ الآدميَّة التي يفهمها البشر جميعاً. ولكنَّني بأيِّ لغة بابليَّة مُتشظِّيةٍ سوف أنطقُ حين أصفُ «**إلْقَذُوْر دُو سَانْتَا جُوْشْتَا**»[266]، و**كاتدرائيَّة غانس**[267]، والسَّراويل الزَّوَاقِيَّة[268]، على الشَّاكلة التي ينطقُ بها البرتغاليُّون عبارة «تْرَاجُش مُوْنْتِش»[269]؟ وهذه الأشياء حوادث ظاهريَّة يُمكن تجربتها بالمشي لا بالشُّعور. فالكونيُّ بشأن «**إلْقَذُوْر دُو سَانْتَا جُوْشْتَا**» كامنٌ في المعرفة الميكانيكيَّة[270] المفيدة التي يجلبها إلى العالَم. ولا يكمن الحقيقيُّ بشأن **كاتدرائيَّة غانس** في الكاتدرائيَّة ولا في غانس، وإنَّما في الجلالة المُقدَّسة للمباني المُكرَّسة لمعرفة أعماق الرُّوح الإنسانيَّة. وما هُو أبديٌّ بشأن تلك السَّراويل الزَّوَاقِيَّة كامنٌ في خيالِ الثِّياب المُلوَّن، في لغةٍ بشريَّة تمنح صوتاً لبساطة اجتماعيَّة هي، بطريقتها الخاصَّة، عُريٌ جديد. وما هو كونيٌّ بشأن اللَّكنات المحليَّة كامن في الجَرْس البسيط، غير المُتكلِّف، لأصوات البشر الذين يعيشون بعفويَّة، وفي التَّنوُّعِ داخل مجموعات الأفراد، وفي أُبَّهةِ العادات المُتعدِّدة الألوان، والاختلافاتِ بين النَّاس، والتَّنوُّع الهائل بين الأُمم.

نحنُ مسافرون أبديُّونَ في أنفُسِنا، والمنظر الطَّبيعيُّ الوحيد الذي يُوجَد هُوَ ما نحنُ عليه. لا نملكُ شيئاً، لأنَّنا لا نملكُ حتَّى أنفُسنا. ولا شيءَ لدينا، لأنَّنا لا شيء. وأيَّ يدَيْن سأمدُّهما وإلى أيِّ كَوْنٍ؟ فالكونُ ليس كَوْنِي: إنَّهُ أنا.

302

[1930؟]

بطيئاً في ضوء قمر اللَّيل البطيء، تهزُّ الرِّيحُ في الخارج الأشياءَ التي تطرحُ ظلالاً حين تتحرَّك. قد لا يكون ذلك إلَّا الثِّياب المنشورة كي تجفَّ في الطابق الذي فوق شقَّتي، ولكنَّ

---

(266) إلْقَذُوْر دُو سَانْتَا جُوْشْتَا Elevador de Santa Justa (= مصعد القدِّيسة جُوسْتا): مصعد يربط منتصف لشبونة بمناطقها العُليا. (المترجم)

(267) يقصد كاتدرائيَّة نوتردام التي تعرف بهذا الاسم. (المترجم)

(268) نسبة إلى السَّراويل الفضفاضة التي كان يرتديها أفراد الكتيبة التي أنشأها الفرنسيُّون في الجزائر. (المترجم)

(269) Trás-os-Montes: وتعني حرفياً: وراء الجبال؛ وهُنَا يقصد بِسُوَّا اللَّكنة التي تُلفظ فيها البرتغاليَّة في هذا الإقليم الواقع في شمالي شرق البرتغال، والتي تعرف بالبرتغاليَّة القشتاليَّة. (المترجم)

(270) إشارة إلى طبيعة هذا المصعد الميكانيكي الذي يربط أطراف لشبونة بعضها ببعض. (المترجم)

الظِّلَّ نَفْسه لا يعرفُ شيئاً عن القمصان، فيطفو، غيرَ ملموسٍ، في تناغم أخرس مع كلِّ شيء حولَهُ.

تركتُ مصراعَي النَّافذة مفتوحَيْن، حتَّى أستطيع الاستيقاظ مُبكِّراً، ولكنَّني لم أتمكَّن من الذَّهاب إلى النَّوم أو البقاء مستيقظاً كما ينبغي، لغاية هذه اللَّحظة، والوقتُ قد تأخَّرَ كثيراً في هذه اللَّحظة حتَّى لا نَأْمَةَ تُسمَع. وأبعدَ من الظِّلال في غرفتي يتمدَّدُ ضوء القمر ولكنَّه لا يدخل نافذتي. إنَّه هُناك فحسب، مثل يوم من فضَّةٍ جوفاء، وأسطحُ البناية المقابلة، التي أستطيع رؤيتها من سريري، مائعةٌ ببياض حِبريٍّ. ثمَّة سكينةٌ حزينة في ضوء القمر الغزير، شيءٌ يُشبه كلمات تهنئةٍ أُلقِيَتْ على شخص من مكان مرتفع فعجز عن سماعها.

ودونما نَظَرٍ، ودونما تفكيرٍ، تُغمِضُ عيناي في هذه اللَّحظة جفونهما على نوم غائب، فأتأمَّلُ أيَّ كلمات تكون الأفضل لوصف ضوء القمر. كان القدماء يقولون إنَّ القمرَ أبيضُ أو فضِّيٌّ. ولكنَّ بياضَ القمرِ الباطلَ كثيرُ الألوان. فلو نهضتُ من سريري، ونظرتُ عبر زجاج نافذتي البارد، لعرفتُ أنَّ ضوء القمر قد يكون في الهواء الوحيد، في الأعالي، أبيضَ ضارباً إلى الرَّماديِّ تعتريه مسحة مُزرَّقةٌ من أصفرَ باهتٍ؛ وأنَّه، فوقَ الأسطح المختلفة، التي تُجلِّلها درجاتٌ مختلفةٌ من الظُّلمة، يطلي البنايات الخاضعة في هذه اللَّحظة بأبيضَ داكنٍ، ويغمر في هذه اللَّحظة الأحمرَ الكستنائيَّ لقرميد السُّطوح بلونٍ شفيف. وفي الأسفل، في هاوية الشَّارع الهادئة، فوقَ الاستدارات غير المنتظمة للحصى العاري، فإنَّ لونَهُ الوحيد أزرقُ ينبعثُ ربَّما من رماديِّ الحجارة أنْفُسِها. ولسوف يكونُ أزرقَ داكناً فوق الأفق البعيد أو يكادُ، ولكنَّه مختلف تماماً عن الأعماق الزَّرقاء-الدَّاكنة التي للسَّماء، وعن الأصفر الدَّاكن حيث يلمسُ زجاج النَّافذة.

لو فتحتُ، مِن هُنَا، من سريري، عينيَّ الطَّافحتين بنوم لم ألتذَّ بِهِ بَعْدُ، لكان الهواءُ مثل ثلجٍ قد صارَ لوناً تعوم فيه شُعيراتٌ من عِرق لُؤلؤٍ دافئ. وإذاً فكَّرتُ في ضوء القمر بمشاعري، لكان سأماً قد صارَ ظلّاً أبيضَ يَغمقُ على مهله كأنَّ عينيَّ تُغمضان جفنَيهما، رويداً رويداً، على بياضهما الغامض.

303

[8 يناير 1931]

لم أكتُب شيئاً منذ أمدٍ بعيد. مرّت شهور كاملة لم أعش فيها، ولكنّني تجمّلتُ بالصّبر فحسب، عالقاً بين المكتب والفيسيولوجيا، وحالةٌ من الرُّكود الجوّانيِّ تنتاب تفكيري ومشاعري. وهذه -للأسف- ليست حالة مريحة، فلا بُدَّ أن ينطوي العَفَنُ على التّخمير.

وليس أنّني لم أكتُب أيَّ شيء منذ أمدٍ بعيدٍ فحسب، وإنما لم أكُن على قيد الوُجودِ أيضاً. ولستُ متأكّداً إن كنتُ أحلمُ. فالشّوارع مجرَّد شوارع بالنِّسبة إليَّ. أُنجز عملي في المكتب، وذهني مُنكَبٌّ على ذلك تماماً، على الرَّغم من أنَّ ذهني باتَ يشردُ أحياناً، دون أن أكون في حالةٍ من التأمُّل، وإنّما نائمٌ، لكنّني دونَ عملي مازلتُ شخصاً آخر.

لم أُوجَد منذ أمدٍ بعيد. أشعرُ بالسّكينة تغشاني تماماً. لا أحدَ غيري يستطيع معرفة الفرق بين «الأَنَوَات»[271]. أشعرُ نَفْسي تتنفَّس في هذه اللّحظة كما لو كنتُ أتدرَّب في الآونة الأخيرة على مهارة جديدة. بدأتُ أعي أنّني واعٍ. ربّما أستيقظ غداً على نَفْسي فأستأنفُ مسار وجودي. وإنْ فعلتُ، فلا أعرف إنْ كنتُ سأكون أكثرَ سعادةً أم أقلَّ. لا أعرف شيئاً. أرفعُ رأسي عابرَ السّبيل، فأرى قُربَ القلعة عشرات النّوافذ مشتعلةً بغروب الشّمس المُنعكِس[272]، مثل صدى شاهقٍ لنارٍ باردة. وبمعزل عن بضع العيون النّاريَّة المستعرة تلك، فإنَّ ضوءَ المساءِ النّاعمَ يغمر بقيَّة التَّلّ. أستطيع على الأقلِّ أن أحزن، مُدركاً أنَّ ما يتغلغلُ في حُزني -الجُلَب التي رأيْتها بأُذُنيَّ- هي الجلجلةُ الفجائيّة لعربة كهربائيّة عابرة، والأصواتُ المألوفة لفتيةٍ يتجاذبون أطراف الحديث، والهمسُ المنسيُّ للمدينة الحَيَّة.

لم أكُن نَفْسي منذ أمدٍ بعيد.

304

[1 فبراير 1931]

تُعِيدُ السّماء زُرقَتها، الخفيَّة حتّى هذه اللّحظة، بعد أيّام ماطرة، إلى فضاءات عظيمة في

(271) يقصد أناهُ هُوَ والأَنَوَات الأخرى التي تعيش فيه. (المترجم)

(272) أي أنَّ انعكاس حمرة غروب الشّمس، عند المغيب، على زجاج تلك النّوافذ جعلها تبدو كأنَّ النّار قد شبّتْ فيها. (المترجم)

الأعلى. ثمَّة تَبايُنٌ بين الشَّوارع، حين تنعسُ بُرَيْكات الماء مثل بِرَكٍ ريفيَّة، والفرحُ الوضَّاء، البارد، الذي فوقَها يجعلُ الشَّوارعَ القذرة تبدو بهيَّةً وسماءَ الشِّتاء الباهتة كأنَّها الرَّبيع. إنَّهُ يوم الأحد ولا شيءَ لديَّ أفعله. إنَّه يوم رائع، فلا أشعر حتَّى برغبة في الحلم. أستمتع به بمشاعر صادقة أُسلِم بصيرتي إليها. أتجوَّل مثل مندوب مبيعات جوَّال بلا زوجة يعود إلى البيت من أجلها. أشعرُ بالكِبَر كي ألتذَّ بشعور عودةِ نَفْسي فتيَّةً مرَّة أخرى، فحسب.

نوعٌ آخر من الأيَّام تدبُّ فيه الحركةُ بهيبةٍ في ساحة يوم الأحد العظيمة. يخرج النَّاس من كنيسة سَوّ دُوْمِيْنْغُش[273] بعد انقضاء قُدَّاس وثمَّة آخرُ على وشك أن يبدأ. أراقب أولئك الذين يغادرون، والذين لم يدخلوا بَعْدُ، وأولئك الذين، في أثناء انتظارهم قدوم الآخرين، لا يلحظون حتَّى الذين يخرجون.

لا شيءَ في هذه الأشياء مُهمٌّ إطلاقاً. إنَّها، مثل كلِّ الأشياء العاديَّة في الحياة، مجرَّدَ حُلم بالأسرار والأبراج الحصينة التي أُطلُّ منها على سهل تأمُّلاتي مثل رسول قد سلَّمَ رسالتَه.

تعوَّدت، حين كنتُ طفلاً، قبل سنين خلَتْ، أنْ أذهب إلى القُدَّاس هُنَا (أظنُّ على الأقلِّ أنَّه كان هُنَا، على الرَّغم من أنَّه في مكان آخر ربما). كنتُ أرتدي، مُدركاً أهميَّةَ المناسبة، أفضل بذلاتي، مُستمتعاً بكلِّ بساطة بالأجواء كلِّها، حتَّى تلك الأشياء التي لم يكُن ثمَّة سببٌ كي أستمتع بها. عشتُ مهتماً بالمظاهر حينها، والبذلة التي كانت لديَّ جديدةٌ تماماً وغير مُبقَّعة. فما الذي يمكن أن يرتجيه شخصٌ سيموت حتماً ذات يوم، بيد أنه وهُوَ يتشبَّث بيد أُمِّه لم يكُن يعرف أيَّ شيء عن الموت بَعْدُ؟!

اعتدتُ التمتُّع قبل سنينَ بهذا كلِّه، وربَّما هذا سبب أنَّني لم أُدرك إلَّا في هذه اللَّحظة كم كنتُ أستمتع به. كان الذَّهاب إلى القُدَّاس، بالنِّسبة إليَّ، يشبه النَّفاذ إلى سرٍّ عظيم، وكان الخروج منه يشبه الخروج إلى أرض مقطوعة الأشجار في الغابة. هكذا كان كلُّ شيء، ومازال كذلك. وحدَهُ الرَّاشدُ الكافر الذي مازالت روحه تتذكَّر وتبكي، لكنَّه ليس إلَّا خيالاً، واهتياجاً، وارتباكاً، والقبرَ البارد.

نعم، لَنْ أُطَاقَ إنْ لم أستطع تذكُّرَ الشَّخص الذي كُنْتُهُ. وحشدُ الغرباء، هذا، الذي مازال يخرج من القُدَّاس، والنَّاس الذين يحتشدون لحضور القُدَّاس التَّالي، يشبهون سُفُناً تمرُّ بِي، نهراً

(273) São Domingos: اللَّفظ البرتغاليُّ لاسم القدِّيس دومينغو/ دومينيك. (المترجم)

بطيئاً يجري تحت نوافذ بيتيَ المُشيَّد فوق ضفَّتَيْه.

الذِّكريات، وأيَّام الأحد، والقُدَّاس، ومتعة الحضور، ومعجزة الوقت الذي مازال حاضراً لأنَّه الماضي، لن يَنسى البتَّة، فقد كان لي... وعبر مُفارقَة أُمومِيَّة[274] للزَّمن، صامداً بطريقة ما في الزَّمن الحاضر على طُول الخطِّ المائل العبثيِّ للأحاسيس الممكنة، خلفَ صمت السيَّارات الصَّاخب، صوتُ عجلات سيَّارة الأُجرة يُجلجِلُ في هذه اللَّحظة دونَ غيرها، بين ما أنا عليه وما فقدتُهُ، في برزخ نَفْسي الزَّمنيِّ الذي أسمِّيه أنا...

305

[2 فبراير 1931]

كلَّما ارتقى الإنسانُ، ازدادَ عددُ الأشياء التي لا بُدَّ أن يتخلَّى عنها. لا مكانَ على قمَّة الجبل إلَّا لذلك الإنسان، وحدَهُ، فحسب. وكلَّما كان أكثر كَمالاً، كان أكثرَ اكتمالاً؛ وكلَّما كان أكثرَ اكتمالاً، قَلَّ أنْ يكون غير نَفْسه.

خطرت ببالي هذه الأفكار بعد قراءة مقالة في الجريدة عن الحياة الطَّويلة، والمُتعدِّدة الأوجُه، لرجل ذائع الصِّيت. كان مليونيراً أمريكياً وكان كلَّ شيء. لقد حصل على كلِّ شيء رغب فيه - المال، والعلاقات الغراميَّة، والمودَّة، والإخلاص، والسَّفَر، والمجموعات الفنيَّة الخاصَّة. لا يمكن للمال أن يشتري كلَّ شيء، لكنَّ الجاذبيَّة الشَّخصية التي تُرافِقُ الثَّروةَ الطَّائلة يمكن أن تُحقِّق أيَّ شيء أو تكادُ.

وكنتُ، حين وضعت الجريدة على الطَّاولة في المقهى، قد شرعتُ في التَّفكير أنَّ الشَّيء ذاته قد ينطبق، في حدود عالمه الخاصِّ، على مندوب المبيعات الجوَّال -أحد معارفي- الذي يتناول الغداء كلَّ يوم، مثلما يفعل اليوم، على الطَّاولة في الزَّاوية في الخلف. فكلُّ شيء امتلكه ذلك المليونير امتلكه هُوَ أيضاً بدرجة أقلَّ، طبعاً، ولكن على نحو يليقُ بمكانته إلى حدٍّ بعيد. لقد حقَّق الاثنان الشَّيء ذاته بالضَّبط، حتَّى لا ذرَّةَ فَرقٍ بينهما في ذيوع الصِّيت، فكلُّ شيء يعتمد

(274) لفت انتباهي، هُنَا، أنَّ هذه الكلمة وردت «material» (= مادي) في طبعة پيسارُو (2010)، وكذلك في طبعة زينيث (2012)، وبهذا تكون العبارة (المفارقة الماديَّة للزَّمن)، ولكن يبدو أنَّهما قد تراجعا عنها في الطبعات اللَّاحقة لصالح كلمة «maternal» (= أُمومي) ولاسيَّما أن الكلمة وردت بلفظ «أمومي» في طبعة سوبراو كونيا (2008) وفي طبعة برادو كويلو (1982) على حدٍّ سواء. (المترجم)

على القرينة. كلُّ شخص في هذا العالم يعرف اسم المليونير الأمريكيِّ، بَيْدَ أنَّ كلَّ شخص في هذا الجزء من لشبونة يعرف اسم الرَّجل الذي يأكل في الوقت الحاليِّ طعامَ غدائه هُنَاك.

ولقد انتزعَ هذان الرَّجلان كلَّ شيء كان في متناول يديهما. قد يكون طول ذراعيهما مختلفاً، ولكنَّهما، بخلاف ذلك، متشابهَيْن. لم أكُن قادراً على الشُّعور بالحسد تجاه أُناس على تلك الشَّاكلة، فلطالما شعرتُ أنَّ الفضيلة تكمن في حصول المرء على الأشياء التي لا تكون في متناول يديه، في العيش حيث لم يكُن قَطُّ، وفي أن يكون مُفعماً بالحياة حين يموت أكثرَ ممَّا كان حين كان على قيد الحياة؛ قُصارى القول، تحقيق شيء صعب، شيءٍ عبثيٍّ، مُتخطِّياً- كمَن يتخطَّى عقبة- حقيقةَ العالم الواقعيَّةَ، صعبةَ المِرَاس.

فَلَو قِيل لي: لا مُتعةَ يذوقها المرءُ في المكابدة بعد أن كفَّ عن الوجود، لأجبتُ، أوَّلاً، أنَّني لا أعرفُ إنْ كان ذلك صحيحاً أم غير ذلك، فأنا لا أعرف ما يحدث بعد الموت؛ ثُمَّ أقول، حينئذٍ، إنَّ مُتعةَ الشُّهرة مُتعةٌ حاضرة - إنَّها الشُّهرة التي هي المُستقبَل، وإنَّها الكبرياءُ التي لا تقلُّ متعةً عن أيِّ شيء ماديٍّ قد يحصل عليه المرء. وقد تكون مُخاتِلةً، لكنَّها، حتَّى إن بدت كذلك، أكثر ديمومةً من متعة الاستمتاع بما هُوَ موجود هناك فحسب. لا يستطيع المليونير الأمريكي توقُّع أن تُقدِّر قصائدَه الأجيالُ القادمة، فهو لم يكتُب أيَّ قصائد البتَّة؛ ولا يستطيع مندوب المبيعات الجوَّال أن يُسرَّ المُستقبَلُ بلوحاته، فهو لم يرسم أيَّ لوحات قَطُّ.

لكنَّني، أنا الذي لا شيءَ في هذهِ الحياة الزَّائلة، أستطيعُ الاستمتاعَ برؤيةِ أنَّ المستقبل سيقرأُ هذي الصَّفحة، لأنَّني عاكف على كتابتها. سأفخر بنَفْسي، كما لو كنتُ طفلاً، جرَّاء الشُّهرة التي سوف أتمتَّع بها، فلديَّ على الأقلِّ الوسيلة لتحقيق تلك الشُّهرة. وحين أُفكِّر بهذا الأمر، أنهض من على الطَّاولة، ثُمَّ، بجلالةٍ جوَّانيَّة محجوبةٍ، أنهضُ أيضاً فوق ديترويت وميشيغان والحيِّ التجاريِّ في لشبونة كُلِّهِ.

لكنَّني أُلاحظُ أنَّ هذه الأفكار لم تكُن الأفكار التي خطرت ببالي باديَ ذِي بَدْءٍ. فما خطر ببالي هُوَ كم يتوجَّب علينا أن نكون صغاراً كي نصمد في هذا العالم. ولكنَّ فكرة واحدة جيِّدة مثل الأخرى، لأنَّهما الشَّيء ذاته في حقيقة الأمر. المجد ليس ميداليةً، ولكنَّهُ عملةٌ معدنيَّة: فثمَّة نقشُ الرأس على أحد الجانبَيْن، وقيمة العملة على الجانب الآخر. وليس ثمَّة

عملة معدنيَّةٌ للقِيَم الأعلى، وإنَّما الورق فحسب، والورق في حدِّ ذاته لا يساوي الكثير.

يعزِّي المتواضعون مثلي أنْفُسَهم بمثل هذه السَّيكولوجيَّات الغيبيَّة.

306

[10 مارس 1931]

أكتب في بعض الأحيان، حين لا يكون لديَّ شيء أقوله، مثلما يعمل بعض النَّاس لأنَّهم ضجرون. كتابتي مثل حلم يقظة يستطيع شخصٌ يتجنَّبُ التَّفكير أن يغمس نَفْسَه فيه على نحو طبيعيٍّ، مع فارق أنَّني قادرٌ على الحُلم في النَّثر. وأستطيع، حين أتوقَّف عن الشُّعور، استخلاصَ الكثير من المشاعر الصَّادقة والكثير من العاطفة الحَقَّة.

وثمَّة لحظات يتَّخذ فيها الخواءُ، النَّاجم عن شعور المرء بأنَّه على قيد الحياة، شكلَ كثافةِ شيء ماديٍّ. وهذا الإحساس بعدميَّة الحياة الذي يشعر به القدِّيسون، الذين هم في الواقع أعظم البشر أعمالاً، لأنَّهم يعملون بمشاعرهم كلِّها، لا ببعضها فحسب، يُفضي بهم إلى اللَّامُتنَاهِي. إنَّهم يُكلِّلون أنْفُسَهم باللَّيل والنُّجوم، ويُمرِّخون أنْفُسَهم بالصَّمت والعزلة. لكنَّ هذا الشُّعور ذاته، بين عظماء البشريَّة الكسولين الذين أنتمي إليهم بكلِّ تواضع، يُفضي إلى المُتناهِي في الصِّغر؛ فكلَّما كانت المشاعر مشدودة، مثل أربطة مطَّاطيَّة، كانَ من الأفضل مراقبة مسامِّ استمراريَّتها الباطلة الرَّخوة.

يتوق كلا النَّوعين من البشر إلى النَّوم، في تينك اللَّحظتَيْن، مثل معظم البشر العاديِّين الذين هُم مُجرَّد انعكاس لوجود الجنس البشري العموميِّ الذي يفعل ولا يفعل. فالنَّوم اتِّحادٌ بالله، نيرڤانا، أو أيّ شيء تختار أن تعرِّفَهُ به؛ النَّومُ تحليل الأحاسيس البطيءُ، سواء طُبِّق كعلمٍ ذريٍّ للرُّوح أو جُرِّبَ عبر النَّوم مثل موسيقى الإرادة، جِناساً تصحيفياً للرَّتابة.

أكتبُ وأتوانى مستمتعاً بالكلمات كأنَّني أمام معروضاتِ ڤترينات متاجر لا أستطيع أن أراها، لم يبق لي إلَّا أنصاف المعاني وأشباه التَّعابير التي تشبه ألوان الأقمشة التي لا أستطيع تحديدها؛ معروضات تتكوَّن من أشياء مجهولة. أهزُّ رأسي وأنا أكتبُ، كالأمِّ التي جُنَّت لموت ابنها.

وجدتُ نَفْسي في هذا العالَم ذات يوم، لا أعرف متى، ولقد عشتُ بلا مشاعر منذ ذلك

الحين، منذ الولادة أظنُّ. فإذا سألتُ أين كنتُ، يخدعني الجميع ويناقضون كلّ شيء آخر. وإذا سألتهم أن يخبروني ماذا أفعل، يكذب الجميع ويخبروني بشيء مختلف. وإذا ضعتُ فتوقَّفت في الطَّريق، يُدْهش الجميع لأنَّني لم أكْمل المسير إلى ما تُفضي إليه الطَّريق (لا أحدَ يعلمُ ما الذي تُفضي إليه، رغم ذلك)، أو لماذا لم أقتف بكلٍّ بساطة آثار خطواتي - وأنا، الذي لا يعرف حتَّى من أين جاء، لا أستيقظ إلَّا عند مَفرق الطُّرق. فأدرك أنَّني كنتُ على خشبة مسرح ولا أعرف الكلمات التي ردَّدها الجميع على الفور على الرَّغم من أنَّهم لم يعرفوها من قَبْل. رأيتُ أنني قد ارتديتُ زيَّ سَاعٍ، لكنَّهم لم يمنحوني مَلِكةً أنتظرها، وألقوا عليَّ اللَّوم لعدم وجودها. رأيتُ أنَّ بين يديَّ رسالةً لا بُدَّ أنْ أسلِّمها، وحين أخبرتهم أنَّ الورقة خالية، ضحكوا منِّي. ولم أعرف، حتى هذه اللَّحظة، أَضحكوا لأنَّ جميع القصاصات تلك كانت فارغة أم لأنَّ جميع الرَّسائل كانت افتراضيَّة فحسب.

ثُمَّ جلستُ، أخيراً، على الصُّوَّة[275]، عندَ مفرق الطُّرق، كمَن يجلس أمام مدفأة لم يمتلكها، ثُمَّ رحتُ أصنع وحدي قوارب ورقيَّة من الكذبة التي منحوني إيَّاها. لم يأخذني أحدٌ على محمل الجدِّ، ولا حتَّى بوصفي كاذباً، ولم تكُن ثمَّة بركَةٌ حتَّى أختبر حقيقتي.

كلماتٌ كسولة، ضائعة، واستعارات عشوائيَّةٌ، قَيَّدها بالظِّلال قلَقٌ غامض... آثارُ أوقات سعيدةٍ، عِيشَتْ في جادَّة في مكانٍ ما... مصباح مطفأٌ يشعُّ ذهبُهُ في العتمة، ذكرى ضوء ضائع... كلماتٌ لم تُنثَر في الرِّيح وإنَّما على الأرضِ، سقطتْ من أصابع لم تَعُد قادرةً على أن تضُمَّ أنْفُسَها عليها، كأوراق ناشفة سقطت من شجرة لانهائيَّةٍ محجوبة... حنينٌ يَحِنُّ إلى النَّوافير التي تمرحُ في حدائق أُناسٍ آخرين... شعورٌ من الرِّقَّة تجاه الذي لم يحدث قطُّ...

أنْ أعيشَ! وأنْ أعيش! ويعتريني شكٌّ في أنَّني ربَّما سأنام قريرَ العَين في حديقة پيرسيفونه[276] فحسبُ.

---

(275) الصُّوَّة: «الحجر الذي يُتَّخذُ علامةً في الطَّريق للاسترشاد». (المترجم)

(276) إشارة إلى قصيدة الشَّاعر الإنگليزي آلجرنِن سوينبيرن «في حديقة پروسرپيني In The Garden of Proserpine» (1866)، وبخاصة أنَّ القصيدة مختومة بالبيتَيْن التَّاليَيْن: «لا شيء سوى النَّوم الأبديّ/ في أعماق ليلٍ أبديٍّ». وثمَّة عبارة أخرى خطَّها پِسُوًّا بقلم رصاص على ظهر القصاصة التي رقن عليها هذه الشَّذرة بالآلة الكاتبة، ثُمَّ شطبها: «لا بُدَّ أن تنام، لو كنتَ في حديقة پروشرپينا» (Se acaso no horto de Prosérpina, haveria deveras que dormir).. و«پروشرپينا» هي المقابل البرتغالي لاسم «پروسرپيني/پروسرپينا» الذي هو اللَّفظ اللَّاتيني لاسم «پيرسفونه Persephone». (المترجم).

[8 أبريل 1931]

كان النَّهار المُوحِش برمَّته، الطَّافح بالضَّوء والغيوم الدَّافئة، قد اكتسحته الأخبار التي تقول إنَّ ثورةً قد اندلعَتْ. وسواء أكانت صحيحةً أم مغلوطة، فإنَّ مثل تلك الأخبار تملؤني دائماً بقلَق غريب، بمزيج من الازدراء والغثيان الجسدي. تتوجَّع بصيرتي حين يظنُّ المرء أنَّه قادر على تغيير أيِّ شيء بإثارة القلاقل السِّياسيَّة. لقد آمنتُ دائماً بأنَّ العنفَ، من أيِّ نوع، مثالٌ صارخ على الغباء البشريِّ. فالثَّوريُّون أغبياء، جميعاً، على شاكلة جميع الإصلاحيِّين، وإنْ بدرجة أقلَّ، لأنَّهم أقلُّ إزعاجاً.

يرتكبُ جميع الثَّوريِّين والإصلاحيِّين الغلطةَ ذاتها، ويفتقرونَ إلى القوَّة اللَّازمة لضبط موقفهم تجاه الحياة وإصلاحه، الذي هُوَ كلُّ شيء، أو كينونتهم ذاتها التي تكاد تكون كلَّ شيء، فيهربون إلى الرغبة في تغيير الآخرين والعالم الخارجيِّ. كلُّ ثوريٍّ، وكلُّ إصلاحيٍّ، هاربٌ. والتَّحريض على القتال دليلٌ على عجز المرء عن مجاهدة نَفْسه. والدَّعوة إلى الإصلاح دليلٌ على أنَّ نَفْسَ المرء قد استعصَتْ على الإصلاح.

إذا شعر الإنسان، صاحبُ الحساسيَّة الحَقَّة والمنطق السَّليم، بالقلَق تجاه شرِّ العالَم وظُلمه، فسوف يسعى بالفطرة إلى مكافحة الشَّرِّ والظُّلم حيث يتجلَّيان، أوَّلاً، في المكان الأقرب إلى منزله، وهُوَ المكان الذي سوف يجد أنَّه قابع في نَفْسه. وهذه المُهمَّة ستستغرقه حياتَه كلَّها.

فكلُّ شيء، بالنِّسبة إلينا، كامنٌ في مفهومنا عن العالَم؛ وتغيير مفهومنا عن العالَم يعني تغيير عالمنا الذي هُوَ العالَم نَفْسه، فهو لن يكون أبداً أيَّ شيء غيرَ الطَّريقة التي نتصوَّره بها. وما الإحساسُ الجوَّانيُّ بالعدالة الذي يسمح لنا بكتابة صفحة واحدة فصيحة وجميلة، والإصلاحُ الحَقُّ الذي نُحيي من خلاله حساسيَّاتنا الميِّتة، إلَّا الحقيقةُ، حقيقتُنا، الحقيقة الوحيدةُ. وكلُّ ما عدا ذلك منظرٌ طبيعيٌّ، وإطاراتُ صُوَرٍ لمشاعرنا، وأغلفةٌ لأفكارنا. وهذه هي الحال، سواء أكان المنظر الطبيعيُّ زاخراً بالأشياء الملوَّنة والبشر -الحقول، البيوت، والمُلصَقات، والثِّياب- أمْ كان منظراً طبيعياً شاحباً تسكنه أرواح رتيبة تنهض على السَّطح للحظة كي تقول عباراتها المُبتذَلة المُكرَّرة أو ترسم إيماءات مُتعبَة، ليس إلَّا، كي تغرق ثانيةً في قاع الغباء المتأصِّل للتَّعبير البشريِّ كلِّه.

الثَّورة؟ التَّغيير؟ ما أتحرَّقُ شوقاً إليه، بكلِّ ذرَّة من ذرَّات روحي، هُوَ أنْ تنقشعَ الغيومُ البليدة التي تملأ السَّماء بزبدٍ وسخ؛ أُريد أن أرى البداية الزَّرقاء تتبدَّى بين تلك الغيوم، حقيقةً ساطعة وواضحة، لأنَّها لا شيء ولا تريد أيَّ شيء.

308

[نحو 27 مايو 1931]

كان صبيُّ المكتب، وقد عمل في شركةٍ كنتُ أعمل بها سابقاً، الرَّحَّالةَ الوحيد الذي يمتلك روحاً حَقَّةً ممن قابلتُ في حياتي كلها. جمع هذا الغلام النشرات الدَّعائيَّة التي تروِّج للمدن والبلدان وشركات السَّفر المختلفة، وكانت لديه خرائط، قصَّ بعضها من الجرائد، في حين حصل على الأخريات متوسِّلاً إياها من مكان إلى آخر، ولقد قصَّ صور مناظر طبيعيَّة، وتصويرات أزياء غريبة، ولوحات قوارب وسفن، من عدَّة دوريَّات ومجلَّات. كان يزور وكالات السَّفر نيابة عن شركة حقيقيَّة أو مفترضَة، ربَّما عن الشركة التي كان يعمل بها، ويسألهم أن يعطوه النَّشرات الصَّادرة عن إيطاليا أو الهند؛ نشراتٍ تُقدِّم تفاصيل عن الملاحة بين البرتغال وأستراليا.

لم يكُن أعظم رحَّالة عرفته في حياتي فحسب (لأنَّه كان الأصدق)، وإنما كان أيضاً أحدَ أسعدِ البشر الذين حظيت بلقائهم. أشعر بالأسف لأنَّني لم أعرف ماذا حلَّ به، ولكنَّني، كي أكون صادقاً، لا أشعر بالأسف حقاً، بل أشعر بضرورة أن أشعِر بذلك. لستُ آسفاً لأنَّه لا بُدَّ أن يكون اليوم، وقد مرَّت عشر سنوات أو أكثر على تلك الفترة القصيرة التي عرفته فيها، رجلاً ناضجاً يؤدِّي واجباته بمشاعر باردة وعلى نحو موثوق، وربَّما يكون متزوجاً ويكسب قوت يومه لإعالة شخص ما - بعبارة أخرى، أحد الموتى الأحياء. ربَّما يكون قد سافر بجسده، هُوَ الذي عرف حقَّ المعرفة كيف يسافر بروحه.

تستبدُّ بي ذكرى فجائيَّةٌ: لقد عرف بالضَّبط أيَّ قطار يتوجَّب أن يستقلَّه المرء كي يذهب من باريس إلى بوخاريست، وأيَّ قطارات يستقلُّها المرء كي يجوب إنكلترا، ولاح في نُطقِه المُشوَّه للأسماء الغريبة اليقينُ السَّاطع لعظمة روحه. ولعلَّه يعيش في هذه الأثناء كرجل ميِّت، لكنَّه ربَّما سيتذكَّرُ ذات يوم، حين يهرم، أنَّ الحُلم ببوردو لم يكُن أفضلَ من الوصول إلى بوردو في الواقع فحسب، وإنما أصدق.

ولكنْ ربَّما، مرَّة أخرى، لهذا كلِّه تفسيرٌ آخَر. ربَّما كان يُقلِّدُ شخصاً آخر. أو ربَّما... نعم، أحياناً، حين أتأمَّل تلك الهوَّة الهائلة بين فطنة الأطفال وحماقة البالغين، أَظنُّ أنَّه لا بُدَّ أن يكون لدينا، حين نكون أطفالاً، ملاكٌ حارسٌ يُقرضنا بصيرتَهُ النَّجميَّة ثُمَّ يتخلَّى عنَّا، ربَّما بحُزنٍ، ولكن وفقَ قانونٍ عُلويٍّ، مثلما تتخلَّى إناث الحيوانات عن صغارها النَّاضجين، فقدرُنا أن نكون الخنازير المُسمَّنة.

309

[نحو 27 مايو 1931]

أحلمُ يقظانَ بالرِّحلة بين كِشْكَايْش[277] ولشبونة. ذهبتُ إلى كِشْكَايْش لدفع الضَّريبة عن المنزل الذي يملكه ڤاسْكِش، ربُّ عملي، في إشْتُوْرِيل[278]. دبَّت فِـيَّ الحماسة للرِّحلة، ساعة ذهاباً وساعة إياباً، فهي فرصةٌ لرؤية وجهِ النَّهر العظيم دائم التَّغيُّر ومصبِّه الأطلنطيِّ. انكببتُ وأنا في الطَّريق إلى هُنَاك على تأمُّلات مُجرَّدة، ناظراً، دون أن أرى حقاً، إلى المناظر البحريَّة التي أتطلَّعُ لرؤيتها، ثُمَّ استغرقتُ وأنا عائد في تحليل تلك المشاعر. سأكون عاجزاً عن وصف أدقِّ تفاصيل تلك الرِّحلة؛ أقلِّ ذرَّةٍ في كلِّ ما رأيتُ. فقد انتزعتُ هذه الصَّفحات من النِّسيان والتَّناقُض. ولا أعرفُ إنْ كان ذلك أفضل أمْ أسوأ ممَّا قد يكونِ عليه نقيضُ ذلك.

يخفِّف القطار سرعته، لقد وصلنا إلى كَايْش دُو سُوذْرِي[279]. وصلتُ إلى لشبونة لكنَّني لم أصل إلى أيِّ نتيجة.

310

[18 يونيو 1931]

لو نظرتُ من كثبٍ على الحيوات التي يعيشها البشر، لوجدتُها لا تختلف البتَّة عن الحيوات

(277) كِشْكَايْش Cascais: بلدة ساحليَّة تبعد نحو 30 كيلومتراً غربَ لشبونة. (المترجم)

(278) إشْتُوْرِيل Estoril: بلدة سياحيَّة في كِشْكَايْش. (المترجم)

(279) كَايْش دُو سُوذْرِي Cais do Sodré: محطَّة سكَّة حديد في لشبونة. لمزيد من التفاصيل، انظر الحاشية رقم 45. (المترجم)

التي تعيشها الحيوانات. فلقد قُذِفَ الإنسان والحيوان، من غير وعي، وسطَ الأشياء وفي العالَم، وكلُّ واحد منهما يُمتِّع نَفْسه بين حين وآخر؛ يسلكان يوماً الدَّرب الماديَّ ذاتَه، ولا يفكِّر أفرادُ أيٍّ من الفصيلتَيْن أبعدَ من الأفكار التي تخطر ببالهم على نحو عفويٍّ، ولا يُجرِّبون أيَّ شيء أبعدَ ممَّا قد تُوفِّره حيواناتُهم. ثمَّة قِطٌّ يرقد متكاسلاً في الشَّمس ثُمَّ يذهب إلى النَّوم. وثمَّة شخص، على شاكلة القطِّ، يرقد متكاسلاً في الحياة بكلِّ تعقيداتها، ثُمَّ يذهب إلى النَّوم. ولا يستطيع أيٌّ منهما تحريرَ نَفْسه من قَدَرِ كونه ما هُوَ عليه بالضَّبط. ولا يحاول أيٌّ منهما الهروب من وطأة الكينونة. يعشقُ المجدَ عظماءُ البشر، ولكنَّهم يعشقون المجدَ الذي لا يعني خلودَهم، وإنَّما مجدَ الخلود المُجرَّد الذي قد لا يشاركون في صُنعه.

تُثير فِيَّ هذه الأفكار، التي تنتابني كثيراً، شعوراً بالإعجاب المفاجئ تُجاه ذلك النَّوع من الأفراد الذين أرفضهم بالفطرة؛ أقصدُ المتصوِّفةَ والزُّهَّاد، أي جميعَ أولئك البشر المنعزلين الذي يعيشون في هضاب التِّبت[280] في أنحاء العالم كافَّة، وجميعَ مريدي سَمعانَ العموديِّ[281] المُتنسِّكين فوق أعمدة الحجَر. يحاول أولئك البشر -وإنْ بأكثر الطرائق عبثيَّة باتِّفاق الجميع- تحريرَ أنفسهم على الأقلِّ من قانون الحيوانات. إنَّهم، في الحقيقة، بصرف النَّظر عن مدى الجنون الذي يكتنفُ طرائقهم، يعارضون قانون الحياة الذي يخبرهم بالرُّقود متكاسلين في الشَّمس وانتظار الموت دون تفكير. وحتَّى حين يمكثون فوق عامود الحجر، فإنَّهم يسعون إلى شيء ما؛ وحتَّى حين يحبسون أنفسهم في صومعة خالية من النَّوافذ، فإنَّهم يتوقون إلى شيء ما؛ وحتَّى لو كان ذلك يعني الشَّهادة أو الألم، فإنَّهم يرغبون فيما لا يعرفون.

وأمَّا بقيَّتُنا، الذين يعيشون حيوات حيوانيَّة أكثرَ تعقيداً أو أقلَّ، فإنَّهم يعبرون خشبة المسرح مثل كومبارس ليس لديهم ما يقولونه، قانعين بالجِدِّية العبثيَّة التي تنطوي عليها الرِّحلة. فالكلاب والبشر، والقطط والأبطال، والبراغيث والعباقرة، يلعبون لعبةَ الوجود جميعاً حتَّى دون التَّفكير فيها (ولا يُفكِّر الصَّفوة إلَّا في التَّفكير نَفْسه) تحتَ هدوء النُّجوم

(280) هُنا يستخدم بِسُوّا لفظة التِّبت Tibet بصيغة الجمع، في إشارة منه إلى أنَّ كل مكان حول العالم يعيش فيه هؤلاء المتصوِّفة والزُّهاد هو تِبِتٌ في حدِّ ذاته، ولهذا فقد أشرتُ إليها بـ «هضاب التِّبت» كبديل لصيغة الجمع هذه، كأنَّها هضاب منعزلة متناثرة في العالم كافَّة، ولاسيَّما أنَّ كلمة Tibet في الأصل تعني «هضبة التِّبتْ». (المترجم)

(281) Simon Stylites (وفي البرتغاليَّة: Simões Stylitas): مريدو النَّاسك السُّوري السُّرياني سمعان العموديِّ الذي كان يتنسَّك جالساً فوق عمود حجري بارتفاع 15 متراً، ولهذا سُمِّيَ بالعموديِّ. وثمة دير باسمه، دير القدِّيس سمعان، في شمالي حلب. (المترجم)

العظيم الذي يشرح الصَّدر. ولكنَّ الآخرين -المتصوِّفة بكلِّ عذاباتهم وتضحياتهم- يشعرون على الأقلِّ بالحضور السِّحريِّ للسِّرِّ في أجسادهم وفي حيواتهم اليوميَّة. إنَّهم أحرارٌ لأنَّهم أنكروا الشَّمسَ المرئيَّة، ولقد باتوا ممتلئين لأنَّهم أفرغوا أنْفُسَهم من عَدَم العالَم.

حتَّى إنَّني أشعر كأنَّني صوفيٌّ حين أتحدَّث عنهم، ولكنَّني عاجز عن أن أكون أكثر من هذه الكلمات المكتوبة تحت تأثير حالة مزاجيَّة عارضة. سأنتمي دائماً، مثل البشريَّة جمعاء، إلى خُوَا دُش دُوْرَادُوْرِش. ولسوف أبقى، في الشِّعر أو النَّثر، مجرَّد موظَّف آخر جالس إلى مكتبه. وسوف أظلُّ دائماً، بالتَّصوُّف أو من دونه، محلِّياً وخاضعاً، عبداً لمشاعري وللَّحظة التي أشعر بها فيها. ولسوف أبقى، تحت الظُّلَّة الزَّرقاء العظيمة للسَّماء الصَّامتة، صبياً ساعياً، عالقاً في طقس لا يُسبَر غوره، مُتسربلاً بالحياة كي أشارك فيها، ذاهباً، كيفما اتَّفقَ، عبر مختلف الإيماءات والخطوات، والهيئات والتَّكلُّفات، حتَّى تنتهي الحفلة أو ينتهي دوري، فأستطيع الذَّهاب لالتهام الطَّعام الفاخر من المقصورات العظيمة التي أخبروني أنَّها قد نُصِبَتْ في قاع الحديقة.

311

[20 يونيو 1931]

عادتْ بهجةُ شمس مُعيَّنةٍ إلى حشود البيوت العشوائيَّة في المدينة بعد هطول الأمطار الأخيرة وذهابها جنوباً، فلم يبقَ إلَّا الرِّيحُ التي جرفتها بعيداً، وتجلَّتْ فجأةً ملاءات بيضاء تتدلَّى على حبال ممدودةٍ بين أعمدة نُصِبَتْ خارج النَّوافذ العالية، راقصةً فوقَها.

ولقد شعرتُ بالبهجة أيضاً، لأنَّني مازلتُ على قيد الحياة، لا أكثر. غادرت شقَّتي، عازماً على تحقيق هدف عظيم: الوصول إلى المكتب في الوقت المُحدَّد. ولكنَّ دافعي الحيويَّ قد وحَّدَ جهودَه في ذلك اليوم مع جهود ذلك الدَّافع الجديد الآخَر، بِحُكم الشَّمس التي تشرق في الوقت الذي يُحدِّده خطُّ عرض أو طُول فوق سطح الأرض. شعرتُ بالسَّعادة لعجزي عن الشُّعور بالتَّعاسة. تمشَّيْتُ في الشَّارع يملؤني اليقين تماماً، لأنَّ المكتب المألوف والأشخاص المألوفين الموجودين فيه كانوا هُم أنفُسهم يقينيَّات. فلم يكُن من المستغرب أن أشعر بالحرِّيَّة، حينئذٍ، على الرَّغم من أنَّني لم أعرف من أيِّ شيءٍ قد تحرَّرتُ. كانت قطوف الموز المعروضة

للبيع في سلال موضوعة، تحت الشَّمس، على جانب الرَّصيف في خُوَا ذَا پْرَاتَا[282]، صفراءَ فاقعة.

أحتاجُ إلى أقلّ القليل، حقاً، كي أشعر بالرِّضَا: توقُّف المطر، والشَّمس البهيَّة للجنوب السَّعيد، وبعض قرون موز صفراء، تلك التي تبدو أشد صفرةً من غيرها لوجود بقع سوداء، والنَّاس الذين يثرثرون في أثناء بيعها، وأرصفة خُوَا ذَا پْرَاتَا، وزرقة نهر تِيْجُو المشوبة بمسحة من الأخضر والذَّهب، خلفَ زاوية الكون المحليَّة.

سيأتي يومٌ لا أعود أرى فيه هذا كلَّهُ، حين تواصل قرون الموز على جانب الرَّصيف وجودَها دوني، وكذلك أصواتُ باعة الموز الماكرين، والجرائد اليوميَّة التي صفَّها الصبيُّ الصَّغير، بعضَها قُرب بعض، في زاوية الرَّصيف المقابل. أعرف أنَّها لن تكون قرونَ الموز ذاتَها، ولا البائعين أنفسهم؛ ولسوف تكون الجرائد، بالنِّسبة إلى الشَّخص الذي ينحني للنَّظر إليها، ذاتَ تاريخ مختلف عن تاريخ اليوم، لكنَّها ستظلُّ مثلما هي، لأنَّها جامدةٌ لا روحَ فيها، على الرَّغم من أنَّ شكلها قد يتغيَّر؛ بَيْدَ أنِّي سأموتُ لأنَّني أعيشُ، لكنَّني سأظلُّ نَفْسي.

أستطيع تكريس هذه اللَّحظة، دونَ شكٍّ، بشراء بعض قرون الموز، فيبدو أنَّ الضوء الطَّبيعيَّ الغامر لشمس النَّهار قد أفرغَ نَفْسَهُ كلَّها فيها. لكنَّني سأشعر بالخجل من الطُّقوس والرُّموز؛ من شراء الأشياء في الشَّارع. ربما لن يغلفوا قرون الموز مثلما ينبغي، وقد لا يبيعوني إيَّاها على النَّحو الذي لا بُدَّ أن تُباعَ فيه، لأنَّني لا أعرف كيف أشتريها على النَّحو الذي لا بُدَّ أن تُشتَرى فيه. وقد يبدو صوتي غريباً حين أسأل عن السِّعر. الكتابة أفضل بكثير من أن يجرؤ المرء على العَيش، حتَّى لو لم يَعنِ العيش أكثر من شراء بعض الموز تحت ضوء الشَّمس، مادامت الشَّمس موجودة وظلَّ موز يُبَاع.

لاحقاً، ربَّما... نعم، لاحقاً... آخَر، لعلَّ... ربَّما...

---

(282) خُوَا ذَا پْرَاتَا Rua da Prata (حرفيّاً: شارع صاغة الفضَّة): شارع في لشبونة. (المترجم)

312

[10 يونيو 1931] [283]

اليومَ واحد من تلك الأيّام التي تُطبِقُ فيها رتابةُ كلِّ شيء عليَّ مثل سجن. ولكنَّ رتابةَ كلِّ شيء هي رتابةُ أن أكون نَفْسي، ليس إلّا. فكلُّ وجه، حتّى لو كان وجه شخص رأيناه بالأمس فحسب، هُوَ مختلفٌ اليومَ لأنَّ اليوم، بكلِّ بساطة، ليس الأمس. فكلُّ يوم هُوَ اليوم الذي هُوَ، ولن يكون ثمّة يوم آخر مثله في العالَم. ولا تُوجَد إلّا في الرُّوح الهويّةُ المُطلَقة (وإن كانتْ باطلةً) التي يُشبِهُ فيها كلُّ شيءٍ كلَّ شيءٍ آخَر، وكلُّ شيء فيها مُبسَّطٌ. يتكوّن العالَمُ من نتوءاتٍ وقِمم، بَيْدَ أنَّ كلَّ ما تسمح لنا رؤيتُنا حسيرةُ النَّظر في أن نراهُ هُوَ سديمٌ رفيع يتغلغلُ في كلِّ شيء.

أودُّ أن أبتعد، أن أهربَ ممّا أعرفُ، ممّا هُوَ لي، ممّا أُحِبُّ. أريدُ أن أنطلق، لا إلى جُزرٍ هنديّة مستحيلةٍ أو إلى جُزر عظيمة تقع بعيداً جنوبَ الجُزر الأخرى كلِّها، وإنّما إلى أيِّ مكان -أكان قريةً أم صحراء- يمتاز بأنّه ليس هُنَا. كلُّ ما أريده ألّا أرى هذه الوجوه، وجولةَ الأيّام اليوميّةَ هذه. أريدُ أن أرتاح من تظاهري المعهود وأن أكون شيئاً مختلفاً عنه. أريد أن أشعر باقتراب النَّوم كأنّه وعدٌ بالحياة، وليس راحة. سأكتفي بكوخ قُرب البحر، أو حتّى مغارة عند الحافّة النّاتئة لجبل وعر. ولكنَّ إرادتي، لسوء الحظِّ، لا تستطيع أن تمنحني ذلك وحدها.

العبوديّة القانون الوحيد في الحياة، لا قانونَ آخر، لأنّه لا بُدَّ أن يُطاع هذا القانون؛ لا مهربَ منه، ولا تمرُّد ممكنٌ ضِدَّه. يُولد بعضهم عبيداً، ويغدو بعضهم عبيداً، ويُجبَر بعضهم على أن يكونوا عبيداً. فالحُبُّ الجبان الذي نُكنّه جميعاً للحرّيّة -التي لو مُنِحَتْ لنا، لتبرّأنا منها بوصفها جديدة جداً وغريبة- هُو الدَّليل الذي لا يقبل الدَّحض على الكيفيّة التي تشتدُّ فيها وطأةُ عبوديّتنا علينا. وحتّى أنا، الذي عبَّرتُ آنفاً عن رغبتي في الحصول على كوخ أو مغارة حيث يمكن أن أكون حُراً من رتابة كلِّ شيء، أقصد من رتابة أن أكون نَفْسي، هل أجرؤ حقّاً

---

(283) يبدو أنَّ جول كوستا قد سَهَتْ هُنَا، فالتّاريخ الصَّحيح، بحسب الطبعات البرتغاليّة المختلفة، هو 20 يونيو 1931. النَّص في أصله مطبوع، وقد أثبت بِسُوّا التّاريخ في أعلى الزاوية اليُمنَى بقلم حبر أسود، على هذه الشاكلة: 1931/6/20. (المترجم)

على الذَّهاب إلى هذا الكوخ أو هذه المغارة، عارفاً ومُدركاً أنّني لن أكون حُراً أبداً، مادامت الرَّتابة لا تُوجَد إلَّا فِـيَّ، أنا وحدي، فحسب؟ وبما أنّني أختنقُ حيث أنا، ولأنّني حيث أنا، فهل سأتنَفّس على نحو أفضل هُنَاك حين تكون رئتاي هما العليلتان لا الهواء المحيط بي؟ مَن يقول إنّني، أنا الذي يجهر بالتّوق إلى الشمس الصَّافية والحقول المفتوحة، والبحر السَّاطع والأفق الواسع، لن أشتاق إلى سريري، وإلى وجباتي، أو إلى اضطِّراري الهبوط ثماني طبقات من السَّلالم كي أخرج إلى الشَّارع، أو إلى الذَّهاب إلى متجر بيع التّبغ في الزَّاوية، أو إلى أن أُصبِّحَ الحلَّاقَ الواقف شاردَ الذِّهن خارج دكَّانه؟

يغدو كلُّ شيء يحيط بنا جزءاً منَّا، ينسرب فِينَا مع كلِّ تجربة جسديَّة أو حياتيَّة، ثُمَّ يشدُّ وثاقَنا ببراعة، مثل شبكة **العنكبوت العظيمة**، بما هو قريب، ويُوقعنا في مهد هشٍّ من موت بطيء، حيث نستلقي مُتأرجحين في الرِّيح. كلُّ شيء نحن، ونحن كلُّ شيء، ولكنْ ما جدوى ذلك إذا كان كلُّ شيء هو لا شيء؟ شعاع شمس، وغيمة يُنذر ظلُّها الفجائيُّ بقدومها، ونسيم يصعدُ، والصَّمت الذي يعقب حين يهبطُ، ووجوه معيَّنة، وأصوات قليلة، والابتسامات البسيطة حين تتكلَّم، ثُمَّ يهبط اللَّيل الذي تتجلَّى فيه، بلا معنى، الهيروغليفيَّة المهشَّمة للنُّجوم.

313

[1 يوليو 1931]

لا أحدَ يميل إلينا حين يسوءُ نومنا. أخذ النَّوم الذي فاتنا معه ذلك الشَّيء الذي جعلنا آدميِّين. يبدو أنَّ سُخطاً كامنٌ فِينَا، في الهواء الفارغ الذي يحيط بنا. إننا نحن مَن نتخاصم مع أنْفُسنا، في نهاية المطاف، ولا تنهار الدِّبلوماسيَّة في الحرب السِّرِّيَّة [بين أنْفُسنا وأنْفُسنا] إلَّا داخل أنْفُسنا.

جرجرتُ قدميَّ طيلة اليوم وهذا التَّعبَ العظيم طائفاً في الشَّوارع. تضاءلتْ روحي حتَّى باتَتْ في حجم كرة صوف متشابكة، فنسيَ مَا أنا عليه الآنَ وما كُنتُهُ، الذي هُوَ أنا، اسمَهُ. هل سيكون ثمَّة غدٌ؟ لا أعرف. لا أعرف إلَّا أنَّني لم أنم، وبلبلةُ الفواصل التي قضيتُها بين النَّوم واليقظة تملأُ بصمتٍ طويل المحادثةَ التي أُجريها مع نَفْسي.

آهٍ، المُتنزَّهات العظيمة التي يستمتع بها الآخرون، والحدائق التي يستخفُّ بوجودها الكثيرون، والجادَّات البديعة التي تنتمي إلى بشر لن يعرفونني أبداً! أخمد بين ليالي الأرَق كشخص لم يجرؤ البتَّة على أن يكون فائضاً عن الحاجة، فتستيقظُ تأمُّلاتي مفزوعةً على هذا الحُلم الختاميِّ:

أنا منزلُ أرملة، منعزلٌ على نَفْسه، مُظلمٌ بأشباح خجولة وماكرة. أكون دائماً في الحجرة التي بجانب الباب، أو يكونون هُم، وليس من حولي إلَّا الأشجار الهائلة التي يتعالى حفيفُها. أتجوَّل في الأرجاء فأجد أشياء، ولا أجد الأشياء إلَّا لأنَّني أتجوَّل. تقف أيَّامُ طفولتي أمامي ترتدي مَريُولاً!

ثُمَّ، في غمرة هذا كلِّه، وقد أنعسني التَّجوال، أنجرفُ في الشَّارع، مثل ورقةِ شجر. فلقد جرفتني الرِّياح الأرقُّ من على الأرض فَطُفْتُ كالشَّفق الدَّاني عبر كلِّ ما وفَّره لي المنظر الطَّبيعيُّ. ثَقُلتْ جفوني، وقدماي تتجرجران. أودُّ أن أنام لأنَّني أمشي. أُبقي فمي مُحكم الإغلاق كأنَّني أسدُّ شفتيَّ. أنا حطام سفينة تجوالاتي.

كلَّا، لم أنم، ولكنَّني أكون أفضل حالاً حين لا أنام ولا أستطيع النَّوم. أكون نَفْسي حقّاً في هذه الأبديَّة العشوائيَّة، التي ترمز إلى الحالة شبه الرُّوحانيَّة التي أعيش فيها خادعاً نَفْسي. ثمَّة مَن ينظرُ إليَّ كأنَّهم عرفوني أو يظنُّون أنَّهم عرفوني. أشعرُ بنَفْسي تنظرُ إليهم بعينَيْن مُوجِعتَيْن تحت جفون ملتهبة؛ لا أريد أن أعرف أيَّ شيء عن العالَم الذي هُنَاك.

لقد ران عليَّ النُّعاس، وران عليَّ النَّومُ!

314

[13 يوليو 1931]

أستمتع بالتَّجوال والتَّفكير، عبر ما سوف تغدو عليه المدينة، في الظِّلال الغامضة التي يطرحها الضوء المحتضر قبل أن يغدو المساءُ العتمةَ المُبكِّرة، فأمشي كأنَّ كلَّ شيء قد ضاع. والحزن الذي يرافقني يُبهِجُ مخيِّلتي أكثرَ ممَّا يُبهِج حواسِّي. أنجرفُ فأتصفَّحُ في نَفْسي، دون أن أقرأَهُ حقاً، ذلك الكتابَ الذي تتخلَّلُ متنَهُ صُوَرٌ سريعة، فأكوِّن منها، متكاسلاً، فكرةً لن تكتمل أبداً.

ثمَّة مَن يقرأ بالسُّرعة التي ينظر بها، فلا يستطيع حتماً استيعابَ كلِّ شيء. أستلُّ من الكتاب الذي أتصفَّحه في روحي حكايةً، أيَّ حكاية، يوميَّات جوَّال آخَر، أوصافاً موجزة لمساءات شفقيَّة وليالٍ مقمرة، تتخلَّلها ممرَّات مرصوفة بالأشجار وأشكالٌ حريريَّة مختلفة تمرُّ عابرةً، وتمرُّ.

لا أُفرِّقُ بين سَأم وسأم. أواصل السَّير في الشَّارع في الوقت ذاته عبر المساء وتلك القراءة التي حلمت بها، فأسافرُ حقاً في تلك الممرَّات. أهاجر وأرتاح كما لو كنتُ واقفاً على ظهر السَّفينة التي أبحرتْ فوراً إلى أعالي البحار.

ثُمَّ، فجأةً، دبَّ الضَّوءُ في مصابيح الشَّوارع الميِّتة على جانبَي الشَّارع الطَّويل المُنحني. يشتدُّ حُزني فأرتجُّ. لقد أنهيتُ الكتاب. وليس في رطوبة الهواء لذلك الشَّارع المُجرَّد إلَّا خيط شعورٍ برَّانيّ، مثل لعاب قَدَرٍ أحمق يقطر في وعي روحي.

حياةٌ أخرى، حياة المدينة حين يهبطُ اللَّيل. وروحٌ أخرى، روح شخص ينظرُ إلى اللَّيل. أظلُّ مُرتاباً ومجازياً وشديد الإحساس على نحو غير واقعيٍّ. أنا مثل حكاية قصَّها شخصٌ آخَر بشكل جيِّد حتَّى تجسَّدت بعض الشَّي، في هذا العالَم-الرِّواية، عند مفتتح أحد الفصول: «نستطيع، في تلك السَّاعة، رؤيةَ رجل يمشي على مهله في شارع...[284]».

ماذا عساي أن أفعل بالحياة؟

315

[22 أغسطس 1931]

تميلُ الأصائل إلى أن ترتدي حُلَّةَ مجدٍ باطل عابقةً بالعِطر قبل أن ينتهي الصَّيف ويحلَّ الشِّتاء، في ذلك البرزخ الدَّافئ الذي يثقل فيه الهواءُ وترقُّ الألوان. نستطيع مقارنتها بتلك الحيل البارعة التي تلجأ إليها المخيِّلة كي يشعر المرء بالحنين إلى شيء ما، فتمرُّ بطيئةً مثل يقظات السُّفُن التي كأنَّها حيَّاتٍ تسعى إلى الأبد.

يغمرني في تلك الأصائل، مثل بحرٍ في المدِّ العالي، شعورٌ أسوأ من السَّأم. ولكنْ لا تُوجَد كلمةٌ أخرى لوصفه غير السَّأم؛ شعورٌ بالوحشة المُوحِشة، كأنَّ روحيَ كلَّها كانت حطامَ

(284) آثرتُ، هُنَا، وضع كلمة «شارع» بدلاً من كلمة «خُوَا» (ولم أذكرها بلفظها، على غرار أسماء الشوارع الأخرى التي أثبتناها بلفظها)، لأنَّه لا يذكر هُنا اسم الشَّارع كاملاً وإنَّما اكتفى بوضع عبارة «...Rua de». (المترجم)

سفينةٍ. شعرتُ كأنّيَ قد ضيَّعتُ إلهاً قادراً على كلِّ شيء، وأنَّ جوهرَ كلِّ شيء قد مات. وليس الكون الماديُّ عِندي إلَّا جثَّة أحببتُها حين كانت هي الحياة، ولكنَّ كلَّ شيء قد صار عَدَماً في الوهج الذي ما يزال دافئاً للغيوم الملوَّنة الأخيرة.

يتَّخذُ سأمي هيئةً مرعبة، فيغدو ضجَري خوفاً. لم أتصبَّب عرقاً بارداً، ولكنَّني شعرتُ بالبرد يسري في عروقي. لا أشعرُ بأيِّ ضغينة في جسدي، ولكنَّ الضَّغينة شديدة في روحي فتنسربُ عبر مسامِّ جسدي وأقشعر من البرد.

عظيمٌ سأمي، شديدُ العظمة، وكاسحٌ رعبُ أن أكون على قيد الحياة، فلا أستطيعُ تخيُّل ما الذي يُمكن أن يُسكِّن الألمَ، أن يكون ترياقاً، بلسماً، منبعاً للنِّسيان. فكرة النَّوم ترعبني أيضاً. مثلما ترعبني فكرةُ الموت. فالرَّحيل أو البقاء هما الشَّيء المستحيل ذاته. والأمل والشَّكُّ باردان ورماديَّان على حدٍّ سواء. أنا رَفٌّ طافحٌ بالقناني الفارغة.

فيا للحنين الذي سوف يغمرني حين أشعر بأنَّني لن أكون إلَّا نَفْسي، لو سمحتُ لعينيَّ الفاحشتَيْن أن تستقبلا التَّحيَّة المحتضرة لنهاية النَّهار السَّاطع! ويا لَها من جنازة مهيبة تُقَامُ للأمل في الصَّمتِ الذي لايزال من ذهبٍ؛ صمتِ السَّماوات التي لا حياةَ فيها، ويا لها من حاشيةِ أَخوِيَةٍ ومواكب فضاءات فارغة تمرُّ بالألوان الزَّرقاء الضَّاربة إلى الحُمرة التي تزدادُ شحوباً في السُّهول الشَّاسعة لفضاءٍ أبيضَ فارغ!

لا أعرفُ ما أُريدُ وما لا أُريدُ. لم أَعُد أعرف ما الذي أُريدُه، أو كيف أُريدُه، أو كيف أعرف المشاعرَ أو الأفكار التي نعرفُ من خلالها عادةً أنّنا نرغبُ في شيءٍ أو نرغبُ في أن نرغبَ في شيءٍ. ولا أعرف مَن أنا ولا ما أنا. أستلقي تحت الخَواء السَّاقط للكون كلِّه، كشخص مدفون تحت أنقاض جدار. وأظلُّ على تلك الشَّاكلة، في يقظتي، حتَّى يُرخِي اللَّيلُ سُدُولَهُ، فتنبعثُ أدنى مداعبة مُهدِّئة، لكوني مختلفاً، كأنَّها نسيمٌ، عبر بداية وعيي بِنَفْسي.

آهٍ، أيها القمر العالي المستدير لهذي اللَّيالي الرَّائقة، الدَّافئة بالقلَق والهدوء! السَّكينة المنحوسة للجَمال السَّماويِّ، والسُّخرية الباردة للهواء الدَّافئ، والزُّرقة الكُحليَّة المُغشَّاةُ بنور القمر التي باتَتْ مُرصَّعة بالنُّجوم على نحو خجول.

L. do D. (trecho inicial). 23/3/1930. 309

Nasci em um tempo em que a maioria dos jovens haviam perdido a crença em Deus, pela mesma razão que os seus maiores a haviam tido — sem saber porquê. E então, porque o espirito humano tende naturalmente para criticar porque sente, e não porque pensa, a maioria d'esses jovens escolheu a Humanidade para succedaneo de Deus. Pertenço, porém, aquella especie de homens que estão sempre na margem d'aquillo a que pertencem, nem veem só a multidão de que são, senão tambem os grandes espaços que ha ao lado. Porisso nem abandonei Deus tão amplamente como elles, nem acceitei nunca a Humanidade. Considerei que Deus, sendo improvavel, poderia ser; /podendo pois dever ser adorado; mas que a Humanidade, sendo uma mera idéa biologica, e não significando mais que a especie animal humana, não era mais digna de adoração do que qualquer outra especie animal. Este culto da Humanidade, com seus ritos de Liberdade e Egualdade, pareceu-me sempre uma revivescencia dos cultos antigos, em que animaes eram deuses, e os deuses tinham cabeças de animaes.

Assim, não sabendo crer em Deus, e não podendo crer numa somma de animaes, fiquei, como outros da orla das gentes, naquella distancia de tudo a que communmente se chama a Decadencia. A Decadencia é a perda total da inconsciencia; porque a inconsciencia é o fundamento da vida. O coração, se pudesse pensar, pararia.

A quem, como eu, assim, vivendo, não sabe ter vida, que resta senão, como a meus poucos pares, a renuncia por modo e a contemplação por destino. (?) Não sabendo o que é a vida religiosa, nem podendo sabel-o, porque se não tem fé com a razão; não podendo ter fé na abstracção, nem sabendo mesmo que fazer d'ella perante nós, ficava-nos, como motivo de ter alma a contemplação esthetica da vida. E, assim, alheios á solemnidade de todos os mundos, indifferentes ao divino e desprezadores do humano, entregamo-nos futilmente á sensação sem proposito, cultivada num epicurismo subtilizado, como convém aos nossos nervos cerebraes.

Retendo, da sciencia, sómente aquelle seu preceito central, de que tudo é sujeito a leis fataes, contra as quaes se não reage independentemente, por que reagir é ellas terem feito que reagissemos; e verificando como esse preceito se ajusta ao outro, mais antigo, da fatalidade das coisas, abdicamos do exforço como os debeis do entretimento dos athletas, e curvamo-nos sobre o livro das sensações com um grande escrupulo de erudição sentida.

«الانحطاط غيابُ اللّاوعيِ التّامّ، فاللّاوعيُ أُسُّ الحياة المُطلَق. فلو فكَّرَ القلبُ، لتوقّفتْ دقّاتُه». [163].

não tomando nada a serio, nem considerando que nos fôsse dada, por certa, outra realidade que não as nossas sensações, nellas nos abrigamos, e a ellas exploramos como grandes paizes desconhecidos. E, se nos empregamos assiduamente, não só na contemplação esthetica, mas tambem na expressão dos seus modos e resultados, é que a prosa ou o verso que escrevemos, destituidos de vontade de querer ~~operar sobre~~ o alheio entendimento ou mover a alheia vontade, é apenas como o fallar alto de quem lê, feito para dar plena objectividade ao prazer subjectivo da leitura.

Sabemos bem que toda a obra tem que ser imperfeita, e ~~a~~ que a menos segura das nossas contemplações estheticas será a de aquillo que escrevemos. Mas imperfeito é tudo, nem ha poente tam bello que o não pudesse ser mais, ~~xxxxxx~~ ou brisa leve que nos dê somno que não pudesse dar-nos um somno mais calmo ainda. E assim, contempladores eguaes das montanhas e das estatuas, gosando os dias como os livros, sonhando tudo, sobretudo, para o converter na nossa intima substancia, faremos tambem descripções e analyses, que, uma vez feitas, passarão a ser coisas alheias, que podemos gosar como se viessem na tarde.

Não é o conceito dos pessimistas, como aquelle de Vigny, que a vida é uma cadeia, e elle tecia ~~alli~~ palha para se distrahir. Ser pessimista é tomar qualquer coisa como tragico, e essa attitude é um exaggero e um incommodo. Não temos, é certo, um conceito de valia que appliquemos á obra que produzimos. Produzimol-a, é certo, para nos distrahir, porém não como o preso que tece a palha, ~~xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx~~ para se distrahir do Destino, senão da menina que borda almofadas, para se distrahir, sem mais nada.

Considero a vida uma estalagem onde tenho que me demorar até que chegue a diligencia do abysmo. Não sei ella me levará, porque não sei nada. Poderia considerar esta estalagem uma prisão, porque estou compellido a aguardar nella; poderia consideral-a um logar de sociaveis, porque aqui me encontro com outros. Não sou, porém, nem impaciente nem commum. Deixo ao que são os que se fecham no quarto, deitados molles na cama onde esperam; deixo ao que fazem os que conversam nas salas, de onde as musicas e as vozes chegam commodas até mim. Sento-me á porta e embebo meus olhos e ouvidos nas cores e nos sons da paisagem, e canto lento, para mim só, vagos cantos que componho enquanto espero.

Para todos nós descerá a noite e ~~amanhã~~ chegará a diligencia. Goso a brisa que me dão e a alma que me deram para gosal-a, e não interrogo mais nem procuro. Se o que deixar escripto no livro dos viajantes puder, relido um dia por outros, entretel-os tambem na passagem, será bem. Se não o lerem, nem se entretiverem, será bem tambem.

198

« أرى المناظر الطَّبيعيَّة التي حلمتُ بها واضحةً وضوحَ المناظر الطَّبيعيَّة الحَقَّة التي أراها» . [223].

172

L. do D.

O olfacto é uma vista estranha. Evoca paysagens sentimentaes por um desenhar subito do subconsciente. Tenho sentido isto muitas vezes. Passo numa rua. Não vejo nada, ou, antes, olhando tudo, vejo xxxxx como toda a gente vê. Sei que vou por uma rua e não sei que ella existe com lados feitos de casas differentes e construidas por gente humana. Passo numa rua. De uma padaria sahe um cheiro a pão que nauseia por doce no cheiro d'elle: e a minha infancia ergue-se de determinado bairro distante, e outra padaria me surge xxx d'aquelle reino das fadas que é tudo que temos morto. Passo numa rua. Cheira de repente ás fructas do taboleiro inclinado da loja estreita; e a minha breve vida de campo, não sei já quando nem onde, tem arvores ao fim e socego no meu coração, indiscutivelmente menino. Passo xxx uma rua. Transtorna-me, sem que eu espere, um xxxxx cheiro aos caixotes do caixoteiro: ó meu Cesario, appareces-me e eu sou emfim feliz porque regressei, pela recordação, á unica verdade, que é a litteratura.

«عُدتُ، عبر ذاكرتي، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي **الأدب**». [259].

TELEPHONE: CITY 0946-7
CODES: A B C 5TH, 6TH EDITIONS & BENTLEY

TO

F. & E. STONEHAM, LTD.,

THE CITY BOOKSELLERS,

79 CHEAPSIDE, LONDON, E.C.2,

ENGLAND

Please send the following books and charge to my account, for which I enclose remittance

Name

Address

Price

[illegible]

Carried Forward

110

L. do D.

Floresce alto na solidão nocturna um candieiro incognito por traz de uma janella. Tudo mais na cidade que vejo está escuro, salvo onde reflexos frouxos da luz das ruas sobe vagamente e faz um luar inverso, muito pallido. Na negrura da noite a propria casaria destaca pouco, entre si, as suas diversas cores, ou tons de cores: só differenças vagas, dir-se-hia abstractas, irregularisam o conjuncto atropellado.

Um fio invisivel me liga ao dono anonymo do candieiro. Não é a commum circumstancia de estarmos ambos accordados: não ha nisso uma reciprocidade possivel, pois, estando eu à janella no escuro, elle nunca poderia ver-me. É outra cousa, minha só, que se prende um pouco com a sensação de isolamento, que participa da noite e do silencio, que escolhe aquelle candieiro para ponto de appoio porque é o unico ponto de appoio que ha. Parece que é por elle estar ~~illuminado~~ acceso que a noite é tam escura. Parece que é por eu estar disperto, sonhando na treva, que elle está allumiando.

Tudo que existe existe talvez porque outra coisa existe. Nada é, tudo coexiste: talvez assim seja certo. Sinto que eu não existiria nesta hora - que não existiria, ao menos, do modo em que estou existindo, com esta consciencia presente de mim, que por ser consciencia e presente é neste momento inteiramente eu - se aquelle candieiro não estivesse accesso além, algures, pharol não indicando nada num falso privilegio de altura. Sinto isto porque não sinto nada. Penso isto porque isto é nada. Nada, nada, parte da noite e do silencio e do que com elles eu sou de nullo, de negativo, de intervallar, espaço entre mim e mim, esquecimento de qualquer deus...

8/9/1933.

[2 سبتمبر 1931]

كنتُ، دون أن يشعر بي أحدٌ[285]، الشَّاهدَ على تبدُّد حياتي الوئيدِ، وعلى التَّحطُّم البطيء لكلِّ شيء رغبتُ في أن أكونَهُ أبداً. أستطيع القول، بالحقيقة التي لا تتطلَّبُ أكاليل زهورٍ تُذكِّرُها بزوالها، إنَّه لا يُوجَد شيء واحدٌ رغبتُ فيه، أو وضعتُ فيه لبرهةٍ حلميَ الآنيَّ، لم يتهاوَ ويتهشَّم تحت نافذتي، ثُمَّ يتسجَّى مثل البقايا المُغبرَّة لِكُتلة من تُرابٍ سقطتْ من أصيص زهورٍ على شرفة عالية فوق الشَّارع. ويبدو أنَّ القَدَر كذلك قد حاول دائماً، أوَّلاً وقبل أيِّ شيء، أن يجعلني أُحبُّ أو أرغب في شيء بعينه، ثُمَّ يُقدِّرُ عليَّ أنْ أرى، في اليوم التَّالي، أنَّني لم أُحبَّ ذلك الشَّيءَ ولم أرغب فيه، وأنَّني لن أُحبَّه ولن أرغب فيه بتاتاً.

ولكنَّني لم أفقد قَطُّ -أنا رَائِيَ نَفْسي المُتهكِّم- الاهتمامَ بمراقبة الحياة. ولأنَّني أعرف سلفاً في هذه الأثناء أنَّ كلَّ أملٍ مُتردِّد سوف يُسحَق، فإنَّني أكابدُ لذَّةَ الاستمتاع بالوهم المصحوبة بالألم، وهي لذَّةٌ حلوةٌ ومُرَّةٌ تغلب عليها الحلاوة. أنا مُخطِّطٌ استراتيجيٌّ كئيب خسرَ كلَّ معركة، وهَا هُوَ يضعُ، في هذه اللَّحظة، عشيَّةَ كلِّ مَوقعةٍ جديدة، تفاصيلَ الانسحاب المُميت، مستمتعاً بالخطَّة وهو يقوم بذلك.

ولقد طاردني مثل مخلوق شرِّير ذلك القدَرُ المحتوم بأنْ أظلَّ عاجزاً عن الرَّغبة، دون أن أعرف سلفاً أنَّ رغبتي لن تتحقَّق أبداً. فكلَّما شاهدتُ جسمَ صَبيَّةٍ في الشَّارع، أتساءل لحظةً، مهما كنتُ شاردَ الذِّهن، كيف ستكون حياتي لو كانت لي؟ ولكنَّ تلك الصَّبيَّة، في كلِّ مرَّة، وعلى بُعْد عشر خطوات من حلم يقظتي، تلتقي رجُلاً من الواضح أنَّه زوجها أو عشيقها. قد يصنعُ شخص رومانسيٌّ من هذه الحادثة مأساةً، وقد يصنعُ منها ملهاةً شخصٌ غريب، ولكنَّني أخلطُ الاثنتَيْن معاً، فأنا رومانسيٌّ وغريب عن نَفْسي على حدٍّ سواء، ثُمَّ أقلبُ الصَّفحة بكلِّ بساطة كي أستمتع بالمُفارَقة السَّاخرة التَّالية.

يقول بعضُهم لا حياةَ بلا أمل، ويقول بعض آخر إنَّ الأمل يجعل الحياة عبثيَّة. بَيْدَ أنَّ الحياة، بالنِّسبة إليَّ، أنا المحروم من الأمل واليأس، ليستْ إلَّا صورةً أنا موجودٌ فيها ولكنَّني

(285) الكلمة التي يستخدمها بِسُوَّا في الأصل هي incognito (مستتر/ مُتخفٍّ)، كأنَّه كان يشهد تدهور حياته دون أن يشعر به شيءٌ حتَّى حياته ذاتها، مستتراً حتَّى عن نَفْسه؛ وهي كلمة تذكرنا بمصطلح «الشَّاهد المُستتر/ المتخفِّي» الذي يسرد الأحداث دون أن يعرف اسمه أحدٌ أو يراه البتَّة. (المترجم)

أنظر إليها كما لو كانت مسرحيَّة بلا حبكةٍ، لا تُمَثَّلُ إلَّا كي تُسَرَّ بها العين - رقصة بَالِيه متنافرة، حفيف أوراقٍ على شجرة، غيوم تُبدِّل ألوانها بالضُّوء الذي يتغيَّر، شبكات عشوائيَّة من شوارع عتيقة في أجزاء غريبة من المدينة.

وأنا، إلى حدٍّ بعيدٍ، عَيْنُ النَّثر الذي أكتبُهُ. أصوغُ نَفْسي في جُمَلٍ وفقرات، أُرَقِّمُ نَفْسي، ثمَّ أُتوِّجُنِي مَلِكاً، في متوالية الصُّوَر المُطلَقة العنان، كما يفعل الأطفال بتاجٍ قُدَّ من صفحة جريدة، أو أُكلِّلُنِي، كما يفعل المجانين، بأزهار ذابلة لكنَّها مازالتْ حيَّةً في أحلامي، حين أعثر على إيقاعاتٍ في متواليةٍ من الكلمات، ليس إلَّا. وأنا، فوق ذلك كلِّهِ، هادئٌ هدوءَ دُميةٍ حُشِيَتْ نشارةَ خشب، تغدو واعيةً بِنَفْسها، فتومئُ برأسها، بين حينٍ وآخر، حتَّى يرنَّ الجرسُ المُعلَّق في أعلى القُبَّعة المُدبَّبة المخيطة فوق رأسها: رنينَ الحياةِ في رجل ميِّتٍ، تحذيراً بسيطاً للقَدَر.

ولكن، كم مرَّة قد تسرَّبَ ببطءٍ إلى مشاعري الواعية، في غمرة تبرُّمي الهادئ، إحساسٌ بالخواء والسَّأم من طريقة التَّفكير هذه! وكم مرَّة شعرتُ، مثل شخص يسمع أصواتاً تنبلج من بين جُلَبٍ متقطِّعة أُخرى، بالمرارة الضَّروريَّة لهذه الحياة الشَّديدة الغرابة عن الحياة البشريَّة؛ حياةٍ لا شيءَ يحدثُ فيها إلَّا وعيُهَا بِنَفْسها. وكم مرَّةً لمحتُ من المنفى الذي هُوَ أنا، حين أستيقظُ من نَفْسي، كم من الأفضل كثيراً أن أكون اللَّاأحدَ الأخيرَ، الرَّجلَ المحظوظَ الذي يشعر بمرارةٍ حَقَّةٍ على الأقلِّ، الرَّجلَ القانع الذي يشعر بالتَّعب وليس بالسَّأم، والذي يُعانِي بدلاً من أنْ يتخيَّل أنَّه يُعانِي، ليس إلَّا، والذي يقتل نَفْسه حقاً عوضاً عن أن يموت على مهله، لا أكثر.

بِتُّ شخصيَّةً في كتاب، حياةً قُرِئَتْ في السَّابق. وما أشعرُ به، ضدَّ رغباتي تماماً، قد شعرتُ بِهِ من قَبْلُ، كي أُدوِّنَهُ. وما أُفكِّرُ فيه يظهرُ لاحقاً وقد صِيغَ كلماتٍ، مُختلطاً بصُورٍ تُبطِلُ التَّفكير كلَّه، مسبوكاً في إيقاعاتٍ تعني شيئاً آخَر تماماً. ولقد دمَّرتُ نَفْسي بإعادة الكتابة هذه كلِّها. وأنا، بهذا التَّفكير كلِّه، وفي هذه اللَّحظة، مجرَّد أفكاري وليس نَفْسي. سبرتُ غَوْرَ أعماق نَفْسي ولكنَّني أسقطتُّ خيطَ الشَّاقُول؛ قضيتُ حياتي متسائلاً إنْ كنتُ عميقاً أم لا، ولا شيءَ يسبر أعماقي إلَّا عيناي اللَّتان لم تكشفا لي، على نحو واضح، أمامَ المرآة السَّوداء للإرادة العظيمة، سوى وجهي الذي يرقُبُنِي وأنا أنظرُ إليهِ.

أنا مثل ورقة لعبٍ تنتمي إلى مجموعة أوراق لعبٍ عتيقة ومجهولة؛ المجموعة الوحيدة الباقية من مجموعة ضائعة. لا معنى لي، ولا أعرفُ قيمتي، ولا شيءَ أُقارن نَفْسي به كي أعثر على نَفْسي، لا هدف لديَّ في الحياة أعرف به نَفْسي. وهكذا، في الصُّور المتتابعة التي أستخدمها لوصف نَفْسي -صُوَرٍ ليستْ كاذبةً لكنها ليستْ صادقةً أيضاً- أغدو صورةً أكثرَ من كوني نَفْسي، مُتحدِّثاً إلى نَفْسي حتَّى تكفَّ عن الوجود، كاتباً بروحي التي هِيَ الحِبرُ الذي لا غايةَ لَهُ إلَّا أن يكتب. ولكنَّ ردَّة الفعل تلك تتلاشى فأتخلَّى عن نَفْسي ثانيةً. أعودُ إلى نَفْسي مثلما أنا، حتَّى لو كان ذلك لا شيء. ثُمَّ شيءٌ كالدُّموع الجافَّة تلتهبُ في عينيَّ المُحدِّقتَيْن؛ شيء مثل قلَقٍ، لم أشعر به من قَبْلُ، يعلقُ في حَلْقِي. ولكنْ، يا للحسرة، لا أعرف ما الذي بكيتُ عليهِ إنْ كنتُ قد بكيتُ، ولا ما الذي قد كانَ حتَّى إنَّني لم أبكِ عليه. ينشقُّ الخيالُ قريباً مِنِّي قُرْبَ ظلِّي، وكلُّ الذي أحلمُ به هُوَ النَّوم.

317

[3 سبتمبر 1931]

أشدُّ المشاعر إيلاماً، وأشدُّ العواطف حُرقةً، هي أيضاً أشدُّها عبثيَّةً - التَّوق إلى الأشياء المستحيلة لأنَّها مستحيلة فحسب، والحنين إلى ما لم يكُن قَطُّ، والرَّغبة في الذي كان يمكن أن يكون، مرارة المرء لأنَّهُ ليس شخصاً آخَر، أو تبرُّم المرء من وجود العالم ذاته. تخلقُ هذه الصُّوَر الظِلِّيَّة لوعي الرُّوح منظراً طبيعياً بِكراً داخلنا، شمساً تغرب أبداً على ما نحن عليه. فيغدو إحساسنا بأنْفُسنا حقلاً مهجوراً عندما يهبطُ اللَّيل، بقصبٍ حزين يحيط بنهر لا قواربَ فيه، يلمع في العتمة التي تكبرُ بين ضفَّتَيْن بعيدتَيْن.

لا أعرف إنْ كانت هذه المشاعر بعض جنون بطيءٍ ناجم عن فقدان الأمل، إنْ كانت ذكريات عالَمٍ آخَر عشنا فيه - ذكريات مشوَّشة ومختلطة، كأشياء لُمِحَتْ في الأحلام، عبثيَّةً مثلما نراها في هذه اللَّحظة، على الرَّغم من أنَّها ليستْ في شكلها الأصليِّ لو كنَّا نعرف ما هُوَ هذا الأصل. لا أعرف إنْ كُنَّا ذات مرَّة مخلوقات أخرى لا نُحسُّ بِكَمالها الأعظم إلَّا على نحو ناقصٍ اليوم، مجرَّد ظلالٍ ما كانت عليه، مخلوقاتٍ فقدتْ صلابتها في تخيُّلاتنا الواهية، ثُنائيَّة البُعْد، عنها بين الظِّلال التي نسكنُ فيها.

أعرفُ أنَّ هذه الأفكار قد ولَّدتها عاطفةٌ تَمَيَّزُ من الغيظ في الرُّوح. استحالةُ تخيُّل شيء قد تنسجم معه، استحالة العثور على بديلٍ عمَّا تنطوي عليه في الرُّؤى، وهذا كلُّه شديد الوطأة على المرء مثل حُكم صادر ضدَّه، ولا يعرفُ أين، ولا مِمَّن، ولا لماذا.

بَيْدَ أنَّ كلَّ ما يبقى من هذا كلِّه نفورٌ من الحياة وكلِّ تجليَّاتها، سأمٌ ذو بصيرة بكلِّ رغباته وطرائقه، نفورٌ مجهول من كلِّ المشاعر. يغدو مستحيلاً بالنِّسبة إلينا، في لحظات الألم المُبرِّح هذه، أن نكون حتَّى في الأحلام عُشَّاقاً أو أبطالاً أو حتَّى سعداء. ولقد قِيلَ هذا كلُّه بلغة أُخرى، فلا نستطيع أن نستوعبه، وبات مجرَّد أصوات ومقاطع لا تجد صدى في فهمنا. الحياة جوفاء والرُّوح جوفاء والعالَم أجوف. والآلهة تموت موتاً أعظم من الموت نَفْسه. كلُّ شيء أشدُّ خَواءً من الخَواء، وكلُّ شيء فوضى عَدَم.

إذا فكَّرتُ في هذا فنظرتُ من حولي لأرى إنْ كانت الحقيقة سوف تُطفئ ظمئي، فسأرى بيوتاً خالية من المعنى، ووجوهاً خالية من المعنى، وإيماءات خالية من المعنى. أحجارٌ، وأجساد، وأفكار - كلُّ شيء ميِّت. كلُّ حركة ضربٌ من السُّكون، وكلُّ شيء في قبضة الجُمود. لا شيء يعني أيَّ شيء لي. كلُّ شيء يبدو غير مألوف، ليس لأنَّني أجده غريباً، وإنَّما لأنَّني لا أعرف ما هُوَ. العالَمُ ضائعٌ. وثمَّة، في أعماق روحي -الحقيقة الواقعيَّة الوحيدة لهذه اللَّحظة- ألمٌ مُبرِّحٌ محجوبٌ، وحزنٌ كصوت شخص يبكي في غرفة معتمة.

318 (286)

[10 و11 سبتمبر 1931]

منذُ الصَّباح الباكر، خلافاً لهذه العادة المُشمسة للمدينة المُشرقة، وصفوفُ البيوت المتتابعة، والأراضي الفارغة، والكِفَاف الوعر للطُّرُق والمباني، قد لفَّتْها بطَّانيةُ سديم خفيفة موَّهتها الشَّمس على مهلها بلون الذَّهب. ثُمَّ بدأ الضَّباب الرَّقيق عند اقتراب الظَّهيرة ينحلُّ ويتلاشى واهياً، في هبَّاتِ ظلالٍ كإماطةِ اللُّثُم. وكان الدَّليل الوحيد المتبقِّي على تلاشي

(286) ثمَّة عبارة خطَّها بِسُوًّا بقلم رصاص في رأس القصاصة دوَّن عليها هذه الشَّذرة (بالآلة الكاتبة وقلم الرَّصاص): «مقاطع بديلة مثل هذه رفقةَ المقاطع الأطول؟ a alternação de trechos assim com os maiores?»؛ وهي مذكورة في مفتتح هذه الشَّذرة في الطبعات البرتغاليَّة كافَّة، ما عدا طبعة سوبراو كونيا، وفي طبعة زينيث نجدها

السَّديم، بحلول السَّاعة العاشرة، زرقةَ السَّماء الباهتة على نحو طفيف.

ولَمَّا أُميطَ لثامُ الحُجُب، وُلِدتْ ملامح المدينة من جديد. والصُّبْحُ الذي كان قد تنفَّسَ، تنفَّسَ ثانيةً، كأنَّ نافذةً قد انشقَّتْ فجأةً مفتوحةً على مصراعيها، ثُمَّ تعالتِ الجَلَبُ في الشَّوارع على نحو مختلف قليلاً، كأنَّها هي أيضاً قد ظهرت فوراً. كانت زرقةٌ قد اندسَّتْ حتَّى في الحصى المرصوف وفي الهالات المجهولة للعابرين. وكانت الشَّمس حامية، ولكنَّهُ حَرٌّ رطب كأنَّ السَّديم الذي باتَ مُحتجِباً، في هذه اللَّحظة، قد صَفَّاهُ.

طالما وجدتُ في يقظة المدينة، سواء أكانتْ مُكلَّلةً بالسُّدُم أمْ غيرَ مُكلَّلةٍ، إثارةً أكثرَ من شروق الشَّمس في الرِّيف. ثمَّة إحساسٌ أعمقُ بالولادة من جديد، بالتَّشوُّف إلى المَزيد؛ عوضاً عن مُجرَّد إنارة الحقول، والصُّوَر الظِّلِيَّة للشَّجر، وراحات أيدي أوراق الأشجار المفتوحة بالعتمة أوَّلاً، ثُمَّ بالضَّوء السَّيَّال، ثُمَّ أخيراً بالذَّهب الخالص البرَّاقِ، تُضاعِفُ الشَّمس تأثيرها في النَّوافذ، وعلى الجدران، وفوق أسطح البيوت [...] -نوافذ كثيرة، وجدران كثيرة مختلفة، وأسطح متنوِّعة كثيرة جداً- كي تُشرِقَ صباحاً بهياً، مُتعدِّدَ الأشكال في تلك الحقائق الواقعيَّة المتعدِّدة. تسرُّني رؤية الفجر في الرِّيف، ورؤيةُ الفجر في المدينة تُؤثِّر فِيَّ، في السَّرَّاء والضَّرَّاء على حدٍّ سواء، ولهذا فإنَّها تغمرني بالمسرَّة وأكثر. فالأمل الأكبر الذي تُثيره فِيَّ ينطوي، مثل كلِّ أملٍ، على المذاقِ المُتبقِّي البعيد الذي يحنُّ إلى الماضي؛ مذاقِ اللَّاواقع. الفجرُ في الرِّيف يُوجَد فحسب، والفجرُ في المدينة يفيضُ بالوعد. الأوَّل يجعلك تعيش، والآخَرُ يجعلك تُفكِّر. لكنَّني آمنتُ دائماً، مثل كلِّ العظماء السَّيِّئي الحظِّ، بأنَّ من الأفضل أنْ أُفكِّر بدلاً من أن أعيش.

319

[14 سبتمبر 1931]

أعلَنتْ عن قدوم الخريف في المساءات العشوائيَّة نعومةُ ألوانٍ معيَّنة في السَّماء الفسيحة، ونفحات نسيم بارد هبَّت في أعقاب الأيَّام الباردة الأولى للصَّيف المحتضر. لم تفقد الأشجار خضرتها أو أوراقها بَعْدُ، ولم يَأتِ بَعدُ ذلك الكَربُ الغامض الذي يصاحب وعيَنا بأيِّ موت في العالم الخارجي، لأنَّه يعكس بكلِّ بساطة موتَنا المستقبليَّ. كأنَّ الطَّاقة المُتبقِّية قد

تعبَتْ، فَرَانَ وَسَنٌ على المحاولات الأخيرة للإتيان بأيِّ حركة. آهٍ، هذه المساءات طافحة بتلك اللّامبالاة المؤلمة كأنَّ الخريف قد حلَّ فِينَا عوضاً عن العالَم.

وكلُّ خريفٍ يحلُّ يُقرِّبنا أكثرَ إلى ما سوف يكون خريفَنا الأخير، والشَّيءُ ذاتُه قد يُقَال عن الرَّبيع الفائت أو الصَّيف المنصرم، ولكنَّ الخريف - بطبيعته- يُذكِّرنا بنهاية كلِّ شيء؛ النِّهايةِ التي من السَّهل نسيانُها في الفصول التي هي ألطفُ منه. لكنَّ الخريف لم يحلَّ تماماً بَعْدُ، والهواء لم يطفح بالأوراق الصَّفراء السَّاقطة بَعْدُ، ولم يأتِ أيضاً ذلك الطَّقس الرَّطب الحزين الذي سوف يستحيل شتاءً في النِّهاية. بَيْدَ أنْ ثمَّة تشوُّقاً إلى الحُزن، إلى لوعةٍ حميمة قد ارتدتْ ثيابَها واستعدَّتْ للرِّحلة في وعي المرء مهما كان غامضاً، بألوان الأشياء التي تتفشَّى، بنغمة مختلفة في الرِّيح، بهدوءٍ عتيق يهجمُ على مهله، حين يهبط اللَّيل على الحضرة الكونية التي لا مندوحةَ عنها.

نعم، سنمرُّ، وكلُّ شيء سوف يمرُّ. ولن يبقى شيء من الشَّخص الذي يرتدي مشاعرَ وقُفَّازات، ذاك الذي يتحدَّث عن الموت والسِّياسة المحليَّة. الضُّوء ذاتُه يسقط على وجوه القدِّيسين وعلى الجَرَامِيق[287] التي يرتديها المارَّة، واحتضار ذلك الضَّوء نفسه سوف يتركُ في العتمة العَدَمَ المُطلَق الذي سيكون كلَّ ما تبقَّى من حقيقةِ أنَّ بعضهم كانوا قدِّيسين وبعضَهم الآخر ارتدوا جراميق. وتمتلكُ الثِّياب التي تخيطها الخيَّاطات القيمةَ ذاتها التي تمتلكها ممالك بأكملها، في الدوَّامة الشَّاسعة التي يتمرَّغ فيها العالَمُ كلُّه، متراخياً، كأنَّه في دوَّامة من أوراق الأشجار الجافَّة؛ وضفائر الأطفال الشَّقراء منجرفةٌ في الدَّوَّامة المُميتة ذاتها التي تجرف الصَّولجانات الرامزة ذات مرَّة إلى الإمبراطوريَّات. لا شيءَ مهم، وفي ردهة المرئيِّ الذي لا ينفتح بابُهُ إلَّا ليكشف عن باب مُوصَدٍ آخَر خلفَهُ، كلُّ شيء يرقصُ، كبيراً كان أو صغيراً، كلُّ شيءٍ شكَّلَ لنا، وفِينَا، النِّظامَ الذي فهمنا أنَّه الكون، كلُّ شيء يرقصُ عبداً للرِّيح التي تهزُّ كلَّ شيء ولكنَّها لا تلمس أيَّ شيء. لا شيءَ إلَّا ظلٌّ خفيف ممزوجٌ بالغبار، وليس ثمَّة حتَّى صوتٌ، ليس إلَّا صوت الرِّيح حين تجرفُ وتكتسح، وليس ثمَّة صمتٌ إلَّا حين تسمح الرِّيحُ. بعضهم يُدوِّمُ في الرَّدهة مثل أوراق أشجار خفيفة، ولأنَّهم خفيفون فهم أقلُّ ارتباطاً بالأرض، لذا يسقطون خارج دائرة الأشياء الثَّقيلة. وبعضهم الآخر، الذي لا يمكن تمييزه

(287) الجُرْمُوق: ما يُرتَدى فوق الحذاء وقاية له من الماء أو غيره. (المترجم)

إلّا عن قُربٍ، يشكِّلُ طيّةً واحدة في داخل الدوّامة، لا تكاد تُرى، مثل الغبار. وثمّة، مرّة أخرى، أولئك الذين كأنّهم جذوع أشجار مُنمنَمة، لا يُجرُّون إلى الدّائرة إلّا كي يُهجَروا في زوايا مختلفة من الأرض. وذات يوم، حين تنتهي المعرفة كلُّها، سينفتح الباب الذي خلف الباب فيُكْنَس من البيتِ كلُّ شيء كُنّاهُ -نحن الذين لم نكُن إلّا مُجرَّد حطام نجوم وأرواح- ويبدأُ ثانيةً ربما أيُّ شيء تبقّى.

قلبي يوجعني كأنّه ليس قلبي. وعقلي يُهدهِدُ للنّوم أيَّ شيء أشعر به. نعم، إنّها بداية الخريف الذي يلمس الهواءَ وروحي على حدٍّ سواء بالضّوء العابس ذاته الذي يحدُّ بالأصفر الباهت الحوافَّ الضّبابيّة لبِضْعِ غيماتٍ عند المغيب. نعم، إنّها بداية الخريف وبداية فهم صافٍ، في هذه السّاعة الصّافية، للقُصور المجهول الذي يكتنف الأشياء كلّها. الخريف، نعم، الخريف، مثلما هُوَ الآن وما سوف يظلُّ تشوُّفاً إلى تَعَبٍ في كلِّ إيماءة، وإلى خيبةِ أملٍ في كلِّ حُلم. فأيُّ آمال محتملة يمكن أن أرتجيها؟ لقد مشيتُ، في أفكاري، بين أوراق أشجار الرّدهة وغبارها، عالقاً في هذا المدار عديم الإحساس الذي يدور على لا شيء، وخطواتي الصّوت البشريُّ الوحيد فوق الحجارة النّظيفة التي ترصف الطّريق؛ الحجارةِ التي تجلوها بالموتِ شمسٌ عموديّةٌ لا أعرفُ من أين تشرقُ. سيأخذ الخريف كلَّ شيء، كلَّ شيء فكّرتُ فيه أو حلمتُ به أبداً، كلَّ شيء فعلته أو لم أفعله، أعواد الثّقاب المُستهلكة متناثرة خبط عشواء على الأرض، قصاصات مهملة، إمبراطوريّات عظيمة، جميع الدّيانات والفلسفات التي اخترعها أطفال الهاوية النّاعسون كي يتسلُّوا بها. سيأخذ الخريف كلَّ شيء، كلَّ شيء، أقصدُ، كلَّ شيء كوّن روحي، من الطُّموحات النّبيلة حتّى المنزل العاديِّ الذي أعيش فيه، من الآلهة التي عبدتها ذات مرّة حتّى **ڤاسْكِش**، ربِّ عملي. سيأخذ الخريف كلَّ شيء، سيكنسُ كلَّ شيء بلامبالاةٍ رقيقة. سيأخذ الخريف كلَّ شيء.

320

[15 سپتمبر 1931]

نحن لا نعرف حتّى إنْ كان النّهار، الذي ينتهي في هذه اللّحظة، يقتربُ حقاً من نهايته فِينَا كحُزنٍ عبثيٍّ، أو إنْ كانَ ما كُنّا عليه هُوَ الآنَ مجرّد وهمٍ في العتمة التي تكبُر، حيث لا شيء إلّا

الصَّمت العظيم -حتَّى دون صرخات البطِّ البريِّ- الذي يسقطُ على البحيرات حيث يرفعُ القصبُ أنصالَهُ القاسية المُنتشية بالحُبُور. لا نعرفُ شيئاً، ولا نمتلك حتَّى ذاكرة حكايات الطُّفولة التي باتت مجرَّد طحالب، في هذه اللَّحظة، أو المداعبةِ المتأخِّرة لسماوات مستقبليَّة، نسيمٍ ينفتحُ غموضُه في النُّجوم على مهله. المصباح النَّذريُّ يرتعش متردِّداً في المعبد الذي لا يزوره أحدٌ، والبِرَكُ تركدُ في شمس الحدائق المهجورة، لم نَعُدْ نتبيَّنُ الاسمَ الذي نقشَه شخصٌ على جذع شجرة، وامتيازات الجهلة كُنِّسَتْ، مثل ورق مُمزَّق، على امتداد طُرُق تهبُّ فيها الرِّيحُ، حتَّى اعترضَ طريقَها ما سَدَّها. سيميلُ بعضهم من النَّوافذ ذاتها، فأولئك الذين نسوا المخاوفَ الغامضة نائمون، يغمرهم حنينٌ إلى الشَّمس التي لم يعرفوها قطُّ؛ وأنا نَفْسي، أنا الذي يجرؤُ لكنَّهُ لا يفعلُ، سوف أنتهي، بلا أيِّ ندَم، بين ذلك القَصَب المُخضل الذي أَوحَلَه النَّهر القريبُ وأوحَلَته عطالتي الواهنة، تحت سماوات المساء الشَّاسعة، في الأماكن القصيَّة على نحو مستحيل. لكنَّني، عبر ذلك كلِّه، ومثل الصَّفير المُجلجِل للقلَق العاري، سوف أشعر بروحي في أحلامي: عواءً خالصاً، عميقاً، وعبثياً في عتمة العالَم.

321

[16 سبتمبر 1931]

يموتُ النَّهار الرَّاحلُ، سيَّالاً، بين الأُرجوانيَّات المُبدَّدة. لا أحدَ سيخبُرني مَن أنا، ولا أحدَ يعرفُ مَن كنتُ. جئتُ من جبَل مجهول إلى الوادي المجهول مِثْلِه، فكانت خطواتي في المساء البطيء مجرَّد آثارٍ خلَّفتُها في أراضي الغابات التي اجتثَّتْ أشجارُها. كلُّ مَن أحببتُهُ قد هجرني إلى الظِّلال. لم يعرف أحدٌ موعدَ القارب الأخير. ولم تكُن ثمَّة لافتة في مكتب البريد عن الرِّسالة التي لن يكتبها أحدٌ أبداً. نعم، كان كلُّ شيء باطلاً. ولم تُرْوَ حكاياتٌ قد رواها الآخرون من قَبْلُ، ولم تكُن لدى أحدٍ معلومة أكيدةٌ عن الشَّخص الذي غادر مبكِّراً على أمل الإبحار بقارب وهميٍّ؛ طفلِ الضَّباب القادم والحيرة المستقبليَّة. لِيَ اسمٌ بين المتأخِّرين، ولكنَّه مجرَّد ظلٍّ، كأيِّ شيء آخَر.

322

[7 أكتوبر 1931]

الغروب منثورٌ بغيوم ضالَّةٍ تملأُ السَّماء كلَّها. أضواءٌ ناعمة منعكسةٌ لكلِّ لونٍ يملأُ الهواء المُتعدِّدَ العُلويَّ، ثُمَّ تطفو، جاهلةً، بين القلَق العظيم الذي في الأعلى. وفوق قمَّة كلِّ سطح بيتٍ، نصفُ لونٍ، ونصفُ ظلٍّ، والأشعَّةُ الأخيرة المتوانيةُ للشَّمس الغاربة تتَّخذُ شكلَ ظلالِ الألوان التي لا تنتمي إليها ولا حتَّى إلى الأشياء التي تضيئُها. سكينةٌ شاسعة تحوِّم فوق سطح المدينة الصَّاخب؛ المدينة التي تستقرُّ هادئةً على مهلها. وخلفَ كلِّ لون وصوتٍ يَشهقُ كلُّ شيءٍ شهيقاً عميقاً أخرس.

وتكتسبُ الألوانُ التي فوق البيوت المُجصَّصة، التي لا تنالُها أبصارُ الشَّمس، درجاتها اللَّونيَّةَ الرَّماديَّة التي بلون الحجَر، رويداً رويداً. ثمَّة شيءٌ بارد بشأن تنوُّع الألوان الرَّماديَّة. قلَقٌ خفيف تأخذهُ سِنَةٌ من النَّوم في الأخاديد الباطلة في الشَّوارع. تأخذه سِنَةٌ من النَّوم فتغشاهُ السَّكينةُ، ثُمَّ يستحيلُ ظلاً، على مهلهِ، ذلك الضَّوءُ المرفرفُ فوقَ أدنى الغيمات العالياتِ، بيد أنَّ الشَّمس ماتزال تبتسمُ، ذهبيَّةً، وبعيدةً، فوقَ غيمةٍ صغيرة، تحوِّم فوق كلِّ شيء مثل نسرٍ أبيض.

تخلَّيتُ عن كلِّ شيء بحثت عنه في الحياة، على وجه التَّحديد، لأنَّه قد توجَّب عليَّ أن أبحث عنه. أنا مثل شخص يبحثُ، شاردَ الذِّهن، عن شيء في أحلامه بَعْدَ أن نسيَ ما هُوَ ذلك الشَّيء حقاً. الإيماءةُ الحاضرة لأيدٍ جليَّة -تلك التي تُوجَد حقاً، كلُّ واحدةٍ بأصابعها الخمسة الطَّويلة البيضاء- تبحثُ فتقلبُ الأشياءَ، ثُمَّ تلتقطُها وتضعها على الأرض، فتغدو حقيقيَّةً أكثر من الشَّيء الذي أبحثُ عنه.

وكلُّ شيء مَلكتُهُ في حياتيَ على الإطلاق يُشبهُ هذي السَّماءَ العالية، المتشابهة في تنويعات ألوانها، الطَّافحة بجُذاذاتِ العدم وقد مسَّها الضَّوء البعيدُ، وشظايا حياة باطلة مسَّها الموتُ، مِن بعيدٍ، بالذَّهبِ، بالابتسامةِ الحزينة للحقيقة برمَّتها. نعم، كلُّ شيءٍ كُنْتُهُ جاءَ من عجزي عن البحثِ وإيجادِ: السَّيِّدِ الإقطاعيِّ لسبخات الشَّفَق، الأميرِ المنبوذ لمدينةٍ من قبور فارغة.

فكلُّ شيء كُنْتُهُ، أو ما ظننتُ أنَّني هُوَ، أو ما ظننتُ أنَّني قد كُنْتُهُ -في أفكاري هذه، وفي السُّقوط المباغت من ضوءِ تلك الغيمة العالية- يُرخِي قبضتَهُ فجأةً عن السِّرِّ، والحقيقةِ،

وربَّما حتَّى عن الخطَر الذي قد يكون في أيِّما شيءٍ يستخدم الحياةَ سريراً. إن هذا، كمثل شمس غائبة، كلُّ ما تبقَّى لي؛ والضَّوء المُتراوح يسمح ليديهِ أن تنزلقا من الأسطح العالية فيتجلَّى الظِّلُّ الجوَّانيُّ للأشياء كلِّها، على مهله، فوقَ السُّطوح.

وبعيداً عن النَّجم البعيد المُتناهِي في الصِّغَر -قطرةُ فضَّةٍ، مُتردِّدة، مُرتجفةٍ- راحتْ تلمعُ.

323

[16أكتوبر 1931]

لطالما كنتُ حالماً مُتهكِّماً، غير مخلص للوعود التي قطعتها على نَفْسي. ولطالما تلذَّذتُ بحطام أحلام يقظتي كأنَّني شخص آخر غريب، كـأنَّني كنتُ شريكاً بالصُّدفة فيما فكَّرتُ أنَّني كُنْتُهُ. لم أثق كثيراً في أيٍّ من معتقداتي. ملأتُ يديَّ بالرَّمل وسمَّيته ذهباً، ثُمَّ تركتُهُ ينسلُّ من بين أصابعي. الجُملة هي الحقيقة الوحيدة. فحين تُصَاغُ الجُملة، ينتهي كلُّ شيء؛ والبقيَّةُ الرَّملُ الذي كانَتْهُ دوماً.

لولا حقيقةُ أنَّني دائماً ما أحلمُ وأعيش في حالة من الغُربة الدَّائمة عن نَفْسي، لقلتُ إنَّني واقعيٌّ، بكلِّ سعادة، أقصدُ فرداً يعدُّ العالَم الخارجيَّ أُمَّةً مستقلَّة بذاتها. لكنَّني أُفضِّل ألَّا أَسِمَ نَفْسي إلَّا أن أكون نَفْسي، لفترة وجيزة، وعلى نحو غامضٍ، مستمتعاً بالمذاق اللَّاذع لكوني عصياً على التَّنبُّؤ حتَّى بالنِّسبة إلى نَفْسي.

واجبي أن أحلم دوماً، ولأنَّني لستُ أكثر من مُجرَّد مُتفرِّج على نَفْسي، ولا أشتهي أن أكون أيَّ شيء آخَر، فلا بُدَّ أن أُقدِّمَ أفضل عرضٍ أستطيع تقديمه. ولهذا، أتَّشح بالذَّهب والحرائر واضعاً نَفْسي في غرف متخيَّلةٍ على مسرح وهميٍّ بمشاهد قديمة، حلم حلمتُ بِهِ أسفلَ الأضواء النَّاعمة التي ترفرفُ، وعلى وقع صوت موسيقى مُحتجبة.

أُقدِّرُ، مثل تذكُّر قُبلةٍ عذبة، ذكرى الطُّفولة عن مسرحٍ كان فيه المشهد القمريُّ الأزرق شرفةَ قصر مستحيل. وكان قد رُسِمَ من حوله متنزَّهٌ شاسعٌ، فكرَّستُ قلبي كلَّهُ لعيش ذلك كلِّهِ كما لو كان حقيقياً. الموسيقى التي عزفت بهدوء في تلك المناسبة المتخيَّلة في تجربتي الحياتيَّة أضفَتْ على المشهد المجَّانيِّ واقعيَّةً محمومة.

كان المشهد أزرقَ وقمرياً بلا ريبٍ. لا أذكر من ظهرَ على خشبة المسرح، ولكنَّ المسرحيَّة

التي اختَرت تمثيلها، في ذلك المنظر الطبيعيِّ الذي تذكّرتُه، تخطر ببالي في هذه اللَّحظة على هيئة أبيات من أشعار ڤرلين أو بِسَّانْيا[xx]؛ ولم تكُن المسرحيَّة، التي طواها النِّسيانُ في هذه اللَّحظة منذ أمد بعيد، هي التي مُثِّلَتْ على خشبة المسرح الحَقَّةِ خلف الحقيقة الواقعيَّة لتلك الموسيقى الزَّرقاء. إنَّها مسرحيَّتي الخاصَّة: حفلةٌ تنكُّريَّة قمريَّة متدفِّقةٌ وطويلة، فاصل موسيقيٌّ بالفضَّة والأزرق المتلاشي.

ثُمَّ تدخَّلت الحياة. أخذوني في تلك اللَّيلة لتناول العشاء في «لِيَاوْ»[288]. مازلتُ أتذكَّر طعم شرائح اللَّحم في ذائقة حنيني - شرائح لحم، أعرفها أو أتخيَّلها، على شاكلة تلك التي لا يطبخها أحدٌ اليوم، وعلى شاكلة تلك التي لا أتناولها بتاتاً. فتختلطُ تلك الأشياء فِيَّ -طفولتي المَعيشَة في مكان بعيد، والوجبة الشَّهيَّة في تلك اللَّيلة، والمشهد القمريُّ، وڤرلين المستقبليُّ وأنا الحاضرُ- في انكسار ضوءٍ مُنتشر، في فضاء وهميٍّ بين ما كُنْتُهُ وما أنا عليه الآن.

324 [289]

[بعد 18 أكتوبر 1931]

أُفضِّل النَّثرَ على الشِّعر[290] بوصفه ضرباً من ضروب الفنِّ لسببَيْن؛ الأوَّل يخصُّني أنا وحدي، أقصدُ لا خيارَ لديَّ، فأنا عاجزٌ عن نظم الشِّعر. والسَّبب الثَّاني ينطبقُ على الجميع، وأظنُّه ليس مجرَّد ظلٍّ لذلك السَّبب الأوَّل أو للسَّبب ذاته مُموَّهاً. وربَّما يستحقُّ هذا السَّبب الثَّاني الوقتَ الذي كرَّستُه كي أُشرِّحه هُنَا، فهو يلمس المعنى الجوَّانيَّ لكلِّ شيء ذي قيمة في الفنِّ.

---

(288) يقصد: لِيَاوْ ذَا أُوْرُوْ Leão d'Ouro (= الأسد الذَّهبي)، وهو مطعم يقع في لشبونة افتتح في العام 1885، كانت تلتقي في الرَّدهة المخصصة لتقديم البيرة مجموعة من الفنَّانين عرفت لاحقاً باسم «جماعة الأسد Grupo do Leão». (المترجم)

(289) هذا النَّصُّ، في الأصل، جزءٌ من متوالية شذرات رقَّمها بِسُوَّا من 1-5، نشرها، باسمه الصَّريح، في العدد الثَّالث من «Descobrimento. Revista de Cultura» (= استكشاف. مجلَّة ثقافيَّة)، الصادر في العام 1931 (ص 405-415) معنوناً إيَّاها «من كتاب القلَق، لبرناردو سوارش المحاسب المساعد في مدينة لشبونة، تأليف فرناندو بِسُوَّا». (المترجم)

(290) الكلمة التي يستخدمها بِسُوَّا، في الأصل، هي verso وليس poesia، لذا فهو يقصد النَّظم؛ نظم الشِّعر الذي يخضع للقواعد، وليس الشِّعر بمفهومه المطلق. ولكنَّ جول كوستا قد اختارت، هُنَا، استخدام كلمة poetry وليس verse مقابلاً لـ verso، متجاهلة الفارق التاريخيَّ في المعنى بين اللَّفظتَيْن. (المترجم)

أعدُّ الشِّعرَ شيئاً وسيطاً، مرحلةً انتقاليَّة بين الموسيقى والنَّثر. فالشِّعرُ كالموسيقى محكومٌ بقواعد إيقاعيَّة مازالتْ موجودةً بوصفها ضوابط ومُحدِّدات وآليَّات تلقائيَّة للتَّعسُّف والعقاب، على الرَّغم من أنَّها ليستْ القواعد الصَّارمة للوزن النِّظاميِّ. نستطيعُ في النَّثر التَّكلُّم بحريَّة، ونستطيع تضمين إيقاعات موسيقيَّة ولا نتوَّقف عن التَّفكير. ونستطيع تضمين إيقاعات شعريَّة ونبقى، على الرَّغم من ذلك، موجودين خارجَها. لا يعترض الإيقاع الشِّعريُّ العَرَضيُّ طريق النَّثر، ولكنَّ الإيقاعَ النَّثريَّ العَرَضيَّ يجعل الشِّعر يتعثَّر.

ينطوي النَّثرُ على الفنِّ كلِّه - لأنَّ كلَّ شيء موجودٌ، من ناحيةٍ، في الكلمة، ولأنَّ الكلمة المُتحرِّرة من القيود تحوي داخلها، من ناحيةٍ أُخرى، جميع الطَّرائق الممكنة للقول والتَّفكير. يستطيع النَّثر عبر الإبدال التَّعبيرَ عن كلِّ شيء: اللَّونِ والشَّكل اللَّذيْن لا يستطيع الرَّسمُ التَّعبير عنهما إلَّا على نحو مباشر ومن دون أيِّ بُعْدٍ جوَّانيٍّ؛ الإيقاع الذي لا تستطيع الموسيقى التَّعبير عنه إلَّا على نحو مباشر عبر ذاتها، دون أيِّ جسد فيزيقيٍّ، ولا حتَّى ذلك الجسد الآخر - الفكرة؛ أمَّا المِعمار الذي يتوجَّب على المهندس المعماريِّ تشييدَهُ من أشياء خارجية صلبة، وموجودة سلفاً، فإنَّنا نُشيِّده من الإيقاعات، واللَّعثمات، والسَّكتَات، والنَّغمات؛ الحقيقة الواقعيَّة، التي يتوجَّب على النَّحَات أن يتركها في العالَم، بلا هالةٍ أو استحالة؛ وأخيراً، الشِّعر الذي يؤدِّي فيه الشَّاعرُ -مثل أيِّ مُريدٍ جديد في طائفة باطنيَّة- دورَ العبد الرَّاغب في تلبية طلب أو القيام بطقس من الطُّقوس.

أُومنُ حقَّ الإيمان بأنَّ النَّثر، في عالَمٍ مُتحضِّر تماماً، هُوَ الفنُّ الوحيد. نتركُ مَغيباتِ الشَّمس أن تكون مَغيباتٍ، فلا نتجشَّمُ إلَّا عناءَ فَهمِها مُشافهةً، ونقلها عبر موسيقى مُلوَّنة جليَّةٍ. قد لا ننحِتُ أجساداً تستطيع أن تحافظ على حَناياها اللَّيِّنة، الدَّافئة، النَّاعمة، كي تُرَى وتُلمَس. سنشيِّدُ بيوتاً كي يُعَاش فيها فحسبُ؛ بيوتاً ليست، بعد كلِّ شيء، إلَّا ما شُيِّدتْ من أجله. سيظلُّ الشِّعرُ عالمَ الأطفال، تمهيداً لكتابة النَّثر في المستقبل؛ فالشِّعرُ ينطوي على شيء طفوليٍّ، شيء يقوِّي الذَّاكرة، شيءٍ إضافيٍّ وأوَّليٍّ.

وليستِ الفنونُ الثَّانويَّة، لو جاز لي أن أُسمِّيها بذلك، إلَّا أصداء النَّثر الهامسة. وثمَّة النَّثر الذي يرقصُ، ويغنِّي، ويلوي شدقيه تفاصُحاً. وثمَّة إيقاعات شفهيَّةٌ تستطيع الرَّقصَ، فتخلعُ الفكرةُ ثيابَها عاريةً على نحو شهوانيٍّ شفيفٍ ومثاليٍّ. ويمكن أن نعثر في النَّثر، أيضاً،

على إيماءات حاذقة يستطيع الممثِّل العظيم، الذي هُوَ الفِعْل في حدٍّ ذاته، أن يحوِّل، على نحو إيقاعيٍّ، سرَّ الكون الغامضَ إلى جوهرٍ ماديٍّ هُوَ جوهره نَفْسه.

325 [291]

[بعد 18 أكتوبر 1931]

غيومٌ... أنا في غاية الوعي بالسَّماء اليوم، ولكنْ ثمَّة أيَّام لا أراها فيها على الرَّغم من أنَّني أشعر بها، عائشاً مثلما أفعل في المدينة لا في الرِّيف حيث السَّماء حاضرةٌ دائماً، أشدَّ الحضور. غيومٌ... إنَّها حقيقة النَّهار الواقعيَّة الأساسيَّة وإنَّني مشغول بها كما لو أنَّ تغييم السَّماء كان أحد الأخطار الكبرى التي ادَّخرها القدَرُ لي. غيومٌ... من النَّهر حتَّى القلعة، من الغرب حتَّى الشَّرق، تطفو عبر المسافة، مثل جلبةٍ عارية ومتفاوتة. بعضها أبيضُ، الطَّليعة المُمزَّقة لجيش مجهول؛ وبعضُها الآخَر هو الغيوم الأثقلُ الَّتي تكاد تكون سوداء، تسوقُها ببطءٍ الرِّيحُ التي نسمعها بوضوح؛ تبدو، وقد دنَّسها الأبيضُ، مائلةً إلى التَّريُّثِ وأن تغمسَ في العتمة وهمَ المكان الذي منحته الشَّوارعُ الضيِّقة لصفوف البيوت المحتشدة، العتمة التي استفزَّها اقترابُ الغيوم أكثرَ من الظِّلِّ الحَقِّ الذي تطرحُه.

غيومٌ... أنا موجودٌ دون أن أشعرَ بذلك وسوف أموت رُغمَ أنفي. أنا البرزخُ بينَ ما أنا عليه وما لستُ عليه، بين ما أحلم به وما صنعتني عليه الحياةُ، المنزلُ الأوسط المُجرَّد الدُّنيويُّ بين أشياءٍ، مثل نَفْسي، هي لا شيء. غيومٌ... كم هُوَ مُقلِقٌ أن أشعرَ، وكم هُوَ مُتعِبٌ أن أفكِّر، وكم هُوَ عبثيٌّ أن أُريد! غيومٌ... إنَّها لا تكفُّ عن العبور، بعضها هائل (على الرَّغم من صعوبة معرفة حجمها ذلك بسبب وجود المنازل) إنَّها تبدو على وشك أن تستولي على السَّماء كلِّها؛ في حين أن بعض الغيوم الأخرى، ذات الأحجام غير المؤكَّدة، التي يمكن أن تكون غيمتَيْن معاً أو غيمة على وشك أن تنقسم إلى غيمتَيْن، تطفو هائمة على وجهها عبر الهواء العالي الذي يعمُّ السَّماء المُتعَبة؛ وثمَّة في جهةٍ غيومٌ أصغر، في عُزلةٍ هائلة وباردة تبدو كأنَّها دُمى مخلوقات قويَّةٍ، كراتٌ بأشكال غير منتظمة كي تُستخدَم في لعبة عبثيَّة.

---

(291) نُشرتْ، أصلاً، في العدد الثالث من مجلَّة «Descobrimento». انظر الحاشية رقم 261. (المترجم)

غيومٌ... أسألُ نَفْسي، ولكنَّني لا أعرفُ نَفْسي. لم أفعل شيئاً ولن أفعل أيَّ شيء مفيد البتَّة كي أُبرِّر وجودي. وجزءُ حياتي الذي لم أبدِّده مُفكِّراً في تفسيرات مشوَّشةٍ عن لا شيءَ أبداً قد بدَّدتُهُ في صُنع قصائد نثرٍ من المشاعر الكتومة التي أستخدمها لجعل الكون المجهول كَوْني. لقد سئمتُ من نَفْسي، موضوعياً وذاتياً على حدٍّ سواء. وسئمتُ كلَّ شيءٍ وكلَّ شيءٍ عن كلِّ شيء. غيومٌ... إنَّها اليومَ كلُّ شيء، كِسَفٌ من جَنَّة مُفكَّكةٍ، الأشياء الوحيدة الحَقَّةُ بين الأرض الخاوية والسَّماء غير الموجودة، قصاصاتٌ عصيَّةٌ على الوصف للسَّأم الذي أفرضه عليها، سديمٌ تكاثفَ تهديداتٍ فارغة، شراريب ألياف قطنيَّة وسخة في مستشفى بلا جدران. غيومٌ... إنَّها، مِثلي، طريقٌ خَرِبَةٌ بين السَّماء والأرض، تحت رحمةِ رغبةٍ عارمة محجوبة، قد تُرعِدُ الغيوم أو لا تُرعِدُ، إنَّها تَسُرُّ الأرضَ ببياضها، وتُحزنها بعتمتها، خيالاتٌ وُلِدَتْ من برازخ فارغة ومُنعطفاتٍ عشوائيَّة، بعيدة عن الضَّوضاء الأرضيَّة، ولكنَّها تفتقر إلى صمت السَّماء. غيومٌ... لا تكفُّ عن العبور، مرَّات ومرَّات، مثلما سوف تفعل دائماً، مثل اللَّفِّ والحَلِّ الدَّائمَيْن المُتقطِّعَيْن لِشِلَل غَزْلٍ باهتة، والإطالةِ المُنتشرة لسماء متشظِّيةٍ، باطلة.

326 [292]

[بعد 18 أكتوبر 1931]

ألتذُّ حين أنطقُ الكلمات. أو بالأحرى: ألتذُّ حين أصوغُ الكلمات. فالكلمات، بالنِّسبة إليَّ، أجسادٌ ملموسة، عرائسُ بحر [293] جَلِيَّةٌ، رغبات شهوانيَّةٌ متجسِّدة. ربَّما لأنَّ الرَّغبات الشَّهوانيَّة الحَقَّة لا تعنيني بشيءٍ، أيِّ شيءٍ البتَّةَ -ولا حتَّى في الأفكار أو الأحلام- فالرَّغبة قد انتقلَتْ إلى ذلك الجزء منِّي الذي يُبدِع الإيقاعات اللَّفظية أو يسمعها في كلام الآخَرين. أرتعشُ حين أسمع شخصاً يتحدَّثُ بفصاحةٍ. فثمَّة صفحات مُعيَّنة عند **فيالْيُو**، أو **شاتوبريان**، تجعلُ الحياةَ تتنمَّلُ في شراييني، فَيُجَنُّ جنوني مرتعشاً، في هدوءٍ، تستعرُ فِـيَّ لذَّةٌ بعيدةُ المنال ذقتُها على الفور. ثُمَّ إنَّ بعض صفحات خطَّها فِيرا، بكلِّ الكَمال البارد لهندسته النَّحويَّة، تجعلني أرجفُ مثل غُصنٍ في الرِّيح، في الهذيان الكامن لشيء دبَّتْ فيه الحركة.

---

(292) نشرت، أصلاً، في مجلَّة «Descobrimento»، العدد الثَّالث، 1931. لمزيد من التفاصيل، أُنظر الحاشية رقم 261. (المترجم)

(293) لمزيد من التفصيل حول معنى «السَّيْرَانة siren»، انظر الحاشية رقم 126. (المترجم)

أستمتعُ، مثل جميع العشّاق العظام، بلذّة أن أفقد نَفْسي، تلك اللّذّة التي يكابدُ فيها المرءُ، من صميم قلبه، مُتَعَ الاستسلام. ولهذا أكتبُ في أغلب الأحيان من دون الرّغبة في التّفكير، في حلم يقظة خارجي، في أن أترك الكلمات تداعبني كما لو كنتُ فتاةً صغيرة تجلس في حضن الكلمات. إنّها مجرّد جُمَلٍ بلا أيِّ معنى، تتدفّقُ متكاسلةً مع تدفّق الماء الذي ينسى نَفْسَهُ كما ينسى الجدولُ في الأمواج التي تختلطُ وتتلاشى، ثُمّ تُولَد ثانيةً إلى الأبد، متدفّقةً بلا نهايةٍ بعضُها فوق بعض. هكذا تعبرُني الأفكارُ والصُّوَر، المرتعشة بالتّعابير، كأنّها موكبُ حرائر باهتة تحفُّ، تُومِضُ في وسطها فضّةُ فكرةٍ، مُوشّاةً وغائمةً في ضوء القمر.

وتستطيع صفحاتُ نثرٍ مُعيّنةٌ أن تجعلني أجهش بالبكاء، على الرّغم من أنّني لا أبكي على شيء قد تجلبه الحياةُ إليَّ أو تأخذه منّي. أتذكّرُ، كما لو أنّها الأمسُ، تلك اللّيلة التي التقطتُّ فيها، حين كنتُ طفلاً، كتابَ مختارات كي أقرأ للمرّة الأولى مقطوعة ڤييرا الذّائعة الصّيت عن الملك سليمان: «شيّد سليمان قصراً...». قرأت المقطوعة حتّى النّهاية، مرتعشاً، شاردَ الذّهن، ثُمّ أجهشتُ باكياً بدموع فرح لا تستطيع أيُّ سعادةٍ حَقّة تهييجَها، دموعٍ لا يستطيع أيُّ حزن في حياتي تهييجَها أبداً. الإيقاع المَهيب للغتنا الصّافية الجليلة، التّعبير عن الأفكار بالكلمات التي تتدفّقُ لا محالةَ مثلما يتدفّقُ الماء أسفلَ مُنحدَر التّلِّ، الإثارة الصّوتيّة التي يأخذ بها كلُّ صوت لونَهُ المثاليَّ: ولقد أسكرني هذا كلُّه بالفطرة كأنّه شغفٌ سياسيٌّ عظيم. بكيتُ، مثلما قلتُ؛ ومازلتُ أبكي حين أتذكّر اليومَ تلك الكلمات. ليس حنيناً إلى طفولتي، التي لا أحنُّ إليها: إنّه الحنينُ إلى عاطفة تلك اللّحظة، إنّه ألمُ ألّا أكون قادراً البتّة، مرّةً أخرى، على قراءة ذلك اليقين السّيمفونيِّ العظيم لأوّل مرّة.

لا حِسَّ سياسيّاً أو اجتماعيّاً لديَّ، لكنّني أمتلك على الرّغم من ذلك، بطريقة أو أخرى، حِسّاً وطنياً متطوّراً إلى حدٍّ بعيد. وطني اللّغةُ البرتغاليّة. لن أحزنَ لو غزا أحدٌ البرتغال واستولى عليها طالما لا يزعجني، بشكل شخصيٍّ، أحدٌ. لكنّني لا أكرهُ، بكلِّ الكراهية التي أستطيع أن أكرهها، الشّخصَ الذي يكتب برتغاليّةً رديئةً، أو الذي لا يعرف قواعدَ نَحْوِ لغته، أو الذي يكتبُ مستخدماً قواعد الإملاء المُبسّطة الجديدة؛ وأكرهُ، كما لو كانت بشراً من لحم ودم، الصّفحةَ البرتغاليّة المكتوبةَ نَفْسَها؛ أكرهُ، كما لو كانت بشراً يستحقُّ الضّربَ، قواعدَ النَّحْوِ ذاتَها؛ وأكرهُ، مثلما أكرهُ كومةَ البصاق بمعزل عمَّن بصقَها، قواعدَ الإملاء

الحديثة التي تُفضِّل حرف الـ «i» على حرف الـ «y»[294].

فقواعد الإملاء حيَّةٌ بِقَدْر ما نحن أحياء، ولا تكتمل الكلمةُ إلَّا حين نراها ونسمعها. وأُبَّهَةُ النَّقْحَرةِ[295]، وفق التَّقليد اليونانيِّ-الرُّومانيِّ، تكسو الكلمةَ، بالنِّسبة إليَّ، برداء ملكيٍّ حَقٍّ يجعلها سيِّدتَنا ومَليكَتنا.

327 [296]

[بعد 18 أكتوبر 1931]

نعم، إنَّه المغيبُ. أمشي على مَهَلٍ شاردَ الذِّهن، في «**خُوَا ذَا أَلْفَانْدِغَا**»[297]، صوبَ نهر تِيجُو، فأستطيع، حين تنفتح « **تْخَايْرُو دُو پَاسُّو**»[298] أمامي، أن أرى بوضوح السَّماءَ الغربيَّة الغائمة. ثمَّة ذات الشِّمال، فوقَ تلال ضفَّة النَّهر البعيدة، ضفَّةٌ من سديم قرمزيٍّ باهت، ضارب إلى السُّمرة، يزحفُ في السَّماء، وثمَّة ظلال الألوان التي تتدرَّج من الأزرق الضَّارب الى الخُضرة وحتَّى الأبيض الضَّارب إلى الرَّماديِّ. مشهد عظيم من سكينةٍ لا أمتلكها تتناثر في الهواء الخريفيِّ البارد المُجرَّد. ولأنَّني لا أمتلكها، فقد تركت نَفْسي تكابد اللَّذَّة الغامضة لتخيُّل وجودها. بَيْد أنْ لا سكينةَ في الواقع على الرَّغم من أنَّه لا يفتقر إلى السَّكينة، ليس إلَّا السَّماء، سماء خُلِقَتْ من كلِّ لون متلاشٍ – أبيضَ-أزرق، وأخضرَ-أزرق، ورماديٍّ شاحب ليس

---

(294) يشير پِسُوَّا، هُنا، إلى الإصلاحات الإملائيَّة/ الهجائيَّة (التي باتَتْ تُعرَف بالتَّهجئة الصَّوتيَّة) التي أُدخلَتْ على اللُّغة البرتغاليَّة، في العام 1911، بعد سنة من قيام الجمهوريَّة الجديدة، حين حلَّ حرف الـ «i» محل حرف الـ «y»، وحرف الـ «f» محل الـ «ph»، وأُسقط معظم الحروف الصَّامتة. ويشير زينيث في حواشيه إلى أنَّ پِسُوَّا كان معارضاً لهذه التَّغييرات، منافحاً قوياً عمَّا يعرف بالتَّهجئة الاشتقاقيَّة (كتابة الحروف وفق التَّقليد اليونانيِّ-الرُّوماني) سواءٌ من حيث النَّظريَّة أو الممارسة الفعليَّة. ولا بُدَّ من الإشارة، أيضاً، إلى أنَّ محرِّري مجلَّة «Descobrimento» التي نُشرت فيها هذه الشَّذرة، قد وضعوا الحاشية التَّالية (في نهاية الصَّفحة 410/ العدد الثَّالث)، تعقيباً على استخدام پِسُوَّا قواعد الإملاء القديمة في شذرته هذه، تعبيراً عن مقته للإصلاحات الإملائيَّة الجديدة: É involuntariamente que contrariamos o gosto do autor, não respeitando a sua ortografia. Sirva isto de desculpa a Fernando Pessoa, e de explicação aos leitores» (= لا نقصد معارضة ذوق المؤلف، وألَّا نحترم طريقته في التَّهجئة، فليكن هذا بمثابة اعتذار إلى فرناندو پِسُوَّا، وتوضيح إلى القُرَّاء». (المترجم)

(295) النَّقحرة Transliteration: النَّقل الحَرْفي: كتابة حروف لغة بحروف لغة أخرى. (المترجم)

(296) نشرت، أصلاً، في مجلَّة «Descobrimento»، العدد الثَّالث، 1931. لمزيد من التفاصيل، أُنظر الحاشية 261. (المترجم)

(297) انظر الحاشية 133. (المترجم)

(298) انظر الحاشية 110. (المترجم)

أخضرَ أو أزرق، والألوانِ المتلاشية البعيدة للغيوم التي ليست غيوماً، والألوانِ الصَّفراء المعتمة بألوان حمراء باهتة. وهذا كلُّه مجرَّد رؤيا تموتُ في اللَّحظة التي تتجلَّى فيها، وبرزخٍ عابر بينَ لا شيءَ ولا شيء، عالياً، مُسهَباً وغير مُحدَّد، مرسوماً بألوان السَّماء والحُزن.

أشعرُ وأنسى. يجتاحني إحساسٌ بالحنين، كأنَّه أفيونٌ محمول على أجنحة الهواء البارد، الحنين الذي يشعر به الجميع تجاه كلِّ شيء. طافحٌ أنا بنشوة النَّظَر الحميمةِ، الخدَّاعة.

وعند فم المصبِّ، حيث تتريَّثُ اللَّحظات الأخيرة للشَّمس في انتظار النِّهاية، ينحسرُ الضَّوء، أخيراً، أبيضَ شاحباً يستحيلُ أزرقَ حين يختلطُ بالأخضر البارد. ثمَّة سُباتٌ في هواء الأشياء التي لم تتحقَّق بَعْدُ. ثُمَّ يهوي في الصَّمت، عالياً، منظرُ السَّماء الطَّبيعيُّ.

أودُّ أن أحظى بخفَّة الرُّوح، في هذي اللَّحظة، حين أفيضُ بالمشاعر أو أكادُ، كي أنطقَ، بكلِّ بساطةٍ، وأن تكون قدَري حرِّيَّةُ الأسلوب المُتقلِّبَة. ولكنْ كلَّا، ليس إلَّا السَّماءُ الشَّاسعة البعيدة التي تلغي نَفْسَها على مهلها، والعاطفةُ التي أشعر بها -مزيجٌ من مشاعر كثيرة مشوَّشة- لا شيءَ إلَّا انعكاس تلك السَّماء الخاوية في بحيرة فِـيَّ، صامتة كتحديقة ميِّتٍ، بحيرةٍ خَفِـيَّةٍ بين صخور عالية تتأمَّلُ فيها السَّماءُ الغافلة نَفْسَها.

تُعكِّرُ صفوي في هذي اللَّحظة، مثل مرَّات عديدةٍ من قَبْلُ، التَّجربةُ التي خضتُها بمشاعري، وكَرْبُ ضرورة أن أشعر بشيء، وقلَقي لمجرَّد أن أكون هُنَا، وحنيني لشيءٍ لم أعرفه البتَّة، وغروبُ شمس المشاعر كلِّها، وهذا التَّلاشي -في وعيي الخارجي بِنَفْسي- من الأصفر إلى الحُزن الرَّماديِّ.

مَن سينقذني من وجودي؟ هَلِ الموتُ ما أُريدُ، أَمِ الحياةُ: إنَّهُ الشَّيء الآخَر الذي يلمعُ في قاع التَّوق كلِّهِ كماسةٍ مستحيلة في مغارة لا يستطيع المرء أن يصل إليها. إنَّها الوطأةُ كلُّها والألمُ كلُّهُ لهذا الكون الحَقِّ المستحيل، لهذي السَّماء، لهذي الرَّاية التي يحملها جيشٌ مجهول، لهذي الألوان التي تشحبُ على مهلها في هذا الهواء الخياليِّ الذي ينبثقُ منه، في بياضٍ كهربائيٍّ ساكنٍ، هلالُ القمر المُتخيَّل، تُظلِّلُ صورتَهُ المسافةُ البعيدة واللَّامبالاة.

ولقد أضحى غيابُ إلهٍ حَقٍّ الجُثَّةَ الخاوية للسَّماء الشَّاسعة والرُّوح المُوصَدة. أيُّها السِّجن الذي لا حَدَّ لَهُ، لا مفرَّ منك، فأنتَ لا تُحَدُّ!

[بعد 18 أكتوبر 1931]

ومثلما أنَّ لدينا فلسفةً غيبيَّة، سواء أعرفنا ذلك أم لم نعرف، فإنَّ لدينا فلسفة أخلاقيَّة، سواء أحببنا ذلك أيضاً أو لم نُحبَّه. فلسفتي الأخلاقيَّة في غاية البساطة: ألَّا أُصِيبَ أحداً بخيرٍ أو بشرٍّ أبداً. لا أصنعُ الشرَّ لأنَّني أعتقدُ أنَّ العدالةَ تقتضي أن يتمتَّع الآخرون بالحَقِّ ذاته الذي أُطالِبُ به لِنَفْسي -حَقِّ ألَّا يُزعجني أحدٌ- ولأنَّني أعتقدُ أيضاً أنَّ العالم يحوي شروراً طبيعيَّة كافية دونَ الحاجة إلى إضافة شرور أُخرى. فنحن جميعاً مسافرون في هذا العالم على ظهر السَّفينة ذاتها التي أبحرت من ميناء مجهول إلى ميناء غريب عنا بالقَدْر ذاته؛ ولا بُدَّ أن يعامل بعضُنا بعضاً بالمودَّة التي يستحقُّها رفقاء السَّفر. وأختار ألَّا أصنعَ خيراً لأنَّني لا أعرفُ ما الخير، ولا حتَّى إنْ كنتُ أفعل الخير حقاً حين أظنُّ أنَّني أفعل الخير. فكيف لي أن أعرف الشُّرورَ التي قد آتي بها حين أتصدَّقُ، أو حين أحاول التَّثقيفَ أو الإرشاد؟ أُحجِمُ حين أرتابُ. لكنَّني أُومن بأنَّ مدَّ يد العَوْن، أو تفسيرَ الأشياء وتجليةَ الحقائق، ليسَ، في حدِّ ذاته، إلَّا ارتكاب إثْم التَّدخُل في حياة شخص آخَر، بطريقة أو أخرى. وليستِ الدَّماثةُ إلَّا نزوة عابرة، ولا يحقُّ لنا أن نجعل الآخرين ضحايا نزوتنا، مهما كانت إنسانويَّة أو نابعة من القلب. وليست الأفضالُ إلَّا أشياء مفروضة على الآخرين؛ ولهذا السَّبب أمقتُها مقتاً شديداً.

فإذا اخترتُ لأسباب أخلاقيَّة ألَّا أصنع خيراً، فلا أطلبُ من أحدٍ أن يصنع لي خيراً بالضَّرورة. فما أشدَّ كراهيتي أن يضطَّر أحدٌ إلى العناية بي حين أكون طريحَ الفراش من المرض، لأنَّني أكرهُ القيامَ بالشَّيء ذاته تجاه شخص آخَر. لم أَزُرْ صديقاً مريضاً مِن قَبْلُ قَطُّ. وكلَّما مرضتُّ، فزارني أحدٌ، أشعرُ أنَّ كلَّ زيارةٍ إزعاجٌ، إهانةٌ، انتهاكٌ غير مُبرَّرٍ لخصوصيَّتي المُختارَة. لا أحبُّ أن يمنحني النَّاسُ أشياء؛ لأنَّهم يجبرونني حينئذٍ على منحهم شيئاً في المقابل - سواءٌ إليهم أو إلى الآخرين، لا يهمُّ لِمَن.

أنا كائنٌ اجتماعيٌّ إلى حدٍّ بعيد، وعلى نحوٍ سلبيٍّ إلى حدٍّ بعيد. أنا تَجَسُّدٌ لا يضرُّ. ولكنَّني لستُ أكثرَ من ذلك، ولا أرغبُ في أن أكون أكثرَ، ولا أستطيع أن أكونَ أكثر. أشعرُ تُجاه كلِّ

---

(299) نشرت، أصلاً، في مجلَّة «Descobrimento»، العدد الثَّالث، 1931. لمزيد من التفاصيل، أُنظر الحاشية 261. (المترجم)

شيء موجود برقَّةٍ مرئيَّة، عاطفة حصيفةٍ، ولكنَّ قلبي لا يشعرُ بشيءٍ. لا أُومنُ بأيِّ شيء، ولا أرتجي أيَّ شيء، ولا أُحسِنُ إلى أيِّ شيء. لا أشعرُ إلَّا بالبغضاء والقرف تجاه الأتباع الخُلَّصِ لكلِّ إخلاصٍ وصُوفيَّةٍ كلِّ تصوُّفٍ، أو، بالأحرى، تجاه إخلاصاتِ الخُلَّصِ وصُوفيَّاتِ جميع المتصوِّفين. أشعر بالغثيان يدبُّ في جسدي، أو يكادُ، حين يغدو أولئك المتصوِّفةُ إنجيليِّين (بروتستانتيِّين) عندما يحاولون إقناعَ بصيرةٍ أُخرى أو إرادة أُخرى بالعثور على الحقيقة أو تغيير العالَم.

أعدُّ نَفْسي محظوظاً إذْ لم يَعُد لديَّ أقاربُ، فبهذا أكون قد تحرَّرتُ من أيِّ واجب قد يثقل كاهلي لا محالةَ، ومن أيِّ ضرورةٍ تُحتِّمُ عليَّ أن أُحبَّ أحداً. حنيني[300] حنينٌ أدبيٌّ. وعيناي تطفحان بالدُّموع حين أذكرُ طفولتي، ولكنَّها دموع إيقاعيَّةٌ تتهيَّأُ فيها كي تُكتَبَ قطعةٌ من النَّثر. أتذكَّرُها شيئاً خارجياً، بالنِّسبة إليَّ، أتذكَّرُها عبر أشياء خارجية؛ فأنا لا أتذكَّرُ إلَّا الأشياء البرَّانيَّة. ليسَ الدِّفءُ المريح للمساءات الرِّيفيَّة الذي يملأُني بمشاعر رقيقةٍ تجاه طفولتي، وإنَّما الطَّريقةُ التي كانت تُعَدُّ فيها الطَّاولة لتناول الشَّاي، وأشكالُ الأثاث الموضوع حول المنزل، ووجوه النَّاس والإيماءات الجسديَّة. حنيني إلى صُوَر من الماضي بعينها. ولهذا أشعرُ بالرَّقة تجاه طفولتي قَدْرَ ما أشعرُ تجاه طفولة شخص آخَر: أستقبل كلتَيْهما بعقلي الأدبيِّ، وقد ضاعتا في ماضٍ لا يُحَدُّ، بوصفهما ظاهرتَيْن بصريَّتَيْن خالصتَيْن. أشعرُ بالرِّقَّة حقّاً، لا لأنِّي أتذكَّرُ، وإنما لأنِّي أرى.

لم أُحِبَّ أحداً قطُّ. لم أُحبَّ، حقَّ المحبَّةِ، إلَّا الأحاسيس المثيرة -المشاهدَ التي سجَّلتها رؤيةُ وعيي، الانطباعات التي التقطتها أُذُناي المُصغيتان، والعطورَ التي تتحدَّثُ بها إليَّ أشياءُ العالَم الخارجي المتواضعةُ وتقصُّ عليَّ قَصَصَ الماضي (التي تثيرها الرَّوائحُ بكلِّ يُسْرٍ)- أقصدُ، عطيَّةَ الحقيقة الواقعيَّة والعاطفة التي منحتني إيَّاها، التي هي أشدُّ حضوراً من حقيقة الرَّغيف الذي يُخبَز في أعماق المخبز، كما كانت الحال في ذلك الأصيل البعيد في طريق عودتي من جنازة عمِّي الذي أحبَّني كثيراً، فكلُّ الذي شعرت به تلك الرقَّةُ الغامضة لانشراح صدري إزاء ما أجهله.

هذه فلسفتي الأخلاقيَّة أو فلسفتي الغيبيَّة أو فلسفتي حول نَفْسي: عابرُ سبيلٍ في كلِّ

(300) وردت كلمة حنين، هُنَا، بصيغة الجمع. (المترجم)

شيء، حتَّى في روحي، أنتمي إلى لا شيء، وأشتهي لا شيء، وأنا لا شيءَ إلّا مركزاً مُجرَّداً لأحاسيس مثيرة مُبهَمة، ومرآة مُرهفة سقطتْ من فوق الجدار، لكنَّها مازالتْ تعمدُ إلى أن تعكس تنوُّع العالَم. لا أعرف إنْ كان هذا يجعلني أشعر بالسَّعادة أو بالتَّعاسة، لكنَّني لا أكترثُ كثيراً.

329 (301)

[نحو 21 أكتوبر 1931]

مَسُّ قدمي المسيح لا يمنحك العُذْرَ لارتكاب أخطاءٍ في علامات التَّرقيم.

إذا كان المرء لا يكتب بفصاحةٍ إلَّا حين يسكرُ، فسوف أقول لَهُ: اِسْكَر. وإذا كان سيخبرني أنَّ ذلك يضرُّ كَبِدَهُ، فسوف أقولُ: ما كبدُك؟ إنَّهُ شيءٌ ميِّت لا يحيا إلَّا حين تحيا، بَيْدَ أنَّ القصائد تحيا دون أن تحيا [أنتَ].

---

(301) كان پِسُوَّا قد كتب بالإنگليزيَّة على ظهر القصاصة التي خطَّ عليها هذه الشَّذرة بقلم رصاص: «قصائدُكَ تهمُّ البشريَّةَ؛ أمَّا كَبِدُك فَلا. فَاسْكَر حتَّى تكتبَ بفصاحةٍ ويجتاحُكَ الغثيان. فطُوبى لقصائدك واللَّعنة عليك Your poems are of interest to mankind; your liver isn't. Drink till you write well and feel sick. Bless your poems and be damned to you». وهُنا، أيضاً، مثال آخر على «تعدُّد» النَّظرة التي تعامل بها محرِّرو الطَّبعات البرتغالية الرَّئيسة المختلفة مع شذرات پِسُوَّا في كتابه-المتاهة هذا؛ فهذه الشَّذرة ظهرت في طبعة پيسارُّو (2010) ضمن ملحق خاصٍّ ضمَّ، أيضاً، الشَّذرات الثَّلاث الأخرى التي كتبها پِسُوَّا بالإنگليزيَّة على ظهر القصاصة ذاتها؛ في حين ظهرت كشذرة مستقلَّة بذاتها في طبعة برادو كويلو (511: 1982)، وفي طبعة سوبراو كونيا (699: 2008)، وفي طبعة زينيث (258: 2012). أمَّا الشَّذرات الإنگليزيَّة الثلاث الأخرى، فهي: «لا تجعله يستحمُّ بالشَّمس، أعطِهِ ويسكي Do not give him sunbaths, give him whisky»؛ و«لا بُدَّ أن تبذل عنايةً فائقة في التَّعامل مع الشخصيَّة الفرديَّة السَّوداويَّة. فلعلَّك تتعامل مع عبقريٍّ. You must have great care in how you deal with morbid individuality. You may be dealing with genius»؛ و «شخصيَّةٌ فَرديَّة† قَارِن: لا بُدَّ للمرء، إذا كان فرداً عاديّاً، أن يكون كمثل باقي البشر وأنْ يبذل كلَّ ما في وسعه كي يكون؛ ولا بُدَّ لَهُ، إذا كانَ غير ذلك، أن يعتزل البشرَ ويسعى إلى أن يظلَّ منفرداً بنفسه- مقتولاً أو نافراً و[...] Individuality†Cf a man is a common individual, he should be like other men and so oriented to be; if not, he should be set apart and made to be apart - killed or raised and □». (المترجم)

330 [302]

[نحو 21 أكتوبر 1931]

تكمن الثَّروة الحَقَّة في أن يغمض المرء عينيه ويدخِّن سيگاراً فاخراً.

أستطيع، بمساعدة سيگارة رخيصة، العودةَ، مثل شخص يُعيد زيارة المكان الذي قضى فيه شبابَه، إلى ذلك الزَّمن من حياتي الذي تعوَّدتُّ أن أُدخِّن فيه سگائر رخيصة. تكفي النَّكهةُ الخفيفة لدخان تلك السِّيگارة كي أعيش حياتيَ الماضية كلَّها مرَّة أُخرى.

وقد يؤدِّي نوعٌ مُعيَّن من الحلوى، في أوقات أخرى، الغرضَ ذاته. تستطيع قطعة شوكولاتة بسيطة أن ترهق أعصابي بفيض الذِّكريات التي تستثيرها. الطُّفولة! فحين تقضمُ أسناني الكتلةَ الدَّاكنة الطَّريَّةَ، أقضمُ أفراحي المتواضعة، مُلتذّاً بها، كرفيق تغمره المسرَّةُ لجنديٍّ[303] رصاصيٍّ، أو فارسٍ يُجيد ركوبَ الخيل حصانُهُ عصا من خشب. تغرورقُ عيناي بالدُّموع، وطعم الشُّوكولاته يمتزج بطعم سعادتي الماضية وطفولتي الضَّائعة، فأتشبَّثُ تشبُّثاً شديداً بذلك الألم العذب.

ولا تحطُّ بساطة طقوس التَّذوُّق، هذه، مِن قَدْر مَهابةِ المناسبة.

ولكنَّه دخانُ السَّگائر الذي يُجدِّدُ لحظاتي الماضية [روحياً] على نحو بارع. إنَّه يكاد يلمسُ وعيي بوجود حاسَّة التَّذوُّق لديَّ، ولهذا السَّبب، وقد لفَّ بعضها سديمٌ رقيقٌ، وبعضُها الآخرُ شَفِيفٌ يستحضر السَّاعات التي تحرَّقتُ شوقاً إليها في هذي اللَّحظة، ويجعلُ الأوقات البعيدةَ حاضرةً، ويجعلُها أشدَّ سديميَّةً كلَّما غمرَتْني، وأكثر أثيريَّةً كلَّما جعلتُها تتجسَّد. ويمكن لسيگارة بطعم النَّعناع، أو سيگارة رخيصة، أن تغمرني برقَّةٍ في أيِّ لحظة مُعيَّنة من ماضيَّ. فَيَا لتلك الإمكانيَّة البارعة التي أستخدم فيها توليفةَ التذوُّق والشَّمِّ، تلك، لإعادة بناء مشاهد بائدةٍ وأداءِ ملاهي ماضيَّ، بوصفها بعيدةً، ومُملَّة، وخبيثةً، على شاكلة القرن الثَّامن عشر، وضائعةً، ضياعاً مُمعناً في الضَّياع، على شاكلة العصور الوسطى!

---

(302) يحوي ظهر الورقة المُسطَّرة، التي دوَّن عليها پسُوّا هذه الشَّذرة، بقلم رصاص، مقطعاً من «دوق پارما Duke of Parma» (وهي مسرحيَّة دراميَّة عكف على تأليفها بالإنگليزيَّة ولم يُكملها)، رفقةَ بعض الأشعار غير المكتملة الأخرى. (المترجم)

(303) يقصد الجنود الدُّمَى التي كان يلعب بها في طفولته. (المترجم)

331 [304]

[نحو 21 أكتوبر 1931]

نستطيعُ أن نموتَ من شدَّة الحُبِّ بخِسَّةٍ.[305]

332

[4 نوفمبر 1931]

لا يحتاجُ الذي يودُّ إعدادَ كتالوج يضمُّ وحوش العالَم إلا إلى أن يلتقط بالكلمات صُوراً فوتوغرافيَّةً للأشياء التي يجلبُها اللَّيلُ إلى الأرواح التي رانَ النُّعاس في عيونها لكنَّها لا تستطيعُ النَّوم. تحوي هذه الأشياء تنافُر الأحلام كلَّه دون ذريعةِ [غياب] النَّوم غير المعترف بها. إنَّها تحوِّم مثل خفافيش فوق كُمُونِ الرُّوح، أو مثل مصَّاصي دماءٍ يمتصُّون دم خضوعنا.

وإنَّها يرقاتُ الانحطاط والخراب، والظلال التي تملأُ الوادي، وآثارُ القدَر الأخيرة. وتكونُ [هذه الأشياء] في بعض الأحيان، ديداناً تطردُ الرُّوح التي تُلاطفها وتغذِّيها؛ وتكونُ أشباحاً، بين تارةٍ وأُخرى، تطاردُ -وقد أضمرتِ الشَّرَّ- لا شيءَ البتَّةَ؛ وتظهرُ بينَ حين وآخر مثل حيَّات الكُوبرا في المغارات الغريبة للمشاعر المفقودة.

وإنَّها حَصَبُ البُهتان، غايتُها الوحيدة أن تجعلنا عديمي الفائدة. إنَّها الشُّكوك المنبعثة من

---

(304) ثمَّة على ظهر الورقة المُسطَّرة التي خطَّ عليها بِسُوَّا هذه الشَّذرة، بقلم رصاص، قصيدةٌ تحمل تاريخ هذه الشَّذرة نفسه، وبعض ملحوظات فضفاضة أُخرى، نسبَها إلى نِدِّه ألفَر دُو كامپوش. يذكر پيسارُّو هذه القصيدة، وتلك الملحوظات، ضمن ملحق خاصٍّ وضعه في آخر الطبعة التي حرَّرها في العام 2010. (المترجم)

(305) اختلفت الطبعات البرتغالية الرئيسة في «الشَّكل» الذي أوردت به هذه الشَّذرة المقتضبة: ففي طبعة برادو كويلو (1982: 272) وردت على هذه الشَّاكلة: «Podemos morrer se apenas amámos) Faltámos se entretivemos» [= سنكون قد أخفقنا لو متَّعنا أنفسَنا فحسب (نستطيع أن نموتَ لو أنَّ كلَّ ما فعلنا هو أن نُحِبَّ)]؛ وفي طبعة زينيث (212: 252): «Podemos morrer se apenas amámos. Faltámos se entretivemos» [= نستطيع أن نموتَ لو أنَّ كلَّ ما فعلناه هو أن نُحِبَّ. سنكون قد أخفقنا لو متَّعنا أنفسَنا فحسب]؛ في حين خلت طبعة سوبراو كونيا من هذه الشَّذرة؛ واقتصرت طبعة پيسارُّو (2010: 338) -التي تنقل عنها جول كوستا ترجمتها هذه- على عبارة: «Podemos morrer se apenas amámos» [= نستطيع أن نموتَ لو أنَّ كلَّ ما فعلنا هو أن نُحِبَّ] وهي تختلف عن الصِّيغة التي تُوردها جول كوستا هُنَا، إذ لا ذكر لعبارة «بخسَّة meanly» التي تلحقها جول كوستا بهذه الشَّذرة. ومردُّ هذا الاختلاف في الشَّكل الطِّباعيِّ لهذه الشَّذرة في الطبعات البرتغالية المختلفة، من وجهي نظري، إلى أنَّ بِسُوَّا كان في الأصل قد فصل بين الجُملتَيْن بخطٍّ طويل، بعد أن كتب كلَّ واحدة منهما في سطر وحدها. (المترجم)

الأعماق القارّة في الطيّات الباردة النعسة التي فوق الرُّوح. إنّها سريعة الزَّوال كالدُّخان، كآثار خطوات على الأرض، وكلُّ ما يتبقّى منها هُوَ حقيقة أنّها وُجدَتْ ذات مرَّةٍ في التُّربة القَحْط لوعينا بها. بعضُها مثل مفرقعات العقل النَّارية؛ العقل الذي يومضُ لوهلةٍ بين الأحلام، والبقيَّةُ مُجرَّد لا وعيِ الوعيِ الذي أبصرناها به.

لا توجَد الرُّوح في حدِّ ذاتها، مثل قوس مُخلَّعة. تنتمي جميع المناظر الطبيعيَّة العظيمة إلى غَدٍ عشناهُ سلفاً. أخفقَت المحادثةُ المقطوعة. فمن كان يظنُّ أن الحياة ستكون على هذه الشَّاكلة؟

سأضيعُ لحظةَ أن أجدَ نَفْسي. وإنْ آمنتُ، أشكُّ؛ أُمسِكُ شيئاً لكنَّني لا أُمسِكُ أيَّ شيءٍ في يدي. أذهبُ إلى النَّوم كأنَّني ذاهبٌ لأتمشَّى، بيد أني مستيقظٌ. أستيقظُ كأنَّني قد نمتُ، وإنَّني لستُ نَفْسي. فليستِ الحياةُ، بعد كلِّ شيء، إلَّا أَرَقاً عظيماً، وثمَّة شِبْهُ - يقظةٍ مُشرقة حول كلِّ شيء نُفكِّرُ فيه أو نفعله.

سأكون سعيداً لو استطعتُ النَّوم، ليس إلَّا. فهذا على الأقلّ ما أُفكِّر فيه في هذه اللَّحظة التي لا أستطيع النَّوم فيها. اللَّيلُ ثِقَلٌ هائلٌ يضغطُ على حُلمي فيخنقُ نَفسي تحت البطَّانيَّة الصَّامتة. إنني مُتخَمٌ برُوحي.

سيأتي النَّهارُ، دائماً، بعد كلِّ شيء، لكنَّهُ سيتأخَّر كالعادة. كلُّ شيء ينامُ قريرَ العينِ إلَّايَ. أرقدُ قليلاً غير أني لا أجرؤُ على النَّوم، ثُمَّ تُطِلُّ، مُرتبكةً مِن أعماق كينونتي، الرُّؤوس الهائلة للوحوش المُتخيَّلة. إنَّها تنانينُ شرقيَّةٌ تصعدُ من الهاوية، ذات ألسنةٍ قرمزيَّة، منافية أيَّ منطق، وعيون شاحبة تحدِّقُ في حياتي الميِّتة التي لا تنظرُ إليها.

باللهِ عليكم، فَلْيُغْمِض أحدٌ الجفنَ على هذا كلِّهِ! دعوني أنتهي من لاوعيي والحياةِ! ثمَّ أرى، لحسنِ الحظِّ عبر النَّافذة الباردة التي فُتِّحَ مصراعاها، بصيصاً باهتاً من ضوءٍ شاحب يُفرِّقُ الظِّلالَ فوق الأفق. وما سوف ينبلجُ عليَّ، لحسن الحظِّ، هُوَ النَّهار الذي سيجلب لي الرَّاحة من تعب هذا القلَق أو يكادُ. ثمَّ، يا للغرابة، يصيح ديكٌ في وسط المدينة، فيطلعُ النَّهار الشَّاحب حين أنجرفُ في نوم غامض. سأنامُ في لحظة ما. صوت العجلات يستحضرُ عربةً تمرُّ. تنام جفوني، لكنَّي لا أنام. فليس في النِّهاية إلَّا القدَر.

[29 نوفمبر 1931]

إنْ كان ثمَّة شيءٌ تمنحه الحياةُ، بمعزل عن الحياة نَفْسِها، ولا بُدَّ أن نشكر الآلهةَ عليه، فهوَ نعمةُ ألَّا نعرفَ أنْفُسَنا: ألَّا نعرفَ أنْفُسَنا وألَّا يعرفَ بعضُنا بعضاً. فالرُّوح البشريَّة هاويةُ عتمةٍ لزجةٍ، بئرٌ قلَّما تُسبَر أغوارُها من سطح العالَم. لن يُحبَّ أحدٌ نَفْسَه لو عرفَ نَفْسَهُ حقَّ المعرفة، ولهذا فإنَّ نَفْسَنا، دون الغُرور الذي هُوَ دمُ حياة الرُّوح[306]، سوف تموتُ من فقر الدَّم. ولا أحدَ يعرفُ أيَّ شخص آخَر، ولا بأس في ذلك أيضاً، فَلَوْ عرفنا الآخَر -سواء أكان أُماً أو زوجةً أو ابناً- لَوَجدنا عدوَّنا الغيبيَّ الحميمَ[307] كامناً في وليجةِ نَفْسه.

فالسَّبب الوحيد الذي يجعل بعضَنا ينسجمُ مع بعضٍ هُو أنَّ بعضَنا لا يعرف أيَّ شيء عن بعض. فماذا سيحدث لكلِّ أولئك الأزواج السُّعداء لو استطاع كلُّ واحدٍ التَّحديق في روح الآخَر، لو استطاعَ كلُّ واحد فهمَ الآخَر، كما يقول الرُّومانسيُّون، غافلَيْن عن الخطر (حتَّى لو كان عبثياً) الكامن في كلماتهما؟ كلُّ زوجَيْن في العالَم غيرُ متوافقَيْن، فثمَّة سُوء مواءمةٍ بين كلِّ زوجَيْن في العالَم، لأنَّ المرأةَ تُخفِي، في الجزء السِّرِّيِّ من الرُّوح التي تنتمي إلى الشَّيطان، الصُّورةَ الغامضة للرَّجل الذي تشتهيه ولكنَّه ليس زوجها، ويخفي الرَّجلُ الشَّكلَ الجذَّابَ جنسيّاً للمرأة الخلَّابة التي لم تَكُنْهَا زوجتُه قطُّ. يجهل الأزواج الأسعد هذه الأشواق الجوَّانيَّة المُحبطَة. أمَّا الأقلُّ سعادة، فلا يعرفونها ولا يجهلونها البتَّة، ولكنَّ الغريزة الخرقاءَ العابرة، قسوةَ الطَّريقة التي يعامل فيها بعضهم بعضاً، تستثيرُ فوق السَّطح العَرَضيِّ للإيماءات والكلمات **الشَّيطانَ** الكامنَ، أو **حوَّاءَ** القديمة، أو **الفارسَ**، أو **حُوريَّةَ الهواء**.

الحياة التي يعيشها المرء سوءُ فهمٍ طويل، وسيلةٌ سعيدة بين عظَمةٍ غير موجودة وسعادةٍ لا يمكن أن توجَد. نقنعُ لأنَّنا قادرون على عدم الإيمان بوجود الرُّوح، حتَّى ونحن نفكِّر أو

(306) الرُّوح، هُنَا، بمعنى spirit؛ والنَّفْس في العبارة التي قبلها بمعنى soul. لمزيد حول الفرق بين هاتَيْن الكلمتَيْن، عند بِسُوَّا، أنظر الحاشية 58. (المترجم)

(307) آثرتْ جول كوستا، هُنَا، أن تذهب إلى ما هُوَ أبعد من المعنى الظَّاهري/ المتعارف عليه لكلمة intimo التي يستخدمها بِسُوَّا في الأصل، فاختارتْ أن تترجمها بـ deep (عميق)، خلافاً لزينيث الذي اختار، على سبيل المثال، أن يترجمها «حرفياً» إلى كلمة intimate (حميم)؛ مع العلم بأنَّ الكلمة في أصلها البرتغاليِّ تفيدُ المعنيَيْن، على حدٍّ سواء: حميم/ وثيق/ جوَّاني/ عميق... إلخ. ولذلك فقد آثرتُ استخدام كلمة «حميم» لأنَّها تنطوي في العربيَّة على المعنيَيْن في آن، ولكونها «تتناغم» أكثر مع كلمة «العدوّ» التي تصفها. (المترجم)

نشعر. فيكفي أن نشعر، في حفلة الرَّقص التَّنكُّريَّة التي هي حياتُنا، أنَّنا نرتدي حُلَّةً، وهي الشَّيء الأهمُّ الذي نحرص عليه في الرَّقص. نحن عبيدُ الأضواء والألوان، نقذفُ أنْفُسَنا في الرَّقص كما لو كان الحقيقةَ نَفْسَها، فلا نعرف، إلَّا حين نُترَك وحيدين فنكفُّ عن الرَّقص، أنَّنا لا نعرفُ أيَّ شيء عن البرد الهائل والشَّاهق للَّيل الذي في الخارج، ولا عن الجسد الفاني القابع تحت الأسمال التي سوف تَحيا من بَعْده، ولا عن كلِّ شيء نعتقدُ، حين نكون وحيدين، أنَّهُ ضروريٌّ لنا، لكنَّه في النهاية مُجرَّد محاكاة ساخرة شخصيَّة لحقيقة ما نتخيَّل أنْفُسَنا عليه.

كلُّ ما نقوله أو نفعله، وكلُّ ما نفكِّرُ فيه أو نشعر به، يرتدي القناعَ ذاتَهُ والثَّوب الفاخر ذاتَه. نحنُ لا نُترَكُ عرايا البتَّة، بصرف النَّظر عن طبقات الثِّياب التي نخلعها، فالعُري عُريُ الرُّوح ولا علاقة لَهُ بخلع المرء ثيابه. نعيشُ، على تلك الشَّاكلة، الوقتَ الوجيز الذي منحتنا إيَّاه الآلهةُ كي نُمتِّعَ أنْفُسنا تغمرنا السَّعادة أو تجتاحنا التَّعاسة (أو جاهلين بماهيَّة مشاعرنا تماماً)، مثل أطفالٍ يلعبون لُعَباً جادَّةً، وقد ارتدَيْنا الجسد والرُّوحَ، وثيابُنا المتعدِّدة تتشبَّثُ بنا ناعمةً كالرِّيش.

ثُمَّ، فجأةً، يرى شخصٌ أكثرُ حُريَّةً أو أكثرُ لعنةً من بقيَّة البشر (على الرَّغم من أنَّه لا يراه إلَّا نادراً) أنَّ كلَّ ما نحنُ عليه ليس إلَّا ما نحن لسنا عليه، وأنَّنا نخدع أنْفُسَنا بشأن ما هُو يقينٌ، وأنَّنا على خطأٍ بشأن ما نجزمُ بأنَّه حَقٌّ. وهذا الفردُ الذي يرى الكونَ عارياً، لوهلةٍ قصيرة، يبتدعُ فلسفةً أو يحلمُ بديانةٍ، فَيُنصِتُ البشر إلى تلك الفلسفة وتروجُ تلك الدِّيانة. أمَّا الذين آمنوا بالفلسفة، فيرتدونَها رداءً غير مرئيٍّ. وأمَّا الذين آمنوا بالدِّيانة، فيرتدونَها قناعاً ينسون حينئذٍ أنَّهم يرتدونه.

وهكذا، جاهلين بأنْفُسنا وبكلِّ البشر الآخَرين، نستطيعُ، ونحن تغمرنا السَّعادةُ، أن نسجمَ، بعضُنا مع بعض، عالقين في ثنايا الرَّقص أو الأحاديثِ التي نتجاذب أطرافَها بين الفواصل، آدميِّينَ وجادِّينَ وعقيمينَ، نرقصُ على صوت أوركسترا النُّجوم العظيمة، أسفلَ التَّحديقة البعيدة المُزدرية؛ تحديقةِ منظِّمي الحفلة.

لا يعرفون سوى أنَّنا سجناء الوهم الذي أوجدوه من أجلنا. ولكنْ، ما سببُ هذا الوهم، ولماذا يُوجَد هذا الوهم أو أيُّ وهم آخَر، ولماذا اختاروا، مُضلَّلِيْن مثلما نحنُ، هذا الوهمَ كي يمنحونا إيَّاهُ؟ إنهم، بالطَّبع، لا يعرفون السَّبب.

334 [308]

[نوفمبر 1931]

تفتَّق ذهن كثير من النَّاس عن وضع توصيفاتٍ يعرِّفون بها الإنسان، ولذلك فإنَّهم يُعرِّفونَهُ، في العموم، بتوصيفات تتناقض مع الحيوانات. ولهذا فإنَّهم يستخدمون في الغالب تعريفاتٍ تستفيد من عبارة «الإنسان هُوَ حيوانٌ...»، ثُمَّ يضيفون الصِّفة المناسبة، أو «الإنسان هُو الحيوانُ الذي...»، ثُمَّ يتبعونها بتفسير يتعلَّق بنوع الحيوان الذي يُشبِّهون الإنسان به. قال روسُّو: «الإنسان حيوانٌ مريض»، وهي مقولة صحيحة في جزء منها. وتقول الكنيسةُ: «الإنسان حيوان عاقل»، وهي مقولة صحيحة في جزء منها. ويقول كارلايل: «الإنسان حيوان يستخدم الأدوات»، وهي مقولة صحيحة، أيضاً، في جزء منها. ولكنَّ هذه التَّعريفات، وما شابهها من تعريفات أُخرى، ناقصة دائماً ومُتحيِّزة. والسَّبب في غاية البساطة: ليس من السَّهل تفريق الإنسان عن الحيوانات، ولا يُوجَد معيارٌ أكيدٌ للقيام بذلك. فحيوات البشر تنقضي بالطَّريقة اللَّاواعية العميقة ذاتها التي تنقضي فيها حيوات الحيوانات. والقوانين العميقة الجذور التي تحكم من الخارج غرائز الحيوانات الفطريَّة هي ذاتها التي تحكم بصيرة الإنسان، التي تبدو أنَّها ليستْ أكثرَ من غريزة فطريَّة في طَوْر التَّكوين، غير واعيةٍ مثل أيِّ غريزة أخرى، وأقلَّ كَمَالاً لأنَّها لم تتشكَّل بَعْدُ.

«كلُّ شيء» بالنِّسبة إلى العقلانيِّين اليُونان[309] «ينبع من اللَّاعقلانيِّ». وكلُّ شيء ينبثقُ من اللَّاعقلانيِّ حقاً. فالعِلم -بمعزل عن الرِّياضيَّات، التي لا علاقةَ لها بتاتاً بأيِّ شيء سوى الأرقام الجامدة والمعادلات الفارغة، فتكونُ لِذلكَ منطقيَّةً تماماً- لا شيءَ سوى لعبةٍ يلعبها الأطفال في الشَّفق، ورغبةٍ في الإصابة بنزلةِ بَرْدٍ في ظلال الطُّيور، والتَّشبُّثِ بظلال الأعشاب التي تتمايلُ في الرِّيح.

(308) نُشر هذا النَّصُّ، في الأصل، باسم پِشوَّا الصَّريح، منسوباً إلى برناردو سوارش، وأنَّه مقتطف من كتاب القلَق، في مجلَّة «Presença» (المجلَّد الثَّاني، العدد 34، ص 8، نوفمبر 1931–فبراير 1932). (المترجم)

(309) يشير پِسُوَّا، في الأصل، إلى «الأنثولوجيا اليونانيَّة Antologia Grega»، وهي أنثولوجيا ذائعة الصِّيت ضمَّت أكثر 3700 قصيدة ونشيد ومرثيَّة وحكمة، تغطي الفترة التي تمتدُّ من القرن السَّابع قبل الميلاد وحتَّى أواخر الألفيَّة الأولى، وتعرف باليونانيَّة باسم Anthologia Hellēnikē. (المترجم)

وما يدعو للعَجَب العُجَاب، على الرَّغم من أنَّه ليس سهلاً بأيِّ حال من الأحوال العثور على كلمات تُفرِّقُ حقاً بين الإنسان والحيوانات، فإنَّ من السَّهل العثور على طريقة تُفرِّقُ بين الإنسان المتفوِّق والإنسان العاديِّ.

لم أنسَ قطُّ عبارة هَكُل[310]، عالم الأحياء، الذي قرأتُ أعمالَهُ، حين بدأت مداركي العقليّة بالتشكُّل[311]، في ذلك العُمر الذي يشرع فيه المرء بقراءة المنشورات العلمية والجدالات ضدَّ الدِّين. كانت العبارة تقول بصورة أو أخرى: المسافة التي تفصل الإنسانَ المتفوِّق (أظنُّه قال: على شاكلة كانت أو غوته) عن الإنسان العاديِّ أكبرُ من المسافة التي تفصل الإنسانَ العاديَّ عن القِرد. لم أنسَ العبارة قطُّ لأنَّها صحيحةٌ. فالمسافة الهائلة التي تفصلُنِي، والتي تُعَدُّ قليلة الأهميَّة في زُمرة المُفكِّرين، عن فلَّاح في لُوْرِش[312] أكبرُ من المسافة التي تفصل ذلك الفلَّاح عن قِطٍّ أو كلب، ولن أقول عن قِرد. فلا أحدَ مِنَّا، من ذلك القطِّ فصاعداً، يعيشُ حقاً الحياةَ المفروضة عليه أو التي منحه إيَّاها القدَر؛ فنحن، جميعاً، ننحدر من أصول غامضة بالقَدْر ذاته، ونحن مُجرَّد ظلال إيماءاتٍ قام بها شخص آخَر، وآثار مُتجسِّدة، ومآلات تشعر. بَيْدَ أنَّ ثمَّة فارقاً نوعياً بيني وبين الفلَّاح، نابعاً من وجود فِكرٍ مُجرَّد وعاطفة غير مكترثةٍ فِيَّ، في حين أنَّ الفارق بين الفلَّاح والقطِّ، على مستوى الرُّوح، فارقٌ في الدَّرجة، لا أكثر.

وما يُميِّزُ الإنسانَ المتفوِّق عن الإنسان الأدنى وأشقائِهِ الحيوانات كامنٌ في بساطة التَّهكُّم. فالتَّهكُّم المؤشِّرُ الأوَّل على أنَّ الوعي قد باتَ واعياً، ويمرُّ ذلك عبر مرحلتَيْن: المرحلة التي وصل إليها **سقراط** حين قال: «لا أعرف إلَّا أنَّني لا أعرفُ شيئاً»، والمرحلة التي وصل إليها **سانشيز**[xxi] حين قال: «لا أعرفُ حتَّى إنَّني لا أعرف شيئاً». المرحلة الأولى هي تلك النُّقطة التي نشكُّ فيها بأنْفُسنا على نحو دوغمائيٍّ وهي مرحلةٌ سيصل إليها كلُّ إنسان متفوِّق. أمَّا المرحلة الثَّانية، فهي النُّقطة التي نشكُّ فيها بأنْفُسنا وفي شكِّنا ذاتهِ على حدٍّ سواء، وهي مرحلةٌ وصل إليها قلَّةٌ قليلةٌ من بني البشر، في منحنى الزَّمن المديد، على الرَّغم من قصره، الذي رأينا فيه -نحن بني البشر- الشَّمسَ تشرق واللَّيلَ يهبط فوق سطح الأرض المتنوِّع.

---

(310) إرنست هَكُل Haeckel: فيلسوف وعالم أحياء ألماني. (المترجم)

(311) يذكر زينيث في حواشي طبعته أنَّ بِسُوًّا قد قرأ في العام 1906 كتابَ هَكُل «أحجية الكون» (1888). أيّ أنَّ عمره كان في ذلك الوقت 18 عاماً فحسب. (المترجم)

(312) لُوْرِش Loures: مدينة تبعد 13 كيلومتراً شمال لشبونة. (المترجم)

فأنْ تعرف نَفْسك هُوَ أنْ تُخطِئ، ولقد اقترحَ العرَّافُ الذي قال «اِعرف نَفْسك»، مُهمَّةً أصعب من جميع المهامِّ التي قام بها هرقل، وأُحجيةً أكثر غموضاً من أُحجية أبي الهول. فالسِّراط المستقيم الذي لا بُدَّ أن يسير عليه المرء هُوَ الَّا يعرف نَفْسه واعياً بذلك. وألَّا يعرفَ المرء نَفْسه، واعياً بذلك، مُهمَّةُ التَّهكُّم الفعَّالة. فلا أعرف مُهمَّةً، ينجزها الإنسانُ العظيم حقاً، أعظم، ولا أنسب، من مُهمَّةِ التَّحليل الصَّبور والمُعبِّر للطَّرائق التي لا نعرف فيها أنْفُسنا؛ والتَّسجيلِ الواعي لِلَاوعي وعينا؛ وغيبيَّاتِنَا بوصفنا ظلالاً مُستقلَّة بذاتها؛ وشِعْرِ شَفَقِ خيبةِ الأمل.

بَيْدَ أنَّ شيئاً يتملَّصُ مِنَّا دائماً، وثمَّة دائماً بعض التَّحليلات التي تفلت مِنَّا؛ فالحقيقةُ، على الرَّغم من أنَّها باطلة، هي دائماً على الأبواب(313). ويتعب المرء أكثرَ من الحياة حين تغدو الحياة مُتعِبة، وأكثرَ من أيِّ معرفةٍ عن الحياة، أو أيِّ تأمُّلٍ في الحياة، اللَّذَيْن لا يقلَّان عنها تعباً.

أنهضُ من الكرسيِّ حيث كنتُ، مستنداً إلى الطَّاولة شاردَ الذِّهن، أُسلِّي نَفْسي بسرد هذه الانطباعات الجيَّاشة المُتقلِّبة. أنهضُ، أجعل جسدي ينهض، ثُمَّ أذهب إلى النَّافذة، التي هي أعلى من أسطح البيوت، حيث أستطيع رؤية المدينة تهيِّئ نفسها للنَّوم والصَّمتُ في بدايات الصَّمت المتوانية. والمقر الأبيض الكبير السَّاطع يُشير، حزيناً، إلى الخطِّ المُثلَّم لأسطح البيوت المتجاورة، فيبدو ضوؤه البارد وهو يُنير السِّرَّ كلَّهُ؛ سرَّ العالَم. ويبدو أنَّهُ يكشف كلَّ شيء وأنَّ كلَّ شيء مُجرَّد ظلال مختلطة بضوء خافت، وبرازخ باطلة، وعبث ضالٍّ، والهمهمات المتنافرة للعالَم المرئيِّ. ولا يبدو غيابُ أيِّ نسيم إلَّا كي يضاعف من حضور السِّرِّ. سئمتُ الأفكار المُجرَّدة. لن أكتب على الإطلاق صفحة واحدةً تكشف نَفْسي أو أيَّ شيء آخر. أخفُّ الغيمات تحوِّم غامضةً فوق القمر كما لو أنَّها مخبأُ القمر. لا أعرف شيئاً، مثل أسطح البيوت هذه. ولقد أخفقتُ، مثل كلِّ شيء في الطَّبيعة.

---

(313) أيّ أنها ستحدث في القريب العاجل. والعبارة التي يستخدمها بِسُوَّا هي: está além da outra esquina، وتعني حرفياً: «بعد الزَّاوية التَّالية» (وفي ترجمة جول كوستا: just around the corner: حول الزَّاوية). (المترجم)

335

[1 ديسمبر 1931]

يكمنُ الفنُّ في جعل الآخرين يشعرون بما نشعر به، وفي تحريرهم من أنْفُسهم، بتقديم شخصيَّتنا لهم سبيلاً للتَّحرُّر. فما أشعرُ به، في الجوهر الحَقِّ الذي أشعر فيه بِهِ، ليس صالحاً للنَّقْل بتاتاً؛ فكلَّما كان الذي أشعر به عميقاً، باتَ غير صالح للنَّقْل على نحو أكثر. ولكي أكون قادراً على نقل ما أشعرُ به إلى شخص آخر، فلا بُدَّ أن أترجم مشاعري بلغته، أقصدُ، أن أقول تلك الأشياء كما لو أنَّها كانت ما أشعر به، فيشعر، عند قراءتها، بما شعرتُ به تماماً. وبما أنَّ ذلك الشَّخص، وفقَ منظور الفنِّ، ليس هذا الشَّخصَ أو ذلك، وإنَّما كل شخص، أقصدُ، الشَّخصَ المُشترَك لدى جميع البشر، فلا بُدَّ أن أُحوِّل مشاعري، في نهاية المطاف، إلى مشاعر إنسانيَّة مثاليَّة، حتَّى لو أدَّى ذلك إلى تشويه الطَّبيعة الحَقَّة للأشياء التي شعرتُ بها.

جميع الأفكار المُجرَّدة عصيَّة على الفهم، فمن الصَّعب أن تجذب الأفكار المُجرَّدة الشَّخص الذي يقرأ. سأضرب مثلاً بسيطاً يجعل تلك الأفكار المُجرَّدة سهلةَ الاستيعاب. تخيَّل، لسببٍ أو آخر -ربَّما حين أضيق ذرعاً بالتَّحديق في سجِّل الحسابات أو لا شيء لديَّ أفعله- أن يداهمني حزن غامض بصدد الحياة، قلَقٌ يزعجني ويكدِّر صفوي. إذا أردتُ ترجمة تلك العاطفة إلى كلمات تتوافق تماماً مع ذلك الشُّعور، فلا بُدَّ أن أُحِكم سبك الكلمات، فكلَّما أُحكِمَت الكلمات، عبَّرتُ عن مشاعري أكثر، وقلَّ تواصلي مع الآخرين. وإذا لم أستطع التَّواصل مع الآخرين، فمن الأفضل والأسهل حينئذ أن أشعر بالعاطفة فحسب، دون تجشُّم عناء تدوينها.

وتخيَّل، رغم ذلك، أنَّني راغبٌ في نقل تلك العاطفة إلى الآخرين، أقصدُ أن أحوِّلها إلى فنٍّ، لأنَّ الفنَّ يعني نقل إحساس المرء بهوِّيته إلى الآخَرين، ولا يمكن أن يكون ثمَّة تواصل ولا حاجة إلى التَّواصل، دون ذلك الإحساس. أحاول اقتفاءَ أثر العاطفة الإنسانيَّة الشَّائعة التي تمتلك روحَ العاطفة ونوعَها وشكلَها؛ العاطفة التي أشعر بها، في هذه اللَّحظة، تجاهَ الباعث غير الإنسانيِّ المُعيَّن الذي يجعلني أشعر أنَّني محاسب يقتله السَّأم أو مواطن ضَجِر من مواطني لشبونه. أكتشفُ أنَّ ذلك النَّوع من العاطفة العاديَّة، التي تُثير تلك العاطفةَ ذاتها في روح عاديَّة، هُوَ حنينٌ إلى طفولتنا الضَّائعة.

ثُمَّ أمتلك مفتاح الباب الذي سألج منه إلى الفكرة الرَّئيسة التي يدور عليها حديثي. أكتبُ وأبكي على طفولتي الضَّائعة، خائضاً في تفاصيل مثيرة للشَّجن عن الأثاث والذين قطنوا ذلك البيت العتيق في الرِّيف؛ أستحضرُ فرحةَ الوقت الذي لم تكن لديَّ فيه أيُّ حقوقٍ أو واجبات، فرحةَ الحُرِّيَّة التي شعرتُ بها لأنَّني لم أعرف كيف أُفكِّر أو أشعر. وإذا نجح ذلك الاستحضار في تحويل تلك الفرحة إلى نثرٍ واضح، فسوف يوقظُ في قارئ أعمالي تلك العاطفةَ التي كنتُ أشعر بها تماماً؛ العاطفة التي لا علاقةَ لها بالطُّفولة.

هل كنتُ أكذبُ؟ كلَّا، كنتُ أفهمُ، ليس إلَّا. فالكذبُ -باستثناءِ الكذب الطُّفوليِّ، العفويِّ، المولود من رغبة في الحُلم- ليسَ إلَّا اعترافاً بوجود الآخرين، وتسليماً بالحاجة إلى تشكيل ذلك الوجود على مقاس وجودنا، الذي لا يُمكن أن يُشكَّل على مقاس وجودهم. فليس الكذبُ، بكل بساطة، إلَّا اللُّغةَ المثاليَّة للرُّوح، مثلما نستخدمُ الكلمات -التي هي أصواتٌ نُطِقَتْ واضحةً بطريقة عبثيَّةٍ- كي نُترجِمَ، إلى لغة حَقَّةٍ، أشدَّ حركات العاطفة والفِكر حميميَّةً وغموضاً، التي لا تستطيع أن تترجَمَها الكلماتُ وحدَها البتَّة، فنلجأُ إلى الكذب والصُّور المُتخيَّلة لفهم الآخرين والانسجام معهم، وهي مسألة لن نقدر عليها باستخدام حقيقتنا الشَّخصيَّة العصيَّة على المشاركَة والنَّقْل.

يكذبُ الفنُّ لأنَّه شيء اجتماعيٌّ. ولا يُوجَد سوى شكلَيْن عظيمَيْن من الفنِّ - الأوَّلُ يخاطب روحنا العميقة، والآخرُ يخاطب روحَنا اليَقِظة. الأوَّلُ الشِّعرُ، والثَّاني الرِّوايةُ. فبنيةُ الأوَّلِ كَذِبٌ في حدِّ ذاتها[314]؛ ونِيَّةُ الثَّاني في حدِّ ذاتها الكَذِبَ أيضاً. يشرع الأوَّلُ في تقديم الحقيقة إلينا عبرَ أبياتٍ موزونة، وهذا يتعارض مع طبيعة الكلام المتوارَثة؛ في حين يجنح الثَّاني إلى تقديم الحقيقة عبر حقيقة واقعيَّةٍ نعرفُ، حقَّ المعرفة، أنَّها لم تكُن موجودةً قطُّ.

أنْ نتظاهرَ هُوَ أنْ نُحِبَّ. لم أرَ قطُّ ابتسامةً عذبة أو نظرةً مُعبِّرة، بصرف النَّظر عمَّن تنتمي إليه هذه الابتسامة أو تلك النَّظرة، دونَ أن أُحدِّق عميقاً في روح الشَّخص المُتبسِّم أو النَّاظر، سابراً أغوار نَفْسه، باحثاً عن السِّياسيِّ الذي يأملُ في أن يشترينا أو المومس التي تأمل في أن نشتريها. بَيْدَ أنَّ السِّياسيَّ الذي اشترانا قد أحبَّ على الأقلِّ شراءَنا؛ والمومس التي اشتريناها قد أحبَّت على الأقلِّ شراءنا. لا نستطيع الهربَ من الأخوَّة الإنسانيَّة العالميَّة، على الرَّغم من

(314) تذكرنا بالمقولة العربيَّة الذَّائعة الصِّيت: «أعذبُ الشِّعر أكذبُه». (المترجم)

أنّنا نتحرّقُ شوقاً إلى ذلك. يُحِبُّ بعضُنا بعضاً، والكَذِبُ هُوَ القُبلَة التي نتبادلها.

336

[1 ديسمبر 1931]

ولأنّني أُعانِي من السَّأم، فمن الغريب أني أُفكّر كثيراً حتى اليوم في ماهيَّة السَّأم وممَّ يتكوَّن حقاً. تنتابُنِي اليومَ تلك الحالة الذِّهنية البَيْنِيَّةُ التي لا أشعر فيها بأيِّ اهتمام بالحياة أو أيِّ شيء آخَر. أستغلُّ الإدراكَ المفاجئَ بأنَّني لم أُفكِّرْ قَطُّ في هذا الشُّعور كي أحلمَ بتحليلٍ لهذا السَّأم؛ تحليلٍ لا بُدَّ أن يكون مُتكلَّفاً بعض الشَّيء، موظِّفاً الأفكارَ وشِبْهَ الانطباعات التي لديَّ عن هذا الموضوع.

لكنَّني لا أعرف، بكلِّ أمانةٍ، إنْ كان السَّأمُ هُوَ المُعادِل اليَقِظ لِنُعاسِ الكَسُولِ الذي أدمنَ الكسلَ أو شيئاً هُوَ بِكُليّته أنبل من ذلك النَّوع المُعيَّن من الخمول. غالباً ما أُعاني من السَّأم، لكنَّه لا يتبعُ على حدِّ علمي أيَّ قواعد على الإطلاق، سواءً في الوقت الذي يظهر فيه أو الأسباب التي تدفعه إلى الظُّهور. أستطيع أن أقضي يومَ أحدٍ مُتبطِّلاً دون أن ينتابني السَّأم البتَّةَ، بَيْدَ أنَّه يُخيِّمُ عليَّ فجأةً مثل غيمةٍ، في بعض الأحيان، حين أنهمكُ في العمل انهماكاً شديداً. ولا أستطيع أن أربطَ السَّأم بأيِّ حالٍ من أحوال العافية أو الافتقار إلى العافية؛ ولا أستطيع أن أراه ناجماً عن أسبابٍ مُعيَّنة في أيِّ جزء ظاهرٍ من نَفْسي.

والقولُ إنَّ السَّأمَ كَرْبٌ غيبيٌّ مُحتجِب، وخيبةُ أملٍ تفوقُ الوصف، وقصيدةٌ سرِّيَّةٌ[315] للرُّوح الضَّجِرة التي تميلُ خارجَ النَّافذة المفتوحةِ على الحياة -أو أشياء من هذا القبيل- قد يضفي لوناً على السَّأم، مثلما يرسم الطِّفلُ شيئاً، ثُمَّ يلوِّنه بطريقة غير مُتقنة فيطمس الحوافَّ، بَيْدَ أنَّها، بالنِّسبة إليَّ، مجرَّد كلمات تتردَّدُ أصداؤها حول أقبيةِ الفِكر.

السَّأمُ... إنَّهُ التَّفكيرُ دون تفكير، بيد أنه يتطلَّبُ كلَّ الجهد الذي يُبذَل في التَّفكير؛ إنَّه الشُّعورُ بلا شعورٍ، لكنَّهُ يستثير الكَرْب كُلَّهُ الذي ينطوي عليه الشُّعور في العادة؛ إنَّه ليس الرَّغبة في شيءٍ غير أنه الرَّغبةُ فيه، ومعاناةُ الغثيان كلّه النَّاجم عن عدم الرَّغبة. وعلى الرَّغم من أنَّ السَّأم ينطوي على هذه المشاعر كلِّها، فإنّها ليستْ في حدِّ ذاتها السَّأم، إنّها مُجرَّد إعادةِ

(315) الأصل عند بِسُوَّا « poesia surda»: شِعرٌ أبكم/ أخرس. (المترجم)

صياغةٍ، ترجمةٍ، فحسب. ويبدو السَّأمُ، حين يُعبَّرُ عنه بوصفه إحساساً مباشراً، كأنَّ الجسرَ المُتحرِّك المنصوبَ فوق الخندق المائيِّ حول قلعة الرُّوح قد رُفِعَ، تاركاً إيَّانا بلا حَوْلٍ أو قوَّة إلَّا قوَّةِ التَّحديق خارجاً على الأراضي المحيطة، دون أن تطأ أقدامُنا الأرضَ هُنَاك مرَّة أخرى. نحنُ معزولونَ داخل أنْفُسِنا عن أنْفُسِنا، عُزلةً يكون فيها ما يفصلُ بعضَنا عن بعضٍ راكدًا مِثلَنا، كأنَّهُ بِركة مياه آسنةٍ راكدة تحيط بعجزنا عن الفهم.

السَّأمُ... إنَّهُ المعاناةُ بلا معاناةٍ، والرَّغبةُ بلا إرادةٍ، والتَّفكير بلا منطقٍ... إنَّهُ كمثلِ أنْ يتلبَّسَنا شيطانٌ متشائمٌ، وألَّا يسحرَنا شيءٌ البتَّة. يقولون إنَّ السَّحرة وبعض صغار المشعوذين، حين يصنعون أوثاناً على هيئتنا ثُمَّ يُعذِّبونها، يستطيعون إعادة بعث تلك العذابات فِيْنَا عبر بعض التَّحوُّل النَّجميِّ. ينبعثُ السَّأم فِـيَّ، في الشُّعور المُتحوِّل لتلك الصُّورة، مثل الانعكاس الخبيث للسِّحر الذي ألقاه شيطانٌ خرافيٌّ على ظلِّ الصُّورة وليس على الصُّورة نَفْسها. إنَّه على ظلِّيَ الجوَّانيِّ، على سطح وليجةِ روحي، حيث يلصقون الورق أو يغرزون الدَّبابيس. أنا كمثل الرَّجل الذي باع ظلَّهُ[316] أو، بالأحرى، كمثل ظلِّ الرَّجل الذي باعَهُ.

السَّأمُ... أَكِدُّ في عملي كثيراً. أُؤدِّي ما يُسمِّيه الأخلاقيُّون العمليُّون واجبي الاجتماعيَّ، وأُؤدِّي ذلك الواجب، أو ذلك القَدَر، دون بذل جهد كبير أو مواجهة صعوبة ملحوظة. ولكنَّ روحي تفيضُ بِكَدَرِ العجز، في بعض الأحيان، في خضمِّ العمل أو في غمرة أوقات الفراغ (وهو شيء أستحقُّه، وفق أولئك الأخلاقيِّين ذاتهم، ولا بُدَّ أن أستمتع به) فَيُضنيني التَّعبُ، لا من العمل أو الرَّاحة وإنَّما من نَفْسي.

فلماذا سئمتُ نَفْسي، إنْ لم أكُن أُفكِّر حتَّى في نَفْسي؟ أي شيءٍ آخر سأُفكِّر فيه؟ يهبطُ سرُّ الكون عليَّ وأنا أكدحُ في تدوين الحسابات أو أستريح في أحد الكراسي؟ ولقد تبلور ألمُ الحياة الكونيُّ فجأةً في وسيط روحي؟ فلماذا تسمو الرُّوح بشخص لا يعرف حتَّى مَن هُو؟ إنَّهُ شعورٌ بالخواء المُطلَق، جوعٌ بلا رغبة في الطَّعام، شعورٌ نبيلٌ نبالةَ المشاعر التي تنتابُ ذهن المرء أو معدته حين يُدخِّنُ أو يلتهم كثيراً من الطَّعام.

السَّأمُ... ربَّما هُوَ في الأساس تعبيرٌ عن السُّخط في روحنا العميقة لعدم حصولنا على

---

(316) يذكر زينيث في حواشي طبعته إلى أنَّ هذه العبارة إشارة إلى بتير شْلَمِيل بطل رواية الشاعر الألماني آدلبرت فون تشاميسو، الذي باع ظلَّه إلى الشَّيطان. (المترجم)

شيء نؤمن به، أسى الطِّفل (الذي هُوَ نحن في قرارة أنْفُسنا) لأنَّنا لم نشترِ لَهُ الدُّمية المقدسة. إنَّهُ ربَّما عدم الأمان الذي يشعر به شخصٌ يحتاجُ إلى يدٍ تأخذ بيده إلى برِّ الأمان؛ شخصٌ لا يُدرِك أيَّ شيءٍ، في الطَّريق السَّوداء للمشاعر العميقة، إلَّا اللَّيلَ الصَّامت لعجزه عن التَّفكير، والطَّريقَ المهجورة لعجزه عن الشُّعور...

السَّأمُ... لن يعاني السَّأمَ مَن يؤمنُ بإلهٍ. فالسَّأمُ افتقارٌ إلى ميثولوجيا. أمَّا غير المؤمنين، فمحرومون حتَّى من الشَّكِّ، حتَّى إنَّ فلسفةَ الشَّكِّ لا تمنحُ القوَّة على اليأس. نعم، هذا هُوَ السَّأم: خسارةُ الرُّوح لقدرتها على أن تخدع نَفْسَها، وافتقارُ الفِكر إلى سُلَّمٍ غير موجود تصعد عليه الرُّوحُ بثباتٍ صوب الحقيقة.

337

[1 ديسمبر 1931]

خلصتُ اليومَ فجأةً إلى نتيجةٍ عبثيَّة، لكنَّها معصومة عن الخطأ. أدركتُ في لحظة إشراقٍ أنَّني لا أحد، لا أحدَ تماماً. رأيتُ حين لمعَ البرقُ أنَّ ما ظننتُ أنَّها مدينةٌ كانت في الحقيقة سهلاً مهجوراً، ورأيتُ في الضَّوء المشؤوم ذاته الذي أطلعني على نَفْسي أنْ لا سماءَ فوقَهُ. حُرِمتُ من احتماليَّةِ أن أُوجَد قبل العالَم. ولو قُدِّرَ أن أتناسخَ أبداً، فلا بُدَّ أن أتناسخَ بلا نَفْسي، بلا نَفْسٍ أتناسخُ.

أنا ضواحي بلدةٍ غير موجودة، والمقدِّمةُ المُسهَبة لكتابٍ لم يُكتَب بَعْدُ. أنا لا أحد، لا أحد. لا أعرف كيف أشعر أو أفكِّر أو أُحِبّ. أنا شخصيَّةٌ في روايةٍ لم تُكتَب بَعْدُ، تحوم في الهواء فأتبدَّدُ حتَّى قبل أن أُخلَق، بين أحلام شخص لم يتمكَّن قَطُّ من نفخ نَسَمَةِ الحياة فِيَّ.

أُفكِّرُ دائماً، وأشعرُ دائماً، ولكنَّ أفكاري تفتقر إلى المنطق كلِّه، وعواطفي تفتقرُ إلى الشُّعور كلِّه. إنَّني أسقطُ عبر بابٍ سحريٍّ، عبر فضاءٍ مُطلَق لا يُحَدُّ ولا يَنْفَدُ(317)، سقطةً خاوية خَبْطَ

---

(317) الكلمة التي يستخدمها بِسُوَّا، هُنا، هي: infinitupla؛ ويذكر زينيث في حواشي طبعته بأنَّها عبارة جديدة نحتها بِسُوَّا من الكلمتَيْن «infinito» (= لا نهائيٌّ/ مُطلَق/ أزليٌّ) وكلمة «múltiplo» (مُضاعَف/ مُتعدِّد/ مُركَّب). ارتأت جول كوستا، هُنَا، أن تترجمها بـ «infinitous»، بإضافة اللَّاحقة «ous» التي تستخدم عادةً لتحويل الأسماء إلى صفات تكون ممتلئة بمعنى ذلك الاسم، كأن نُحوِّل danger، على سبيل المثال، لتصبح dangerous: خطِر/ طافح بالخَطَر. ولذا فهي إذ آثرتْ استخدام «infinitous»، ثُمَّ أضافَتْ لها كلمة infinite، لتغدو العبارة «infinite, infinitous space»؛ كأنَّها تودُّ أن تقول إنَّ هذا الفضاء اللَّانهائيَّ طافح بلا نهائيَّته، ممتلئٌ بها. ولهذا

عشواءٍ. روحي دوّامةٌ سوداء، جنونٌ عظيم يدور حول خواءٍ، دورانُ بحرٍ مُحيطٍ شاسع حول ثُقبٍ في الفراغ، وفي المياهِ، التي هي أعاصيرُ أكثر من كونها مياهاً، تطفو صُوَرُ كلِّ ما رأيتُهُ أو سمعتُهُ في العالَم: بيوتٌ، وجوهٌ، كُتُبٌ، صناديقٌ، نُتَفٌ من موسيقى وبقايا أصوات، عالقةٌ جميعُها في دوّامة مشؤومة لا قرارَ لها.

وأنا، أنا نَفْسي، البؤرةُ التي لا تُوجَد إلّا لأنَّ هندسةَ الهاوية تتطلَّبُ ذلك. وأنا العَدَمُ الذي يدورُ حولَهُ هذا كُلُّهُ، وأنا موجودٌ كي يدورَ، وأنا بؤرةٌ لا تُوجَد إلّا لأنَّ كلَّ دائرةٍ لها بؤرةٌ. وأنا، أنا نَفْسي، البئرُ التي سقطتْ فيها جدرانُها فَلَمْ تُخلِّف إلّا حَمَأً دَبِقاً. أنا بؤرةُ كلِّ شيءٍ يحيطُ بهِ العَدَمُ العظيمُ.

كأنَّ جهنَّمَ نَفْسَها كانت تضحكُ فِـيَّ، بَيْدَ أنَّهُ، عوضاً عن اللَّمسة الإنسانيَّة للضَّحك الشَّيطانيِّ، ثمَّةَ النَّعيبُ المجنون للكون الميِّت، والجثَّةُ المدوِّمة للفضاء الماديِّ، ونهايةُ العوالمِ كلِّها تتطايرُ سوداءَ في الرِّيح، ممسوخةً، وسرمديَّةً، من دون الإله الذي خلقها، من دون الإله نَفْسه، الذي يدور في عتمةِ العتمات، مستحيلاً، وفريداً، وكلَّ شيء.

ليتني أُفكِّر! ليتني أشعر!

ماتتْ أُمِّي صبيَّةً؛ لم أعرفها قطُّ...[318]

338

[3 ديسمبر 1931]

اعتدتُ أن أسمع، حينَ جئتُ إلى لشبونة أوَّل مرَّةٍ، صوتَ شخص يعزف نغمات السُّلَّم

فقد آثرتُ أن أترجمها: «فضاء مُطلَق لا يُحَدُّ ولا يَنْفَد». في حين مال زينيث، في طبعته الإنكليزيَّة، إلى أن يترجمها بـ «infinitudinous»، مضيفاً اللّاحقة إلى «infinitude». وهذا مثال آخر على «المشقَّة» التي واجهت مترجمي كتاب القلَق، سواء إلى الإنكليزيَّة، أو إلى اللُّغات الأخرى؛ ولا بُدَّ من الإشارة، هُنا، على سبيل المثال، إلى «صعوبة» ترجمة نثر بِسُوَّا التي تحدَّثتْ عنها ڤاليريا توكُّو، مترجمة كتاب القلق إلى الإيطاليَّة، في مقدِّمتها، نتيجة جنوح بِسُوَّا المتكرِّر إلى اختلاق ألفاظ وتعابير جديدة ونحت كلمات لم تكن مستخدمة قبله في اللغة البرتغاليَّة. (المترجم)

(318) تُظهِرُ القصاصة التي دوَّن عليها بِسُوَّا هذا المقطع أنَّه بعد ان انتهى من كتابة عبارة «ليتني أُفكِّر، ليتني أشعر» دوَّنَ التاريخ (على هذه الشَّاكلة: 1/ 12/ 1931.) في منتصف نهاية الصَّفحة، ثُمَّ بعد السطر الذي دوَّن فيه التَّاريخ، مباشرة، كتب هذه العبارة وحدها. ولم يرد النَّصُّ على هذه الشَّاكلة التي وضعها بِسُوَّا بنفسه إلَّا في طبعة پيسارُّو فقط. (المترجم)

الموسيقيِّ على البيانو، وهُوَ يتعالى من الشقَّة التي في الأعلى، الصَّوت الرَّتيب للبيانو الذي تتدرَّبُ عليه فتاةٌ صغيرة لم أرها قطُّ. ولقد اكتشفتُ اليومَ، عبر سيرورات الاستيعاب التي أخفقتُ في استيعابها، أنَّني لو فتحتُ الباب المفضي إلى أقبية روحي، فإنَّ نغمات السُّلَّم الموسيقيِّ المتكرِّرة، تلك، مازالتْ مسموعةً، تعزفها الفتاة الصَّغيرة التي ربَّما تكون، في هذه الأثناء، حرمَ فلان الفُلاني أو علَّان العلَّاني، أو ربَّما تكون قد ماتتْ، ودُفنتْ في مكان أبيض أورقَتْ فيه سرواتٌ معتمة.

كنتُ طفلاً، حينئذ، والآنَ لستُ كذلك. ولكنَّ صوت العزف مازال يرنُّ في ذاكرتي على الشَّاكلة التي كان عليها في الواقع، وحين يتعالى الصَّوت من ذلك المكان الذي يكمنُ فيه متظاهراً بالنَّوم، فإنَّ تلك النَّغمات البطيئة ذاتها تحضرُ ولا تكفُّ، ويحضر الإيقاع الرَّتيب ذاتُهُ ولا يكفُّ. يجتاحُني، كلَّما شعرتُ به وفكَّرتُ فيه، حزنٌ عميمٌ مُوجِعٌ، حُزنٌ لي أنا وحدي.

لا أبكي على ضياع طفولتي؛ أبكي لأنَّ كلَّ شيءٍ سوف يضيعُ، وطفولتي سوف تضيعُ. ما يجعلُ عقلي يتألَّم، جرَّاءَ التِّكرار الطَّوعيِّ المُتكرِّر لنغمات السُّلَّم الموسيقيِّ المعزوفة على البيانو المنبعثة من الطَّابق العلويِّ التي تبدو مجهولةً وقصيَّةً؛ هي تحليقةُ الزَّمن المُجرَّدة، وليستْ تحليقة الزَّمن الملموسة التي تؤثِّر فِيَّ مباشرةً. إنَّها الحقيقةُ الغامضةُ برمَّتها؛ حقيقةُ ألَّا شيءَ يدومُ هي التي تدقُّ النَّغمات مرَّات ومرَّاتٍ، النَّغمات التي ليستْ موسيقى تماماً، وإنَّما مزيجٌ من حنينٍ وتَوْقٍ حرَّاقٍ يكمنُ مُتربِّصاً في الأعماق العبثيَّة لذاكرتي.

ثُمَّ تصعدُ على مَهَلٍ أمامي، هُنَاكَ، حجرةُ الجلوس التي لم أرها قطُّ، حيث ما زالتْ تعزفُ المتدرِّبةُ التي لم أرها قطُّ، بأصابعها المحترسة، إصبعاً وراء آخر، نغمات السُّلَّم الموسيقيِّ المتكرِّرة ذاتَها لشيءٍ قد مات. أنظرُ فأرى ثُمَّ أُعيد، وأنا أرى، بناءَ المشهد ثانيةً. ثُمَّ تنبثقُ من تأمُّلي المشدوه رؤيةٌ للحياة العائليَّة الدَّائرة في الشقَّة الواقعة في الطَّابق العلويِّ؛ رؤيةٌ طافحة بلوعة شديدةٍ كانت تفتقر إليه في ذلك الحِين.

لكنَّني أظنُّ أنَّني مُجرَّد وسيلةٍ لهذا كلِّه، وأنَّ التَّوق الحرَّاقَ الذي أشعر بِهِ ليسَ توقيَ حقاً ولا هُو توقٌ مُجرَّد أيضاً، بيد أن العاطفة التي اعترضها طرفٌ ثالث مجهول يمتلك تلك المشاعر (التي هي داخل نَفْسي مشاعر أدبيَّة)، ستغدو بالنِّسبة إليه -على حدِّ قول ڤيرا- حرفيَّة. ينبع وجعي وكربي من مشاعري المتخيَّلة، ولا أشعر بهذا الحنين الذي يجعل عينيَّ

تغرورقان بالدُّموع، إلَّا في مخيِّلتي وفي إحساسي بالاختلاف.

لكنَّ صوت شخص يتدرَّبُ على عزف نغمات السُّلَّم الموسيقيِّ على البيانو مازالتْ تتردَّد أصداؤه، ثُمَّ تتردَّدُ مرَّة أخرى، صعوداً وهبوطاً، في العمود الفقريِّ الفيزيقيِّ لذاكرتي، بانتظام ثابت ينبع من أعماق العالَم، ومثابرة غيبيَّة مدروسة. إنَّه يستحضر الشَّوارع العتيقة المُكتظَّةً بالآخرين، الشَّوارع ذاتها التي هي مختلفة اليوم فقط؛ إنَّهم الموتى يحدِّثونني عن غيابهم عبر جدران شفَّافة؛ وإنَّها مشاعر النَّدم على ما فعلته أو لم أفعله بَعْدُ، وجيَشانُ الجداول في اللَّيل، والجُلَبُ المتعالية أسفل الدَّرج في البيت الهادئ.

أشعرُ كأنَّني أصرخُ في رأسي. أُريد لهذا الغامض الذي يعذِّبني أن يتوقَّف، أريدُ أن أسحقَهُ، وأن أشقَّهُ نصفَيْن؛ ذلك التَّسجيل المستحيل الذي يدور في رأسي، في منزل شخص آخَر. أُريدُ أنْ آمرَ روحي بأنْ تتوقَّف، فأترجَّل، ثُمَّ تمضي من دوني. يجنُّ جنوني حين أسمع ذلك الصَّوت. فتلك النَّغمات، في النِّهاية، هي أنا -بمزاجي المُفرط في حساسيته، وجلدي المُقشعرِّ، وأعصابي التي على وشك أن تنفجر- أعزفُ نغمات السُّلَّم الموسيقيِّ على بيانو ذاكرتي الجوَّانيِّ الفظيع.

بَيْدَ أنَّ تلك النَّغمات لا تكفُّ عن العزف والعزف، مرَّات ومرَّات، كما لو كانتْ تُعزَفُ داخل جزء من دماغي أعلن استقلالَهُ عنِّي، صاعدةً إليَّ من الأسفل، وهابطةً عليَّ من الأعلى، منبعثةً من ذلك المنزل الذي كان أوَّل بيت لي في لشبونة.

339 (319)

[16 ديسمبر 1931]

يقولون إنَّ الرَّجل الذي نُسمِّيه صبيَّ المكتب قد غادر إلى قريته اليومَ بلا رجعةٍ؛ الرَّجلَ

(319) يحوي ظهر الورقة التي رقن عليها پسُوَّا هذه الشَّذرة، بحبر أزرق، على الآلة الكاتبة، قصيدةً خطَّها بقلم رصاص ثمَّ شطَّب عليها. القصيدة تعود إلى شهر ديسمبر 1931، ومنسوبة إلى نِدِّه ريكاردو خَايِشْ، مطلعها: «إذا كان ثمَّة إلهٌ/ يتنافس على كلِّ شيء/ فلماذا لا يكون ثمَّة إلهٌ منِّي / Se a cada coisa que ha / um deus compete / Porque não haverá de mim um {D} /de\us». أورد پيسارُّو هذه القصيدة ضمن ملحق خاصٍّ في نهاية طبعته (2010: 899). (المترجم)

ذاته الذي كنتُ أعدُّه جزءاً من هذه الشَّركة البشريَّة، ومن ثمَّ فإنَّ جزءاً منِّي ومن عالمي قد رحل. وحين التقَيْنا، صُدفةً، في الرِّواق، من أجل المفاجأة الحتميَّة لوداعنا، ردَّ على عناقيَ بالمِثْل، وقد اعتراه الخَجَل، فاستجمعتُ ما يكفي من ضبط النَّفْس كي لا أبكي، كما لو أنَّ ذلك كان، في أعماق قلبي دون أن يأذن، ما رغبتْ فيه عيناي المتحرِّقتان شوقاً إلى البكاء.

فكلُّ شيء كان لنا، لأنَّه قد كان لنا ذات مرَّة، ليس إلَّا. وحتَّى تلك الأشياء التي عشنا معها صُدفةً، أو كُنَّا نراها بصورة يوميَّة، تغدو جزءاً مِنَّا. لم يكُن صبيُّ المكتب هُوَ من غادر اليومَ إلى مكان في جِلِّيْقِيَّةَ[320] لا أعرفه، وإنَّما جزءٌ من جوهر حياتي؛ جزءٌ حيويٌّ، لأنَّه إنسانيٌّ ومنظورٌ. ولقد تضاءلتُ اليوم، ولم أعُد نَفْسي ثانيةً تماماً. فصبيُّ المكتب قد غادر اليوم.

كلُّ شيء يحدث في العالَم الذي نعيش فيه يحدثُ فِيْنَا. وكلُّ شيء لا يكفُّ عن الوجود في العالَم الذي نراه من حولنا، لا يكفُّ عن الوجود فِيْنَا. وكلُّ شيء كان، على افتراض أنَّنا قد لاحظنا وجودَه حين كان هُنَاك، ينشقُّ عنَّا حين يرحلُ. ولقد غادر صبيُّ المكتب اليوم.

وحين أجلسُ إلى المكتب العالي، عائداً إلى حسابات الأمس، أشعرُ أنَّني أثقلُ، وأكبرُ في السِّنِّ، وإرادتي أضعف. ولكنَّ تراجيديا اليوم الغامضة تقطعُ ما لا بُدَّ أنَّها السَّيرورة الآليَّةُ لتدوين الحسابات بتأمُّلات لا بُدَّ أن أُجاهِدَ كي أردعها. والطَّريقة الوحيدة التي يطاوعني قلبي فيها على العمل هو أن أجعلني، عبر حالة من الخمول النَّشِط، عبداً لِنَفْسي. لقد غادر اليومَ صبيُّ المكتب.

نعم، غداً أو في يوم آخَر أو حينما يُقرَعُ الجرسُ الصَّامت للموت أو الرَّحيل مِن أجلي، سيكون أنا مَن لن يعودَ موجوداً هُنَا، كُرَّاسةً عتيقة لا بُدَّ أن تُرتَّبَ بعيداً في الخزانة الصَّغيرة التي تحت الدَّرَج. نعم، غداً، أو حينما يُقدِّرُ القَدَرُ الموتَ على الذي من المفترض أنَّهُ قد كانَ أنا. هل سأعود إلى مسقط رأسي في القرية؟ مَن يعرف إلى أين سأذهب. تغدو تراجيديا اليوم مرئيَّةً بالغياب ومحسوسةً لأنَّها لا تكاد تستحقُّ أن يُشعَرَ بها. آهٍ، ولكنَّ صبيَّ المكتب غادر اليوم.

---

(320) الاسم الذي أطلقه العرب على «غاليثيا Galicia» في شمال غرب إسبانيا. (المترجم)

340

[20 ديسمبر 1931]

أكادُ أقتنع في هذه اللَّحظة بأنَّني لستُ مستيقظاً حَقاً. ولستُ متأكِّداً إنْ كنتُ أحلمُ حين أعيشُ، أو لا أعيشُ حين أحلمُ، أو إنْ كان الحلم والعَيْش يمتزجان فيتشابكان فِـيَّ وخارج ذلك التَّداخُل الذي شكَّل كينونتي الواعية.

وحين أرى نَفْسي، أحياناً في خضمِّ حياتي النَّشِطة تماماً، واضحةً جليَّةً كأيِّ شخص آخَر، ينتابُ مخيِّلتي شعورٌ غريبٌ من الرِّيبة؛ فلا أعرف إنْ كنتُ موجوداً. يُخيَّل إليَّ أنَّني قد أكون حلم شخص آخر؛ الفكرة تخطر ببالي، بواقعيَّة تكاد تكون شهوانيَّة، أنَّني قد أكون شخصيَّة في إحدى الرِّوايات، أتحرَّك عبر الأمواج المديدة للأسلوب الأدبيِّ لشخص آخَر، عبر الحقيقة التي ابتدعها سردٌ عظيم.

ولقد لاحظتُ دائماً أنَّ بعض الشُّخوص في الرِّوايات تكتسب أهميَّة لدينا لن يكتسبها أبداً معارفنا وأصدقاؤنا الذين نتحدث معهم وننصت إليهم في العالم المرئيِّ الحَقِّ. تُثير هذه الفكرة السُّؤالَ المتعلِّق بالحُلم: هل كلُّ شيء في العالم برمَّته مجرَّد سلسلة من الأحلام والرِّوايات المتشابكة مثل صناديق صغيرة موضوعة على نحو مناسب في صناديق كبيرة -الواحد في الآخر- حكايات داخل حكاية، مثل **ألف ليلة وليلة**، تنتشرُ على نحو باطل في العتمة الأبديَّة؟

إذا فكَّرتُ، يبدو كلُّ شيء عبثيّاً بالنِّسبة إليَّ؛ وإذا شعرتُ، يبدو كلُّ شيء غريباً؛ وإذا رغبتُ، فإنَّ الشَّيءَ الذي أرغبُ فيه شيءٌ في نَفْسي. وأُدركُ، كلَّما حدث شيءٌ فِـيَّ، أنَّني لستُ الذي حدث لَهُ ذلك الشَّيء. وإذا حلمتُ، أشعر كأنَّ شخصاً كان يكتُبُنِي؛ وإذا شعرتُ، فإنَّني أشعرُ كأنَّ شخصاً كان يرسُمُنِي. وأشعرُ، إذا رغبتُ في شيء، كأنَّني قد وُضِعْتُ في عربةٍ، مثل بضاعةٍ لا بُدَّ أن تُنقَل، فأتركُ نَفْسي بكلِّ بساطة كي تُحمَل على طول الطَّريق، تهزُّها حركةٌ من الواضح أنَّها حركتي، حتَّى نصل إلى مكان لم أعرف أنَّني قد رغبتُ في الذَّهاب إليه حتَّى بعد أن وصلتُ.

كم هُوَ مثيرٌ للحيرة كلُّ شيءٍ! والرُّؤية تتفوَّقُ على التَّفكير، تفوُّقاً شديداً، والقراءةُ تتفوَّق على الكتابة، تفوُّقاً شديداً! قد يخدعني ما أرى، ولكنَّني لا أُفكِّرُ البتَّة، على الأقلِّ، بأنَّه لي.

وقد يغمُّني ما أقرأُ، ولكنَّني لا أنزعجُ على الأقلِّ من فكرة أنَّني قد كتبتُه. وكم هُوَ مؤلمٌ كلُّ شيء حين نُفكِّرُ فيه واعينَ بأنَّنا قد فكَّرنا فيه، مثل مخلوقات روحانيَّة مرَّت بالتطوُّر الثَّاني للوعي الذي نعرف من خلاله أنَّنا نعرفُ. ولا أستطيع إلَّا أن أُفكِّر على هذه الشَّاكلة، مهما كان النَّهار جميلاً... أنْ أُفكِّر أو أشعر، أمْ ثمَّةَ احتماليَّةٌ ثالثة بين ديكورات المشاهد التي نُحِّيَتْ إلى طرف خشبة المسرح؟ مشاعرُ السَّأم التي أثارها الشَّفقُ والإهمال، مراوح يدويَّة مُطبَقة، والتَّعب النَّاجم عن ضرورة العَيْش...

341

[1931؟]

كيف يمكنُ لحُبِّ امرأة أرضيَّةٍ ألَّا يكون مُجرَّد حلم، بالنِّسبة إلى شخص اغتصب پيرسفوني، على شاكلة دِيْس[321]، حتَّى ولو في الأحلام؟

لكنَّني أحببتُ أنتيغوني، على شاكلة شيلي[322]، قبل أن يكون الوقت[323]: كنتُ ألتذُّ دائماً، في كلِّ حُبٍّ عابرٍ، بذكرى ما قد ضيَّعتُ.

342

[1931؟]

... حساسيتي المُفرِطة، سواء تجاه الأحاسيس المثيرة أو تجاه التَّعبير عن تلك الأحاسيس فحسب، أو، بالأحرى، تجاه البصيرة التي تُوجَد بينهما، والتي تنبع من نيَّتي في التَّعبير عن الإحساس المثير المُفتَعل الذي لا يُوجَد إلَّا كي يُعبَّر عنهُ. (ربَّما هذا فِيَّ مُجرَّد الآليَّة التي هدفُها الوحيد الكشفُ عمَّن لستُ أنا [هُوَ]).

---

(321) Dis: إله العالم السفلي عند الرُّومان. (المترجم)

(322) الشاعر الإنكليزي پيرسي بِشّ شيلي Shelly. (المترجم)

(323) يشير زينيث في حواشي طبعته إلى أنَّ عبارة بِسُوًّا هذه إشارة إلى تلك العبارة التي وردت في الرِّسالة التي بعثها شيلي من پيزا إلى جون غيسبورن، في 22 أكتوبر 1821، قائلاً: «أنتَ مُحقٌّ بخصوص أنتيغوني؛ يا لجمال صورة تلك المرأة الخلَّاب! (...) ولا بُدَّ أنَّ بعضنا قد أحبَّ أنتيغوني، في وجودٍ سابق، ولهذا لا نعثر على الجوهر الذي يرضينا، تمامَ الرِّضا، في أيِّ علاقة فانية». (المترجم)

343 (324)

[1931؟]

السَّيِّد **ڤاسْكِش**. غالباً ما أجد نَفْسي مفتونةً بالسَّيِّد **ڤاسْكِش**. فما الذي يُمثِّله لي هذا الرَّجل، باستثناء الانزعاج العابر الذي يفرضه لكونه سيِّد وقتي، سيِّد ساعات النَّهار من حياتي؟ لكنَّهُ يُحسِن معاملتي، ويتكلَّم معي دائماً بمودَّة كافية إلَّا في تلك المناسبات الغريبة، التي يغدو فيها فظّاً، بسبب قلق يساوره لأمر شخصيٍّ، بيد أنه يغدو فظاً مع الجميع حينئذ. لماذا أُفكِّر فيه كثيراً؟ هل هُوَ قدوةٌ؟ قوَّة مُحفِّزة؟ ما الذي يعنيه بالنِّسبة إليَّ؟

السَّيِّد **ڤاسْكِش**. أتذكَّره في هذه اللَّحظة، مثلما سوف أتذكَّره في المستقبل، بالحنين الذي أعرف أنَّني سوف أشعر به تجاهَهُ في ذلك الحِين. سأكون على قيد الحياة، أَرْفَلُ في الهدوء بمنزل صغير في مكان بالضَّواحي، مستمتعاً بوجودٍ تغشاه السَّكينة، ولا أكتبُ الكتاب الذي أكتبُه في هذه الأثناء، مُختلقاً الأعذار المختلفة، كي لا أستمرَّ في كتابته، على شاكلة الأعذار التي أختلقها في هذه اللَّحظة كي أتفادى مواجهة نَفْسي حقاً. أو ربَّما سأعيش في تَكِيَّةٍ، قانعاً بإخفاقي المُطلَق، أُعاشرُ حثالةَ البشر الذين آمنوا بأنَّهم عباقرة في حين كانوا حقيقةً مجرَّد شحَّاذينَ ذوي أحلام، أختلطُ بالعامَّة المجهولين الذين لا يملكون القوَّة التي تمكِّنهم من تحقيق الانتصار، ولا القوَّة التي تمكِّنهم من تحويل هزائمهم إلى انتصارات. سأفكِّرُ، حيثما أكونُ، يغمرني الحنينُ تجاه السَّيِّد **ڤاسْكِش**، ربِّ عملي، ومكتب الشركة في **خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِش**، وسوف تكون رتابة حياتي اليوميَّة، بالنِّسبة إليَّ، كأنَّها ذكرى علاقاتٍ غراميَّة لم أَخُضْهَا قَطُّ وانتصاراتٍ لم تكُن لي في يوم من الأيَّام.

---

(324) لاحظتُ أنَّ الطبعات البرتغالية الرَّئيسة قد نشرت هذا النَّصَّ بوصفه شذرتَيْن منفصلتَيْن، إلَّا في طبعة ريتا لُوپِس، وفي طبعة پيسارُّو، هذه، التي تنقل جول كوستا عنها، فقد جاءتْ نصاً واحداً متواصلاً. ولعلَّ ذلك عائدٌ، من وجهي نظري، إلى أنَّ پِسُوَّا قد كتب في مفتتح الورقة الثانية، التي تبدأ بعبارة «آهٍ، إنِّني أفهمُ الآن! فالسَّيِّد **ڤاسْكِش هُوَ الحياة**»، العبارةَ التَّالية: «L. do D.) continuação)»، التي تعني: «**كتاب القلَق** (تتمَّةٌ)»، فعدَّها بعضهم جزءاً من «كتاب القلَق»، بصفة مطلَقة، وأدرجَها شذرةً مستقلَّة بذاتها؛ في حين ذهب پيسارُّو إلى أنَّها تتمَّة للشَّذرة التي قبلها. ولاحظتُ، أيضاً، أنَّ هذه الطبعات، لم تختلف في «القراءة» فحسب، وإنَّما اختلفَتْ أيضاً في طريقة التَّرتيب؛ ففي حين نرى الشَّذرتَيْن في طبعة زينيث بعضهما وراء بعض (المقطع 8 و9)، نرى في طبعة برادو كويلو أنَّ الشَّذرة الأولى هي المقطع 91، والشَّذرة الثَّانية هي المقطع 155؛ وجاءت الأولى، في طبعة سوبراو كونيا، المقطع رقم 412، والثانية المقطع 415. (المترجم)

السّيّد ڤاسكِش. أراهُ من ذلك المنظور المستقبليّ واضحاً وضوحَ الرّؤية التي أراه بها اليومَ هُنا: مربوعاً، وبدينًا، أجشّ الصّوت، يعرف حدود مشاعره جيّداً، صريحاً وماكراً، فظاً ورقيقَ الحاشية. وليس المال وحده هو ما يُميّزه كربِّ عمل، وإنّما يمكن رؤية ذلك في يديه البطيئتَيْن، المُشعّرتَيْن، اللّتَيْن تتميّزان بعروق نافرة تشبه عضلات صغيرة ملوّنة، وعنقه القويّة التي ليستْ غليظة جداً، ووجنتيه الورديّتَيْن المشدودتَيْن فوق لحيته الدّاكنة المُشذّبة بعناية فائقة. أراه، فأرى الإيماءات المتعمّدة المفعمة بالحيويّة، وأرى عينيه اللّتَيْن تعكسان من الأعماق أفكارهُ حول العالَم الخارجي. أنزعجُ إذا ضايقتُه وتطير روحي من شدّة الفرح حين أرى ابتسامتَهُ، تلك الابتسامة الإنسانيّة العريضة، التي تشعُّ دفئاً ومودّةً كأنّها تصفيقُ حشدٍ كبير.

ولعلّ السّبب الذي يدفع الصّورة العاديّة اليوميّة لشخصيّة السّيّد ڤاسكِش إلى أن تشوّش بصيرتي وتُشتّتني عن نفسي عائدٌ بكل بساطة إلى أنّه الشخص الوحيد الذي يتمتّع بأهمّيّة كبيرة في حياتي. أظنّ أنّ ثمّة رمزيّةً في هذا كلّه. أومن، أو أكادُ، بأنّ هذا الرّجل قد كان بالنّسبة إليّ –في حياة بعيدةٍ في مكان ما– شيئاً أكثر من مجرّد ما هُوَ عليه اليوم.

آهِ، إنّني أفهمُ الآن! فالسّيّد ڤاسكِش هُوَ الحياة؛ الحياة، الرّتيبة والضّروريّة، المُهيمنة والمجهولة. فهذا الرّجل المتبذّل يمثّلُ ابتذالَ الحياة. فهو على السطح كلُّ شيء بالنّسبة إليّ، مثلما هي الحياة، على السّطح، كلُّ شيء بالنّسبة إليّ.

وإذا كان المكتب الواقع في رُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِش يمثّلُ الحياةَ بالنّسبة إليّ، فإنّ الشقّة الواقعة في الطابق الرّابع[325]، حيث أعيشُ، في ذلك الشّارع ذاته، تُمثّلُ الفنّ بالنّسبة إليّ. نعم، الفنّ، العيش في الشّارع ذاته، على شاكلة الحياة، ولكن في غرفة مختلفة؛ الفنّ، الذي يُريح من الحياة دونَ أن يُريح المرءَ من العيش في حدّ ذاته، الذي هُوَ رتيبٌ رتابةَ الحياة نَفْسِها، ولكنْ بطريقةٍ مختلفة. نعم، تنطوي رُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِش، بالنّسبة إليّ، على جميع المعاني التي تنطوي عليها الأشياءُ جميعاً، وعلى الإجابة التي تكشف الأسرار جميعاً، إلّا وجودَ الأسرار في حدّ ذاتها، الذي لا يُمكن الإجابة عنه البتّة.

(325) يُشير زينيث في حواشي طبعته إلى أنّ هذه العبارة وردت في الأصل عند پِسْوّا «الطّابق الثّاني» (este meu Segundo andar)، مشيراً إلى أنّها قد تكون زلّة من لدن پِسْوّا، إذ تشيرُ جميع الإحالات التي في كتاب القلق إلى أنّ الشقّة التي يعيش فيها سوارِش هي في الطابق الرّابع وليستْ في الطّابق الثّاني. (المترجم)

[1931؟]

لا شـيءَ يدهشني أكثرَ مـن الغبـاء، الذي يعيش بـه معظـم البشر حيواتِهم، إلَّا الفطنـة المتوارثة في ذلك الغباء.

فرتابةُ الحيوات اليوميّة، بالنِّسبة إلى جميع المظاهر، مرعبةٌ. أتناول طعام الغداء في هذا المطعم العاديِّ وأنظر إلى الطَّاهي خلف المنضدة وإلى النَّادل العجوز الواقف بجواره، الذي يقوم على خدمتي بالشَّاكلة التي أظنُّ أنَّه قام بها على خدمة أشخاص آخرين، هُنَا، غيري، طيلة الثَّلاثين سنة الماضية. فما شكل حياتَي هذَيْن الرَّجلَيْن؟ لم يأخذ الطَّاهي إلَّا بضع إجازاتٍ، طيلة الأربعين سنة التي قضى معظم أيَّامها في المطبخ؛ فهو لا ينام إلَّا قليلاً؛ ويعود أحياناً إلى قريته حين يعود بلا تردُّد ولا ندم؛ يدَّخرُ، شيئاً فشيئاً الأموال التي يكسبها، والتي لا ينوي إنفاقَها؛ سيمرض لو اضطرَّ إلى مغادرة مطبخه (إلى الأبد) ذاهباً إلى الأرض التي اشتراها في **جلِّيقيَّة**؛ لقد عاش في **لشبونة** أربعينَ سنة، حتَّى إنَّه لم يذهب إلى **دُوَّار الميدان**[326] البتَّة، ولا إلى المسرح، لكنَّه ذهب مرَّة إلى **المُدرَّج الرُّوماني**[327] (الذي مازال مهرِّجوه يعيشون في التَّلافيف الجوَّانيَّة لحياته). ولقد تزوَّج، لا أعرفُ كيف أو لماذا، وأنجب أربعة أبناء وابنة واحدة، وحين كان ينحني من فوق المنضدة صوب طاولتي، تشعُّ ابتسامتُه سعادةً هائلة وقنوعة وطافحة بالسَّكينة. هُوَ لا يتظاهر، ولا سبب لديه يدفعه إلى ذلك. وإنْ بدا سعيداً، فذاك لأنَّهُ كذلك حقاً.

وماذا عن النَّادل العجوز القائم على خدمتي الذي وضع في الحال، ربَّما للمرَّة المليون في حياته المهنيَّة، فنجان قهوة على طاولتي؟ لا تختلف حياته عن حياة الطَّاهي إلَّا في الياردات الأربع أو الخمس التي تفصل المطبخ، حيث يعمل الطَّاهي، عن غرفة تقديم الطَّعام للزَّبائن حيث يعمل هُوَ. ولكنَّه قانعٌ بحياته قناعةَ الطَّاهي تماماً، بعيداً عن الفروقات الثَّانويَّة الأخرى، كمثل أنَّه قد أنجب ولدَيْن وليس خمسة، ويقوم بزيارات أكثر إلى **جلِّيقيَّة**، ويعرف لشبونة أكثر ممَّا يعرفها الطَّاهي (وكذلك أُوْپُوْرْتُوْ، حيث عاش أربعةَ أعوام).

(326) Rotunda: إشارة إلى «دُوَّار ميدان الماركيز پومبال Praça do Marquês de Pombal»، وهو دوَّار كبير في وسط لشبونة. (المترجم)

(327) Coliseu: المُدرَّج الرُّوماني أو الكولوسيوم. (المترجم)

أنظرُ ثانيةً، ينتابني رعب حقيقيٌّ، إلى الصُّورة الشَّاملة لتَيْنيك الحياتَيْن، فأكتشف، حين كانت على وشك أن تنتابني مشاعر الرُّعب والحزن والاشمئزاز تجاههما، أنَّ البشر الذين لا يشعرون بتاتاً بأيِّ رعب أو حزن أو اشمئزاز هُم ذاتهم الذين لهم الحقُّ في ذلك، أولئك الذين يعيشون مثل تلك الحيوات. وهذا هو الخطأ المركزيُّ الذي وقعت فيه المخيِّلة الأدبيَّة: فكرة أنَّ الآخرين هُم مثلنا ولا بُدَّ لذلك أن يشعروا مثلنا. بَيْدَ أنَّه من حسن حظِّ البشريَّة أن يكون كلُّ إنسانٍ نَفْسَهُ وحسب، فلا يُمنح القُدرةَ على أن يكون الآخَر أيضاً إلَّا العبقري.

وفي النِّهاية، كلُّ شيءٍ نسبيٌّ. فحادثة صغيرة في الشَّارع، تجعل الطَّاهي يخرج إلى باب المطعم، تجلب إليه متعةً أكثر من أيِّ متعةٍ قد أحصل عليها من التَّأمُّل في أشدِّ الأفكار أصالةً، أو من قراءة أفضل الكتب أو المتعة التي تجلبها إليَّ أعذب الأحلام العبثيَّة. فإنْ كانت الحياة رتيبة بالضَّرورة، فالحقيقة هي أنَّه قد تملَّص من تلك الرَّتابة أفضلَ منِّي وعلى نحوٍ أسهل. لم نَعُد نملك الحقيقةَ، لا أنا ولا هُوَ، فالحقيقةُ ليستْ مُلكَ أحد؛ لكنَّه يمتلك السَّعادة.

يجعل الإنسانُ الحكيم حياتَـهُ رتيبةً، حتَّى تبدو أصغر الحوادث حينئذٍ شيئاً بديعاً. فصائدُ الأسود، بعد أن اصطاد الأسد الثَّالث، فقدَ اهتمامَهُ بمغامرة الصَّيد. أمَّا بالنِّسبة إلى الطَّاهي الرَّتيب في المطعم الذي أتردَّدُ إليه، فثمَّة شيءٌ نُبوئيٌّ على نحو متواضع في كلِّ شجار يشهده في الشَّوارع. فركوب الترام إلى بَيفيكا، بالنسبة إلى شخص لم يغادر برشلونة البتَّة، أشبه ما يكون برحلة إلى اللَّانهاية، وإن صدف وقام بزيارة إلى **شنْترا**[328]، ذات يوم، فسوف يشعر أنَّه ذهب في رحلة إلى المرِّيخ. ولكنَّ الرحَّالة الذي جاب المعمورة لا يستطيع أن يجد شيئاً جديداً، في نطاق خمسة آلاف ميل من حوله، لأنَّه يرى دائماً أشياء جديدة؛ فثمَّة جِدَّةٌ وثمَّةَ ضَجَرُ الجديدِ الأبديِّ، والثَّاني يتسبَّبُ في موت الأوَّل.

ويستطيع الحكيم الحَقُّ التمتُّعَ بمشهديَّة العالَم كلِّها وهُوَ جالسٌ في كرسيِّه؛ لا يحتاج إلى أن يُكلِّمَ أحداً، أو أن يعرف كيف يقرأ، وإنَّما أن يعرف كيف يستفيد من حواسِّه الخمس وأن تكون لديه روحٌ بريئةٌ من الحُزن.

لا بُدَّ للمرء أن يجعل الوجودَ رتيباً كي يخلِّصهُ من الرَّتابة. ولا بُدَّ أن يجعلَ اليوميَّ مُسكِّنَ آلامٍ إلى حدٍّ بعيد حتَّى تغدو أدنى حادثةٍ ممتعة. ففي غمرة عملي اليوميِّ، المُمِّل والمُكرَّر

(328) Sintra، وتعني حرفياً: النَّجمة السَّاطعة؛ بلدةٌ عتيقة في شِمال غرب لشبونة. (المترجم)

والعبثيِّ، تغمرني رؤى الهروب من هذا كلِّه، وبقايا أحلام عن جُزُر بعيدة، وحفلات تقام في مماشي الحدائق في حقبة أخرى، ومناظر طبيعيّة مختلفة، ومشاعر مختلفة، وأنا مختلفة. لكنّي أُدرك، بين الميزانيّات العموميّة، أنّني لو ملكتُ ذلك كُلَّهُ، فلن يكون أيّ شيء مِنْهُ لِي. الحقيقةُ أنَّ قَدْرَ السَّيِّد ڤاسْكِش عندي يفوقُ قَدْرَ أيِّ ملكٍ من ملوك أحلامي؛ وأنَّ قيمة مكتب الشركة الواقع في خُوَا دُش دَوْرَادُوْرِش يفوق قيمة كلِّ تلك المماشي العريضة في الحدائق المستحيلة. لو لم يكُنِ السَّيِّدُ ڤاسْكِش ربَّ عملي، لما استطعتُ التمتُّع بتلك الأحلام عن ملوك أحلامي؛ ولو لم يكُن مكتب الشركة في خُوَا دُش دَوْرَادُوْرِش، لما استطعتُ التمتُّع برؤايَ الجوّانيّة عن تلك المناظر الطبيعيّة غير الموجودة. فأيّ شيءٍ سيبقى كي أحلمَ به، لو ملكتُ ملوك أحلامي؟ وما الذي سيبقى من المستحيل، لو ملكتُ تلك المناظر الطبيعيّة المستحيلة؟

فَلأُبَارِكْ بالرَّتابة دائماً، بالتَّشابُه الكئيب للأيّام المتماثلة، بيومي الذي لا يختلفُ عن أمسي، علَّني أستطيع الاستمتاعَ بكلِّ جوارحي بتلك الذُّبابة التي تُشتِّتني وهي تطفو عشوائياً أمام عينيَّ، وبعاصفة الضَّحك التي تهبُّ مدوِّيةً من الشَّارع الذي في مكان ما في الأسفل، وبالإحساس بتلك الحريَّة العميمة حين يغلقُ المكتب أبوابه ليلاً، وبأوقات الفراغ التي لا تنتهي في أيّام إجازتي.

ولأنَّني لا شيء، فإني قادرٌ على أن أتخيَّل نَفْسي أيَّ شيء. بَيْدَ أنَّني لو كنتُ شخصاً ما، لما قدرتُ على فعل ذلك. يستطيعُ المحاسب المساعد أن يتخيَّل نَفْسه إمبراطوراً رومانيّاً؛ ولكنَّ ملك إنكلترا لا يستطيع أن يفعل ذلك، فملك إنكلترا فقد القدرة في أحلامه على أن يكون ملكاً آخر غيرَ الملك الذي هُوَ إياه. حقيقته الواقعيَّة تمنعه من الوجود.

345

[1931؟]

يعتملُ فِـيَّ، بين الفينة والأخرى، شيءٌ لا يأتي حين يأتي إلَّا بغتةً في غالب الأحيان، فيطغى سأمٌ رهيبٌ على المشاعر الأخرى كلِّها، سأمٌ بأشدِّ ما يكون السَّأمُ حتَّى إنَّه يستعصي عليَّ فلا أُشفَى منه. يبدو الانتحارُ غير أكيد إلى حدٍّ بعيد، وحتَّى لو افترض المرءُ أنَّ الموت يضمن النِّسيانَ، فلا يعدو أن يكون ذلك بلا معنى. وما يطمح إليه هذا السَّأمُ لا أن تكفَّ

بكلِّ بساطة عن الوجود -الذي قد يكون مستحيلاً أو لا يكونُ- وإنَّما يرغب، على نحو أشدَّ رعباً وأعمق، في ألَّا تكون قد وُجِدْتَ البتَّة، وهذا بالطَّبع ليس ممكناً.

ولقد عثرتُ على بعض التَّلميحات العابرة لشيء مماثل لهذا الطُّموح (الذي يبزُّ في سلبيَّته الخواءَ نَفْسَهُ) في تخمينات الهنود التي غالباً ما تكون مُشوَّشة. ولكنَّهم إمَّا يفتقرون إلى حدَّة الشُّعور التي تمكِّنهم من تفسير ما يفكِّرون فيه، وإمَّا يفتقرون إلى مَضاء الفِكر الذي يمكِّنهم من الشُّعور بما يشعرون به. ولكنَّ الذي ألمحه فيهم لا أستطيع رؤيته في الحقيقة. والأهمُّ من ذلك كلِّه هُوَ إيماني بأنَّني أوَّلُ من عبَّر بالكلمات عن العبثيَّة الشِّرِّيرة لهذا الشُّعور المُزمِن.

لكنَّني أتعوَّذُ من شَرِّهِ بالكتابة عنهُ. فلا يُوجَد بلاء مُزمِنٌ حَقاً لا ينقاد للاستشفاء المُتهكِّم الماثل في الكتابة عنه، شريطة أن يكون نابعاً من الفِكر لا مجرَّد عاطفة محضة. وقد يكون هذا الشَّيء، بالنِّسبة إلى القلَّة، أحد استخدامات الأدب، على افتراض أنْ ليس لَهُ أيُّ استخدام آخَر.

فمعاناة العقل، لسوء الحظِّ، أقلُّ إيلاماً من معاناة العواطف، وإنَّ معاناة العواطف، لسوء الحظِّ مرَّة أخرى، أقلُّ إيلاماً من معاناة الجسد. أقول «لسوء الحظِّ» لأنَّ كرامة البشر تتطلَّب بالطَّبع نقيض ذلك. فلا إحساسَ مُعذِّباً بسرِّ الحياة يؤلم كالحُبِّ أو الغيرة أو الشَّوق، فهو يخنقُ كما يخنقُ الخوف الجسديُّ الشَّديدُ أو يُبدِّلُ الأحوالَ كالغضب أو الطُّموح. بَيْدَ أنَّ الآلام التي تُمزِّقُ الرُّوح لا يمكن أن تكون آلاماً حقيقيَّة كمثل ألم الأسنان أو ألم المَغص أو (أتخيَّلُ) ألم الولادة...

لقد جُبلنا على أنَّ البصيرة التي تسمو بعواطف أو أحاسيس معيَّنة، وتعلو بها فوق العواطف والأحاسيس الأخرى، هي أيضاً التي تحطُّ من قَدْرها، حين تبدأ في عقد مقارنات بينها.

أكتبُ كَمَن ينامُ، وليستْ حياتي كلُّها إلَّا كمثل إيصالِ استلامٍ في انتظار التَّوقيع.

يصيحُ الدِّيكُ بترانيم الحُريَّة، من داخل قِنِّ الدَّجاج، حتَّى يحين الوقت الذي سوف يذهب فيه إلى الذَّبح، لأنَّهم قد منحوه مجثمَيْن لَهُ وحَده.

346

[1931؟]

أودُّ أن أكون في الرِّيف كي أستمتعَ بوجوديَ في المدينة، لا أكثر. فلطالما أستمتعُ بوجوديَ في المدينة، ولكنَّ متعتي سوف تتضاعف حين أكونُ في الرِّيف.

347

[1931؟]

التَّجربةُ المباشرة هي حيلةُ أولئك الذين يفتقرون إلى المخيِّلة، والمكان الذي يختبئون فيه. فحين أقرأُ عن المخاطر التي تكبَّدها صيَّادُ نمور، أُجابِهُ جميع المخاطر التي تستحقُّ المجابهة، إلَّا المخاطرة نَفْسَها، التي لم تكُن جديرةً إلَّا بالقيل حتَّى إنَّها قد سقطتْ من الوجود.

لا يدري أصحابُ الأفعال بأنَّهم عبيدُ المفكِّرين. فالأشياء لا تكتسبُ قيمَتها إلَّا حين تُفسَّر. ويصنعُ بعض النَّاس حينئذ أشياء كي يجعلها الآخرون، حين يُسبغون عليها المعنى، نابضةً بالحياة. فأنْ تحكي هُوَ أنْ تُبدِع، أما العيشُ فهو مجرَّد أن تعيش.

348

[1931؟]

تبدو حتَّى المدينة التي تُبرِّدُ آلامنا، في هذا اليوم المشرق، كأنَّها الذَّهب الإبريز. ثمَّة رقَّةٌ تحفُّ بكلِّ شيء يحدثُ. فلو قِيلَ لي إنَّ الحرب قد اندلعَتْ، لأنكرتُ ذلك. فلا شيء، في يوم كهذا اليوم، يمكن أن يكدِّر صَفْوَ الرِّقَّة التي تتفشَّى في كلِّ شيء.

349

[1931؟]

... العالَمُ، كومةُ روثٍ من دوافع غريزيَّة تكادُ تلمعُ، في أعمدة ضوء الشَّمس، ذهباً باهتاً وذهباً داكناً.

ليستِ الأوبئة والعواصف والحروبُ، بقدر ما أستطيع أن أرى، إلَّا نتائجَ القوَّة العمياء

ذاتها، التي تصنعُ شرورَها أحياناً عبر جراثيمَ غير واعية، وعبر صواعق برقٍ وفيضانات غير واعية بين تارة وأخرى، وعبر بشر غير واعيين في أحايين أخرى. لا أرى فارقاً بين هزَّة أرضيَّة ومجزرة، إلَّا إنْ كُنَّا نرى فارقاً بين أن يُذبَح المرءُ بالسِّكِّين أو الخنجر. ولسوف ينتشر الوحش الكامنُ في الأشياء كلِّها على الأرجح -ولا يبدو أنَّ الوحش يكترث، سواء أكان ذلك يصبُّ في مصلحته أم يسبِّب لَهُ الضَّرر- فلا فرقَ بتاتاً بين سقوط جلمود صخر من مكان مرتفع وبين أن يمتلئ قلبٌ فجأةً بالغيرة أو الجشع. الجلمود يسقط فيقتل واحداً من البشر؛ والجشع أو الغيرة تضع سلاحاً في يد شخص ما، واليدُ تقتل واحداً من البشر. هكذا هُوَ العالَم، كومةُ روثٍ من دوافع غريزيَّة تكادُ تلمعُ، في أعمدة ضوء الشَّمس، ذهباً باهتاً أو ذهباً داكناً.

أدرك المتصوِّفةُ أنَّ الزُّهد كان الطريقة الفُضلَى لمواجهة وحشيَّة اللَّامبالاة التي تُكوِّن أُسَّ الأشياء المرئيَّ. إنه إنكارُ العالَم والابتعاد عنهُ ابتعادَ المرءِ عن شاطئ بحيرة. أن نفعل مثلما فعل بوذا فننكرَ حقيقتَهُ الواقعيَّة المُطلَقة؛ وأن نفعل مثلما فعل المسيح فننكرَ حقيقتَهُ الواقعيَّة النِّسبيَّة أيضاً؛ أن نُنكر [...]

كلُّ ما طلبتُهُ من الحياة كان لأجل ألَّا تسألني الحياةُ شيئاً. لقد جلستُ على عتبة الكوخ الذي لم أملكه قطُّ، في الشَّمس التي لم تشرق قطُّ، مستمتعاً بالكهولة المستقبليَّة لحقيقتي الواقعيَّة المُتعبَة (متمتِّعاً بلذَّة أنَّني لم أصل إلى الكهولة بَعْدُ). يكفي فقراء الحياة المساكين أنَّهم لم يموتوا بَعْدُ، وأنَّهم مازالوا قادرينَ على الأمل [...]

350

[1931؟]

نحن الموتُ. وهذا الشَّيءُ الذي نظنُّهُ الحياةَ هُوَ نومةُ الحياةِ الحَقَّة، ليس إلَّا، ومِيتةُ ما نحنُ عليه حقاً. فالموتى يُولَدون، إنَّهم لا يموتون. لقد تبادل العالَمان أماكنَهُما. فحين نُفكِّرُ في أنَّنا على قَيْدِ الحياةِ، نكونُ على قَيْد المماتِ؛ فَلْنَعِشْ ونحنُ نموتُ.

العلاقةُ بين النَّوم والحياة هي ذاتها العلاقةُ بين ما نُسمِّيها الحياة وما نُسمِّيه الموتَ. نحن نيامٌ، وهذه الحياة حلمٌ، لا بالمعنى المجازيِّ أو الشِّعريِّ، وإنَّما بالمعنى الحقيقيِّ تماماً.

كلُّ النَّشاطات التي نعدُّها مشاركةً متفوِّقة في الموت، هي الموتُ. أليس المَثَلُ الأعلى إقرارٌ بأنَّ الحياة ليستْ جيِّدة بما يكفي؟ أليس الفنُّ إنكاراً للحياة؟ فالتِّمثال جسدٌ ميِّتٌ نُحِتَ كي يُصلِحَ الموتَ في مادَّةٍ لا تَفسَد. وحتَّى اللّذَّةُ، التي تبدو أنَّها انغماسٌ في الحياة، هي بالأحرى انغماسٌ في أنْفُسِنا، وتدمير للعلاقة التي بَيْنَنا وبين الحياة، ظلٌّ متحرِّكٌ للموت.

والعيشُ في حدِّ ذاته موتٌ، فكلُّ يوم نعيشُهُ يعني أنَّ الذي تبقَّى لنا من الحياة قد نقصَ يوماً.

نقطنُ في الأحلام، إنَّنا ظلالٌ تطوفُ غاباتٍ مستحيلة، حيث الأشجار هي البيوت والعادات والأفكار والمُثُل العليا والفلسفات.

ولن نجدَ الله البتَّة، ولن نعرف البتَّة إن كان الله موجوداً! نعبر من عالَم إلى عالم، ومن تجسُّد إلى تجسُّدٍ، غارقين دائماً في حضن الوهم الذي هُو عزاؤنا الوحيد، يداعبُنا دائماً الإيمانُ الضَّالُّ.

ولن نصل إلى الحقيقة البتَّة، ولن نكفَّ البتَّة! ولن نتَّحدَ مع الله البتَّة! ولن نجدَ السَّكينة التَّامَّةَ البتَّة، وإنَّما تغشانا ذرَّةٌ من سكنيةٍ، فنرغب دائماً في المزيد!

351

[1931؟]

تأخذُ بخناقي، على حين غِرَّةٍ، طبيعةُ العاديِّ الخانقةُ، فأشعرُ بالغثيان يسري في جسدي جرَّاء أصوات بني جِلدتي المزعومين وإيماءاتهم. فالغثيان الحَقُّ، الذي أشعر به في معدتي ورأسي، هو الدَّهشة الحمقاء لحساسيةٍ متحفِّزة... وكلُّ شخص يتكلَّمُ معي، وكلُّ وجه تلتقي عيناه بعينيَّ، يكون له التَّأثير ذاته عليَّ بوصفه إهانة مباشرة أو لغة بذيئة. أفيضُ رُعباً من كلِّ شيء. أدوخُ حين أشعر بِنَفْسي وهي تشعرُ بهذا كلِّه.

وحين أشعر بالغثيان في معدتي على هذه الشَّاكلة، يكادُ يتجلَّى أمامي دائماً رجلٌ، أو امرأةٌ، أو حتَّى طفل، بوصفه تعبيراً عن الابتذال الذي يصيبُني. ليسوا تعبيراً عن أيِّ عاطفة من

عواطفي الذّاتية المُعتبَرة، وإنّما عن حقيقة موضوعيَّة تتوافقُ، في شكلها الخارجي، مع ما أشعر به في دخيلة نَفْسي، والنَّاجم عن بعض سِحرٍ تناظُريٍّ كي يزوِّدني بمثالٍ على القاعدة العموميَّة التي يصدف أنَّني كنتُ أُفكِّر فيها.

352

[1931؟]

تستيقظ سماءُ الصَّيف الشَّاسعة، كلَّ يوم، زرقاءَ مُخضرَّة ثُمَّ سرعان ما تستحيلُ زرقاءَ مشوبةً، في البَدْءِ، برماديٍّ ثُمَّ أبيضَ صامتٍ[329]. لكنَّها كانت، في الغرب، باللَّون الذي اعتاد النَّاس على وصف السَّماء به.

فكم عدد أولئك الذين، وهم يقولون الحقيقة ويحقِّقون ما يصبون إليه وينكرون أنَّ كلَّ شيء وهمٌ، يلجؤون إلى مثل تلك الأشياء والأرض تغورُ تحت أقدامهم وتنزلق بعيداً! وكم عدد تلك الأسماء الذَّائعة الصِّيت التي تُعلَّمُ بأحرف كبيرة، مثل الأماكن الموجودة على الخارطة، التَّصوَّرات ثاقبة النَّظر المقروءة في صفحات رصينة!

كُوزموراما[330] أحداثٍ مستقبليَّة لا يمكن أن تحدث البتَّة! لازَوَرْدُ عواطف متقطِّعة! هل لك أن تتذكَّر كم عدد الذِّكريات التي تحتوي على بعض الافتراضات الواقعيَّة، وكم عدد تلك التي كانت مُجرَّد تخيُّلات؟ ثُمَّ تصعدُ، في هذيان يتخلَّلهُ بعضُ اليقينيَّات، أصواتُ خرير الماء الخفيفةُ والقصيرة، والنَّاعمة، في كلِّ مُتنزَّهٍ، عاطفةً خالصةً من أعماق وعيي بِنَفْسي. لا أحد يجلسُ على الدَّكَكِ العتيقة، والممرَّات الطَّافحة بكآبةِ الشَّوارع الخالية.

اللَّيلُ في هليوپوليس[331]! اللَّيلُ في هليوپوليس! اللَّيلُ في هليوپوليس! فَمَن سينطقُ هذي الكلمات العقيمة ليعوِّضني عن الدَّم والحيرة؟

---

(329) الكلمة التي يستخدمها پِسُوَّا في الأصل هي «mudo» (وفي صنعة جول كوستا: muted): أخرس، صامت، أبكم، مكتوم الصَّوت... إلخ. (المترجم)

(330) Cosmorama: معرض يستخدم العدسات والمرايا لعرض صور مختلفة من العالَم لإظهارها بالشَّكل الفعليِّ الذي تظهر عليه في الحياة. (المترجم)

(331) Heliopolis، وتعني «مدينة الشَّمس»، مدينة في مصر القديمة. (المترجم)

[1931؟]

لا أذكر أُمِّي. ماتت حين كنتُ في السَّنة الأولى من عمري فحسب[332]. إنْ كانت حساسيتي متنافرةٌ، وتعتريها غِلظةٌ، فمردُّ ذلك، في أصل تكوينه، عائدٌ إلى غياب الدِّفء، وإلى الحنين العبثيِّ إلى القُبُلات التي لا أستطيع حتَّى أن أتذكَّرها. أنا مُزيَّفٌ. كنتُ أستيقظُ دائماً على صدور نساء أُخريات، حيثُ لا دفءَ حقيقياً، كأنَّهنَّ يمنحنني الدِّفءَ نيابةً عن أُمِّي.

آهٍ، إنَّه التَّوقُ الحرَّاقُ إلى الشَّخص الآخر الذي كان من الممكن أن أكونَهُ؛ الشَّخص الذي يُكدِّرُ صَفْوي ويُقلِقني. فَمَن كنتُ سأكونُ الآن لَوْ غمرتني تلك العاطفةُ التي تتدَّفقُ بالفطرة من الرَّحم كي تُطبَع قُبلاتٍ على وجه الطِّفل؟

لستُ متأكِّداً إنْ كان إقراري بقحط المشاعر الإنسانيَّة، الذي يضربُ في أعماق قلبي، يجعلني حزيناً أمْ غير ذلك. فأنا أهتمُّ بالصِّفة أكثرَ من الصَّرخة الحَقَّة التي تنبعثُ من روحي. فَمُعلِّمي ڤيرا [...]

ولكنَّني مختلفٌ في بعض الأحيان وأذرفُ دموعاً حَقَّةً، دوماً ساخنةً، دموعَ أولئك الذين لا أُمَّهات لديهم أو لم يمتلكوا أُمَّهات على الإطلاق؛ فعيناي، اللَّتان تحترقان بتلك الدُّموع الميِّتة، تحترقان في أعماق قلبي أيضاً.

ولعلَّ الحنين النَّابع من أنَّني لم أكُن ابنَ امرأةٍ مُعيَّنة قد أسهم في لامبالاتي العاطفيَّة. فالمرأةُ التي ضمَّتني إلى صدرها حين كنتُ طفلاً لم تستطع أن تضمَّني إلى قلبها حقاً. كانت المرأة الوحيدة التي تستطيع فعل ذلك قد ذهبت بعيداً، مُسجَّاة في القبر – الأُمُّ التي كانت ستكون أُمِّي لو أرادَ القدَرُ ذلك.

قالوا ذلك لاحقاً، حين أخبروني أنَّ أُمِّي كانت امرأة جميلة، ولكنَّني لم أنبس ببنت شفة.

(332) ماتت أمُّ بِسُوَّا، في الحقيقة، حين كان عمره 37 عاماً؛ في حين مات أبوه وهو في الخامسة من عمره، ومات شقيقه في العام الذي يليه. ولكنَّهُ يتحدَّث، هُنَا، بلسان نِدِّه سوارش. (المترجم)

كنتُ قد كبرتُ حينئذٍ جسداً وروحاً، لكنَّني كنتُ أجهلُ المشاعر، ولم يكُن الكلامُ بَعْدُ، بالنِّسبة إليَّ، مجرَّد معلومات مستقاة من الصَّفحات المستحيلة لكتاب آخَر.

أمَّا أبي، الذي يعيشُ بعيداً عنَّا، فقد قتل نَفْسه حين كنتُ في الثَّالثة من عمري، فلم أعرفهُ قطُّ. ومازلتُ لا أعرف لماذا عاش بعيداً جداً، ولم أُرد قَطُّ معرفة السَّبب. أتذكَّرُ موتَهُ؛ كأنَّ عباءةً كبيرةً من المَهابة والوقار قد خيَّمتْ علينا في أثناء وجباتنا الأولى بعد أن سمعنا الخبر. أتذكَّر، بين الفينة والأخرى، أنَّهم كانوا ينظرون إليَّ، فأنظر إليهم، غير مستوعب الأمر على نحو أخرق، ثُمَّ ألتهم طعامي بمزيد من التَّأنِّي، مغتبَّةً أن يكون الآخرون لايزالون ينظرون إليَّ.

وسواءٌ عليَّ أَأعجبني ذلك أمْ لم يعجبني، فإنَّني مازلتُ أُحسُّ، في أعماق حساسيتي المُهلِكة، بهذه الأشياء كلِّها.

354

[1931؟]

كلُّ شيءٍ عبثيٌّ. يقضي بعضُهم حياتَهُ في كسب المال الذي سوف يدَّخره، حتَّى لو لم يُنجِب أولاداً ليترك لهم هذا المال، ولم يكُن لديه أدنى أمل بأنَّ سماءً في مكان ما تُنعِمُ عليه بعطيَّةٍ إلهيَّة. ويبذل بعضهم الآخر جهوده كلَّها كي يذيعَ صيتُهُ حتَّى يُذكَر بعد موته، ولكنَّه لا يؤمن بنجاة الرُّوح التي سوف تمنحه معرفة ذيوع ذلك الصِّيت. بَيْدَ أنَّ بعضاً يُضنِي نَفْسَهُ باحثاً عن أشياء لا يُحبُّها حتَّى. ثُمَّ هُنالك الإنسان الذي...

يقرأ المرءُ كي يعرف، كلُّ معرفةٍ عبثٌ. ويُمتِّعُ المرءُ نَفْسَهُ كي يعيشَ، كلُّ متعةٍ عبثٌ.

أركبُ الترام وأنا أستوعبُ، متمهلاً كما تعوَّدتُّ، كلَّ تفصيلةٍ من تفاصيل البشر الذين مِن حولي. وأقصد بكلمة «تفصيلة»: الأشياء والأصوات والكلمات. أرى في ثوب الفتاة التي أمامي مباشرة، على سبيل المثال، المادَّةَ الخام التي صُنعَ منها الثَّوب، والشُّغلَ المبذول في صُنعه -لأنَّه ثوبٌ لا مجرَّد مادَّة- فأرى في التَّطريز الدَّقيق حول العنق خيطَ الحرير الذي طُرِّزَ به وجميع الأشغال المبذولة في ذلك. أرى على الفور ماثلةً أمامي، كما لو كنتُ أقرأ في كتاب تمهيديٍّ عن الاقتصاد السِّياسيِّ، المصانعَ والأشغالَ المختلفة كلَّها: المصنعَ حيث صُنِعَتْ المادَّة الخام؛ والمصنعَ الذي صنعَ الخيطَ الدَّاكن الذي يُوشِّي عنقَ الثَّوب بخطوط متعرِّجة مُنَمْنَمَة؛ وأرى

الورش المختلفة التي في المصنع، والآلات، والعُمَّال، والخيَّاطات. حتَّى إنَّ تحديقتي الجوَّانيَّة تنفذُ إلى المكاتب، حيث أرى المدراءَ يحاولون البقاء هادئين والأرقامَ مُدوَّنة في دفاتر الحسابات، ولكنَّ هذا ليس كلَّ شيء: أُحدِّقُ، أبعدَ من ذلك كلِّه، في الحيوات العائليَّة لأولئك الذين يقضون ساعات عملهم في تلك المصانع والمكاتب... عالم بأكمله يتجلَّى أمام عينيَّ بسبب الحواشي الخضراء الدَّاكنة، المُطرَّزة بأسلوب مُنتظِم على نحو مُتفرِّق، التي تحفُّ ذلك الثَّوب الأخضر الباهت الذي ترتديه الفتاة الموجودة أمامي والتي لا أرى سوى عنقها الأسمر.

طريقة حياة بأكملها تتجلَّى أمامي.

فأحسُّ بالغراميَّات والأسرار والأرواح لجميع أولئك الذين كدُّوا كي تستطيع هذه الفتاة، الماثلة أمامي في الترام، أن ترتدي حول عنقها الفانيةِ الابتذالَ المُتعرِّج لخيط الحرير الأخضر الدَّاكن المُوشَّى على خلفيَّةٍ من قماشٍ أخضر فاتح.

أدوخُ. تحملني مقاعد الترام، المصنوعة من خيزران أملس وقويٍّ، إلى أقاليم بعيدة مقسَّمة إلى مصانع، وعُمَّال، ومنازل، وحيوات، وحقائق واقعيَّة، وكلِّ شيء.

أترجَّلُ من الترام، وقد هدَّني التَّعبُ، فلقد عشتُ، سائراً في نومي، حياةً بأكملها.

355

[1931؟]

كلُّ شيء ليس روحي هُوَ، بالنِّسبة إليَّ، رضيتُ بذلك أمْ لم أرضَ، مُجرَّد مشهدٍ، مجرَّد ديكور. وحتَّى لو أدركتُ على الصَّعيد الفِكريِّ أنَّ الإنسانَ كائنٌ حيٌّ مثل نَفْسي، فإنَّ نَفْسي الفطريَّةَ الحَقَّةَ قد شعرتْ عل الدَّوام بأنَّه أقلُّ أهميَّة من شجرة، إنْ كانت الشَّجرة أجمل منه. وهذا السَّبب الذي جعلني دائماً أرى الأحداث البشريَّة -مآسي التَّاريخ العظيمة الجماعيَّة أو ما نصنعه منها- بوصفها أفاريز ملوَّنة، طافحة بأشكالٍ لا رُوح فيها. لم يسبق أن أثَّرَ فِيَّ حدثٌ مأساويٌّ حدث في الصِّين، فهو مجرَّد منظرٌ خلفيٌّ بعيد، حتَّى لو كان طاعوناً أو حدثاً سالتْ فيه الدِّماء.

أذكرُ بحزن مُتهكِّم مظاهرةً قام بها عُمَّالٌ، على الرَّغم من أنَّني لستُ متأكِّداً من صدق المتورِّطين فيها (أجدُ صعوبةً في الاعتراف بأنَّ أيَّ شيء تقوم به الجماعةُ يمكن أن يكون

صادقاً، فالمخلوق الوحيد الذي يتمتَّع بعقل واعٍ حَقاً هُوَ الفَرْد). كانتْ مجموعةً يائسة من الحمقى المُتحمِّسين مرُّوا بالقُرب من لامبالاتيَ المُطلَقة تصدحُ حناجرهم بالشِّعارات. شعرتُ بالغثيان فجأة، على الرَّغم من أنَّ ثيابهم لم تكُن قذرة البتَّة. فأولئك الذين يعانون حقاً لا يشكِّلون جماعات، ولا يطوفون الشَّوارع كأنَّهم عصابة. أولئك الذين يعانون، يعانون وحيدين.

فيا لهم من زُمرة! وكم يفتقرون إلى الإنسانيَّة والألم! فحقيقتهم الواقعيَّة في حدَّ ذاتها هي التي جعلتهم ساخطين. لن يكتب أحدٌ عنهم رواية أو حتَّى مشهداً وصفياً. إنَّهم يتدَّفقون مثل النُّفاية أسفل النَّهر، نهر الحياة. انتابني النُّعاس وأنا أشاهدهم، فشعرتُ بالغثيان والتَّفوُّق.

356

[1931؟]

بتُّ لا أُطيقُ كلَّ شيء إلَّا الحياة -المكتب، ومنزلي، والشَّوارع- وحتَّى ما هُوَ نقيض هذه الأشياء، إنْ كان ثمَّةَ نقيض - فكلُّ شيء يستحوذُ عليَّ ويقهرني. وحدَها كُليَّةُ الأشياء تُريحني. نعم، فأيُّ جزء منها يكفي كي يُواسيني. شعاعٌ من أشَّعة الشَّمس يسقطُ بلا نهاية في المكتب الميِّت؛ صرخةٌ في الشَّارع تعلو حتَّى نافذة غرفتي؛ وجود البشر، ووجود المناخات والتَّغيُّرات في أحوال الطَّقس، وموضوعيَّةُ العالَم المُرعبة...

فجأةً، دخل شعاعُ الشَّمس فِـيَّ، أقصدُ أنَّني قد رأيتُهُ فجأةً... كان شريطاً ساطعاً من ضوءٍ يكادُ يكون بلا لونٍ يقطعُ كنصلٍ عارٍ عبر الأرضيَّة الخشبيَّة المعتمة، فَيُحيي كلَّ شيء من حوله، المساميرَ القديمة والأخاديد التي بين ألواح الأرضيَّة، والصَّفائح غير البيضاء المُقلَّمة بحزوزٍ سوداء.

ثُم رأيت، لدقائق مديدات، تأثيرَ الشَّمس التَّدريجيَّ وهي تنفذُ إلى المكتب الهادئ... كأنَّني أُروِّح عن نَفْسي في السِّجن! وحدَهُ المسجون قد ينتبهُ، بالدَّهشة التي تعتري شخصاً يرقبُ النَّمل، إلى شعاع شمسٍ يتحرَّكُ على هذا النَّحو.

[1931؟]

أُجابِهُ، هادئاً، بما لا يزيد عن ابتسامة روحي السَّاخرة، احتماليَّةَ ألَّا تغدو حياتي أكثرَ من مجرَّد أن أظلَّ حبيسَ **خُوَا دُش دُوْرَادُوْرِش** إلى الأبد، في هذا المكتب، محاطاً بهؤلاء البشر. فلديَّ ما يكفي من المال لشراء الطَّعام والشَّراب، ولديَّ مكان أعيش فيه، ووقت فراغ يكفي كي أحلمَ فيه، وأكتب -وأنامَ- فأيُّ شيء أكثرَ أطلبُه من الآلهة أو أرجوه من **القدَر**؟

كانت لديَّ طموحاتٌ عظيمة وأحلام فائضةٌ، وكذلك السَّاعي والخيَّاطة أيضاً، فالجميع لديه أحلامٌ، والفارقَ الوحيد يكمن في أن نمتلك القوَّة لتحقيق تلك الأحلام أو أن يُحقِّقها **القدَرُ** من خلالنا.

لكنَّني، فيما يخصُّ الأحلام، لا أختلف عن السَّاعي والخيَّاطة. الشَّيء الوحيد الذي يفرقني عنهما هُوَ أنَّني أستطيع الكتابة. نعم، الكتابة نشاط، حقيقةٌ واقعيَّة عن نَفْسي التي تفرقني عنهما. بَيْدَ أنَّني مازلتُ الشَّخص ذاته في قرارة روحي.

أعرفُ بأنَّ جُزُراً تُوجَد في الجنوب وشغفاً كونياً عظيماً وعارماً و[...]

أعرفُ، حقَّ المعرفة، أنَّني لو حُزتُ العالَم في يدي، فسوف أستعيض عنه بتذكرة ترام عائد إلى **خُوَا دُش دُوْرَادُوْرِش**.

ربَّما قدَري أن أظلَّ محاسباً مساعداً إلى الأبد وأن يظلَّ الشِّعرُ والأدبُ فراشتَيْن تحطَّان على رأسي، ليس إلَّا، فتُبرزان تفاهتي بجمالهما الذاتي فحسبُ.

ولسوف أفتقدُ مُورِيرَا، ولكنْ ما أهميَّةُ أن أفتقدَ شخصاً بعينه مقارنةً بفرصة حصولي على ترقيةٍ حَقَّةٍ في الوظيفة؟

أعرفُ أنَّ اليوم، الذي سوف أغدو فيه كبير محاسبي شركة « **ڤاسْكِش وشركاؤه**»،

سيكون أحد أعظم الأيَّام في حياتي. أعرف ذلك بمرارةٍ وتهكُّم يرجُمان بالغَيب، لكنَّني أعرف ذلك بالحقيقة الفِكريَّة المُطلَقة التي يستطيعُ أن يجلبها اليقينُ.

358

[1931؟]

تلاحقُ يراعةٌ نَفْسَها في برازخ تومضُ. والرِّيفُ في كلِّ مكان، عند العتمة، غيابٌ عظيم للصَّوت الذي تكادُ تفوحُ منه رائحةٌ طيِّبة. توجعني السَّكينةُ التي تغشى هذا كلَّه وتشتدُّ وطأتُها عليَّ. سأمٌ عديمُ الشَّكل يخنقني.

لا أذهب إلى الرِّيف كثيراً، ونادراً ما أقضي النَّهار كلَّه هُنَاك أو أبيتُ فيه. لكنَّني جئتُ اليومَ تساورني الشُّكوك، كرجل خجول في طريقه إلى حفلة كبيرة، لأنَّ الصَّديق الذي سوف أنزل في بيته لن يسمعني وأنا أرفض دعوته. غير أنَّ السعادة غمرتني حين وصلتُ؛ استمتعتُ بالهواء العليل والفضاءات المفتوحة؛ تغذَّيتُ وتعشَّيت جيِّداً، بَيْدَ أنَّ ريبةَ المكان تملؤني بالقلَق وأنا جالس الآن، في جوف اللَّيل البهيم، في حجرتي التي لا قنديلَ فيها.

تطلُّ نافذة الحجرة حيث سأنام على الرِّيف الممتدِّ بلا حَدٍّ، على رحابةٍ لا نهائيَّة، التي هي رحابة الحقول، وعلى اللَّيل العظيم المُرصَّع بالنُّجوم على نحو غامض، حيث أستطيع أن أشعر بنسيم صامت يتحرَّك. أتأمَّلُ بأحاسيسي، واقفاً عند النَّافذة، الهباء الكونيَّ الذي هُنَاك. يستقرُّ الوقتُ في تناغُم قلِق يطغى على كلِّ شيء؛ بدءاً من الخَفاء المرئيِّ لكلِّ شيء حتَّى الخشب (على حافَّة النَّافذة المُبيَّضة حيث أُريحُ يدي اليسرى) الذي هُوَ خشنٌ بعض الشَّيء كي يُلمَس حيث تقشَّر الطِّلاء القديم.

ولكنْ كم مرَّة تاقتْ عيناي إلى هذه السَّكينة التي أهربُ منها في هذه اللَّحظة، إنِ استطعتُ القيام بذلك بسهولة ودماثة! وكم مرَّة، هُناك بين الشَّوارع الضَّيقة للبنايات العالية، فكَّرتُ في إيماني بإمكانية العثور هُنَا على السَّكينة والنَّثر واليقين، بين الأشياء الطَّبيعيَّة، لا حيث مفرشُ مائدة الحضارة الذي يجعل المرء ينسى خشبَ الصَّنوبر المطليِّ بالورنيش الذي يستريح فوقَهُ! والآن، هُنَا، وأنا أشعرُ بالعافية والتَّعب المُعافَى من كلِّ سُوء، ينتابُني القلَقُ، أشعر بأنِّي عالقٌ في هذا المكان، وينتابني الحنين إلى الدِّيار.

لا أعرفُ إنْ كان هذا الشَّيء يحدث لي أنا وحدي أمْ لكلِّ أولئك الذين كانت الحضارة تعني لهم أن يُولَدوا من جديد. ولكن يبدو لي، وللَّذين يشعرون مثلما أشعر، أنَّ المُصطَنع قد بات يبدو طبيعياً وأنَّ الطَّبيعيَّ بات غريباً. كلَّا، ليس الأمر على هذه الشَّاكلة تماماً: لم يَبْدُ المُصطَنع طبيعياً بَعْدُ، ولكنَّ الطَّبيعيَّ بات مختلفاً، ليس إلَّا. إنني أمقتُ السيَّارات ومنتجات العلوم الأخرى -الهواتف والبرقيَّات- وأستطيع أن أعيش بسعادة من دونها؛ تلك المنتجات التي تجعل الحياة سهلةً، أو المنتجات الثَّانويَّة التي صنعها الخيال الجامحُ -الغراموفونات والمذياعات- التي تجعلُ الحياة مرحةً، بالنِّسبة إلى من يحبُّون هذه المنتجات.

لستُ مهتماً بأيِّ شيء من تلك الأشياء؛ ولا أريدُ أيَّ شيء. بيد أني أحبُّ نهر تيجو لأنَّ المدينة العظيمة مُشيَّدة على ضفَّتيه. وأستمتعُ بالسَّماء لأنَّني أراها من نافذة الطَّابق الرَّابع بشارع في **بَايْشَا**. فلا شيء في الرِّيف أو في الطَّبيعة يستطيع أن يمنحني أيَّ شيء يعدل البهاءَ المُتشظِّي للمدينة الهادئة، المضاءة بنور القمر، حين تُرَى من **غرَاسَا** أو **سَوّ بِيدْرُوْ ذَا أَلْكَنْتَرَة**[333]. فلا زهورَ، بالنِّسبة إليَّ، يمكن أن تضاهي ألوان لشبونة التي لا تكفُّ عن التَّنوُّع في أشعَّة الشَّمس.

وحدَهمُ الذين يرتدون الثِّياب يَرَوْنَ الجسدَ العاري جميلاً، فالقيمةُ الطَّاغية التي تتمتَّعُ بها العِفَّةُ هي، بالنِّسبة إلى الغريزة الشَّهوانيَّة، كامنةٌ في أنَّها تعمل بوصفها كابحةً للطَّاقة.

والنَّزعة إلى المُصطَنع طريقٌ للتَّمتُّع بكلِّ ما هُوَ طبيعيٌّ، فأنا لم أتمتَّع بهذه الحقول الشَّاسعة، مثلما تمتَّعتُ، إلَّا لأنَّني لا أعيشُ هُنَا. لا يمكن للشَّخص الذي لم يعرف القيود البتَّة أن يكون لديه مفهوم عن الحريَّة.

الحضارة تربيةٌ في الطَّبيعة. يوفِّر المُصطَنع مُدخلاً إلى الطَّبيعيِّ.

بَيْدَ أنَّ من الضروري ألَّا نغلط بين المُصطَنع والطَّبيعيِّ، فلا نعودُ نعرف الواحد من الآخَر.

إنَّ جوهرَ الرُّوح الإنسانيَّة المُتفوِّقة يكمن في التَّناغم بين الطَّبيعيِّ والمُصطَنع.

---

(333) Graça (وتعني حرفياً: نعمة/ عطيَّة، إلخ) و Sao Pedro de Alcântara: مرصدان في لشبونة. واضح أنَّ لفظة

359

[1931؟]

لا شيءَ يُثير حنقي أكثر من مفردات الفحوى الأخلاقيِّ والمسؤوليَّة الاجتماعيَّة. أجدُ، بادئ ذي بَدْءٍ، أنَّ كلمة «واجب» مُستهجَنة مثل دخيل يقتحم بيتي. أمَّا عبارات «الواجب المدني» و«التَّكافُل» و«حُبُّ الخير للنَّاس» وما شاكَلها من العبارات الأخرى، فتثير اشمئزازي مثل كومة نفايات ألقاها فوق رأسي شخص من النَّافذة. أشعرُ بالإهانة من الافتراض الضِّمنيِّ بأنَّ هذه التَّعابير تسري عليَّ، وألَّا أجدها دون قيمةٍ فحسب، وإنَّما ذات مغزى.

رأيتُ، ليس منذ أمدٍ بعيد، شيئاً في ڤترينة متجر ألعاب ذكَّرني بتلك التَّعابير على وجه الضَّبط: أطباقٌ مزيَّفة مملوءة بطعام مزيَّف من أجل بيت الدُّمى. فما الذي يرتجيه شخص حقيقيٌّ، شهوانيٌّ، وأنانيٌّ، وأجوف، يكسبُ الأصدقاءَ لأنَّه معسول اللِّسان ويمتلك موهبة الثَّرثرة، ويصنعُ الأعداءَ لأنَّه يمتلك موهبة الحياة، ما الذي ينبغي أن يكسبه من اللَّعب مع دمى تلك الكلمات العقيمة الفارغة؟

تقوم الحكومة على شيئَيْن: القمع والخداع. ولكنَّ المشكلة المتعلِّقة بهذَيْن المصطلحَيْن البرَّاقَيْن كامنة في أنَّهما ليسا قمعاً ولا خداعاً. فهما يُسببان النشوة على الأكثر، وهذه مسألة مختلفة تماماً.

إنْ كان ثمَّة شيءٌ واحد أمقُتُه، فهو المُصلِح. المُصلحُ شخص يرى عِلَلَ العالَم السَّطحيَّة فيقترح علاجَها بجعل العِلَل المزمنة تستفحلُ أكثر. يحاول الطَّبيب تكييف جسد عليلٍ مع آخرَ صحيح، بَيْدَ أنَّنا في المجتمع لا نعلمُ ما الصَّحيح وما العليل.

أرى البشريَّةَ واحدةً من مدارس الرَّسم الرَّائجة، تلك التي تُفضِّلُ الفنَّ الزُّخرفيَّ المرسومَ في الهواء الطَّلق(334). لا أستطيع، في الأساس، التَّفريق بين الإنسان والشَّجرة، لكنَّني أُفضِّل في الحقيقة، أيَّ الاثنَيْن كان مُزَّيناً على نحو أكثر، وأيّهما أثار انتباهَ عينيَّ المُفكِّرتَيْن على نحو

(334) تبتعد جول كوستا، هُنَا، عن الحرفيَّة في النَّقْل؛ فالجُملة كما هي في الأصل عند بِسُوَّا: «Não posso considerar a humanidade senão como uma das ultimas escolas na pintura decorativa da Natureza»، وتعني: «أرى البشريَّة مُجرَّد واحدة من أحدَث مدارس الطَّبيعة في الرَّسم الزُّخرفيّ». فآثرتْ جُول كوستا ترجمة كلمة الطَّبيعة Natureza بـ «الهواء الطَّلْق» مستخدمة التَّعبير الفرنسيّ «en plein air» الذي يستخدم للإشارة إلى هذه المدرسة الفنيَّة التي تشجِّع على الرسم في الهواء الطَّلق، في أحضان الطَّبيعة. (المترجم)

أكثر. إذا وجدتُ الشَّجرة تثير الانتباه على نحو أكثر، فإنَّني سوف أحزنُ لو قُطعَتْ تلك الشَّجرة أكثرَ من حُزني على الإنسان الذي يحتضر. يُحزنني مغيبُ شمس يتلاشى أكثر من حزني على موت طفل. وكي أستطيع الشُّعور على ذلك النَّحو، فإنَّني دائماً أحتفظُ بمشاعري لِنَفْسي.

أكاد أشعر بالذَّنب لكتابة شِبْه-التَّأمُّلات هذه، في هذه السَّاعة المتأخِّرة من الظَّهيرة، حين راح ينهضُ، متلوِّناً، نسيمٌ خفيفٌ. كلَّا، ليس هُوَ الذي يتلوَّنُ، وإنَّما الهواء الذي ينسابُ فوقَهُ مُتردِّداً؛ ولمَّا كان يُخيَّلُ إليَّ بأنَّ النَّسيم هُوَ الذي يتلوَّنُ، وهذا ما أقوله، فلا بُدَّ أن أقول -نظراً إلى أنَّني نَفْسي- كيفَ يُخيَّلُ إليَّ النَّسيمُ.

360

[1931؟]

(كُتِبَتْ على فترات متباعدة وتحتاجُ إلى كثير من التَّنقيح)[335]

ومَا إنْ خَبَتِ النَّجماتُ الأخيرةُ فصارَتْ عَدَماً في سماء الصَّباح، والنَّسيمُ الذي هبَّ في الضَّوء الخفيف الأصفر-البرتقاليِّ المُسَّاقطِ على بعض غيمات واطئةٍ قد باتَ أبردَ، حتَّى استطعتُ، أخيراً، على الرَّغم من أنَّني لم أنم بَعْدُ، أنْ أرفعَ على مهلي جسدي (الذي هدَّهُ التَّعبُ بعد أنْ لم يفعل شيئاً) من السَّرير الذي تخيَّلتُ فيه الكون.

ذهبت إلى النَّافذة، وجفناي يحرقانني لأنَّهما لم يغمضا طيلة اللَّيل. كان الضَّوء، بين الأسطح المكتظَّة، يُجرِّبُ نَفْسَهُ بظلالٍ مختلفة من الأصفر الشَّاحب. وقفتُ هُنَاكَ ناظراً إلى كلِّ شيء ببلاهةٍ كبيرة نظراً لقلَّة النَّوم. وكان الأصفر، فوق الكتل المنتصبة للبيوت الشَّاهقة، يلعب فيه الهواءُ ولا يكادُ يُحَسُّ. وكان الأفق، بعيداً جهَةَ الغرب حيث استدرتُ، قد أضحى أبيضَ مُخضَراً.

---

(335) على الرَّغم من أنَّ بِسُوَّا قد رقن هذه الشَّذرة كلَّها، بالحبر الأسود، على الآلة الكاتبة، فإنَّه وضع هذه العبارة، بين قوسين، في رأس الصَّفحة من الجهة اليُمنَى، وتحتها مباشرة في الجهة اليُسرَى عبارة «L. do D.» في إشارة منه إلى أنَّها جزء من كتاب القلَق. فهل كتبها على فترات ثُمَّ ضربها على الآلة الكاتبة -كما هي حين كُتِبَتْ أوَّل مرَّة، دون تنقيح- ذلك أن ثمَّة إشارة في نهاية النَّصِّ إلى أنَّه كتبها بقلم رصاص؟ (المترجم)

أعرفُ أنَّ اليوم سوف يكون مملاً بالنِّسبة إليَّ، كمثل الملل الذي ينتاب المرء حين يعجز عن فهم شيء ما. وأعرف أنَّ كلَّ شيء سوف أفعله اليومَ لن يصيبَه الإرهاقُ النَّاجم عن قلَّة النَّوم، وإنَّما أرقُ اللَّيلة. وأعرفُ أنَّ حالي المعتادة في السَّير أثناء النَّوم سوف تتجلَّى حتَّى تبدو واضحة للعيان، لا لأنَّني لم أنم فحسب، وإنما لأنَّني لم أستطع النَّوم.

كأنَّ بعض الأيَّام فلسفات كاملة، في حدِّ ذاتها، تقترحُ لنا تفسيرات للحياة، حواشٍ هامشيَّة طافحة بالنَّقد اللَّاذع في كتاب قَدَرنا الكونيِّ. أشعرُ بأنَّ هذا اليوم واحدٌ من تلك الأيَّام. تصعقني الفكرة الحمقاء بأنَّ عينَيَّ الثَّقيلتَيْن ورأسي الفارغ ليست إلَّا قلم الرَّصاص الذي يُشكِّلُ حروفَ ذلك البَوْح العقيم الذي لا يُسبَرَ غورُه.

361

[1931؟]

كلَّما عظُمتِ الحساسيةُ وعَظُمَتِ القُدرةُ على الشَّعور، زادَ ارتعاشُ المرء وارتجافُهُ العبثيُّ من الأشياء الصَّغيرة. يحتاجُ المرءُ إلى بصيرة مُذهلة كي يشعر بالأسى حين تكفهرُّ سماءُ النهار فتُلَبِّدُها الغيومُ. ولكنَّ البشريَّة التي تفتقر إلى الحساسية المفرطة لا يزعجها الطَّقسُ، فالطَّقس دائماً هُوَ الطَّقسُ؛ لا تشعرُ البشريَّةُ إلَّا بالمطر حين ينهمر فوق الرُّؤوس.

إنَّه يومٌ هادئٌ، وباهت، وحارٌّ رطب. أراجعُ حياتي، وحيداً في المكتب، فلا أرى إلَّا ما يُشبه هذا اليوم الذي يستبدُّ بِيَ ويوجعني. أذكرُ نَفْسي طفلاً يسرُّه أيُّ شيء، ويافعاً يملؤه الطُّموح، ورجلاً بلا مسرَّةٍ وبلا طموح. ولقد حدث هذا كلُّه، بهدوءٍ، على نحو باهت، كاليوم الذي يجعلني أراهُ أو أتذكَّره.

فَمَن مِنَّا يستطيعُ القولَ، وقد استدار لينظرَ خلفَهُ إلى الطَّريق التي لا عودةَ منها، إنَّنا قد مشينا تلك الطَّريق كما يتوجَّبُ؟

362

[1931؟]

لطالما شعرتُ باشمئزاز من الأشياء الباطنيَّة، يسري في جسدي كلِّه - الدَّسائس، الدِّبلوماسيَّة، الجمعيَّات السِّرِّيَّة، والتَّنجيم. أجدُ الشَّيئَيْن الأخيرَيْن مثيرَيْن للقلَق على وجه

الخصوص، على الشَّاكلة التي يؤمن بها بعض البشر، بغطرسة، أنَّهم حين يصلون إلى تفاهم مع الآلهة أو الأسياد أو القوى الخلَّاقة سوف يكتشفون -محتفظين، بالطَّبع، باكتشافاتهم لأنفسهم، مستبعدين بقيَّتنا جميعاً- الأسرارَ العظيمة التي هي أُسُّ العالَم ومنبع وجوده.

لا أستطيع تصديق أن يكون ذلك صحيحاً، لكنَّني أظنُّ أنَّ شخصاً سوف يستطيع ذلك. فهل جميع أولئك البشر مجانين وواهمون؟ كثرتُهم لا تثبت شيئاً؛ فثمَّة أشياء على شاكلة هلوسات جماعيَّة.

ما يصعقني بشأن أولئك الذين يُعلِّمون الاطِّلاع على الغيب، الضَّالعين في أسراره، حين يكتبون عن أسرارهم واصفين إيَّاها، أنَّهم يكتبون على نحو في غاية الرَّداءة حقاً. أشعر بالإهانة حين يقوى شخصٌ على قهر الشَّيطان، ولا يستطيع التَّضلُّع في اللُّغة البرتغاليَّة. لماذا يتوجَّب أن تكون مواجهةُ الشَّيطان أسهل من مواجهة قواعد اللُّغة؟ ولماذا، بعد كلِّ تلك التَّمارين الطَّويلة في التَّركيز وقوَّة الإرادة، يستطيع شخصٌ، أو هكذا يقول، مكابدةَ الرُّؤى النَّجميَّة، ولكنَّه لا يستطيع، باذلاً أقلَّ القليل على صعيد التَّركيز وقوَّة الإرادة، أن يمتلك رؤيةً واضحةً عن النَّحْو؟ ما الذي تنطوي عليه عقيدة الفنون السِّحريَّة وطقوسها ويمنعُ المرءَ من الكتابة، ليس بالضَّرورة على نحو واضح، فقد يكون الغموض جزءاً من النَّاموس الباطنيِّ، وإنَّما بأناقة وفصاحة على الأقلِّ، وهما أمران ممكنان تماماً حتَّى حين تكون الكتابة حول مواضيع غامضة؟ لماذا يُبدِّد المرءُ طاقةَ الرُّوح كلَّها في دراسة لغةِ الآلهة، فلا تتبقَّى لديه ذرَّة طاقة ينفقها على دراسة صِبْغَةِ لغةِ البشر وإيقاعِها؟

لا أثقُ بالمُعلِّمين الذين لا يستطيعون تعليم أبسط الأشياء. فَهُم، بالنِّسبة إليَّ، مثل أولئك الشُّعراء الغرباء[336] العاجزين عن الكتابة كأيِّ شخص آخر. لا أستطيع قبول أنَّهم غرباء، لكنَّني أرغب في أن يُثبتوا لي أنَّهم غرباء لأنَّهم شذُّوا عن القاعدة لا لأنَّهم يفتقرون إلى القُدرة على أن يكونوا بخلاف بذلك.

يقول النَّاسُ إنَّ علماء رياضيَّات عظماء يرتكبون أخطاء في عمليَّة جَمْع بسيطة، ولكنَّ المسألة لا تتعلَّقُ بارتكاب الأخطاء، بل بالجهل المُطلَق. أستطيع قبول أن يجمع عالمُ رياضيَّات

---

(336) تنطوي كلمة غرباء (estranhos) هُنَا، عند بِسُوَّا، على المعاني العميقة كافَّة التي قد تنطوي عليها: غريب الأطوار والخارج عن كلِّ ما هو مألوف (المترجم).

عظيمٌ اثنَيْن واثنَيْن فيكون النَّاتج خمسة؛ هذا قد يحدث لأيِّ شخص حين يشرد ذهنُه. ما لا أستطيع قبوله هُوَ أن يكون جاهلًا بماهيَّة الجَمْع أو كيفيَّة القيام بذلك. وهذه هي الحال مع الغالبيَّة العظمى من مُعلِّمي العلوم الباطنيَّة.

363

[1931؟]

تجعلني فكرةُ السَّفر أشعرُ بالغثيان يسري في جسدي كلِّه.

فلقد رأيتُ كلَّ شيء لم أرَهُ مِن قَبْلُ.
ولقد رأيتُ كلَّ شيء لم أرَهُ بَعْدُ.

سأمُ الجديدِ المُتجدِّدِ، سأمُ الاكتشاف، تحتَ الاختلاف العابر للأشياء والأفكار، تطابُق الأشياء الدَّائمُ، التَّشابُه المُطلَق بين المسجد والمعبد والكنيسة، التَّكافؤُ المُطلَق بين الكوخ والقلعة، الجسدُ الماديُّ ذاتهُ في مَلِكٍ بكامل أناقته وزينته وفي بربريٍّ عارٍ، تجانُس الحياةِ الأبديُّ مع نَفْسِها، رُكود كلِّ شيء يحيا رغم التَّغيُّرات الدَّائمة المحكوم عليه بها إلى الأبد.

المناظر الطَّبيعيَّة تكراراتٌ. أُقسِّمُ نَفْسي بلا طائل وعلى نحو عصبيٍّ، في رحلة عاديَّة بالقطار، بين عدم النَّظَر إلى المنظر الطَّبيعيِّ وعدم النَّظَر إلى الكتاب الذي سوف لا يكفُّ عن التَّرويح عنِّي لو كنتُ شخصاً آخَر. لقد منحتني الحياةُ مِن قَبْلُ إحساساً غامضاً بالغثيان، والحركةُ تُفاقِمُ ذلك الإحساسَ، لا أكثر.

والمناظر الطَّبيعيَّةُ والكُتبُ الوحيدة التي ليستْ مُملَّة هي تلك المناظر التي لم تُخلَقْ بَعْدُ والكتبُ التي لن تُقرأ أبداً. فالحياةُ، بالنِّسبة إليَّ، مجرَّد غفوةٍ لا تؤثِّر في الدِّماغ؛ إنني أحافظ عليه مُتحرِّراً من كلِّ شيء بوصفه الموضع الذي أشعر فيه بالحُزن.

سأترك السَّفر لتلك المناظر الطَّبيعيَّة التي لم تُخلَق بَعْدُ! فمن المُفتَرض، بالنِّسبة إلى شخص هُوَ لا شيء، أن تكون الحياة، مثل نهرٍ، مُجرَّد مسألة بسيطة من التَّدفُّق إلى الأمام أبداً. أمَّا بالنِّسبة إلى أولئك الذي يشعرون، أولئك الذين هُم مستيقظون، فإنَّ تجربة الجلوس المروِّعة في قطار أو في عربة أو في سفينة تجعلهم لا ينامون ولا يستيقظون.

أعودُ من رحلتي، مهما كانت قصيرة، كأنّني عائد من نوم طافح بالأحلام - في حالة من الذُّهول الخَدِر، وقد التصقَتْ أحاسيسي، بعضُها ببعض، ثَمِلاً ممّا رأيتُ.

لا أستطيع الرَّاحةَ فروحي عليلةٌ. ولا أستطيع الحركةَ فثمَّة شيء مفقود بين الجسد والرُّوح؛ ليسَت الحركة هي التي أفتقدُ إليها، وإنما الرَّغبة في الحركة.

لطالما أردتُ عبور النَّهر، تلك الدَّقائق العشر التي تستغرق العبور من «تِّخَايْرُو دُو بَاسُّو»(337) إلى «كاسيلياس(338)». ولطالما كدتُ أشعر دائماً بالقهر من كلِّ أولئك النَّاس ومن نَفْسي ومن قراري بالذَّهاب. قمتُ بالرَّحلة مرَّتَيْن، فشعرتُ بالرُّعب يدبُّ في أوصالي طيلة طريق الذَّهاب والعودة، بَيْدَ أنَّ الإثارة تملَّكتني حين وطِئتْ قدماي اليابسة مرَّة أخرى حين عدتُ.

حين تتملَّكُ المرءَ الإثارة الشَّديدةُ، يغدو نهر تيجو محيطاً أطلنطياً لا حدَّ لَهُ، وتغدو «كاسيلياس» قارَّة أُخرى أو حتَّى كوناً آخَر.

364

[1931؟]

أترغبُ في السَّفر؟ تحتاجُ كي تسافر إلى أن تكون على قَيْدِ الوجود فحسب. أسافرُ في قطار جسدي أو في قطار قدَري، من يوم إلى يوم، كأنّني أسافر من محطَّةٍ إلى أُخرى، مائلاً إلى الخارج كي أنظر إلى الشَّوارع والميادين، والإيماءات والوجوه، التي تتشابه دائماً، وتختلفُ دائماً، على الشَّاكلة التي تبدو فيها المناظر الطَّبيعيَّة، في حقيقة الأمر.

إنْ تأمَّلتُ شيئاً، رأيتُهُ. فأيُّ شيء أكثرَ سأفعله لو سافرتُ؟ وحدَهُ وَهَنُ المُخيِّلةِ الشَّديدُ قادرٌ على تبرير حاجةِ المرء إلى السَّفر من أجل أن يشعر.

«إنَّ أيَّ طريق، حتَّى هذه الطَّريق البسيطة إلى إِنْتِيِفُول، سوف تقودك إلى نهاية العالَم»(339). ولكنَّ نهايةَ العالَم، حين تكون قد أرهقتَ العالَم بالدَّوران حولَهُ، هي إِنْتِيِفُول ذاتُها التي انطلقتَ منها. وليستْ نهايةُ العالَم وبدايتُهُ، في الحقيقة، إلَّا مجرَّد مفهومنا عن العالَم. فلا تغدو

(337) أُنظر الحاشية 110 لمزيد من التفاصيل. (المترجم)

(338) Cacilhas: قرية صيَّادي أسماك سابقة في ألماذا بلشبونة. (المترجم)

(339) أُنظر الحاشية 301 للمزيد بشأن هذه الجملة المقتبسة من أقوال كارلايل. (المترجم)

المناظرُ الطَّبيعيَّةُ مناظرَ طبيعيَّةً إلَّا في أنْفُسِنا. ولذلك، فإنَّني حين أتخيَّلُها أخلقُهَا؛ وإذا خلقتُها، فإنَّها تُوجَد؛ وإذا وُجِدَتْ، فإنَّني أراها كما أفعل مع المناظر الطَّبيعيَّة الأخرى. لَمَ السَّفرُ، إذن؟ أينَ سأكون، سواء في مدريد، أو في برلين، أو في بلاد فارس، أو في الصِّين، أو في القُطبَيْن الشمالِيِّ والجنوبيِّ، إنْ لم أكُنْ داخل نَفسي، شاعراً بتلك المشاعر التي تخصُّني أنا وحدي؟

الحياةُ هي كلُّ ما نجنيه منها. الرَّحَّالة هُوَ الرِّحلة. فما نراهُ ليس ما نراهُ وإنَّما ما نحنُ عليه.

365

[1931؟]

أعدتُ قراءة كلِّ شيء كتبتُه بجلاء وأناةٍ قطعةً قطعةً، فوجدتُّه عقيماً كلَّهُ، وشعرتُ أنَّ من الأفضل لو أنَّني لم أكتبُه بتاتاً. فحقيقةُ إكمال أيِّ شيء أو إنجازه، سواءٌ أكان إمبراطوريَّة أم جُمْلة، تحمل في طيَّاتها أسوأ ما يتعلَّقُ بالأشياء الحَقَّة: معرفتنا بأنَّها ستَفنى. لكنَّني وأنا أُعيد قراءة هذي الصَّفحات على مهلي لا ينتابني هذا الشُّعور، ولا أتألَّمُ لأنَّني كتبتُ ما قد كتبتُه. أتألَّمُ لأنَّ ما كتبتُه لم يكُن جديراً بالكتابة، ولأنَّ كلَّ الذي جنيتُه من الوقت الذي بدَّدتُه هُوَ الوهمُ المُحطَّمُ في هذي اللَّحظة؛ وهمُ أنَّه كان جديراً بالكتابة.

لا نبحثُ عن الأشياء إلَّا حين نصبو إليها، فإمَّا أن نُخفِق في تحقيق ما نصبو إليه فنغدو الفقراءَ البائسينَ، وإمَّا أن نظنَّ بأنَّنا قد حقَّقنا ما نصبو إليه فنغدو مجرَّد أثرياء مجانين.

ما يؤلمني هُوَ أنَّ أفضلَ ما كتبتُه رديءٌ وأنَّ شخصاً آخر (إنْ كان موجوداً؛ شخصاً أحلمُ بوجوده) سوف يكتبه أفضل منِّي. فكلُّ ما نفعله في الفنِّ والحياة نسخةٌ ناقصة عمَّا عزمنا عليه. إنَّها [نسخةٌ] تخون المُثُل العليا للكَمَال الجوَّانيِّ والخارجي على حدٍّ سواء؛ إنَّها لا تخذلُ مفهومَنا عمَّا توجَّب أن يكون فحسب، وإنَّما عمَّا كان يمكنُ أن يكون أيضاً. إنَّنا جُوفٌ في وليجةِ أنْفُسِنا وفي خارجها على حدٍّ سواء، مُجرَّد منبوذين؛ منبوذي التَّشوُّفِ والوعد.

فَمِن أين استمدَّتْ روحي المتوحِّدةُ القُوَّةَ كي أكتبَ صفحةً إثرَ صفحة متوحدة كي أعيشَ، مقطعاً إثرَ مقطع، السِّحرَ الباطلَ، لا فيما كنتُ أكتبُه، وإنَّما فيما كنتُ أتخيَّلُ أنَّني كنتُ أكتبُه؟ فَيَا للسِّحـر المُتهكِّم الذي أصابني فجعلني أظنُّ نَفْسي شاعرَ النثر الذي أكتبه، في

اللَّحظة المُجنَّحة التي يتدفَّقُ فيها النَّثرُ فِيَّ، أسرعَ ممَّا استطاعَ قلمي أن يكتب، مثل انتقام ماكر من إهاناتِ الحياة! أنظرُ، وأنا أُعيدُ اليومَ قراءةَ ما كتبتُ، فأرى دُماي الغاليات وقدْ مُزِّقت أشلاءً، أرى القشَّ طافحاً من أجوافها، أراها وقد تناثرت كأنَّها لم تكُن...

366

[1931؟]

كلُّ شيء يتعلَّقُ بيَّ يتلاشى بعيداً. حياتي كلُّها، وذكرياتي، ومُخيِّلتي وما تحويه، وشخصيَّتي، كلُّ شيءٍ يتلاشى بعيداً. لا أكفُّ عن الشُّعور بأنَّني كنتُ شخصاً آخَر، بأنَّني قد شعرتُ وفكَّرتُ مثل شخص آخَر. أتلهَّى بمشهديَّات مختلفة، والمسرحيَّة الدَّراميَّة التي أُشاهدها هِيَ نَفْسي.

وأعثر أحياناً في غمرة الابتذال المتراكم لأعمالي الأدبيَّة المُخزَّنة كيفما اتَّفقَ، في أدراج مكتبي المختلفة، على أشياء كتبتُها قبل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً أو يزيد. فَيخيَّلُ إليَّ بأنَّ غريباً قد كتبَ أكثرَ ما كتبتُه؛ لا أعرف نَفْسي فيما قد كتبتُ. لقد كتبها شخص آخَر وكان هذا الشَّخصُ هُوَ أنا. لقد كان أنا الذي أحسَّ بما قد كتبتُ، ولكنْ في حياة أخرى قد استيقظتُ منها في هذه اللَّحظة كأنَّني أستيقظُ من حلُم.

وغالباً ما أعثرُ على أشياءَ كتبتُها حين كنتُ ماأزال يافعاً، فقراتٍ كتبتُها حين كنتُ في السَّابعة عشرة أو في العشرين من عمري. ويمتلك بعضُها قوَّةَ التَّعبير التي لا أذكرُ أنَّني قد امتلكتُها في ذلك العُمر. وبعض العبارات وبعض الجمُل المكتوبةُ حين كنتُ قد بلغتُ يفاعتي أو أكادُ تبدو نتاجَ ما أنا عليه الآنَ، بكلِّ ما قد تعلَّمتُهُ على مرِّ السِّنين والتَّجارب التي قد خضتُها. أُدركُ أنَّني مازلتُ الشَّخصَ الذي كُنتُهُ. ولكنَّني أتساءلُ -بعد أن فكَّرتُ ملياً في أنَّني لا بُدَّ قد تطوَّرتُ كثيراً كي أصل إلى ما أنا عليه الآن- بشأن التَّطوُّر الذي طرأ عليَّ إنْ كنتُ في ذلك الوقت ما أنا عليه في هذه الأثناء.

ثمَّة سرٌّ، في هذا كلِّه، يُضعضعني ويقهرني.

قبل أيَّام قليلة فقط، عثرتُ على نص قصير كتبتُه منذ بضع سنين، هزَّني هزاً. أعرفُ، حقَّ المعرفة، أنَّ دقَّتي اللُّغويَّة (النِّسبيَّة) تعود إلى بضع سنين خلت فحسب، لكنَّني عثرتُ

في أحد الأدراج على قطعةٍ كتبتُها منذ أمدٍ بعيد، كانت لا تقلُّ روعةً في الدِّقَّة اللُّغويَّة التي أتحدَّثُ عنها. إنني لا أستطيع حقاً فهم تلك النَّفس الماضية. كيف تطوَّرتُ لأغدو ما كنتُه فحسب؟ وأنَّى لي أن أعرف نَفْسيَ اليومَ حين لم أستطع أن أعرفها بالأمس؟ يغدو كلُّ شيء ضائعاً في متاهةٍ أُضيِّعُ فيها نَفْسي.

أتركُ أفكاري تجرفني فينتابُني يقينٌ بأنَّ ما أكتبُهُ في هذي اللَّحظة قد كتبتُهُ مِن قَبْلُ. أذكرُ، فأسألُ بَعضيَ الذي يتظاهرُ بأنَّهُ أنا، إنْ لم تكُن ثمَّة، في نظرة الحواسِّ الأفلاطونيَّة، ذكرياتٌ أُخرى أشدُّ غموضاً، وذكرى أُخرى لحياة سابقة هي في الحقيقة هذه الحياة...

يا إلهي، مَن هذا الذي أراهُ فِـيَّ، يا إلهي؟ وكم عددُ الذين أنطوي عليهم؟ ومَن أنا؟ وما هذي الهُوَّةُ التي بَيْنِي وبينَ نَفْسِي؟

367

[1931؟]

عثرتُ مرَّة أخرى على مقطع كتبتُهُ بالفرنسيَّة قبل نحو خمسة عشر عاماً. لم أذهب إلى فرنسا قطُّ ولم أكُن وثيق الصِّلة بالفرنسيِّين بتاتاً. وعلى الرغم من أنِّي لم أمارس اللُّغة، فإنَّني لا أستطيع القول إنَّني لم أمارسها إطلاقاً. أقرأ الفرنسيَّةَ الآن أكثر من أيِّ وقت مضى. فأنا أكبر سناً، وأكثر خبرة؛ ولا بُدَّ أنَّ لغتي قد تطوَّرت. بَيْد أنَّ ذلك المقطع الذي يرجعُ إلى ماضيَّ البعيد ينطوي على لمسةٍ في استخدام الفرنسيَّة، لا يرقى إليها الشَّكُّ البتَّة، أعجزُ عن الكتابة بمثلها اليوم؛ فالأسلوب متدفِّقٌ على نحو لا أستطيع إنشاءه، مرَّة أخرى، في تلك اللُّغة، وثمَّة فقرات كاملة، وجُمَل كاملة، وتعابير وصفيَّة كاملة، تشي بفصاحةٍ فقدتها دون أن أعرف أنَّني ملكتُها. فكيف يستطيع المرء تفسيرَ ذلك؟ مكانُ مَن ذاك الذي اغتصبتُهُ في وليجة نَفْسي؟

أعرفُ أنَّ من السَّهل بما يكفي التَّوصُّل إلى نظريَّةٍ بشأن تدفُّق الأشياء والأرواح، كي نفهمَ أنَّنا دفقٌ جوَّانيٌّ للحياة، ونتخيَّلَ أنَّنا كثيرون، وأنَّنا نعبرُ من خلال أنفُسِنا ليسَ إلَّا، وأنَّنا كُنَّا أشخاصاً كثيرين... بَيْدَ أنَّ ثمَّة شيئاً آخر يجري هُنا ليس مجرَّد تدفُّق الشَّخصيَّة بين ضفَّتَيْها: ثمَّة هُنَا الآخَر المُطلَق، كينونةٌ غريبة كانت كينونتي. ولا بُدَّ أن أفقدَ، حين أطعنُ في العُمر، المخيِّلةَ، والعاطفة، وبعضَ طرائق البصيرة، وبعضَ طرائق الشُّعور. بيد أن ذلك كلَّهُ

لن يروعني على الرَّغم من الألم الذي يجلبه. ولكن، ما الذي يحدث لي حين أستطيع قراءة ما كتبتُهُ كما لو أنَّ غريباً قد كتبَهُ؟ وأيُّ شاطئ سأكون واقفاً عليه يسمح لي بأن أنظر إلى الأسفل فأرى نَفْسي في قاع البحر؟

لقد وجدتُ، في مناسبات أُخرى، مقاطع لا أستطيع تذكُّر أنَّني كتبتُها، وهي مسألة لا تحيِّرني كثيراً، بيْدَ أنْ أكونَ عاجزاً حتَّى عن تذكُّر أنَّني كنتُ قادراً على كتابة شيء ما، فذلك يدبُّ الرُّعب في نَفْسي. وبعض العبارات تنتمي إلى طريقة أُخرى في التَّفكير تماماً، كأنَّني قد عثرتُ على صورة شخصيَّة قديمة، لا ريب أنَّها صورتي، غير أنها تُظهِر قوامَ شخص آخَر، بملامح لا أستطيع التَّعرُّف إليها لكنَّها ماتزال تخيفني على نحو لا يرقَى إليه الشَّكُّ.

368

[1931؟]

رأيتُ بالأمس رجلاً عظيماً وأصغيتُ إليه[xxii]. ولستُ أعني شخصاً ذاع صيتُهُ على أنَّهُ رجلٌ عظيم، وإنَّما رجلٌ هُوَ في الحقيقة عظيم. رجلٌ رفيعُ الشَّأن ينطوي على قيمة بالغة، إنْ كان ثمَّة قيمةٌ في هذا العالَم؛ يعرفُ الآخرون ذلك وهو يعرف بأنَّهم يعرفون. ولهذا فهو يستوفي جميع الشُّروط اللَّازمة التي تسمح لي بأنْ أدعوه رجلاً عظيماً. وهذا ما أدعوه به في حقيقة الأمر.

يبدو من النَّاحية الجسديَّة رجلَ أعمالٍ هدَّهُ التَّعب. وتبدو أماراتُ التَّعب التي تلوحُ على مُحيَاهُ نابعةً، بكلِّ بساطة، من عيشه حياة غير صحيَّة، أو من إفراطه في التَّفكير. إيماءاتُه عاديَّةٌ تماماً. وثمَّة بريقٌ مُعيَّنٌ في عينيه - ميزة من لا يعاني قصر البصر. أمَّا صوتُهُ فمشوَّش قليلاً كأنَّ شللاً كُلِّياً باشر في مهاجمة سيماء روحه المُميَّزة، روحه التي أفصحَتْ عن وجهات نظر تتعلَّق بالسِّياسة الحزبيَّة، وخفض قيمة الإِسْكُوْدُوْ(340)، وأكثر الجوانب خِسَّةً التي يتَّصِفُ بها أندادُه في العَظَمة.

ولو لم أكُن أعرف من هُوَ، لما استطعتُ التَّخمين من مظهره. أعرف، حقَّ المعرفة، أنَّه لا يتوجَّب على المرء أن يستسلم للأفكار البطوليَّة حول البشر العظام الذين ينجذب إليهم

(340) Escodo: وتعني حرفياً «الدِّرْع»، وهي العملة التاريخيَّة للبرتغال قبل التحوُّل إلى استخدام اليورو. (المترجم)

البسطاء: لا بُدَّ أن يمتلك الشَّاعرُ جسدَ أبولُّو ووجهَ نابليون أو، على نحو أقلَّ تطلُّباً، لا بُدَّ لَهُ أن يكون مميَّزاً وصاحب وجهٍ مُعبِّر. أعرفُ أنَّ تلك الأفكار السَّخيفة، وإن كانت طبيعيَّة، مجرَّد زلَّات بشريَّة. ومع ذلك، فليس من غير المعقول توقُّع بعض علامات العَظَمة. وحين ينتقل المرء من التَّركيز على المظهر الجسديِّ إلى تأمُّل ما تتلفَّظ به الرُّوح، في الوقت الذي يستطيع فعل ذلك من دون هِمَّة أو حيويَّة، فإنَّه يتوقَّع بصيرةً تُجلِّلها على الأقلِّ مسحةٌ من الجَلال المَهيب.

وهذا كلُّه، كلُّ خيبات الأمل البشريَّة هذه، تجعلنا نرتابُ في حقيقة الذي يُسمَّى الإلهامَ على نحو مُبتذَل. يبدو أنَّ هذا الجسدَ المُقدَّرَ أن يكون رجلَ أعمالٍ، وهذي الرُّوحَ المنذورةَ لتكون روحَ رجل مُثقَّفٍ، قد أُنعِمَ عليهما سويَّةً، وعلى نحو غامض، بخاصيَّةٍ خارجية وجوَّانيَّة، على التَّوالي، تجعلُ شيئاً ما يتكلَّمُ من خلالهما، في الوقت الذي لا ينبسان فيه ببنت شفةٍ، فينطقُ ذلك الصَّوتُ الكلامَ الذي لو قالَهُ الجسدُ أو الرُّوح، وحدهما، لكانَ باطلاً يُفتَرى.

ولكنَّ هذه مجرَّد تأمُّلات عقيمة وكسولة. وأكادُ أندم على أنَّني قد انغمستُ فيها. فملاحظاتي لم تَحُطَّ من قَدْر الرَّجل ولم تُحسِّن من مظهره الخارجي على حدٍّ سواء. فالحقيقةُ أنْ لا شيءَ يُغيِّرُ شيئاً، وأنَّ ما نقوله أو نفعله لا يمسح إلَّا قمم الجبال التي في وديانها تنامُ الأشياءُ.

369

[1931؟]

تمشَّينا ولمَّا نزل صغاراً تحت الأشجار الباسقة [في كنف] الغابة التي تهمسُ بغموض. كان القمرُ يصنعُ بحيراتٍ في المطارح المقطوعة الأشجار التي ظهرتْ فجأةً على امتداد الدَّرب، حيث الضِّفافُ المتشابكة لتلك البحيرات الأكثر إعتاماً من اللَّيل البهيم. وكان النَّسيمُ الدَّافئُ للغابات العظيمة يتنفَّسُ بصوتٍ خفيض حولنا. تكلَّمنا عن أشياء مستحيلة؛ كانت أصواتنا بعضاً من اللَّيلِ والقمرِ والغابة. سمعناها كما لو كانت تنتمي إلى غيرنا.

ولم تكُن تلك الغابة التي يكتنفها الغموض خاليةً من الدُّروب تماماً. كانت ثمَّة مسالك عرفناها بطريقة أو أخرى، فسرنا مُرتابين على طولها بين الظِّلال المُرقَّطة وأعمدة ضوء

القمر الباردة القاسية. كُنَّا نتكلَّمُ عن أشياء مستحيلة، وكان ذلك المنظر الطَّبيعيُّ الحَقُّ كلُّه مستحيلاً بالقَدْر ذاته.

370

[1931؟]

كلَّما تغوَّلنا بعيداً في الحياة، زادتْ قناعتُنا بحقيقتَيْن متناقضتَيْن. تقولُ الأولى إنَّ قَصَص الأدب وخيالَ الفنِّ الجامحَ لا قيمة لها إطلاقاً مقارنةً بواقع الحياة. وعلى الرَّغم من أنَّ الأدب والفنَّ يمنحاننا متعةً أنبل من الحياة، فإنَّهما في الحقيقة يشبهان الأحلام التي نتذوق فيها مشاعر لم نذقها في الحياة بتاتاً وتستحضر لنا أشكالاً لم نرها قَطُّ؛ إنَّها مجرَّد أحلام يستيقظ منها المرء، وليست ذكريات أو مشاعر حنين حرَّاقة قد نعيش بها حياةً ثانية فيما بَعْدُ.

أمَّا الحقيقةُ الثَّانية: فترغبُ كلُّ روح نبيلة في أن تعيش الحياة إلى حدِّها الأقصى، أن تعبَّها عباً، فتذوق كلَّ شيء، وتختبر كلَّ شعور، وتعرف كلَّ زاوية من زوايا الأرض. ولأنَّ ذلك كلَّهُ مستحيل من النَّاحية الموضوعيَّة، فلا يُمكن عيشُ الحياة إلى حدِّها الأقصى إلَّا من النَّاحية الذَّاتيَّة؛ فلا نقدرُ أن نعيشها بأكملها إلَّا حين نزهدُ فيها.

وهاتان الحقيقتان غير قابلتين للاختزال على نحو مُتبادَل. ولسوف يُحجم الحكيمُ عن محاولة الخلط بينهما وكذلك عن جحد إيٍّ منهما. ولكنْ، لا بُدَّ أن يختار واحدةً ثُمَّ يعيش وقد اعتصره النَّدم لأنَّه لم يختر الأخرى، أو يرفضهما على حدٍّ سواء، فيعلو على نَفْسه صاعداً في معراج روحه كي يبلغ النِّيرڤانا التي يصبو إليها.

طُوبَى للَّذي لا يطلبُ من الحياة أكثرَ ممَّا تمنحه على نحو عفويٍّ، الذي يَسُوسُ نَفْسه بغريزة القطط، الذي يبحثُ عن الشَّمس حين تكون ثمَّة شمسٌ، ويبحثُ عن أيِّ دفءٍ حين لا تكون ثمَّة شمسٌ. طُوبى للَّذي يزهدُ في حياته لأجل المُخيِّلة، فيجد المتعة في تأمُّل حيوات الآخرين، ولا يختبر الانطباعات في حدِّ ذاتها وإنَّما المشهدَ الخارجيَّ لتلك الانطباعات. طُوبى للَّذي يزهدُ حينئذٍ في كل شيء، فلا يُؤخَذ منهُ شيءٌ إذَّاكَ ولا يُنقَصُ.

الرِّيفيُّ، وقارئُ الرِّوايات، والزَّاهد القُحُّ: هؤلاء الثَّلاثة هُمُ السُّعداءُ حقاً، فلقد أنكروا وجودَهُمُ الشَّخصيَّ - الأوَّل، لأنَّهُ يعيش بالفطرة، فالفطرةُ مُتجرِّدةٌ [عن كلِّ شيءٍ]؛ والثَّاني، لأنَّهُ يعيش بالمُخيِّلة، فالمخيِّلةُ نسيانٌ؛ والثَّالثُ، لأنَّهُ لا يعيشُ وإنما ينامُ لأنَّه لم يمُت بَعْدُ.

لا شيءَ يُرضيني، ولا شيءَ يواسيني، وكلُّ شيءٍ -وُجِدَ أمْ لَمْ يُوجَد بَعْدُ- يُتخِمُني. لا أُريدُ روحي ولا أرغبُ في التَّخلِّي عنها. أشتهي ما لا أشتهيه وأزهدُ فيما لا أملكُ. لا أستطيعُ أن أكون لا شيءَ ولا كلَّ شيءٍ: لستُ إلَّا جسراً بين ما لا أملكُ وما لا أُريدُ.

371

[1931؟]

ماذا يهمُّني لو لم يقرأ أحدٌ ما أكتبُ؟ أكتبُ كي أُلهي نَفْسي عن البقاء على قيد الحياة، وأنشرُ ما أكتبُ لأنَّ تلك هي قواعد اللُّعبة. إنْ فُقِدَتْ غداً كتاباتي كلُّها، فسوف أحزنُ، لكنَّي أظنُّ أنَّني لن أشعر بالحزن الجنونيِّ المُبرح الذي قد تتوقَّعُونه نظراً إلى أنَّ كتاباتي تحوي حياتي كلَّها. أليسَ صحيحاً أنَّ الأُمَّ تستطيع الضَّحك، بعد شهور من وفاة طفلها، عائدةً إلى نَفْسها القديمة؟ والأرضُ العظيمة، التي تعتني بالموتى، سوف تعتني أيضاً بأوراقي، وإنْ كانتِ الأرضُ أُماً أقلَّ. لا شيءَ يهمُّ، وهُنَاكَ -أظنُّ- كانَ الذين لم يصبروا طويلاً على الطِّفل حين استيقظَ، والذينَ تاقوا إلى السَّكينة والهدوء اللذَيْن سيسودانِ حين يذهبُ الطِّفلُ أخيراً إلى النَّوم.

372

[1931؟]

هذا الحادثُ العَرَضِيُّ الذي نُسمِّيه الحياة...

كانت تمطرُ منذ يومَيْن والمطرُ الذي ينهمر من السَّماء الرَّماديَّة الباردة لَهُ لونٌ يُصِيبُ الرُّوحَ بالحُزن. يومانِ... وأنا حزينٌ من كثرة المشاعر متأملاً هذا كلَّهُ عند النَّافذة على صوت الماء المتقاطر والمطر المنهمر. تغمرُ قلبي الكآبةُ فتستحيل ذكرياتي كلُّها كَرْباً مُبرحاً. لستُ نعسانَ، ولا سببَ يدعوني كي أنعسَ، لكنَّني أشعرُ برغبة عظيمة في النَّوم. مرَّةً، وأنا طفلٌ تغمرني السَّعادة، كان صوتُ ببغاءٍ أخضرَ برَّاقٍ اعتادَ العيش في باحة البيت المجاور. لم يشعرِ الصَّوتُ بالحُزن بتاتاً، في الأيَّام المَطيرة، ولكنَّهُ كان يبعثُ، من مخبئه في القفص دون ريب، شعوراً متواصلاً يُحوِّمُ في الكآبة المُخيِّمة كأنَّهُ غراموفون يصدحُ قبل أوانه.

ما الذي جعلني أُفكِّرُ بالببغاء في هذه اللَّحظة؟ هل لأنَّني أشعر بالحزن وطفولتي البعيدة تذكِّرني به؟ كلَّا، إنَّه يعنُّ على بالي لأنَّني أسمعُ في هذه اللَّحظة تماماً، قادماً من الباحة الواقعة على حدود هذه اللَّحظة الحاضرة، صوتَ ببغاءٍ يصدحُ بكلماتٍ مُلتبسة.

يختلطُ كلُّ شيءٍ فِـيَّ. وحين أُفكِّرُ في أنَّني قد تذكَّرتُ شيئاً، فإنَّني أكون في الواقع أُفكِّرُ في شيءٍ آخَر؛ وإذا نظرتُ لا أرى شيئاً، بيدَ أنَّني حين أسرحُ أرى كلَّ شيء واضحاً.

أديرُ ظهري للنَّافذة الرَّماديَّة، لألواح الزُّجاج الباردة حين تُلمَس، ثُمَّ، ببعض حِيَل هالات الظِّلال، أحملُ معي الجزءَ الدَّاخليَّ للمنزل العتيق حيث اعتادَ ببغاءٌ أن يصدح، في الباحة المجاورة؛ فتُغمض عيناي من النُّعاس على الحقيقة التي لا تُعوَّض بأنَّني في الحقيقة عشتُ.

373

[1931؟]

لا يتأثَّرُ بؤسُ حاليَ البتَّةَ بالكلمات التي أخطُّها؛ الكلماتِ التي أُشكِّل بها، شيئاً فشيئاً، أفكارَ هذا الكتاب العشوائيِّ. أظل على قيد الحياةِ مجرَّدَ شيءٍ في قاع التَّعابير كلِّها، مثل مسحوقٍ لا يذوبُ إطلاقاً في قعر كأسٍ لا تضمُّ إلَّا الماء. أكتبُ أدبي وأنا أُدوِّنُ قيودي المحاسبيَّة في دفتر الحسابات - بلامبالاةٍ مُحترسة. أكتبُ في دفتر الحسابات وأمامي السَّماءُ الرَّحبة المُرصَّعة بالنُّجوم وأُحجية الأرواح الكثيرة، وليلُ الهاوية المجهولة وفوضى الجهل المُطلَق، أكتبُ وأمامي هذا كلُّهُ، بَيْدَ أنَّ ما أخطُّه على روحي الورقيَّة هذه، يظلُّ عالقاً هُنَا، ثابتاً لا يتزحزح، في خُوَا دُش دُوْرَادُوْرِش، ولا شأن لَهُ إلَّا قليلاً بملايين المساحات الشَّاسعة الهائلة الموجودة في الكون.

وليس هذا كلُّه إلَّا مُجرَّد حُلم وتخيُّلات تماماً، ولا يهمُّ كثيراً إنْ كان الحُلم مجرَّد قَيْدٍ في دفتر الحسابات أو قطعةَ نَثرٍ بديعة. فما جدوى الحُلم بأميرات عوضاً عن الباب المُفضي إلى المكتب؟ كلُّ ما نعرفُه مجرَّد انطباع نكوِّنه، وكلُّ ما نحنُ عليه مجرَّد انطباع شخص آخر عنَّا، ميلودراما شخصيَّة نعي فيها أنَّنا نظَّارةُ أنْفُسِنا، وآلهةُ أنْفُسنا، بإذنٍ كريم من المجلس البلديِّ.

374

[1931؟]

الفُرصة السَّانحة[341] كالمَال الذي هُوَ في الحقيقة فرصة سانحة، بطريقة أو أخرى. الفُرصة، بالنِّسبة إلى أصحاب الأفعال، شيءٌ يتعلَّقُ بالإرادة، ولستُ مهتماً بالإرادة. لكنَّ الفرصةَ، بالنِّسبة إلى شخص مثلي لا يفعل شيئاً البتَّة، أغنيةٌ لا تُغنِّيها عرائسُ البحر على الإطلاق. لا بُدَّ أن تُزدرَى على نحو شهوانيٍّ وتُبعَد في مكان عالٍ كشيءٍ لا طائلَ منه.

أنْ تحظى بفرصة... هذه هي البقعة التي سوف يُقيمون فيها تمثالاً للزُّهْد.

آهٍ، أيَّتها الحقول الفسيحةُ التي تنيرها الشَّمسُ، يا مَن يتأمَّلُكِ من الظِّلِّ المُتفرِّجُ الذي خُلِقَ من أجلكِ، أنتِ، وحدَكِ.

خمرُ الكلمات الباذخة والجُمَل المديدة التي تصعدُ كأمواج بأنفاسِ إيقاعاتها، ثمَّ تسقطُ ثانيةً وهي تبتسمُ، كأنَّها حيَّاتُ زبدٍ مُتهكِّمةٌ في البهاء الحزين للَّيل البهيم.

375

[17 يناير 1932]

ينتمي العالَم إلى الذين لا يشعرون. فالشَّرط الوحيد للإنسان العمليِّ هُوَ غيابُ أيِّ حساسية. والميزة الأهم في الحياة اليوميَّة هي تلك التي تقود إلى الفِعْل، أقصدُ الإرادة القويَّة. وثمَّة شيئان، في الوقت الحاضر، يعوقان الفِعْل ويعترضان طريقَهُ - الحساسية والفِكر التَّحليليُّ الذي هُوَ، في نهاية المطاف، ليس أكثر من الفِكر مضافاً إليه الحساسية. ولكنَّ الفِعْل، في حدِّ ذاته، انعكاسُ الشَّخصيَّةِ في العالم الخارجي، وبما أنَّ العالَم الخارجي يتكوَّنُ، إلى حدٍّ بعيد جداً، من كائنات آدميَّة أُخرى، فإنَّ أيَّ انعكاسٍ للشَّخصيَّة سوف يؤدِّي إلى قطع درب شخص آخر، وإزعاج الآخرين أو إلحاق الضَّرر بهم أو سحقهم، وفقاً للطَّريقة التي يتصرَّفُ بها المرء.

---

(341) أستخدم لفظة «الفُرصة السَّانحة» مقابلاً لكلمة opportunity (وفي البرتغاليَّة: opportunidade) للتَّفريق بينها وبين لفظة «الفُرصة» chance (وفي البرتغاليَّة: occasião) التي يستخدمها بِسُوًّا في موضع آخر من هذه الشَّذرة. فالفُرصة السَّانحة هي التي تُمنَح للمرء. أما الفرصة فهي التي يتنكَّبها المرء من تلقاء نفسه. (المترجم)

ولذلك، فمن الضَّرورة أن يمتلك المرء، الذي يودُّ العمل، القُدرةَ على تخيُّل شخصيَّات الآخرين، وآلامهم، وأفراحهم. فالذي يتعاطف يضيع. يتعامل صاحب الأفعال مع العالم الخارجي كأنَّه قد خُلِقَ كُلِّيَةً من مادَّة خاملةٍ، سواء أكانت خاملة في ذاتها، مثل حجرٍ يدوس عليه المرءُ أو يركله إلى جانب الطَّريق، أمْ مثل كائن بشريٍّ عاجز عن مقاومة صاحب الأفعال؛ كائنٍ بشريٍّ قد يكون هُوَ الآخَرُ حجراً سيُدَاسُ عليه، أيضاً، أو يُركَل إلى أحد جانبيِّ الطَّريق.

مِثَالُ الإنسان العمليِّ هُوَ الاستراتيجيُّ، فهو يخلطُ تركيزه الشَّديد على الفِعْل بإحساسه بأهميَّة ذاته. الحياة كلُّها حربٌ، ولذلك فإنَّ المعركة هي كلُّ ما تنطوي عليه الحياة. الاستراتيجيُّ شخص يلعب بالحياة مثلما يلعب لاعب الشِّطرنج بأحجار الرُّقعة. فماذا سيحدث للاستراتيجيِّ لو فكَّر، عند كلِّ حركةٍ يأتي بها، في الظلام الذي ألقاه على آلاف البيوت والألم الذي أوجده في ثلاثة آلاف قلب؟ وماذا سيحدث للعالَم لو كُنَّا إنسانيِّين؟ لو شعر المرءُ حقّاً، فلن تكون حضارة. الفنُّ بمثابة مَهربٍ للحساسية التي توجَّب على الفِعْل أن يتركها خلفَه. الفنُّ هُوَ **السَّندريلَّا** التي بقيت في المنزل لأنَّ ذلك هُوَ الذي توجَّب أن يكون.

ولا بُدَّ أن يكون صاحب الأفعال إيجابياً ومتفائلاً بالضَّرورة، فالذين لا يشعرون سعداء. وتستطيع معرفة صاحب الأفعال فهو لا يكون في مزاج سيِّئ البتَّة. فالذي يعمل، على الرَّغم من مزاجه السَّيِّء، خاضعٌ للعمل؛ وقد يكون، في الحياة برمَّتها، محاسباً مثلي أنا. ولكنَّه لن يكون حاكماً على الأشياء أو البشر. فالقيادة تتطلَّبُ انعدام الحساسية. وحدهم السُّعداء يحكمون، فكي تكون حزيناً لا بُدَّ أن تشعر بالمقام الأوَّل.

عقد **ڤاسْكِش**، ربُّ عملي، اليومَ صفقةً أفلسَتْ رجلاً مريضاً وعائلته. كان، في أثناء إبرام الصَّفقة، قد نسي تماماً وجودَ ذلك الفَرْد إلَّا بوصفه خصماً تجارياً. وما إن تمَّت الصَّفقة، حتَّى تدفَّقَتْ حساسيتُه، عائدةً إليه - بعد ذلك، بالطَّبع، فلو تمتَّع بحساسيته قبل ذلك، لما تمَّت الصَّفقة قَطُّ. قال لي: «أشعرُ بالأسف حقاً تجاه ذلك الرَّجل»، ثُمَّ أشعل سيگاراً، وأضاف: «سيغدو مُعدَماً. حسناً، لو احتاج إلى شيء منِّي» -يقصدُ بعض المساعدة- «فلن يغيب عن بالي بأنَّ الفضل يعود إليه في إبرامي لتلك الصَّفقة الجيِّدة التي أكسبتني بضعة آلاف إشْكُوْدُو».

ليس **ڤاسْكِش** قاطع طريق؛ إنَّه رجل أفعال. والرَّجل الذي خسر المناورة في هذه اللُّعبة المعيَّنة يستطيع، في الحقيقة، الاعتمادَ عليه طلباً للمساعدة في المستقبل، لأنَّ ڤاسْكِش رجل كريم.

لا يختلف ڤاسْكِش بتاتاً عن جميع أصحاب الأفعال: قادةِ الصِّناعة والتِّجارة، والسَّاسة، ورجال الحروب، والمثاليِّين الاجتماعيِّين، والشُّعراء والفنَّانين العِظام، والنِّساء الجميلات، والأطفال الذين أفسدهم الدَّلال. فاليدُ العُليَا للَّذي لا يشعرُ بشيء. والفائز هُوَ الذي لا يُفكِّرُ إلَّا في تلك الأفكار التي تجلبُ له النَّصر. أمَّا البقيَّة -عالَمُ البشريَّة الغامضُ في العموم- الذين بلا ملامح مُحدَّدة، الحسَّاسون، الخياليُّون المُبدعون، الهشُّون، فهم لا شيءَ إلَّا الخلفيَّة التي يتبخترُ أمامَها هؤلاء الممثِّلون حتَّى تنتهي مسرحيَّة الدُّمى المتحرِّكة، والرُّقعة التي تقف عليها أحجار الشِّطرنج حتَّى يُبعدَها **اللَّاعبُ الأعظم** الوحيد الذي يخدع نَفْسه بأنْ لا شريك لَهُ، فلا يلعبُ إطلاقاً إلَّا ضدَّ نَفْسه.

376

[26 يناير 1932]

تستحوذ عليَّ، من بين انشغالاتي الدَّائمة، محاولةُ فهم الكيفيَّة التي يُوجَد بها الآخرون، والكيفيَّة التي تُوجَد بها أرواحٌ أُخرى غير روحي ووعيٌ[342] آخر غير وعيي، لأنَّ الوعي يبدو بالنِّسبة إليَّ الشَّيءَ الفريد. أفهم تمامَ الفهم أنَّ الإنسان الواقف أمامي، الذي يتلفَّظُ بكلمات تشبه الكلمات التي أتلفَّظُ بها، ويومئ بالإيماءات ذاتها التي أقوم بها أو أستطيع القيام بها، هُوَ بطريقة أو أخرى الكائنُ الحيُّ الذي يشاركني الوجود. لكنَّني أشعرُ بالشَّيء ذاته تجاه البشر في الصُّوَر التي أحلم بها، وتجاه الشَّخصيَّات التي أراها في الرِّوايات أو الشخصيات الدِّراميَّة على خشبة المسرح التي تتكلَّمُ من خلال الممثِّلين الذين يُمثِّلونَهم.

أفترضُ ألَّا أحدَ يعترفُ حقاً بوجود شخص آخَر. قد يُقرُّ المرءُ بأنَّ الشَّخص الآخر حيٌّ ويشعر ويُفكِّر مثل نَفْسه هُوَ، بَيْدَ أنَّه سيظلُّ موجوداً دائماً عنصرُ اختلاف مجهول، تناقضٌ ملموس، لا يستطيع المرءُ أن يضع إصبعه عليه تماماً. فثمَّة أشكالٌ من أزمنة ماضويَّة، صور فنتازيَّةٌ في الكتب، تبدو حقيقيَّة، بالنِّسبة إلينا، أكثر من هذه النَّماذج من اللَّامبالاة-المُتجسِّدة التي تُكلِّمُنا عبر طاولات تقديم الشَّراب في الحانات، أو تجذبُ انتباهَنا فتخطف أبصارَنا في الترامات، أو تمسُّنا مساً رقيقاً بعشوائيَّة فارغة، حين تمرُّ بنا مسرعةً في الشَّوارع. الآخرون،

(342) في الأصل بصيغة الجمع. (المترجم)

بالنِّسبة إلينا، مجرَّد جزءٍ من المنظر الطَّبيعيِّ الذي عادة ما يكون المنظر الطَّبيعيَّ المحتجبَ لشارع مألوف.

أشعرُ بروابط وثيقة وصلات حميمةٍ مع بعض الشَّخصيَّات الموجودة في الكُتُب وبعض الصُّوَر المُعيَّنة التي رأيتها في النُّقوش والتَّصاوير، أكثرَ ممَّا لديَّ مع كثير من أولئك الذين من المفترض أنَّهم بشر حقيقيُّون، مع العبثيَّة الغيبيَّة المعروفة باسم «اللَّحم والدَّم»[343]. ولكنَّ عبارة «اللَّحم والدَّم» تصفهم على أكمل وجه: فهم عبارة عن كتل من اللَّحم مفرودة على وَضَمِ الجزَّار الرُّخاميِّ، ومخلوقات ميِّتة تنزف على الرَّغم من أنَّها على قيد الحياة، وشرائح لحم خاصرة القَدَر وَرِيَش أضلاعه.

لا أخجلُ من الشُّعور على هذه الشَّاكلة لأنَّني أعرف أنَّ الجميع يشعرون على هذا النَّحو. فالافتقارُ إلى الاحترام السَّائد بين البشر، واللَّامبالاةُ التي تسمح لهم بقتل الآخرين دون ندم (على شاكلة المجرمين) أو دون التَّفكير بأنَّهم يمارسون القتل (على شاكلة الجنود)، نابعان من حقيقة أنْ لا أحدَ يُبدي الاهتمامَ المطلوب تجاه الفكرة، التي تبدو مُلتبِسةً في الظَّاهر، والقائلةُ إنَّ للآخرين أرواحاً أيضاً.

لكنَّني أُدركُ فجأةً، في أيَّام معيَّنة وفي أوقات مُحدَّدة حين يهبُّ إليَّ وعيٌ يحملهُ نسيمٌ مجهول تجلَّى حين فُتِحَ بابٌ سرِّيٌّ، أنَّ البقَّال الذي في زاوية الشَّارع كائنٌ روحانيٌّ، وأنَّ معاونَهُ الواقف بالباب، منحنياً فوق كيس البطاطا، روحٌ قادرة على المعاناة حقاً.

بالأمس، حين أخبروني أنَّ الغلام الذي يعمل معاوناً في متجر بيع التَّبغ قد انتحر، لم أستطع تصديق الخبر. يا للفتى المسكين، لقد كان موجوداً أيضاً! لقد نسينا ذلك جميعاً؛ نحن الذين عرفنا بوجوده فحسب، وأولئك الذين لم يعرفوه قطُّ. ولسوف ننساه غداً بسهولة أكثر. بَيْدَ أنَّ من المؤكَّد أنَّهُ امتلك روحاً، روحاً كافيةً كي يقتل نَفْسه. شغف؟ مشاعر قلَق؟ بالطَّبع. لكنَّ كلَّ الذي يتبقَّى، بالنِّسبة إليَّ، ولبقيَّة البشريَّة، هُوَ ذكرى ابتسامة سخيفة ترتسم فوق سُترةٍ صوفيَّة مُتَّسخة لم تكُن على مقاس كتفيه تماماً. هذا كلُّ ما سوف يبقى، بالنِّسبة إليَّ،

---

(343) العبارة المستخدمة هي «flesh and blood» (وفي الأصل البرتغالي «carne e osso»: اللَّحم والعظم)، التي تعني، بعيداً عن معناها الحرفيِّ، الطَّبيعةَ البشريَّة، ولكنَّ بِسُوَّا يستخدمها هُنَا بمعناها الحرفيِّ، كما يتَّضح في الجملة التي بعدها. (المترجم)

من شخص شعر عميقاً بما يكفي كي يقتل نَفْسه، فليس من سبب آخر في نهاية المطاف يدفعه إلى قتل نَفْسه... أذكرُ أنَّني فكَّرتُ ذات مرَّة، حين كنتُ اشتري منه بعض السَّكائر، في أنَّه قد يغدو أصلعَ قبل أوانه. غير أنه، كما يبدو، لم يكن لديه الوقت الكافي كي يصلع. بيد أن هذه مجرَّد ذكرى لديَّ عنه. ولكنْ أيُّ ذكرى أُخرَى قد تتبقى عنه إنْ كانتْ ذكراي في الحقيقة ليستْ عنَهُ وإنَّما عن فكرة راودتني؟

تنتابني رؤية فجائيَّة عن جثمانٍ، وعن كفنٍ سجَّوه فيه، وعن القبر الغريب الذي لا بُدَّ أنَّهم قد شيَّعوا جنازتَهُ إليه، ثُمَّ أرى أنَّ معاونَ صاحب متجر التَّبغ، قد كان، على نحوٍ ما، بسترته الممزَّقة شرَّ تمزيقٍ، خير مُمَثِّلٍ للبشريَّة جمعاء.

لم تَدُم الرُّؤيةُ إلا وهلة. واليومَ، بالطَّبع، لأنَّني مجرَّد بشر، أُفكِّرُ في أنَّهُ قد مات فحسب، ولا شي أكثر.

كلَّا، الآخرونَ غيرُ موجودين... فالشَّمسُ الغاربة لا تفردُ أجنحتَها الثَّقيلةَ؛ أجنحةَ ألوانِ السَّديم القاسيةِ إلَّا لي وحدي. ولا يلمعُ النَّهرُ العريض تحت أشعَّة الشَّمس، على الرَّغم من أنَّني لا أستطيعُ رؤيةَ مياههِ تجري، إلَّا لي وحدي. ولم تُشيَّد هذي السَّاحةُ المفتوحة، التي تُطِلُّ على النَّهر في مدِّه المُتقلِّب، إلَّا لي وحدي. فهل دُفِنَ اليومَ في القبر الجماعيِّ معاونُ صاحب متجر التَّبغ؟ غروبُ الشَّمس ليس لَهُ اليوم. بَيْدَ أنَّني، حتَّى وأنا أُفكِّرُ في هذا كلِّه ضدَّ إرادتي تماماً، أدركتُ فجأةً أنَّ الغروبَ سيكفُّ عن أن يكونَ لي أيضاً...

377

[29 يناير 1932]

ما إن فترَتْ حرارةُ الصَّيف الأخيرة فاسحة المجال لوجود شمس ألطف، حتَّى بدأ الخريف –حتَّى قبل أن يحلَّ علينا– بحُزنٍ خفيف، وغامض، ومديد، كأنَّ السَّماء فقدتْ قدرتها على الابتسام. كانت في بعض الأحيان زرقاءَ شاحبة، وكادت تكون خضراءَ في أحايين أُخرى، لكنَّها بدت واهية دائماً حتَّى في المكان الذي يكون فيه اللَّونُ على أشُدِّه؛ كان ثمَّة جُمودٌ يلفُّ الغيوم في ظلالها المختلفة التي من أُرجوانيَّات خابيةٍ؛ بَيْدَ أنَّهُ سادَ، في هذه اللَّحظة، مالئاً الوَحشةَ التي مازالت تعبر من خلالها الغيوم، شعورٌ بالسَّأم لا الخَدَر.

كانت بداية الخريف قد بشَّرت بها برودةٌ حقيقيَّة سرتْ في الهواء الذي لم يبرد بَعْدُ، وبُهتانُ ما تبقَّى من ألوانٍ لم تبهت بَعْدُ، وظهورُ شيء من العَتْم والغياب لم يكن موجوداً هناك من قَبْلُ في المسحة اللَّونيَّة للمناظر الطَّبيعيَّة والمظهر المُغبَّش للأشياء. لم يكُن ثمَّة شيء يحتضر بَعْدُ، ولكنَّ كلَّ شيء راح يتطلَّع بلهفةٍ عارمة إلى الحياة ثانيةً، كأنَّهُ يبتسم ابتسامةً لم يتبسَّمها بَعْدُ.

ثُمَّ ها قد حلَّ أخيراً الخريف الحَقُّ: كان الهواء قد برَّدته الرِّيحُ؛ وأوراقُ الأشجار نطقَتْ بدرجاتٍ لونيَّة جافَّةٍ قبل أن تذوي وتموتُ، والأرضُ كلُّها أخذَتْ لونَ أرض السَّبخات الغدَّارة وشكلَها الذي لا يُحَسُّ. وما كان الابتسامةَ الباهتة الأخيرة قد تلاشى بعيداً بجفون مرخيَّةٍ مُتعَبة، في إيماءات من اللَّامبالاة. وكلُّ شيءٍ يشعرُ، أو ما نتخيَّلُ أنَّه يشعرُ، ضمَّ تلويحةَ وداعه قريباً من صدره، ثُمَّ طاف صوتُ عصفةِ ريح تهبُّ في الرُّواق عبر وعينا بشيء آخَر. لا يتوقُ المرءُ إلَّا كي يشعرَ بالحياة حَقاً، كي يغدو سقيماً يتعافى من سَقَمِه.

ولكنَّ أوَّل أمطار الشِّتاء، وقد جاءتْ مثلما جاءتْ في غمرة هذا الخريف الجَليِّ الذي لا ريبَ فيه، جرفَتْ شِبْهَ الأمشاجِ اللَّونيَّة هذهِ بعيداً بجلافة وازدراء. وفي غمرة زخَّات المطر الموسميَّة المثيرة للعجب، أطلقَت الرِّياحُ العاتية العنانَ لكلماتٍ مُشتَّتة من احتجاجٍ مجهول، أصوات حزينة، أصوات يأسٍ عديم الرُّوح تكاد تغضبُ، صافرةً حول ما كانَ جامداً، ساحبةً ما ترسَّخَ في الأرض، جارَّةً معها أيَّ شيء يتحرَّك.

ثُمَّ، في النِّهاية، في بردٍ ورماديَّةٍ، انقضى الخريف. كان خريفاً شتائياً باتَ في هذه اللَّحظة كالغُبار الذي يغدو في النِّهاية وحلاً، لكنَّه يجلب معه كلَّ خيرِ برد الشِّتاء، بعد أن مضى الصَّيف القاسي، والرَّبيع سوف يأتي، والخريف قد أفسح الطَّريقَ أخيراً للشِّتاء. وفي السَّماء العالية، حيث الألوان الباهتة فقَدَتْ كلَّ ذكرى عن الحَرِّ والحُزن، كان كلُّ شيء قد تهيَّأَ للَّيل وحِينٍ من التَّأمُّلِ لا حَدَّ لَهُ.

هكذا رأيتُ كلَّ شيء دون أن أَفزعَ إلى التَّفكُّر. وأكتبُ كلَّ شيء اليومَ لأنَّني أذكره، فالخريف الذي لديَّ هُوَ الخريف الذي فقدتُهُ.

[5 فبراير 1932]

رأسي يوجعُنِي والكونُ كلُّهُ. ثمَّة أوجاع وآلامٌ جسديَّة، أوضح من الأوجاع والآلام الأخلاقيَّة، تُطلِقُ العنانَ، عبر حالة من الاستبطان الرُّوحانيِّ، لِمآسٍ لا تنطوي هي عليها. إنَّها تُعبِّر عن نفاد صبرها تجاه كلِّ شيء، كلِّ شيء، حتَّى تجاه الكونِ كلِّه وصولاً إلى النَّجم الأخير.

أنا لا أُشارك أحداً في شيءٍ، ولم أفعل قَطُّ. وأظُنُّنِي لن أكون قادراً على المشاركة في ذلك المفهوم المُنحطِّ الذي نكون بموجبه، نحن الأرواح، مجرَّدَ عواقبِ شيءٍ ماديٍّ يُدعى الدِّماغ الذي يُوجَد منذ الولادة داخل مادَّة أُخرى تُدعى القِحْف. لا أستطيع أن أكون مادياً، كما يشي ذلك المفهوم على ما أعتقد، لأنَّني لا أستطيع إقامة صلة واضحة- أقصدُ صلةً بصريَّة- بين كتلة رماديَّة مرئيَّة أو أيِّ مادَّة ملوَّنة أخرى وبين الـ «أنا» التي ترى، من وراء عينيَّ، السَّموات فتتأمَّلُها وتتخيَّلُ سماوات أخرى غير موجودة. ولكن، حتَّى لو لم أستطيع الوقوع بتاتاً في شَرَكِ افتراضِ أنَّ هذا الشَّيء هُوَ ذاتُه ذلك الشَّيء لمجرَّد أنَّهما موجودان بكلِّ بساطة في المكان ذاته، كمثل جدارٍ وظلِّي الذي يسقط عليه، أو افتراضِ أنَّ علاقةً بين الرُّوح والدِّماغ هي أكثر منطقيَّة من علاقة بيني، في أثناء رحلتي إلى العمل، وبين العربة التي أركبُها، لكنَّني مازلتُ أومن بوجود علاقة حميمة بين التي هي روحٌ نقيَّةٌ فِينَا وما هُوَ جسدٌ وأنَّ هذه العلاقة يمكن أن تتفاقم فتنشب بينهما النِّزاعات. وتشبه هذه النِّزاعات تلك التي يسعى فيها الطَّرفُ المُفرِطُ في ابتذاله إلى مضايقة الطَّرف الأقلِّ ابتذالاً.

رأسي يوجعني اليوم، لعلَّ معدتي موطن ذلك الوجع. ولكنَّ الوجع، بمجرَّد أن تقترحه معدتي على رأسي، سوف يقطع أيَّ تأمُّلات دائرة خلف حقيقة أنَّني أمتلكُ دماغاً. لو غطَّى أحدهم عينيَّ، فسوف يحرمني لبعض الوقت من الرُّؤية، لكنَّه لن يُعميني. غير أني أجدُ، في هذه اللَّحظة التي يوجعني فيها رأسي، المشهدَ الحاليَّ الرَّتيب والعبثيَّ للعالَم الموجود خارجي يفتقرُ، تمامَ الافتقار، إلى القيمة أو الرِّفعة إلى درجة أنَّني لا أكاد أستطيع تصوُّرَهُ على أنَّه العالَمَ. رأسي يوجعني، وهذا يعني أنَّني واعٍ بالإهانة التي يوجِّهها إليَّ العالَمَ الماديُّ، ولأنَّها تزعجني، مثل جميع الإهانات، فإنَّني أشعرُ بالميل إلى أن يكون مزاجي سيئاً مع الجميع، بمَن في ذلك

الشَّخص الأقرب إليَّ، حتى لو لم يكُن هو الذي أهانني.

رغبتي الوحيدةُ أن أموت، لبعض الوقت على الأقلّ، ولكنَّ هذه الرَّغبة، مثلما قلتُ، ليستْ إلَّا لأنَّ رأسي يوجعني. ثُمَّ يخطر ببالي، فجأةً، في هذه اللَّحظة، كيف سيصوغُ هذا كلَّهُ، على نحو أفصح، أحدُ كتَّاب النَّثر العِظام. لا بُدَّ أنَّه سيفضُّ، عبارةً إثرَ عبارةٍ، الألَمَ المجهول للعالَم كلِّه، فتتجلَّى أمام ناظريه فقراتٌ مُلهَمة تستحضرُ جميع الأعمال الدراميَّة البشريَّة الأرضيَّة، ثُمَّ يصوغُ، عبر اضطِّراب صُدغَيْه المحمومين، فلسفةً غيبيَّة كاملة عن الشَّقاء. بيد أني أفتقرُ إلى الفصاحة الأسلوبيَّة. رأسي يوجعني لأنَّ رأسي يوجعني. والكونُ يوجعني لأنَّ رأسي يوجعني. ولكنَّ الكونَ الذي يوجعني حقاً ليس هُوَ الكونُ الحَقُّ، الذي يُوجَد لأنَّه لا يعرف أنَّني موجودٌ، وإنَّما الكونُ الذي هُوَ كوني، الذي، لو مررتُ أصابعي في شعري، فسوف يبدو أنَّه سيجعلني أشعرُ بأنَّ كلَّ شعرة في رأسي تعاني كي تجعلني أعاني فحسبُ.

379

[نحو 5 فبراير 1932]

ما أشعرُ به فوق كلِّ شيء هُوَ التَّعب والقلَق الذي هُوَ توأمُ التَّعب حين لا يكون ثمَّة سببٌ لوجوده غير حقيقة الوجود نَفْسه. أتوجَّسُ خِيفةً من الإيماءات التي لم أقُم بها بَعْدُ، وأخجلُ على الصَّعيد الفكريِّ من الكلمات التي لم أنطقها بَعْدُ. فكلُّ شيء محكومٌ عليه بالتَّفاهةِ سَلَفاً.

السَّأمُ الذي لا يُطَاق لكلِّ هذي الوجوه، البلهاء الفَطِنة أو التي تفتقر إلى الفِطنة، الشَّنيعة حَدَّ الغثيان في سعادتها أو تعاستها، المرعبة في حقيقة وجودها المجرَّدة، التي ليستْ إلَّا مُجرَّد مَدٍّ منفصل من أشياء حيَّةٍ غريبة عنِّي تماماً...

380

[16 مارس 1932]

مرَّت شهورٌ منذ آخر مرَّة كتبتُ فيها أيَّ شيء. لقد كان وعيي خاملاً فعشتُ كأنَّني شخص آخَر. لطالما انتابني إحساسٌ بسعادةٍ هي سعادة شخص غيري، فأنا لم أُوجَد بَعْدُ؛ لقد كنتُ شخصاً آخَر فعشتُ غافلاً عن كلِّ شيء.

لكنَّني عُدتُ إليَّ اليومَ فجأةً أو إلى ما حلمتُ أنَّهُ أنا. كان ذلك في لحظة تعبٍ شديد غمرني بعد إنجاز مهمَّة عقيمة بعض الشَّيء. أرحتُ رأسي في يديَّ، ومرفقاي على المنضدة المائلة العالية. ثُمَّ، وأنا أغمض عينيَّ، عثرتُ على نَفْسي ثانيةً.

تذكَّرتُ، في تَنَائِي ذلك النَّوم الباطل، كلَّ شيءٍ كُنْتُهُ، ثُمَّ، فجأةً وبكلِّ الوضوح الذي يتمتَّع به منظر طبيعيٌّ حَقٌّ، تجلَّى أمامي هُنَاك، الجدارُ الطَّويل للمزرعة القديمة، فرأيتُ إذَّاكَ، في غمرة تلك الرُّؤية، أرضَ البَيْدَرِ الخاوية.

انتابني على الفور إحساسٌ بعبثيَّة الحياة وعقمها. فاختلطت فِيَّ الرُّؤيةُ والشُّعور والتَّذكُّر والنِّسيان، بعضُها في بعضٍ، رفقةَ وجعٍ خفيف في مرفقيَّ والهمهماتِ المتشظِّية المنبعثة من الشَّارع في الأسفل والأصواتِ الباهتة للعمل اليوميِّ الثَّابت الدَّائر في المكتب الهادئ.

وحين أرحتُ يديَّ على المنضدة ثانيةً، طاشَ بصري من حولي بما لا بُدَّ أنَّه الذي قد كان التَّعبَ الرَّهيب لِعَوالمَ طالَ عليها الموتُ، فكانَ أوَّل شيء رأتهُ عينايَ ذبابة زرقاء[344] جاثمة فوق محبرتي (ذلك الطَّنينُ الغامض الذي كان يتعالى غريباً على الجُلَب الأخرى المتعالية في المكتب!). تأمَّلتُ تلك الذُّبابة المجهولة اليَقِظة على أنَّها قادمة من قاع الهاوية. كانت ألوانها الضَّاربة إلى الأخضر البرَّاق والأزرق المُسْوَدِّ مُنفِّرة على نحو غريب، لكنَّها ليستْ بشعة. لقد كانتِ الحياة!

ربَّما تُوجَد قوى عُلويَّةٌ، آلهةُ الحقيقة أو شياطينُها؛ الحقيقةِ التي نهيمُ على وجوهنا في ظلالها؛ الحقيقةِ التي لستُ أنا إلَّا ذبابة برَّاقة تستريحُ لحظةً أمام تحديقة آلهتها أو شياطينها. ملاحظة بسيطة؟ تعليق مُبتذَل؟ فلسفة بلا فِكر أصيل؟ ربَّما، باستثناء أنَّني لم أُفكِّر في الأمر فحسب: لقد شعرتُ بهِ. وعقدتُ هذه المقارنة المُضحكة، على نحو مباشر، بكلِّ ذرَّة في كياني، يعتريني إحساسٌ غامض بالرُّعب. فحين قارنتُ نَفسي بالذُّبابة كنتُ ذبابة. شعرتُ أنَّ نَفْسي قد باتَتْ ذبابة حين تخيَّلتُ أنَّني شعرتُ بذلك. شعرتُ أنَّ لي روح ذبابة، فذهبتُ إلى النَّوم مثل ذبابة، وشعرتُ نَفْسي حبيسة في جسد ذبابة. بَيْدَ أنَّ الرُّعب الأعظمَ كان كامناً في أنَّني كنتُ في الوقت ذاته نَفْسي. نظرتُ إلى السَّقف، دونَ أن أدري، كي أتيَقَّن بعدم وجود كائن عُلويٍّ يحمل مسطرة ليسحقني مثلما أستطيعُ سحق ذبابة. لكنَّني حين نظرتُ ثانيةً، كانتِ الذُّبابة

(344) Bluebottle (وفي البرتغاليَّة: mosca varejeira): ذبابة منزليَّة كبيرة ذات بطن أزرق. (المترجم)

قد تلاشَتْ، لحُسن الحظِّ، دون أدنى صوت. وكان المكتبُ قد حُرِمَ، ضدَّ إرادته مرَّة أخرى، من الفلسفة كلِّها.

381

[28 مارس 1932]

يُحوِّمُ فوق سطح تعبي الضَّوءُ الذهبيُّ ذاتُه الذي نراه فوق الماء حين تهجرهُ الشَّمس الغاربة. أرى نَفْسي وتلك البحيرة المُتخيَّلة، فلا ألمح فيها إلَّا نَفْسي. لا أعرفُ كيف أُفسِّرُ تلك الصُّورة أو ذلك الرَّمز أو تلك «الأنا» التي أتخيَّل أنَّها ستكون نَفْسي. غير أني على يقين بأنَّني أرى، كأنَّني أستطيع أن أراها حقاً، شمساً تغربُ خلف التِّلال، وترمي ضوءاً محتضراً على البحيرة التي تتلقَّاهُ على شاكلة ذهبٍ معتم.

إحدى مخاطر التفكير أن ترى وأنت تفكر، فأولئك الذين يُفكِّرون بعقولهم يميلون إلى أن تسرح أذهانهم، والذين يُفكِّرون بعواطفهم نائمون، والذين يُفكِّرون بإرادتهم ميِّتون. لكنَّني أُفكِّر بمخيِّلتي، فيتحوَّلُ كلُّ شيءٍ فِـيَّ؛ كلُّ ذلك الذي لا بُدَّ أنَّه منطقٌ أو حزنٌ أو غريزةٌ، إلى شيءٍ بعيد أو لامُبالٍ في وليجة نَفْسي، مثل تلك البحيرة الميِّتة القابعة بين الصُّخور التي يُحوِّمُ فوقَها آخرُ شعاع شمسٍ يتلكأُ.

ولأنَّني توقَّفتُ، اهتزَّتِ المياهُ. ولأنَّني فكَّرتُ، تقهقرتِ الشِّمسُ. أغمضُ عينيَّ المُتَثاقِلتَيْن الطَّافحتَيْن بالنَّوم، ولا شيءَ فِـيَّ إلَّا أرض بحيراتٍ حيثُ راحَ اللَّيلُ يكفُّ عن كونه النَّهارَ في بركة بُنِّية غامقةٍ من مياهٍ تطفو عل سطحها أعشابٌ خضراء.

ولأنَّني أكتبُ، لا أتكلَّمُ. وانطباعي أنَّ كلَّ موجودٍ يُوجَدُ في أرض أخرى خلف التِّلال، وبأنَّه تُوجَدُ رحلاتٌ عظيمة لا بُدَّ أن نشرع فيها لو امتلكنا روحاً كافيةً للقيام بتلك الخطوات الأولى.

توقَّفتُ، كالشَّمس في منظري الطَّبيعيِّ. فكان كلُّ الذي تبقَّى ممَّا قِيلَ، أوشُوهِدَ، ليلٌ معتم طافحٌ بوهج البحيرات الميِّت، فوق سهلٍ، بلا بطٍّ بريٍّ، ميِّتٍ، وسيَّالٍ، ورطبٍ، ومشؤوم.

[2 مايو 1932]

لا أنامُ أبداً: أعيشُ وأحلمُ أو بالأحرى أحلمُ وأنا أعيشُ وأنامُ، فالنوم أيضاً حياةٌ. لا يتوقَّفُ وعيي: أُحسُّ بما هُو حولي حتَّى حين لا أنامُ تماماً أو لا أنام جيداً. أبدأُ في الحلم بمجرَّدَ أن أغطَّ في النوم. إنني فيضٌ أبديٌّ من صورٍ مترابطة وغير مترابطة -أتنكَّرُ دائماً في هيئة شيءٍ خارجي- يحولُ بين البشر والضَّوء إنْ كنتُ مستيقظاً، أو بين الأشباح والعتمة المرئيَّة إنْ كنتُ نائماً. لا أعرفُ، حقَّ المعرفة، كيف أُميِّزُ بين الحالتَيْن، ولا أجرؤُ على تأكيد أنَّني لستُ نائماً حين أكون مستيقظاً، أو أنَّني لستُ على وشك الاستيقاظ حين أكون نائماً.

الحياةُ مثل كرة من الصُّوف شابك خيوطها، بعضها ببعض، شخصٌ ما. سيكون ثمَّة منطقٌ لو حُلَّتْ وفُرِدَتْ على طُولها، أو لُفَّتْ كما يتوجَّبُ. ولكنَّها، مثلما هي، معضلةٌ لم يتجشَّم أحدٌ عناءَ أن يلفَّها كُرةً، وبَلبلةٌ لا مكانَ تمضي إليه.

أشعرُ في هذه اللَّحظة بما سوف أكتبُهُ لاحقاً، فلقد حلمتُ على الفور بالعبارات التي سوف أستخدمها؛ أُحسُّ عبر هذا اللَّيل، الذي يختلطُ فيه النَّوم باليقظة، بالمناظر الطَّبيعيَّة للأحلام الغامضة وضجيج المطر المنهمر في الخارج الذي يجعلها أشدَّ غموضاً. إنَّها ظُنُونٌ نشأتْ في الخواء، مرتعشة على شفير الهاوية، يتقاطرُ من خلالها، على نحو عبثيٍّ، الصَّوتُ الهادر للمطر الذي لا يكفُّ في الخارج؛ الصَّوت الذي هُوَ التَّفصيلةُ الوحيدة الوفيرة للمنظر الطَّبيعيِّ؛ منظرِ كلِّ ما يُسمَع. الأمل؟ كلَّا. حزنٌ مائيٌّ، تحملهُ الرِّيحُ، ينهمرُ من السَّماء المحتجبة. أُواصِلُ نومي.

لا ريبَ أنَّ المأساة التي وُلِدَتْ منها الحياةُ قد حدثَتْ على امتداد ممرَّات المُتنزَّه. كان ثمَّة مخلوقان، جميلان على حدٍّ سواء، رغبا في أن يكونا شيئاً آخَر؛ كان الحُبُّ ينتظرهما بعيداً في المستقبل المُمِلِّ والحنينِ إلى ما سوف يصل بوصفه طفل الحُبِّ الذي لم يشعرا به قطُّ. هكذا، تحت ضوء القمر في الغابة الغربية -لأنَّ الضوء قد تقاطر عبر الأشجار- سوف يمشيان، يداً بيدٍ، ولا يشعران بأيِّ رغبة أو أمل، عبر صحراء الممرَّات المهجورة. كانا مثل طفلَيْن، ليس إلَّا، لأنَّهما لم يكونا طفلَيْن تماماً. ثُمَّ راحا يتمشيَّان، من ممرٍّ إلى ممرٍّ، مُظلَّلَيْن مثل قُصاصاتٍ بين الشَّجر، في مسرح تلك الأرض الحرام. وهكذا، أشدَّ قُرباً وأكثرَ افتراقاً، اختفيا خلف

الينابيع، وصوتُ المطر الرَّقيق -الذي توقَّف أو يكادُ- هُوَ، في هذي اللَّحظة، صخبُ الينابيع التي يَمَّما شطرها. أنا الحُبُّ الذي كان حُبَّهما، ولهذا أستطيعُ سماعهما في هذا اللَّيل الأَرِق، ولهذا أنا قادرٌ على العيش تغمرني التَّعاسة.

383

[15 مايو 1932]

لا شيء تشتدُّ وطأتُهُ، ثقيلةً جداً، على المرء كمثل مودَّة الآخَرين، ولا حتَّى الكراهية، فالكراهيةُ مُتقطِّعة أكثر من المودَّة، ذلك أنها تنزعُ بالفطرة، لكونها عاطفة بغيضة، إلى أن تكون أقلَّ حضوراً بين أولئك الذين يشعرون بها. ولكنَّ الكراهية والحُبَّ شعوران مُستبدَّان على حدٍّ سواء، فهما يُفتِّشان عَنَّا، معاً، فيقتفيان آثارَنا ولا يتركاننا وحدنا البتَّة.

سيكون مثالي الأعلى أن أعيش كلَّ شيء كما لو في روايةٍ، وأن أعيش الحياة بوصفها مكاناً أستريح فيه - أن أقرأ عواطفي، وأن أعيش ازدرائي لها. فمغامراتُ بطل إحدى الرِّوايات تمدُّ أولئك الذين يتمتَّعون بمخيِّلة ذات حساسية عالية، بمتعةٍ كافية تماماً، ولاسيَّما أنَّ تلك المغامرات هي مغامراتُه ومغامراتُنا في آن معاً. لا مغامرة أعظم من أن تكون قد عشقتَ **اللِّيدي ماكبث** حقاً وصراحةً، فماذا عسى مَن ذاق مثل ذلك العشق أن يفعل، في هذه اللَّحظة، سوى أن يستريح وألَّا يعشقَ أحداً على الإطلاق في الحياة الحَقَّة؟

لا أعرف ما جدوى هذه الرِّحلة التي أُجبرتُ على القيام بها بين ليل وآخَر، رفقةَ الكون كُلِّهِ. أعرف أنَّني أستطيعُ القراءة كي أُشتِّتَ نَفْسي. إنني أعدُّ القراءة الطَّريقةَ الأبسط لعبور هذه الرِّحلة وأيِّ رحلة أُخرى، فأرفعُ عينيَّ، بين فينةٍ وأُخرى، عن الكتاب الذي أختبرُ فيه عواطفَ حَقَّةً، لأرى، مثل غريبٍ، المنظرَ الطَّبيعيَّ يطيرُ بالقُرب منِّي -الحقول، والبلدات، والرِّجال والنِّساء، والعواطف والحنين إلى أشياء مفقودة- وهذا بالنِّسبة إليَّ مجرَّد مشهدٍ واقعيٍّ من المشاهد التي أراها في رُقادي، وتشتُّتِ يَقِظٍ أُريحُ عينيَّ عليه من تلك الصَّفحات المقروءة على نحو شديد الوطأة.

ما نحلمُ به هُوَ ما نحنُ عليه حقاً، وكلُّ شيء آخَر، بسبب الحقيقة البسيطة التي تقول إنَّه موجودٌ، ينتمي إلى العالَم وإلى كلِّ شخص آخَر. لو قُدِّرَ أن أُحقِّق حُلماً في الحقيقة، فسوف

أغارُ منه، لأنَّه خانني بالسَّماح لنفْسه بأنْ يتحقَّق. يقول الإنسانُ الضَّعيف: «لقد حقَّقتُ أحلامي كلَّها»، ولكنَّ تلك كذبة، فالحقيقةُ أنَّهُ قد حلمَ على نحو نبوئيٍّ بكلِّ شيء حقَّقته الحياةُ من خلاله. نحن أنْفُسنا لا نحقِّق شيئاً، فالحياةُ تقذفنا ببطءٍ كالحجر في الهواء، لنقول ونحن نطيرُ: «أترى، إنَّني أتحرَّك».

لا بُدَّ لهذا الفاصل المسرحيِّ الدَّائر تحت ضوء الشَّمس السَّاطع والنُّجوم اللَّامعة أن يعرف، بصرف النَّظر عمَّا يكونُ، أنَّه مجرَّد فاصلٍ، ليس إلَّا؛ فإنْ كانت الحياةُ هي التي تكمنُ خلف أبواب المسرح فسوف نعيشُ؛ وإنْ كان الموتُ فسوف نموتُ، والمسرحيَّةُ حينئذٍ لا تليقُ.

ولهذا لم أشعر قَطُّ بأنَّني شديدُ القُرب من الحقيقة، وأنَّني أكثر انهماكاً فيها تماماً، أكثر ممَّا شعرتُ في تلك المناسبات النَّادرة حين ذهبتُ إلى المسرح أو السِّيرك: أعرف، إذَّاك، أنَّني سوف أشهدُ، في النِّهاية، تمثيلاً متقناً للحياة. والممثِّلون والممثِّلات، والمهرِّجون والسَّحرة، مجرَّدُ أشياء عقيمة مُهمَّةٍ على شاكلة الشَّمس والقمر، والحُبِّ والموت، والطَّاعون، والمجاعة والحرب، بالنِّسبة إلى بني البشر. كلُّ شيء مسرحٌ. وإذا أردتُ الحقيقةَ، فسوف أواصل قراءةَ هذي الرِّوايةَ...

384

[23 مايو 1932]

لا أعرفُ ما الوقت، ولا أعرفُ ما الطَّريقة الحَقَّةُ، إنْ كان ثمَّةَ طريقة، لقياسهِ. أعرفُ أنَّ الطَّريقةَ التي تقيسُ فيها السَّاعةُ الوقتَ باطلةٌ: فهي تُقسِّمُ الوقتَ مكانياً، مِن خارجه. وأعرفُ أنَّ الوقتَ الذي تحفظه العواطفُ باطلٌ أيضاً: فهي لا تُقسِّمُ الوقتَ وإنَّما الإحساس بالوقت. ووقتُ الأحلام كذلكَ خاطئٌ؛ نحن نمسُّ الوقتَ مساً رقيقاً حين نعبرُه، بطيئين أحياناً ومسرعين في أحايين أُخرى، فيغدو الذي نختبره إمَّا بطيئاً، وإمَّا سريعاً، وفقَ الطَّريقة الفريدة التي يتدفَّقُ فيها الوقتُ، وهي سيرورةٌ لا أفهم طبيعتَها.

يخطر ببالي أحياناً أنَّ كلَّ شيء باطلٌ، وأنَّ الوقت مجرَّد إطارٍ يُستخدم للإحاطة بأيِّ شيء غريب عن نَفْسه. فالوقتُ، في ذكريات حياتي الماضية، مُنظَّمٌ وفقَ درجات ومستويات عبثيَّة، حتَّى أكون يافعاً في الخامسة عشرة، في طَوْرٍ من أطوار حياتي، وطفلاً محاطاً بألعابي، في طور

آخر.

أُفكِّرُ في تلك الأشياء التي تزدادُ حيرةُ وعيي بشأنها. أُحسُّ بوجود خطأٍ في ذلك كلِّه؛ ولكنَّني لا أعرفُ أين يكمن ذلك الخطأ، كأنَّني كنت أشاهد حيلةً سحريَّة. ولأنَّني أعرف أنَّها حيلةٌ، فقد أدركتُ أنَّني قد تعرَّضتُ للخداع، لكنَّني لا أستطيع فهم آليَّات الخداع أو براعتها الفنيَّة.

ثُمَّ اجتاحتني أفكارٌ لا أستطيع رفضها تماماً على الرَّغم من عبثيَّتها. أتساءلُ إنْ كان الذي يتأمَّلُ برويَّةٍ، داخل سيَّارة مسرعةٍ سرعةً فائقة، يتحرَّكُ بسرعة أو على نحو بطيء. وأتساءلُ إنْ كان الذي ينتحرُ، مُلقياً نَفْسه في البحر، يسقط بالسُّرعة ذاتها التي ينزلقُ فيها شخص على أرضيَّة المُتنزَّه فحسب. وأتساءل إنْ كانت ثلاثةُ أفعال تحدث في الوقت ذاته -تدخيني لسيگارةٍ، وكتابتي هذه الفقرة، وتفكيري بتلك الأفكار العبثيَّة- متزامنةً حَقاً.

يستطيع المرءُ أن يتخيَّل أنَّ دولاباً، من بين دولابَيْن يدوران على المحور ذاته، سوف يسبقُ أحدهما الآخَر دائماً، حتَّى ولو بجزء من المِلِّيمتر فحسب. ويعمل المجهر على تضخيم تلك الإزاحة المكانيَّة إلى الحَدِّ الذي يجعلها غير قابلة للتَّصديق، ومستحيلة، لو لم تكُن حقيقيَّةً. لماذا لا يكون المجهر أصحَّ من بصرنا الكليل؟ وهل هذه مجرَّد أفكار عقيمة؟ إنَّها كذلك بالطَّبع. هل هي مجرَّد أوهام الفِكر؟ لا ريب في ذلك. ما هذا الشَّيء، إذن، الذي يقيسُنَا بلا قياسٍ ويقتُلنا على الرَّغم من أنَّه هُوَ نَفْسُهُ غير موجود؟ لا أختبر الوقتَ كشخص، إلَّا في أوقات كهذه، حين أشكُّ في وجود الوقت، فيخامرني شعورٌ بأنَّني ذاهبٌ إلى النَّوم، ليس إلَّا.

385

[31 مايو 1932]

لم ألحظ قدومَ الرَّبيع، للوهلة الأولى، في الحقول الفسيحة أو الحدائق الكبيرة. كان ذلك في الأشجار القليلة المثيرة للشَّفقة، النَّامية في ساحة مدينة صغيرة. يبدو الأخضر البرَّاقُ هُنَاك وكأنه عطيَّة، وهو مثير للبهجة كنوبةِ حُزنٍ شَفِيفٍ.

أُحبُّ هذه السَّاحات المتوحِّدة المتناثرة بين الشَّوارع الهادئة، والتي هي في حدِّ ذاتها هادئة وغير مزدحمة. إنَّها أشياء تنتظرُ، ومساحات خالية وسط جُلَبٍ بعيدة. إنَّها بقايا حياة قرويَّة

تكابد كي تظلَّ على قيد الحياة في قلب المدينة.

أمضي ماشياً في الشَّوارع التي تفضي إلى السَّاحة، ثُمَّ أعود أدراجي كي أرى السَّاحة ثانيةً. إنَّها مختلفة حين تُرَى من الطَّرف الآخر، ولكنَّ الهدوءَ ذاته يغمر الطَّرف الذي لم أره من قَبْلُ بحنين فجائيٍّ.

كلُّ شيء عبثيٌّ، وهذا ما أشعرُ به. لقد نسيتُ كلَّ شيء عشتُهُ كما لو كان شيئاً تناهى إلى مسامعي صُدفةً، لا أكثر. وليس ثمَّة أثرٌ في ذاكرتي لما سوف أكونُهُ هُنَاك، كأنَّني قد عشتُ ثُمَّ نسيتُ.

غروبُ شمس طافحٌ بأحزان مُرهفَةٍ يحومُ غامضاً من حولي. كلُّ شيءٍ يبردُ، ليس لأنَّهُ باردٌ حقاً، بل لأنَّني مَشَيْتُ، بكلِّ بساطةٍ، في شارع ضيِّق ولم أَعُد أُبصِرُ السَّاحةَ من جديد.

386 [345]

[7 يونيو 1932]

قال أَمْيل[346] إنَّ المنظر الطبيعيَّ حالةٌ ذهنيَّة، بيد أن هذه العبارة البهيجةَ قد صاغها على نحو يفتقرُ إلى الدِّقة حالمٌ فاترُ الهِمَّة. فالمنظرُ الطَّبيعيُّ منظرٌ طبيعيٌّ ولا يمكنُ أن يكون حالةً ذهنيَّة. ولا بُدَّ للمرء، كي يكون قادراً على التَّجسيد، أن يكون قادراً على الخَلْق، فلا أحدَ يقول إنَّ القصيدةَ المُكتملةَ هِيَ حالةُ التَّفكيرِ في كتابة قصيدةٍ. قد تكون الرُّؤية أنْ نحلم لكنَّنا نستخدم كلمة «رؤية» عوضاً عن كلمة «حُلم» لأنَّنا نُفرِّقُ بين الرُّؤية والحُلم. ولكنْ، ما جدوى هذه التَّأمُّلات في سيكولوجيَّة الكلمات؟ فالعشبُ ينمو، مستقِّلاً عنِّي تماماً، والمطرُ يروي العشبَ النَّاميَ والشَّمسُ تُحِيلُ حقلَ العُشب الذي نما، أو الذي سوف ينمو، إلى ذهب. ولقد كانت الجبالُ هُنَاك منذُ الأزمنة السَّحيقة، ويبدو صوتُ الرِّيح التي تهبُّ في هذه اللَّحظة كأنَّه صوت الرِّيح التي هبَّتْ من أجل هوميروس (حتَّى لو لم يكُن موجوداً على الإطلاق). سيكون من الأصوب القول إنَّ الحالةَ الذِّهنيَّة منظرٌ طبيعيٌّ، وهكذا تغدو هذه

(345) نُشر هذا النَّصُّ، أصلاً، في الصَّفحة الثَّالثة، الصَّفحة الأدبيَّة «Pagina Literaria» من المجلَّد السَّابع والأربعين لصحيفة Revolução (=الثَّورة) موقعاً باسم بِسُوَّا الصَّريح، منسوباً إلى سوارش، رفقةَ إشارة إلى أنَّهُ مُقتطَف من كتاب القلَق. (المترجم)

(346) لمزيد حول أَمْيل، أُنظر الحاشية 36. (المترجم)

المقولة مميَّزةً بأنَّها لا تحوي بُهتاناً نظرياً وإنَّما حقيقة الاستعارة.

لقد أملَتْ عليَّ هذه الكلمات الرَّحابةُ العظيمة للمدينة التي رأيتُها مضاءةً بنور الشَّمس الكونيِّ، من أعالي **سَوّ پِيدْرُوْ ذَا أَلْكَنْتَرَة** [347]، وفي كلِّ مرَّة أنظرُ فيها، على هذه الشَّاكلة، إلى المنظر الطَّبيعيِّ الشَّاسع، مُحرِّراً نَفْسي من طُول قامتي البالغ متراً و70 سنتيمتراً ومن الـ 61 كيلوغراماً التي تكوِّن جسدي، أبتسمُ ابتسامةً غيبيَّة إلى أولئك الذين يحلمون بأنَّ الحُلم هو مجرَّد حلم ثُمَّ أعشقُ، بالفضيلة النَّبيلة التي وُلِدَتْ من الفهم، حقيقةَ العالَم الخارجي المُطلَق.

ونهرٌ تيجو الذي في الخلفيَّة بحيرةٌ زرقاءُ والتِّلالُ على الشَّاطئ البعيد كأنَّها سويسرا وقد أقعَتْ. قاربٌ صغير -قاربُ شحنٍ بخاريٌّ أسودُ- يغادر شواطئ **بُوْسُّوْ دو بيشپو** [348] صوبَ فم المصبِّ الذي لا أستطيع رؤيتَهُ من هُنَا. وحتَّى يكفَّ مظهرُ نَفْسي الخارجي عن الوجود، فَلْتَحفظ الآلهةُ فِـيَّ هذه الفكرة الصافية المشرقة عن الحقيقة الخارجية، وهذا الإحساس بعدم أهميَّتي، وهذا الشُّعور المُريح بكوني ضئيلاً وقادراً على تخيُّل أنَّني سعيد.

387
[11 يونيو 1932]

وما إن تلاشى الحَرُّ وراحتْ تشتدُّ زخَّات الأمطار الخفيفة الأولى كي تجعل أنْفُسَها مسموعةً، حتَّى عمَّ الهواءَ هدوءٌ كان غائباً جرَّاءَ الحَرِّ السَّابق، سكينةٌ جديدة ملأها المطرُ نسيماً من صُنعه. وكان الفرحُ البرَّاق الصَّافي للمطر النَّاعم على تلك الشَّاكلة، بلا عواصف أو سماوات معتمة، حتَّى إنَّ الذين خرجوا بلا شمسيَّاتٍ أو ثياب واقية من المطر، كلَّ الذين خرجوا في الحقيقة أو يكادون، ضجُّوا بالضَّحك حين أسرعوا مُثرثرينَ في الشَّوارع التي تلمعُ.

يمَّمتُ وجهي، في برهةٍ لم يكن لديَّ فيها شيءٌ أفعله، إلى النَّافذة المفتوحة في المكتب -كانت مفتوحةً بسبب الحَرِّ وتُركَتْ مفتوحة حين هَلَّ المطرُ- فرأيتُ حين نظرتُ إلى المشهد، تختلطُ فِـيَّ اليقظة الشَّديدة باللَّامبالاة، المشهدَ الذي وصفتُهُ قبل أن أراهُ بالضَّبط. لا ريبَ

---

(347) أُنظر الحاشية 304، لمزيد من المعلومات. (المترجم)

(348) Poço do Bispo (وتعني حرفياً: بئر الأُسْقُف): ميناء في شمال شرق لشبونة. (المترجم)

بتاتاً أنَّ فرحاً كان يمشي في الشَّارع متخفِّياً في هيئة شخصَيْن عاديَّيْن، يتحدَّثان ويبتسمان في المطر الرَّقيق غير مُسرعَيْن، وإنَّما يتمشَّيان بخفَّةٍ في الصَّفاء النَّقيِّ للنَّهار الذي يُعتِمُ.

ولكنَّ مفاجأةً كانت تنتظرُ عند زاوية الشَّارع تماماً: بغتةً ظهر رجلٌ بائس فقيرٌ، ولكنَّه لم يكُن مسكيناً البتَّة، يشقُّ طريقه وقد طفح به الكيلُ، عبر المطر المُتراخِي. كان هذا الرَّجل، الذي من الواضح أنَّه لم يخرج لقضاء حاجة عاجلة، قد عِيلَ صبرُهُ على الأقلِّ. تأمَّلتُهُ باهتمام بالغ، ليس بالعين السَّارحة التي ينظرُ بها المرءُ إلى الأشياء في العادة، وإنَّما بالعين التَّحليليَّة التي يدَّخرُها لفكِّ شفرة الرُّموز. لم يكُن يرمز إلى أحدٍ؛ ولهذا بدا في تلك العجلة من أمره. كان يرمزُ إلى أولئك الذين لم يكونوا أحداً على الإطلاق، وكان ذلك سببَ معاناته الأعمق. لم يكُن ينتمي إلى أولئك الذين تبسَّموا أسفلَ بهجة المطر، وإنَّما إلى المطر نَفْسهِ - كائنٌ غير واعٍ، غيرُ واعٍ إلى الحَدِّ الذي لا يستطيعُ فيه الشُّعور بالحقيقة الواقعيَّة.

لكنَّ ذلك ليس ما أردتُ قولَهُ. ثمَّة شرودٌ غامضٌ، أزمةٌ ألَمَّتْ بالرُّوح جعلتني عاجزاً عن الاستمرار، حالتْ بين أن أراقب ذلك العابر (الذي لم أعُد أراه حقيقةً، لأنَّني توقَّفتُ عن النَّظر إليه) والآصرة التي تربطني بهذه المُشاهدَات. لكنَّني سمعتُ، دون أن أسمع، في خلفيَّة شرودي، صوتَ العاملين في حجرة البريد في الطَّرف القصيِّ من المكتب حيث يبدأُ المستودع، ثُمَّ رأيتُ دون أن أرى، على الطَّاولة التي قرب النَّافذة التي تُطِلُّ على الباحة في غمرة الأصوات المُتندِّرة وطَقَّة المقصَّات، خيوطَ القُنَّب وهي تُلَفُّ حول الطُّرود المغلَّفة بورق بنيٍّ، مرزومةً بِعُقَدٍ مُزدوجَة.

لا يستطيعُ المرء رؤيةَ إلَّا ما قد رآهُ.

388

[14 يونيو 1932]

لا أحدَ يفهمُ الآخَر. فنحنُ، مثلما قال الشَّاعرُ[349]، جُزُرٌ معزولةٌ في بحر الحياة؛ والبحرُ الذي يُعيِّنُ حدودَنا، ويفصلُنا عن بعض، يتدفَّقُ بَيْنَنَا. ولا تستطيع نَفْسٌ، مهما كابدتْ

(349) يقصد الشَّاعر الإنگليزيَّ ماثيو آرنولد، في قصيدته «إلى مارغريت-استكمالاً لما بُدِء»: «نعم، مثل جُزُرٍ نحنُ معزولونَ في بحر الحياة/ وسلالمُ تتردَّدُ أصداؤها مرميَّةً بَيْنَنَا/ تتناثرُ فوق المياه الجامحة التي لا ضفافَ لها/ نحن الملايين الفانين نعيشُ وحدَنا.». (المترجم)

لتعرف نَفْساً أُخرى، إلَّا أن تحكمَ على الكلمات التي تُقَالُ؛ الكلمات التي هِيَ ظلٌّ بلا شكلٍ على أرض فَهْمِنَا.

أُحبُّ جوامَع الكَلِم لأنَّني لا أعرفُ ما تعنيه بتاتاً، فأنا كالفيلسوف والمُنجِّم لُوِي-كلود دو سان-مارتان[350]: أُقنِعُ نَفْسي بما مُنِحَ لِي. أرى، وهذا وحده يكفي تماماً. فَمَن ذا الذي يستطيع فهمَ كلِّ شيء؟

وربَّما لأنَّني أرتابُ كثيراً في كلِّ ما هُوَ جَلِيٌّ حقاً، فإنَّني أنظرُ باهتمامٍ متساوٍ إلى الشَّجرة والوجه، والمُلصَق الإعلانيِّ والابتسامة. (كلُّ شيء طبيعيٌّ، وكلُّ شيء اصطناعيٌّ، وكلُّ شيءٍ سَواءٌ). كلُّ شيء أراهُ هُوَ، بالنِّسبة إليَّ، مرئيٌّ تماماً، سواء أكان الأزرقَ الشَّاسعَ أمْ سماءَ الصَّباح القادمِ التي يشوبُها الأخضرُ أمْ عبوسَ الألم الباطلَ الذي يعتري وجهَ شخص يُدرِكُ، وَهْوَ في حضرة موتِ عزيزٍ على قلبِهِ، أنَّ الأبصار شاخصةٌ إليه.

النُّقوشُ والتَّصاويرُ والصَّفحات الموجودة وقد قُلِبَتْ... وقلبي ليس فيها، ولا حتَّى اهتمامي الذي يطوف عبر سطح الأشياء، تشبه ذبابةً فوق قصاصة من ورق.

فهل أعرفُ حتَّى أنَّني أشعرُ، وأفكِّرُ، وأُوجَدُ؟ لا شيءَ: ليس إلَّا خلاصة موضوعيَّة من ألوان وأشكال وانطباعات لستُ إلَّا مرآتها الدوَّارة - المعروضة للبيع.

389

[23 يونيو 1932]

الحياةُ رحلةٌ تجريبيَّة نشرع فيها كَرْهاً. إنَّها رحلةُ الرُّوح عبر العالَم الماديِّ، ولأنَّ الرُّوح هي التي ترحلُ، فإنَّها في الرُّوح تُختبَر. ولهذا تُوجَد أرواحٌ متأمِّلة عاشتْ أكثر جموحاً، على نطاق واسع، وأكثر صخباً من أرواح أخرى عاشتْ حيواتها من خارجها تماماً، فلا يُعتدُّ إلَّا

(350) العبارة التي يستخدمها بِسُوَّا في الأصل هي: «Sou como o mestre de Saint Martin» (= أنا مثل مُعلِّم سانْ مارتان)، ولكنَّ جُول كوستا، تضيف، هُنا، عبارة «الفيلسوف والمُنجِّم»، بعد أن ذكرت اسم سان مارتان كاملاً، «Louis-Claude de Saint Martin»، لمزيد من التَّعريف. بَيْدَ أنَّ بِسُوَّا لا يتحدَّث هنا عن سان مارتان وإنَّما عن مُعلِّمه مارتينز باسكوالي Pasqually، ولاسيَّما أنَّ زينيث يذكر، في حواشي طبعته، أنَّ عبارة «أُقنِعُ نَفْسي بما مَنحَ لِي» التي يوردها بِسُوَّا في الجملة التي تلي ذلك، تحويرٌ للعبارة التي قالها باسكوالي حين سأله سان مارتان، في الفترة التي كان يقرأ فيها عليه العلوم الباطنيَّة ويتعلَّمُ منه أسرار الطُّقوس: «هل ثمَّة كثيرٌ من الأشياء الضَّروريَّة لنكون قادرين على الصَّلاة للرب، يا مُعلِّم؟». فأجاب باسكوالي: «لا بُدَّ أن نقنعَ بما لدينا». (المترجم)

بالنَّتيجة النِّهائيَّة، ولا يشعر المرء إلَّا بما قد ذاقَهُ وجرَّبه. يخلد المرءُ إلى النَّوم وقد هدَّهُ التَّعب من الأحلام مثلما يخلدُ وقد بذل مجهوداً بدنياً شاقاً، فلا يعيش المرءُ البتَّة بالمشقَّة التي يعيشُ فيها حين يفكِّرُ ملياً.

الشَّخص الواقف بعيداً في زاوية الغرفة يرقص مع الرَّاقصين جميعاً. إنَّه يرى كلَّ شيء، ولأنَّه يرى، فهو يختبرُ كلَّ شيء. ما الرُّؤية في الحقيقة إلَّا مجرَّد شعور آخَر، فرؤية الجسد، أو حتَّى تذكُّره، لا تختلف بتاتاً عن الاحتكاك المباشر بذلك الجسد. وهكذا، حين أرى الآخرين يرقصون، فإنَّني أرقصُ أيضاً. أتَّفقُ مع الشَّاعر الإنگليزيِّ[351] الذي كتب، واصفاً كيف استلقى بعيداً في العشب يرقب ثلاثة جزَّازينَ يجزُّون العشب: «ثمَّة رجلٌ رابع يجزُّ العشبَ، وهذا الرَّابع أنا».

وهذا كلُّه، الذي أحكيه مثلما أشعرُ به تماماً، مرتبطٌ بالتَّعب الشَّديد الذي اجتاحني اليوم فجأة، بلا سبب واضح. لا أشعر بالتَّعب فحسبُ، وإنَّما بالمرارة، على الرَّغم من أنَّ سبب تلك المرارة غير معروف أيضاً. أشعر بمثل ذلك الكَرْب وأنا على وشك أن أذرف الدُّموعَ، الدموع التي سوف تظلُّ طَيَّ الكتمان لَوْ لَمْ تُذرَف، الدموع التي تُولَدُ من سَقَمِ الرُّوح لا من سَقَم الجسد.

لقد عشتُ كثيراً دونَ أن أعيش، وفكَّرتُ كثيراً دونَ أن أفكر. أشعرُ بوطأة عوالم عُنفٍ لم يظهر إلى العلَن بَعْدُ، وطأة مجازفات وُلِدتْ ميِّتةً. سئمتُ ممَّا لم أملكهُ قطُّ وممَّا لن أملكه أبداً، سئمتُ الآلهة التي على وشك أن تُوجَد دائماً. أحملُ على جسدي جروحَ جميع الحروب التي لم أخضها. عضلاتي متعبة من الجهود التي لم أُفكِّر في بذلها على الإطلاق.

باهتة، وخرساء، وخاوية... تنتمي السَّماء التي في الأعالي إلى صيف ميِّت، لم يكتمل قَطُّ. أنظرُ إليها كأنَّها لم تكُن هَنَاك. أُنوِّمُ ما أفكِّرُ فيه، وأستلقي حتَّى وأنا أمشي، وأعاني ولا أشعرُ بشيء. حنيني العظيم إلى لا شيءَ بتاتاً، إنَّهُ لا شيءَ في حدِّ ذاته كالسَّماء في الأعالي التي لا أراها، والتي أنظرُ مُتجرِّداً إليها.

---

(351) يقصد الشَّاعر الإنگليزيَّ إدموند غوسَّي، في قصيدته «مستلقياً في العشب»: أرقبُ، مُستلقياً، ثلاثةَ جزَّازينَ يجزُّون العشب:/ بأذرعٍ سمراءَ يحصدونَ متناغمين.». (المترجم)

[16 يوليو 1932]

ثمَّة حزنٌ بهيجٌ في النَّقاهة، ولاسيَّما إنْ كان المرض السَّابقُ قد أصاب الأعصاب. وثمَّة لمسة من خريف في عواطف المرء وأفكاره، أو بالأحرى يشعر المرء كأنَّهُ يومٌ من أيَّام الرَّبيع الباكر حين يبدو الهواء والسَّماء أقرب إلى الخريف لا الرَّبيع، باستثناء أنَّه لا أوراق أشجار تسقط بالطَّبع.

نذوقُ التَّعب البهيج ولكنَّ إحساسنَا بالسَّرَّاء يوجعُ قليلاً، ونشعرُ أنَّنا مُبعدون عن الحياة على الرَّغم من أنَّنا مانزال فيها، كأنَّنا نقف على شرفة منزل الحياة. نتأمَّلُ، لكنَّنا لا نُفكِّرُ في أيِّ أفكار، ونشعرُ، لكنَّنا لا نحس بأيِّ عاطفة مُحدَّدة، وتهدأ الإرادة لأنَّنا لم نَعُد في حاجةٍ إليها.

حينئذٍ فقط تعرجَ بأناةٍ، في مُرتقَى وعينَا، ذكرياتٌ محدَّدةٌ وآمال معيَّنةٌ ورغباتٌ غامضة أكيدةٌ، كرحَّالةٍ بعيدين شُوهِدُوا من قمَّة الجبل. ذكرياتُ أشياء عقيمة، وآمالٌ ترنو إلى أشياء لم تتحقَّق قَطُّ فلم نَعُد نكترث بها بتاتاً، ورغباتٌ لم تكُن عنيفةً بطبعها ولا حتَّى في نيَّتها ولم تكُن راغبةً إطلاقاً في أن تكون على قيد الوجود.

وحين يأتي اليوم المناسب لمثل هذه المشاعر كاليوم، على الرَّغم من أنَّ الوقت مايزالُ صيفاً والسَّماء مُقلَّمة بالغيوم والرِّيحُ الخفيفة باردةٌ لأنَّها لم تكُن دافئةً بكلِّ بساطة، تغدو تلك الحالة الذِّهنية أوضح ولاسيما الطَّريقة التي نفكِّرُ فيها، أو نشعر بها، أو نختبرُ عبرها تلك الانطباعات. وذلك لا يعني أنَّ ذكرياتنا أو آمالنا أو رغباتنا تكون أشدَّ وضوحاً، وإنَّما أشد حضوراً فحسب، وتغدو شِدَّةُ أجزائها جميعاً، بصرف النَّظر عن مدى عبثيَّة ذلك، أقلَّ وطأةً على القلب.

ثمَّة شيء بعيدٌ حولي الآنَ تماماً. أقفُ على شرفة الحياة، ولكنها ليست شرفة هذه الحياة. أنا وسط الحياة وأرقبُها من المكان الذي أقفُ فيه على حدٍّ سواء. إنَّها ماثلةٌ أمامي، تهبطُ في مصاطب ومنحدرات، كمنظر طبيعيٍّ متغيِّر، إلى الدُّخان المتصاعد من البيوت البيضاء للقرى الهاجعة في الوادي. ولو أغمضتُّ عينيَّ، فسوف أظلُّ أراها لأنَّني لا أستطيع أن أراها. ولو فتحتُ عينيَّ، فلن أرى البتَّة، لأنَّني لم أر أيَّ شيء في الحقيقة قَطُّ. فكلُّ جزء منِّي حنينٌ غامضٌ لا إلى الماضي ولا إلى المستقبل: كُلِّي حنينٌ إلى حاضر مجهول، ومُطوَّلٍ، ولا يُسبَر غورُهُ.

391

[25 يوليو 1932]

مصنِّفو العالَم، أولئك العلماء الذين تنحصرُ معرفتهم بقدرتهم على التَّصنيف، يجهلون، بصفةٍ عامَّة، حقيقةَ أنَّ القابلَ للتَّصنيف لا نهائيٌّ، ولذلك فهو عصيٌّ على التَّصنيف. لكنَّ أكثرَ ما يُثير دهشتي هُوَ أنَّهم لا يعرفون أيَّ شيء عن وجود شرائح مُعيَّنةٍ، مجهولة وقابلة للتَّصنيف، أشياء الرُّوح والوعي التي تعيشُ في فجوات المعرفة.

وربَّما لأنَّني أُفكِّرُ كثيراً وأحلمُ كثيراً فلا أستطيع بكلِّ بساطة التَّمييز بين الحقيقة الواقعيَّة الموجودة وحقيقة الأحلام غير الموجودة. ولهذا فإنَّني أُقحم عبر تأمُّلاتي في السَّماء والأرض أشياءَ لا تلمعُ في الشَّمس ولا تُداسُ تحت الأقدام: العجائبُ السيَّالة للمُخيِّلة.

أُسربلُ نَفْسي بذهبِ مغيباتِ شمسٍ مُتخيَّلة، بَيْدَ أنَّ المُتخيَّلَ يعيشُ في المخيِّلة. وأُفرِّحُ نَفْسي بنسائم متخيَّلة، فالمتخيَّلُ يعيشُ حين يُتَخيَّل. تمدُّني فرضيَّات مختلفة بروحٍ، ولأنَّ لكلِّ فرضيَّة روحها الخاصَّة، فإنَّ كلَّ واحدة تمنحُني الرَّوحَ التي تملكها.

ثمَّة معضلة واحدة: الحقيقة الواقعيَّةُ، وأنَّها حيَّة وغير قابلة للحَلِّ. فما الذي أعرفه حول الفارق بين شجرة وحُلم؟ أستطيعُ لمسَ الشَّجرة، وأعرفُ أنّي أمتلكُ الحُلم. فما الذي يَعنيه ذلك كله حقاً؟

ما الذي يعنيه؟ أن أكون قادراً على العيش وحيداً في المكتب المهجور، وأن أتخيَّل دون الإساءة إلى بصيرتي. تستطيع أفكاري التَّدفُّق دونَ أن يزعجها حضورُ المكاتب المهجورة وحجرة البريد بأوراقها وبكرات خيوطها القنَّب. لقد تركتُ مقعدي العالي، ثمَّ استلقيتُ في كرسيٍّ مُورِيرَا ذي الذِّراعَيْن المُقوَّستَيْن، مستمتعاً سلفاً بحصولي على ترقيةٍ مفترضَة. ربَّما هُوَ تأثيرُ المكان الذي يُمرِّخني ببلسم التَّجريد. هذه الأيَّام القائظة تجعلني أنعس، فأنامُ بلا نوم لافتقاري إلى الطَّاقة، ولهذا السَّبب تراودُني هذه الأفكارُ.

392

[بعد 4 أغسطس 1932]

العالَمُ الخارجي مثلُ مُمثِّلٍ على خشبة مسرح: إنَّهُ هُنَاك ولكنَّهُ يتظاهرُ بأنَّهُ شيءٌ آخَر.

393

[28 سپتمبر 1932]

مَرَّ بعض الوقت، ربما أيّامٌ وشهور، مُذ لاحظتُ أيَّ شيء، ولهذا لا أُفكِّرُ، فأنا غير موجود. لقد نسيتُ مَن أنا؛ ولا أستطيعُ الكتابةَ لأنَّني لا أستطيعُ أنْ أكُون. كنتُ، وقد أخذتني سِنَةٌ من نوم مُتجَانِفٍ، شخصاً آخَر. ومعرفةُ أنَّني لا أستطيعُ أن أتذكَّر نَفْسي تُوقظُني.

يُغمَى عليَّ من الحياة قليلاً. أعودُ إلى نَفْسي بلا ذاكرةٍ عمَّا كنتُ، وذاكرةُ الشَّخص الذي كُنْتُهُ تعاني من ذلك الانقطاع. لا أَعِي إلَّا الفكرةَ المشوَّشة لهذا البرزخ المنسيِّ، والجهودَ العقيمة التي بذلَتْها ذاكرتي للعثور علـيَّ أنا الآخَر. غير أني لا أستطيعُ جمع شتاتِ نَفْسي. فإنْ عِشتُ، فلقد نسيتُ كيف أعرفُ أنَّني عشتُ.

وليسَ أوَّل أيَّام الخريف الحَقَّة هذا -أوَّل أيَّام البرد (التي حلَّتْ محلَّ تلك الأيَّام المعتدلة البرودة) والتي تُسَربِلُ الصَّيف الميِّتَ بضوءٍ أقلَّ- هُوَ الذي يجعلُني صفاؤُهُ الغريبُ أشعرُ بأنَّ طموحات ميِّتة أو نوايا باطلة تعتملُ فِـيَّ. وليس الأثرُ المُلتبِسُ للذِّكرى العبثيَّة التي ينطوي عليها برزخُ الأشياء الضَّائعة هذا. إنَّهُ شيءٌ أشدُّ إيلاماً من ذلك كلِّهِ، إنَّهُ سأمُ محاولة تذكُّر ما لا أستطيع أن أتذكَّرَهُ، واليأسُ ممَّا ضيَّعَهُ وعيي بين طحالبِ شاطئٍ آخَر مجهول وقَصَبه.

ثُمَّ أُدرِكُ، أسفلَ سماء زرقاءَ لا لُبسَ فيها وتحتَ ظلٍّ أفتحَ من الأزرق الأعمِّ، أنَّ النَّهار مُشرِقٌ وهادئ. أُدركُ أنَّ الشَّمسَ، التي هي أقلُّ ذهبيَّةً بعضَ الشَّيء ممَّا كانتْ عليه، تُذَهِّبُ الجدران والنَّوافذَ على حدٍّ سواء بانعكاساتٍ سيَّالة. أُدركُ أنَّ برودةً مُنعشةً تحوم حول المدينة التي يغشاها السَّديمُ، على الرَّغم من عدم وجود ريح أو نسيم يُذكِّرُ بوجودِ الرِّيح أو يُنكِرُ وجودَها. أُدركُ هذا كلَّهُ، دون تفكير وبلا إرادة، فلا تنتابُنِي رغبةٌ في النَّوم، وإنَّما ذكرى تلك الرَّغبة، ليسَ إلَّا، فلا أشعرُ بالحنين، لا أشعرُ إلَّا بالقلَق فحسبُ.

أُشفَى من سَقَم لم يُصبني، عقيماً وبعيداً. أُهيِّئُ نَفْسي، وقد تأهَّبتُ بعد أن استيقظتُ،

لما سوف أجرؤ على ألّا أفعلَهُ. فأيُّ نوع من النَّوم كان ذاك الذي لم يجلب ليَ الرَّاحة؟ وأيُّ مُداعَبةٍ تلك التي تُكلِّمني؟ ويا لبهجة أن أتنشَّقَ نَشْقَةً باردةً من ربيعٍ مُسْكِرٍ فأكون شخصاً آخر! يا للبهجة التي هي أفضلُ من الحياة كثيراً، أن أكون قادراً على تخيُّل أنَّني شخصٌ آخر، في حين ينحني القصبُ بعيداً، في الصُّورة المُتخيَّلة وحتَّى في غياب نسمةِ ريح، أخضرَ-أزرقَ على الشَّاطئ.

وعندما أتذكَّرُ الشَّخصَ الذي لم أكُنْهُ، أتخيَّلُ نَفْسي في الغالب وقد عُدتُ فَتِياً فأنسى! فهل كانت مختلفةً تلك المناظرُ الطَّبيعيَّة التي لم أرها قَطُّ؟ وهل كانت جديدةً لكنَّها غير موجودة تلك المناظرُ الطَّبيعيَّة التي رأيتُها؟ ما جدوى ذلك؟ لقد بدَّدتُ نَفْسي في حوادث عارضةٍ، في صُدوع، ولأنَّ برودة النَّهار وبرودةَ الشَّمس واحدةٌ في هذه الأثناءِ، فإنَّ القصبَ المعتم قُربَ النَّهر نائمٌ نومَهُ الباردَ في مغيب الشَّمس الذي أراهُ لكنَّني لا أملكُه.

394

[28 سبتمبر 1932]

لم يتفتَّقْ ذهنُ أحدٍ عن تعريفٍ للسَّأم بَعْدُ، ليس على الأقلِّ في لغةٍ يفهمها شخص لم يذُق طعمَ السَّأم بَعْدُ. فما يُسمِّيهُ بعضُهم السَّأمَ ليس أكثر من ضَجَرٍ، ويستخدمُ آخرون الكلمةَ قاصدينَ توعُّكاً جسديًا بعينهِ، بَيْدَ أنَّ السَّأم لايزال، بالنِّسبة إلى بعضهم، مجرَّد تَعَبٍ فحسبُ. ينطوي السَّأمُ على التَّعب والتَّوعُّكِ والضَّجَر، ولكن على الشَّاكلة التي ينطوي فيها الماء على الهيدروجين والأكسجين اللَّذَيْن يتكوَّن منهما؛ إنَّهُ يشتملُ عليهما دون أن يشبههما.

فإذا كان بعضهم يُضفي على السَّأم إحساساً مُحدَّداً غير مكتمل، فإنَّ بعضهم الآخر يمنحهُ أهميَّة ساميةً أو تكادُ، كمثل أن تُستخدَم كلمة «سأم»، على سبيل المثال، لوصف حالة الغثيان الرُّوحي العميقة التي تنتابُ المرءَ جرَّاء عشوائيَّة العالَمِ ولا يقينيَّته. يجعلُ الضَّجرُ المرءَ يتثاءب، ويجعلُ التَّوعكُ الجسديُّ المرءَ يتململ، ويحرمُ التَّعبُ المرءَ من الحركة بتاتاً، بيْدَ أنْ السَّأم ليس أيَّ حالٍ من هذه الأحوال، وليس أيضاً ذلك الإحساس العميق بخواء الأشياء حيث تتصارع الطُّموحات المحبطة بحريَّةٍ، إنه إحساسٌ من توقٍ حرَّاقٍ خائب الرَّجاء ينتابُ المرءَ فيبذرُ في الرُّوح البذرةَ التي يُولَدُ منها الصُّوفيُّ أو القدِّيسُ.

نعم، السَّأمَ هُوَ الضجَرُ من العالَم، والتَّوعُكَ الذي يصيبُ الجسدَ من البقاء على قيد الحياة، والتَّعبُ الذي يجتاحُهُ لكونه عاش؛ السَّأمُ، في الحقيقة، أن يشعر المرءُ بأنَّ خواءَ الأشياء المُطلَق يسري في جسده. والسَّأم أيضاً أكثر من ذلك كلّه؛ إنَّهُ الضَّجرُ من العوالم الأخرى، سواء أكانت موجودةً أمْ لَمْ تُوجَد بَعْدُ؛ التَّوعُكُ الذي يصيبُ الجسدَ من بقائه على قيد الحياة، حتَّى لو كان المرءُ شخصاً آخَر، بحياة أخرى، في عالم آخَر؛ تَعَبٌ ليس من الأمس أو اليوم فحسبُ، وإنَّما من الغد أيضاً، تَعَبٌ من الأبديَّة كلِّها (إنْ كانتْ موجودة) ومن العَدَم كلِّهِ (إنْ كانَ هُوَ الأبديَّةُ). وليس مجرَّد خواء الأشياء والكائنات الذي يُوجِعُ الرُّوحَ حين يغمرها السَّأمُ، إنَّهُ خواء شيء آخَر أيضاً، خواء الرُّوح التي تذوقُ ذلك الخواء فتشعر بِنَفْسها خاويةً، الخواء الذي يستثيرُ إحساساً بقرفِ المرء مِن نَفْسه ونبذه إيَّاها.

السَّأمُ إحساسٌ جسديٌّ مثيرٌ بالفوضى وحقيقة أنَّ الفوضى هي كلُّ شيء. فالضَّجِرُ، أو المُكدَّرُ، أو المُتعَبُ، يشعرُ بأنَّهُ رَهِينُ زنزانةٍ صغيرة. ويشعرُ الذي قد ضاقَ ذرعاً مِن ضِيق الحياة بأنَّه مُصفَّدٌ في زنزانة كبيرة. لكنَّ الذي هجمَ عليه السَّأمُ يشعرُ بأنَّهُ رهينُ حريَّةٍ عقيمة، في زنزانةٍ لا تُحَدُّ. وقد تنهارُ جدران الزَّنزانة التي تحيط بالضَّجِر، أو المُكدَّر، أو المُتعَب، فتدفنه تحت أنقاضها. وقد تسقط الأصفادُ عن أطراف رهينِ المَحْبَسِ الذي ضاق ذرعاً من ضِيق العالم فتسمحُ لَهُ بأنْ يهرب؛ أو، حين يعجز عن تحرير نَفْسه من تلك الأصفاد، فإنَّها قد تؤلمه، وربَّما تُحيي تجربةُ ذلك الألم في نَفْسه شهوةَ الحياة. ولكنَّ جدران الزِّنزانة المُطلَقة لا يمكن أن تنهار وتدفننا تحت أنقاضها لأنَّها غير موجودة، ولا نستطيع أن نتذرَّع بالألم الذي سبَّبته الأصفاد التي لم يضعها أحدٌ حول معاصمنا، بوصفه دليلاً على وجودنا.

هذه مشاعري وأنا واقفٌ أمام الجمال الهادئ لهذا المساء الخالد الذي يحتضر. أنظرُ إلى السَّماء الصَّافية العالية، حيث أشكالٌ قرمزيَّة غامضة، كظلال الغيوم، هي الزَّغبُ غير المحسوس على أجنحة حياة بعيدة، ثُمَّ أنظرُ أسفلَ نحو النَّهر حيث المياه التي تلتمعُ قليلاً، ذات لونٍ أزرقَ يبدو الصُّورةَ المنعكسة لسماءٍ أعمق، ثُمَّ أنظرُ إلى السَّماء ثانيةً، فأرى بياضاً ثلجياً باهتاً في الهواء المحتجب بين الألوان الغامضة التي تنحلُّ دونَ أن تنحلَّ تماماً، كأنَّ توعُّكاً قد ألَمَّ بالأشياء كلِّها في أعلى مستوياتها وأكثرها روحانيَّةً؛ سأماً في المادَّة نَفْسها؛ إحساساً باستحالة أن يكون شيءٌ هو مَا هُوَ عليه فحسب؛ آصرة من قلَق وخراب لا يمكن تصوُّرها.

ولكن، ماذا لو كان ثمّة؟ وأيُّ شيءٍ آخَر في الهواء إلّا الهواء العالي، الذي هُوَ عَدَمٌ؟ وماذا في السَّماء سوى لونٍ مُستعَار؟ وماذا في هذي الجُذاذات الصَّغيرة التي تكاد تكون غيوماً، والتي أشكُّ في وجودها، سوى ضوءٍ قليل مُنعكس نثرتهُ الشَّمسُ الخاضعة؟ وماذا في هذا كلِّه إلّا نَفْسي؟ آهٍ، ولكنَّ السَّأم يكمنُ في ذلك، وفي ذلك فحسب. إنَّها حقيقة أنَّ في ذلك كلِّه -السَّماءِ، والأرض، والعالَم- لا شيءَ البتَّة إلَّا نَفْسي!

395

[2 نوفمبر 1932]

سديمٌ أمْ دخان؟ هل اصَّاعدَ من الأرض أمْ تنزَّلَ من السَّماء؟ كان من المستحيل أن نعرف: كأنَّهُ أشبه بعدوى من الهواء أكثرَ من كونه انبعاثاً من الأرض أو تساقطاً من السَّماء. ويبدو في بعض الأحيان أَشْبَهَ بألمٍ في العينَيْن أكثرَ من كونه حقيقةً من حقائق الطَّبيعة.

وكان قلَقٌ غامضٌ قد اجتاحَ المنظرَ الطَّبيعيَّ على بكرةِ أبيه، بصرف النَّظر عن حقيقة ذلك الشَّيء؛ قلَقٌ مِن نسيانٍ وحقيقة واقعيَّةٍ واهية. كأنَّ صمتَ الشَّمس العليلة قد ظنَّ جسداً ناقصاً أنَّهُ جسدُه. كأنَّ شيئاً، يُمكِنُ أن يُحسَّ في كلِّ شيءٍ، كانَ على وشك أن يحدث ولهذا أرخَى العالَمُ المرئيُّ حِجاباً على نَفْسه.

كان من الصَّعب معرفةُ ما الذي يغطِّي السَّماء - غيومٌ أم سديمٌ. كأنَّ سُبَاتاً كئيباً قد مَسَّهُ، هُنَا وهُنَاك، لونٌ قليلٌ، رماديٌّ غريب مُصفرٌّ، إلَّا حيثُ تشظَّى قُرمزياً أو أزرقَ باطلاً، ولكنَّ المرءَ لا يستطيعُ، حتَّى حينئذٍ، معرفةَ أكانتِ السَّماءُ تتجلَّى شفَّافةً من وراءه، أمْ مُجرَّد طبقةٍ من الزُّرقة.

لم يكُن ثمَّة شيءٌ أكيدٌ، ولا حتَّى مَا هُوَ عصيٌّ على أن يكون أكيداً. ولهذا كان المرء يشعرُ بميلٍ إلى أن يُسمِّي السَّديمَ «دُخاناً»، فَهْوَ لم يَبْدُ كالسَّديم، أو أن يتساءل ما الذي كانَهُ، سديماً أمْ دُخاناً، لقد كان مستحيلاً أن يعرف. وكان دفءُ الهواء، في حدِّ ذاته، متواطئاً في إثارة هذه الرِّيبة. لم يكُن دافئاً، ولا بارداً، ولا فاتراً؛ بدا كأنَّهُ يستمدُّ حرارتَهُ من شيء آخَر غير الحرارة. لقد بدا، في الحقيقة، كأنَّ السَّديم كان بارداً على العينَيْن ودافئاً حين يُمَسُّ، كأنَّ البصرَ واللَّمَس كانا طريقتَيْن مختلفتَيْن للشُّعور بالحاسَّة ذاتها.

ولم تكُن ثمَّة ظلالُ الحوَّافِ والزَّوايا الحادَّة تلكَ التي تُضفيها السُّدُم المتوانيةُ في العادة على الحوافِّ الخارجيَّة للأشجار أو زوايا البنايات، ولم تكُن البناياتُ أو الأشجار حتَّى شِبْه جَلِيَّةٍ وشِبْه مُحتجبةٍ مثلما يتوقَّعُ المرء لو كان [السَّديمُ] دخاناً حقيقيّاً. كأنَّ كلَّ شيء قد انعكسَ حولَ ظلِّ نهاريٍّ غامض، ولكن دون أن يكون ثمَّة مصدرُ ضُوء قد يُنتجُ مثل ذلك الظِّلّ، ولا أيّ سطح قد ينعكسُ عليه فنعرفُ أنَّنا لذلكَ نراهُ.

لكنَّنا حَقّاً لم نَرَهُ، كان مجرَّدَ تلميح (واضح على حدٍّ سواءٍ في كلِّ مكانٍ) لشيءٍ على وشك أن نراهُ، كأنَّ الذي على وشك أن يتجلَّى قد تردَّدَ في الظُّهور.

فأيَّ شعورٍ قد أوجدَ فِيْنَا؟ استحالةَ أنْ يكونَ ثمَّةَ [شعورٌ البتَّة]، بل شواشُ القلب والعقل، وارتباكُ المشاعر، وسُباتُ الوجود المُستيقِظ، وإحساسٌ شديدُ الرَّهافةِ في الرُّوح يعدلُ ذاكَ الذي يغمرُ المرءَ كي يتجلَّى لَهُ شيءٌ عبثيٌّ لكنَّهُ أكيدٌ، شيءٌ على وشك أن يتجلَّى دائماً، كالحقيقة، ولكنَّه يظلُّ، كالحقيقة، صِنْوَ الذي سوف يظلُّ محتجباً ولن يتجلَّى أبداً.

لقد نبذتُ الرَّغبةَ في النَّوم الذي تجلبه الأفكارُ إليَّ، فحتَّى التَّثاؤبُ الأوَّلُ يبدو جهداً كبيراً جداً. وحتَّى عدمُ الرُّؤية يُوجِعُ عينيَّ. وكلُّ الذي يتبقَّى من العالَم المستحيل، بعدَ زُهْدِ الرُّوح كُلِّها، هُوَ الأصواتُ البعيدةُ التي خلفَهُ.

آهٍ، ليت لي عالماً آخَر، طافحاً بأشياء أُخرى، وروحاً أُخرى تجعلني أشعرُ بهذه الأشياء، وأفكاراً أُخرى أعرف بها تلك الرُّوح! أيَّ شيء آخَر، حتَّى السَّأم، ولكنْ ليس مزيجَ الرُّوح والعالَم هذا، وليس الخرابَ المُزرقَّ النَّاجم عن هذا الافتقار إلى التَّعريف الذي يطغى على كلِّ شيء.

396 (352)

[28 نوفمبر 1932]

كُنَّا نمشي، سويَّةً ومُتباعدَيْن، عبر ممرَّات الغابات التي لم تكف عن تغيير مسارها كيفما

(352) يظهر اسمُ فرناندو بِسُوَّا مطبوعاً بأحرف كبيرة، وببُنط عريض، في الجهة العلويَّة اليُسرى من الصَّفحة الثَّانية التي دوَّن عليها هذا النصَّ مرقوناً على الآلة الكاتبة، وتحت الاسم، مباشرة، العنوان التالي: خُوَا ذا سَوّ جُوْلْيَوّ، 52، الطَّبعة الأُولى، لشبونة. (المترجم)

اتفق. كانت خطواتنا، التي لم تكن خطواتنا، متَّحدةً، تتبادلُ السَّير متناغمةً فوق اللِّيُونة الهشَّة لأوراق الأشجار المتساقطة، المتناثرة، صفراءَ وخضراءَ باهتة على الأرض الوعرة. وكانت خطواتنا مُتباعدةً أيضاً، فقد كُنَّا فكرتَيْن مختلفتَيْن، ولا شيءَ مشتركاً بينهما، إلَّا أنَّ الذي لم نكُن عليه قد تبادل السَّير على السَّطح المسموع نَفْسه.

كان الخريف قد بدأ حقاً، فسمعنا، بالإضافة إلى صوت أوراق الأشجار التي كُنَّا نمشي فوقهَا في كلِّ مكان ذهبنا إليه أو كُنَّا فيه، السُّقوطَ المتواصلَ لأوراقٍ أُخرى، أو أصوات أوراق أُخرى، صُحبةَ الرِّيح العاصفة. لم يكُن ثمَّة منظر طبيعيٌّ آخر غير الغابة التي حجبَتْ كلَّ المناظر الأخرى. ولكنَّها بدتْ كافيةً، كموقع لأولئك الذين يشبهوننا ومكانٍ لهُم، أولئك الذين لم تكُن حياتُهم الوحيدة إلَّا أن يمشوا بتناغُم مُنوَّع فوق الأرض التي تموتُ. كان الوقتُ -أظنُّ- نهايةَ النَّهار، أيِّ نهارٍ، أو ربَّما نهايةَ النَّهاراَت كلِّها، في خريفٍ كان فصولَ الخريف كلَّها، في تلك الغابة الحَقَّة والرمزيَّة.

حتَّى إنَّنا لم نستطع القول أيَّ بيوتٍ أو واجبات أو علاقات غراميَّة تركناها خلفَنا. كُنَّا، في تلك اللَّحظة، مجرَّدَ مُسافرَيْن نمشي بين ما قد نسيناهُ وبين ما لم نعرفهُ، مُجرَّدَ فارسَيْن نسيرُ على الأقدام مُدافعَيْنِ عن فكرة سامية مهجورة. بَيْدَ أنَّهُ، في هذا كلِّه، كما في صوت أوراق الأشجار الذي لم ينقطع تحت أقدامنا، وصوت الرِّيح المُتردِّدة الذي مازال عاصفًا، يكمنُ سببُ خروجنا أو عودتنا، لأنَّنا حين نجهلُ الدَّربَ أو سبب ذهابنا في ذلك الدَّرب، لا نعرف إنْ كُنَّا خارجَيْن حقاً أمْ عائديْن. كان كلُّ الذي حولنا -وهو لا يُرَى بَلْ يُسمَع فحسبُ- ذلك الصَّوت الحزين لأوراق الأشجار التَّالفة السَّاقطة وَهْوَ يُهدهِدُ الغابةَ كي تنام.

لم ينتبهْ أحدُنَا إلى الآخَر قَطُّ، على الرَّغم من أنَّنا لم نواصل الطَّريق وحيدَيْن البتَّة. كانتْ صُحبتُنا نوعاً من النَّوم المُشترَك. ساعدَ صوتُ وقع أقدامنا المتناغم على أن يُفكِّر الواحدُ مِنَّا دون الآخَر، على الرغم من أنَّ خطواتنا المنفردة كانت ستذكِّرُ أحدَنا بحضور الآخَر. كانت الغابة كلُّها مساحات شاسعة باطلة، كأنَّها باطلةٌ، في حدِّ ذاتها، أو على وشك أن تنتهي، بَيْدَ أنَّ ذلك الباطلَ لم ينتهِ، ولم تنتهِ الغابةُ. واصلت خطواتنا المتناغمة المسيرَ، وكان صوتُ سقوط الأوراق الخافتُ يختلطُ بضجيج الأوراق التي تدوسها أقدامُنا في الغابة التي باتَتْ كلَّ شيء، في الغابة التي باتَتِ الكون.

فَمَن كُنَّا؟ هل كُنَّا اثنَيْن أمْ شكلَيْن للشَّخص ذاته؟ لم نعرف ولم نسأل قَطُّ. لا بُدَّ أنَّ شمساً كانت في مكان ما، فالغابة لم تكُن ليلاً معتماً بَعْدُ؟ ولا بُدَّ أنَّنا امتلكنا هدفاً أيضاً، فقد واصلنا المسير. ولا بُدَّ أنَّ عالماً من نوعٍ ما كان موجوداً، فقد كانت الغابةُ موجودةً. ولكنَّنا لم نكترث على الإطلاق بما كانَ أو ما قد يكونُ، كُنَّا مسافرَيْن لا نهائيَّيْن، نسحقُ بأقدامنا الأوراق الميِّتةَ مُتناغمَيْن، مجهولَيْن، ومُنصِتَيْن مُستحيلَيْن للأوراق السَّاقطة، ولا شيءَ أكثر. همسةٌ، هي الآن صاخبةٌ، والآنَ ناعمةٌ، تهمسُ بها الرِّيحُ الغامضة، وهمهمةٌ، هي الآن عاليةٌ، والآن خافتةٌ، تنبعثُ من الأوراق المُحاصَرة، فجوةٌ، وشكٌّ، ومحاولة مُخفِقَةٌ، ووهمٌ لم يكُن على الإطلاق - إنه الغابة، والمسافران، وأنا. لا أعرفُ أيَّ المسافرَيْن كنتُ، ولا أعرفُ إنْ كُنْتُهُمَا معاً أو إنْ لَمْ أَكُنْهُمَا قطُّ. ولقد شهدتُ، دونَ أن أنتظر لأرى كيف انتهَتْ مأساةُ الذي لم يكُن أيَّ شيءٍ البتَّةَ سوى الخريف والغابة، والرِّيح المتردِّدة التي مازالتْ تعصفُ، وأوراق الأشجار التي سقطتْ دائماً أو مازالتْ تسقطُ. أستطيعُ، دائماً، أن أرى بوضوح، حتَّى لو كان ذلك بلا غايةٍ، صمتَ الغابةِ المُهَمْهِمَ، كأنَّ شمساً كانت هُناك حقاً أو نهاراً.

397 (353)

[نحو نوفمبر 1932]

تلكأَ الهواءُ الطَّافحُ بالشَّمس، على الرَّغم من كَمال النَّهار الواضح. إنه ليس التَّوتُّرَ الحالي النَّاجم عن العاصفة الرَّعدية التي تحتشدُ، والقَلَقَ الذي يجتاحُ الأجسادَ التي تفتقرُ إلى الإرادة، والكُدْرةَ الغامضة التي تصيب سماء أخرى زرقاءَ صافيةً. إنَّهُ السُّبات المحسوس لوعدِ أوقات الفراغ، ريشةٌ تلمسُ بخفَّةٍ وجْنةً يرنو إليها النُّعاسُ. كأنَّه الرَّبيعُ، على الرَّغم من أنَّنا في عِزِّ الصَّيف. يبدو الرِّيفُ مُغرياً حتَّى بالنِّسبة إلى شخص لا يستمتعُ به في العادة.

لو كنتُ شخصاً آخَر، لكانَ هذا النَّهارُ-على ما أظنُّ- نهاراً آخَر، لأنَّني سوف أشعرُ به دون أن أُفكِّر فيه. ولسوف أُنهي عملي اليوميَّ، تغمرني المسرَّةُ المرجوَّة؛ العمل الذي يبدو، بالنِّسبة إليَّ، رتيباً على نحو غير طبيعيٍّ، كلَّ مرَّة وكلَّ يوم. سأستقلُّ الترام الذَّاهب إلى بنِفيكا

(353) نُشر النَّصُّ، في الأصل، موقَّعاً باسم بِسُوَّا الصَّريح، منسوباً إلى سوارش، في مجلَّة Revista (العدد الأوَّل، المجلَّد الأوَّل، ص 8) الصَّادر في العام 1932. (المترجم)

رفقةَ مجموعة من الأصدقاء. ستنعشّى في الهواء الطَّلق والشَّمس على وشك أن تغيب. ستبدو سعادتنا جزءاً طبيعياً من المنظر الطَّبيعيِّ، ويعرفُ أنَّها كذلك كلُّ مَن يرانا.

ولأنَّني نَفْسي، فإنَّي أختلسُ متعةً عابرةً من المسرَّة العابرة التي تغمرني حين أتخيَّل نَفْسي شخصاً آخَر. نعم، سرعان ما سوف يأكلُ الذي أنا هُوَ، جالساً تحت عريشة عنبٍ أو شجرة، ضعفَ ما أستطيع التهامَهُ في العادة، ويشربُ النَّبيذَ ضعفَ ما أجرؤُ على شربه، ويضحكُ ضعفَ ما أتخيَّل أنَّني قادرٌ عليه. كنتُ في البَدْءِ هُوَ، والآنَ أنا نَفْسي. نعم، كنتُ لوهلةٍ شخصاً آخَر: رأيتُ مثل شخص آخَر فعشتُ تلكَ السَّعادة الإنسانيَّة المتواضعةَ مثل بهيمةٍ خرقاء ترتدي قميصاً لا شيءَ فوقَهُ. فيا لَهُ من نهارٍ رائع يجلب لي مثل ذلك الحُلم! ولا شيء في الأعالي إلَّا زرقةٌ تامَّةٌ وبهاءٌ كاملٌ مثل حُلمي العابر في أن أكون مندوبَ مبيعاتٍ جوَّالاً، في أتمِّ صحَّةٍ وعافية، يذهبُ في نزهة للتَّرويح عن نَفْسه بعد انقضاءِ ساعات العمل.

398

[13 ديسمبر 1932]

وبما أنَّني كنتُ أُفكِّرُ وأتأمَّلُ -بِقَدْر ما أستطيع- فقد بات من الواضح، بالنِّسبة إليَّ، أنَّ البشر لا يعرفون أو لا يستطيعون التَّوافق بشأن ما هُوَ مُهمٌّ حقاً في الحياة، أو ما هُوَ مفيدٌ بوصفه دليلاً للعَيْش فيها. فالعِلم الأدقُّ هُوَ الرِّياضيَّات؛ وهو العِلمُ الذي يحيا منعزلاً في قواعده وقوانينه الخاصَّة؛ وإنَّهُ مفيدٌ، بالطَّبع، حين يُطبَّق لتوضيح العلوم الأخرى، لكنَّهُ لا يُوضِّحُ إلَّا ما تكتشفه تلك العلوم، ولا يساعدها على الوصول إلى تلك الاكتشافات. فاليقينيَّات الوحيدة التي تنطوي عليها العلوم الأُخرى لا تمتُّ بصلة إلى الأهداف السَّامية للحياة. تَعرف الفيزياءُ مُعامل تمدُّد الحديد، لكنَّها لا تعرفُ الآليَّات الفعليَّة لنشأة العالَم. وكلَّما ارتقَينا فيما نودُّ أن نعرفه، غرقنا أعمقَ في الذي نعرفه. فعِلمُ الغيبيَّات الذي يتوجَّب أن يكون الدَّليل الأسمى، لكونه العلم الوحيد الذي يهتمُّ بالمقاصد السَّامية للحقيقة والحياة، ليسَ نظريَّةً علميَّة، وإنما كومةٌ من آجُرٍّ تُشيَّدُ منها -اعتماداً على مَن يقوم بعمليَّة البناء- منازلُ عديمة الشَّكل، بلا مِلَاطٍ يشدُّ بعضَها إلى بعض.

وأُلاحظُ، أيضاً، أنْ لا فرقَ بين حيوات الحيوانات والبشر، باستثناء الطَّريقة التي يخدعون

بها أنْفُسَهم، أو المدى الذي يجهلون فيه ماهيَّةَ الحياة. فالحيوانات لا تعرف كُنْهَ أنْفُسِها: تُولَدُ، وتكبُرُ، وتعيش، وتموتُ، دون أن تُفكِّر أو تتأمَّل أو تمتلك أيَّ مستقبل حقيقي. فكم من البشر، على الرَّغم من ذلك، يعيشون حياةً تختلف عن تلك التي تعيشها الحيوانات؟ نحن نبنام جميعاً، والفارق لا يكمن إلَّا فيما نحلمُ به وفي مدى الأحلام ونوعيَّتها. ربَّما سوف يوقظنا الموتُ، ولكنْ لا يقينَ لدينا على ذلك إلَّا يقين الإيمان (بالنِّسبة إلى من يعدُّ الإيمان كافياً)، والأمل (بالنِّسبة إلى من يعدُّ الرَّغبة امتلاكاً)، والإحسان (بالنِّسبة إلى من يعدُّ العطاءَ أخذاً).

إنَّها تمطرُ في هذا اليوم الشِّتائيِّ البارد الحزين، كما لو أنَّها تمطرُ على هذا النَّحو الرَّتيب مُنذ أن خُطَّتْ صفحةُ العالَم الأولى. إنَّها تمطرُ، ومشاعري كأنَّ المطر ينكَبُّ عليها فتسجدُ مرخيةً أبصارها على الأرض التي يفيضُ فوقها ماءٌ لا يغذِّي شيئاً ولا يغسل شيئاً من أدرانه ولا يجلب فرحاً. إنَّها تمطرُ، فأشعرُ فجأةً بالثِّقل الهائل الطَّاغي لكوني حيواناً لا يعرف ما هُوَ، يحلم بأفكاره ومشاعره محدودباً كأنَّهُ في زريبةٍ، في منطقة مكانيَّة من كينونته، قانعاً بالدِّفء القليل قناعتَهُ بالحقيقة الأبديَّة.

399

[30 ديسمبر 1932]

وبعد أن انهمرت آخر الأمطار من السَّماء فهطلتْ على الأرض -تاركةً السَّماءَ صافية والأرض رطبة تلمعُ كالمرآة- أصاب الفرحُ العالَمَ تحته لما خلفه المطر من برودة، وصفاء الحياة العظيم الذي عاد رفقةَ زُرقة السَّماوات قد مدَّ كلَّ روح بسمائها الخاصَّة، وكلَّ قلب بنضارة جديدة.

نحن عبيدُ السَّاعة في أشكالها كافَّةٍ وألوانها كلِّها، سواءٌ أأَعجبنا ذلك أمْ لَمْ يعجبنا، ونحن رعايا السَّماء والأرض. وبعضُنا الذي يمقتُ الأشياء التي تُحيط بهِ يغوص عميقاً داخل نَفْسه، فلا يسلكُ الدُّروب ذاتها حين تمطر، مثلما يفعل حين تكون السَّماء صافية. ذاك، بكلِّ بساطة، لأنَّ السَّماء حين تمطر، أو تتوقَّف عن المطر، تَحدثُ تحوُّلات غامضة قد لا نحسُّ بها إلَّا في صميم مشاعرنا الأشدِّ تجريداً؛ نشعرُ بهذه التَّحوُّلات دون أن نعرف، لأنَّنا نشعرُ بالطَّقس حتَّى حين لا نكون واعين بأنَّنا نشعرُ به.

كلُّ واحدٍ مِنّا أكثرُ من شخص، إنَّهُ أشخاصٌ كثيرون، تَناسُلُ نَفْسِهِ الواحدة. ولهذا يختلفُ الشَّخصُ ذاتُهُ، الذي يمقتُ الأشياء التي تُحيط بهِ، عن ذلك الذي يُسَرُّ بها أو يعاني من وجودها. ثمّة أنواع مختلفة كثيرة من البشر، في مستعمرة كينونتنا الشّاسعة، وكلُّ نوع يُفكِّر ويشعر بطريقة مختلفة. فاليومَ، وأنا أُدوِّنُ هذه الانطباعات القليلة في الفُسحة التي أباحتها قلَّةُ العمل لديَّ، كنتُ الشَّخصَ الذي يكتبها بعناية فائقة، والشَّخصَ الذي غمرته المسرَّةُ لأنَّهُ لم يكُن يعمل في تلك الأثناء، والشَّخصَ الذي ينظر إلى السَّماء على الرَّغم من أنَّهُ لن يراها من مكانه، والشَّخصَ الذي يُفكِّرُ في هذا كلِّه، والشَّخصَ الذي يشعر بأنَّ الرَّاحة دبَّتْ في جسده فيلاحظُ أنَّ يديه مازالتا باردتَيْن قليلاً.

لكنَّ عالمي هذا، الذي يُشبه حشداً متنوِّعاً لكنَّه مرصوص، مكوَّنٌ برمَّته، في حدِّ ذاته، من بشر مختلفين، ولا يعكس إلَّا ظلاً واحداً، ظلَّ هذه الهيئة الهادئة التي تكتبُ على مكتب بُورجيش العالي، حيث جئتُ لأستردَّ دفتر الحسابات الذي استعارَه منّي.

400

[1932؟]

يجعلُك الحَرُّ، الذي يُشبِهِ قطعة ثيابٍ محجوبة، راغباً في خلعهِ.

401

[1932؟]

ارتجفَ، مُعتماً، نصلُ برقٍ مُنهكٌ في الغرفة الكبيرة، وعَمَّتْ سَكْتَةٌ قبلَ صوت الرَّعدِ المُحدِق، كأنَّه كان يعبُّ الهواءَ، ثُمَّ تلاهُ هزيمٌ مُهاجِر عميق. تأوَّه المطرُ، مثلما يتأوَّهُ المُشيِّعون المحترفون حين يتجاذبون أطراف الحديث. لكنَّ أخفض الأصوات بدا، داخل البيوت، عالياً ومضطرباً إلى حدٍّ بعيد.

402

[1932؟]

لا بُدَّ أن تُعَدَّ جميعُ الأشياء غير السَّارَّة التي تحدث لنا في الحياة -كأنْ نبدو سخيفين في نظر الآخرين، على سبيل المثال، فنُسيئ التصرُّفَ أو نرتد عن الفضيلة- مجرَّدَ أحداثٍ خارجية لا تمتلك القوَّة كي تلمس أعماق أرواحنا. ولا بُدَّ أن نُفكِّر فيها بوصفها وجعاً في الأسنان أو ثآليل الحياة، أشياء تزعجنا لكنَّها، على الرَّغم من أنَّها لَنَا، موجودةٌ خارجنا، بوصفها أشياء يتوجَّب على وجودنا العضويِّ أن يتعامل معها، أشياء لا تحتاجُ إلى أن تقلق بشأنها سوى طبيعتنا البيولوجيَّة.

وحالما نتبنَّى تماماً هذا الموقف الذي هُوَ، بطريقة أو أخرى، موقف الصُّوفيِّين، فإنَّنا لا نحتمي من العالَم فحسب، وإنَّما من أنْفُسنا أيضاً، لأنَّنا نكون قد قهرنا كلَّ ما هُوَ غيرُنا، وكلَّ ما هُوَ خارجيٌّ، وكلَّ ما هُوَ ضدُّنا، ولذلك فهو عدُّونا.

هذا ما قصدَهُ هُوراس(354) حين تحدَّث عن الإنسان العادل الذي لا يهتزُّ له جفنٌ حتَّى حين ينهار العالَمُ من حوله. قد تكون الصُّورة عبثيَّة، لكنَّ حقيقة معناها لا جدال فيها. وحتَّى لو انهارَ ما نتظاهرُ أنَّنا عليه، فلا بُدَّ ألَّا يهتزَّ لنا جفنٌ -لأنَّ أنْفُسَنا الحَقَّةَ وما نتظاهرُ أنَّنا عليه يتعايشان سويَّةً- لا لأنَّنا عادلون، بل لأنَّنا أنْفُسَنا، وأن نكون أنْفُسَنا يعني أنَّنا لا نملكُ شيئاً نفعله حيال تلك الأشياء الخارجية التي تنهار حولنا حتَّى لو كانت، في أثناء سقوطها، تُدمِّرُ مَا نمثله بالنِّسبة إليها.

لا بُدَّ أن تظلَّ الحياة، بالنِّسبة إلى أفضلنا، حُلماً يتحاشَى أيَّ مقارنة.

403

[1932؟]

جميعُ العواطف التي فِيَّ سطحيَّةٌ، لكنَّها صادقةٌ تماماً. ولطالما كنتُ ممثِّلاً، وممثِّلاً جيِّداً، فكلَّما أحببتُ، تظاهرتُ بالحُبِّ فحسبُ، حتَّى لِنَفْسي.

[1932؟]

يتجلّى الصَّباحُ فوق المدينة، مازجاً الضُّوء بالظِّلِّ (أو بالأحرى درجاتٍ من شدَّة الضَّوء) بين البيوت. لا يبدو أنَّهُ قادمٌ من الشَّمس وإنَّما من الحياة نَفْسِها، ويبدو أنَّهُ ينبعُ من جدران المدينة وسطوحها (لا من تلك الجدران والأسطح، في حدِّ ذاتها، وإنَّما من الحقيقة البسيطة لوجودها هُنَاك).

وحين أشعرُ بذلك، أحس بأنَّني طافح بالأمل، مُدركاً في الوقت ذاته أنَّ الأمل شعورٌ أدبيٌّ تماماً. غداً سيكون الرَّبيعُ والأمل جميعَ الكلمات المرتبطة شِعرياً بعاطفة واحدة، وروحياً بذكرى تلك العاطفة. كلَّا، فإنْ تأمَّلتُ نَفْسي من كَثَب مثلما أتأمَّلُ المدينة، أُدرِكُ أنَّ كلَّ الذي أرجوهُ هُوَ أنْ ينتهي هذا اليومُ مثل أيِّ يوم آخَر. أَنظرُ بعينَي بصيرتي إلى الفجر فأرى أنَّ الأملَ الذي أودعتُه إيَّاهُ (إنْ وُجِدَ البتَّة) لم يكُن أملي. كان ينتمي إلى أولئك البشر الذين يعيشون اللَّحظة العابرة، والذين جسَّدتُّ لوهلةٍ طريقتَهم في التَّفكير دون قصد.

الأمل؟ ما الذي يرجوهُ واحدٌ مثلي؟ فالوعدُ الوحيد الذي يحمله هذا اليوم لي هُوَ أنَّهُ سيكون مجرَّد يوم آخَر، يدومُ وقتاً مُحدَّداً وينتهي نهايةً مُحدَّدة. الضُّوء يبهجُ لكنَّهُ لا يُغيِّرُني لأنَّني سوف أُغادرُ هذا المكان مثلما جئتُ: أكبرَ ببضع ساعاتٍ، تغمرني مسرَّةُ شعور جديدٍ ويحزنني الفِكرُ. يستطيع المرءُ، حين يُولَدُ شيءٌ، التَّركيزَ بسهولةٍ على حقيقة مولده مُتخيِّلاً موتَهُ المحتَّم. يبدو منظرُ المدينة الطَّبيعيُّ، في هذه الأثناء في أشعَّة الشَّمس القويَّة والسَّخيَّة، كأنَّهُ حقلٌ من البيوت: فسيحٌ وطبيعيٌّ ومُنظَّم. ولكنْ، هل أستطيعُ، حتَّى وأنا أرى هذا كلَّهُ، نسيانَ وجوديَ حقاً؟ وعيي بالمدينة هُوَ، في الأعماق، وعيي بِنَفْسي.

أتذكَّرُ، فجأةً، حين كنتُ طفلاً ورأيتُ الفجرَ (بما أنَّني لم أعُد قادراً اليوم على ذلك) ينبلجُ فوق المدينة. لم تُشرقِ الشَّمسُ من أجلي حينئذٍ، وإنَّما من أجل كلِّ الذي تنطوي عليه الحياةُ، لأنَّني (حين كنتُ مازال كائناً غير واعٍ) كنتُ الحياة. رأيتُ الصَّباح فكنتُ سعيداً؛ واليومَ أرى الصَّباح فأفرحُ في البَدْءِ ثُمَّ أحزنُ. فمازال الطِّفل الذي فِـيَّ هُنَاك ولكنَّه قد هوى في الصَّمت. أرى مثلما تعوَّدتُّ أن أرى، لكنَّني أرى مِن وراء عينيْ نَفْسي وَهْيَ ترى، وتلك الحقيقة تجعلُ الشَّمسَ مظلمة، وتجعلُ لون الأشجار الأخضرَ باهتاً، وتجعلُ الأزهار تذوي

حتَّى قبل أن تتفتَّح. نعم، قَدِ انتميتُ إلى هُنَا مرَّةً. واليومَ، مهما قد يبدو المنظرُ الطَّبيعيُّ جديداً بالنِّسبة إلي، أعودُ من المرَّة الأولى التي أراهُ فيها، كأنَّني أجنبيٌّ، وضيفٌ، ورحَّالةٌ، وغريبٌ عن كلِّ الذي أراهُ وأسمعُهُ، فأراني فجأةً وقد بلغتُ من الكِبَرِ عِتِياً.

لقد رأيتُ كلَّ شيءٍ مِن قَبْلُ، حتَّى الذي لم أرهُ قَطُّ والذي لن أراهُ أبداً. حتَّى المناظرُ المستقبليَّة الأقلُّ أهميَّة باتَتْ تتدفَّقُ في دمي، وكَرْبُ معرفةِ أنَّني سوف أضْطَرُّ ثانيةً إلى رؤية المناظر الطَّبيعيَّة التي رأيتُها مِن قَبْلُ، يملؤني بالضَّجَرِ قبلَ أن يكون الضَّجَرُ.

مائلاً على الشُّرفة، مستمتعاً بالنَّهار، أنظر إلى الأشكال المختلفة للمدينة برمَّتها، فتملأُ روحي فكرةٌ واحدة، ليس إلَّا - الرَّغبةُ المُزمِنة في أن أموت، أن أنتهي، وألَّا أرى مزيداً من الضُّوء يسقطُ على المدينة، وألَّا أُفكِّر أو أشعر، وأن أتركَ خلفي، مثلَ ورقِ تغليفٍ مُهمَل، مسارَ الشَّمس وأيَّامَ الشَّمس كلَّها، وأن أخلعَ جهدَ الكينونة الجَبْريَّ، مثلما يخلعُ المرءُ ثيابَهُ الثَّقيلة ويرميها أسفلَ السَّرير الكبير.

405

[1932؟]

(عاصفةٌ)[355] صمتٌ معتم يفيضُ شاحباً. وكذلك العربة التي تمرُّ، بين حِينٍ وآخَر، مسرعةً في الشَّارع، وشاحنةٌ قريبة تُدوِّي برعدها - صدى سخيفٌ وميكانيكيٌّ لما حدث حقيقةً في السَّماوات التي تلوحُ.

يومضُ عبر السَّماء، مرَّة أخرى وبلا نذيرٍ، رمحُ ضوءٍ مغناطيسيٍّ ويرمشُ، فيشهقُ القلبُ شهقةً عميقة، وتتناثرُ في الأعالي قُبَّةٌ زجاجيَّة مثل قُبَّة صغيرة تتهشَّمُ شظايا. وابلٌ من مطر شرِّير ينهالُ على صوت الأرض في الأسفل.

(ڤاسْكِش، ربُّ عملي). شابَتْ وجهَهُ الشَّاحبَ مسحةٌ من لون أخضرَ باطلٍ ومرتبك. أراهُ يلتقطُ أنفاسَهُ اللَّاهثة، فيخامرني الشُّعور الأخويُّ النَّاجم عن معرفة أنَّني لا بُدَّ أن أبدو مثله.

---

(355) تظهر كلمة «عاصفة»، في الأصل البرتغاليٍّ، مكتوبة بالإنكليزيَّة، (Storm)، بين هلالين كبيرين، في منتصف رأس الصَّفحة، بوصفها عنواناً لهذه الشَّذرة، وتحت عبارة (L. do D.) مباشرة، ممَّا يعني أنَّها جزءٌ من كتاب القلَق، وليس كما تظهر، هُنَا، في مُفتَتح الكلام. ولقد وردت على هذا النَّحو في الطبعات

406

[1932؟]

ساورني القلَقُ قبلَ أن يدهمني القلَقُ. توقَّفَ الصَّمتُ عن التَّنفُّس دفعةً واحدة. واليومُ الأزليُّ تشظَّى كالفولاذِ فجأةً. ربضتُ كحيوان، ومخالبُ يديَّ العقيمتَيْن تتشبَّثان بمفرش الطَّاولة النَّاعم. اقتحمَ ضوءٌ قاسٍ كلَّ زاويةٍ وكلَّ رُوح، وتحدَّرَ من جبل قريبٍ صوتٌ حُطَّ مِن عَلٍ، وشقَّتْ صرخةٌ جدرانَ الهاويةِ الحريرَ. توقَّفَ قلبي. ودقَّتْ حنجرتي. كان الشَّيءُ الوحيد الذي وَعَاهُ ذهني هُوَ بقعةُ الحبر على قصاصةِ الورق.

407

[1932؟]

يخامرني هاجسُ الموت، في بعض الأحيان، لكنَّني لا أعرف لماذا... ربَّما مجرَّد وعكةٍ غامضة تنزعُ، لكونها لا تتجسَّدُ في شكل ألم، إلى أن تغدو هاجساً روحانياً، أو تعباً يتطلَّبُ نوماً عميقاً جداً إلى درجة أنَّهُ لا يستجيبُ لأيِّ قَدْرٍ [آخَر] من النَّوم، ولكنَّني على يقين أنَّني أشعرُ أخيراً كأنَّ يديَّ الضَّعيفتَيْن، بعد أن ألمَّ بِي مرضٌ تفاقمَ تدريجيّاً، تنزلقان بلا عنفٍ أو ندم من فوق الملاءة المفرودة على السَّرير حيث تستريحان.

أتساءلُ، حينئذٍ، ما هذا الشَّيء الذي نُسمِّيه الموت؟ لا أقصدُ سرَّ الموت، الذي لا أستطيع النَّفاذَ إليهِ، وإنَّما الإحساس الجسدي المثير حين نكفُّ عن البقاء على قيد الحياة. فالبشريَّة تخافُ الموتَ، حتَّى لو تردَّدتْ، والإنسان العاديُّ ينسلخُ عن جسده بخفَّة، لذلك فهو، حين يمرض أو يهرم، لا يُلقِي نظرةً مرتعبةً إلى الهاوية التي يجدها في الخواء إلَّا لماماً. وهذا مجرَّد افتقارٍ إلى المخيِّلة، على شاكلة من يتخيَّلُ الموت كأنه نوم. كيف سيكون الأمرُ لو كان الموت لا يُشبه النوم على الأقلِّ؟ فسمةُ النَّوم الأساسيَّة أنَّ المرء يستيقظُ منه، في حِين أنَّه، بِقَدْر ما نعرفُ على الأقلِّ، لا يستطيعُ الاستيقاظ من الموت أبداً. لو كان الموتُ يُشبِهُ النَّوم فلا بُدَّ أن تكون لدينا فكرةٌ عن الاستيقاظ منه، ولكنَّ هذا ليس ما يتخيَّله الإنسان العاديُّ: إنَّه يتخيَّلُ الموت كأنَّه نومٌ لا يستيقظ منه المرء، وهذا شيءٌ لا معنى لَهُ تماماً. ما أودُّ قولَهُ هُوَ أنَّ الموت ليس كالنَّوم، فالمرءُ يكون في النَّوم حياً، لكنَّهُ نائمٌ؛ ولا أعرفُ كيف يستطيع المرءُ مقارنةَ

الموت بأيِّ شيء، فهو لا يستطيعُ تجربة الموت أو حتّى أيَّ شيء يُقارَن به عن بُعْد.

يبدو الموتُ حين أرى شخصاً ميّتاً كأنَّه رحيل، ويبدو الجثمانُ كبذلة خلَّفها أحدٌ وراءَهُ. لقد غادر ذلك الشَّخص ولا حاجةَ كي يأخذ معه البذلة التي كانت لديه.

408

[1932؟]

أتساءلُ كم من البشر تأمَّلوا بشراً في شارع مهجور، كما يستحقُّ أن يُتأمَّل. حتَّى إنَّ صياغة العبارة على تلك الشَّاكلة يجعلها تبدو كأنَّني كنتُ أحاول قول شيء آخَر، ولقد كنتُ في الحقيقة أُحاول ذلك. فالشَّارع المهجور ليس ذاك الذي لا يمشي فيه أحد، وإنَّما شارعٌ يمشي فيه النَّاس كما لو أنَّهُ كان مهجوراً. ولن يجد المرء مشقَّة في استيعاب هذا المفهوم إلَّا حين يرى شارعاً مهجوراً؛ فلا بُدَّ أن يغدو الحمارُ الوحشيُّ، بالنِّسبة إلى الشَّخص الذي لم يعرف في حياته قطُّ إلَّا البغال، شيئاً غير قابل للتَّصوُّر.

المشاعر تتكيَّفُ في دواخلنا حسبَ المستويات والطَّرائق التي نفهمها بها. وثمَّة طرائق من الفهم تُملي طرائقَ فهمها.

إنَّهُ اختناقُ الحياة في نَفَسي، رغبةٌ تعتملُ في كلِّ ثُقبٍ مِن مسامِّ كينونتي كي أكون شخصاً آخَر، تحذيرٌ عاجل من أنَّ النَّهاية قد أَزِفَتْ.

409

[1932؟]

استمتعتُ مرَّتَيْن بالذُّل المؤلم الذي تجلبه المحبَّةُ، في الوقت الذي يبدو كأنَّه مراهقتي البعيدة. ولأنَّني أشعرُ بأنَّه بعيدٌ جداً، فهو يبدو كشيءٍ لا بُدَّ أنَّني قرأتُ عنه، أو مجرَّد حكاية شخصيَّة قصَّها عليَّ أحدٌ. فمن النُّقطة المُشرِفة التي أنظرُ بها، اليومَ، ذلك الماضي الذي لم أعُد دارياً إنْ كنت سأصفهُ بالبعيد أو القريب، يخطر ببالي أنَّ من الجيِّد ذوقي طعمَ خيبة الأمل تلك مبكِّراً جداً.

لم يكُن ثمَّة شيء في الحقيقة بتاتاً سوى ما شعرتُ به في ذلك الوقت، فلقد ذاقت جحافل من البشر العذابات ذاتها، من وجهة نظر موضوعيَّة. ولكنْ [...]

ولقد استوعبتُ في فترة مُبكِّرة من حياتي فكرةَ أنَّ حياة المُخيِّلة، مهما يبدو ذلك مُروِّعاً، هي الأمثلُ بالنِّسبة إلى الحالات المزاجيَّة التي تنتابُني، ويعود الفضل في ذلك إلى تجربة أخرى متزامنة وذات صلة أثَّرتْ في حساسيتي وبصيرتي. فقد ترهقني خيالات مُخيِّلتي (اللَّاحقة)، لكنَّها لا تؤذي أو تُذِلُّ. فالابتسامةُ الزَّائفة، وإظهارُ المودَّة الخادع، والمداعبة الماكرة، بالنِّسبة إلى العُشَّاق المستحيلين، مستحيلةٌ على حدٍّ سواء، فهي لا تهجرنا البتَّة أو تتلاشى من حياتنا.

حالاتُ القلق العظيمة التي تنتابُ أرواحَنا هي دائماً كوارثُ كونيَّةٌ. فحين تنتابُنا، ترتجُّ الشَّمسُ وتضطربُ النُّجوم. فالنَّهار لا يشرق، في كلِّ روح تشعرُ، إلَّا حين يُدبِّرُ القَدَرُ نهايةً كارثيَّةً لعالم القلَق - جاعلاً جميع السَّماوات وجميع العوالم تمطرُ على ذلك الإحساس بالخراب.

نشعرُ بالتَّفوُّق لكنَّنا مازلنا نجدُ القدَرَ يعاملنا بدونيَّةٍ وبأنَّنا أقلُّ شأناً من أحطِّ المخلوقات قَدْراً - فَمَن يفخرُ بأنَّهُ بشرٌ في مثل ذلك المقام؟

لوْ مُنِحتُ، ذات يوم، موهبةَ تعبيرٍ عظيمة تُقطِّرُ فِـيَّ الفنونَ كلَّها، لكنتُ قادراً على كتابةٍ تُمجِّدُ النَّوم. لا أعرفُ مسرَّةً في الحياة أعظم من القُدرة على النَّوم. فناءُ الحياة والرُّوح، والانسحابُ الكامل من كلِّ شيء يجعلُكَ بشراً، فرداً، وليلك خالياً من جميع الذِّكريات والأوهام، ولا ماضي لك أو مستقبلَ، [...]

410

[1932؟]

أنْ نكتبَ يعني أنْ ننسى، فالأدبُ أبهجُ طريقةٍ لتجاهُل الحياة. الموسيقى تُهدِّئُنا، والفنون البصريَّةُ تُنعشنا، والفنون الأدائيَّة (كالرَّقص والتَّمثيل) تُسلِّينا. ولذلك فإنَّ الأولى تنأى بنَفْسها عن الحياة كي تجعل منها حُلماً؛ لكنَّ الفنون الأخرى لا تفعل ذلك، لأنَّ بعضها يستخدم صيغاً بصريَّة، تغدو حيويَّةً جرَّاءَ ذلك، ويستمدُّ بعضها الآخر حياتَهُ من الحياة البشريَّة نَفْسها.

لكنَّ هذه ليستْ حالَ الأدب، فالأدبُ يحاكي الحياة. الرِّواية تاريخُ الذي لم يكُنِ قَطُّ، والمسرحيَّةُ روايةٌ بلا سَرْدٍ، والقصيدةُ تعبيرٌ عن الأفكار والمشاعر بلغةٍ لا أحدَ يستخدمها؛ فلا أحدَ يحكي بالكلام المنظوم.

411

[1932؟]

أن تعيش حياةً مُثقَّفة ونزيهةً في هواء الأفكار الطَّلق[356]، تقرأُ، وتحلم، وتُفكِّر في الكتابة، فإنها حياةٌ بطيئة بما يكفي لتكون دائماً على شفير السَّأم، ليس إلَّا، لكنَّ عدم الانزلاق إليه يبدو أمراً مقبولاً. أن تعيش حياةً مجرَّدة من المشاعر والأفكار، فلا تستمتع إلَّا بأفكار المشاعر ومشاعر الأفكار. أن تركُدَ، ذهبياً في الشَّمس، مثل بحيرة معتمة تحيط بها الأزهارُ. أن تُروِّحَ في الظِّلال عن فردانيَّة العقل النَّبيلة، تلك التي تكمنُ في عدم توقُّع أيِّ شيء من الحياة. أن تكون في تعاقُب العوالم كغبار طَلْع الأزهار مُبحراً في هواء المساء على أجنحة ريح مجهولة، مُسَّاقطاً في سُبات الغسق كيفما اتَّفق، جاثماً بين الأشياء الكبيرة دون أن يلحظكَ أحد. أن تكون هذا كلَّهُ وقد تيقَّنتَ تماماً، لا سعيداً ولا حزيناً، مُمتناً للشَّمس على سَنَائِها وللنُّجوم على بُعْدِها. ألَّا تكون أكثرَ، وألَّا تملكَ أكثرَ، وألَّا تُريدَ أكثرَ... موسيقى الجائع، وأغنية الأعمى، ورفات المسافر المجهول، وخُطَى الجَمَل السَّائر في الصَّحراء على غير هُدىً ولا حِمْلَ عليه...

---

(356) العبارة، عند بِسُوَّا، في الأصل: «ao relento das idéas». وكلمة relento تعني حرفياً: النَّدى/ السَّديم؛ لذا نرى أنَّ جول كوستا قد آثرت ترجمة العبارة بـ «beneath the dewfall of ideas» (التي قد أترجمها بـ: «يهطل عليكَ ندى الأفكار»)؛ في حين نرى أنَّ زينيث آثر، في طبعته الإنگليزيَّة، ترجمتها بعبارة «in the open air of ideas» (= في هواء الأفكار الطَّلْق)، لأنَّ كلمة relento قد تأتي، مجازياً، بمعنى «الهواء الطَّلق»، أيضاً. فالعبارة البرتغاليَّة «dormir ao relento»، على سبيل المثال، تعني: «النَّوم في الهواء الطَّلق». ولهذا أميل إلى الخيار الذي ذهب إليه زينيث، لما تنطوي عليه هذه العبارة من معنى عميق يشير إلى حُرَّية الفِكر والمعتقد وأن يعيش المرء حياتَهُ وفق ما يشتهي ويرضى. (المترجم)

[23 مارس 1933]

الحياةُ، بالنِّسبة إلى معظم البشر، ضجَرٌ ينتهي قبل أن يدركوا ذلك، أشغالٌ حزينة تتخلَّلها بضعة فواصل سعيدة، أو بالأحرى مثل الحكايات التي يرويها أشخاصٌ يسهرون على راحة الموتى كي يقضوا اللَّيل السَّاكنَ الذي لا نأمةَ فيه، ويُكملوا يقظتَهُم. فلطالما وجدتُ ألَّا طائلَ من التَّفكير في الحياة بوصفها وادياً من الدُّموع: وادياً من الدُّموع لكنَّهُ وادٍ لا يبكي فيه البشرُ إلَّا نادراً. قال هَايْنَهْ[357] إنَّ البشر يمتخَّطُون جميعاً بعد كلِّ مأساة عظيمةٍ. فلقد رأى، كيهوديٍّ، الطَّبيعةَ الكونيَّة للبشريَّة، بوضوح شديد.

لن تطاق الحياة لو كُنَّا واعين بها حقاً. لكنَّنا، لِحُسن الحظِّ، لسنا كذلك. نعيشُ غير واعين كالحيوانات، بالطَّريقة العبثيَّة والعقيمة ذاتها تماماً، وإذا ما فكَّرنا في موتنا، مفترضين أنَّ الحيوانات لا تُفكِّرُ في موتها (على الرَّغم من أنَّ المرء لا يستطيع التَّيقُن من ذلك) فإنَّنا نفعل ذلك بطريقة غافلةٍ، ومُشتَّتة، وملتوية، ولا نكاد نقول إنَّ من الممكن أن نُفكِّر بها البتَّة.

ولأنَّنا نعيش على هذا النَّحو، فلا مُبرِّرَ حقاً لتفكيرنا في أنَّ أنْفُسنا تتفوَّقُ على الحيوانات. لا نختلفُ عنها إلَّا في التَّفاصيل الخارجية الصِّرفة، وفي حقيقة كلامنا وكتابتنا، وفي امتلاكنا لبصيرة مُجرَّدة تُشتِّتُنا عن البصيرة الحَقَّة، وفي قدرتنا على تخيُّل المستحيل. بَيْدَ أنَّ هذه الأشياء كلَّها ليستْ إلَّا خصائص جُزافيَّة لجوهر كينونتنا العضويِّ. فالكلام والكتابة لا يُشكِّلان فارقاً بالنِّسبة إلى غريزتنا الأساسيَّة للبقاء على قيد الحياة، وهي غريزة غير واعية تماماً. وبصيرتنا المُجرَّدة مفيدة لبناء المنظومات الفكريَّة، أو الأفكار شِبْه المنهجيَّة التي تتلخَّص لدى الحيوانات في الاستلقاء في الشَّمس، لا أكثر. وحتَّى قدرتنا على التَّخيُّل المستحيل قد لا تكون موهبة فريدة، فلقد شاهدتُّ قِططاً تُحدِّقُ في القمر ولا أعرف سوى أنَّها قد تاقتْ إلى ذلك.

فالعالَمُ برمَّته، والحياة برمَّتها، منظومة شاسعة من عقول غير واعية، وكلُّ عقل يعمل من خلال وعيه الفرديِّ. فإذا مرَّرتَ الحياةَ والعالَم عبر وعيَيْن –وجودِنا الماديِّ ووجودِنا المُجرَّد– فسوف تخلقُ وعياً متفوِّقاً، تماماً مثلما يمرُّ التيَّارُ الكهربائيُّ عبر غازَيْن فيخلِقُ سائلاً.

(357) هاينريش هاينه Heine: الشَّاعر الألماني الذَّائع الصِّيت. وأظنُّه يشير إلى عبارة هاينه: «مهما كانت الدُّموع التي قد يذرفها المرء، فلا بُدَّ في النهاية أن يتمخَّط». (المترجم)

طُوبَى لِمَن لا يُفكِّرُ حينئذٍ، ذاك أنَّهُ سوف يستوعبُ، بفطرته وقَدَره العضويِّ، ما لا نستوعبُه إلَّا عبر أشدِّ الطُّرُق تعرُّجاً، وقدَرنا الاجتماعيِّ غير العضويِّ. طُوبَى لِمَن يُشبهُ البهائم المتوحِّشة إلى حدٍّ بعيد، ذاكَ أنَّهُ، دون عناءٍ، ما نكافحُ أن نكونَهُ جميعاً؛ لأنَّهُ يعرفُ الطَّريق إلى البيت الذي لا نعثر عليه إلَّا بِطُرُق الخيال الجانبيَّة وبعد أن نقتفي آثار الخطوات كثيراً؛ ولأنَّهُ، وقد تجذَّر مثل شجرةٍ، جزءٌ من المنظر الطَّبيعيِّ، ومِن ثَمَّ فهو جزءٌ من جَماله، وليسَ أسطورةً عابرة مثلنا جميعاً، أو عارضَ أزياءٍ يرتدي ثياب الغرور والنِّسيان البرَّاقة.

413

[29 مارس 1933]

لا أعرفُ لماذا -فلقد لاحظتُ ذلك وحسب- لكنَّني وحيدٌ في المكتب. أحسستُ بذلك على نحو غامض سلفاً. كان ثمَّة إحساسٌ عميق بالرَّاحة في جزء من وعيي، إحساسٌ برئتيَّ تتنفَّسان بحريَّة أكبر. وهذا واحدٌ من أغرب الأحاسيس المثيرة، تلك التي تثيرها فِينَا المُصادَفات والغيابات: أن نجد أنفُسنا وحيدين في بيت يعجُّ بالنَّاس والضَّجيج عادةً أو في منزل ينتمي إلى شخص آخَر. ينتابُنا فجأة شعورٌ بالتَّملُّك المُطلَق، شعورٌ بالتَّمكُّن السَّهل الأريحي، إحساسٌ غامرٌ -مثلما قلتُ- من الرَّاحة والسَّكينة.

يا لبهجة أن نكون وحيدين تماماً! أن نكون قادرين على التَّحدُّث إلى أنفُسنا بصوت عال، وأن نمشي في الجوار دونَ أن تلحقنا عيونُ أحد، وأن نستلقي تغمرنا أحلامُ يقظة لا تنقطع! يغدو كلُّ بيتٍ سهلاً، وتغدو كلُّ حجرة برحابةِ دارةٍ ريفيَّة كبيرة.

وتبدو كلُّ الأصوات التي يسمعها المرءُ تنبعثُ من مكانٍ آخَر، كأنَّها تنتمي إلى كون قريبٍ لكنَّه مُستقلٌّ. نحنُ ملوكٌ أخيراً. وهذا ما نرنو إليه جميعاً، ومَن يدري ربَّما يرنو الرُّعاعُ بلهفةٍ إلى ذلك أكثر من أولئك الذين تطفح جيوبهم بالذَّهب المُزيَّف. نحنُ متقاعدو الكون، لوهلةٍ، نعيشُ على دخولنا المعتادة لا نحتاجُ إلى شيء ولا يساورنا القلق.

آهٍ، بَيْدَ أنَّني، مِن الخُطَى الصَّاعدة على الدَّرَج، الخُطَى التي تُفصِحُ عن قدومِ شخصٍ مجهول، أعرفُ الشَّخص الذي سوف يقطعُ العزلةَ التي استمتعُ بها. فالبرابرة على وشك أن يغزوا إمبراطوريَّتي غير المُعلَنة. ولا يمكنني القول إنَّني أستطيع من الخُطَى الصَّاعدة

على الدَّرج معرفة أنَّ ذلك الشَّخص قادمٌ إليَّ، ولا أنَّ تلك الخُطَى تذكِّرُني بخُطَى شخص بعينه. بل إنَّ غريزة سريَّةً تمتلكها الرُّوح هي التي تخبرني بذلك، على الرَّغم من أنَّ الخُطَى لَّما تزَلْ خُطى فحسب، أيّاً كان الذي يقتربُ على الدَّرج (الذي أراه فجأة أمامي لمجرَّد أنَّني أُفكِّر في الشَّخص الذي يصعدُ عليه). نعم، إنَّهُ أحدُ الكَتَبَة. يتوقَّف. أسمعُ الباب ينفتح، فيدخل. أراهُ كما ينبغي في هذه اللَّحظة. ثُمَّ يقول لي، في أثناء دخوله: «وحدك تماماً، يا سيِّد سوارش؟». فأجيب: «نعم، لقد كنتُ كذلك لبعض الوقت الآن...»، ثُمَّ، وهو يخلع سترته، ناظراً إلى سترته الأخرى، سترته القديمة، معلَّقةً على المشجب، قائلاً: «ضجرٌ رهيب أن تكون هناك وحيداً تماماً، يا سيِّد سوارش...». فأقول: «أوه، نعم، إنَّهُ ضجرٌ رهيب». كان، في هذه الأثناء، قد ارتدى سترتَهُ القديمة البالية، ثم قال وهو يذهب إلى مكتبه: « يكفي أنَّهُ يجعلك راغباً في الذَّهاب إلى النَّوم». فأوافقه، مُتبسِّماً: «إنَّهُ كذلك دون شكٍّ». ثُمَّ أمدُّ يدي إلى قلمي المنسيِّ، وأخطُّ طريق عودتي إلى العافية المجهولة للحياة الطَّبيعيَّة.

414

[5 أبريل 1933]

أنْ نَعُدَّ كَرْبَنا الأعظم مجرَّد حادثة بلا أهميَّةٍ، ليس بالنِّسبة إلى حياة الكون وإنَّما بالنِّسبة إلى أرواحنا، هُوَ بداية المعرفة. أنْ نتأمَّل هذه المسألة لوهلةٍ في غمرة ذلك الكَرْب هُوَ المعرفة الكاملة. فحين نعاني، يبدو الألم البشريُّ بلا نهايةٍ. ولكنَّ الألم البشريَّ ليس بلا نهايةٍ، فلا شيءَ بشرياً بلا نهاية، وليس ألمُنَا على الإطلاق أكثر من مجرَّد ألمٍ نحسُّ به.

كم مرَّة، تحت وطأة سأم على شفير الجنون أو كَرْبٍ يفوقُ كُلَّ كرب، أتوقَّفُ وأتردَّدُ قبل أن أثور، أتوقَّفُ وأتردَّدُ قبل أن أجعل نَفْسي إلهاً! فمن يستطيع أن يعرف أي ألمٍ أسوأُ من الآخر: ألمُ عدم فهم سرِّ الحياة، ألمُ ألّا نُحبَّ، ألمُ ظُلم الآخرين لنا، ألمُ الحياة التي تسحقنا وتخنقنا وتسجننا، ألمُ وجع الأسنان ووجع الحذاء الضَّيِّق الذي يقرصُ أقدامنا؛ ومن يستطيع أن يعرف أيها الأسوأ بالنِّسبة إلى الآخرين، أو أيها الأسوأ بالنِّسبة إلى الآخرين عموماً؟

لا بُدَّ أنَّني أبدو روحاً غير حسَّاسة، بالنِّسبة إلى بعض الذين يتكلَّمون معي وينصتون إليَّ. ولكنَّني -مثلما أظنُّ- أكثر حساسية من الغالبيَّة العظمى من بني البشر. ناهيك عن أنَّني

شخص حسَّاس يعرف نَفْسه وبذلك يعرف ما هي الحساسية.

ليس صحيحاً أنَّ الحياة مؤلمة، أو أنَّ من المؤلم التَّفكير في الحياة. الصَّحيح هُوَ أنَّ أَلَمَنا ليس فادحاً ومُهماً إلَّا بالقَدْر الذي نتظاهر به. ولو عشنا على نحو طبيعيٍّ، فسوف يزول بالسُّرعة التي حلَّ بها، سوف يذوي سريعاً مثلما تفتَّح. فكلُّ شيء لا شيء، وأَلمُنا ليس استثناءً.

أكتبُ هذه الأشياء تحت وطأة سأم طاغ يبدو أنَّه على وشك أن يكتسح حدود كينونتي أو يبدو بالأحرى أنَّه في حاجةٍ إلى حيِّز أكبر من روحي كي يُوجَد فيه. يضطهدني البشرُ جميعاً وكلُّ شيءٍ يستبدُّ بي، يخنقُني ويُجنِّنُني؛ يغمُّني إحساسٌ جسديٌّ ساحقٌ لافتقار الآخرين إلى القدرة على الفَهْم. لكنَّني أنظرُ عالياً إلى السَّماء الزَّرقاء، كاشفاً وجهي للنَّسيم البارد غير الواعي، ثُمَّ أُرخي جفنيَّ وقد رأيتُ السَّماء، فأنسى وجنتي حالما أشعرُ بالنَّسيم. لا أَشعرُ أنَّني بِتُّ أفضلَ، أشعرُ أنَّني مختلف. أرى نَفْسي تتحرَّرُ من نَفْسي. أكادُ أبتسم، لا لأنَّني أفهم نَفْسي، وإنَّما لأنَّني، وقد أصبحتُ شخصاً آخَر، لم أعُد قادراً على فَهْم نَفْسي. عالياً في السَّماء، مثل خواء مرئيٍّ، تتدلَّى غيمة صغيرة جداً، نُتفَةٌ شاحبة منسيَّةٌ من الكون بأسره.

415

[7 أبريل 1933]

لم يلاحظني أحدٌ، على الرَّغم من أنَّني مشيتُ غريباً بينَهُم. ولم يشكّ بِي أحدٌ، ولا حتَّى أنا، على الرَّغم من أنَّني عشتُ جاسوساً بينَهُم. عَدَّني الجميعُ أحدَ الأقرباء، ولم يعرف أحدٌ أنِّي قد تبدَّلتُ عند الولادة. هكذا كنتُ كالآخرين ولم أكُن مثلَهم، أخَ الجميع دونَ أن أكون فرداً من العائلة.

جئتُ من أراضٍ عجيبة، من مناظر طبيعيَّة أجمل من الحياة نَفْسها، لكنَّني لم أتكلَّم بتاتاً عن تلك الأراضي، إلَّا مع نَفْسي، ولم أُخبر أحداً عن تلك المناظر الطَّبيعيَّة التي لمحتُها في الأحلام. كانت خطواتي تتردَّدُ أصداؤها فوق الأرضيَّات الخشبيَّة وحجارة الرَّصيف مثل خطواتهم تماماً، ومهما بدا نبضُ قلبي قريباً، فقد تباعد دائماً؛ إنني سيِّدَ زائف على جسدٍ غريب ومنفيٍّ.

لم يعرفني أحدٌ تحت قناع المساواة، ولم يُخمنوا مرَّةً واحدة أنَّهُ كان قناعاً، فلا أحدَ عرف بوجود اللّاعبين المُقنَّعين في هذا العالَم. ولم يتخيَّل أحدٌ أنَّ ثمَّة أحداً إلى جانبي دائماً: أنا الحقيقيُّ، فلطالما ظنُّوني عَيْنَ نَفْسي تماماً.

أجارتني بيوتهم، وصافحتني أياديهم، ورَأَوْني أمشي في الشَّارع كأنّني قد كنتُ حقاً هُنَاك، ولكنَّ الشَّخصَ الذي أنا هُوَ لَمْ يكُنِ قَطُّ في تلك الحُجرات، والشَّخصَ الذي يعيشُ فِيَّ ليسَ لَهُ يدان كي يصافحَهُ النَّاسُ، والشَّخصَ الذي أعرف أنَّ نَفْسي ستكونهُ ليس لَهُ شوارع يمشي فيها ولا يستطيع أن يراه أحدٌ هُنَاك، إلَّا إن كانت تلك الشَّوارع هي الشَّوارع كافَّة والشَّخص هُوَ الشَّخصُ الذي يراهُ النَّاس جميعاً.

ولسوف نعيشُ تلك الحيوات البعيدة والمجهولة؛ ولسوف نكابدُ، مُتنكِّرينَ، قدَرَ الغرباء. ولكنَّ هذه المسافة بين المخلوق الآخَر وأنْفُسِنا لا تُكشَفُ بتاتاً لدى بعضهم؛ ولا تُكشَف لدى بعضهم الآخَر إلَّا بين حِينٍ وآخَر، عبر الرُّعب والألم، مضاءةً بوميض برقٍ لا يُحَدُّ؛ غير أنَّها ماتزالُ لدى بعضِ الثَّابتَ المؤلِمَ لحيواتهم اليوميَّة.

وإذا نعلمُ بكلِّ وضوحٍ أنَّ ما نحن عليهِ لا يمتُّ إلَيْنَا بصلةٍ، وأنَّ ما نُفكِّر فيه أو نشعرُ به هُوَ دائماً في طَوْر التَّرجمة، وأنَّ ما نرغبُ فيه ربَّما لم نرغب فيه البتَّة - أن نعرف هذا في كلِّ لحظة، أن نشعر بهذا كلِّه في كلِّ شعور، أليس هذا ما يعنيه أن تكون غريباً في روحك، منفياً عن مشاعرك؟

ولكنَّ الشَّخص الذي كنتُ أُحدِّقُ فيه بسلبيَّةٍ، وكان واقفاً في الزَّاوية يُكلِّمُ شخصاً غير مُقنَّع، مَّد يدَهُ أخيراً، في ليلة الكرنڤال الأخيرة هذه، ثُمَّ ودَّعني ضاحكاً. استدارَ الشَّخصُ غير المُقنَّع يسارَ زاوية الزُّقاق التي كانا يقفان فيها، في حين سارَ الشَّخص المُقنَّعُ -في دومينو غير مُتخيَّلة- إلى الأمام، مُتحرِّكاً بين الظِّلال والأضواء العَرَضيَّة، في وداع نهائيٍّ كان مختلفاً تماماً عن الذي فكرتُ فيه. لم ألحظ إلَّا حينئذٍ أنَّ شيئاً آخَر كان في الشَّارع، فضلاً عن مصابيح الشَّارع: ضوءَ قمرٍ مُنتشِراً، خبيئاً وصامتاً، طافحاً بالعَدَم، كالحياة...

[29 أغسطس 1933]

حتَّى المدينة لها لحظاتُها من الهدوء الرِّيفيِّ، ولاسيَّما في ظهيرة الصَّيف القائظ، حين يجتاح الرِّيفُ مدينةَ لشبونة المشرقة هذه، كالرِّيح. وحتَّى هُنَا، في **خُوَا دُشْ دُوْرَادُوْرِش**، ننامُ قريري العَيْن.

يا لبهجة الرُّوح وهي ترقبُ تحت شمس هادئة عالية صمتَ هذه العربات المُحمَّلة قشاً، وهذه الصَّناديق الفارغة، وهؤلاء المارَّة المُتمهِّلين، المنقولين إلى هُنَا من بعض القرى! وحين أرقبُهم من نافذة المكتب، حيث أكون وحيداً، فأنا نُقِلتُ أيضاً: إنَّني في بلدة ريفيَّة هادئة، أو راكدٌ في قرية صغيرة مجهولة، تغمرني السَّعادة، لأنَّني أشعر بأنِّي شخص آخَر.

أعرفُ أنَّهُ لا يتوجَّبُ عليَّ إلَّا أنْ أرفعَ عينيَّ لأرى أمامي خطَّ أُفق المنازل الشَّاحب، والنَّوافذ غير المغسولة لجميع المكاتب في **بَايْشَا** والنَّوافذ الفارغة للشُّقق الواقعة في الطَّوابق العلويَّة، والغسيل المحتوم المُعلَّقُ فوقها، حول أسطح العليَّات، كي يجفَّ في الشَّمس بين أُصص الزُّهور والنَّباتات. أعرفُ هذا ولكنَّ الضُّوءَ الذَّهبيَّ الذي يسقطُ ناعمٌ جداً، والهواءَ الهادئ الذي يلفُّنِي فارغٌ جدّاً، فأُدركُ افتقاري إلى حافز بصريٍّ كي أهجر قريتي الباطلة، بلدتي الرِّيفيَّة، حيث تجلب لي حركةُ التِّجارة الدَّائرة فيها الرَّاحةَ والهدوء.

أعرفُ، أعرفُ... إنَّهُ الوقت الذي يتناول فيه الجميع طعام الغداء أو يَقِيلُون أو يأخذون قسطاً من الرَّاحة. كلُّ شيء يمرُّ طافياً، تغمره البهجةُ، على سطح الحياة. وحتَّى حين أَمِيلُ خارج الشُّرفة، كأنَّها سياجٌ يحيط بسطح سفينةٍ، ناظراً إلى المنظر الطَّبيعيِّ الجديد، فإنَّني، أيضاً، أنامُ. أطردُ من بالي جميعَ الأفكار التي تعذِّبني كما لو أنَّني كنتُ أعيش حقاً في الأقاليم. ثُمَّ فجأةً ينهض شيءٌ آخَر، فيلفُّني ويُحكِمُ قبضته عليَّ: أرى، خلف مشهد الظَّهيرة حياةَ تلك البلدة الرِّيفيَّة كلَّها؛ أرى السَّعادة البلهاء الهائلة للحياة العائليَّة؛ سعادةَ الحياة والحقول، والقناعة في غمرة التَّفاهة. أرى لأنَّني أرى. غير أني لا أرى المزيدَ، حينئذٍ، فأصحو. أنظرُ من حولي مبتسماً، وقبل أن أفعل أيَّ شيء آخَر، أنفضُ الغبار عن كوعَي بذلتي، وهي بذلة داكنة للأسف تغبَّرتْ جرَّاء اتِّكائي على سياج الشُّرفة الذي لم يُكلِّف أحدٌ نفسه عبء تنظيفه، غير

مُدركٍ أنَّه سيغدو ذات يوم، ولو لوهلةٍ، السِّياج (الخالي من الغبار المحتمل كلِّه) الذي يحيط بسطح سفينةٍ انطلقتْ مبحرةً في رحلة أبديَّة.

417

[8 سبتمبر 1933]

عالياً في اللَّيل الوحيدِ، خلفَ نافذةٍ، يتوهَّجُ مصباحٌ مجهول. كلُّ شيء آخَر في المدينة معتمٌ إلَّا حيث تنبعثُ الأشعة الواهية من مصابيح الشَّوارع، فَتُشبِهُ، هُنا وهُنَاك، أكثر أضواء الأقمار الأرضية شحوباً. ولا تكادُ تَبِينُ، في سواد اللَّيلِ، ألوانُ البيوت ودرجاتها المختلفة؛ إنها ملتبسة كل الالتباس، وبإمكان المرء أن يقول إنَّها تكاد تكون مجردة، فالاختلافات تُبرِزُ اختلالاتِ الكُلِّ المُنفَلِت.

موصولٌ أنا بصاحب المصباحِ عبر خيطٍ محجوب. لا نكون في الغالب مستيقظَيْن في الوقت ذاته، ولا تَعامُل بالمِثْل في هذه العلاقة. فهو لا يستطيع أن يراني، لأنَّني واقف عند النَّافذة في العتمة. إنَّه أمرٌ آخَر، يخصُّني وحدي، أمرٌ يتَّصلُ بشعور الوحدة الذي يشاركُني اللَّيل والصَّمت، فيختارُ ذلك المصباحَ بوصفه شيئاً يتعلَّقُ بهِ، فلا شيءَ سواهُ. كأنَّ العتمة تبدو حالكة لأنَّ ذلك المصباح مضاءٌ فحسب. ويبدو أنَّ المصباح يشتعلُ هُنَاك، لأنَّني مستيقظٌ، أحلمُ في العتمة، لا أكثر.

ربَّما لا يُوجَدُ كلُّ شيء إلَّا لأنَّ شيئاً آخَر يُوجَدُ. فلا شيءَ موجودٌ في حدِّ ذاتهِ، كلُّ شيءٍ موجودٌ مع غيرهِ؛ لعلَّ هذا صحيحٌ. أشعرُ أنَّني لن أُوجَد في هذي السَّاعة (أو ليس بالشَّاكلة ذاتها تماماً على الأقلِّ، عبر وعيي الحاضر بِنَفْسي التي، لأنَّها واعيةٌ، ولأنَّها حاضرةٌ، هي في هذه اللَّحظة أنا تماماً) لو لَمْ يكُن ذلك المصباح مضاء هُنَاك، في مكان ما، منارة لا تشير إلى شيء، مُشيَّدة على المكانة الرَّفيعة الباطلة التي أسبغَها عليها شموخُها. أشعرُ بهذا كلِّه لأنَّني لا أشعرُ بشيء. وأُفكِّرُ في هذا كلِّه لأنَّه لا شيء. لا شيء. لا شيء، مجرَّد بعضٍ من اللَّيل والصَّمت وبعض الخواء والسَّلبيَّة والطَّيش الذي أشاركها إيَّاهُ، والفضاء الموجود بَيْني وَبَيْني، شيء أضلَّهُ إلهٌ...

418

[19 سبتمبر 1933]

يقولون إنَّ السَّأم مرضٌ يصيب الكُسَالى أو يهجمُ على أولئك الذين لا شيء لديهم يفعلونَه فحسب. ولكنَّ محنة الرُّوح، هذه، أشدُّ رهافةً من ذلك: إنَّها تهجمُ على أولئك الذين يميلون إليها، وهي أكثر تسامحاً مع أولئك الذين يعملون أو يتظاهرون بأنَّهم يعملون (الأمر الذي يُفضي إلى الشيء ذاته على أيِّ حال) ممَّا هي مع الكسالى حقاً.

لا شيءَ أشد سُوءاً من التَّناقض بين الأُبَّهة الطَّبيعيَّة للحياة الجوَّانيَّة، بجُزرها الهنديَّة وبلدانها التي لم تُكتَشف بَعْدُ، وبين قذارة رتابة الحياة اليوميَّة، حتَّى حين تكون قذارةً حقاً. تشتدُّ وطأة السَّأم كثيراً حين لا تكون العَطالة عُذراً. سأمُ العظماء والمشغولين هُوَ السَّأمُ الأعظمُ.

السَّأمُ ليس مرضاً ناجماً عن ضجر ألَّا يكون ثمَّة ما نفعلُه، ولكنَّهُ المرض الأسوأُ لشعورنا بأنْ لا شيء يستحقُّ أن نفعله. وهكذا، فكلَّما اشتدَّ عملُ المرء، اشتدَّ سُوءُ سأمِه.

كم مرَّة رفعتُ عينيَّ عن الكتاب الذي أكتبُه، فشعرتُ أنَّ رأسي خاوٍ تماماً من العالَم كلِّه. من الأفضل لو كنتُ كسولاً، لا أفعل شيئاً، ولا شيء لديَّ أفعله. وعلى الرغم من أن ذلك السَّأم حقيقيٌّ، فإنَّني قادر على الاستمتاع به على الأقلِّ. لا راحةَ -في حالي الرَّاهنة- ولا نُبْلَ، ولا عزاءَ في شعوري بعدم الرَّاحة؛ ثمَّة بلادةٌ رهيبة في كلِّ إيماءة آتي بها، وليس ثمَّة تَعَبٌ مُفترَضٌ في الإيماءات التي لن آتي بها أبداً.

419

[2 نوفمبر 1933]

ثمَّة أحزانٌ عميقة الجذور، شديدةُ الغموض والتَّغلغُل، إلى درجة تجعل من الصَّعب معرفة إنْ كانت تنتمي إلى الرُّوح أم الجسد، إنْ كانت نابعة من التَّوعُّك النَّاجم عن تأمُّل عقم الحياة أو ناجمة بالأحرى عن اعتلال ألمَّ بهُوَّةٍ داخل أنْفسنا: المعدة، أو الكبد، أو الدِّماغ. كم مرَّة حجبَتْ وعيي العاديَّ بِنَفْسي الثُّمالةُ التي اضطربَتْ في قاع بَعض راكدٍ منِّي! وكم مرَّة يجرحني الوجودُ إلى الحدِّ الذي أشعرُ فيه بغثيانٍ شديد الغموض فلا أستطيع معرفة إنْ

كان مجرَّد سأم أو أمارةً على أنّي على وشك أن أمرض! كم مرَّةً...

حزينةٌ روحي اليومَ في كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّات وجودها. كلُّ شيء يوجعني - الذَّاكرة، والعينان، والذِّراعان. كأنَّ أوجاعاً مُبرحةً قد ألَمَّتْ بجميع مفاصل كينونتي. لا شيءَ يمسُّ كينونتي: لا الإشراق الصَّافي للنَّهار، ولا السَّماء الزَّرقاء الصَّافية العظيمة، ولا المَد الثَّابت للضُّوء المُنتشِر. ولا يؤثِّرُ فِـيَّ بتاتاً النَّسيمُ الخريفيُّ الخفيف الذي مازال يحمل آثار صيف لَمْ يُنسَ بَعْدُ، مضفياً لوناً على الهواء. ولا شيء يعني أيَّ شيء بالنِّسبة إليَّ. إنَّني حزينٌ، ولكنَّني لا أعرفُ أيَّ حُزنٍ حُزني. حُزني هُنَاك، في الشَّارع الطَّافح بالصَّناديق.

ولا تُعبِّرُ هذي الكلماتُ عمَّا أشعر به تماماً، فلا شيء يستطيعُ، بلا أدنى شكٍّ، التَّعبيرَ عمَّا يشعر به المرء تماماً. لكنَّني أحاول، بطريقة أو أخرى، أن أمنح فكرةً عمَّا أشعر به، وهو مزيجُ مَناحٍ مختلفة منِّي ومن الشَّارع في الأسفل الذي، لأنَّني أراهُ، ينتمي إليَّ وهو بعضٌ منِّي، على نحوٍ حميميٍّ عصيٍّ على التَّحليل.

أودُّ أن أعيشَ حيواتٍ مختلفة في أراضٍ بعيدة. أودُّ أن أموتَ شخصاً آخَر تحت راياتٍ مجهولة. أودُّ أن أُتوَّجَ إمبراطوراً في زمنٍ آخَر (زمن أفضل لأنَّه بكلِّ بساطة ليس هُوَ اليوم) يتجلَّى لي بألوان زاهيةٍ بين تماثيل أبي هَوْلٍ مجهولة. أريدُ أيَّ شيء يجعلني الشَّخص الذي أبدو عليه سخيفاً لمجرَّد أنَّهُ يصنعُ ما أبدو عليه سخيفاً. أودُّ، أودُّ... ولكنْ ثمَّة الشَّمسُ دائماً حين تشرقُ الشَّمسُ واللَّيلُ دائماً حين يهبطُ اللَّيلُ. وثمَّة حزنٌ دائماً حين يجتاحُنا الحزنُ وأحلامٌ دائماً حين تُهدهدنا الأحلامُ. وثمَّة دائماً ما هُوَ دائماً هُنَاك وليسَ ما يتوجَّبُ أن يكون هُنَاك البتَّة، ليس لأنَّ ذلك أفضل أو أسوأ، وإنَّما لأنَّهُ الآخَرُ. ثمَّةَ دائماً.

الزَّبَّالون يعملون في الأسفل، ينظِّفون الشَّارع من صناديق القمامة. يضحكون ويتكلَّمون، يضعون الصَّناديق واحداً فواحداً في العربات. أنظرُ إليهم من نافذة مكتبي العالية، بعينَيْن خاملتَيْن تحت جفنين متهدِّلين. ثمَّة شيءٌ غامض، لا يُسبَرَ غوره، يربطُ ما أشعرُ بِهِ بالصَّناديق التي أراها تُعبَأُ في العربات؛ شعورٌ مجهول يضع سأمي وكَرْبي وغثياني، أو أيَّ شيءٍ كان، في صندوق، ثُمَّ يرفعه على كتفيْ رجل يُنكِّتُ بأعلى صوته، ثُمَّ يضعه في عربةٍ ليستْ هُنَا. وضوءُ النَّهار الهادئُ مثلما هُوَ دائماً يسقطُ مُنحرفاً على طول الشَّارع الضيِّق، في المكان الذي يحمِّلون

فيه الصَّناديق وليس على الصَّناديق أنْفُسها التي في الظلِّ، وإنَّما على الزَّاوية في الأسفل هُنَاك حيث الصِّبيةُ السُّعاةُ مشغولون بعشوائية، دون أن يفعلوا أيَّ شيء.

420

[23 ديسمبر 1933]

حين نتأمَّلُ، في ضوء سكينتنا الجوَّانية، جميعَ الحوادث العَرَضيَّة المؤسفة في حياتنا -حين نكونُ إمَّا سخيفين وإمَّا خسيسين وإمَّا متأخِّرين على نحو مخيف- فسوف نراها مصائبَ حدثتْ في أثناء الرِّحلة. نحنُ رحَّالةٌ في هذا العالَم، طَوْعاً أو كَرْهاً، بين لا شيءَ ولا شيء، أو بين كلِّ شيء وكلِّ شيء، مُجرَّد مسافرين ولا بُدَّ لنا ألَّا نُسبغ أهميَّةً بالغة على أيِّ انتكاساتٍ تعرَّضنا إليها في الطَّريق، وأيِّ كدمات ورضوض أصابتنا على امتداده. أُواسي نَفْسي بذلك كلِّه، لكنَّني لا أعرف إنْ كان يواسيني في الواقع، أمْ ثمَّة شيءٌ فيه يواسيني حقاً. بَيْدَ أنَّ تلك المواساة المتخيَّلة تغدو حقيقيَّةً حين لا أُفكِّرُ فيها.

ثمَّة أشياء كثيرة تجلبُ السُّلوان! ثمَّة السَّماءُ العالية، الهادئة، الصَّافية التي تطفو عبرها الغيمةُ النَّاقصة العابرة. وثمَّة النَّسيمُ الخفيف الذي يهزُّ أغصان الأشجار الطَّافحة بالأغصان حين يكون المرءُ في الرِّيف، والذي يجعلُ الثِّياب ترفرف وهي منشورة كي تجفَّ خارج نوافذ الشُّقق الواقعة في الطَّابق الرَّابع أو الخامس حين يكون المرء في المدينة. وثمَّة حرُّ الأيَّام القائظة وبرودةُ الأيَّام الباردة، حيث ثمَّة ذكرى أو حنينٌ أو أملٌ، في الخلفيَّة دائماً، وشيءٌ يبتسمُ في النَّافذة المفتوحة على الخواء، ورغباتُنا تطرق على بابِ مَاهيَّتِنا مثل الشحَّاذين الذين يتجسد بهم المسيح.

421

[1933؟]

كان يُغنِّي بأعذب صوت أغنيةً تنتمي إلى بلاد بعيدة. كانت الموسيقى قد جعلت الكلمات الغريبة تبدو مألوفة. بَدَتْ مثل أغنية فَاذُوْ(358) أُلِّفَتْ للرُّوح، على الرَّغم من أنَّها لم تكُن أغنيةَ فَاذُوْ حقاً.

---

(358) أُنظر الحاشية 137. (المترجم)

تحدَّثت الأغنيةُ، عبر كلماتها المحتجة ولحنها الإنسانيِّ، عن أشياء موجودة في كلِّ روح ولكنَّنا لا نعرف عنها أيَّ شيء. كان يُغنِّي كأنَّهُ في غيبةِ النَّشوة، واقفاً في الشَّارع وقد شَفَّهُ الوجدُ، غائباً عن كلِّ شيء حتَّى الجمهور الذي يصغي إليه.

كان الذين احتشدوا هُنَاك كي يستمعوا إليه قد فعلوا ذلك بشيءٍ من التَّهكُّم. كانت الأغنية تنتمي إلينا جميعاً وكانت الكلمات تتحدَّثُ في بعض الأحيان إلينا مباشرةً عن السِّرِّ الشَّرقيِّ لعِرقٍ بشريٍّ مفقود. كان ضجيجُ المدينة يتعالى دون أن نسمعه، إنْ كُنَّا قد لاحظنا وجودَهُ أصلاً، فتَمُرُّ العرباتُ على مقربةٍ شديدة مِنَّا حتَّى إنَّ عربةً لمستْ سترتي بخفَّةٍ حين عبرتْ مسرعة. لم أسمعها على الإطلاق، بيد أني شعرتُ بها فحسب. كانت ثمَّة حِدَّةٌ في غناء الغريب أحيَتِ الحالمَ الذي فِينَا، أو الجزءَ الذي لا يستطيع أن يحلم منا. ولكنَّهُ كان بالنِّسبة إلينا مجرَّد شيء ننظرُ إليه في الشَّارع فنلحظُ قدومَ الشرطيِّ على مهله عند الزَّاوية. تقدَّم صوبنا بالخطوة البطيئة ذاتها، ثُمَّ توقَّف وهلةً خلف الصَّبيِّ الذي يبيع الشَّمسيَّات، كما لو أنَّه قد لحظَ شيئاً ما. فتوقَّف المُغنِّي في تلك اللَّحظة تماماً، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفةٍ، ثُمَّ دلفَ الشرطيُّ.

422

[1933؟]

مرَّتِ العاصفةُ التي كانت تتوَّعدُ السَّكينةَ القَلِقة أخيراً، فتعاقبَتْ ثلاثةُ أيَّام من حَرٍّ لا يكفُّ، جلبَتْ برودةً فاترة لكنَّها منعشةٌ إلى سطح الأشياء الشَّفَّاف. والشَّيء ذاته يحدث حين تشعرُ الرُّوح، في مشوار الحياة، وقد أرهقت كاهلها الحياةُ، بأنَّ الوطأة قد زالتْ فجأةً على نحو غير قابل للتَّفسير.

أتأمَّلُ البشر على أنَّهم أحوالٌ جوِّيةٌ تتوَّعدها دائماً عواصفُ ستندلعُ في مكان آخَر.

امتدادُ الأشياء الشَّاسعُ الخاوي، والنِّسيانُ العظيم الذي يملأُ السَّماءَ والأرض...

423

[1933؟]

قَصصُ الفاصل المسرحيِّ[359] تُلوِّنُ ما ينطوي عليه كُفْرُنَا من لامبالاةٍ وخُمول.

424

[31 مارس 1934]

مضى وقت مديدٌ على المرَّة الأخيرة التي كتبتُ فيها أيَّ شيء! عشتُ خلال تلك الأيَّام قروناً من الزُّهد المُتردِّد. ركدْتُ كبحيرة مهجورة في منظر طبيعيٍّ غير موجود.

غمرتني، غمرتني بمسرَّةٍ في تلك الأثناء الرَّتابةُ المتنوِّعة للأيَّام، والتَّعاقُب الذي لا يكفُّ عن التَّغيُّر للسَّاعات التي لا تتغيَّر؛ أقصدُ الحياةَ، على وجه الاختصار.

غالباً ما أُخفق في معرفة نَفْسي، وهذا حدَثٌ شائع بين أولئك الذين يعرفون أنْفُسهم. أرقبُ نَفْسي في أقنعتها التنكُّريَّة المختلفة التي أعيش بها، ولا أستبقي من الأشياء التي تتغيَّر سوى ما يبقى على حاله فحسب، ولا أستبقي من الأشياء التي يقوم بها المرء إلَّا التَّافه الذي لا قيمة له فحسب.

وأتذكَّرُ، بعيداً فِـيَّ، كما لو كنتُ منهمكاً في رحلة جوَّانيَّة، الرَّتابةَ المتنوِّعة لذلك المنزل في الأقاليم... المنزل الذي قضيتُ فيه طفولتي، ولكنَّني، حتَّى لو رغبتُ في ذلك، لا أستطيع القول إنْ كانت حياتي أسعد ممَّا هي عليه اليومَ أو أقلَّ سعادة. فالشَّخص الذي عاش هُنَاك لم يكُن أنا، وإنَّما شخصٌ آخَر: إنَّهما حياتان مختلفتان، متنوِّعتان، وغير قابلتين للمقارنة. الرَّتابتان ذاتهما اللَّتان تبدوان متشابهتين في الظَّاهر ولكنَّهما مختلفتان، دون شكٍّ، في الباطن.

(359) كان بِسُوَّا ينوي استخدام هذه العبارة «قَصصُ الفاصل المسرحيِّ Ficções do interludio» عنواناً للأعمال التي خصَّصها لأنداده، إذ كان يخطِّط، وفق ما يذكر زينيث في حواشي طبعته، لنشرها في مجلَّدات مختلفة، ولكنَّه لم يطلق هذه العبارة، في حقيقة الأمر، إلَّا على مجموعة من خمس قصائد نشرها موقَّعة باسمه الصَّريح في العام 1917. وعبارة interludio (أو interlude في الإنكليزيَّة) تشير إمَّا إلى مسرحيَّة قصيرة، وإمَّا إلى الفاصل الذي يكون بين فقرات عرض مسرحيٍّ كبير، سواء أكان ذلك الفاصل موسيقياً أم أدائياً أم غنائياً، أم غير ذلك. انظر الفقرتَيْن الأخيرتَيْن من المَقطع 383 لمزيد من الضوء على مفهوم هذه العبارة عند بِسُوَّا، أو المقطع 233، حين يقول: «نحنُ شيءٌ يحدثُ في أثناء فاصل مسرحيٍّ، فنلمحُ، أحياناً، عبر أبواب معيَّنةٍ، ما قد يكونُ المشهد، ليس إلَّا». ولا بُدَّ من العودة، أيضاً، إلى الملحق الذي يحمل العنوان ذاته، في آخر الكتاب. (المترجم)

لم تكُونا رتابتَيْن وإنَّما حياتان.

ولكن، لماذا أتذكَّر؟ أهُوَ التَّعب؟ التَّذكُّر راحةٌ، فهو لا ينطوي على أيِّ فِعل. كم مرَّة، كي ينتابني إحساسٌ عميق بالرَّاحة، تذكَّرتُ الذي لم أكُنْهُ، بَيْدَ أنْ لا صفاءَ، ولا حنينَ في ذكرياتي عن تلك البلدة الرِّيفيَّة التي عشتُ فيها، على شاكلة الآخرين؛ ذكرياتي التي تطفو فوق ألواح الأرضيَّات الخشبيَّة، داخلةً في الزَّمن البعيد وخارجةً منه، في الغرف الفسيحة التي لم أعرفها قطُّ.

صرتُ نَفْسي المتخيَّلةَ تماماً، حتَّى بات أيُّ شعور طبيعيٍّ ينتابُني (إنْ كان يتوجَّب عليَّ أن أُجرِّب هذا الشُّعور) يغدو، في اللَّحظة التي ينتابُني فيها، شعوراً مُتخيَّلاً على الفور: تغدو الذَّاكرةُ حلماً، ويغدو الحُلم نِسياناً للأحلام، وتغدو معرفةُ النَّفْس افتقاراً للتَّأمُّل في النَّفس.

لقد جرَّدتُّ نَفْسي من كينونتي تماماً حتَّى بات وجودي يعني أن أكسوَ نَفْسي، فلا أكون نَفْسي إلَّا حين أتنكَّر. وكلُّ الأشياء التي من حولي، حين تتلاشى، مغيباتُ شموس مجهولة تغمرُ بالذَّهب مناظرَ طبيعيَّة لن أراها أبداً.

425

[5 يونيو 1934]

السَّكينةُ أخيراً[360]. تتبدَّدُ من روحي ثُمالَةُ القلَقِ أو حطامُهُ، كأنَّهُ لم يكُن قَطُّ. أجلسُ وحيداً تغمرني الطُّمأنينةُ. كانتِ الوهلة التي مرَّتْ في الحال كأنَّها وهلة هدايةٍ دينيَّة، لكنْ لا شيءَ يجعلني أُيمِّمُ وجهي شطرَ السَّماء، مثلما لا شيءَ، أيضاً، يجعلني أُرخي ناظريَّ إلى الأرض. أشعرُ أنَّني حرٌّ، كأنَّني كففتُ عن الوجود واستبقيتُ وعيي.

السَّكينةُ، نعم، السَّكينةُ[361]. طمأنينةٌ عظيمة تتغلغلُ في أعماق كينونتي، عذبةً عذوبةَ العبثيِّ المُطلَق. باتَتِ الصفحات التي قرأتُها، والواجبات التي أدَّيتُها، وأفعال حياتي وأحداثها الجُزافيَّة مجرَّد شِبْه ظلٍّ غامض، هالةٍ لا تكادُ تُرَى تحيطُ بشيء غريب وهادئٍ ومجهول بالنِّسبة

(360) تستخدم جول كوستا، هُنَا، عبارة «I grow still at last» مقابلاً لعبارة پِسُوَّا «Socégo emfim»، ولكنَّني آثرتُ ألَّا أتقيَّد بما ذهبت إليه، مفضِّلاً ترجمةَ عبارة پِسُوَّا كما هي في الأصل: «السَّكينة أخيراً». (المترجم).

(361) وهُنَا، أيضاً، فضَّلتُ ترجمة عبارة پِسُوَّا، كما هي في الأصل «Socégo, sim, socégo»، وليس بحسب ما اقترحتْ

إليَّ. والجهدُ الذي أبذله في بعض الأحيان كي أنسى روحي، والفكرةُ التي تخطر ببالي أحياناً كي أهجر الأفعال كلَّها - يعودان إليَّ، في هذه الأثناء، في شكل رقَّةٍ غير عاطفيَّة، وحنانٍ عقيم، لا طعمَ له.

وإنَّهُ ليس هذا النَّهار العذب، المتواني، الغائم، اللَّطيف. وإنَّهُ ليس النَّسيم الذي لا يكاد يُوجَدُ، والذي لا يكادُ أن يكون أكثر إلحاحاً من الهواء الذي أشعرُ به على جِلدي. وإنَّهُ ليس لون السَّماء المجهول، المموس بالأزرق، هُنَا، وهُنَاك، على نحو باهت. وإنَّهُ ليس ذاك. لأنَّني لا أشعرُ بشيء. أرى سهواً، بلا قصدٍ، المُتفرِّجَ اليَقِظَ الذي يتفرَّجُ على مشهدٍ غير موجود. لا أشعرُ بروحي ولكنَّ نَفْسي مطمئنَّةٌ تماماً. لقد باتَ كلُّ شيء، في العالَم الخارجي، واضحاً وساكناً، حتَّى تلك الأشياء التي تتحرَّك، فيتراءى لِيَ المشهدُ كما تراءى العالَمُ للمسيح حين نظرَ إلى المدينة الممتدَّة أمامَهُ فأغواهُ الشَّيطانُ. لا شيءَ هذه الأشياءُ، فأفهمُ لِمَ لَمْ يُغوَ المسيحُ. إنَّها لا شيءَ فلا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لمحنَّك عريقٍ كالشَّيطان أن يتخيَّل كيف يمكن أن تكون مغوية.

فَلْتَعبُري، خفيفةً، أيَّتها الحياةُ التي لا تحسُّ حتَّى بِنَفسها، يا جدولاً رقراقاً صَامتاً تحت أشجارٍ منسيَّة! وَلْتَعبُري، هادئةً، أيَّتها الرُّوح التي لا تعرفُ نَفْسها، يا خريراً تحجبهُ عن الأنظار أغصانٌ ساقطة عظيمة! وَلْتَعبُر، عبثاً، بلا غايةٍ، أيُّها الوعيُ الذي لا يعي شيئاً، أيُّها الوميضُ البعيد الغامضُ، عبر أمداءَ مُورقَةٍ، لا أعرفُ من أينَ تأتي ولا أينَ تذهبُ. فَلْتعبُر، فَلْتَعبُر، واتركني لأنسى!

أيُّها النَّسيمُ الخافتُ؛ يا نسيمَ كلِّ الذي لم يجرؤ أن يعيشَ، يا أيُّها النَّفَسُ الأخرسُ؛ يا نَفَسَ كلِّ الذي لم يرغب في أن يشعرَ، يا أيُّها الخريرُ العبثيُّ؛ يا خريرَ كلِّ الذي لم يُرِد التَّفكيرَ، مُرَّ على مهلكَ كسولاً في دوَّامات الماء التي تنتظرُكَ لا محالةَ، وفي المنحدرات الزَّلِقَة الموضوعة هُنَاكَ من أجلكَ، مُرَّ في الظِّلال أو في الضَّوءِ مُر، يا شقيقَ العالَم، في المجدِ مُرَّ أو في الهاوية، يا ابنَ الشَّوَاشِ، ويا ابنَ اللَّيل، دونَ أن يغيب عن بالكَ، دوماً، في زاوية من زوايا كينونتك، أنَّ الآلهة جاءت لاحقاً، وأنَّ الآلهة أيضاً ستذوي.

426 [362]

[9 يونيو 1934]

أحزنُ حين يحلُّ الصَّيف. قد يظنُّ المرء أنَّ بهاء ساعات الصَّيف، مهما كانت قاسية، تبدو عذبةً لشخص غافل عن هوِّية نَفْسه. لكنَّني لستُ على تلك الشَّاكلة البتَّة. فثمَّة تناقضٌ حادٌّ بين تلك الحياة الخارجية التي تفيضُ وما أشعر به وأُفكِّرُ فيه، دونَ أن أعرف كيف أشعر أو أُفكِّر - هذا جثمان مشاعري الدَّائم الذي لم يُدفَن بَعْدُ. يخامرني انطباعٌ بأنَّني في هذا الوطن عديم الشَّكل الذي يُسمَّى الكون سوف أعيشُ تحت طغيان سياسيٍّ. وعلى الرَّغم من أنَّه لا يضطهدني مباشرةً، فإنَّهُ سيظلُّ يسيءُ إلى مُعتقَدٍ خفيٍّ تنطوي عليه روحي. ثُمَّ يتجلَّى فِـيَّ، على مهلِهِ خفيةً في تلك اللَّحظة، الحنينُ المأمولُ إلى منفى مستحيل.

ما أرغبُ فيه رغبةً عارمةً هُوَ النَّوم. ولكنَّ النَّوم الذي أشتهيه، بخلاف التَّنويعات الأخرى حتَّى تلك التي يوِّلدها المرض، لا يشتمل على ثواب راحة الجسد. ولا يساعد المرء على نسيان حياته، أو يجلب معه وعدَ الأحلام، موازناً على الصِّينيَّة التي يحملها حين يقتربُ من روحنا الهِبةَ الرَّائقة للتَّخلِّي النِّهائيِّ. كلَّا، إنَّهُ نوم لا ينامُ بتاتاً، تشتدُّ وطأته على الجفون ولكنَّه لا يُغمضها أبداً ويُغضِّنُ زوايا الشَّفتَيْن المُرتابتَيْن في إيماءات يشعر المرء بأنَّها مزيج من الاشمئزاز والغباء. إنَّه ليس النَّوم الذي تشتدُّ وطأته على الجسد في أثناء فترات الأرق العظيم الذي يجتاح الرُّوح.

وليس إلَّا حين يهبطُ اللَّيل حتَّى أشعر، إنْ لم يكُن بالسَّعادة، فعلى الأقلِّ ببعض الرَّاحة التي أحسُّ أنَّها كافية مقارنة بحالات الرَّاحة الأخرى التي تجلب الرِّضى، ثُمَّ يزول النُّعاس، وينقشعُ الشَّفق الذِّهنيُّ المشوِّش لتلك الحال ويغدو أوضح، حتَّى يكادُ يضيءُ. ويتجلَّى، لوهلةٍ، توقٌ إلى أشياء أخرى. ولكنَّ تلك الآمال لا تعيشُ طويلاً، يطغى عليها سأمٌ يائسٌ أَرِقٌ، يقظةٌ شاقَّة لشخص لم يذق طعم النَّوم. ثُمَّ أُحدِّقُ، مثل روح مسكينة تعبَتْ من الجسد، خارجَ نافذة حجرتي في حشود النُّجوم؛ في حشود النُّجوم، ولا شيءَ، لا شيءَ آهٍ البتَّة، إلَّا نجوم كثيرة، كثيرة...

(362) تظهرُ، على ظهر القصاصة التي رقن عليها بِسُوَّا هذه الشَّذرة بالآلة الكاتبة، عمليَّاتٌ حسابيَّة مكتوبة بقلم رصاص، وثمَّة أيضاً الرُّموز التَّالية التي شطَّب علَيها: «1934-Q.A. (A. Th) |7,32|3-XI». (المترجم)

[نحو 19 يونيو 1934]

حين لا نكفُّ عن العيش في المُجرَّد -سواء أكان تجريد الفِكر أمْ تجريد المشاعر التي فكَّر فيها المرء- فإنَّنا سرعان ما سنصلُ، على النقيض من مشاعرنا وإرادتنا الشَّخصيَّة، إلى الأشياء التي لا بُدَّ أن نشعر في أعماق أنْفُسنا في الحياة الحَقَّة، أنَّها باتَتْ بالنِّسبة إلينا مجرَّد أوهام.

حين أسمعُ بمرض أحدهم أو موته، بصرف النَّظر إنْ كنتُ صديقه الحميم أو الحقيقيَّ، فإنَّه يترك لديَّ انطباعاً غامضاً ومُلتبساً وكئيباً إلى درجة أنِّي أشعرُ بالخجل لأنَّه ينتابُني. ولن يؤثِّر فِـيَّ إلَّا أن أرى الحدَث نَفْسه، وأن أجدَ المشهدَ ماثلاً أمامي. فالعيش طويلاً على المخيِّلة يُفقِد المرء قدرتَهُ على التَّخيُّل، ولاسيَّما قدرته على تخيُّل الأشياء الحَقَّة. والعيشُ ذهنياً على ما ليس كائناً ولا يمكن أن يكون، يجعلنا في النهاية عاجزين حتَّى عن تأمُّل ما يمكن أن يكون حقاً.

علمتُ بالأمس أنَّ صديقاً قديماً، لم أره منذ وقت مديد لكنَّني لم أكف عن التَّفكير فيه بما قد أعدُّه نوعاً من الحنين، قد أُدخل المستشفى لإجراء عمليَّة جراحيَّة. كان الشُّعور الوحيد الإيجابيُّ والواضح الذي خامرني يتعلَّقُ بمدى السَّأم الذي سينتابني لو توجَّب عليَّ الذَّهاب لزيارته، دونَ أن يغيب عن بالي بديل ذلك المثير للتَّهكُّم الماثل في أنَّني لو لم أكلِّف نفسي بزيارته، فسوف أندم على عدم زيارته وحسب.

هذا كلُّ شيء... فبعد سنين من مقارعة الأطياف، صرتُ طيفاً أنا نَفْسي، في كلِّ ما أُفكِّر فيه، وما أشعر به، وما أنا عليه. ثُمَّ يدخلُ الحنينُ إلى الشَّخص العاديِّ، الذي لم أكُنْهُ قَطُّ، في نسيج كينونتي تماماً. ولكنَّني لا أشعرُ إلَّا بذلك، وليس إلَّا ذلك فحسب. لا أشعر حقاً بالأسف تجاه صديقي الذي سوف تُجرَى له عمليَّة جراحيَّة. ولا أشعر حقاً بالأسف تجاه جميع الآخرين الذين سوف تجرَى لهم عمليَّات جراحيَّة، وجميع أولئك الذين يعانون في هذا العالم ويحزنون. لا أشعر بالأسف إلَّا لأنَّني لا أعرف كيف أكون شخصاً يشعر بالأسف.

ثُمَّ سرعان ما أكون في اللَّحظة التَّالية حتماً، يحرِّكني باعثٌ مجهول، قد بدأتُ التَّفكيرَ فعلاً في شيء آخَر. حينئذٍ، وكأنَّني أهذي، يختلطُ حفيفُ الأشجار وصوت الماء المتدفِّق في البرك والحديقة غير الموجودة، مع كلِّ ما لم أستطع الشُّعور به، وكلِّ ما لم أستطع أن أكونَهُ... أحاولُ

الشُّعور لكنَّني لم أعُد أعرف كيف. صرتُ طيفَ نَفْسي الذي أسلمتُ لَهُ كينونتي كلَّها. ولكنَّني، بخلاف پيتر شليميل في الحكاية الألمانيَّة، لم أبع ظلِّي للشَّيطان، وإنَّما جوهر نَفْسي[xxiii].
أعاني لأنَّني لا أعاني، لأنَّني لا أعرف كيف أعاني. أَحَيٌّ أنا أمْ أتظاهرُ بأنَّني حَيٌّ فحسبُ؟ أَنائمٌ أنا أمْ مستيقظٌ؟ نسيمٌ خفيف باردٌ في حَرِّ النَّهار يجعلني أنسى كلَّ شيء. جفوني تشعرُ بأنَّها ثقيلةٌ وقد غمرتها المسرَّةُ... أتخيَّلُ أنَّ هذه الشَّمس الذَّهبيَّة ذاتها تسقطُ على الحقول حيث لا أكونُ وحيث لا أرغبُ في أن أكون... ينبعثُ صمت عظيمٌ من صخب المدينة. كم هُوَ عذبٌ! ولكنْ، كم سيبدو أعذب كثيراً ربَّما لو استطعتُ أن أشعر به!

428 [(363)]

[21 يونيو 1934]

وما إن نؤمنُ بأنَّ هذا العالم ليس إلَّا مجرَّد وهم وخيال، حتَّى نكون أحراراً من الاعتقاد بأنَّ كلَّ شيء يحدث لنا مجرَّد حُلم، شيء يتظاهرُ بأنَّه موجود لأنَّنا نائمُ، ليس إلَّا. ثُمَّ تُولَدُ فِيْنَا حينئذٍ لا مبالاةٌ غامضة وعميقة تجاه منغِّصات الحياة ومصائبها. يستديرُ أولئك الذين ماتوا عند زاويةٍ في الطَّريق بكلِّ بساطة، ويغيبون عن الأنظار؛ وأولئك الذين يعانون يموتون أمام أعيُننا مثل كابوس (إنْ كُنَّا نشعرُ)، ومثل حُلم يقظة بشع (إنْ كُنَّا نفكِّرُ). ولن تكون معاناتُنا أيَّ شيءٍ أكثرَ من ذلك العدَم. فنحن ننامُ على شِقِّنَا الأيسر، في هذا العالَم، ونسمعُ في أحلامنا نبضَ قلبِنا المستبدَّ.

لا شيءَ أكثر... شمسٌ صغيرة، نسيمٌ خفيف، بضعُ أشجار تؤطِّرُ المسافة، الرَّغبةُ في أن نكون سعداء، ألمُنا حين نشعرُ بمرور الأيَّام، والمعرفةُ التي لن تكتمل تماماً أبداً والحقيقةُ التي هي دائماً على وشك أن تتكشَّف... لا شيء أكثر، لا شيء أكثر... كلَّا، لا شيء أكثر...

---

(363) هذا المقطع في الأصل موقَّع باسم فرناندو پِسُوَّا الصَّريح، منسوباً من لدنه إلى سوارش، وثمَّة إشارة من پِسُوَّا على الصَّفحة الثانية التي رقنت عليها هذه الشَّذرة بالآلة الكاتبة، إلى أنَّها جزء من كتاب القلق. (المترجم)

429

[29 يونيو 1934]

أنْ أذوق ملذَّات الحال الصُّوفيَّة، دون المشقَّة التي تفرضها تلك الحال؛ أن أكون المؤمنَ الذي لا يؤمن بأيِّ إلهٍ، وقد شَفَّهُ الوجدُ؛ المُريدَ الصُّوفيَّ الذي لم يسلك الطَّريق بَعْدُ أو الرَّائي(364) الذي لم يجرِّب طقوس الأسرار: أن أقضي أيَّامي متأمِّلاً في جنَّةٍ لا أومنُ بها - كلِّ تلك الأشياء التي تبهجُ الرُّوح، لو كانتِ الرُّوح تعرفُ معنى ألَّا تعرف.

تمرُّ الغيوم الصَّامتة عالياً فوقي، فوقَ هذا الجسد المحبوس في ظلٍّ، مثلما تمرُّ الحقائقُ المجهولة عالياً فوقي أيضاً، فوقَ هذي الرُّوح الأسيرة في جسدٍ... كلُّ شيء يمرُّ في الأعلى... وكلُّ شيء يحدث في الأعلى مثلما يحدثُ في الأسفل، ولا غيمةٌ تتركُ أيَّ شيء أكثر من المطر، ولا حقيقةٌ تتركُ أيَّ شيء أكثر من الألم... نعم، كلُّ شيء في الأعلى يمرُّ في الأعلى، وكلُّ شيء قد يرغب فيه المرءُ بعيدٌ جداً ويمرُّ بعيداً جداً... نعم، كلُّ شيء يجذبُ، وكلُّ شيءٍ شيءٌ آخَر وكلُّ شيءٍ يمرُّ.

... فماذا لو عرفتُ، سواءٌ أَأمطرتِ السَّماءُ أمْ أشرقَتِ الشَّمسُ، وسواءٌ أكنتُ جسداً أمْ روحاً، أنَّني سوف أمرُّ أنا أيضاً؟ لا يهمُّ ذلك مثقالَ ذرَّةٍ، بغضِّ النَّظر عن أملِ أنَّ كلَّ شيءٍ هُوَ لا شيءَ، ولذلك، فإنَّ اللَّاشيءَ هُوَ كلُّ شيء.

430

[نحو 29 يونيو 1934]

الكسلُ العميمُ عزاؤنا في كلِّ شيء، والتَّقاعسُ عن الأفعال مُعِيلُنا العظيم. والقدرة على التَّخيُّل هي كلُّ شيء، طالما لا تُفضي إلى أن نُحرِّك ساكناً. فلا أحدَ يستطيع أن يكون ملك العالم إلَّا في الأحلام. وكلُّ واحد منَّا يرغبُ، لو كُنَّا صادقين، في أن يكون ملك العالم.

ألَّا تكون، وإنَّما أن تُفكِّر، هذا هُوَ العرشُ الحَقُّ. وألَّا ترغب، وإنَّما تشتهي، هذا هُوَ التَّاجُ.

---

(364) epopt (وفي البرتغاليّة epopta): أحد مريدي طريقة باطنيَّة شاعت في إليوسيس Eleusis باليونان، وتقوم على تعظيم ديميتير وبيرسفونه. وقد آثرت ترجمة epopt بالرَّائي، لأنَّ الكلمة في أصلها اليوناني تعني «المُطَّلع على الأسرار»، والطَّقس الذي تمارسه هذه الطَّائفة يعرف باسم epopteia الذي يعني «الرُّؤية». (المترجم)

فكلُّ ما نزهدُ فيه ندَّخرهُ في أحلامنا دونَ أن يَمْسَسْهُ سُوء، مغموراً إلى الأبد في الشَّمس غير الموجودة أو القمر الذي لن يُوجَد أبداً.

431

[26 يوليو 1934]

ثمَّة إيمانٌ بالله موجودٌ في كلِّ عقل سليم، ولكنَّهُ ليسَ بإلهٍ مُحدَّد. فالله مجرَّد وجودٍ علويٍّ، مستحيل، يُهيمن على كلِّ شيء؛ ولا يستطيع أحدٌ أن يُعرِّف ذاتَهُ، إنْ كان يمتلكُ ذاتاً؛ ولا يُمكن لأحدٍ أن يفهم نواياهُ، إنْ كانت لديه نوايا. وحين نُسمِّيه الله، فإنَّنا نقول ذلك بالضَّبط، لأنَّ كلمة الله لا معنى مُحدَّداً لها، ولهذا نؤكِّدُ وجودَهُ دونَ أن نؤكِّد أنَّه موجودٌ فعلاً. وإنَّ صفات المُطلَق، أو الأبديِّ، أو القدير، أو العادل العَلِيِّ، أو اللَّطيف، التي نُثبتها لَهُ في بعض الأحيان، تَنزِعُ نَفْسَها [عَنْهُ]، مثلما تفعل جميعُ الصِّفات غير الضَّرورية، حين يكفي الاسمُ في حدِّ ذاته. ولهذا لا نستطيع أن نُثبِتَ لله أيَّ صفاتٍ فهو غير محدودٍ، ولهذا فهوَ، للسَّبب ذاته، الاسمُ المُطلَق.

واليقين ذاتُه والغموض ذاتُه يحيطان بخلود الرُّوح. نحن نعرفُ جميعاً أنَّنا سنموت؛ ونشعرُ جميعاً أنَّنا لن نموت. إنَّها ليستْ رغبة أو أمل يجلب لنا ذلك الإحساس الغامض بأنَّ الموت سُوءُ فَهْمٍ، إنَّهُ غريزة عميقة الجذور، كتلك التي تجعل أزهاراً بعينها تستديرُ نحو الشَّمس.

432

[نحو 26 يوليو 1933]

الرِّيفُ يكمن حيث لا نكون. فَهُناك، وليس إلَّا هُنَاك، تُوجَدُ الظِّلالُ الحَقَّةُ والأشجار الحَقَّة.

الحياةُ تردُّدٌ بين علامة تعجُّبٍ وعلامة استفهام. وثمَّة، بعد الشَّكِّ، نُقطةٌ ختاميَّة.

المعجزةُ علامة على كسل الإله أو، بالأحرى، على الكسل الذي نُثبته لَهُ باختراع المعجزة.

الآلهةُ تجسيدٌ لما لا يمكن أن نكونَهُ أبداً. استنزاف الفرضيَّات...

[1934؟]

بأي وضوح سوف أملي العبارات، التي لن أكتبها أبداً والمناظر الطَّبيعيَّة التي لن أكون قادراً على وصفها إطلاقاً، على عجزي وأصفُها في تأمُّلاتي حين لا تربطني بالحياة، وأنا مُستلق في كرسيٍّ، سوى الصِّلات الأبعد. أنحتُ جُملاً كاملةً، بلا أخطاء؛ مسرحيَّات دراميَّة تحبكُ نَفْسَها في عقلي، أحسُّ في كلِّ كلمة الإيقاعَ اللَّفظيَّ والوزنيَّ للقصائد العظيمة؛ فيتبعني في الظِّلال حماسٌ عظيم، مثل عبدٍ محتجب. ولكنَّني لو تحرَّكتُ خطوة أبعدَ من الكرسيِّ الذي أجلس فيه أتعهَّدُ برعاية هذه المشاعر التي تكادُ تكتمل، فأخطو صوب المنضدة كي أدوِّنها، تهربُ الكلماتُ، وتموتُ الأحلامُ، فلا يبقى من الآصرة الحيويَّة التي تربط هذه الهمهمات الإيقاعيَّة سوى توقٍ بعيد، وأثرِ ضوء شمسٍ على جبال قصيَّةٍ، وريح تحرِّكُ أوراق الأشجار على حافَّة الصَّحراء، وعلاقةٍ لن تُكشَف البتَّة، ومسرَّاتٍ تمتَّع بها الآخرون، ومرأةٍ لم تُوجَد في الحقيقة قَطُّ، يُخبرنا حَدْسنا أنَّها سوف تنظرُ إلى الوراء.

لقد قمتُ بكلِّ مشروع يمكن تصوُّره. فثمَّة منطقٌ مُلهِمٌ يكمن وراء **الإلياذة** التي ألَّفتُها، وتمتاز إيپُودَاتها[365] بتجانُس عضويٍّ لم يتمكَّن **هوميروس** من تحقيقه قَطُّ. كَمالُ هذه الأبيات المدروس، الذي لم يُنظَم في كلماتٍ البتَّة، يجعلُ دِقَّةَ **ڤرجيل** المُحكَمة واهية، وقوَّةَ **ميلتون** ضعيفة. والإجادة الرَّمزيَّةُ لكلِّ تفصيلة ملائمة من تفاصيل كوميدياتي الهجائيَّة الأليغورية التي نظمتُها تفوقُ كلَّ مَا كتبَهُ **سويفت** على الإطلاق. فكم **ڤرلين**[366] كنتُ!

في كلِّ مرَّة أنهضُ فيها من على كُرسيِّي، حيث تمتلكُ هذه الأشياء وجوداً أبعدَ من الأحلام المحضة، أُعاني المأساةَ المزدوجة لمعرفة أنَّها ستكون بلا جدوى، ولكنَّني أعرفُ

(365) الإيپُوْدَة epode: الجزء الثَّالث من القصيدة الغنائيَّة (الأُوْد Ode) ويتكوَّن من بيتَيْن يختلفان غالباً في الوزن، والأوَّل يكون أطول من الثَّاني في العادة. (المترجم)

(366) وهُنَا ثمَّة مثال واضح آخَر على «تعدُّد» قراءة خطِّ پِسُوَّا من لدن أولئك الذي عكفوا على فكِّ شفرته. فالاسم في طبعة برادو كويلو (المقطع 368) هُوَ «ڤرلين Verlaine»؛ وفي طبعة سوبراو كونيا (المقطع 717)، وفي طبعة زينيث (المقطع 290) هُوَ «هُوراس Horácio»؛ وتجدر الإشارة إلى أنَّ زينيث، على الرَّغم من قراءته الاسم على أنَّه هوراس، فقد ذكر في حواشي طبعته إلى أنَّ الاسم -بحسب خطِّ پِسُوَّا- يحتمل القراءتَيْن معاً. ولا بُدَّ من الإشارة، أيضاً، إلى أنَّ پيسارُّو كان قد قرأ الاسم على أنَّهُ «هوراس» في طبعته الصادرة في العام 2010 (المقطع 440) إلَّا أنَّه عدل عن ذلك في طبعته الصادرة في العام 2013 (التي تعتمد عليها جول كوستا في صنعتها الإنگليزيَّة هذه) فاستبدله بـ «ڤرلين». (المترجم)

في الوقت ذاته أنَّني لم أحلم حقاً بتلك الأشياء تماماً، وأنَّ بعض أثرٍ منها قد أطالَ المُقامَ على العتبة المُجرَّدة لتفكيري فيها وفي وجودها.

كنتُ عبقرياً في الأحلام أكثر من كوني كذلك في الحياة، وهذه مأساتي. كنتُ العدَّاءَ الذي سقط قبل خطِّ النِّهاية تماماً، على الرَّغم من أنَّني كنتُ في طليعة العدَّائين طيلة السِّباق حتَّى لحظة سقوطي.

434

[1934؟]

الأشياء البسيطة، الأشياء البسيطة الحَقَّة التي لا يستطيع شيءٌ أنْ يجعلها أبسط، قد باتَتْ مُعقَّدةً لَمَّا جرَّبتُها. أشعرُ بالرُّعب، في بعض الأحيان، حين أضْطَرُّ إلى أن أقول صباح الخير إلى شخص ما. يجفُّ صوتي، كما لو أنَّ لفظَ الكلمات بصوت عالٍ كان جرأةً استثنائيَّة. أشعرُ بالحَرَج من وجودي؛ لا توجَد كلمات أُخرى لوصف ذلك.

تحليلُ مشاعرنا المتواصل يُوجِدُ طريقة جديدةً للشُّعور تبدو مصطنعة بالنِّسبة إلى أيِّ شخص لا يُحلِّلُ إلَّا بعقله بدلاً من التَّحليل بالشُّعور نَفْسه.

لقد كنتُ، طيلةَ حياتي، طائشاً يؤمنُ بالغيبيَّات وجاداً لعوباً. لم آخذ أيَّ شيء على محمل الجِدِّ بتاتاً، مهما رغبتُ في ذلك، رغبةً شديدة. لقد اتَّخذني قدَرٌ عابثٌ ملعباً لَهُ.

وكم أرغبُ في أن تكون لديَّ مشاعرُ من نسيج قطنيٍّ مُنقَّطٍ، أو حريرٍ، أو إستبرق! وكم أودُّ أن تكون لديَّ مشاعرُ يمكن وصفها بسهولةٍ على ذلك النَّحو، أن تكون لديَّ مشاعرُ يمكن وصفُها على الأقلِّ!

ينهضُ في روحي شعورٌ بالنَّدم هُوَ ندمُ الإله على كلِّ شيء، غضبٌ أخرس، بكَّاءٌ، على إدانة الأحلام في كلِّ أجساد أولئك الذين حلموا بها... وأكرهُ، دونَ كراهية، الشُّعراءَ الذين

نظموا الأشعار، وجميعَ المثاليِّين الذين حقَّقوا مُثُلَهم العُليا، وجميع أولئك الذين نالوا ما رغبوا فيه.

أطوفُ، هائماً على وجهي، عبر الشَّوارع الهادئة، أمشي حتَّى يتعبُ جسدي تعبَ روحي، حتَّى أشعر بذلك الألم المألوف الذي يُعربدُ فِـيَّ، وقد أشفق على نَفْسه، شفقةَ الأمِّ على وليدها؛ شفقةً غامضة وقد صارتْ موسيقى.

يا للنَّوم، أن أنام أخيراً! أن أجد بعض السَّكينة! أن أكون وعياً مُجرَّداً لتنفُّسي الهادئ، بلا عالَمٍ، وبلا نجوم، وبلا روح – بحرَ عاطفةٍ ميِّتاً، لا يعكسُ إلَّا غيابَ النُّجوم!

435

[1934؟]

لم أطلب من الحياة إلَّا ما طلبه ديوجينُ من الإسكندر: ألَّا تُبعَدُ الشَّمسُ عنِّي. لديَّ رغباتٌ، لكنَّني حُرمتُ سبب أن تكون لديَّ. وكان من الأفضل لو أنَّني قد وجدتُ في الحقيقة ما قد وجدتُه. الحُلم [...]

وصغتُ جُملاً مثاليَّةً وأنا في الخارج أمشي، لكنَّني نسيتُها حالَ دلفتُ إلى البيت. ولا أعرف إنْ كان الشِّعرُ الذي يعلو على الوصف لتلك الجُمَل ينتمي برمَّته إلى حقيقة أنَّها كانت مفقودةً أمْ ينتمي في جزء منه إلى حقيقة أنَّها لم تُدوَّن قَطُّ.

أتردَّدُ قبل فِعل أيِّ شيء، دونَ أن أعرف لماذا في الغالب. فكم مرَّةً –مثل الخطِّ المستقيم المناسب لطبيعتي (أتصوَّرُ هذا الخطَّ في عقلي بوصفه الخطَّ المستقيم المثاليَّ)– بحثتُ عمداً عن المسافة الأطول بين نُقطتَيْن. لم أمتلك قَطُّ موهبةَ الحياة الفاعلة. فلطالما أخطأتُ بالإيماءات التي لا يخطئُ بها أحدٌ، ولطالما جاهدتُ كي لا أنسى القيام بما وُلِدَ الآخرون للقيام به، ولطالما رغبتُ في تحقيق ما حقَّقه الآخرون مصادفةً أو كادوا، ولطالما كان بين نَفْسي والحياة ألواحٌ من زجاج معتم، لا أستطيع رؤيتها أو لمسها، فأنا لم أعش الحياة في الحقيقة وفقَ خُطَّة

بتاتاً؛ كنتُ حلم يقظةٍ ما رغبتُ في أن أكونَهُ، وقد بدأ حلمي في إرادتي، ولطالما كان مقصدي الحكاية الخياليّة الأولى لما لم أكُنْهُ قَطُّ.

لم أعرفِ إطلاقاً إنْ كانت حساسيتي أرقى من بصيرتي أو إنْ كانت بصيرتي أرقى من حساسيتي. فلطالما تأخَّرتُ كثيراً، ولا أعرف على أيِّهما قد تأخَّرتُ، ربَّما عليهما معاً، أو على إحداهما دون الأخرى على أيِّ حال، أو ربَّما كان شيءٌ ثالث هو الذي تأخَّر.

الحالمون في القرون الماضية -الاشتراكيُّون، والإيثاريُّون، والإنسانويُّون ومَن لَفَّ لفيفَهُم- يصيبونني بالغثيان حتَّى أعماق أعماقي. إنَّهم مثاليُّون بلا مُثُلٍ عليا. وإنَّهم مفكِّرون بلا أفكار. يعشقون ظاهر الحياة، بسبب حبِّهم القاتل للنُّفاية التي تطفو أيضاً على سطح الماء، والتي يعتقدون أنَّها جميلة، لأنَّ الأصداف الفارغة تطفو أيضاً على سطح الماء.

436

[1934؟]

لا ريبَ أنْ يخامرَ كلَّ من يقرأُ الجزءَ السَّابق من الكتاب انطباعٌ بأنِّي حالمٌ، لكنَّهم على خطأٍ إنْ كانوا كذلك، فلا مالَ كافياً لديَّ لأكون حالماً.

الكآبات العظيمة، والأحزان الطَّافحة بالسَّأم، لا تُوجَد إلَّا في جوٍّ من الرَّاحة والرَّفاهية الرَّزينة، ولهذا يجلسُ **إيجايُوس بُوْ**[367] في قلعة أسلافه العتيقة، غارقاً في ساعات طويلة من التَّأمُّل السَّوداويِّ، في حين تدورُ الحياة العاديَّة، خلف باب القاعة الكبيرة، ورؤساء الخَدَم ينظِّمون [أوقات] وجبات الطَّعام ويُدبِّرون الشُّؤون المنزليَّة.

يتطلَّبُ الحُلم العظيم ظروفاً اجتماعيَّة معيَّنة. أتخيَّل نَفْسي، ذات يوم وقد أسرني شجىً موسيقيٌّ مُعيَّن فيما كتبتُه، أنَّني شاتوبريان آخَر، لكنَّني سرعان ما أدركُ بحدَّةٍ أنَّني لم أكُن نبيلاً، ولا حتَّى بريتانياً[368]. وحين يُخَيَّلُ إليَّ، في مناسبة أخرى، أنَّ كلماتي تنطوي على شَبَهٍ بكلمات روسُّو، لا أستغرقُ وقتاً طويلاً كي أُدركَ أنَّني لم أمتلك ميزةَ أن أكونَ نبيلاً أو آمر قلعةٍ، علاوة على أنَّني لم أكُن سويسرياً ولا صعلوكاً جوَّابَ آفاق.

---

(367) يقصد إيجايُوس Egaeus بطل القصَّة القصيرة «بيرنيس Berenice» لإدغار آلان بُوْ. (المترجم)

(368) Breton: أحد أولئك الذين ينحدرون من منطقة بريتاني Brittany في فرنسا. ويضع بِسُوَّا بعد كلمة bretão، في الأصل، كلمة normando التي تعني نورمَنْدي، بين قوسين كبيرين، توضيحاً منه لما يقصد. (المترجم)

لكنَّ الكون موجودٌ، رغم كلِّ شيءٍ، هُنَا في خُوَا دُشْ دُوْرَادُورِش. الله يتكفَّلُ هُنَا كذلك باستمرارَ وجود أُحجية الحياة. ولهذا، على الرَّغم من بؤسها، كالمنظر الطَّبيعيِّ للعربات وصناديق التَّغليف، فإنَّ الأحلام التي أتمكَّن من انتزاعها من بين العجلات والألواح هي كلُّ ما أملكُ وما سوف أكون قادراً على امتلاكه.

لا ريبَ أنَّ شموساً حَقَّةً تغربُ في مكان آخَر. ولكنَّ المرء، حتَّى في هذي الغرفة بالطَّابق الرَّابع فوق المدينة، يستطيعُ أن يتأمَّل في هذا الأبد. أبدٌ مُشيَّدٌ فوق المستودعات، لا ريبَ البتَّة، ولكن بلا نجوم فوقَهُ... هذه الأفكار التي خطرت ببالي وأنا واقفٌ عند النَّافذة العالية ناظراً إلى نهاية المساء البطيئة، شاعراً باستياءِ البرجوازيِّ الذي لستُ إياه، وحُزنِ الشَّاعر الذي لن أستطيع أن أكونَهُ أبداً.

437

[1934؟]

ذهبتُ إلى صالون الحلاقة مثلما أفعل دائماً، شاعراً بالمتعة التي أذوقها دائماً من قدرتي على أن أدخل أماكن أعرفها دونَ أن يكدِّرني الأسى. حساسيتي تجاه الأشياء الجديدة محنةٌ دائمةٌ بالنِّسبة إليَّ؛ لا أشعر بالأمان إلَّا في الأماكن التي كنتُ فيها من قَبْلُ.

وما إنْ جلستُ في الكرسيِّ، ووضع الحلَّاق الشابُّ منشفةً كتَّانيَّةً نظيفةً باردةً حول عنقي، حتَّى عَنَّ لي أن أسأل عن زميله المُفعم بالحيويَّة، الأكبر منه سناً، الذي بدا مريضاً في الآونة الأخيرة، وكان يمارس عمله عادةً على الكرسيِّ ذات يميني. قفز السُّؤال إلى ذهني عفوياً، لأنَّ المكان ذكَّرني به، لا أكثر. وفي حِين كانت الأصابع مشغولة بوضع آخر طرف من المنشفة بين عنقي وياقة قميصي، أجاب الصَّوت من خلف المنشفة بنبرة حاسمة: «لقد مات بالأمس». ماتت فجأةً روحُ دعابتي المرحة اللَّاعقلانيَّة، مثلما غاب الحلَّاق إلى الأبد في هذه اللَّحظة عن الكرسيِّ الذي بجانبي. تجمَّدت أفكاري كلُّها، فلم أنبس ببنت شفة.

الحنين! أشعرُ به حتَّى تُجاه شخص لم يعنِ لي شيئاً، جرَّاء القلَق من فوات الزَّمن والغثيان النَّابع من سرِّ الحياة. ينتابني الحزن حين تختفي الوجوه التي أمرُّ بها يومياً في الشَّوارع؛ على الرَّغم من أنَّها لم تعن لي أيَّ شيء قطُّ سوى أنَّها رمز للحياة برمَّتها.

الكهل الكئيب ذو الجرموقَيْن المُتَسخَيْن الذي اعتدتُّ المرور به في التَّاسعة والنِّصف صباحاً، وبائع اليانصيب الأعرج الذي لم يفلح في إزعاجي، والنَّبيل العجوز البدين، بوجهه المتورِّد وسيگاره، الذي اعتاد الوقوف بباب متجر بيع التَّبع، وبائع التَّبغ شاحب الوجنتَيْن نَفْسه. ماذا حلَّ بهؤلاء النَّاس الذين، لمجرَّد أنَّني رأيتهم يوماً بعد يوم، أصبحوا جزءاً من حياتي؟ غداً، سوف أغيبُ أنا أيضاً من **خُوَا ذَا پْرَاتَا، وخُوَا دُش دُوْرَادُورِش، وخُوَا دُش فَانْكِيْرُش**[369]. غداً، أيضاً، -وهذي الرُّوح التي تُفكِّرُ وتشعرُ، الكون الذي أنا هُوَ بالنِّسبة إلى نَفْسي- نعم، غداً، أيضاً، لن أكون الذي يمشي في هذه الشَّوارع، الذي سيذكره الآخَرون بعبارة: «ما الذي حلَّ به؟» وكلُّ الذي أفعله، وكلُّ الذي أشعر به، وكلُّ ما أختبره، سيكون مجرَّد نقصان عابرٍ في الشَّوارع اليوميَّة لمدينة أو أخرى.

438

[1934؟]

الحرِّيَّةُ احتماليَّةُ العُزلة. لن تكون حُراً إلَّا حين تستطيعُ أن تعتزل البشرَ وتشعر بعدم حاجتك إلى أن تسألهم المال، أو المجتمع، أو الحُبَّ، أو المجد، أو حتَّى الفضول؛ فلا شيء من هذه الأشياء يحيا في الصَّمت والعزلة. إنْ لم تستطع العيشَ وحيداً، فقد وُلدتَ عبداً. وربَّما تكون قد امتلكتَ جميع الصِّفات المتفوِّقة للنَّفْس والرُّوح، إلَّا أنَّك إنْ كنتَ ماتزال مجرَّد عبدٍ نبيل أو قِنٍّ فَطِن، فأنت لستَ حُراً. ولكنَّ ذلك ليس مأساتك، فمأساة أن تُولَد على تلك الشَّاكلة ليستْ مأساتُك أنت وإنَّما مأساة **القدَر**. ولكن، الويل لك إنْ سمحتَ لوطأة الحياة في حدِّ ذاتها أن تستعبدك. والويلُ لك إنْ سمحتَ للفاقة أن تجبرك على معاشرة النَّاس، إنْ كنتَ قد ولدتَ حُراً وقادراً على أن تعيل نَفْسك وتحيا وجودك منفصلاً عن كلِّ ما سواهُ. فالمأساةُ مأساتُك وحدَك، ولا بُدَّ أن تكابدَها وحدَك.

صفةُ الإنسان العظمى أن يُولَد حُراً؛ إنَّها التي تجعل النَّاسك المتواضع أسمى من الملوك، وأسمى حتَّى من الآلهة، الذين يعزِزون ذواتهم بفضل قوَّتهم فحسب، لا بفضل ازدرائهم لها.

---

(369) خُوَا دُش فَانْكِيْرُش Rua dos Fanqueiros: شارع في بَايْشَا بلشبونة، كان يعرف في السابق باسم شارع الأميرة الجديد. (المترجم)

والموتُ تحرُّرٌ، فحين تموتُ لا تحتاجُ إلى أحد. فالعبد البائس يجد نَفْسه وقد تحرَّرَ عنوةً من كلِّ مسرَّاته وأحزانه، ومن الحياة المتواصلة التي تاق إلى التحرُّر منها. ويجد الملك نَفْسه وقد تحرَّرَ من السُّلطان الذي لم يرغب في التَّخلِّي عنه. والنِّسوة اللَّواتي منحنَ الحُبَّ بحرِّيةٍ يجدنَ أنْفُسهنَّ وقد تحرَّرنَ من الفتوحات [الجنسيَّة] التي شُغفنَ بها. ويجد الغزاة أنفسهم وقد تحرَّروا من الانتصارات التي كتبَتها عليهم حيواتُهم.

يسمو الموتُ بالجثمان المسكين العبثيِّ ويُكفِّنهُ بثياب مبهرجة لم يعرفها في حياته قطُّ. هُنَاك يكون الإنسانُ حُراً، على الرَّغم من أنَّه لم يسع إلى الحُريَّة، دونَ شكٍّ. هُنَاك يتحرَّرُ الإنسانُ من عبوديَّته، على الرَّغم من أنَّهُ بكى كي ينعتق من رِقِّه. وقد يكون الملكُ مثيراً للضَّحك كبشرٍ، لا ينطوي على شيء عظيم البتَّة سوى لقبه، لكنَّهُ بِحُكم ذلك اللَّقب كائنٌ أسمى. والإنسانُ الميِّت، على الرَّغم من البشاعة التي قد يبدو عليها، فإنَّهُ يظلُّ كائناً أسمى، لأنَّ الموت حرَّره.

أُغلق مصراعي النَّافذة، وقد هدَّني التَّعب، أعتزلُ العالَم فأكون حُراً لوهلة. سأعود غداً إلى كوني عبدًا؛ لكنَّني في هذه اللَّحظة، وأنا وحيدٌ، لا أحتاج إلى أحدٍ، أخافُ أن يزعجني صوتٌ أو حضورٌ ما، أمتلكُ حرِّيتي الصَّغيرة، ولحظةَ الانتشاء الرُّوحيِّ التي تخصُّني أنا وحدي.

أنسى، في الكرسيِّ الذي أجلسُ فيه الحياةَ التي تضطَّهدني. والألمُ الوحيد الذي أشعرُ به هُوَ ألمُ أنَّني شعرتُ، ذاتَ مرَّةٍ، بالألم.

كتاب القلَق:

مُلحقَان

ملحوظتان

[1929؟]

ملحوظة المؤلِّف بخصوص أيِّ طبعة مستقبليَّة [من كتاب القلَق] (ويمكن استخدامها في أيِّ مُقدِّمة أيضاً).

حين تُجمَع لاحقاً القصائدُ المختلفة التي لم تُدرَج في **كتاب القلَق** معاً؛ فلا بُدَّ أن يحمل ذلك الكتاب المنشود عنواناً يشير، بطريقة أو أخرى، إلى أنَّه يحوي بقايا حطامٍ أو أنَّه في حدِّ ذاته هُوَّةٌ أو شيء منبوذ مشابه.

ولا بُدَّ أن يُشكِّل الكتابُ، علاوة على ذلك، جزءاً من مجموعة نهائيَّة من القصائد الرَّديئة؛ المستودع غير المنشور لما هو غير قابل للنَّشر، الذي يمكن أن يظلَّ مثالاً حزيناً. أو يمكن أن يكون بالأحرى على شاكلة القصائد غير المكتملة لشاعر غنائيٍّ مات شاباً، أو رسائل كاتب عظيم، سوى أنَّ المادَّة التي يحتويها الكتاب لن تكون أقلَّ جودة فحسب، وإنَّما مختلفة، وأنَّ ذلك الاختلاف سيكون سبب نشرها، إذ لا معنى لنشر ما لا ينبغي نشره.

[1931؟]

ولا بُدَّ أن يُنظَّم الكتاب وفقَ انتخابٍ صارم، بِقَدْر المستطاع، للنُّصوص الموجودة، مع تهيئة أيِّ نصوص قديمة كي تغدو متوائمة مع سيكولوجيَّة **برناردو سوارش** مثلما تتجلَّى في هذه الأوقات. ولا بُدَّ، بمعزل عن هذه المسألة، القيام بمراجعة عامَّة للأسلوب، ولكن دون فقدان النَّبرة الشخصيَّة أو المنطق المنحرف، غير المتماسك، الذي يميِّزها.

وقد يكون ثمَّة داعٍ لتضمين فقرات طويلة، ذات عناوين باذخة، مثل «**جنازة لودڤيغ**

الثَّاني، ملك باڤاريا» أو «**سيمفونيَّة اللَّيل المضْطَرب**». وثمَّة داعٍ أيضاً لنبذ فقرة «الجنازة» مثلما هي أو تضمينها في كتاب آخَر رفقةَ الفقرات الطوِّيلة الأخرى على حدٍّ سواء.

[1929؟]

قَصصُ الفاصل المسرحيّ[xxiv]

أُدرِجُ شخصيات معيَّنة في القِصص أو أُضمِّنُها في العناوين الفرعيَّة للكتُب، ثُمَّ أُوقِّعُ ما يقولونَهُ باسمي؛ ولا أُخطِّط بتاتاً لتوقيع ما تقوله شخصيات أُخرى، ولا أُوقِّعُها إلَّا كي أقول إنَّني أنا الذي اختلقتُها. ويمكن التَّفريق بين هذيَنْ النَّوعَيْن من الشخصيات على النَّحو التَّالي: أولئك الذين يختلفون عنِّي تمَاماً، وأسلوبهم الكتابيُّ غريبٌ عليَّ، وإذا تطلَّبت الشَّخصيَّةُ فإنَّ أسلوبها يغدو على النَّقيض من أسلوبي تماماً؛ أمَّا الشخصيات التي أُصادِق على وجودها باسمي، فإنَّ أسلوب أفرادها لا يختلف عن أسلوبي إلَّا في بعض التَّفاصيل الصَّغيرة التي لا مندوحة عنها، حيث لا يمكن التَّفريق بينهم من دونها.

فَلأُقارِن بين بعض تلك الشخصيات، كي أضرب مثالاً على ذلك. **فبرناردو سوارش**، المحاسب المساعد، و**بارون تيف**[370]، هُما أنا وليسَا أنا على حدٍّ سواء، من ناحية أنَّهما يكتبان في الجوهر بالأسلوب ذاته الذي أكتب به، ويستخدمان النَّحْوَ ذاته، والطَّريقةَ ذاتها في استخدام اللُّغة: إنَّهما يكتبان بأسلوب، سواء أكان ذلك خيراً أم شراً، هُوَ أسلوبي الخاصُّ. أقارن بين هاتَيْن الشَّخصيَّتَيْن لأنَّهما مثالان للظَّاهرة ذاتها - العجز عن التَّكيُّف مع الحقيقة الواقعيَّة للحياة، وللدَّوافع والأسباب ذاتها. بَيْدَ أنَّ أسلوبَيْهما يختلفان، على الرَّغم من أنَّ برتغاليَّة **بارون تيف وبرناردو سوارش** هي ذاتها؛ ذاك أنَّ برتغاليَّة البارون أكثر ثقافة، وخالية من الصُّور المجازيَّة، و، لا أعرف كيف أصوغ ذلك، مُتكلِّفة ورسميَّة قليلاً؛ أما برتغاليَّة البرجوازيِّ **سوارش**، ففصيحةٌ، وأكثر موسيقيَّة وتصويريَّة،

---

(370) Barão de Teive: نسب إليه بِسُوَّا كتابَهُ «A educação do estóico» (= **تربيةُ الرُّواقيِّ**). وثمَّة، من بين المتخصِّصين في عوالم بِسُوَّا، مَن تعامل مع هذا الكتاب بوصفه «الطَّوْر الثَّالث» من **كتاب القلق**، مثلما فعلت البرازيليَّة تريزا ريتا لوبِس، حين أدرجته في الطَّبعة التي حرَّرتها من **كتاب القلَق**، الصَّادرة في سَوّ پاولو في العام 2017، تحت عنوان: Livro(s) do Desassossego. (المترجم)

وغير بنيويَّة. يُفكِّرُ النَّبيل بوضوح، ويكتب بوضوح، ويتحكَّم في عواطفه، إنْ لم يكُن في مشاعره؛ والمحاسبُ المساعد لا يتحكَّمُ بعواطفه ولا بمشاعره، وحين يُفكِّرُ، فإنَّ تفكيره خاضعٌ لمشاعره.

وفي حين تُوجَد، من جهة أخرى، تشابهاتٌ ملحوظة بين **برناردو سوارش** و**ألڤَر دو كامپوش**[371]، فإنَّ برتغاليَّة **ألڤَر دو كامپوش** أكثر مرونة، وصوره المجازيَّة أكثر بذخاً، وأكثر شخصيَّة، وأكثر عفويَّةً، من تلك التي لسوارش.

[1929؟]

[قَصصُ الفاصل المسرحيِّ]

ثمَّة تناقضاتٌ في الطَّريقة التي أفرِّق فيها بين هذه الشخصيات، وهي شيء يثقل كاهلي كحمل ثقيل تشتدُّ وطأته على قوى فراستي العقليَّة. كيف أُميِّز بين مقطوعة موسيقيَّة ألَّفها **برناردو سوارش** عن مقطوعة مشابهة من تأليفي...

ثمَّة أوقات أستطيع فيها القيام بذلك على الفور، بِكَمالٍ يدهشني، وليس ثمَّة ادِّعاء بشأن هذه الدَّهشة. وبما أنَّني لا أومن بأنَّنا، نحن البشر، نمتلك مثقال ذرَّة من الحُرِّيَّة، فإنَّني دَهِشٌ ممَّا يحدثُ فِـيَّ بِقَدْر دهشتي ممَّا يحدث داخل شخص آخَر - فكلانا غريبان.

ولا يستطيع إلَّا حَدْسٌ قويٌّ أن يكون بمثابة بوصلةٍ في يَبابِ الرُّوح الشَّاسع؛ ولكنَّنا لا نستطيع التَّمييز بين الحقائق الواقعيَّة لتلك الشخصيات التي نحلم بها، الواحدة من الأخرى، إلَّا عبر إحساس تصفَّى عبر بصيرتنا، ولكنَّهُ، في الوقت الذي يعتمد عليها، يختلف عنها تماماً.

[1929؟]

قَصصُ الفاصل المسرحيِّ

تنقسمُ هذه الشَّخصيَّات[372] المتباينة، أو، بالأحرى، الشَّخصيَّات المختلفة التي ابتكرتها، إلى فئتَيْن أو نوعَيْن، ستكشفان للقارئ خصائصهما المميَّزة، لو تتبعهما من كثب. ستمتلك الشَّخصيَّة، في الفئة الأولى، أفكاراً ومشاعر معيَّنة تختلف تماماً عن أفكاري ومشاعري، مثلما ستكون ثمَّة أفكار في المستوى الأدنى من الفئة ذاتها، ربَّما صِيغَتْ في شكل خطاب أو مجادلة، ليستْ أفكاري على نحو واضح، أو، إن كانت كذلك، فإنَّني لا أعرفها. «**المصرفيُّ الفوضويُّ**»[373] مثالٌ على تلك المجموعة الفرعيَّة؛ في حين ينتمي **كتاب القلَق** و**برناردو سوارش**، من جهة أخرى، إلى مستوى أعلى.

سيلاحظُ القارئ، على الرَّغم من أنَّني سأنشر **كتاب القلق**[374] (إنْ نشرته فعلاً) بوصفه مكتوباً من لدن **برناردو سوارش**، المحاسب المساعد الذي يقطن مدينة لشبونة، أنَّني لم أُدرجه في «**قَصص الفاصل المسرحيِّ**» هذه. وذاك لأنَّ **برناردو سوارش**، على الرَّغم من أنَّه يختلف عنِّي في أفكاره ومشاعره وطرائق رؤيته وفهمه، فإنَّهُ لا يختلف عنِّي في طريقة التَّعبير عن تلك الأشياء. لقد منحته شخصيَّة مختلفة، لكنَّني عبَّرتُ عنها من خلال الأسلوب الذي يأتيني عفوياً، وهذا يعني أنَّ الاختلاف الحتميَّ غير موجود إلَّا في النَّبرة التي تنبع من الطَّبيعة الخاصَّة للمشاعر التي عبَّرتُ عنها.

وليستْ الأفكار والمشاعر فحسب هي التي تُميِّزُ مؤلِّفي «**قَصص الفاصل المسرحيِّ**» عنِّي، وإنَّما تكنيك التَّأليف والأسلوب نفساهما يختلفان أيضاً. فلا تُصوَّرُ كلُّ شخصيَّة، هُنَاك، على نحو مختلف فحسب، وإنَّما تُبتكر على أن تكون شخصية مختلفة تماماً. ولهذا فإنَّ الشِّعر يسودُ في «**قَصص الفاصل المسرحيِّ**». من الصَّعب، في النَّثر، أن يكون المرءُ شخصاً آخَر.

---

(372) أفرِّق، هُنا، بين الشخصيات characters (المشار إليها في المقاطع السَّابقة) وبين الشَّخصيَّات personalities المستخدمة في هذا المقطع. (المترجم)

(373) المصرفيُّ الفوضويُّ O Banqueiro Anarquista: قصَّة نشرها بِسُوَّا في لشبونة عام 1922. (المترجم)

(374) يشير زينيث في حواشي طبعته إلى أنَّ بِسُوَّا ترك 350 نصاً نثرياً في مغلف كبير عنونه «Livro do Desassossego»، وهي تشكِّل المغلَّفات الخمسة الأولى من أرشيف بِسُوَّا المحفوظ بالمكتبة الوطنيَّة في البرتغال، بيد أنَّ ثمَّة عشرات النصوص الأخرى، التي أشَّر عليها بعبارة «L. do D.» (الأحرف الأولى من عنوان الكتاب) متناثرة عبر أوراقه الأخرى. (المترجم)

الحواشي الختامية

i ألبيرتو كايْرُو هُوَ نِدُّ بِسُوَّا الشِّعريُّ الرَّئيس، ويعدُّه النِّدان الرَّئيسان الآخران، ألفَر دو كامپوش وريكاردو خَايِش، وحتَّى بِسُوَّا نَفْسه، معلِّمهم. (جول كوستا)

ii أسَّس هذه المجلَّة الأدبيَّة في العام 1915 فرناندو بِسُوَّا وماريو ذي سا كارنيرو ولويش ذي مونتالڤور. وعلى الرَّغم من أنَّه لم يصدر من المجلَّة سوى عددَيْن، فإنَّها تمتَّعتْ بتأثير بالغ على تطوُّر الأدب البرتغاليِّ المعاصر. (جول كوستا)

ii أنطونيو نُوْبْرْ Nobre (1867–1900): شاعرٌ برتغاليٌّ لم ينشر سوى ديوان شعري وحيد في حياته، «**وحيداً** Só»، وصفه بنفسه أنَّه أكثر الكتب حزناً في البرتغال. (جول كوستا)، [إضافة: نُشر الكتاب في پاريس سنة 1892. (المترجم)].

iv يحمل هذا المقطع ملحوظة بالإنكليزية: «لَعِبُ طفولتنا ببكرات القطن... إلخ». (جول كوستا)

v كان تشِيزَرِهْ بورجا (1475/ 6—1507) نبيلاً إيطالياً، قِيَل إنَّه أحد مصادر الإلهام التي دفعت ميكاڤيلي إلى وضع كتاب «الأمير». (جول كوستا)

vi ثمَّة ملحوظة تتبع هذا العنوان: «(فَلْتُدرَج في **كتاب القلَق**)». (جول كوستا)

vii ثمَّة عبارة مكتوبة بالإنگليزية فوق هذا المقطع «فصلٌ عن الاختلاف أو شيء من هذا القبيل». (جول كوستا)، [إضافة: العبارة مرقونة على الآلة الكاتبة بين قوسَيْن، بالحبر الأحمر، وفوقها عبارة «كتاب القَلق» وتحتها خطٌّ، والطبعات البرتغالية المختلفة توردها كعنوان لهذا المقطع، كما أورده بِسُوَّا، ولا تذكرها في الحواشي. (المترجم)].

viii تتصدَّرُ هذا المقطع ملحوظةٌ بالإنگليزيَّة: «**المقالة الأولى**». ومن المحتمل أن يكون المقطعان 134 و136 بمثابة نصَّيْن تمهيديَّيْن [إلى مُقدِّمة مُحتمَلة]. فلم يُقدِم بِسُوَّا على خطِّ مُقدِّمة واحدة **للكتاب**، في نحو العام 1917، وإنَّما حاول ذلك عدَّة مرَّات. (جول كوستا)، [إضافة: النَّص في الأصل مرقون، بحبر أسود، على الآلة الكاتبة؛ والعنوان كذلك، والإشارة المختصرة (L. do D.) من لدن بِسُوَّا، وهي تدلُّ على أنَّ هذا المقطع جزء من **كتاب القلق**.(المترجم)].

ix تتصدر هذا المقطع عبارةٌ بالبرتغاليَّة: (Prefacio?). (جول كوستا)، [والعبارة تعني: «مُقدَّمة؟»، وهي مذكورة في الطبعات البرتغالية الرئيسة كافَّة كعنوان، وليس في الحواشي، كما تظهر هُنَا. (المترجم)].

x تتصدَّر هذا المقطع عبارة بالبرتغاليَّة: «(trecho inicial)»: «مقطع استهلاليٌّ». (جول كوستا)

xi Cesário Verde (1855–1886)، أحد روَّاد الشعر البرتغالي المعاصر، عمل بوظيفة كاتب معظم حياته. كان بِسُوَّا يشعر بأُلفة عميقة تجاه شعره، مشاركاً إيَّاه حُبَّ لشبونة. (جول كوستا). [ملحوظة: لفظُ اسم Verde في البرتغاليَّة الأوروبيَّة ڤِيرد، ولكنَّه يُلفظ في البرتغاليَّة البرازيلية **ڤِيخْجِي أو ڤِيهْجِي**. (المترجم)].

xii أنتيرو دِي كونتال (1842–1891)، شاعر وفيلسوف برتغاليٌّ. كتب عنه بِسُوَّا قائلاً: «لم يكُن ثمَّة أدبٌ برتغاليٌّ، بكلِّ ما في الكلمة من معنى، قبل أنتيرو دي كونتال؛ لم يكن ثمَّة تمهيد، قبل ذلك، لأدب مستقبليٍّ، أو أدب أجنبيٍّ مكتوب باللغة البرتغاليَّة». (جول كوستا)

xiii كان فيَالْيُو دِي ألميدا Fialho de Almeida (1857–1911) كاتباً وصحفياً برتغالياً تبنَّى المذهب الطَّبيعي/ الطَّبيعانيَّة، ولكنَّه مال في أواخر حياته إلى حركة الانحلال/ الانحطاط. (جول كوستا)

xiv كان أنطونيو كاردوزو بورجيش دي فِغريدُو Figueiredo (1792–1878) قسِّيساً برتغالياً كتب عدداً من الكتب للمدارس. وُجدتْ نسخة مشروحة، ومُجعَّدة صفحاتها لكثرة التَّصفُّح، من كتابه «**الخطابة**» في مكتبة بِسُوَّا الشخصيَّة. (جول كوستا)

xv Pays du Tendre (عن الفرنسيَّة Carte du Tendre) خريطة مجازيَّة تُظهِر منطقة «المشاعر الرَّقيقة tender sentiments»، رسمتها مادلين دو سكودري Scudéry (1607–1701). (جول كوستا)، [إضافة: Tendre هي أرض الحُبِّ، وقد ظهرت الخارطة لأوَّل مرة في روايتها «كلِيْلِي Clélie». (المترجم)].

xvi كان لويش ذي سوزا Sousa (نحو 1555–1632) راهباً دومينيكانياً، وكاتباً ومؤلِّف سِيَر شخصيَّة. أمَّا أنطونيو ڤيرا Vieira (1608–1697)، فقد كان قسِّيساً يسوعيّاً، عمل دبلوماسيّاً في أوروبّا ومبعوثاً تبشيرياً في البرازيل حيث مات. كان خطيباً مُفوَّها وأحد كتَّاب النثر الباروكيِّ البارزين في البرتغال. (جول كوستا)

xvii كتبَ فرانسيشكو جوزيه فريير Freire (1719–1773) باسمه المستعار كانديذو لوشيتانو، وكان أحد مؤسِّسي الجماعة الأدبيَّة التي عرفت باسم «الأركاديُّون Arcadians». (جول كوستا)

xvii بول بورجيه (1852–1935) روائيٌّ فرنسيٌّ وناقد. فرانسوا-رينيه دو شاتوبريان (1768–1848) كاتب وسياسيٌّ ومؤرِّخ فرنسيٌّ، من أشهر أعماله روايته القصيرة «رينيه» وسيرته الشخصيَّة «ذكريات من وراء القبر». هنري-فريدريك أَمْيِلّ (1821–1881) كاتب يوميَّات وناقد سويسريٌّ، نشرت يوميَّاته «شذرات من يوميَّات حميمية» بين 1883 و1887. وكان ألفريد دي ڤيني (1797–1863)، الشَّاعر والرِّوائيُّ الرُّومانسيُّ الفرنسيُّ، مؤلِّف أوبرا «تشاترتون» (1835). كان العالم، بالنِّسبة له، مكاناً للمعاناة، والحياة سيرورة متواصلة من نكران الذَّات، والإله (إن كان موجوداً) فهو إله قاسٍ من **العهد القديم**. أما إتيان بيڤير دو سينانكور (1770–1846)، فكاتب مقالات وفيلسوف فرنسيٌّ، يُعرَف بروايته المؤثِّرة «أوبرمان». (جول كوستا)

xix كان «الدُّوْن سِبَشْتِياوْ Dom Sebastião» ملك البرتغال في الفترة التي امتدَّت من 1557 حتَّى 1578. اختفى في معركة «القصر الكبير Alcácer Quibir» الكارثيَّة، فافتُرض أنَّه قُتِل في أثناء القتال. يشير إليه النَّاس في الغالب باسم «O Desejado» (المنشود/ المُشتهَى The Desired One) معتقدين أنَّه، لو عاد، لحال دون انحطاط البرتغال. (جول كوستا)، [إضافة: سِبَشْتِيَاوْ هو المقابل البرتغاليُّ لاسم سبستيان. (المترجم)].

xx كان كاميليو پِسَّانْيَا Pessanha (1871–1926) شاعراً برتغالياً رمزياً. (جول كوستا)

xxi كان فرانشيسكو سانشيز Sanches (1551–1623) فيلسوفاً وإنسانوياً برتغالياً سابقاً على ديكارت. (جول كوستا).

xxii يظهر على ظهر القصاصة [التي كتب عليها پِسُوًّا هذه الشَّذرة] اسمُ «جيغر Jaeger»، إشارة إلى هاني لاريسا جيغر، عشيقة أليستر كراولي Crowley. فهل من الممكن أن يكون كراولي هو «الرَّجل العظيم»؟ (جول كوستا)

xxiii پيتَر شلِيْمِيل Peter Schlemihl: بطل الرِّواية التي تحمل الاسم ذاتَهُ التي ألَّفها أدلبيرت فون تشاميزو (1781–1838). (جول كوستا)

xxiv كان هذا العنوان هو العنوان العموميُّ الذي منحه پسُوًّا لأعمال أنداده الكاملة، التي كان يُخطِّط لنشرها في عدَّة مجلَّدات مختلفة. ولكنَّ العنوان، في النِّهاية، لم يُطلَق إلَّا على خمس قصائد نُشرت باسمه الصَّريح في العام 1917. (جول كوستا)، [إضافة: العنوان الأصلي بحسب پسُوًّا هُو: «Prefacio as Ficções do Interludio» (= مُقدِّمةٌ إلى قَصص الفاصل المسرحيِّ). أُنظر الحاشية 330، لمزيد من التَّفصيل. (المترجم)].

كتاب القلق

يُعدُّ هذا الكتاب تحفة فرناندو بِسُوَّا النثريَّة، وأحد أعظم الأعمال الأدبيَّة التي ظهرت في القرن العشرين. وليستْ هذه المقولة من باب التهكُّم، حين نعرف أنَّ بِسُوَّا لم يُكمِل كتاب القلق قطُّ. فلقد كان يعتقد، وهو يكدِّس هذه الشَّذرات بعضها فوق بعض في صندوقَيْن خشبيَّيْن كبيرين ظلَّا طيَّ النِّسيان سبعة وأربعين عاماً، «أنَّ إكماله سيكون شكلاً من أشكال الجُبن، أو العجز، أو كمسيرة مهزوم». غير أنَّ هذا الكتاب -الذي بذل محرِّروه المتعاقبون كلَّ ما في وسعهم لجمعه وإكماله- لا مندوحة عنه لِمَن يرغب في البَدْء بقراءة أعمال بِسُوَّا.

بدأ كتاب القلَق بوصفه نوعاً من اليوميَّات الرمزيَّة، المتأثِّرة باليوميَّات والاعترافات التقليديَّة التي ظهرت في القرن التَّاسع عشر، بيد أنه انتهى بوصفه يوميَّاتِ شخصين مُتخيَّلين: ڤسنته غيدش، في البَدْء، ومِن ثَمَّ برناردو سوارش. وما يُميِّز هذه الطبعة، عن مختلف الطبعات الأخرى التي سبقتها، أنَّها تقترح قراءة الكتاب على الشَّاكلة التي ظهر عليها إلى الوجود، وليس بخلط نصوص الطَّوْر الأوَّل مع تلك التي تنتمي إلى الطَّوْر الثَّاني.

السعر 70 درهماً







